

مجموعه أبو زهرة

المعجزة الكبرى

# القرآن العظيم

نزوله . كتابته . جمعه . إيجازه  
جدله . علومه . تفسيره . حكمه لغناؤه

الناشد

دار الفكر العربي



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الافتتاحية :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، فيما لينذر بأساً شديداً من إدينه ، ويبيشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ماكتئين فيه أبداً ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ، ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذباً (١) » .

والصلاة والسلام على محمد الذى أرسل للعالمين بشيراً ونذيراً ، وأنزل عليه الكتاب المبين حجة باقية شامخة إلى يوم الدين . ورضى الله عن صحابته الأكرمين ، الذين بلغوا من بعده شريعة القرآن ، ومعه العدل والقسطاس المستقيم .

١ - أما بعد ، فقد اتجهت النفس متسامية إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنعرف سيرته الطاهرة العطرة لأقتبس من نور هديه ، وأنتسم نسيب عرفة ، ولأشاهد ارهاصات النبوة ، بل الاعجاز فى حياته الأولى كما أيده الله تعالى بالمعجزات فى حياته الثانية بعد أن بعث رحمة للعالمين ، وقد تابعت حياته عليه السلام الأولى ، ثم تسامينا إلى متابعة حياته الثانية بعد أن نادى فى الجزيرة العربية بصوته القوى العميق يدعو إلى التوحيد فى وسط الوثنية ، وهو يصبر ويصابر ، ويجاهد ويناضل ، ويلقى الأذى ، والمؤمنون الصادقون الذين آمنوا معه يعجبون ، ويحسون مطمئنة بالايامن لا ينطقون بالكفر ، ولو مزق الأذى أجسامهم ، وطواغيت السرت ينتمعون بالايذاء ، بينما أهل الايمان يرضون بالعذاب عن الكفران ، وقد أخذ النبي من بعد ذلك يعرض نفسه على القبائل ، تمهيدا لبناء دولة الاسلام . فى غير مكة ، وأخذ النور يسرى فى ظلمات الجاهلية ، منبثقا من مكة ، وان لم يستضىء أهلها بنوره لعمى البصائر « وانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

والمعجزة الخالدة التي يتحدى بها قريشاً وسائر العرب هي « القرآن الكريم » ،  
ورأيانا من مساوغة الحوادث أن نتكلم في هذه المعجزة الكبرى ، على أن يكون كلامنا  
فيها تبعياً وليس أصلياً ، وبالعرض ، لا بالذات •

٢ — ولكن ما أن قاربنا نوره ، حتى بهرنا ضياؤه ، واستغرق نفوسنا سناؤه ،  
وانتقلت نفوسنا الى الاتجاه اليه قاصدين ذاته أصلاً ، لا تبعاً للسيرة ، ولو كانت  
سيرة من نزل عليه القرآن ، وخاطب في ظله الأجيال ، سيدنا الهادي رسول الله  
رب العالمين •

وقد حاولنا أن نملاً نفوسنا من ينابيع الهداية فيه ، وأن نشفي أمراض قلوبنا  
بما فيه من دواء ، وأن نكتشف العممة بما فيه من حكم وعبر •  
لذلك صار القرآن وعلم القرآن ، وكل ما يتعلق به هدفاً لنا مقصوداً ، وأملاً  
منسوداً لا نبغى سواه ، ولا نطلب غيره •

فكان لزاماً علينا أن نخص كتاب الله ببحث ودراسة ، وأن نخرج من ذلك  
البحث كتاباً نرجو أن يكون قيماً في ذاته ، وأن كان لا يعلو الى حيث يكون مناسباً  
لموضوعه ، فموضوعه اعلى من أن تتأهده هممتنا ، وأن تتسامى اليه عزيمنتنا ، لانه  
كتاب الله تعالى ، وانى لضعيف مثلى أن يصل الى وصفه أو التعريف به ، انه فوق  
منال أعلى القوى ادراكاً ، وأعظم النفوس اشراقاً •

( أ ) وقد اتجهت ابتداء الى بيان نزول القرآن منجماً ، وحكمته مستمداً هذه  
الحكمة من نص القرآن ، وما أحاط بالتنزيل ووجوب حفظه في الصدور ، ثم بينت  
أنه كتب في حياة الرسول ، وأن النبي عليه السلام كان يملئ الآية أو الآيات التي  
تنزل عليه على كتاب الوحي ، حتى اذا تم نزوله ، كانت كتابته قد تمت ، وقراءته  
بهذا الترتيب الذي نراه في الآيات والسور ، قد كملت • وقد تكلمت من بعد ذلك  
في جمع المکتوب في عهد الصديقين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ، ثم في عهد  
ذي النورين عثمان رضي الله تعالى عنه •

( ب ) وقد اتجهت الى الحق في وسط ما أثاره بعض العلماء من خلافات حول



أحرف القرآن الكريم ، وقراءاته ونزوله ، وقد أسرف بعض العلماء على أنفسهم وعلى الحق ، فأثاروا أقبوالاً باطلة ما كان من المعقول أثارتها ، حتى أن بعض المغرمين بالجمع ، ونقل الخلاف قالوا أموراً تخالف نص القرآن الكريم ، فيما ذكر من نزوله ، وتهافتت الأقوال ، حتى وجدنا الذين لا يرجون للإسلام وقارا ينعلقون بأقوال ذكرت لهؤلاء ، كقول بعضهم أن هناك رأياً يقول أن القرآن نزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام بالمعنى واللفظ للنبي ، ونسوا قوله تعالى معلماً للنبي عليه السلام القراءة والنطق بها : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه (١) » ، فإن ذلك صريح في أن القرآن نزل على النبي عليه السلام باللفظ والمعنى والقراءة ، وان ذلك عليه اجماع المسلمين ، والعلم به علم ضروري ومن يخالفه يخرج من اطار الاسلام . وقد صرح القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذي رتل القرآن ، فقال تعالى « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك انثبت به مؤادك ورتلناه ترتيلاً (٢) » .

( هـ ) ونقد تكلمنا من بعد ذلك في اعجاز القرآن ، وبيننا وجوه الاعجاز ، ودفننا القول بالصرفة دفعا ، ثم تكلمنا في علم الكتاب ، وجدل القرآن ، وتفسير القرآن ، ومناهج التفسير ، وبيننا التفسير بالأثر ، ومقامه من التفسير بالرأى ، وأن الرأى يجب ألا يناقض المأثور ، وأن التفسير باللغة والأثر مفتاح التفسير بالرأى .

( د ) وتكلمنا في الغناء بالقرآن وتحريمه ، والتعنى الجائر المأثور ، وابطال ما سواه ، وسرنا في طريق الحق الذي لا عوج فيه ، ولا أمت .

٣ - وانا نحمد الله تعالى على ما اخترنا به أثناء كتابة ما كتبناه لقد اخترنا الله تعالى في أول كتابة ما كتبنا عن القرآن فانتطعنا عن الاتصال بالصحف السيارة . نخطب المسلمين من فوق منبرها ، وقطعنا عن المجالات العلمية لوجه الفكر الاسلامي من طريقها ، ومن كل طرق الاعلام فلا نصل اليها ، وكان الهم الأكبر أن انقطعتنا عن دروسنا ، وعن المحاضرات العامة .

ولكن القرآن آتسنا في وحدتنا ، وأزال غربتنا ، فكان العزاء النفسى والجلء الروحى ، واختبرنا الله تعالى بالضر كما اختبر نبيه أيوب اذ قال « انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » (١) وانه وان صابه المرض فانه يختلف المقام فهذا نبى يوحى ايه ، ونحن من الأتباع ، وترجو أن نكون من الأبرار فى اتباع النبيين ، لزمن المرض المقعد نحو شهرين ، فكان ألم الابعاد عن القرآن أكبر من ألم المرض الممض ، ولقد من الله تعالى بالشفاء ، فخرجنا من الداء العقام ، وما منعنا وعناء المرض فعدنا الى القرآن ، نقبس من نوره ، ونعبق من عرفه ، فهو أنس المستوحش ، وسير المستغرب ، فآتسنا بعد طول الغياب . ومنحنا الله تعالى به العافية ، فوفقتنا لأن نقتطع كل ما أردنا عرضه فى مدة المرض ، وكأنا فى مجموع ما باينا فى طول المدة أصحاء فى أداننا ، لأنه سلمت نفوسنا من السقام ، بفضل القرآن .

اينانا الله تعالى من بعد بهم واصب نال أصاب بحية حياتى كسر أشعدها وأقعدنى بالغم الشديد والكرب البعيد الأثر ، العميق فى النفس .

ولكن أنس القرآن خفف همى ، وكشف غمى ، لأنه ملاًها ايماننا بقضاء الله وقدره ، ووضع فى نفوسنا الصبر الجميل ، من غير أنين ولا ضجر ، ولكن برضا لما أراد ، وسو اللطيف الخبير ، وهو الشاق فى المرض والجابر فى الكسر ، والمعين فى الشدة ، ولا رجاء فى غيره .

هذه أمور جرت لنا ، ونحن نكتب فى المعجزة الكبرى ، فما عوقت ، وما منعت ، وما أيست .

اللهم احفظنا بالقرآن ، وآتسنا بنوره ، ووفقتنا للقيام بحقه آحاداً وجماعات ، وانك وحدك القائم على كل شىء ، اللهم قنا شر نفوسنا ، واحفظ الأمة ، من فساد يعم ، وشر يطم ، اللهم انك عفو قدير فاعف عنا ، ولا تؤاخذنا بما تكسب أيدينا ، وارفع عنا المقت الذى حل بنا ، انك عوفنا ، وأنت نعم المعين .

أول رمضان سنة ١٣٩٠ هـ

٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٠ م

محمد أبو زهرة

# بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المعجزة الكبرى

تَهْيِيد :

١ - يسير الكون على سنن قد سنت . ونظم قد أحكمت ، وارتباط بين الأسباب والمسببات العادية لا يتخلف ، وان تخلفت المسببات عن أسبابها ووجدت الأمور منفكة عن علتها ، كالولد يولد من غير أب ، والحركة تجيء من جامد لا يتحرك كعصا ، ونار تنكفى وقد أوقدت ، اذا كان ذلك الانقطاع بين الأسباب العادية ومسبباتها . حكم العقل بأن الذى فعل ذلك فوق الأسباب العادية ومسبباتها ، ولو ساير العقل منطقته الى أقصى مداه ( وليس بعيدا فى حكم المنطق العقلى المستقيم الذى يصل الى المدى من أقربه ) ، فانه لا بد واصل الى أن الذى خرق العادات وخالف أسبابها ومسبباتها ، لا بد أن يكون خالقها وموجدها . واذا كان التصور العقلى لا يصل الى هذه الغاية ، فانه لا بد واصل الى أن خرق هذه العادات لا بد أن يكون لغاية ، وانه اذا وجدت هذه الغاية وبيئت مقاصدها ، وعلم أن ذلك الخرق لهذه الغاية تبين معه صدق ما يدعى ، وانه يعلم من وراء ذلك الخالق الحكيم ، المسيطر على كل شئ الذى يفعل ما يريد ، ولا يقيدده نظام خلقه ، ولا عادات أوجدتها .

لذلك كان الأمر الخارق للعادة حجة الصدق لمن يدعى أنه يتكلم عن الخالق الحكيم الفعال لما يريد ، لأنه لا يغير العادات سواه ، وان الصادق يعلن دعواه ، ويقيم ذلك برهانا عليها ، ويتحدى الناس أن يفعلوا مثلها ، ويسمى فى هذه الحال انه معجزة .

ولذلك عرفوها بأنها الأمر الخارق للعادة الذى يدعى به من جرى على يديه انه نبي من عند الله تعالى ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله ان كانوا صادقين . وان المعجزة المادية تتحدى بنفسها مع ادعاء الرسالة ، فان النار لا تنطفىء من تلقاء نفسها، اذ يلقى فيها ابراهيم عليه السلام فتكون بردا وسلاما عليه ، فلا يحترق، وكالعصا الذى تتحرك وتتلوى كأنها شعبان مبين وليست بسحرا،

كما أدرك الساحرون ، وكانوا أول المؤمنين ، وكابراء عيسى للأكمه والأبرص باذن الله ، وكأحيائه الموتى باذن الله ، فما كان له أن يطلب منهم أن يأتوا بمثلها ، والقصور بين، والعجز واضح ، ومع ذلك فالتحدى قائم ، والعجز ثابت ، والحجة قائمة ، وكان عليهم أن يؤمنوا بالحق اذ جاءهم .

وهناك بجوار المعجزة المادية معجزة هي شىء قائم بذاته ثابت ، ولكن الاعجاز فيه أمر لا يدرك بالحس ولكن يدرك بالدراسة والفحص ، وقد يدعى بعض من لا يسبر غوره ، ويعرف أمره ، أنه يستطيع أن يأتي بمثله وما هو بمستطيع ، وأنه في قدرته وليس بقادر ، وهو من غرور النفس أو ادعاء القدرة ، أو اللجاجة في الأفكار ، والمباهنة المناهضة للحقائق .

وان ذلك يكون في المعجزة التي تكون من نوع الكلام ، وهي معجزة القرآن الكريم فقد كان الغرور يوهم بعض المخاطبين به أن عندهم القدرة على الاتيان، بمثله ، فكان لابد من كشف هذا الغرور، وازالة تلك الغشبية الباطلة، ليتبين وضح الحق ، ولذلك طالبهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله ان كانوا صادقين في مثل قوله تعالى : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين(١) » . وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وقرر سبحانه أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله ، فقال تعالى قل انن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٢) .

٢ - وهنا يسأل سائل : لماذا كانت معجزة ابراهيم نارا موقدة صارت برداً وسلاماً، ومعجزة موسى عليه السلام كانت عصا صارت حية تسعى، وغيرها أيده الله به الى تسع آيات كلها كانت مادية حسية ، وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام ابراء الأكمه والأبرص وأحياء الموتى باذن الله ، وانزال مائدة من السماء ، بل كانه كانت ولادته ذاتها معجزة حسية اذ ولد من غير أب ، وتكلم في المهد صبياً ، اذ قال : « انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما

كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتي ولم يجعاني جباراً  
شقيماً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » (١) •  
لماذا كانت معجزات الأنبياء السابقة حسية على ذلك النحو ، ومعجزة  
محمد صلى الله عليه وسلم معنوية • فقد كانت بيانا يتلى ، وذكرها حكيماً ، يحفظ فيه  
بيان الشرائع المحكمة الخالدة •

قبل أن نخوض في الإجابة عن السؤال الوارد في موضعه ، نقرر أن كون  
معجزة مادية حسية تبهر الأعين بادىء الرأي لا يدل على علو المنزلة ، أو عكسها ،  
ونكتها حكمة الله تعالى العليم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، والله تعالى فضل  
بعض الرسل على بعض ، فممنهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات ،  
ولكن ليست الرفعة بكون الآيات مادية حسية ، بل بأمور قدرها الحكيم العليم  
الذى له وحده حق نوع التفضيل والرفعة •

ونعود بعد ذلك الى الإجابة عن السؤال الوارد ، فنقول : ان العلماء قالوا  
ان كل معجزة مناسبة للعصر الذى أرسل فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،  
اذ تكون هادية ومرشدة ، وخرقتها للعادات الجارية يكون أوضح ، ومناسبتها  
لرسالة النبى المبعوث يكون دليلاً على كماله الرسالة وعموم شمولها لكل الأزمنة •  
وقد نخالفهم في بعض ما ذكروا أو نوافقهم ، فنرى أن ابراهيم جاء في قوم  
كانوا على مقربة من عبدة النار ، فكان في أطفاء الله تعالى للنار من غير سبب ظاهر  
بيان لعجز النار التى تعبد •

ونوافقهم في أن معجزات موسى عليه السلام كانت مناسبة لأهل مصر لأن  
السحر والكهانة كانا فيهم ، وقد كان للسحرة مكانة عندهم ، وبقية المعجزات  
كانت متعلقة بالزرع وآفاته ، وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور • كما قال  
تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات  
مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا :  
يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننك ، ولنرسلن معك

بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم يفتخرون (١) » •  
وهكذا كانت تسع آيات حسنية مناسبة لأهل مصر ، وبنى اسرائيل ، فكانوا  
يقولون انه سحر • واقرأ قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات  
فانسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم ، فقال فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال  
لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض ، بصائر وانى لأظنك  
يا فرعون مثبورا » (٢) •

٣ - هذه معجزات ابراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام ، وهى مناسبة  
لرمنهما ، وكذلك معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت مناسبة لعصره ، لا لأن  
عصره شاع فيه علم الطب كما يقول بعض علماء الكلام ، لأن علم الطب لم يكن  
رائجا بين بنى اسرائيل ، فلم يكن بينهم علم أبقراط ، كما قرر رينان فى كتابه  
« حياة يسوع » بل ان معجزاته كانت من ذلك النوع لسبب آخر يجب أن نتلمسه  
من غضون التاريخ ، ومن حال بنى اسرائيل ، ذلك أن العصر كان عصرا ماديا يؤمن  
بالمادة ولا يؤمن بالغيب ، بل كان من اليهود من لا يؤمن باليوم الآخر ، وانك  
لترى أن التوراة التى بأيدينا ، وهى ميراثهم من التوراة التى حرفت ، تقرر  
أن نفس الانسان هى دمه •

وكان بجوار هذه الروح المادية التى سادت بنى اسرائيل استجابة لما هو  
سائد فى عصرهم الرومانى الذى كان يؤمن بالمادة ، كان بجوار هذا ايمان  
بالأسباب العادية والمسببات ، بحيث يعتقدون أنه لا يمكن أن ينفك السبب عن  
مسببه ، واللازم عن ملزومه ، فلا توجد نتائج من غير سبب عادى ، فلا واد من  
غير والد ، ولا حياة تكون بعد موت من يموت ، فلا يرتد حيا ، وقد عجزت الأسباب  
عن أن يرتد حيا من يموت ، وعجزت الأسباب عن أن يرتد بصيرا من يولد أعمى •  
لقد سادت الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التى تقرر لزوم الأسباب  
العادية ، حتى لقد فرضوا أن الأشياء نشأت عن الخالق لها بقانون السببية ،  
فقالوا ان الكون نشأ عن المنشئ الأول نشوء المسبب عن سببه بلا ارادة مختارة

منشئة ، لقد قرروا أن قانون الأسباب هو الذى يحكم كل شئ •

لذلك كانت معجزات عيسى عليه السلام متضمنة الرد والتنبية في أمرين :  
أولهما بيان سلطان الروح ، فقد ظهرت الروح المسيطرة موجهة مرشدة في أنه كان  
ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، وفي أنه عليه السلام أحيا الموتى  
باذن الله ، وأخرجهم من قبورهم باذن الله ، وأنزل عليهم مائدة من السماء  
باذن الله تعالى •

وثانيهما أنه كانت معجزاته عليه السلام هادمة لارتباط الأسباب العادية  
بمسيباتها ، لقد ولد من غير أب ، والأسباب العادية تقرر أنه لا مولود من غير  
والد ، وتكلم في المهد صبيا ، وذلك غير المقرر في الأسباب والمسببات ، وأخبر عن  
بعض المغيب عنه ، وذلك غير الأسباب العادية التى توجب المعاينة في صدق الأخبار ،  
وأحيا الموتى باذن الله ، وذلك ما لا يتحقق في الأسباب العادية •

وهكذا نجد معجزات عيسى عليه السلام ورسالته كانت ايقاظا شديدا لعصره ،  
وتنبئها لكان الروح وسلطانها ، وبيانا لمقدرة الله تعالى ، وأنه الفعال لما يريد ،  
فكانت رسالته ومعجزاته مناسبة لعصره •

### معجزة القرآن وعيسى

وكل معجزات الأنبياء : ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، سواء أكانت  
مادية في كونها ، أم كانت متضمنة معانى روحية ، كانت من النوع الذى يهس  
بالرؤية • ويكون من بعدها التأمل ، وليس من النوع الذى يكون بالتأمل ، ولا يدرك  
الا بالتأمل ، وان كان قائما ثابتا في الوجود من غير ريب ، وكانت حوادث تقع  
ولا تبقى ، ولا يبقى منها الا الاخبار بها ، فلا يعرفها على اليقين الا من عاينها •

٤ - ولكن معجزة محمد عليه الصلاة والسلام كانت من نوع آخر لم تكن  
حادثة تقع وتزول من غير بقاء لها الا بالخبر ، بل كانت قائمة تخاطب الاجيال ،  
يراها ويفرؤها الناس في كل عصر ، ونقول انها مناسبة لرسالة النبي محمد  
صلى الله عليه وسلم ، لعمومها في الاجيال ، ولما كانت بين الرسل ، ومقامه  
في هذا الوجود الانساني الى يوم القيامة •

ان معجزات الأنبياء السابقين لا يعلم وقوعها على وجه اليقين الا من القرآن ، فهو الذى سجل معجزات نوح و ابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ولولا أنه سجلها ما علمها الناس . واذا كانت بعض الكتب القائمة اليوم ذكرت بعضها ، فقد ذكرته مشوبا بأمور غير صادقة ، كاخبارهم بأن لوطا كان مخمورا فوقع على ابنتيه ، وما يكتب فيه مثل هذا عن بعض النبيين لا يمكن أن يكون مقبول الخبر عن سائرهم ومعجزاتهم .

ونقول : ان معجزة محمد عليه الصلاة والسلام كانت القرآن ، لقد أجرى الله تعالى على يديه خوارق عادات أخرى مثل اخبار عن بعض ما يغيب عن حسه ، ومثل حنين الجذع اليه ، ومثل بكاء الناقة عنده ، ومثل الاسراء والمعراج ، ولكن لم يتحد الا بالقرآن الكريم ، ولم ير المشركون صرحا شامخا يتحداهم به سوى القرآن الكريم .

ولما اذا كانت معجزة محمد عليه الصلاة والسلام القرآن ، وما كان يرجو الاتباع الا به . ولقد روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما من نبي الا أوتى ما مثله آمن به البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحى به الى ، وانى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . ومن هذا يتبين جواب ذلك السؤال ، وهذا لأن رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خالدة ، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبيين ، ولا نبي بعده ، فيجب أن تكون معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التى لا يحدها زمان فى المستقبل ، بل تبقى الى يوم القيامة ولا تكون معجزته واقعة تنقضى ، وتنتهى بانتهاء الزمن الذى وجده فيه ، بل تبقى الحجة ما بقيت الشريعة ، وذلك محقق فى القرآن ، فهو حجة قائمة على العرب والعجم الى يوم الدين ، وهو معجزة لكم الخلائق ، وذلك ما نتصدى لبعضه ، والله هو المعين .



# الباب الأول

## المعجزة الخالدة

هـ - تلك المعجزة الخالدة هي الفران الذي يتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله ، ولو اجتمعت الجن والانس على ان ياتوا بمثله لا ياتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا كما ذكر الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو حجة الله على خلقه ، وحجة النبي في رسالته ، وسجل التريعة المحكم في بيانه ، وهو المرجع عند الاختلاف والحكم العدل عند الأفتراق ، وهو الطريق المستقيم المرشد عند الأعوجاج ، من سلكه وصل ، ومن لجا إليه اهتدى .

روى الترمذى بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرمه وجهه في الجنة ، أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ستكون فتن كتقطع الليل المظلم ، قلت : يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبا من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب مع الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا يملأ الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقض عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا : « انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشدا » من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم ، خذها اليك يا أعور » .

وقد رواه الحارث الهمداني برواية الترمذى ، وقد حسن رواية الحارث كثيرون من المحدثين ، منهم الفقيه المحدث ابن عبد البر ، وان الذين اتهموا حارثا فيهم نزعة أموية ، ومنهم الشعبي . وقد قلل فيه ابن عبد البر : « أظن الشعبي عوقب لقول في الحارث الهمداني » « حدثني الحارث وكان أحد الكذابين » .

وأنة في معنى هذا الحديث ما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه ، اذ جاء أنه فيما روى عنه « ان هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا

من مآدبته ما استطعتم ، أن هذا الفران هو جبل الله والنور المبين ، والشفاء  
النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ  
فيستعب ، ولا تنقض عجائبه ، فاتلوه فان الله يأجركم على تلاوته بكل حرف  
عشر حسنات » •

وان هذه الأخبار ومثلها كثير تدل على منزلة القرآن في الاسلام ، وأنه  
العصمة من الزيغ ، وأنه المرجع المتبع ، وأنه يشتمل على شرائع الاسلام كلها ،  
وأنه بذلك هو الحكم بين الناس الذي لا يضل حكمه ، وأن من تركه من جبار  
قصم الله تعالى ظهره ، وأنه لا تتشعب الآراء في حقيقته اذا استقامت الأفهام ،  
ولم تضل المدارك •

والعلماء يجدون فيه المعين الذي لا يئضب ، والثروة الاسلامية التي لا تنفد ،  
فيه حكم الأمور كلها ، ما وقع وما لم يقع ، وأن كل ما فيه حق ، وأنه مصلحة  
الدنيا والآخرة ، ما من خير الا له في القرآن أصل معتمد ، ونص يمكن الحمل  
عليه ، فما ترك الله الانسان سدى • وقد قال تعالى وقوله الحق : « ما فرطنا  
في الكتاب من شيء » • وفيه عبر الماضين وأخبار كل النبيين ، فهو كتاب الله  
الكامل ، فيه معاني كل الكتب المنزلة على الرسل ، وفيه أخبار أولئك الرسل  
مع أفوامهم ، وفيه المثالات المرشدة ، والعظات الموجهة ، وفيه أعلى الآداب  
الانسانية وأقوم السلوك الكامل للخلق أجمعين ، وفيه تعليم الانسان الاتجاه  
الى الكون وتعرف ما فيه ، والأخذ بالعلم من قوادهم وخوافيه ، وفيه الدعوة  
الى العلم بكل ضروبه : علم الانسان ، وعلم النفس ، وعلم الكون ، والى العلم  
بالنجوم في مسالكها ، والسموات في أفلاكها ، والأرض في طبقاتها ، وفيه الدعوة  
الى العلم بما لم يعلم ، وطلب في كل مدارته •

خاطب الله تعالى به أوليائه فعرفوه ، وأصحاب العقول المستقيمة فأدركوه ،  
وكان حقاً كما قال تعالى : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض  
أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً » ذلك هو كتاب الله تعالى بما حمل  
من معان وتكليف ، وما كساء الله تعالى به من روعة وتشريف ، وهو كما وصفه الله  
تعالى بقوله : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود  
الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » •

## نزول القرآن

٦ - من وقت أن من الله تعالى على الانسانية بالبعث المحمدي ابتداء نزول القرآن ، فأول آية نزلت كانت الخطاب من الله تعالى بالتكليف الذي كلفه تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بحمل الرسالة الى خلقه ، فقد نزلت أول آية ، وهي « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم (١) » . فكان هذا ايذاناً بأن دين العلم قد وجب تبليغه ، وأن كتاب العلم قد ثبت تنزيهه ، وأن اعلاء شأن الفكر قد جاء به خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وفيه ايماء الى أن الاسلام والعلم يجتمعان ، ولا يتناقضان أبداً .

توالى نزول القرآن منجماً في مدة الرسالة المحمدية التي استمرت ثلاثاً وعشرين سنة يدعوا فيها بالحق ، والى صراط مستقيم ، ينير السبيل ، ويهدي للتي هي أقوم .

فكانت الآيات القرآنية تنزل وقتاً بعد آخر ، وكان التحدي بما نزل وان لم يكن مانزل كل القرآن ، لأن كل جزء منه ينطبق عليه اسم الكتاب ، بل القرآن ، إذ أن التحدي يقع به ، والمعجزة تتحقق فيه ، فقد تحدى أهل مكة أن يأتوا بمثله ، ولم يكن قد نزل كله ، فقد قال تعالى في سورة يونس ، وهي مكية : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فتد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعقلون ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون (٢) » وجاء التحدي في هذه السورة أيضاً فقال تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا

من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين (١) » • وجاء في سورة هود ،  
وهي مكية : « أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سورة مثله مفتريات ، وادعوا  
من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (٢) •

ومن هذا كله يتبين أن بعض القرآن قرآن يتحدى فيه ، فهو الكتاب  
الكامل في كله ، والكامل في جزئه ، وهو معجز في أجزائه ، كما هو معجز في ذاته  
وان شئت فقل انه معجزات متضافرة ، واذا كان لموسى تسع آيات بينات  
فلمحمد مئات من المعجزات البينات •

### حكمة نزوله منجماً

٧ — وقد يسأل سائل لماذا نزل القرآن منجماً ، ولم ينزل دعه واحدة ،  
كما نزلت الألواح العشر على موسى عليه السلام ، وكما نزل الزبور على داوود؟  
وان مثل هذا السؤال جاء على ألسنة المشركين معترضين ، متخذين منه سبيلاً  
للجاجتهم ، وقد نقل القرآن الكريم عنهم ذلك ورده ، فقد قال تعالى : « وقال  
الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه  
ترجيلاً » (٣) •

ونرى أن النص الكريم قد نقل اعتراض المشركين ، ورده سبحانه وتعالى  
عليهم ، وقد تضمن الرد ثلاثة أمور تومئ الى السبب في نزوله منجماً :

أولها : تثبيت فؤاد الرسول بموالاتة الوحي بالقرآن فان موالاته فيها أنس  
للنبي عليه الصلاة والسلام ، وتثبيت لعزيمته ، وتأنييد مستمر له فيقوم بحق  
الدعوة بالجهاد في سبيلها ، واذا كان المرء يستأنس بوليّه اذا والى الاتصال به  
فكيف لا يستأنس رسول الله تعالى ببقاء الروح الأمين الذي يجيئه بكلام رب  
العالمين ، في موالاتة مستمرة •

(١) يونس : ٢٧ ، ٢٨

(١) يونس : ١٦ ، ١٧

(٢) الفرقان : ٢٢

(٢) هود : ١٣

ثانيتها : أن تثبيت الفؤاد بفزول القرآن يكون بحفظ ما ينزل عليه جزءا جزءا ، ذلك أن هذا القرآن نزل ليحفظ في الأجيال كلها جيلا بعد جيل ، وما يحفظ في الصدور لا يعتريه التغيير ولا التبديل ، وما يكتب في السطور تد يعتريه المحو والابتناء والتحريف والتصحيف ، ولأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ ، كان يحفظ جزءا جزءا ، وكان ينزل مجزءا ليسهل ذلك الحفظ ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يحفظه عند نزوله ، فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجل حفظه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه في ذلك : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه (١) » وترى من هذا النص حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يحفظ ما يوحى اليه ، فيحرك به لسانه ، مستعجلا الحفظ فينبهه الله تعالى الى أنه يتولى جمعه واقراءه له ، وأنه مبينه ، وحافظه ، كما قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٢)

الأمر الثالث : هو ترتيل القرآن ، بتعليم تلاوته وان هذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريق ترتيله هي من تعليم الله تعالى ، اذ أنه سبحانه وتعالى ينسب الترتيل اليه تعالت قدرته وكلماته ، وعظم بيانه ، فنحن بقراءتنا وترتيلنا ان أحكمناه ، انما نتبع ما علم الله تعالى نبيه من ترتيل محكم ، جاء به التنزيل ، وأمر به النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا (٣) » وما كان تعليم هذا الترتيل المنزل من عند الله تعالى ليتواتر اذا لم ينزل القرآن منجما ، فلو نزل جملة واحدة ما تمكن النبي عليه السلام من تعلم الترتيل ، ولو علمه الله تعالى بغير تنجيجه ما كان في الامكان أن يعلمه قومه وهم حملته الى الأجيال من بعده .

هذا ما يستفاد من النص الكريم المتلو ، وعبارته السامية فيه واضحة بينة تشرق بمعانيه العالمة الهادية الموجهة المرشدة .

وهناك سبب آخر انزول القرآن منجما نلمسه من حال العرب ، ومن

(٣) الزمل : ٤

(٢) الحجر : ٩

(١) القيامة : ١٦ - ١٩

شئونهم ، ذلك أن العرب كانوا أمة أمية ، والكتابة فيهم ليست رائجة ، بل يندر فيهم من يعرفها ، وأندر منه من يتقنها ، فمما كان في استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا نزل جملة واحدة ، اذ يكون بسوره وآياته عسيرا عليهم أن يكتبوه ، وان كتبوه لا يعدموا الخطأ والتصحيح والتحريف .

ولقد كان من فائدة انزال القرآن منجما أنه كان ينزل لمناسبات ولأحداث فيكون في هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه والمبين الأول هو النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم (١) » .

### المكي والمدني

٨ - كان نزول القرآن منجما ، سببا في أن بعضه نزل بمكة وبعضه نزل بالمدينة ، فكان منه المكي ومنه المدني ، فالمكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ، فما نزل بعد الهجرة ، ولو بمكة يسمى مدنيا ، وما نزل قبل الهجرة يسمى مكي . فالتقييم زمني ، وليس بمكاني ، ليست العبرة بمكان النزول ، وانما العبرة بزمانه .

والآيات المكية فيها بيان العقيدة الاسلامية ، وبطلان عبادة الأوثان ، ومجادنة المشركين والدعوة الى التوحيد ، ومخاطبة العرب ، وفيها قصص الأنبياء الذين جاءوا الى بلاد العرب ولهم آثار في أجزاءها تنادى بما صنع أقوامهم ، وما أصابهم الله تعالى بكفرهم من حاصب ، ومن خسف جعل عالي ديارهم سافلها ، ومن ربح صرصر عاتية .

ولم يكن في الآيات المكية أحكام للمعاملات ، وان كان فيها اشارات الى المحرمات كالخمر والربا فقد قال تعالى مشيرا الى أن الخمر أمر غير حسن : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقا حسنا ، ان في ذلك لآية لقوم يعقلون » (٢) . فان هذا النص السكريم يشير الى أن الخمر ليست أمرا حسنا ، لأنه سبحانه وتعالى جعلها مقابلة للأمر الحسن ، ولا يقابل الحسن الا

## القبيح ، أو على الأقله الأمر غير الحسن •

ولقد جاء أيضا في سورة الروم ما يشير إلى أن الربا أمر غير مستحسن فقد قال تعالى في سورة الروم : « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون (١) » .  
 وإن عدم وجود أحكام للمعاملات في مدة سببه أن الدولة التي كانت قائمة كانت دولة شرك ، وإن من المستحيل أن تنفذ أحكام المعاملات الإسلامية في ظلها ، وكان الاتجاه الأول إلى إخراجها من الشرك وإدخالها في التوحيد أولا ، ثم من بعد ذلك تكون الدولة الإسلامية المنفذة ، ولكن المحرمات كانت ثابتة من أول تشريع الإسلام ، وإن كان مسكوتا عنها • فلم تكن موضع إباحة ، بل كانت موضع سكوت وعفو حتى ينزل التشريع بتحريمها تحريما قاطعا ، فما كانت الخمر مباحة ، ولكن كان مسكوتا عليها ، أو كانت في مرتبة العفو كما يقول علماء الأصول ، حتى إذا كان المنع الصريح في المدينة ، كان معه العقاب ، وهكذا كل ما كان مسكوتا عنه لم يكن موضع إباحة •

ولما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان التنظيم الكامل للمعاملات لأنه وجد دولة إسلامية فاضلة ، تنظم العلاقات بين الناس ، وتقوم على تنفيذها ، والقضاء بها ، فنظم التعامل وابتدأ بأعلى أنواع التعاون بين الناس وهو الإخاء الذي آخى فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، والأنصار بعضهم مع بعض ، والمهاجرين بعضهم مع بعض ، وشرعت النظم الاجتماعية ، والمعاملات الإنسانية • من أحكام للبيوع والمزارعات ، وتحريم للربويات وغيرها ، وفرضية الصدقات وتنظيمها ، وإعطاء الفقير حقه ، والتنظيم الاجتماعي الكامل ، وشرعت الأزواج الاجتماعية من حدود وقصاص • وسنت الأحكام الفاصلة بين الحقوق ، وفتح باب الجهاد ، ووضعت نظم الحرب ، وقامت العلاقات الدولية على أسس متينة محكمة ، يراعى فيها حق العدو ، كما يلاحظ حق الولي على سواء ، لأن المبادئ المدنية في الإسلام قامت على إعطاء

قل في حق الله من غير بحس ولا تسخط ، ولا مجاوزة للحد ولا إعطاء له

وبلاحظ أن مبادئ العدالة جاءت مع وجود الشريعة الإسلامية ، وقد دعا إليها القرآن الكريم في مكة والمدينة ، لأن العدالة حق ابتدائي لا يختلف في دولة عن دولة ، فهو يتعلق بالإنسان في ذاتها .

فالامر بالعدالة والاحتسان والوفاء بالعهد جاء في سورة النحل ، وهي مكية عند نظر الأكثرين ، لأن الله تعالى يقول فيها وهو أحكم القائلين : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ، وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تعملون ، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة » (١) .

ولقد أحصى القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن السور المدنية ، مقال : « عن قتادة نزل بالمدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والتحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد ، والمجادلة والحشر ، والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويأبىها النبي لم تحرم الى رأس العشر واذا زلزلت واذا جاء نصر الله — هذه السور نزلت بالمدينة . وسائر القرآن نزل بمكة .

وبلاحظ أنه جعل سورة النحل من الصور المدنية . ولكن المذكور في المصاحف التي بين أيدينا أنها مكية ، ولعل فيها روايتين .

### كتابة القرآن وجميعه

٩ — منذ ابتداء نزول القرآن الكريم على الرسول الأمين ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحفظه ، ويأمر من حوله ممن يصنعون الكتابة أن يكتبوه ، وقد سمي أولئك الذين كتبوا القرآن بكتاب الوحي ، ومنهم عبد الله بن مسعود،



وعلى بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم كثير ممن كانوا يهضرون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غب نزول الوحي بالقرآن عليه ، فيملى عليهم ما نزل ، ويعملن ما حفظه فيحفظه الكثيرون من الصحابة ، وخصوصها من كانوا له عليه الصلاة والسلام ملازمين ، وعلى مقربة منه صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكان نزول القرآن على غير الترتيب الذي نقرؤه الآن في السور الكريمة ، بل كان ذلك الترتيب من بعد النزول بعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوحي من الله تعالى ، فكان يقول عليه الصلاة والسلام ضعوا آية كذا في موضع كذا من سورة كذا ، فتكون بجوارها منسقة متلاحقة المعنى مترابطة متناسقة اللفظ ، تلتقى بها كأنها لقف معها ، وكأنهما كلام واحد قيل في زمن واحد ، أحدهما لاحق ، والآخر سابق ، وكأن المتكلم قالهما في نفس واحد ، من غير زمن بينهما يتراخى ، أو يتباعد ، وذلك من سر الاعجاز ، ولا غرابة في ذلك ، لأن القائل واحد ، وهو الله سبحانه وتعالى العليم الخبير الذي لا تجرى عليه الأزمان ولا يحد قوله بالأوقات والأزمان لأنه هو خالق الأزمان والمهيط بكل شيء علما .

ولذلك كان ترتيب القرآن الكريم في كل سورة بتنزيله من الله تعالى .

وكان من الصحابة من يحفظه كله ، فكان عبد الله بن مسعود يحفظ المتكى ، ويحفظ المدني ، ولكن الرواة قالوا انه عرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المتكى فقط ، وكذلك جمع أبي المدني ، وقالوا انه عرض على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما جمعه بعد الهجرة وأكبر العرض هو عرض زيد بن ثابت رضى الله تبارك وتعالى عنه ، فقد كان سنة وفياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد كان بعد أن قرأ الرسول الأمين على روح القدس جبريل القرآن مرتباً ذلك الترتيب الموحى به الذي نقرأ به القرآن الكريم .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل الى الرفيق الأعلى الا وقد جمع القرآن في صدره طائفة من الصحابة ، قيل ان عددهم مائة أو يزيدون ، ونحن نرى أنهم كانوا أكثر من ذلك عدداً ، فإنه قتل من القراء في إحدى مواقع الردة عدد يزيد على السبعين ، وقيل على سبعمائة ، وربما كان الآخر أدق ، فإذا كان ذلك

العدد مقتولا فالباقى بحمد الله تعالى أكثر ، وان كان قتل سبعين قد هال المؤمن الثاقب النظر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وجزاه عن الاسلام خيرا •  
وإذا كان بعض الكاتبين ذكر أن الحفاظ للقرآن الصحابة أربعة هم :  
على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، فذلك ليس من قبيل الاحصاء ولا من قبيل التعيين العددي فان العدد أكبر من ذلك •

والأمر الآخر الذى يجب التنبيه اليه هو أن القرآن كله كان مكتوبا عند الصحابة ، وإذا كان لم يكن كله مكتوبا عند بعضهم ، أو عند واحد منهم بعينه ، فان ذلك لم يكن منفيًا عن جميعهم ، فهو مكتوب كله عند جميعهم ، وما ينقص من عند واحد يكمله ما عند الآخرين •• وهكذا تصافروا جميعا على نقله مكتوبا ، وأن تقاصر بعضهم عن كتابته كمل الآخر ، وكان الكمال النقلى جماعيا وليس آحاديا •

وقد يسأل سائل : لماذا كان الجامعون له في الصدور كثيرين ، وقد حفظوه كاملا غير منقوص ، ولم يوجد من جمعه في السطور جمعا كاملا ؟

ونجيب عن ذلك بجوابين •• أحدهما من واقع حياة العرب ، فقد كانوا أميين ، والمجيد منهم للكتابة قليل ، وأدوات الكتابة غير موفورة ، وما يكتب عليه غير معد لها ، فكانوا يكتبون على الأديم ، وعلى لخاف، الأثـجار ، وعلى العسب ، وغير ذلك مما لا يعد للكتابة ، فكان الغريب أن تكون كتابة ، فضلا عن أن تكون كتابة كاملة للقرآن عند الواحد من الصحابة ، وكتابته كاملة عند الجميع كانت بتوفيق الله تعالى ومن عنايته بكتابه الكريم •

والجواب الثانى : أن ذلك من عمل الله تعالى ، لأن الله تعالى العليم الحكيم جعل حفظ القرآن الكريم في الصدور ابتداء وانتهاء ، وفي السطور احتياطا ولتكون كتابته من بعد ذلك صحيحة من كل وجوها ، لا يعثرها تصحيف ولا تحريف ، وان تواتر القرآن الكريم عن رسول الله يكون كما تلقاه عن ربه العليم الحكيم ، والتواتر يكون بالتلقى في الصدور لا في السطور ، ولا يكون تواتر

في مكتوب الا اذا قرىء المكتوب على من أخذ عنه وأجازره ، فالـمكتوب يحتاج في نقله الى الاجازة القولية ، والاجازة القولية لا تحتاج الى كتابة الا بمقدار تسهيل الاجازة .

\*\*\*

ترك محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدنيا والأمة على بينة من أمر القرآن ، قد استحفظوه وحفظوه وكتبوه ، وحمله رسول الحقيقة أمانة الخليفة ، وهو القرآن الحكم في هذا الوجود الانساني ، فماذا كان من بعده ؟

### جمع القرآن الكريم بعد الرسول

١٠ - انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وقد حفظ عدد كبير من الصحابة يبلغ حد التواتر القرآن كله كاملا غير منقوص ، لم يتركوا منه كلمة الا حفظوها ، وعلموا أين نزلت ومتى نزلت ، وعلموا معناها من صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، حتى انه ليروى عن عثمان بن عفان أنه كان يقول كما تسلموها ، فكان حرصهم عليها أشد من حرصهم على أنفسهم ، لأنهم فانون فيبينها لنا .

ترك الرسول لصحابته القرآن ، وهو أعظم ثروة انسانية مثرية في هذا الوجود ، وقد أدركوا حق الأمانة وأنهم حاملوها الى الأخلاف من بعدهم كاملة ، كما تسلموها ، فكان حرصهم عليها أشد من حرصهم على أنفسهم ، لأنهم فانون وهي الباقية ، وهي تراث النبوة ، وسجل الرسالات الالهية . لذلك كانوا يحافظون عليها ، وعلى الذين حملوها في صدورهم .

ولقد هال عمر بن الخطاب أنه قد استتر القتال بين المؤمنين الأولين ( وكثير منهم من حفظة القرآن الكريم ) ، وبين أهل الزدة في موقعة اليمامة وقتل منهم فيما قيل سبعمائة كما جاء في الجامع الكبير للقرطبي ، فأشار عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه على أبي بكر بجمع القرآن ، مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبي وابن مسعود وزيد ، غندبا زيد بن ثابت الى ذلك فجمعهم بعد تعب شديد » .

روى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل الى أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، وعنده عمر ، فقال أبو بكر : ان عمر أتانى فقال ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها ، فيذهب كثير من القرآن الا أن تجمعوه ، وانى لأرى أن يجمع القرآن . قال أبو بكر فنقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لى ذلك صدرى ، ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : انك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ففتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر .

اختار أبو بكر - كما ترى فى رواية البخارى ورواية غيره من أصحاب الصحاح - زيدا ليقوم مع من يستعين به من حفظه القرآن ، وكان اختياره لزيد لأسباب جمّة . أولها : ما اشتهر به بين الصحابة من العلم والفقّه ، وثانيها : لأنه من كتبه الوحي الملازمين ، لا الذين كتبوا مرة أو مرتين ، وأخذوا لقب كاتب الوحي شرفا ، وثالثها : أنه ممن حفظوا القرآن وجمعوه فى صدورهم ، فكان حقيقا أن يجمعه مسطورا بعد أن جمعه محفوظا ، ورابعها : أنه عرض القرآن على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى السنة التى انتقل فيها النبى عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى كما قدمنا .

١١ - حمل زيد ما هو أشد حملا من الجبال ، لأنه يحمل أثقل موازين الهداية فى هذا الوجود الانسانى ، وهو وديعة الله تعالى الى الوجود الانسانى الى أن تزول السموات والأرض .

وما كان لمن يحمل مثل هذا الحمل أن ينفرد بالعبء ، فقد استعان بالحفظه الكرام من صحابة النبى الأعلام ، وسلك فى سبيل الجمع الخطة المثلى ، فما كان يعتمد على حفظه ، وأنه لحافظ ، ولا على حفظ من استعان بهم ، وأنهم لحفاظ

أمناء •• ولكنه كان لابد أن يعتمد على أمر مادي ، يرى بالحس لا يحفظ بالقلب وهذه ، فكان لابد أن يرى ما حفظه مكتوبا في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يشهد شاهدان بأنهما هكذا رأوا ذلك المكتوب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وباملأئه عليه الصلاة والسلام ، وقد تتبع القرآن بذلك آية آية ، لا يكتب الا ما رآه مكتوبا عن النبي عليه السلام في عهده ، ويشهد شاهدان أنهما هكذا رأيا ذلك المكتوب في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ونقلاه ، أو يرى ذلك المكتوب عند اثنين ، فهو شهادة كاملة منهما ، وقد حصل على القرآن كله مكتوبا بنصاب الشهادة في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ، فما كان الا أن نقل المكتوب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه وجد آيتين لم يشهد اثنان بأنهما كتبتا في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل شهد واحد فقط ، وهو خزيمة بن ثابت الأنصاري ، وهو قوله تعالى : « لتد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا فتل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » •• لم يجدها الا عند خزيمة ، وقد قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تكريما له : شهادتك باثنين •

وروى أنه لم يجد آية أخرى الا عند خزيمة ، وهي قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فنههم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » •

هذا هو المسلك الذي سلكه المؤمن الحافظ الذي اختاره أبو بكر لحمل التبعة مع من اختار ، ولنترك الكلمة له — أى لزيد — فهو يشير الى ما سلكه ، فهو يقول فيما رواه البخارى : « قمت فنتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسف وصدور الرجال ، حتى وجدت آيتين من سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري ، لم أجدهما مع غيره » « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » والآية الأخرى التي لم يجدها الا عند خزيمة أيضا جاء فيها عنه في رواية البخارى أيضا : وعن زيد بن ثابت لما نسختا في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد مع خزيمة

الأنصاري الذي جعل الله تعالى شهادته بشهادة رجلين : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (١) » ، وقد علق على ذلك القرطبي فكانت الأولى من سورة براءة في الجمع الأول على ما قاله البخاري والترمذي ، وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة الأحزاب » .

وهذا يدل على أن الجمع الثاني اتبع فيه ما اتبع في الجمع الأول بالبحث عن الآيات مكتوبة في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يشهد اثنان بكتابتها في عصره ، أو توجد عند اثنين ، فوجودها عندهما شهادتان ، والجمع الثاني كان في عهد عثمان .

ولكن قد يسأل سائل : لماذا كان نصاب الشهادة كاملا في الجمع الذي حدث في عهد أبي بكر ، ثم لم يوجد النصاب في بعض الآي عند الجمع الثاني ؟ نقول : ان فرض ذلك يتحقق بغياب أحد ركني النصاب عن المدينة ، أو موته ، ولكن الله تعالى حافظ كتابه في هذا الوجود كوعده بحفظه ، وانه منجز ما وعد : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون (٢) » . ولذلك كان الشاهد في الثاني هو الشاهد في الأول ، وهو خزيمة الأنصاري الذي جعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شهادته باثنين ، فالنصاب كان كاملا .

١٢ — ولا نترك الكلام في هذا العمل الجليل الذي اشتهر فيه أبو بكر وعمر ، وحمل عبثه زيد بن ثابت مع جمع من المهاجرين والأنصار . . من غير أن نقرر حقيقتين ثابتتين ، تدلان على اجماع الأمة كلها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل ، وأنه مصون بصيانة الله سبحانه وتعالى له ، ومحفوظ بحفظه ، والهام المؤمنين بالقيام عليه وحياطته .

الأولى : أن عمل زيد رضي الله عنه لم يكن كتابة مبتدأة ، ولكنه إعادة لكتوب ، فقد كتب كله في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعمل زيد الابتدائي هو البحث عن الرقاع والعظام التي كان قد كتب عليها والتأكد من سلامتها ، بأمرين : بشهادة اثنين على الرقعة التي توجد فيها الآية أو الآيتان

أو الآيات ، وبحفظ زيد نفسه ، وبالحافظين من الصحابة ، وقد كانوا الجم الغفير والعدد الكبير ، فما كان لأحد أن يقول ان زيدا كتب من غير أصل مادي قائم ، بل انه أخذ من أصل قائم ثابت مادي •

وبذلك نقرر أن ما كتبه زيد هو تماما ما كتب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ليس كتابة زيد ، بل هو ما كتب في عصره عليه الصلاة والسلام ، وما أملاه ، وما حفظه الروح القدس •

وإذا كان ما كتبه عثمان من بعد ذلك قد تعوبل بما كتب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالمصحف العثماني الذي بقى بخطه الى اليوم هو مطابق تمام المطابقة لما كتب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه يجب ألا يخرج عنه قارئ في قراءة بزيادة حرف أو نقص ، قد تكون القراءات متغيرة في أصوات المقروء وأشكال النطق ، ولكن لا يمكن أن تكون متغيرة بزيادة أو نقص ، فذلك هو الخروج عن الرسم الذي وضع في عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بامتزاجه عليه الصلاة والسلام •

الأمر الثاني : أن عمل زيد لم يكن عملا آحاديا ، بل كان عملا جماعيا من مشيخة صحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك أن زيدا بطبيعة عمله أعلن بين الناس ما يريد ، ليأتيه كل من عنده من القرآن ما هو مكتوب بما عنده ، وقد علموا مقدار ما ينبغي لكتاب الله من عناية ، فذهبوا اليه وذهب اليهم ، وتضافر معه من كانوا يعاونونه غير مدخرين جهدا الا بذلوه في عناية المؤمن بكتاب الله تعالى الذي يؤمن به •

ولما أتم زيد ما كتب ، تذاكره الناس ، وتعرفوه وأقروه ، فكان المكتوب متواترا بالكتابة ومتواترا بالحفظ في الصدور ، وما تم هذا لكتاب في الوجود غير القرآن • ولا يهمننا أن يقر ذلك المعاندون أم لا يعرفوه ، فذلك ايماننا ، والحجة القاطعة لا يضيرها ارتياب في غير موضعه ، بل الحقائق ناصعة ، والبيانات قائمة ثابتة ، وهي في حكم البدهيات القاطعة ، ومن يرتاب في أمر عقلي لا ريب فيه ، فهو يضل نفسه ولا يضر غيره ، والحق أبلج والباطل لجلج ، اذن فلا عجب في أمر المعاندين الضالين •

انما العجب كل العجب في أمر الذين يضلون في طلب الحق ، فيتيهون في ظلمات الروايات المدسوسة المكذوبة ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

### جمع القرآن في عهد عثمان أو الأحرف السبع

١٣ — جمع القرآن كله في عهد الشيخين أبو بكر وعمر ، وقد أودعه عمر حفصة أم المؤمنين ، ليكون مصوناً يرجع إليه لا ليطلى منه ، فالتلاوة استمرت كما كانت في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تتلقي من أفواه الرجال مرتلة ، كما تلقوها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليبقى القرآن محفوظاً في صدور المؤمنين بنصه وتلاوته .

وان النص المكتوب واحد ، لا تغير فيه ، وهو يحتمل عدة قراءات ، وقد ذكروا أن القراءة المتواترة لا تكون مقبولة الا اذا كانت موافقة للنص المكتوب غير زائدة ، ولا ناقصة ، فهي شاملة للقراءات كلها .

ولقد أجزى في أول نزول القرآن أن يقرأ على لغات سبع من لهجات العرب كلها يمينها ونزارها ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجهل شيئاً منها . ولذلك روى البخارى أن القرآن نزل على سبعة أحرف نسخت ست وبقيت واحدة ، ويروى مسلم عن أبي بن كعب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان عند اضاءة بنى غفار ( وهو غدير صغير عندهم ) ، فأتاه جبريل عليه السلام فتال له : ان الله يأمرك أن تقرئ أمئك القرآن على حرف ، فقال : أسأل معافاته ومغفرته ، وان أمتى لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : ان الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وان أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاء الثالثة فقال : ان الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وان أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاء الرابعة فقال : ان الله تعالى يأمرك أن تقرئ أمتك على سبعة أحرف فأبوا حرف قد قرعوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذى عن أبي بن كعب ، قال : لقي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل فقال : « يا جبريل انى بعثت لأمة أمية منها العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ





قَالَهَا نَطًّا ، مِثَالُ لَيْ : يَا مُحَمَّدُ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ﴿ ١٤ ٠ وَهَذَا  
حَدِيثٌ صَحِيحٌ ٠

وقد قال القرطبي في كتابه الجامع الكبير لأحكام القرآن : « ثبت في الأمهات  
البخارى ومسلم والموطأ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنفات والمستندات  
قصة عمر مع هشام بن حكيم » ٠ وهو الذى صرح فيه بأن عمر سمع هشاماً  
يفقرأ بحروف لم يسمعها ، فأخذه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأقر  
ما قرأ هشام ، وأقر ما قرأ عمر ثم قال : « ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » ٠  
١٤ - واننا اذا تأملنا ما جاء فى هذه الأخبار الصحاح ننتهى الى أن العرب  
ما كانت تطاوع ألسنتهم حرف القرآن ، ففيهم الرجل الشيخ والمرأة العجوز  
الندان جمدا لسانهما على لهجتها فلا يطاوعهما على النطق الصحيح بلهجة لم  
يعرفوها ، ولم يلوكوها من قبل ، فكان لا بد أن تمرن ألسنتهم أمداً على لغة القرآن  
حتى تلين وتآلف النطق بكلماته على اللغة التى بقيت ٠

ونفسير الأحرف باللهجات أو لغات العرب ما بين مصرية وربعية ونزارية  
وقرنسية وغيرها ، هو التفسير الذى اختاره ابن جرير الطبرى ، وكثيرون من الرواة ،  
وهو الذى يتفق مع النسق التاريخى فى الجمع الذى اضطر ذو النورين عثمان  
رضى الله تعالى عنه لأن يقوم به ، وارتضاه الصحابة ، وقال على بن أبى طالب  
كرم الله وجهه : لو كنت مكانه ما عملت الا ما عمل ٠

ولقد ذكر القرطبي أن هذه الأحرف باقية فى القرآن لم ينسخ منها حرف ،  
ولكنى أرى أن النسق التاريخى الذى أشرنا اليه من قبل يوجب أن يكون حرف  
واحد قد بقى ، وهو لغة قريش ، وهو الذى كتب عثمان مصحفه عليه ، وكان من  
قبل مكتوباً كما سنبين أنه لم يأت قط بما يخالف المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين  
حفصة عندما قابلته به ٠

وقبل أن ننتقل الى ما فعل الامام عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه ، لابد  
أن نذكر حقيقتين دل عليهما المسأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،  
والسياق التاريخى :

أولهما : أن الذي كتب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعثره تغيير ، ولم تجر عليه الحروف السبعة ، وإن الحروف السبعة كانت في قراءة القرآن ، لا في كتابته ، وإن استئذان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان في انقراءة لا في الكتابة .

ثانيهما : أن استئذان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان ليسهل على أمته حتى تلين ألسنتهم ، وتستقيم على النطق باللغة التي اختارها الله تعالى لقرآنه المنزل من عنده وهو العليم ، وهي لغة قريش في جبل ما أنزل الله تعالت كلماته ، فكانت لغة قريش لغة الأديب في الجاهلية والإسلام ، فكان من منطق الحوادث أن يكون أعلى الكلام ينزل في ثوب أعلى اللغات العربية إذ كانت لغة الشعر والأديب .

١٥ — ولنتقل يعد ذلك الى جمع ذى النورين عثمان رضى الله عنه ، ومكانه من جمع الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، وجزاهما عن الإسلام خيرا .

تفرق الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وقد كان عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه آخذاً بججزات الصحابة ، وخصوصاً كبارهم ، يمنعمهم من مغادرة الحرمين . فاختلف الناس في القراءة ، ومنهم من كان يقرأ بالقراءات أو اللغات المختلفة التي ما كانت القراءة بها الا ترخيصاً مؤقتاً حتى تلين الألسنة الى لغة القرآن ، وانها لواحدة ، وإن اختلفت القراءات المتواترة في ظلها ما بين حذف للهمزة في النطق ، وإن كانت باقية في مصحف عثمان تقرأ فيه مثبتة وغير مثبتة كالأرض ، والأرض ، ومن اختلاف في الشكل يدل في كل شكل على معنى صحيح يصلح أن يكون مقصوداً في القرآن ، ويكون الجمع صحيحاً ، مثل أنفسكم « بضم الفاء » ، وأنفسكم « بفتحها » ، ومثل فتبينوا بالباء بعد التاء ، والتاء بعد التاء وبعدها باء ثم تاء .

وما كان اختلاف القراء في الأمصار في عهد عثمان في هذه القراءات المشهورة بيننا الآن ، إنما كان الاختلاف في اللغات التي كان مرخصاً بها ، فمنهم من لم يعلم

نسخها ، عند قراءة جبريل للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في العرصات الأخيرة •  
 لقد ائتمت الأمر في ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبث كل فريق بما يقرأ ، زاعما  
 أن غيره هو الباطل الذي لا ريب فيه ، ووقع الخلاف بين أهل العراق وأهل الشام  
 عندما اجتمعوا في غزوة أرمينية ، فقرأت كل طائفة بما روى لها ، وتنازعوا أمرهم  
 بينهم ، وأظهر بعضهم تكفير بعض ، وتبرأ بعضهم ، وكان معهم حذيفة بن اليمان  
 — كما ذكر البخارى والترمذى — وقد ذكرا أن حذيفة عندما آب من هذه الغزوة  
 دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى أهله فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك !  
 قال عثمان : فيماذا ؟ قال : في كتاب الله •• انى حضرت هذه الغزوة ، وجمعت ناسا  
 من العراق والشام والحجاز ، ووصف له ما كان من الاختلاف والتكفير ، وقال :  
 انى أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود •

أفزع هذا الأمر عثمان التقى ، كما أفزع المؤمنين الذين علموا ذلك النبأ  
 الخطير ، ولكن الفزع لم يوهن العزيمة بل شحذها ، ولم يضعف الارادة  
 بل حفزها ، وكانت عزيمة ذى النورين عثمان •

لقد أحضر النسخة المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة لتكون الامام الذى  
 يحتكم اليه فيما هو مقدم عليه ، وجمع من الصحابة الحافظين الكرام بضعة  
 على رأسهم زيد بن ثابت الجامع الأول ، والثقة الثابت الذى كان له فضل التثبيت  
 في كل كلمة وآية •

وقد قال له عثمان رضى الله تعالى عنه عندما نذبه لذلك العمل الجليل : انى  
 مدخل معك رجلا فصيحاً لبيبا فاكتباه ، وما اختلفتما فيه فارفعاه الى ، فجعل معه  
 ابا ن وسعيد بن العاص ، فلما بلغا في الكتابة قوله تعالى « ان آية ملكه أن  
 يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم (١) » •• قال زيد فقلت التابوه ، وقال  
 سعيد بن العاص التابوت ، فرفعنا الأمر الى عثمان ، فكتب التابوت •

وكان جملة من ضمهم الى زيد ثلاثة هم : عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص  
 الذى ذكرناه ، وعبد الرحمن بن الحارث ، وقال لهذا الرهط من قريش : ما اختلفتم  
 فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش ، فانه نزل بلسانهم •

ويظهر أن سيدنا عثمان لم يكتب هؤلاء الأربعة ، بل كان يضم إلى معاونتهم من يكون عنده علم بالقرآن يعاونهم في كتابته . ولقد روى ابن عساکر أن عثمان دعا إلى هذه المعاونة فقال : ان عثمان خطب يومئذ في الناس ، وعزم على كل رجل عنده شيء من كتاب الله لما جاء به ، ويقول بن عساکر فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دعاهم رجلا رجلا فناشدتهم : أسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أملاه عليك . وهكذا كان يثبت في الرواية ، كما كان التثبت من زيد ومن معه ، والذي كتب المصحف الأول الذي أودع أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها وعن أبيها فاروق الاسلام .

وقد أتم زيد ومن معه جمع القرآن ، ولكن عثمان لا يكتفى ، بل انه يسير في الاستيثاق إلى أقصى مداه ، فيحضر مصحف أم المؤمنين حفصة ، ويعرض المصحف الجديد ، فيجدهما يتوافقان تمام التوافق ، لا يزيد أحدهما عن الآخر حرفا ولا ينقص عنه ، حتى لقد فهم بعض العلماء أن جمع عثمان كان نسخا لما جاء في الصحف المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها وعن أبيها الفاروق ، وجاء ذكر ذلك في بعض الروايات تسامحا ، ولكن الحقيقة أنه ما كان نسخا ، بل قام بالتحريات كلها حتى جمع ما جمع ، وكان التوافق الكامل الذي يدل دلالة قاطعة على صدق الجمعين ، وعلى تواتر القرآن الكريم مكتوبا ومحفوظا ، وبذلك حفظه الله تعالى وصانه .

ولقد قال الطبرى : ان الصحف التي كانت عند حفصة جعلت اماما في هذا الجمع الأخير ، ويقول القرطبى « هذا صحيح » ومعنى صحته أنه بعد الجمع الذى قام به زيد بأمر عثمان ، وعاونه المؤمنون الحافظون ، قد روجع على مصحف حفصة رضى الله عنها ، وكانت هى المقياس لصحته ، فبالمقابلة بينهما بعد الجمع تبينت صحتهما بصفة قاطعة لا ريب فيها . فكانت هذه الامامة ، حتى ظن أنه نسخ منها .

١٦ — ويلاحظ أمران : أولهما : أن عثمان رضى الله عنه كان غرضه من إعادة جمع المصحف هو أن يكتبه على حرف واحد من الحروف السبعة ، أى اللهجات واللغات السبع ، فما كان جمعه الا لاثبات الحرف الباقي الذى روى مكتوبا عن النبى

صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليجتمع عليه المسلمون ولا يكونوا متفرقين ، وأن يكون ذلك موافقا للمكتوب في عهد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاء في القرطبي « قال كثير من علمائنا كالدودي ، وابن ابي صفرة هذه اقراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسمت الصحابة في القراءة بها ، وانما هي راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه عثمان ، ذكره ابن عباس وغيره »

الامر الثاني : أن عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه حسم مادة الفتنة بذلك الجمع ، وعمل ما ينبغي أن يعمل . ولذلك نسخ من هذا الذي جمعه نسخا على قدر الأقاليم العربية ، فأرسل الى كل اقليم نسخة كانت هي الاصل لهذا الاقليم ، فأرسل الى مصر ، والى الشام ، والى مكة واليمن والبحرين والبصرة ، والكوفة وحبس بالمدينة مصحفا كان هو الامام لكل هذه النسخ ، وهو المرجع الاول في الدولة ، ترجع اليه كل المصاحف ، وهو الحاكم عليها .

وإذا كان هو الاصل لكل هذه المصاحف فيجب القول بأنه لا اختلاف بينها لأنه الحكم ، وأنها صور لنسخة واحدة ، ويلاحظ أن الامام العظيم عثمان قد كتب المصحف خاليا من النقط والشكل كما كان المصحف الموجود عند حفصة خاليا من النقط والشكل ، ولم يكن نقط وشكل الا بعد ذلك .

ولكن لماذا خلا من ذلك ؟ والجواب عن ذلك أن القرآن له قراءات مختلفة هي سبع قراءات ، وليست هي الحروف كما ذكرنا من قبل ، ولكي يكون المكتوب محتملا لهذه القراءات المروية بطرق متواترة كلها كان لابد أن يكون غير منقوط ولا مشكول ، كما ذكرنا في اختلاف القراءة في أنفسكم ، وكما ذكرنا في اختلاف القراءة في قلوبنا . وما كان يمكن أن يحتل النص القراءتين إذا كان منقوتا ومشكولا . ومن جهة أخرى أن الأساس في تواتر القرآن هو الحفظ في الصدور لا في السطور ، حتى لا يعتبريه المحو والاثبات ، فلو كان القرآن منقوتا ومشكولا لاستغنى طالب القرآن عن أن يقرئه مقرئ ، فإلا يكون التواتر الصحيح الذي يقتضى الاجازة ممن أقرأه ، ولقد جاء التحريف في الكتب لأخرى لاعتمادها على المكتوب في السطور . لا المحفوظ في الصدور .

ومن جهة ثالثة ان ترتيل القرآن ، كما أثر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا بد منه كما قال تعالى : « ورتلناه ترتيلاً » (١) وان ذلك لا يتم الا اذا كان القرآن يقرأ على مقرأ ، يجيزه محافظاً وقراءة وترتيلاً .

١٧ — وان الرواية الصحيحة بينة مستقيمة لا مجال للشك فيها ، وهى تسدل على أمور ثلاثة قطعية فى ثبوتها وهى :

أولاً — على أن النص الذى كان عند حفصة ، هو النص المكتوب فى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو ذاته النص المكتوب فى مصحف عثمان رضى الله عنه ، فلا يصح الزيادة عليه ولا يصح النقص .

ثانياً — على أن القرآن كتب بلغة قريش ، وهى المحرف الذى استقرت القراءة عليه ، وما كان الترخيص بالقراءة بالحروف الأخرى الا مؤقتاً حتى تطوع الألسنة لحرف قريش ، ولقد جاء فى القرطبي : « ان القرآن نزل بلغة قريش معناه عندي فى الأغلب والله أعلم ، لأن غير لغة قريش موجود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزة ونحوها ، وقريش لا تهمز » .

ومؤدى هذا الكلام أن الألفاظ والأساليب والمنهج القرآنى أنزل على لغة قريش ، ولكن الحركات التى تعترى بنية الكلمة من همز أو امالة أو نحو ذلك جاء على لهجات من غير قريش ورويت كلها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ثالثها — أن مصحف عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه يجب أن تكون كل قراءة قرآنية متفقة مع نصه ، وأن الشك فيه كفر ، وأن الزيادة عليه لا تجوز ، وانه القرآن المتواتر الخالد الى يوم القيامة .

١٨ — اذا كانت هذه حقائق ثابتة تواترت فى الأجيال ، فلماذا كانت الروايات الغربية البعيدة عن معنى تواتر القرآن الكريم التى احتوتها بطون بعض الكتب كالبرهان للزركشى ، والانتقان للسيوطى التى تجمع كما تجمع حاطب ليل يجمع الحطب والأغصان مع القرآن كالبناء الشامخ الأملس الذى لا يعاق به غبار ؟

قد أجاب عن ذلك الكاتب الكبير المسلم المرحوم مصطفى صادق الرافعى (١) فقال فى كتابه اعجاز القرآن « ونحن ما رأينا الروايات تختلف فى شيء من الأشياء

فضل اختلاف ، وتتسليم في الرد والتأويل كل طريق وعر ، كما رأينا من أمرها فيما عدا نصوص ألفاظ القرآن ، فإن هذه الألفاظ متواترة اجماعا ، لا يتدارأ فيها الرواة من علامتهم ، ومن نزل ، وانما كان ذلك لأن القرآن أصل الدين ، وما اختلفوا فيه الا من بعد اتساع الفتن ، وحين تألب الأحداث ، وحين رجع بعض الناس من النفاق الى أشد من الأعرابية الأولى ، وزاغ أكثرهم عن موقع اليقين من نفسه فاجتروا على حدود الله تعالى ، وضربتهم الفتن ، والشبهات ، مقبلا بمدبر ، ومدبرا بمقبل ، فصار كل من نزع الى الخلاف يريد أن يجد من القرآن ، ما يختلف معه ، أو يختلف به ، وهيهات ذلك ، الا أن يتدسس في الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل ، والا أن يفتح الكلمة السيئة ، ويبالغ في الحمل على ذمته ، والعنف بها في أشياء لا ترد الى الله ولا الى الرسول ، ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق ، بل لا يعرفون لها في الحق وجها •• ونحسب أن أكثر هذا مما افترته الملاحدة ، وتزيدت به الفئة الغالبة ، وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغيا بينهم ، وكلهم يرجع الى القرآن بزعمه ، ويرى فيه حجته على مذهبه ، وبينته على دعواه ، ثم أهل الزرع والعصبية لأرائهم بالحق والباطل ، ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون ، أو ممن تعارضهم الغفلة في التمييز •• وذلك سواد كله ظلمات بعضها فوق بعض ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له نور(١) •

وان ذلك الذي ذكره الكاتب الاسلامي الكبير حق لا ريب فيه ، فان هذه الروايات التي جمعها من لا يفرق بين الحابل والنابل ، وبين الحطب والأععى ، أنما كانت بعد الفتن ، ولعل للأسرائيليات دورها الخفى المسموم وأن الذين تولوها غلاة الفرق ، والرواة الذين لا يميزون أو يغفلون مالا يدركون •

ألم تر الى أولئك الغلاة يطعنون في عثمان رضى الله عنه ، ويجعلون من أسباب الطعن ، أنه جمع المصحف وجعل له اماما ، عند ما رأى الاختلاف قد تقاوم ، وأنه جمعهم على ما كتب في عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

ورأى على رضى الله عنه مثيرى الفتنة بعد مقتل الشهيد عثمان ، فقال رضى الله عنه وكرم الله وجهه : « يا معشر الناس اتقوا الله ، واياكم والغلو في عثمان

وقولكم حرق المصاحف ، فوالله ما حرقها الا على ملائنا أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم — وروى عن عمر بن سعيد أنه قال : « قال على بن أبى طالب : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت مثل الذى فعل عثمان » .

## تحريق غير المصحف الإمام وغير ما نسخ منه

١٩ — كانت الفتنة قد بلغت ذروتها وخب فيها الذين يريدونها ، ووضعوا ، وكان قد دخل فى الاسلام الذين يريدون أن ينتقموا منه لدولهم التى غزاها نور الاسلام ، وانفتح فى قلوب الأكثرين باب الهداية ، ووجدوا فى القرآن السبيل الى ما أرادوا أن يهدموه وهو الاسلام ، ليقتلعوه من جذوره ، ويأتوه من قواعده ، فجاءوا من القرآن عماده ، ونور الله المبين ، وحبله المتين .

وكان السبيل احياء الأحرف التى نسخت ، فاندسوا بين المسلمين يحيون القبور ، ويروجون المهجور ، ويبثون روح الشك والريب فيما هو متواتر ثابت . وقد انبرى لهم ذو النورين ، واجتث شرهم ، فجمع المصحف الامام على الطريق المأمون الذى كان مستوثقا غير متظنين ، ومتأكدا غير متشكك فكان ما كتب فى عهده هو عين ما كتب فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر ، وما كتب فى عهد الشيخين هو عين ما أملى فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما حفظه أصحابه فى صدورهم .

حتى اذا تم له احتسبه عند الله على ملائنا أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذين شاهدوا وعابنوا واتبعوا عن بيته ، وفيهم الكثيرون ممن حفظوا القرآن كله كعلى كرم الله وجهه ، ومعاذ بن جبل ، فكان التواتر الكامل والصيانة الكاملة والاستحفاظ على كتاب الله تعالى .

فلم يبق الا أن يزيلوا غيره من المصاحف ، لأنها كتبت بغير حرف قریش أو به وبحروف أخرى ، فأحرقها جميعا ، ولم يبق الا المصحف الامام وما نسخ منه ، فلا يرجع الى سواه ، ولا يعتمد على غيره ، ولو بقيت مصاحف غيره ، لكان الاحتجاج بها ، ولعادت الفتنة جذعا ، وكان التشكيك والريب ، وقد حفظ الله تعالى كتابه .

حرق عثمان المكتوب كله ، ولم يبق منه شيئا ، ورد الى السيدة أم المؤمنين



حفصة المصحف الذي كان مودعا عندها ، والذي كان اماما لمصحف عثمان ، كما قرر بحق ابن جرير الطبرى ، وقد رده اليها لموعدة وعدها اياها فوفى بوعده ، ولكنها لما توفيت أمر عبد الله بن عمر أن يحرق المصحف الذي كان عندها ، وروى أنها توفيت رضى الله عنها فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وأن الذى حرق المصحف الذى عندها والى المدينة مروان بن الحكم ، ومهما يكن اختلاف الرواية فى تاريخ وفاتها ، فان عثمان رضى الله عنه قد قرر أن يحرق بعد وفاتها .

وهنا يسأل المؤرخ اذا حرق عثمان المصحف الأخرى لما أثارته من فتنة ، ولأنه كان فيها حروف أخرى غير حرف قريش فلماذا قرر حرق المصحف الذى عند حفصة ، وقد كان امام مصحفه ، والمرجع الذى وزن به صحة ما كتب فى عهده ، حتى انه قيل ان المصحف الذى كتب فى عهده قد نسخ منه نسخا ؟

ونقول فى الجواب عن ذلك ان المصحف أودع حفصة رضى الله عنها وعن أبيها لأنها كانت حريصة على أن يبقى عندها، وما أراد الرجل الطيب عثمان أن يحرمها مما أرادت ، فأعاده اليها ، ولكنه الحريص على القرآن خشى أن يقع فى يد أحد ، فيمحو فيه ويثبت ، ويقول قد غير ما عندكم ، وها هو ذا الأهل ، فاحتكموا اليه ، ويكون صالحاً للاحتكام ، فأمر أن يحرق بعد وفاتها ، وما أبقاه عندها فى حياتها الا مرضاة لها ، فاحتاط للقرآن ، وما أعنتها ، رضى الله تعالى عن ذى الذورين بما صنع ، وأكرمه فى مثواه ، ورضى عنه وأرضاه .

## ترتيب الآيات والسور

٢٠ — أجمع العلماء على أن الآيات رتبت بتنزيل من الله تعالى ، فكانت الآية اذا نزلت يقول عليه السلام لكاتبه ولصحابته ضعوها فى موضع كذا من سورة كذا ، وتكون نقفاً مع التى وضعت بجوارها ، وتكونان نسقا بيانيا ، هو الاعجاز وأنه يدل على وحدة المنزل وهو الله سبحانه وتعالى ، وأن الآيات المكية كانت توضع فى السور المكية ، والمدنية كانت كذلك توضع فى المدنية ، الا بعض آيات مدنية وضعت فى سور مكية ونبه اليها .

على ذلك انعقد الاجماع ، وكانت العرضة الأخيرة التى قرأ فيها النبى على جبريل بترتيب الآيات ذلك الترتيب ، ومن أنكر ذلك أو حاول تغييره فقد أنكر

ما عرف من الدين بالضرورة ، وخرج عن اطار الاسلام ، وحاول التغيير والتبديل ، فتلك الدعوات المنحرفة التي تدعو الى ترتيب القرآن على حسب النزول أو على حسب الموضوعات هي خروج على الاسلام ، يبيته بعض الذين لا يرجون للاسلام وقاراً ، اذ يجعلون القرآن عظيمين ، ويخالفون التنزيل ، ويعارضون الوحي ، وذلك خروج عن الاسلام •

هذا ترتيب الآيات ، أما ترتيب السور فانه من الثابت أن المصحف الامام كان على هذا الترتيب ، وقالوا انه ما ارتضاه زيد بن ثابت ، ووافقه عليه الشيخان أبو بكر وعمر وصحابة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وذو النورين عثمان وهو المتبع ، فلا يغير ولا يبدل ، وقد قيل أن بعض الصحابة كان له مصحف بغير هذا الترتيب ، فكان لأبي بكر مصحف ، وكان لعلى كرم الله وجهه مصحف ، وقد نقل ابن النديم في الفهرس أنه كان على حسب ترتيب النزول ، وأنه ابتداء بقوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق » وهي أول آية نزلت •

ولكن العرضة الأخيرة من جبريل كان على هذا الترتيب ، البقرة ثم آل عمران على ما والاها •

ولقد جاء في الجامع الكبير للقرطبي ما نصه : « ذكر بن وهب في جامعه : قال سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل ، لم قدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وانما نزلتا بالمدينة • فقال ربيعة : قد قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ينتهي اليه » •

قال ابن مسعود : « من منكم كان متأسياً ، فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، واقامة دينه ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم » •

ولقد قال الامام مالك رضى الله تعالى عنه ، انما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذكر أبو بكر الأنباري كما نقل عنه القرطبي : « أنزل القرآن جملة الى سماء الدنيا ، ثم فرق على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل ، والآية جواباً لمستحيب

يسأل ، ويقف جبريل رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على موضع السورة والآية ، فانتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام من رب العالمين ، فمن آخر سورة مقدمة أو قدم أخرى ، فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف والكلمات ، ولا اعتراض على أهل الحق في تقديم العقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : « ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن ، وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات » •

ومن هذه الروايات المختلفة المؤتلفة المجمععة على أن ترتيب السور بتوثيق يتبين أن المصحف الامام هو الذى يصور العرضة الأخيرة للقرآن الكريم الذى لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •

ولكن ماذا يقال عن الروايات التى جاءت بأنه كان لأبى بكر مصحف بغير هذا الترتيب ، ولعللى رضى الله عنه وكرم الله وجهه مصحف كان بترتيب النزول ؟ لنا فى الاجابة عن ذلك السؤال طريقان :

أولهما — أن نعتبر ما عليه الكثرة الكاثرة التى تكاد تكون اجماعا يؤخذ به ، ويكون ذلك الاجماع دليلا على ضعف ماعدها وأنه لا يؤخذ به لعدم صحة السند •  
ثانيهما — أننا نقول ان ذلك كان قبل العرضة الأخيرة ، وفى العرضة الأخيرة وضعت السور فى مواضعها ، وهذا ما اختاره القرطبى وغيره ، فقد قال : « أما ما روى من اختلاف مصحف أبى بكر وعلى وعبد الله بن مسعود فانما كان قبل العرض الأخير ، وان رسول الله تعالى رتب لهم ترتيب السور بعد ، ان لم يكن فعل ذلك من قبل •

وننتهى من هذا الى أن ترتيب السور كترتيب الآيات كان بوحي من الله العلى الحكيم •

## قراءات القرآن

٢١ — يقرأ القرآن الكريم بقراءات مختلفة ، مخضفة فى حركات أو اخر

الكلمات أو في بقاء الكتابة ، أو في الوقوف في أواخر الكلمات ، أو في الهزات قطعاً ووصلاً ، كهزمة الأرض ، فهي تقرأ موصلة ومقطوعة ، وعكذا ، وإنه يجب التنبيه في هذا الى أمرين :

أولهما - أن قراءات القرآن المتواترة ليست هي الأحرف السبعة كما ذكرنا ، بل ان الرأي القويم الذي انتهى اليه الباحثون كابن جرير (١) الطبرى وغيره الى أن القراءات كلها تنتهى الى حرف واحد ، وهو الذى كتب به المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة وهو الذى جمعه عثمان بن عفان رضى الله عنه . وألزم به الأقباليم الاسلامية ، وهو مطابق تمام المطابقة للمصحف الذى كتب فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، وهو الذى حفظ فى بيت ام المؤمنين حفصة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها الفاروق .

الأمر الثانى - أن هذه القراءات تنتهى فى نهايتها الى أنها من ترتيل القرآن الذى رتله الله سبحانه وتعالى ، وتفضل بنسبته الى ذاته الكريمة العلية فقال تبارك وتعالى ، « ورتلناه ترتيلاً » (٢) ، فهى الأصوات التى أثرت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا كان فيها موسيقى ، ان صح لنا أن نقول عنها هذا التعبير ، فهى الأصوات القرآنية التى اتبعناها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهى فى مدها وغناها ، واهمازها ، واهمال همزاتها ، وامالتها واقامتها ، أصوات القرآن المأثورة ، اذ أن القراءة سنة متبعة وان اختلاف القراءات الصحيحة وكلها متواترة عن الصحابة الذين أقرأهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعلمهم طرق الأداء التى تعلمها عن ربه ، كما يشير الى ذلك ما تلونا من قبل ، وهو قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرآنه فانتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه (٣) » .

فكانت القراءة التى وعد الله تعالى ، نبيه عليه الصلاة والسلام ، هى الترتيل ، وهى تلك القراءات المأثورة عن صحابة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذين تلقوا عن النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت أنه تلقاها عن ربه .

(٢) الفرقان : ٣٢

(١) توفى سنة ٢١٠ هـ .

(٣) القيلة : ١٦ - ١٩

وهذه القراءات نجد الاختلاف فيها ، مع أنها تنتهي جميعا الى المورد العذب ، والمنهل السائغ ، وهو تلاوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم التي تلقاها عن ربه ، ليس اختلاف تضاد في المعانى ، أو اختلاف تباين في الألفاظ بل يكون الاختلاف .  
أولا — فى شكل آخر الكلمات أو بنيتها ، مما يجعلها جميعا فى دائرة العربية الفصحى ، بل أفصح هذه اللغة المنسقة فى ألفاظها ، وتآخى عباراتها ورنه موسيقاها والتواؤم بين ألفاظها ومعانيها .

وثانيا — فى المد فى الحروف ، من حيث الطول والقصر ، وكون المد لازما أو غير لازم ، وكل ذلك مع التآخى فى النطق فى القراءة الواحدة فكل قراءة متناسقة فى ألفاظها من حيث البنية للكلمة ، ومن حيث طول المد أو قصره .  
وثالثها — من حيث الامالة ، والاقامة فى الحروف ، كالوقوف بالامالة فى التاء المربوطة وعدم الامالة فيها .

ورابعها — من حيث النقط ومن حيث شكل البنية فى مثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (١) ، فقد وردت فيهما قراءتان متواترتان : فتبينوا ، وقراءة أخرى «فتتبتوا» وهما متلاقيتان ، فالأولى طالبت بالتبين المطلق ، والأخرى بينت طريق التبين ، وهو التنبيت بتحرى الاثبات ، فان لم تكن طرق الاثبات ، ولا دليل على القول ، فانه يرد الكلام ، ولا يتمسك بما قيل متظننا فيها من غير دليل ، وكلتا القراءتين مروية بسند متواتر ، لا مجال للريب فيه ، فكانت احدى القراءتين مفسرة للأخرى .

وخامسها — زيادة بعض الحروف فى قراءة ، ونقصها فى أخرى ، مثال زيادة الواو فى قراءة ، وزيادة من فى أخرى ، وهذه نادرة لم أرها الا فى حالتين اثنتين فقط ، فقد ذكر ابن الجزرى أمام القراء المتأخرين المتوفى سنة ٨٢٣ هـ أن ابن عامر — وهو من القراء السبعة — يقرأ «قالوا اتخذ الله ولدا» (٢) ، وقرأ غيره : « وقالوا اتخذ الله ولدا » وان حذف الواو ثابت فى المصحف الشامى ، وكان ابن كثير يقرأ « تجرى من تحتها الأنهار » وقراءة غيرها تجرى تحتها الأنهار ،

ومفهوم كلام ابن الجزرى أن القراءتين متواترتان ، وان هذا يؤدى الى أمر جوهرى ، وهو أن المصاحف فى هذا الموضوع ليست نسخا متحدة اتحادا كاملا منسوخة كلها من المصحف الامام وهو المصحف الذى احتفظ به الامام عثمان فى دار الخلافة ، وقد اتفقت الروايات على أنه لم يكن كالمصحف الشامى الذى كان على قراءة ابن عامر ، لأن مصحف الشام خالف كل المصاحف فى نقص الواو — ومنها المصحف الامام مصحف عثمان وبذلك يكون الرجوع لمصحف عثمان وما نقل عنه من المصاحف ، وهو المصحف المجموع فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر وحفظ عن حفصة ، وهو أيضا المتطابق مع المکتوب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكذلك الأمر فى زيادة ( من ) فى قراءة ابن كثير المتفق مع المصحف المكى ، وغيره من المصاحف ، ومنه المصحف الامام على عدم زيادة من فى الآية التى زيدت فيها فى المصحف المكى .

وان النتيجة لهذا أن نقول ان الأصل هو المصحف الامام مصحف المدينة يقبل ما يتفق معه ، وينعقد الاجماع عليه وما لا يتفق معه ينظر فيه ، وربما كان رده أظهر : لولا ما يقال من أن القراءة بالزيادة ليست آحادا ولا شاذة ، بل متوافرة . ومن أجل ذلك حاول القرطبى التوفيق بين الزيادة ، وحذفها ، فقال : «وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم ، وينقصها بعضهم ، فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، اذ كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ، ولم يكتبها فى بعض أشعارا بأن كل ذلك صحيح وأن القراءة بكل منها جائزة .

#### رواة القراءات :

٢٢ — كانت القراءات معروفة فى عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين وقد تلقوها جميعا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرنا أن مصحف الامام عثمان والامامين من قبله ، وما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان غير منقوط ولا مشكول لكى يحتمل القراءات كلها ، ولكيلا يعتمد القارىء على المکتوب

بل يتلقى المقروء بالتلقى ليصل السند الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد قال بعضهم أن الخطأ في عصر النبي عليه السلام كان غير منقوط ولا مشكول لأن العربية لغة بيان وافصح وتعبير ، وانسجام بين ألفاظها ، وتأخ بين أساليبها ، فلا تعتمد على المكتوب ، بل على المقروء ونغماته ، وتأخى عباراته من غير تجافى اللفظ عن المعنى ، ولا المعنى عن اللفظ .

ولما أخذت العجمة تغزو اللسان العربي ابتدعوا بنقط القرآن وشكله في عهد عبد الملك بن مروان من غير بعد عن القراءات ، ومن غير اعتماد على المكتوب ، بل يكون مع المكتوب ضرورة الاقراء من حافظ ، وبذلك أمكن اجتماع الشكل والنقط مع الرواية وتواتر القراءة ، وتعرف أوجه القراءات المنقولة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان في الصحابة من يقرئ الناس ويعلمهم وجوه القراءات .

وقد اشتهر باقراء الناس للقرآن ، وتعريفهم أوجه قراءاته طائفة من الصحابة قد احتجزوا عن الخروج الى ميادين الفتح ، ليعلموا الناس ويفقهوهم في دينهم ، و يقرئوهم القرآن الكريم .

ومن هؤلاء عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب فارس الاسلام احتجز عن الجهاد بالسيف ، ليكون له جهاد العلم والقرآن ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء .

وعن هؤلاء أخذ كثيرون من الصحابة والتابعون وأقرءوهم القرآن بوجوه القراءات ، وكلها يتفق مع المكتوب عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولما أخذ المقرئون للقرآن من الصحابة ينقرضون حمل التابعون ذلك العبد الكريم ، فقاموا بحقه ، ويظهر أن المقرئ كان يقرئ طالب القرآن القراءات كلها ، ويختار منها ما يطوع له لسانه ، من غير اعوجاج ، فكان الصحابة وكبار التابعين يقرئون بالأوجه كلها ، ولكن يختار المستحفظ ما يقوى عليه لسانه .

وفي آخر عصر التابعين خلف من بعد قراء الصحابة والتابعين خلف طيب ، وجد التخصص في قراءة من القراءات أولى من حفظ جميعها ، فانه اذا كان ذلك في طاقة الصحابة ومن داناهم من كبار التابعين ، فمن وراءهم دون ذلك ، اذ أخذت

الطبيعة العربية تضعف عن حمل العبء كاملا ، فمعنى من أفاضل القراء من صغار التابعين ، وتابعى التابعين برواية كل واحد منهم قراءة واحدة ليسهل عليه نطقها ورووها متواترة ، فكانت الرحال تشد اليهم ينتلقون عنهم ، ويأخذون بما يقرئه كل واحد .

واشتهر من هؤلاء الذين خلفوا عهد الحفاظ من الصحابة الذين كانوا يقرئون الناس من صحابة وتابعين ، اشتهر سبعة كانوا من بعد أئمة القراء .

وهم عبدالله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ هـ ، وعبدالله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، وعاصم بن مهدي الأسدي المتوفى سنة ١٢٨ هـ ، وأبو عمرو بن العلاء شيخ الرواة المتوفى سنة ١٥٤ هـ ، وحمزة بن حبيب الزيات العجلي المتوفى سنة ١٥٦ هـ ، ونافع بن نعيم المتوفى سنة ١٦٩ هـ ، وعلى بن حمزة الكسائي امام الكوفيين المتوفى سنة ١٥٩ هـ ، وقراءات هؤلاء السبعة هي المتفق عليها التي نالت الاجماع ، واكمل واحد منها سندها المتصل المتواتر ، وطويقه وهو محفوظ في علم القراءات ، وأجمع المسلمون على التواتر فيها .

وقد ألحق علماء القراءات وأهل الخبرة فيهما ثلاثة غيرهم صحت قراءتهم ، وثبت تواترها ، وهم : أبو جعفر يزيد بن القعقاع المتوفى سنة ١٣٢ هـ ، ويعقوب بن اسحق الحضري المتوفى سنة ١٨٥ هـ ، وخلف بن هشام .

وقراءات هؤلاء باضافتها الى القراءات السبع تكون عشرة كاملة .

### اقسام القراءات :

٢٢ - لا عبرة الا بالقراءات المتواترة لأنها هي التي تتناسب مع تواتر القرآن ، وحفظه في الأجيال الى يوم القيامة ، وسد السبيل للريب ، فلا يأتيه في أى ناحية من نواحيه ، لأنه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، ولأن الله تعالى قد وعد بحفظه فقال : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون (١) » والله تعالى لا يخلف الميعاد .

ولكن مع ذلك قرر علماء القراءات أن هناك ما روى بطريق الآحاد ، وهناك



النساذ ، وان كان الاثنان لم يبلغا درجة أن تكون معتبرة أو لائقة بالقرآن •  
ولذلك قسموا القراءات الى أقسام ثلاثة :

أولها — القراءات المتواترة ، وهي حجة في التلاوة ، وليس لمؤمن بالقرآن أن ينكرها • وإذا كان قد روى عن الزمخشري (١) انكار بعض القراءات أو ردها مستنكرا لها ، فإن ذلك النوع ليس من القراءات المتواترة ، وما كان لمثل الزمخشري في علمه ومكانته وإيمانه أن ينكر متواترا ، والذين يستمسكون بمثل قوله ، لا يأخذون الا بحبل واه ، يهوى بهم الى نار جهنم ، لأنه رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ما أنكر متواترا ، ولكنهم يطهرون وراء كل ريح يحسبونها هادمة ، ولكن ما هم بيالغيه ، ودون ذلك دق أعناقهم •  
وشروط القراءة المتواترة ثلاثة :

أولها — أن تكون موافقة للمصحف الامام ، لأنه الأصل المعتمد عليه ، وهو المرجع ، وهو ضرورة صادقة للمكتوب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيكون بالتزامه القرآن متواترا قراءة وكتابة ، والله سبحانه وتعالى هو الحافظ له الى يوم الدين •

الشرط الثانى : التواتر في السند بأن يرويه جمع عن جمع حتى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

الشرط الثالث : أن يكون موافقا للمنهاج العربى الثابت فى اللغة ، وليس معنى ذلك أن تكون أقوال النحويين حاكمة على القرآن بالصحة ، فإنه هو الحاكم عليه ، وهو أقوى حجج النحويين فى اثبات ما يثبتون ، ونفى ما ينفون ، ولكن معنى ذلك ألا يكون فيه ما يخالف الأسلوب العربى فى مؤرداته وفى جملة وعباراته •

القسم الثانى : القراءة غير المتواترة ، وقد رويت بطريق الآحاد ، ولم تبلغ فى روايتها حد التواتر ، وهذه يكون روايتها عدولا ، لم يثبت عليهم ريبه اتهام فى قول أو عمل ، وهذه يقرأ القرآن بها ، وخصوصا اذا وافقت المتواتر بشرط موافقتها للمصحف الامام وهو متواتر ، فتكون فى معنى المتواترة ، وموافقتها

• للمنهاج العربى ، فلا يكون فيها ما يخالف المنهاج العربى •

والقسم الثالث : الشاذة ، وهى المخالفة للمصحف الامام ، ولم تثبت بسند صحيح ، ولو بطريق الآحاد •

وانى أرى ألا يقبل الا المتواتر •

ويجب التنبيه الى أمر ، وهو أن القراءات السبع المنسوبة للقراء السبعة قيل انها لا تخلو من شاذ مرفوض ، وان كانت فى جملتها مشهورة • جاء فى كتاب أعجاز القرآن لمرحوم الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعى رضى الله عنه نقلا ما نصه :

« لا تخلو احدى القراءات من شواذ فيها حتى السبع المشهورة ، فان فيها من ذلك أشياء » •

وأزن بين هذا ، وبين القراءتين اللتين زيدت فى إحداهما واو ، وقيل انها موافقة للمصحف الشامى •

وفى الأخرى من ، وقيل انها موافقة للمصحف المكى •

### فائدة وجوه القراءات

٢٣ — ان القراءات — كما ذكرنا — هى ترتيل القرآن الذى علمنا الله تعالى اياه على لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ علمه ربه ونسب الترتيل الى ذاته العلية ، فقال تعالى : « ورتلناه ترتيلا » (١) • • وأمر نبيه بهذا الترتيل هو ومن اتبعه ، فقال تعالت كلماته : « ورتل القرآن ترتيلا » (٢) • • فكانت القراءات التى نزل بها القرآن هى تصريف ذلك الترتيل وتنويجه ، وكما أن المعانى القرآنية حرفها الله تعالى من الاستفهام الى التقرير ، ومن الاستنكار والتوبيخ الى التهذيب والتأديب ، وكما صرف الله آياته كما قال تعالى : « وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون (٣) » • • فقد صرف تلاوته وترتيبه ، فكان الترتيل فى التأليف الصوتى ، والتناسق فى النطق ، وتنوع ذلك التناسق من ارتقاع ومد طويل ، الى خفض ومد قصير ، مما يشبه التأليف الموسيقى ، وان كان أعلى لأنه

ليس من صنع البشر • ويجد القارىء في ذلك التنوع ما يجعله يثرثم بالقرآن في اجلاله ، وروعة بيازه ، ودقة معانيه •

وأمر ثان يبدو في تنوع القراءات مع ثبوت تواترها وأنها عن الله العلى القدير ، نجد أن اختيار قراءة من القراءات في المقام الذى تناسبه يكون توضيحا للمعنى ، ومناسبا للمؤدى ، فمثلا قراءة الامالة تكون في الموضع اللين والخطاب الرقيق ، ويتركها القارىء الفاهم في موضع التهديد والانذار الى قراءة أخرى تناسب التهديد والانذار الشديد ، فثلا في سورة الحاقة لا يعمد المرتل المدرك الى اللين في الوقوف على التاء ، لأنه لا ينتاسب مع موضوع التهديد الذى اشتمت عليه السورة كلها ، وقد نبهنا بعض القراء الذى كان يختار اللين ، فنتبه ، وما عادوا أماننا ما كان يفعل •

وأمر ثالث في تعدد القراءات فوق ما فيها من مراعاة مقتضى المعانى • وفوق ما فيها من ترتيل هو موسيقى القرآن ، ان صح لنا هذا التعبير مع أن القرآن في مقام أعلى وأسوى ، ذلك الأمر أن تنوع القراءات فيه تسهيل على القارىء العربى ، فقد تصعب عليه قراءة ، اذ لا تطاوعها طبيعته أو سليقته اللغوية •

وهناك أمر رابع في تنوع القراءات ، وهو أن يكون مجموع القراءتين - وكلتاهما قرآن - دالا على معنيين في لفظ واحد متلاقين غير متضادين ، فمثلا قراءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم (١) » بضم الفاء يدل على أنه من العرب ، والعرب قومهم ، وذوو رحمهم القريبه ، أو البعيدة ، واذا اجتمعت معها القراءة بفتح الفاء كانت الآية دالة بهذه القراءة على أنه من أوسط القوم وأعلامهم ، فالقراءتان والكلمة واحدة تدلان بالنص على معنيين غير متضادين ، وكلاهما صحيح صادق ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان من العرب ، وكان من أنفسهم ترتبط مشاعره بمشاعرهم يحس بما يحسون ، وهو مندمج فيهم ، وقريب منهم ، ثم كان مع هذا التقرب النفسى من أعلى العرب منزلة ، وأكرمهم ، وكذلك يكون الأنبياء من أوساط الأتوام الذى يتسامون عن سفاسف الأمور ، ويتجهون الى معاليها •

وقد يقول قائل ان قراءة أنفسكم بفتح الفاء تدل على الأمرين ، فهى تدل على

أنه من أعلى قریش وسطاً ، وتدلل على أنه منهم ، ونقول في الجواب عن ذلك انها تدل بالنص على الشرف ، وأنه من أعلى القويم ، ولا يفيد بالقصد والذات انه من نفس العرب ، ومن ذاتيتهم ، وأنه يحس باحساسهم ، لا تدل فراءة الفتح على ذلك بالنص ، وبيان امتزاج نفسه عليه السلام بأنفسهم ، وان هذا لا يد منه ليشرع بشعورهم ، ويشاركهم بوجودانه واحساسه ، ويجذبهم اليه بقوة الامتزاج النفسى ، كما يعينهم بالدليل ، وبالحق في ذاته ، وبما آتاه الله تعالى من بينات باهرات •

وقد يكون اختلاف القراءة فيه كمال التوضيح البياني من غير قصور في احدهما ، ولكن بالقراءتين يكون البيان كاملاً ، مثل قراءة قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا (١) » فان قوله تعالى : « فتبينوا » تقرأ « فتثبتوا » ولا شك أن المعنى في القراءتين هو ألا يؤخذ الساعى بالنميمة أو الساعى بالأذى ، أو المفسد بين الناس لا يصدق قوله ابتداءً وألا ينساق وراء ما يثيره القول من عاطفة جامحة أحياناً قد تدفع الى الشر عن غير بينة فالله تعالت آياته ينبه الى أنه لا يجوز التصديق الا بعد التبين ، والتبين يكون بطرائق مختلفة منها ما يكون بطرق الاثبات من بينات ، ومنها ما يكون بالقرائن ، ومنها ما يكون بربط الأمور الواقعة بالأمر المخبر عنه ، وهكذا ، فالقراءتان : تبين احدهما التبين بالطرق المختلفة والثانية تبين أن أسلم الطرق هو تعرف الأمر بما يثبت من أقوال الصادقين المؤمنين •

وانه قد يكون اختلاف القراءات مؤدياً الى بيان حكم بقراءة ، وحكم منم له بقراءة أخرى ، فتستفاد الأحكام في أوجز تعبير على ما نيه في تغيير القراءة من اختلاف في نعم الترتيل ، وموسيقا البيان القرآنى الذى يساميه •

وقد قال في هذا المعنى الكاتب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى « وثالثة تلحق بمعانى الاعجاز ، وهى أن تكون الألفاظ في اختلاف بعض صورها مما ينهياً معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معانى الشريعة ، ولذا كانت القراءات من حجة الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد ، وهذا المعنى مما انفرد به القرآن الكريم ، ثم هو

مما لا يستطيعه لغوى أو بيانى فى تصوير خيال فضلا عن تقرير شريعة» •

ولذلك تجد الفقهاء فى استدلالاتهم الفقهية يقولون الهجة فيه قراءة كذا ، وهى لا تكون مناقضة للقراءة الأخرى ، وربما تكون القراءة دالة على حكم آخر غير مناقض للحكم الذى دلت عليه القراءة المستشهد بها فتكون الآية بالقراءتين دالة على حكمين متلاقيين غير متناقضين ، وذلك من الإيجاز المعجز الذى لا يوجد فى كلام الناس ، ولكنه موجود فى كلام خالق الناس •

٢٤ - هذا ونحتم الكلام فى القراءات بكلمة مأثورة للمصاحبى الفقيه عبد الله ابن مسعود ، فهو يقول :

«لا تنازعوا فى القرآن فإنه لا يختلف ، ولا يتلاشى ، ولا ينفذ لكثرة الرد وأنه شريعة الاسلام وحدوده وفرائضه ولو كان شىء من الحرفين ( أى القراءتين ) ينهى عن شىء يأمر به الآخر ، كان ذلك الاختلاف ، ولكنه جامع ذلك كله لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض ، ولا شىء من شرائع الاسلام ، ولقد رأيتنا نتنازع عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فياأمرنا فنقرأ عليه ، فيخبرنا أن كلنا محسن ، ولو أن أحد أعلم بما أنزل الله على رسوله منى لطلبته ، حتى أزداد علما الى علمى ، ولقد قرأت من لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبعين سورة ، وقد كنت علمت أنه يعرض عليه القرآن فى رمضان ، حتى كان عام قبض فعرض عليه مرتين ، فكنت اذا فرغ أقرأ عليه ، فيخبرنى أنى محسن » •

اللهم احفظنا بالقرآن ، واجعله محفوظا بيننا كما وعدت انك لا تخلف الميعاد ، ووفقنا للعمل به •

# الباب الثاني

## عجـاز القرآن

٢٥ - ذكر المؤرخون ما كان عليه العرب من تلق لديانات النبيين السابقين ، حتى قال قائل المؤرخين وأهل السير : ان نوحا عليه السلام كان بعثه فيهم ، وكذلك كان ادريس ، وصالح ، وشعيب ، وهود ، وابراهيم واسماعيل ، فكانت مهجداً للرسالة الالهية .

واذا كان لذلك أثر أو دلالة ، فهو أن العرب قوم فيهم ثقافة وأديان ، وقد وضحنا ذلك عند الكلام في حكمة اختيار العرب لأن يكونوا موضع الرسالة الخالدة رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (فيما كتبنا في سيرة الرسول عليه السلام) .

واذا كان العرب في عصر الرسالة المحمدية كانت فيهم بدوأة سائدة ، وحضارة ثليلة ، فأكثر العرب ، أو الصحراء العربية ان استثنينا اليمن والحيرة ، وما يصاقب الفرس ، والشام وما يصاقب الرومان - كانت البدوأة فيهم غالبية ولكنهم في بدوهم وحضرهم ، في مدرهم ووبرهم امتازوا من بين معاصريهم بالنزوع الى الكلام الطيب ، وكانت سيادة الأمية فيهم سبباً في أن أرفهوا كلمات لغتهم ، وأسلوب خطابهم ، وملاحظة جرس الكلمات ، وموسيقى العبارات وانسجام الحروف ، ومؤاخاة المعاني للألفاظ ، حتى ان النطق يدل على المعنى ، وفي مترادف الكلمات ما يدل على أن المعاني كانت ملاحظة في كل لفظ ، فالأسد يقال له أسد ، وليث وعضنفر ، وغير ذلك من المترادفات لمعنى السبع ، فكلمة عضنفر يقال له في حال عنفه وفتكه ، وكلمة ليث يقال له في حال ثباته ورباطة جأشه ، وهكذا تجد النطق متلاقياً مع المعنى ، فهما متساوقان ، المعنى ملاحظ في النطق ، والنطق لابس للمعنى ، وكلاهما يحيط بصاحبه ويؤاخيه ولا ينفصل عنه .

وفي الأسلوب الذي يصوره الاعراب تجد الانقطاع عن النسق الاعرابي في القول يتغير بتغيير وجه الاعراب ، من غير خطأ ، بل يقصد معنى من معاني التخصيص يكون النطق في الانقطاع قائماً مقام وضع خطوط تحت الكلمات ، كما يفعل الكاتبون غير الأميين ، وهكذا كان النطق قائماً مقام خطوط الكاتبين في تنبيهها ، وشدة

الاختصاص في دقة المعاني ، فهي بحق لغة اصباح ، وذلك لقوة المدارك ، وعلو الافكاره  
والنزوع الى السمو والمعالي مع الامية ، وعلبه اليدويه •

ومد ظهر ذلك في امرين : احدهما ان الجزء الذي دخلته حضارة من البلاد  
العربية حاليمن والحيره وابحرين لم تكن عندهم مصاحبه خالدين لم تسيطر عليهم  
الحصاره في موده الاصباح والبيان وسلامه التعبير ، فلم تكن اليمنيه حانعدنانيه •  
ولا لغة اهل البادية لغة مريثس ، لان قريشاً قد غارت ، وداخت بعض الحصاره ،  
وبقيت أميتها •

الامر الثاني — في المسابقات البيانية التي كانت تعقد في الأسواق في موسم  
الحج في عداظ ، ومجته وذى الحجاز ، فقد كانت فيها تجارة المادة ، وتجارة البيان  
معا ، فقد كان في الاولى زاد الجسم ، وفي الثانية زاد النفس ، كما ظهر ذلك في  
الشعر ومسابقاته ، فمن معلقات تعلق في أستار الكعبة ، وحوايات يقطع الحول في  
نسخ خيالها ، وصوغ عباراتها التي تصغى اليها الأمتدة •

ولو أنك وازنت بين العرب وغيرهم ممن هم في مثل حالهم من البداوة الغالبة ،  
لوجدتهم في السماك الاعزل وغيرهم في الحضيض الأوهده ، فلا يزال الحاضرون من  
غير العرب يجدون في شعر زهير بن أبي سلمى حكمة البيان الشعري ، وفي شعر  
امرئ القيس قوة الوصف وقوة الشباب ، وفي شعر عنتره قوة البأس ولطف  
للتشبيب والغزل ، وفي شعر طرفة قوة النفس النائرة ، وهكذا لو وازنت بين هذه  
الآثار ، وما بقي من شعر اليونان والرومان لوجدتها لا تقل عنها في احكام الفكرة ،  
وسلامة التفكير ، ولكن تزيد عليها في حلاوة النغم ، وتساقق الفكر ، وتآخي الألفاظ  
مع المعاني •

نعم ان الأدب القصصي في اليونان كثير ، وهو خلاصة ما عندهم ولبه ، وهو  
عند العرب قليل أو أقل من القليل • والسبب في ذلك هو أن هذا ثمرة الكتابة  
التي تتيح للكاتب فرصة التأليف وتلفيق الوقائع ، بحيث تكون كل واقعة لفق الأخرى  
مسلسلة معها ، في خيال متنسق ، وهكذا •

أما العرب الذين غلبت عليهم الأمية مع تذوق القول ، وتخير خيره ، واستهجان

هجينه ، فان أدبهم يكون باللمح السريع ، والنظر الخاطف أحيانا والمستبصر المتدبر في أكثر الأحيان عند الذين أوتوا فكرا وعقلا وادراكا ، وفي الجملة لا وسط بين كلامهم وجنانهم ، ولا زمن مستغرق بين خاطرهم وقولهم ، فتكون خيالاتهم فيها جمال اللمح ، وقوة اللحظ ، وسرعة الادراك •

٢٦ - ولذلك أجمع المؤرخون في القديم والحديث على أن العرب لهم مآثر في البيان ، وذوق الكلام ، والتفريق بين كريمه وسقيمه ، وجميله وهجينه •

ولنترك الكلمة للقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ يصف بيانهم في كتابه الشفاء ، فهو يقول : «خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت انسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ، وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به الى كل سبب ، فيخطبون بديها في المقامات ، وتشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل ، فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب ، ويذهبون الاحن ، ويهيجون الندم ، ويجرئون الجبان ... منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل ، والكلام الفخم والطبع الجوهري ، والمنزع القوى ، ومنهم الحضري (أى ساكن المدن) ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف في القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق الرقيق الحاشية » الى آخر ما ذكره عياض في بيان بلاغة العرب ، ومقدار ادراكهم لجمال الكلمات في رنينها ، كما يدرك الصيرفي رنين الطلى الكريمة غير الزائفة ، من بين ما يعرض له •

تلك كانت حال العرب في جاهليتهم ، كانت جهلا بالدين مع بقايا ملة ابراهيم ، وليسوا جهالا في البيان ومعرفة أسرار البلاغة يدركونه بلحظ الحال ، لا بامعان عقل وطول تفكير يدركونه بنغماته ومعانيه في لمح الفكر ، من غير طول المكث •

نذلك كان المناسب لمثل هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخطبهم القرآن الكريم ابتداء أن تكون المعجزة من النوع الذي



يهسنونه ، ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة ، فالمعجزة بلائيك تناسبهم فوق مناسبتها لموضوع الرسالة وعموم أزماتها وخلودها الى يوم القيامة ، وقد بينا ذلك في أول الكلام ، فاذا كانت معجزة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من نوع الكلام السامى فوق طاقة الناس فانها تكون مناسبة لمن تلقوها في أول أمرها ومناسبة لخلودها .

اننا لا ننفى الآن ، ولم ننف من قبل أنها مناسبة لعصر نزولها ، ولكننا نقول أيضا انها أشد مناسبة لموضوع الرسالة وخلودها ، وبقائها الى يوم القيامة . ان القرآن في أعلى درجات البيان من حيث لفظه ، ومن حيث نعماته ، ومن حيث مغازيه ومن حيث الصور البيانية التى تكون في ألفاظه وعباراته ، حتى ان كل عبارة تلقى في الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة في روعتها ، ودقة تصويرها ، بل ان كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها مفردة ، وبتأخيها مع أخواتها في العبارة تتكون صورة بيانية أخرى ، نوق أن الرنين الموسيقى تتفعل به الأسماع الى القلوب في معان محكمة ، وحقائق بيينة ، وشرائع منظمة للعلاقات والسلوك الانسانى القويم ، الهادى الى الصراط المستقيم .

التقى في المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم وهى القرآن المبين - معنيان ، أصيب بهما هدفان :

أولهما - أنه المناسب الذى يعرف به العرب معنى الشيء الخارق لما عرف ، الخارج عن طاقتهم ، فانه لا يدرك أثر ذلك الا هم ، ولا يعرف مقامه الا من على شاكلتهم من معرفة مقام القول ، ومنزلة البيان .

وثانيهما - أن كونه من نوع الكلام الموحى به الباقى الخالد الذى حفظه الله تعالى ، ووعد بحفظه الى يوم القيامة كما تلونا من قبل « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » (١) وذلك يناسب رسالته التى هى خاتم الرسائل الالهية التى جاء بها محمد رسول الله تعالى خاتم النبيين ، بصريح القرآن الكريم ، فلا نبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

فكان المناسب أن تكون المعجزة من نوع الكلام الخالد الباقى ، كما روى أنه

صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما من نبي الا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وكان الذى أوتيته وحياً أوحى به الى ، وانى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً الى يوم القيامة » كما روينا من قبل ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام •

وانه معجزة للخليفة كلها ، وفيه الدليل على أنه من عند الله للناس أجمعين ، فهو ان جاء بلسان العرب ، وفيه أعلى درجات البيان العربى ، يشتمل فى ثناياه على ما يعجز الناس أجمعين ، فاذا كان قد أعجز العرب ببيانه فقد أعجز الناس أجمعين بمعانيه ، وشرائعه وما اشتمل عليه من علوم ، بل بمبانيه أيضاً • قال منزله عز من قائل « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (١) تعالت كلمات الله تعالى •

## تلقى العرب للقرآن

٢٧ — كاف محمد عليه الصلاة والسلام أن يستعد للقاء الرسالة الالهية لينشر التوحيد والخلق المستقيم والعبادة الخالصة لله تعالى بين الناس ، وكان تكليفه بالقرآن وأول نزوله ، فقال له جل جلاله : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (٢) • تقدم محمد للدعوة الى ربه معتمداً على أمرين بعد تأييد الله تعالى له واعزازه ، ومصابرتة وأخذهم بالصنى •

اعتمد أولاً على الحق الذى يدعو اليه ، فالحق ذاته قوة لاتعدلها قوة عند النفوس التى لم تتعوج بمفاسد العصبية ، أو التقليد المصم عن الحق ، فذكر لهم التوحيد ، وقد كانوا على ادراك له فى الحملة كما بينا عند الكلام فى القسم التاريخى عن بقاء فى بعض المأثورات عن ابراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة ، وأتم التسليم •

وكان التنبيه الى أن الأوثان لا يعقل أن تعبد ، وازالة ما حولها من أوهام ، وما علق بها من خرافات ما انزل الله بها من سلطان ، وقد بين ذلك محمد عليه السلام على أكمل وجه •

واعتمد مع نور الحق في ذاته على نور القرآن المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو في هدأة الداعي الرشيد يدعوهم الى هجر عبادة الأوثان ، ويقراً عليهم القرآن الكريم ، ففي دعوة الحق ، وفي القرآن البرهان القاطع والنوء اللامع •

كانوا ينفرون من الحق المجرد ، لأنه يخالف ما ألفوا ، وما وجدوا عليه آباءهم : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أول لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ، ولا يهتدون » (١) •

ولكنهم اذا استمعوا الى القرآن تحيرت الأفهام ، واضطربت أحوالهم بين قديم ألفوه ، وحق في القرآن عرفوه ، فهم يحاورون في الحق ، ولكن لا يدرون ماذا يدعون به القرآن الذي يحمله ، ويدعو اليه والى ما جاء به ، وانهم بذوقهم البياني يجدون أنه فوق كل كلام ، ولا يمكن أن يجري به لسان من أسفنتهم وأمثالهم ، بل لا يمكن أن يأتي به محمد من عنده ، لأنهم من قبل عرفوا كلامه ، وقد رأوه عالياً في جوامع كلمه ، ولكن القرآن أعلى من طاقة الانسان ومن طاقة محمد ذاته •

ماذا يقولون فيه ؟ أيقولون انه باطل وقد كبروا ما هو دونه من قصيد ورجز ، ان في ذلك كانت الحيرة ، وهم من الناحية البيانية لم ينتهفتوا ، ولم يسفوا في القول ، واذا كان فيهم حمقى حاولوا أن يجاروه ، أو ادعوا أنهم يجارونه ، وعرضوا ما قالوا ، فنال الاستضحاك والسخرية ، وزاد القرآن الكريم مكانة وتقديراً ، وما كان لأمثال أبي سفيان والوليد بن المغيرة أن يسفوا بأنفسهم ذلك الاسفاف ، بل انه لم يسف الى هذا عمرو بن هشام ( أبو جهل ) لأنه يعلم مقدار علوه ، فلا ينتهفت الى انكار مكانته في البيان ، فهو يستبيح أذى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأذى أصحابه ، ولا يستبيح الطعن في مقام القرآن البياني ؛ لأنه يلحق الطعن بالأذى والتصغير ، ولا يلحق محمدا الذي نزل القرآن عليه وخاطب به الناس أجمعين ، ولنذكر لك أخبار من سمع القرآن ، وخر بين يديه صاعراً مع شدة العداوة والملاحاة واللدد والخصومة ، والبقاء على الكفر ، والاصرار على الشرك •

٢٨ — (١) سمعه الوليد بن المغيرة فرق له رقة لم تعرف فيه نحو الاسلام فحشى أبو جهل ( عمرو بن هشام ) أن يسير في الطريق القويم الى الاسلام ، فأنكر عليه أبو جهل حاله ، ولكنه لم يستطع أن يقول في القرآن شيئاً ، فقال له الوليد :

« والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني ، أعرف رجزها وقصيدتها ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من ذلك ، ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر » •

ولقد اجتمعت قريش عند الوليد يتذاكرون ماذا يقولون في القرآن ، وقد رأوا العرب يفدون ، ويستمعون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيبلغ القرآن منهم أعماق نفوسهم ، فكيف يصدونهم عن ذكر الله ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فأنتمروا واجتمعوا حول الوليد ، ليتعلموا ماذا هم قائلون لمنع الحق ، وقد قال لهم أولاً الحق على ريب في نفسه :

قال لهم الوليد العارف الضال : ان وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضهم بعضاً •

قالوا فنقول « كاهن » •

قال والله ما هو بكاهن ، ما هو برمزمته ، ولا سجعه •

قالوا : « مجنون » ، قال ما هو بمجنون ، ولا بخنقه ، ولا بوسوسته •

قالوا فنقول « شاعر » :

قال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ، ومبسوطه

ومقبوضه ما هو بشاعر •

قالوا فنقول « ساحر » •

قال ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده •

قالوا فما تقول أنت ؟

قال ما أنتم بقائلين في هذا شيئاً ، الا وأنا أعرف أنه باطل ، وان كان أغرب

القول انه ساحر ، فانه سحر يفرق بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ،

والمرء وعشيرته ، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس •

(ب) ولنذكر خبر عتبة بن أبي ربيعة ، فقد سمع القرآن وهو على الشرك ، ومن كبراء قريش ، فأدرك بذوقه البياني مقام القرآن ، وقال مقالة الحق ، والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ما هو بالشعر ولا بالكهانة » •

(ح) وقد ورد في حديث اسلام أبي ذر الغفاري أنه قال : « ما سمعت بأشعر من أخي أنيس ، لقد نامض اثني عشر شاعراً في الجاهلية ، أنا أحدهم ، وقد انطلق إلى مكة ، وجاء أنيس إلى أبي ذر بخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبو ذر فما يقوله الناس ؟ قال يقولون شاعر كاهن ساحر ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أوزان الشعر ، فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد ، وأنه لصادق وانهم لكاذبون •

(د) ان كبار المعارضين للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم خافوا على أنفسهم من أن يؤثر القرآن فيهم واستحبوا الكفر على الايمان واستحبوا العمى على الهدى ، ولذلك تفاهموا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن ؛ لأن الذين يسمعونه يتأثرون بما فيه من علو بيان ، وأنه فوق طاقة البشر ، ووجدوا الناس يؤمنون به فرادى ، ومنهم كبراء كانوا ذوي مقام وجبروت • فوجدوا الايمان يقوى ويكثر أهله ، والشرك يضعف وينقص عدده ، تفاهموا على ألا يسمعوا لهذا القرآن كما أشرنا ، وأن يهرجوا بالقول عند سماعه • ولقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك ، فقال تعالى : « وقال الذين كفروا لا تسمعون لهذا القرآن ، والغوا فيه ، لعلكم تغلبون » (١) •

(هـ) ولقد كانوا اذا تلى عليهم القرآن لا ينقده كبراًؤهم ، وان كان السفهاء السفسافون منهم يتناولون لحمقهم ، أما الذين أوتوا حظاً من الادراك ، ولو أعمتهم العصبية وأبعدتهم عن الايمان ، فانهم يفرون من مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقولون : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » (٢) •

(و) وان الله سبحانه وتعالى لم يتركهم في هذا العجز الصامت الذي يفرون فيه من المواجهة ، ولا يريدون المناصب ، بل يكتفون بالسكوت العاجز ، ويحاولون

التمويه على غيرهم ، كما كفروا في أنفسهم بالحق ، وقد عرفوه بل تحداهم أن يأتوا بمثله ، ليثير حسبتهم أو يؤمنوا به . وليلين ضعفهم أو يستسلموا ، فقال تعالى : « أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين (١) » أي أنه اذا كان قد نسبة لله تعالى افتراء وهو منه ، فمحمد منكم ، فأتوا بمثله ان كنتم صادقين ، وادعوا شهداء ليشهدوا لكم أو عليكم .

وادعوا أن مافيه غير صادق فتحداهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بمفترى يكون في مثل بيانه ، فقال تعالى : « أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين (٢) » .

٢٩ — وننتهي من ذلك الى حقيقتين ثابتتين نشير اليهما بالاجمال ، وسنتعرض

ببعض التفصيل عند الكلام عن وجوه الاعجاز .

الحقيقة الأولى أن قريشاً مع شدة ملاحظاتها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يجبون ، وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون لم يتحركوا لأن يقولوا مثله ، وأذعنوا لبلاغته وقوته ، وما أسلم عمر بن الخطاب الا بعد أن قرأ فيه ، وكذلك جبير بن مطعم ، وان القرآن تحداهم ، أن يأتوا بمثله ، فما فعلوا ، بل ماتحرك العقلاء منهم لأن يفعلوا حتى لايسفوا في تفكيرهم وهم أمام رجل كبير في قومه وعقله ، ومعه آيات الله تعالى البيئات ، فذل هذا على عجز مطلق .

الحقيقة الثانية : أن القرآن جذب العرب الى الايمان بما فيه من روعة ، وقوة بيان ، وايجاز معجز وأقوال محكمة ، وقصص تطول وتقتصر ، وهي مملوءة بالعبر في طولها وقصرها ، واطنابها الرائع وايجازها الذي لايدع صغيرة ولا كبيرة الا أوفها بالعبرة الناصعة ، والانسارة الواضحة فما كان الايمان نتيجة تحد للمقاويل منهم وعجز ، وان كان العجز ثابتاً ، وانما كان الايمان ثابتا بالقرآن فهو الذي جذب الى الايمان بما فيه من بيان أدركوا أنه فوق طاقة البشر ، وأنه حقائق ثابتة كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، أن الله قوى عزيز (٣) » .

وان الثابت مع ذلك أنه لم يحاول أحد من أهل البيان أن يأتي تمثله ، ولم يعرف ذلك ، واذا كان التاريخ قد ذكر شيئاً من هذه المحاولة ، فإنه كان في أيام الردة من مسيلمة الكذاب وأشباهه ، وان هذا الجزء الذى رواه التاريخ الذى روى تلك الكلمات التى حاول بها مسيلمة الكذاب أن يجارى فيها اقرآن ، يبين مقدار ادراك المشركين ، اذ لم يحاولوا المجاراة ، حتى لايسفوا ، ويكونوا أضحوكة بين العرب ، وموضع سخرية ، يسخرون بعقولهم ، ولننقل لك ما نقله الباقلانى (١) فى اعجاز القرآن ليتعجب ، ولينبصر الناظر ، كما قال الباقلانى ، فإنه على سخافته قد أضل ، وعلى ركاكته قد أزل ، لأن الزلزال سابق على سماعه ، والكفر سابق على ابتداعه وميدان الجهل واسع ، والحماسة لها أهل ، وميدانها عندهم ، ونحن اذا قلنا أن المشركين ضاوا ، فهم فى عقولهم كانوا أوسع ادراكا ، وان جحدوا •

انظر ما قال الجهول يحاكي القرآن «والليل» الأظقم ، والذئب الأدلم ، والجذع الأزلما ما انتهكت أسيد من أحرم » لقد قال هذا لفض خلاف وقع فى قوم من أصحابه: انه ليس جديراً بأن يسمى كلاماً فضلاً عن أن يكون له فصاحة أو بلاغة أو أى نوع من الادراك البيانى •

• وهو يقول فى الحكم فى هذا الخلاف أيضاً •

« والليل الدامس ، والذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس »  
وكان يقول : « ضفدع بنت ضفدعين نقى ما تنقنين أعلاك فى الماء وأسفاك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ، ولقرينس نصفها » •

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان ، وكانت تنبأ ، فاجتمع مسيلمة معها ، فقالت له ما أوحى اليك قال أوحى الى « ان الله خلق النساء أفواجا ، وجعل الرجال لمن أزواجا ، فنولج فيهن فقسا ايلاجا ثم نخرجها اذا شئنا اخراجاً ، فينتجن سخالا نتاجا » فقالت أشهد أنك نبى (٢) » •

٣٠ — هذه تقاهات القول التى نقلت عن الذين حاولوا معارضة القرآن ، وقد

(١) توفى سنة ٤٠٣ هـ

(٢) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤٠ ( طبع دار المعارف تحقيق الاستاذ أحمد صقر ) •

أسفوا في القول ، وهبطوا في التفكير ، مما لم يرد أن ينحدر اليه أرباب البيان من قريش ، لأنهم يعرفون مقام ما يسمعون من كلام رب العالمين ، استطاعوا أن يجحدوا الحق وقد عرفوه ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا بمقامهم من الادراك البياني فيفندوا بيانهم وذوقهم الكلامي ، وان ارتضوا أن يفسدوا عقائدهم ، ويكابروا في دينهم ، ويكذبوا رسالة ربهم •

وقد يقول قائل : ان التاريخ الاسلامي لم يرو غير الذين صدقوا وآمنوا فحذفوا ما كانت فيه معارضة للقرآن الكريم ، ولذلك كلام قيل من الأفككين ، ويرده أمران :

أولهما — أنه ما كان يمكن أن يعم الايمان ، وثمة معارضون للقرآن في جد

لا لهو فيه ، ولا عبث •

ثانيهما — أن أعداء الاسلام كانوا في كل زمان منذ ظهر محمد الى أن قبضه الله تعالى ، ودخل الناس في دين الله تعالى أغواجا أفواجا ، فالزنادقة كانوا منبئين في مشارق الأرض ومغاربها ، لا يألون المسلمين وبالا ، وكان أعداء الاسلام في أوساط المسلمين وبين ظهرانيتهم غبثوا فيهم الأفكار المنحرفة ، والأقوال الهادمة ، والمذاهب المخربة ، وأولئك ما كانوا ليستروا الكلام الذي عورض به القرآن ، اذ يرون فيه هدم الأصل ، وأقصى ما استطاع أولئك الزنادقة أن يفعلوه هو أن يراعوا أن عبد الله بن المقفع (١) أتجه الى أن يكتب كتابا يعارض به القرآن ، وهو ان صح كلامهم فيه يدل على أنه نوى ولم يفعل ، ولو فعل لنظرنا الى ما أتى به • واننا نشك في أصل صحته ، ولكنهم يريدون أن يثيروا الغبار ، والغبار قد يغشى الأعين المريضة ، وان كان قد أراد هذا فهو دليل على حمته ، ويثبت زندقته التي اتهم بها ، وأنه أشاع ذلك توهينا ، وأن علم أن المحاولة فوق طاقة البشر •

### سـر الـاعـجـاز

٣١ — عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ثابت ثبوتا لامجال للريب فيه ، لا يرتاب فيه مؤمن ، ولا يجحد ، ولا يمارى فيه الا من يهمل عقله ، ويسقط



من حساب المفكرين ، فعلى ذلك تواترت الأخبار ، واتفقت الأمصار ، لا فرق بين  
عدو وولى •

وانه واضح من سياق الأخبار المتواترة أن عجزهم اقتزن بثلاثة أمور :

أولها — اعجابهم بعلوه عن أن يصل اليه أحد من البشر ، ولم يحاول أحد من  
علاء المشركين أن يسف فيحاول المحاكاة الا من اتصف بالحماقة فكانت حماقته  
ضعفين أحدهما في محاولته ، وثانيهما في نتائج هذه المحاولة اذ جاء بلغو من القول  
لا يحتسب في عداد الكلام ، فضلا عن أن يناهد أبلغ كلام أنزله تعالى في البشر •  
ولقد سببوا عجزهم بأنه يعلو ولا يعلى عليه ، وأن له حلاوة ، وعليه طلاوة ،  
وأن أعلاه مثمر وأسفله مغدق • وقد قال ذلك المغيرة في جمعهم ، فما أنكروا عليه  
حكمه على القرآن الذى سمعه ، ولكن أنكروا عليه أنه تحت تأثير هذا ترك جماعتهم ،  
وكانهم أقروه على الوصف الذى وصف به القرآن ، ولكن أنكروا عليه الايمان ،  
وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم كما وصفهم القرآن الكريم •

ثانيها — أنهم كانوا مع شركهم ، واستكراه نفوسهم لعدم الاقرار به ينجذبون  
اليه ، ويريدون أن يسمعوه ، استنطابة لما فيه من لفظ ذى نغم يجذب ، وعبارات  
مشرقة — ونظم منفرد أجمل من سمط اللآلىء ، ولأنهم عرفوا ميلهم الى استماعه  
وأثره في نفوسهم ، تواصلوا الا يسمعوه ، وأن يلغوا عند سماعه ، ولكن الذين  
تواصلوا ذلك التواصلى ذهب كل واحد منهم منفردا، ولكن الاستخفاء استعلن عندما  
التقوا جميعا ، ورأوا أنفسهم مجتمعين ، وليس كل منهم منفردا ، وقد علموا  
أن التواصلى على عدم الاستماع لا جدوى فيه ، فتواصلوا على الجحود والانكار ،  
فلم يكن تواصلهم على الحق ، ولكن كان على الباطل •

ثالثها — أن أشدهم عنادا كان أقربهم ايمانا إذا قرأ القرآن صغى قلبه الى  
الايمان ، والى الاستجابة لداعيه ، فقد سمع أبو ذر الغفارى القرآن ، فأمن ، وسمعه  
أخوه أنيس ، فأذعن لعلو بلاغته عن مستوى البشر ، وسمعه جبير بن مطعم فأمن ،  
وقراه عمر بن الخطاب ، فانخلع قلبه من الشرك وطغيانه ، الى الايمان ، وأن يكون

غاروق الاسلام الذي كان ايمانه فارما بين الاستخفاء والاعلان ، بين ظهور الحق وخفوته .

ان هذه الأمور التي اقتنرت بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله دلت على أمرين

بدهيين :

أولهما أن الأساس في عجزهم هو ما فيه من بلاغة ورنه قول ، ونعمة بيان أدركوها بذوقهم البياني ، وهم الذين يذوقون باسماعهم ، كما يذوق الطعام بفمه ، وأنه لم يكن عجزهم سلبياً ، بل كان من كثيرين منهم ايجابياً يتبعه العمل ويقترن بالايمان بأنه من عند الله تعالى أى أن وجه الإعجاز فيه أمر ذاتي فيه ، وليس منعا سلبياً .

الأمر الثاني الذي تدل عليه هذه الأمور التي اقتنرت بالعجز عن محاكاته ، هو أن القرآن مع بيانه العالى الذى لا يعالى ، فيه من العلوم ما لم يكونوا يعرفونه ، فيه النرائع المحكمة التى تنظم العلاقات بين الآحاد الأقربين . وغيرهم ، فيه علم الميراث ، وفيه علم الأحكام المختصة بالأسر ، وفيه بيان خلق الانسان من سلالة من طين ، وفيه توجيه النظر الى الكون وما يشتمل عليه ، وفيه من حقائق ما لا يعلمه الا اللطيف الخبير ، الذى خلق فسوى ، والذى احاط بكل شيء علماً .

وفيه القصص والعبرة ، وما كانوا يعلمون شيئاً من ذلك من قبله ، فيه قصة أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، وقصة بناء الكعبة . اذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، وفيه أنبياء البلاد العربية التى تعلن آثار الأقوام وما أنزله الله تعالى بهم ، وفيه قصة موسى عليه السلام ، وفيه قصة مريم ، وتربيتها ، وكيف اختصموا فى كفالتها ، وكيف يستخدمون القرعة بالسهام لتكون كفالتها لمن تكون السهام له : « وما كنت لديهم ، اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم ، اذ يختصمون (١) » .

قرءوا ذلك وسمعوه ، فكان العجز لهذه الأمور الذاتية ، لا لأمر أخرى ليست

من القرآن .

## الصفحة

٣٢ - عرف العرب أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، وعللوا عجزهم بما استرعاهم ما فيه من حلاوة اللفظ ، وطلاوة المعنى والتركيب . وعمق ما اشتمل حتى انه معدق في جذوره كلما تكشفت القارىء عن عمقه رأى مالا يصل اليه البشر ، وكلما اتجه الى أعلاه وجد ثمراً شهياً .

هذا أمر ظاهر ، ولكن الفاسفة التي تسيطر على عقول بعض الناس ، ولا تكون فيها ثمرة ناضجة قد يتجهون بها الى كل ما يرونه بديئاً في التفكير سواء أكان متصلاً بالحق المجرد أم لم يكن متصلاً ، وسواء أكان متفقاً مع الايمان والواقع أم لم يكن ، بل ان المتفلسفين ربما اتجهوا الى الفكرة ، لا لأصلاتها ، ولكن لغرابتها ، ولا لأنها لا بد منها لتحقيق الحق وابطال الباطل ، ولكن للترف العقلى لا يفرقون بين أمر يتصل بالايمان ، وأمر لاصلة له بالايمان .

وان بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطعوا على أقوال البراهمة في كتابهم « الفيدا » وهو الذى يشتمل على مجموعة من الأشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم ، ويقول جمهور علمائهم ان البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، لأنه يراهاما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها .

يقول في ذلك أبو الريحان (١) البيرونى في كتابه «ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة مانصه :

« ان خاصتهم يقولون ان في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها ، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها » .

ولم يبين البيرونى وجه المنع أهو منع تكليفى يسبته الايمان بهذه الكتب وتكون دلائل وجوب الايمان من نواح أخرى ، أم هو منع تكوينى بمعنى أن برهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها ، والأخير هو الظاهر لأنه هو الذى يتفق مع قول جمهور علمائهم ، وما اشتهروا من أن القول بالصفرة نبع في واديههم .

٣٣ - وعندما دخلت الأفكار الهندية في عهد أسى جعشر (٢) المنصور ، ومن

(١) توفى سنة ٤٣٠ هـ

(٢) ثانى خلفاء بنى العباسى توفى سنة ١٥٦ هـ

والآله من حكام بني العباس ، تلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار ويركثون الى الاستغراب في أقوالهم فدفعتهم الفلسفة الى أن يعتنقوا ذلك القول ، ويطبوعوه على القرآن ، وان كان لا ينطبق ، فقال قائلهم ، ان العرب اذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه ، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله .

وان رواج تلك الفكرة يؤدي الى أمرين : أولهما — أن القرآن الكريم ليس في درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته ، وتعجز انقدر البشرية عن أن تأتي بمثله فالعجز ليس من صفات القرآن الذاتية .

وثانيهما — الحكم بأنه ككلام الناس لايزيد عليه شيء في بلاغته ، أو في معانيه .

وان مذهب الصرفة قد وجد من يقوله من علماء الفلسفة الكلامية وغيرها بل وجد من يقوله من بين الذين أنكروا الرأي في الفقه ، وهو مع جموده في الفقه ، من أبلغ الكتاب والشعراء .

ولنترك الكلمة للباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ . في كتابه اعجاز القرآن ، قال رضى الله تبارك وتعالى عنه .

« فان قيل فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات ، وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه بوجه من هذه الطرق الغربية كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وانما يصرفه الله عنه ضرب من الصرف ، أو يمنعه من الاتيان بمثله ضرب من المنع ، أو تقصر دواعيه اليه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله تعالى من الدلالة ، ويحصل ما قصده من ايجاب الحجة ، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما ، واذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الأولى ، وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والصورة (١) » .

وفرى من هذا أن القائلين بهذا القول يشككون في مرتبة القرآن وكونه من عند

الله تعالى من غير أن يقدموا دليلاً ، بل إن القصد الذي يبدو من لحن القول والدعوى هو التشكيك المجرد في علو البلاغة القرآنية ، ومن وراء ذلك التشكيك ما يريدون من توهين ثم دعاوى بأنه من صنع محمد عليه السلام وهكذا يسير الخط من احتمالات تتنافى الواقع إلى توهين لأمر القرآن ، إلى ادعاء أنه ليس من عند الله •

٣٤ - وإن القول بالصفة ثبت أو نبت في رواق الفلسفة الكلامية ، قاله شيخ من شيوخهم • وهو ابراهيم بن سيار الشهير بالنظام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، فهو أول من جاهر به ، وأعلنه ردعا إليه ، ولاحي عنه كأنه مسألة من مسائل علم الكلام ، ونقول انه أول من جهر به ، ولا نقول انه أول من فكر فيه ، أو أول من ابتدأ القول به ، لأن الأفكار لا يعرف ابتداءها وهي تتكون في خلاياها ، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر ، ويجاهر بها •

جاهر بها ، وكان ذا فصح وبيان وحجة وبرهان ، وإن لم يكن مستقيم الفكر بل انه يظن الظن ، فيحسبه يقينا ثم يبنى عليه ويقايس ، ويصحح القياس ، والتنظير بين الأشياء ، بينما الأصل ذاته يحتاج إلى قياس صحيح •

ولقد نقدته تلميذه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذي كان معجباً بشخصه ، غير آخذ برأيه ، وقال فيه ذكراً عيبه ، فقال :

إنما عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجوده قياسه على العارض والخاطر ، والسابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه ، كان أمره على الخلاف ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقايس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً ، فإذا اتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت ، وكان كلامه خرج مخرج الشهادة القاطعة فلم يشك السامع أنه إنما حكاه عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته » •

لم يوافق التلميذ أستاذه ، لم يوافق الجاحظ شيخ الكتاب المسلمين ، وأكبر ناقد بين الناقدين شيخه ، وإذا كان ابراهيم بن سيار قد اشتهر بالبيان ، وسرعة الجواب ، ولسن القول ، فقد اشتهر الجاحظ بأنه ذواق الكلام وصيرفي البيان ،

فإن خالف من يشرع في الخبر ، ويبنى عليه ، فهي مخالفة الخبر العارف بتصريف  
اسول ، وأثنانين التعبير والتفكير •

ولم يكن رد الجاحظ على شيخه رد المجادل المهور ، ولكنه كان بالعمل ، فقد  
كان أول من كتب في اعجاز القرآن من الناحية البيانية ، ليكون الرد على الصرفة  
ببيان الاعجاز الذاتي •

ولقد أشار الى رد الجاحظ الذين كتبوا في الاعجاز ومنهم الباقلاني ، ومن  
نسب اليه القول بالصرفة الشريف المرتضى من الشيعة ، وفسر الصرفة بأن الله تعالى  
سلبهم العلوم التي يحتاج اليها في معارضة القرآن والآيات بمثله ، ومؤدى كلامه  
أنهم أوتوا المقدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة ، فهم  
قادرون على النظم ، والعبارات ، ولكن ليست عندهم المقدرة بسبب أنهم لم يعطوا  
العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه •

وان هذا القول ينافيه أن الله سبحانه وتعالى طالب بأن يأتيوا بعشر سور مثله  
مفتريات وأعفاهم من أن يكون كلامهم مشتتلا على ما في القرآن من علم ، وانعصر  
على التحدي بالنظم والعبارة واللفظ •

فهذا القول نوع من الصرفة ، ونفى للاعجاز الذاتي ، ويختلف مع ما اشتمل  
عليه القرآن •

ومن قائلوا بالصرفة الفقهية البليغ العنيف المتشدد ابن حزم (١) الأندلسي ، فقد  
قال في كتاب الفصل في سبب الاعجاز : « لم يقل أحد ان كلام غير الله تعالى معجز ،  
لكن لما قاله الله تعالى ، وجعله كلاماً له ، أصاره معجزاً ، ومنع من مماثلته » ثم قال :  
وهذا برهان كان لا يحتاج الى غيره •

وان ذلك الكلام يبدو بادىء الرأي غريباً من ابن حزم ، ولكن المتأمل فيه يجده  
سائراً على مذهبه في نفى الرأي • والحكم بظاهر القول من غير تعليل ، فالانتجاه  
الى تعليل الاعجاز بأن السبب فيه بلاغته التي علت عن طاقة العرب ، والتي جعلتهم  
يخرون صاغرين بين يديه من غير مرأ ولا جدال يعد تعليلاً ، وهو من باب الرأي

الذى يثنى به، والتعليل الذى يجافيه، فلا بد أن يبحث عن سبب غير ما ذكر الله تعالى،  
٣٤ - واننا نرى أنه بعد كلام النظام صارت فكرة الاعجاز بالصفة مجال  
اختلاف بين العلماء ما بين مقرر لها وما بين مستنكر . وقد آن لنا أن نبين بطلان  
هذه الفكرة من أساسها ، وان دلائل البطلان قائمة ثابتة مأخوذة من الوفائع  
التاريخية والموازنات الحقيقية الثابتة .

( أ ) منها ، ما ذكرنا من قبل أن العرب عندما تلفوا القرآن راعهم بيانه ،  
وأثار اعجابهم أسلوبه وعباراته ، وقالوا ما رأينا مثله شعراً ولا نثراً ، فكان العجز  
إذاته ، لا لشيء خارج عنه ، وما لنا نفترض ما لم يقولوا وما لم يفعلوا ، وما لم  
يقدروا ، الا أن يكون ذلك تمويهاً ، وانكاراً للواقع المستقر ، بغرض وهمى .

(ب) وأيضاً فإنه لو كان العجز لأمر خارجى لا لأمر ذاتى فيه بأن تكون عندهم  
القدرة على أن يأتوا بمثله ولكن صرفوا ، فان ذلك يقتضى أن يثبت أولاً أنهم قادرون  
على مثله ، وهم أولاً قد نفوا ذلك عن تدرهم ، وليس لنا أن نفرض لهم قدرة قد  
نفوها عن أنفسهم ، ولو كانوا قادرين اكان من كلامهم قبل نزول القرآن عليهم  
ما يكون متماثلاً فى نسقه ونسجه ، وله مثل رنينه وصوره البسانية فى شعر أو نثر .  
ولكن المنتبغ للمأثورات العربية ، فى الجاهلية والاسلام لا يجد فيها ما يقارب القرآن  
فى ألفاظه أو معانيه أو صوره البيانية .

ولذا لجأ الباقلانى (١) فى كتابه اعجاز القرآن الى الموازنة بين القرآن ، وبين  
المعروف من أبلغ الكلام فى الجاهلية ، ويقول فى ذلك « لو كانوا صرفوا على ما ادعاه  
لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الذصاحة والبلاغة،  
وحسن النظم ، وعجيب التأليف ، لأنهم لم يتحدوا به ، ولم تلزمهم حجته ، فإذا  
لم يوجد فى كلام قبله مثله علم أنه ما ادعاه القائل بالصفة ظاهر البطلان . . . »  
(ج) واننا لو قلنا ان الذى منع العرب من الاتيان بمثله هو الصرفة ماكان  
القرآن هو المعجز ، انما يكون العجز منهم ، ولم يكونوا عاجزين ، وانما يكونون قد  
أعجزهم الله ، ولم يعجزهم القرآن ذاته ، وقد كان القرآن هو معجزة النبى صلى الله

تعالى عليه وسلم ، والقول بالصرفة ينفي عنه خواص الاعجاز •  
وان معجزات النبيين السابقين ما كان في طاقة الناس أن يأتوا بمثلها في ذاتها،  
ولم يكن بصرف الناس أن يأتوا بمثلها ، فمجزة العصا ، وتوسع الآيات التي لموسى  
عليه السلام ما كان العجز من الناس بالصرف ولكن بالعجز الحقيقي • فلماذا لا تكون  
معجزة النبي محمد عليه السلام كسائر المعجزات ، وهي أجل وأعظم •

(د) وان الله تعالى قد وصف القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لا تصل  
ليها معجزات أخرى ؛ فكانت هذه توجب أن يكون اعجازه ذاتياً • ولقد قال تعالت  
كلماته : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى  
بل لله الأمر جميعاً » (١) •

ويقول جل من قائل : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر  
منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى  
الله يهدي به من يشاء ، ومن يضل الله فما له من هاد » (٢) •

وإذا كان القرآن بهذه الأوصاف التي وصفه بها منزله سبحانه وتعالى ، أفيتقال  
بعد ذلك ان الناس يستطيعون أن يأتوا بمثله ؟ اللهم ان ذلك بهتان عظيم •  
(هـ) وان مثل الذين يقولون ان اعجاز القرآن بالصرفة كمثل الذين قالوا ان  
القرآن سحر يؤثر •

وقد أثبت ذلك الرافعي في كتابه اعجاز القرآن ، فقال : « وعلى الجملة فان  
القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب ان هذا الا سحر يؤثر ، وهذا زعم رده الله  
تعالى على أهله ، وأكذبهم فيه ، وجعل القول فيه ضرباً من العمى » أفسح هذا أم  
أنتم لا تبصرون » (٣) •

وان التشابه بين القول بالصرفة والقول بأنه سحر أن الامتناع عن المماثلة في  
كليهما من خارج الشيء لا من ذاته فالقول بالصرفة يفيد أن العرب لم يكونوا عاجزين،  
ولكن حيل بينهم وبين العمل على المماثلة وكذلك الأمر في السحر يشدهم ، حتى  
يعجزوا •



ولقد سبق أن علك المشركون عجزهم بعد التفكير والتقدير بأنه سحر يؤثر •  
قال تعالت كلماته فى شأن الوليد بن المغيرة : « ذرنى ومن خلقت وحيداً ،  
وجعلت له مالا ممدوداً ، وبينن شهوداً ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه  
كان لاياتنا عنيدا ، سأرهقه صعوداً ، انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف  
قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : ان هذا الاسهر يؤثر ،  
ان هذا الاقول البشر (١) •

هذا ما وصل اليه الوليد بن المغيرة بعد أن قدر ودبر فى ملاً من قومه ، يجىء  
كاتب متفلسف فيأتى بهذا القول من غير تقدير ولا تدبير •

٣٥ - ومهما يكن من بطلان هذه الفكرة ، فقد أدت الى انشاء علوم البلاغة فى  
ظل القرآن ، فاتجه الكاتبون الى بيان أسرار البلاغة فى هذا الكتاب المبين ، المنزل  
من عند الله الحكيم ، قرآناً عربياً ، فكان هذا الباطل سبباً فى خير كثير ، وكما يقول  
المثل السائر « رب ضارة نافعة » فقد تولد عن هذا الباطل دفاع حكيم ، ولدت منه  
علوم البلاغة العربية ، وكما تولد عن الخطأ فى تلاوة آيه « علم النحو » تولدت علوم  
البلاغة العربية • وان أكثر ما كتب الأولون فى البلاغة والفصاحة كان فى ظل القرآن ،  
ومحاولة لبيان اعجازه •

وان أول ما كتب فى اعجاز القرآن من ناحية البيان كان فى الوقت الذى جاء فيه  
القول بالصرفة ، بين نفى واثبات كما أشرنا ، وأول من عرف أنه تصدى الكلام فى  
الاعجاز فى نظم القرآن هو الجاحظ ، تلميذ النظام ، الذى أنكر عليه قوله ، وعابه فى  
منهاجه الفكرى من أنه يظن الظن ، ثم يجعله أصلاً يجرى عليه القياس مصححاً  
لقياسه بالمنطق ، والعيب فى أصل القول الذى بنى عليه ، لا فى الأقيسة التى أجرى  
بها مشابهاته ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل •

وقد كتب فى ذلك كتابه النظم ، وقد عابه الباقلانى ، ليدفع بذلك التسليم له  
بالسبق ، ولأنه معتزلى • ولكن الجاحظ فى كتابات له كثيرة غير كتابه النظم ، كان يذكر  
مواضع من اعجاز القرآن فى آيات يتعرض للقول فيها ، ليبين مقامها من البيان ،

(١) المدثر : ١١ - ٢٥

فهو في كتاب الحيوان يذكر أنه جمع آيات من القرآن يعرف مقامها في البيان ، فهو يقول : « ولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن ليعرف بها ما بين الایجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الایجاز والجمع للمعاني الكثيرة ، والألفاظ القليلة ، فمنها قوله تعالى حين وصف خمراً أهل الجنة « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » (١) وهاتان الكلمتان جمعتا جميع عيوب نخر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة « لا مقطوعة ولا ممنوعة » (٢) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني .

وهذا الكتاب الذي أشار إليه لم يكشف في التراث الاسلامي ، ولكنه يدل على أن الجاحظ كان يتعرض لأسرار الاعجاز ، كلما لمح بريق الاعجاز في آياته .  
ولكن التعصب المذهبي يستهين بكلام الجاحظ في اعجاز القرآن بل انه يتحامل عليه في كتابته كلها فيقول في ذلك الباقلاني الأشعري عن الجاحظ أحد شيوخ المعتزلة : « كذلك يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمات الذي لا يؤخذ فيه ، والباب الذي لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً ، ومنهاجه معيباً ونطاق قوله ضيقاً ، حتى يستعين بكلام غيره ، ويفزع الى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر أو مثل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه في أثناء ذلك ، فسطور قليلة وألفاظ يسيرة . . . فإذا أردت أن تحقق ذلك فانظر في كتبه في نظم القرآن وفي الرد على النصارى وفي خبر الواحد ، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى » (١) .

ولقد جاء من بعد نظم القرآن للجاحظ الذي كان رداً عملياً على كلام النظام الذي أدخله من الهند ، وهو مذهب الصرفة جاء بعده أول كلام واجه الصرفة في اعجاز القرآن ، وهو كتاب اعجاز القرآن لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ هجرية أي بعد موت الجاحظ بنحو ستين سنة ، وهو صورة المجاوية التي كانت دفعا لمذهب الصرفة الذي بلبل الأفكار ، وكان بين ممانعة من الأكثرين ، ومجاوبة من القلة ، حتى صارت نادرة ، وحتى طواه التاريخ وهو في هذا قد طرق باب البلاغة طرقاً قويا ، وأصل الأصول المشتقة من كلام العرب ونظمها وطبقها على القرآن ، وثبت

من التطبيق أنه أعلاها .

وهذا الكتاب يعد أصلاً بنى عليه ، فقد شرحه عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ في شرحاً مطولاً ، وأودع ذلك الشرح كتاباً سماه المعتضد ، وله شرح آخر أصغر منه .

وهكذا كل كاتب يقيم بناء يكمله من يجيء بعده ، فالواسطى أكمل البناء الذي وضعه الجاحظ ، أو بنى عليه ، وترك لغيره أن يكمل البناء .

وجاء عبد القاهر الجرجاني فبنى على ما وضع الواسطى ، وكان كتابه دلائل الاعجاز قد أوفى على ما وضع الجاحظ والواسطى .

وفي الزمن الذي سار فيه الجاحظ والواسطى من بعده ، والجرجاني من بعدهما ، وانتهى إلى تلك الثروة المثرية في باب الاعجاز البلاغي للقرآن ، كانت هناك محاولة أخرى ، في طريق مواز لذلك الطريق .

فقد وضع أبو عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٢ هـ كتابه في الاعجاز ، فوضع بناءً ثالثاً ، غير بناء الجاحظ والواسطى ثم جاء الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فوضع كتابه اعجاز القرآن ، ويلاحظ أن تاريخه سابق على دلائل الاعجاز ، وأحسب أن من الحق علينا أن نقول أن دلائل الاعجاز لم يبين على الواسطى فقط ، بل أنه أخذ من كل ينباع التي سبقتة وان القارئ له يجد فيه كل مزايا من سبقه ، وفيه زيادة جديرة بالأخذ ، بل أساس لعلوم البلاغة كلها مستقاة من القرآن ، وموضحة لأوجه البلاغة فيه أولاً ، وعلوه على كل كلام ثانياً ، ثم فيه وضع مقاييس ضابطة لكل كلام بليغ ثالثاً .

فكتاب الباقلاني ، قد تعرض للاعجاز بالمواجهة ابتداءً ، ولم يسبق علم البلاغة ابتداءً ، ثم يتعرض للاعجاز انتهاءً ولكنه جعل الأصل في الكلام الاعجاز ، ثم البلاغة تابعة له تبعية الدليل للمدلول ، والبرهان الدعوى ، والمتقدمة للنتيجة .

ويلاحظ على هذا الكتاب أنه لم يشر إلى ما سبقته إلا الجاحظ ، فقد أشار إليه إشارة لا تكريم فيها ، ولكن فيها استهجان واستصغار لما كتبه ، ولم يشر إلى إشارة إلى ما كتبه الواسطى ، وما كتبه الرماني ، وقد سبقاه وكان ثانيهما على مقربة من زمانه ، مع أنه أخذ من الرماني قطعاً ولم يذكر اسمه .

ومهما يكن الأمر بالنسبة لمن سبقوه في القول ، واهمال ذكرهم ، فهو الكتاب الذي اختص بأن يكون في الاعجاز ابتداء ، كما أشرنا ، وقد وفي فيه بأمهات المسائل .

ويقول فيه الرافعي المتوفى سنة ١٩٣٧ م في كتابه اعجاز القرآن « على أن كتاب الباقلاني ، وان كان فيه الجيد الكثير وكان الرجل قد هذبه وصفاه ، وتصنع له ، إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره ، ولم يتحاش وجها من التأفف لم يرضه من سواه ، وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا . . . وقد حشر اليه أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر ، ذهبت بأكثره ، وغمرت جملته ، وعدّها في محاسنه ، وهي من عيوبه ثم يقول : « وكان الباقلاني ، رحمه الله وأثابه ، واسع الحيلة في العبارة مبسوط اللسان الى مدى بعيد ، يذهب في ذلك مذهب الجاحظ ، ومذهب مقلده ، على بعد وتمكن ، وحسن تصرف ، فجاء كتابه ، وكأنه في غير ما وضع له لما فيه من الاغراق في الحشد ، والمبالغة في الاستعانة ، والاستراحة الى النقل » .

والرافعي بهذا ينتقد الباقلاني ، ويصفه بمثل ما وصف هو به الجاحظ .

ومن حق العلم على العالم ألا ينتقص غيره ، وأن يعرف اللاحق ، أنه متمم لما بدأ السابق ، غير ناكر لفضل ، ولا باخس لحظ .

وهكذا في عصر الباقلاني ومن بعده ، حتى كان آخرها تأليفاً من حيث القيمة العلمية ، والدرجة البيانية كتاب اعجاز القرآن للرافعي رحمه الله تعالى ، وأثابه ، وجزاه عن الاسلام خيراً .

## وجوه الاعجاز

٣٧ - نقصد بوجوه الاعجاز الامور التي اشتمل عليها القرآن ، وهي مثل على أنه من عند الله ، وما كان في استطاعة أحد أن يأتي ، بمثله ، وما كان في استطاعة الجن والانس أن يأتيوا بمثله ، ولنتجه الى أقوال العلماء في هذه الوجوه ؛ ثم نتجه بعد ذلك الى بيان ما نقصد الى بيانه من بحثنا هذا الذي نضرع الى الله أن يمن علينا بالتوفيق فيه كما من علينا من قبل ، فنحن نعيش فيما نكتب ونبحث تحت فيض الله تعالى وتوفيقه ، ولولا توفيقه سبحانه وتعالى ما وصلنا الى شيء .

يعد صاحب الشفاء أوجه الاعجاز في القرآن فيحصرها في أربعة :

أولها - حسن تأليفه ، والتثام كلمه وفصاحته وبلاغته الخارقة لما عند العرب .  
وثانيها - صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ، ووقفته عند مقاطع آيه ، وانتهت فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة منه .

وثالثها - ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر كقوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين (١) » ، وكقوله تعالى : « غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين (٢) » . الى آخر ذلك من الأمور المغيبة التي أخبر القرآن عنها قبل وقوعها ، فوثقت كما أخبر .

ورابعها - ما أخبر به من أخبار القرون والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة الا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه ويأتي به على نصح ، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه ، وأن مثله عليه السلام لم ينله بتعليم ، وقد علموا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا اشتهل بمدارسة .

هذا ما ذكره القاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ في وجوه الاعجاز ، ونجد الأمرين الأولين يتعلقان بالناحية البيانية في القرآن وان كان أولهما يتعلق بتأليف كلماته وتتاسقها مع فصاحتها وسلامتها وخلوها من الحوشى ، والثاني بصورة

النظم ومع تخالف حقيقتها نجد كلا منهما ينتهى الى الناحية البيانية •  
أما الأمران الآخران ، فانهما يتعلقان بصدق الأخبار التى اشتمل عليها القرآن  
الكريم ، بيد أن الأول يتعلق بالأخبار عن الغيب فى المستقبل الذى لا يعلمه الا الله  
تعالى ، والثانى يتعلق بالأخبار عن الماضى •

٣٨ - وذكر القرطى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ فى تفسيره أن أوجه اعجاز القرآن

عشرة :

١ - منها النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وغيرهم لأن  
نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء ، ولذلك قال رب العزة • « وما علمناه الشعر ،  
وما ينبغى له » (١) •

٢ - ومنها الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب •

٣ - ومنها الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال من الأحوال ، وتأمل ذلك  
فى صورة « ق والقرآن المجيد » الى آخرها (٢) •  
وقوله تعالى : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة (٣) الى آخر السورة وقد  
ضرب على ذلك الأمثلة الكثيرة •

وهذه الأمور الثلاثة كما نقل القرطبى عن ابن الحصار من النظم والجزالة لازمة  
فى كل سورة بعيدة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدى والتعجيز •

٤ - ومنها التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ، حتى يقع  
منهم الاتفاق من جميعهم على اصابته فى وضع كل كلمة وكل حرف فى موضعه  
( باعتبار أن القرآن الكريم فيه الكلمات من لهجات العرب ، أو لغاتهم ) •

٥ - ومنها الاخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله من  
أمرى ، ما كان يتلو من قبله من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، فأخبر بما كان من قصص  
الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها ، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه  
من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذى القرنين

فجاءهم وهو الأعمى الذى لا يقرأ ولا يكتب وليس له بذلك علم بما عرفوا من الكتب السالفة صحته قال القاضى ابن الطيب (١) ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل اليه الا عن العلم واذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار ، وحملة الأخبار ولا متردداً الى المتعلم منهم ، وما كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه — علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحي •

٢ — ومنها الوفاء بالوعد المدرك بالحس في العيان ، في كل ما وعد الله سبحانه ، ويتقسم : الى أخباره المطلقة كوعد الله بنصر رسوله عليه السلام ، واخراج الذين أخرجوا • والقسم الثانى وعد مقيد بشرط • كقوله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه (٢) » •

٧ — ومنها الاخبار عن المعيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها الا بالوحي ، فمن ذلك ما وعد الله به نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على كل الأديان ، بقوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » (١) فنعمل ذلك •

٨ — ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام الأنام فى الحلال والحرام وسائر الأحكام •

٩ — ومنها الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى •

١٠ — ومنها التناسب فى جميع ما تضمنته ظاهراً وباطناً من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٤) » • بعد أن ذكر القرطبى هذه العشرة قال :

« قلت فهذه عشرة أوجه ذكرها علماءنا رحمة الله تعالى عليهم ، ووجه حادى عشر قاله الفظالم وبعض القدريه ان وجه الاعجاز هو المنع من معارضته والصرفة عند التحدى بمثله ، وأن المنع والصرفة هو المعجزة ، دون ذات القرآن ، ذلك أن الله تعالى صرف همهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا

(١) التوفى سنة ٤٣٥ هـ (٢) الطلاق : ٢

(٣) التوبة : ٢٣ (٤) النساء : ٨٢

فاسد ، لأن الاجماع قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ، فلو قلنا أن المنع والصرف هو المعجز نخرج القرآن عن أن يكون معجزاً وذلك خلاف الاجماع ، وإذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز ، وأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه ، فلما لم يكن كذلك مألوفاً معتاداً منهم دل على أن المنع والصرف لم يكن معجزاً •

٣٨ - ومن هذا نرى أن القرطبي قد أتى بوجوه كثيرة عدها من اعجاز القرآن ، وقد ذكر عشرة ، وانه لكي يكون استقراؤه كاملاً لانقاص فيه أتى بالصرفة ، وعدها وجهاً من الوجوه عند بعضهم ، وقد رددناها كما ردها هو ، وانتهى الى أن اعجاز القرآن ذاتي ، وليس من أمر خارج • وأقمنا كما أقمنا الدليل على ذلك ، مما لا يجعل موضعاً لهذا القول ، وبيننا مصدرها الهندي ، وأنها فكرة دخيلة على المسلمين ، والحقائق تخالفها ، والوقائع تجافيها •

ولكن يجب أن يلاحظ فيما أحصاه القرطبي ، والقاضي عياض أمران :

١ - أولهما - أن الأقسام التي ذكراها يتداخل بعضها في بعض ، أو أنهما جعلاً ما يتعلق بالنظم جزءاً منه خاصاً بفصاحة القول وجزءاً يتعلق بالنظم وجزءاً يتعلق بالأسلوب ، وجزءاً يتعلق بالجزالة ، وجزءاً يتعلق بالتصرف في القول وكل ذلك يتعلق بالمنهج البياني القرآني ، وهذه الكلمة تجمع تلك الأقسام كلها ، فلا تخرج من عمومها خارجة •

والأمر الثاني - أن بعض هذه الوجوه تحدى بها القرآن الكريم ، فقد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله ولو عشر سور مفتريات والوجوه الأخرى لم يتحد بها القرآن الكريم ، وان كانت من عند الله تعالى العليم الحكيم ، مثل اخباره عن أمور معينة في المستقبل ، ثم وقوعها ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه •

واخباره عن الأمم السابقة ، واخباره عن شأن عبد الله الصالح مع موسى نبي الله تعالى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ومثل قصة أهل الكهف ، وذو القرنين ، فذكر هذا القرآن الذي نزل على أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس الى معلم دليل على أنه من عند الله سبحانه وتعالى •



ومن هذه الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن ، فانها لا يمكن أن تكون

من عند محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بل هي من عند الله .  
وقد كتبنا في هذه عدة بحوث في احدى المجالات (١) الاسلامية ، بعنوان  
( شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله ) جمعتها احدى الهيئات الاسلامية في  
رسالة ، ونشرتها ، وترجمتها الى الفرنسية والانجليزية ، وقد أقمنا الدليل على أن  
تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتي بها أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ في بلد أمي  
ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة ، وهي في أحكامها ، لا يمكن أن تكون الا من  
الله تعالى .

وكتبنا بحثاً وازناً فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان في الملكية بالخلافة،  
وذكرنا أن قانون الرومان قد تكون في نحو ثلاثة عشر قرناً ، ومع ذلك هو في الملكية  
بالخلافة لا يوازن بشريعة القرآن الا اذا وازنا بين عصا هشة وسيف بتار ،  
فلا يمكن أن يأتي به محمد من عنده ، بل هو من عند الله تعالى .

والأوروبيون القانونيون يرون في قانون الميراث في القرآن أن العنق البشري  
لم يصل الى الآن الى خير منه ، ونحن لهذا نقرر أن مذكروه القرطبي غير الصرغة يدل  
على أن القرآن كله جملة وتفصيلاً هو من عند الله سبحانه وتعالى العليم الخبير .

ولكن نرى أن الله تعالى تحدى العرب أن يأتيوا بمثله ولو مفترى ، فكان التحدى  
للعرب ابتداء بالمنهج البياني للقرآن ، وهو الذي استرعى ألبابهم . ولعله لم تكن  
بلغت مداركهم العقلية والقانونية أن يعرفوا مدى ما في أحكام القرآن من تنظيم  
سليم للمجتمع ، فيه المصلحة الانسانية العالية التي تعلقو على تفكير البشر ، وان كان  
فيهم ذوق بياني يذوقون به الألفاظ الفخمة القوية في رنينها ، المصورة للمعاني في  
أحوالها الصوتية وتكوين حروفها ، ومرامى عباراتها ، ويدركون في ذلك المعنى  
السليم من غير اجهاد فيدركون ما هو جيد المعنى في ذاته من غير أن يتعرفوا فلسفة  
قانونية أو عقلية أو كونية ، وفي القرآن ما يرضيهم ويملاً نفوسهم ، ويعجزون عن  
أن يأتيوا بمثله .

(١) مجلة « المسلمون » ومجلس الشئون الاسلامية هو الذي جمع هذه البحوث وترجمها  
الى الانجليزية والفرنسية .

وان القرآن فيه الشريعة الباقية الخالدة ، وهو يخاطب الأجيال كلها ، والأجناس كلها العرب والعجم ، والبيض والسود والأحمر والأصغر ، فليس مافيه من الاعجاز خاصاً بالعرب ، وانما اعجازه يعم الجنس البشرى كله لأنه يخاطب الجميع ، ويطلب اناس قاطبة بأحكامه • وفيه البيّنات المثبتة لكل جنس •

وعلى ذلك نقسم وجوه الاعجاز التي اشتمل عليها القرآن الى قسمين :

أولهما : ما يتعلق بالمنهاج البياني ؛ وهذا النوع من الاعجاز أول من يخاطب به العرب ، لما ذكرنا في صدر كلامنا من أنه جاء بلغتهم ، ولأنهم كانوا بمقتضى بداوتهم مع استقامة تفكيرهم ، ومع وجود نبوات سابقة فيهم أبقت بعض العلم ، وبمقتضى ثقافتهم اللسانية وعنايتهم بلغتهم كانوا أكثر الناس ادراكا لمعنى الاعجاز في القرآن من ناحية بيانه ، ونغمه ، وجزالته ، وكذلك كان الأمر منهم ، وكانوا هم المخاطبين أولا به ، وبعجزهم قام البرهان الأول •

والقسم الثانى : الاعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين ، ولأخبار مستقبله ، وقعت كما ذكر ، واشتماله على علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة في عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أتى بها القرآن ، وتقررت حقائقها من بعد ، وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الانسانى أنها أصلح من غيرها وأنها وحدها العادلة ، وان هذا النوع معجزة للأجيال كلها ، وهو يحتاج في بيانه الى مجلدات ضخام ، ولذلك نتجه ابتداء الى القسم الخاص بالبلاغة ، وهو الأول •

## الإعجاز البلاغي

٣٩ - أخذنا أولاً من أسباب الإعجاز ذلك السبب ، لأنه الواضح بالنسبة للعرب ، ولأنه هو الذي شده به العرب عند أول نزوله فحيرهم ، وهم المدركون لأساليبه ، العارفون لمناهجه ، الذين يذوقون القول بأسماعهم ، ويدركونه بعقولهم ، ويعرفون مواضع الكمال ، ومواضع النقص في كل ما يسمعون من شعر ، حتى أنهم يتجهون الى مواضع الحسن ، والماخذ التي تؤخذ بلقائنه فطروا عليها ، ولباقه عرفوا بها .

ولنسق لك مثلاً من نقدهم ، فلقد عرض بيتان في سوق عكاظ على الخنساء لحنان بن ثابت رضى الله عنهما ، فمحت بقوة الملاحظة الناقدة ما فيهما من عيوب تخفى الا على من يذوق الكلام ذوقاً ، ويدرك معانيه والفاظه بآرب وفكر مستقيم . قال حسان رضى الله عنه :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحي وأسيافنا يقطن من نجدة دما  
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا ، وأكرم بنا ابنا

فقالت الخنساء ضعفت افتخارك ، وأنزرته في ثمانية مواضع ، قالت : قلت لنا الجفنات ، والجفنات مادون العشر ولو تلت الجفان لكان أكثر ، وقلت : الغر ، والغرة ابياض في الجبهة ، ولو قلت البيض ، لكان أكثر اتساعاً . وقلت يلمعن ، واللمعان شئ يأتى بعد الشئ ، ولو قلت : يشرقن لكان أكثر ، لأن الاشراق أديم من اللمعان ، وقلت بالضحي ، ولو قلت بالدجى ، لكان أبلغ في المديح ، لأن الضيف أكثر ، طروقاً بالليل ، وقلت أسيافنا ، والأسياف دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا لكان أكثر ، وقلت يقطن ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، وقلت دما ، والدماء أكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت . ولم تفتخر بمن ولدوك اه(١) .

سقتنا ذلك الخبر ، وهو صورة لما كان عليه الذوق البياني ، وان كان هناك شك في روايته ، فانه يدل على أن روح النقد بالذوق المرهف كان مشهوراً بين العرب وكثيراً .

وأذكر أن نقاد العرب كانوا يستنكرون بيت امرئ القيس الذي يقول فيه في

معلقته :

أعرك منى أن حبيك قناتى وأنك مهمسا تأمرى القلب يفعلى

فقد قالوا ان البيت لا يصدر من عاشق برح به الحبيب ، وأحس بلطف العشق ، وقالوا ان الغانية اذا لم تعتر بالحبيب فقيم تغتر ، كانه يقول لها ان كنت مغرورة بحبى فانى تاركك ، وهكذا ، وما ذلك شأن المحب اللهج •

٤٠ — هؤلاء الذواقون للبيان الذين مرنت اسماعهم ، وألسنتهم على القول البليغ وادراك مراميه يستوى فى ذلك أهل المدر ، وأهل الوبر ، فأهل الوبر استفرغوا ذكاءهم فى تعرف الكلام البليغ ، والترنم بالشعر رجزه وقصيده ولم يكن عندهم ما يزجون فيه وقتهم الا سماع الكلام الطيب ، وترديده ، وروايته ونقله ، يربطون به ألسنتهم فى حلهم وترحالهم ، وانتجاعهم الى مواطن انكلا ، وينابيع المياه ، قد صفت نفوسهم صفاء السماء التى تظلمهم مع قوة الشكيمة التى اكتسبوها من وعوره الصحراء والأوائها ، وقسوة الحياة وغلظتها ، ومع الرضا والقناعة التى اتسمت بها النفس العربية •

وأهل المدر وهم سكان القرى كأهل مكة والطائف ويشرب ، وقد كانوا قوماً تجراً ، من غير أن يخلوا من الشكيمة العربية ، قد كانت القبائل تجيء اليهم ، أو يلتقون بهم فى مواسم الحج وأسواقه التى كانت تعقد لتبادل السلع ، وتبادل الفكر ، والكلم المحكم ، ويكون التبارى بين الشعراء والخطباء وكانت مكة ، وما حولها تشبه بعض الحداثق العامة فى البلاد الأوربية تاقى فيها الخطب ، ويتبارى فيها المتكلمون وحسبك أن تعلم أن قس بن ساعدة الايادى ألقى خطبته التى ذكر فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى عكاظ فى موسم الحج •

هؤلاء الذين كانت الكلمة البليغة تتع من نفوسهم موقع الموسيقى فتطربهم ، والقصيدة الطويلة فتتهزهم ، وكان حداؤهم لابلهم رجزا ، وتدليلهم لأبنائهم أنماطاً من البيان ، هؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن فأرأوا فيه نوعاً من البيان لم يعرفوه من قبل ، فانجذبوا اليه ، وأقروا بتأثيره ، ولم يستطيعوا أن يماروا فيه ، بل خروا

صاغرين أمام بلاغته ، معترفين بأنه يسمو على قدرهم ، ويعلو على طاقاتهم ، كفروا بما يدعو اليه ، ولم ينكروا تأثيره ، لاحوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في دعوته الى التوحيد ، وتمادوا فيه ، مع بداهته ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا من القرآن ، ولما دبروا وقدروا في أمر ، قالوا انه سحر يؤثر وذلك يتضمن الاقرار باستيلائه على نفوسهم وعلوه على كلامهم ، وان كان من نوعه ، وسمو معانيه ، وان كانت حروفه في صياغة من حروفهم ، وكلماتهم .

## وجوه الاعجاز البلاغى

٤١ - ان كل شىء فى القرآن معجز من حيث قوة الموسيقى فى حروفه ، وتآخيا فى كلماته ، وتلاقى الكلمات فى عباراته ونظمه المحكم فى رنينه ، وما وصل اليه من تأليف بين الكلمات ، وكون كل كلمة لفقاً مع أختها ، وكأما نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته ، وتوحد غايته ، ومعانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه ، وكأن المعانى جاءت مؤاخية للألفاظ وكأن الألفاظ قطعت لها ، وسويت على حجمها .

ثم هو الذى يدركه كل ذى قوة فكرية بمقدار ادراكه والمعنى صحيح فى كل ادراك صحيح ، وفى كل ذى طاقة سليم ، بلا تخالف يسمعه المؤمن فيقربه ، ويؤمن بما جاء فيه ، ويسمعه المخالف ، فيدرك الحق من ثنايا كلماته ومعانيه ان أخلص فى جانب الحق ، وان لم يؤمن فانه يدرك ما فى القرآن من خواص ليصل اليها كلام كائناً من كان قائله .

جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض : « حكى أن عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعالى عنه كان يوماً نائماً فى المسجد فاذا هو برجل قائم على رأسه يتشهد شهادة الحق ، فاستخبره ، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها ، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتھا ، فاذا قد جمع فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم أحوال الدنيا والآخرة ، وهى : « ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقته الآية » (١) وحكى الأصمعى أنه سمع كلام جارية ، فنقال لها قاتلك الله ما أفصحك ! فتألت أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله

تعالى : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك ، وجعلوه من المرسلين » (١) ، نجمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين • فهذا نوع من التجارة منفرد بذاته غير مضاف الى غيره على التحقيق » (٢) •

وهكذا نرى كل اعجاز القرآن من نواح شتى ، ربما تعز على الاستقرار، ففي موسيقاه لا يسع سامعه الا أن يصغى بقلبه ، وقد رأيت كيف كان العرب يتفقون على ألا يسمعوا لهذا القرآن ويلغوا فيه ، ثم يذهب اليه المتفقون فرادى ، فيلنتقون جماعة •

ولقد كان لموسيقى القرآن ونظمه روعة عند كل سامع ، حتى من لا يفهم العربية ، فإن لكلماته ونظمه ، ومده وغمه ، ونهاية فواصله ، ووقفه — ما يسترعى من لا يفهم العربية ، واذا كان لا يفهم معنى الكلمات ، فإن النغم يعطيه صوراً رائعة •

وان كل كلمة من كلماته تعطى صورة بيانية ، وكل عبارة تجتمع من كلمات لها صورة بيانية رائعة تصور المعاني كالصورة الكاملة في تصويرها ، التي تتكون أجزاءها من صور ، وتتجمع من الصور صورة متناسقة •  
وانه لأجل هذا يصعب على الكاتب أن يأتي بكل وجوه الاعجاز البياني ولكنه يقارب ولا يباعد •

ولنذكر ستة وجوه نتكلم فيها عسانا نصل الى تقريب معاني الاعجاز من غير حد ولا استقرار كامل وهي :

- ١ — الألفاظ والحروف •
- ٢ — الأسلوب ، وما يكون من صور بيانية •
- ٣ — التصريف في القول والمعاني •
- ٤ — النظم وفواصل الكلم •
- ٥ — الايجاز المعجز والحكم والأمثال والاختبار عن الغيب •
- ٦ — جدل القرآن •

## ١- ألفاظ القرآن وحروفه

٤٢ - قبل أن نخوض فيما اختصت به ألفاظ القرآن من جمال ودقة واحكام ، وما اشتملت كل كلمة مع أخواتها وجاراتها من صور بيانية لكل وحادة منفردة ، ثم ما اشتملت عليه مجتمعة من معنى ذلك ، نذكر أن العلماء اختلفوا قديما وامند خلافهم الى المتأخرين تكلموا واختلفوا في أساس الفصاحة أو البلاغة ، وهما غير مختلفين في الماصدق ، وان اختلفوا في التعريف اللفظي لحقيقة الفصاحة وحقيقة البلاغة .

قال بعض علماء البيان وعلى رأسهم عبد الفاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ . ان اللفظ والحروف ليس لهما أثر في كون الكلام بليغاً أو غير بليغ ، انما الأثر في مجموع ما يدل عليه النظم ، وشكل النظم ليس هو المؤثر وحده ، انما تتساوى المعانى وتلاقى الألفاظ وتأخيهما في تكوين هذا المعنى المؤثر ، فيقول رضى الله عنه في كتابه دلائل الاعجاز ما نصه :

«ينبغي أن ينظر الى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن نصير الى الصورة التي بها يكون الكلم أخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا ، وتؤدى في الجملة معنى من المعانى التي لاسبيل الى افادتها الا بضم كلمة الى كلمة ، وبناء لفظه على لفظه ، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة، حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبته على ما هي مرسومة به ، ثم يقول رضى الله عنه :

« هل يقع في وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر الى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتراجها أحسن وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة ، الا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ، وهل قالوا لفظه متمكنة ومقبولة وفي خلالها قلقة ونابية ومستكرهه الا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلتق بالثانية في معناها . وأن الثانية لم تصلح أن تكون لفظاً للثالية في مؤداها . وهل تشك اذا فكرت في قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء اقلعي ، وغيض الماء ، وقضني

الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين (١) « فتعلم لك منها الاعجاز ، وبهزك الذى ترى وتسمع ، انك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة الا لآمر يرجع الى ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض ، وانه لم يعرض لها الشرف الا من حيث لاقت الاولى الثانية ، والثالثة الرابعة ، وهكذا الى أن تستقر بها الى آخرها ، وأن الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من مجموعها • ان شككت فتأمل : هل ترى لفظه بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت أدت من الفصاحة ما تؤديه ، وهى فى مكانها من الآية ، « ابلعى » واعتبرها وحدها من غير أن تنتظر الى ما قبلها ، والى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ••• ومعلوم أن مبدأ العظمة فى الآية فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت • ثم كان انداء بيا دون اى •• ثم اضافة الماء الى الكاف دون أن يقال ابلعى الماء ••• الى آخر ما قال :

ويستدل على أن الكلمة ليس لها فصاحة ولا بلاغة فى ذاتها أن الكلمة تروق فى موضع ولا تروق فى آخر فى كلام الناس ، فلو كانت الكلمة اذا حسنت كان حسننها من ذاتها ، لاستحسننت دائماً ، وما استهجننت أبداً •

وينتهى من هذا الى أن جمال الكلام ليس فى توالى ألفاظه فى النطق ، بل ان تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل •

ويسترسل الجرجانى فى اثبات أن الكلمات ليست لها فصاحة ذاتية ، انما بلاغتها فى اجتماعها مع غيرها فى تلاقى المعانى ، وأنه ليس للألفاظ ولا للحروف حسن ذاتى منفرد ، ولا قبح ذاتى منفرد ، انما حسننها فى تلاحقها مع أخواتها فى الدلالة وتساوق المعانى وما تنتج من صور بيانية ، ومراتب أهل البيان فى مقدار قدرتهم على اختيار الألفاظ المتأخية فى معانيها ، ويفهم من كلامه أن النظام لا يأتى اليه وحده انما يأتى الى معانيه أيضا وأنه يريد من النظم الكلمات لاذات الكلام كله برناته القوية ، أو الهادئة التى تنساب فى النفس ، وتتغلغل فيها حتى تصل الى أعماقها •

٤٣ — هذا رأى الجرجانى ، وله مقامه ، يقص البلاغة والفصاحة ، على الأسلوب



ومجموع العبارات التي تتضافر في الدلالة على معانٍ متآخية ، وتتآخى الألفاظ في الدلالة على هذه المعاني .

وهناك فريق آخر ، ومن هؤلاء الجاحظ يرون للحروف ، وللکلمات فصاحة ، عندما تتلاءم حروفها ولا تتجافى مخارجها ولا يكون فيها تكرار فلا فصاحة في مثل ما رواه الجاحظ .

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فان تكرار الحروف جعلها غير متلائمة ، وغير سهلة في النطق .

وقد عقد ابن الأثير في كتابه المثل السائر فصلاً قيماً ذكر فيه فصاحة الكلمات ، وقبحها في رنينها وفي تآخى حروفها وقال ان من الكلمات ماله نغمة أوتار ، ومنها ماله صوت حمار ، وضرب على ذلك الأمثال ، فقال ان كلمة السيف لها مرادف ، وهو الخنسليل ، فهل هما متماثلتان في الفصاحة والنغمة الصوتية ، ومثل كلمة غصن ، وكلمة عسلوج بمعنى الغصن ، فهل هما متماثلتان في النغمة وسهولة النطق .

ويبدو من كتاب اعجاز القرآن للباقلاني أنه يرى أن للكلمات ذاتها فصاحة خاصة ، وأن تخيرها يدل على قدرة قائلها ، وعلو بيانه ، فإذا كانت المعاني البلاغية لجملة القول ، ففي اختيار الألفاظ المنتاسبة في موسيقاها ، وفي نغمتها وفي رنتها قوية أو هادئة على حسب المقام ، فللفظ دخل في الاختيار ويقول في ذلك الباقلاني :

« قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المسألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعانٍ مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألفت وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر : والأمر المنتقرر المنتصور ثم انضاف الى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييداً ما يبتدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة ، ثم اذا وجدت الألفاظ وفق المعاني والمعاني ومثتها لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر » ثم يقول :

« وأنت ترى جمال الكلمة من القرآن يتمثل في تضاعيف كلام كثير ، وهي غرة

جيبينه وواسطة عقدة ، والنادى على نفسه بتميزه ، وتخصمه ، برونقه وجماله ،  
واعتراضه في حسنه ومائه » (١) .

ومن هذا النقل يتبين أن الباقلاني يرى أن ألفاظ القرآن غرة في كل كلام ،  
وأن لها رونقاً ، وأن لها دخلاً في اعجازه ، وأن سورة الكامة ومخارج حروفها لها روعة  
ذاتية ، لأن ذلك من عند العزيز الحكيم .

وان المتأخرين ممن كتبوا في اعجاز القرآن رأوا أن في الكلمة في القرآن بلاغة  
خاصة بأدائها ، بمدها وغنها ، وبأصواتها الموسيقية ، وبنغماتها الحلوة ، فلا يمكن  
أن يكون التأخي بينها وبين أخواتها في المعاني فقط ، بل ان التأخي ، كما هو ثابت  
في المعاني ثابت في الموسيقى ، وإذا كان الله تعالى قد اختار للقرآن ترتيلاً يبهو فيه  
نغمه ومده ، ورنين ألفاظه ، فلا بد أن تكون ألفاظه قد اختيرت لمزية في كل كلمة لافي  
مجموعها فقط ، ومن أنصار الرأي الذي نظر الى فصاحة الكلمة الرافي رحمة الله  
تعالى ، ورضى عنه ، في كتابه اعجاز القرآن ، فقد قال :

« لما قرىء عليهم القرآن رأوا حروغه في كلماته ، وكلماته في جملة ألقاناً لغوية  
رائعة كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هي توقيعها ، فلم يفتمهم هذا  
المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبين في عجزهم ، حتى ان من عارضه منهم  
كمسيلمة جنح في خرافاته الى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه ، وطوى عما وراء  
ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني ، كأنه فطن  
الى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، انما هي في أوزان الكلمات وأجاس الحروف  
دون ما عداها ، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب ، الا أن يكون وزناً من  
الشعر أو السجع ، وهو بهذا لا يرى رأى الجرجاني في أن الكلمات ليس لها مزايا  
خاصة ، والله أعلم .

٤٤ — هذان رأيان يبدو أنهما متعارضان في كون فصاحة الكلمة جزءاً من البلاغة  
أو لفصاحة ، وان لم يكن بينهما فرق ، فالأول لا ينظر الى الجزء ، وهو الكلمة ، بل

لا ينظر الا الى المجموع المؤلف ، والآخر ينظر الى الأجزاء والى المجموع معاً ، بل لا يرى المجموع يكون بليغاً الا اذا انتهى الى ألحان مؤتلفة ، من حروف فى كلمات ، متألفة ، وكلمات فى أسلوب مؤتلف فى نغماته وترتيبه ، وتناسق بيانه .

ولا شك أن الكلمة وحدها من غير أن تكون فى مجموعة ، ليس لها بلاغة ولا مؤدى ، فكلمة شجر من غير أن تكون فى كلام ليس لها مؤدى الا أن تكون فى جملة مفيدة ، تؤدى معنى ، وتكون بحروفها وقوتها أولينها متأخية مع أخواتها من الكلام ، ولكن لابد للكلمة مع الكلمات الأخرى من أن تكون متلاقية فى لحن القول والمراد منه ، وتحقيقه ، فهى وحدها لا تؤدى منفردة ، ولكن بضمها الى أخرى يكون المعنى القوى ، ويكون النغم الجميل ويكون الترتيل الذى يملأ النفوس ، وتطمئن به ، وتقشعر منه الأبدان ان أنذر ، وتهداً ان بشر ، وتتفكر العقول ان دعا الى التأمل .

ومن أنصار هذا المذهب الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، فهو يقول فى رسالته .  
« واعلم أن القرآن انما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف ، متضمناً أصح المعانى من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء الى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وارشاد الى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شىء ، ومنها فى موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أليق منه » (١) .

وفى الحقيقة - أن الخطابى ينظر الى الأسلوب على أساس أن الألفاظ قوامه ، وهى دعامة بنيانه ، حتى ان القرآن الكريم او حاولت أن تنزع كلمة من جملة لتضع غيرها المرادفة لها ، لاختل البناء ، واضطرب ، وهو يقول فى ذلك « اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى اذا أبدل مكانه غيره جاء منه

(١) رسالة الخطابى ص ٩ ضمن رسائل ثلاث فى اعجاز القرآن ، والخطابى توفى سنة ٣٨٨ هـ

أما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وأما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى • ويحسب أكثر الناس أنها متساوية فى أفادة بيان مراد الخطاب » •

وبهذا انتهى الى أن الألفاظ فى الكلام البليغ لها مقصد خاص من المتكلم ، أما لنعمتها وأما لمعناها أو هما معاً • ولا يكون مرادفها صالحاً • لأن يحل محلها •

٤٥ — وكون كل كلمة لها لحن قائم بذاته لا نحسب ان الجرجانى ينكره • ولكن مذهبه البلاغى باعتباره من علماء البيان يجعله ينتجه الى العبارة المتألفة • والأسلوب الذى تتلاقى معانيه • ولا يتجه ابتداء الى الألفاظ • ولعاه أيضاً يقبل أن تكون الألفاظ متآخية النغم مؤتلفة الألحان متلاقية فى الترتيل • وهو يقرره على أنه فرض مقبول فيقول رضى الله عنه فى تلاؤم الحروف فى الكلمات •

« ان أخذنا بأن يكون تلاؤم الحروف فى الكلمات وجهاً من وجوه البلاغة وداخلا فى عداد ما يفاضل به بين كلام وكلام على الجملة لم يكن لهذا ضرر علينا ، لأنه ليس بأكثر من أن يعمد الى الفصاحة فيخرجها من حيز البلاغة والبيان ، وأن تكون نظيرة لها ، وفى عدادها هو شبيهما من البراعة والجزالة ، وأشبه ذلك مما ينبىء عن شرف النظم ، وعن المزايا التى شرحت لك أمرها ، وأعلمتك جنسها ، أو جعلها اسماً مشتركاً ، يقع تارة لما تقع عليه تلك ، وأخرى لما يرجع الى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان ، وليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصدده ، وان تعسف متعسف فى تلازم الحروف ، فبلغ به أن يكون الأصل فى الاعجاز ، وأخرج سائر ما ذكره فى أقسام البلاغة من أن يكون له مدخل أو تأثير فيما له كان القرآن معجزاً ، كان الوجه أن يقال له : انه يلزمك على قياس قولك أن تجوز أن يكون هنا نظم للألفاظ ، وترتيب لاعلى نسق المعانى ، لاعلى وجه يقصد به الفائدة ، ثم يكون مع ذلك معجزاً وكفى فساداً •

وينتهى القول فى هذا الى أن الخلاف بين الجرجانى والخطابى والجاحظ وغيرهما يكون فى أمرين غير جوهريين •

أولهما — أن الجرجانى لا يعتبر للألفاظ منفردة فصاحة أو بلاغة الا فى ضمن

كلام مجتمع ، وحينئذ يكون التآخى أولاً وبالذات في المعانى ، وكون الألفاظ واضحة الدلالة على هذه المعانى ، والتآخى يكون في المعانى ابتداءً .

ثانيهما — أنه لا يعتبر الفصاحة غير البلاغة ، لأن الفصاحة عند من يفرقون بين لفصاحة والبلاغة تكون في تلاؤم الحروف وتلاؤم الكلمات ، ولالألفاظ كما قال ابن الأثير جمال أوتار أحياناً ، وغير ذلك أحياناً .

وان ذلك اختلاف اصطلاح ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، انما المشاحة تكون في المعانى الجوهرية ، لا في الاصطلاح ولا في الأمور الشكلية .

ويسلم الجرجانى بأن للألفاظ جمالا ، وأنها في النظم تكون انغماتها ، وألحانها مساعدات للمعانى ، ولكنه يمنع منعاً مطلقاً ، ونحن معه أن تكون الألفاظ وحدها والكلمات منفردة سبباً للاعجاز ، انما الاعجاز يكون في أمور كثيرة منها تناسق الكلمات ، وما تشعه من معان وأخيلة بيانية في وسط أسلوب مكتمل البنان يلتقى بنغمه وفواصله ، وصوره البيانية ، مع الألفاظ المحكمة . والمعانى السليمة التى لم يكن للناس عهد بها من قبل .

## نظرات في ألفاظ القرآن

٤٦ — ان الألفاظ في ضمن الأسلوب البيانى الرائع ، ونعتقد مؤمنين أن كل لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته وفيه إشعاع نوارنى يتضافر مع جملته ، ويساعد بعضه بعضاً في المعانى العامة للأسلوب والعبارات الجامعة . وان العبارات مجتمعة يساعد بعضها بعضاً .

ولسنا نستطيع احصاء تلك النواحي في جمال ألفاظ القرآن احصاءً ، ولكننا نضرب من الأمثال على مقدار طاقتنا ، ومن غير أن نصل الى أقصى الغاية وانما نسدد ونقارب ، بل المقاربة فوق طاقتنا ، وقد سبقنا الى تلك المحاولة فحول البيان .

اقرأ قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا

يملعون<sup>(١)</sup> » •

إذا قرأنا « ورددنا البصر كرتين » وجدنا كل كلمة في حيزها ، لا تفارقه ، ولو فارقته أوجدناه فارغاً لا يملؤه غيرها • ولنبند بالاشارة الى ما في كل كلمة مما اختصت به •

الأولى — كلمة آمنة ، فالأمن معناه عدم الخوف من مغير يغير عليهم ، أو عدو يساورهم ، ولعل ذلك اشارة الى مكة أو أن هذه القرية هي هي ، كما قال تعالى « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (٢) » فتجد في هذه الكلمة اشارة الى نعمة ليست لغيرهم ، واختصوا بها دون الناس أجمعين •

الثانية — كلمة مطمئنة فمعنى الاطمئنان يتصل بالنفوس • فهي قد منحها الله تعالى الفرار ، والسكون والدعة من غير ضعف ، ومع هذه الدعة كان هو يقويها ويثبتها ، مع ما أعطاهم الله من سلطان أدبي على العرب ، وهم ملتقى اجتماعهم ومستقر شعائرهم الدينية ، ومغاممهم الكريم الطيب ، فكل هذا يشع من كلمة مطمئنة •

الثالثة — يأتيها رزقها — فإن هذا يشير الى سهولة الحياة • وأنه لا يأتيهم كسائر العرب بانتجاع الكلاء • والتنقل في الصحراء لا ينالون الحياة الا بشق الأنفس • وبذوقهم في طلبهم الرزق حر الحياة وقرها •

الرابعة — كلمة — رغدا ، فالرغد هو الرزق الطيب المذاق المرء • غير الوبيء وهو الواسع الكثير ، فهم في رزق يأتيهم سهلاً طيباً ، واسعاً مريئاً ، لا وباء فيه • ولكنهم كفروا بهذه الأنعم كلها فأى صوة بيانية أروع من هذه الصورة ، وتجد الكلمات الأربع متاخية في معانيها ، متلائية في ألحانها منسجمة في نغماتها ، وكل كلمة منها تعطى صوة بيانية ، فأمنة فيها صوة البلد الذي لا يساوره عدو في وسط موطن فيه يتخطف الناس ، ومطمئنة يشير الى الاطمئنان النفسى الساكن

(٢) العنكبوت : ٦٧ •

(١) النحل : ١١٢ •

القار كالماء الساكن الذى لا تعبت به الرياح ، ويأتيها رزقها طيباً من كل مكان تشير الى المكانة التجارية التى يأتيها الخير من كل بلد قاص ودان ، وأن لهم رحلة الشتاء .  
وان مجموع الكلمات مع ما تشعه كل واحدة من معان وصور ، يصور حال جماعة من لناس على هذه الأمور المجتمعة غير المفترقة ، وكلها فيبوض من أنعم الله تعالى ، ومع ذلك تكفر هذه النعم ، فلا تشكر ، بل تجحد الحق ولا تؤمن ، وهنا تجيء الصورة الثانية من عقاب ، ومؤاخذة على ما ارتكبوا من كفر بأنعم الله ، ونجد أن كلمة أنعم فيها فصاحة وصورة بيانية ، إذ أنهم لم يكتفوا بواحدة ، بل كفروا بها كلها ، فكان الجحود أشد ، والضلال أبعد ، وكلمة أنعم نعمة هادئة مع سعة المعنى فى الكلمة ، إذ أنها نعم متضافرة ، وفيبوض خير من الله تعالى متكاثرة .

هذه حال ما أفاض الله تعالى به عليهم ، كانت فيها صور النعم واضحة كلا وجزاءً فى كل كلمة سيقنت لذلك .

فلننتقل من الآية الكريمة الى الصورة التى حلت محل الأولى ، ولننظر الى الكلمات السامية كلمة كلمة ثم ننظر الى الصورة التى تتكون من هذه الكلمات التى كانت كل منها صورة قائمة بذاتها ، وهى أيضاً جزء من الصورة الكبرى التى يكونها المثل القرآنى السامى .

الكلمة الأولى : أذاقها الله فى التعبير بأذواق اشارة الى أن الايلام مس نفوسهم ، وبعد أن كانوا فى ترف صاروا يذوقون الضر .

يقول الزمخشري (١) فى معنى الاذاقة . الاذاقة قد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد ، وما يمس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس ، والضر ، وأذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من طعم المر ، وترى من التعبير والتقابل ، أنهم بعدما سكن قلوبهم من اطمئنان ، وما كان من العيش الرغد ذاقوا الجوع ، وبما منحوا من أمن ، ذاقوا الخوف ، وهكذا تجد التقابل .

(١) هو مهيبود بن عمر الزمخشري امام عصره فى اللغة والتفسير والحديث ، توفى سنة ٥٣٨ هـ .

والكلمة الثانية : لباس الجوع والخوف ، فيها صورة بيانية رائعة ، فهي تصور الجوع والخوف كأنه لباس لبسهم وأحاط بهم احاطة الدائرة بقطرها ، لا يخرجون منه الا اليه ، ولا يدورون الا في دائرته ، وان ذلك بلا ريب يفيد الاحاطة الشاملة الكاملة التي لا يستطيعون منها فكاكا ، وهذا يفيد استمراره وتجده آناً بعد آناً ، ولقد قال الزمخشري « وان اللباس قد شبه به لاشتماله على اللابس ، ماغشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث ، وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، كأنه قيل ماغشيهما من الجوع والخوف » •

ومهما يكن تصوير امام البلاغة الزمخشري من أن التعبير باللباس يفيد أنه غشيهما وأحاط بهم فان في الكلام صورة بيانية تصور حالهم بعد الأنعم التي أنعم بها عليهم ، وكفروا بها من أنهم في صورة من كان لابساً للجوع والخوف ، وهم يذوقونه ، كمن يلبس ملابس كلة تتباد ، يجرح أجسامهم ، ويدمى جلدهم ، بيد أن هذا لا يدمى الجاد ، ولكن يمس الحشا بالجوع ، والنفس بذهاب الأمن والاستقرار ، وانا نجد أن هذه الصورة البيانية التي يصورها القرآن قد تضافرت الكلمات في تكوينها فاشترك فيها التعبير بأذاقهم ، والتعبير باللباس ، وكون اللباس جوعاً وخوفاً ، ولباس الجوع والخوف أشد ايلاماً من لباس الشوك ، لأن الشوك يؤذى الجلد حساً ، ولباس الجوع والخوف يؤذى الجسم ، ويؤذى النفس واذا قوبلت هذه الصورة عند الكفر بالصورة الأولى من أمن واطمئنان ، ورخاء في العيش وطيبه واتساعه ، وجدت الفارق بين صورة النعمة التي كفروا بها والشقاء الدائم بعد الكفر •

ومن ذلك يتبين مقام كل كلمة في تكوين الصورة العامة ، فوق النعمة الهادئة ،

• والتصور الحكيم

٤٧ - ولننتقل الى مثال آخر ، لانتخاره من القرآن اختياراً ، ولكن نأخذه من

غير تخير ، لأن التخيير يكون فيه المختار ، وغير المختار ، وكتاب الله تعالى كله خيار ، وكله فوق طاقة البشر ، ولأن الذي يختار يفرض من نفسه حكماً ، ومن يكون حاكماً على كتاب الله تعالى ؟ انما يحكم على الكتاب من أنزل الكتاب ، الذي تعهد بحفظه ،



وإنما نحن نتأمله ونطليه من الكتاب من غير تخير ، لأنه فوق طاقتنا ، وفوق التخير .  
 اقرأ هذه الآية ، وقف عند كلماتها وتأمل في تأخير نعمها ، وتأخير معانيها  
 الشيم كان يئوسا ، قل كل يعمل علم شاكلته ، فريكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » (١) .  
 اقرأ هذه الآية ، وقف عند كلماتها وتأمل في تأخير نعمها ، وتأخير معانيها  
 وتصويرها في حملتها للنفس الانسانية — الكلمة الأولى — أنعمنا ، فقد أضاعها الله  
 تعالى إليه وأنعم الله تعالى فيض ، وأسباغ يغمر صاحبه ، والآنعم من الله تعالى  
 يفتنى الشكر كما قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابي  
 لشديد » (٢) . وكان هذا يقتضى اقبال الانسان عليه سبحانه ، والانبال بالطاعة ،  
 ولكنه لم يقبل بل كفر وطغى ان رآه استغنى .

الكلمة الثانية — أعرض ، وهى كناية عن البعد عن الله تعالى وعدم الاقبال عليه  
 تعالى الله علوا كبيرا وأصل أعرض فى المعنى الحسى أو يولى عرض وجهه بالأ يقبل  
 على الله تعالى ، ويطاب المزيد من النعم بالطاعات يقدمها ، ويحب الله تعالى ويخلص  
 له اذ أنعم ، ولكنه يظن أنه استغنى ، وعند ظن الاستغناء يكون الطغيان ، ويكون  
 ظلم الانسان لأخيه الانسان ، ووراء ذلك الفساد الكبير ، والشر المستطير .

الكلمة الثالثة : نأى بجانبه — النأى هو البعد وكلمة بجانبه ، مؤداها اتخاذ  
 جانب آخر غير جانب الله تعالى فيسير فى ضلاله البعيد ، ويقول الزمخشري : أن  
 كلمة نأى بجانبه تأكيد لمعنى — أعرض — ونقول انها تأكيد لمعنى الاعراض من حيث  
 انه الخطوة التالية بعد الاعراض ، فالاعراض عن الكلام عدم الاصاخة إليه ، وعدم  
 الالتفات الى دعوة الحق ، وان هذه خطوة يكون من بعد أن يبتعد عن الله تعالى ،  
 ويجافيه وترى من هذا أن الكلمات من حيث السياق يأخذ بعضها بحجز بعض فى نعم  
 مؤتلف من حيث ان كل معنى يعقبه أخ له مترتب عليه متناسق معه .

ومن مجموع هذه الكلمات يتبين كيف كان أثر النعمة كفراً بها ، وكيف  
 يتدرج الكفر بها ، حتى يكون البعد التام عن الله ، فتكون الطاعة فى جانب ونفس

المنعم عليه في جانب آخر ، وهو جانب العميان والضلال البعيد ، ثم الطغيان من وراء ذلك •

والصورة البيانية من هذا الكلام قد تضافرت في تكوينها الألفاظ كلها مجتمعة ، وكل كلمة صورة بيانية في ذاتها ، فانعام الله تعالى يعطى صورة بيانية للمنعم وفيض نعمه تعالى ، والاعراض بتلقيها بجانب الوجه صورة حسية ، ثم النأى من بعد ذلك •

هذه صورة المنعم عليه في جحود نفسه ، وعدم التفاتها الى الاعتراف بالمنعم وشكرها ، مع أن شكر المنعم واجب عقلا ، وهو منبعث الضمير الطيب الطاهر •

لننتقل من هذه الصورة التي تصورها الكلمات منفردة اذ كل كلمة صورة بيانية رائعة ثم هي بتضامنها وتلاؤمها تعطى صورة كاملة لنفس كفرت بأنعم الله وبطرت معيشتها واتخذتها سبيلا لظلم العباد ، والكفر برب الناس ملك الناس •

ثم نتجه الى صورة تلك النفس ، وقد أصابها الشر ، ولم تنل النعمة ، وهنا كلمتان كلتاهما تصور صورة من نزول الضر ، وأعقابه في النفس الجاحدة ، الكلمتان هما مسه الشر ، وكان يئوسا • ان المس وهو الاصابة بالشر ، وان التعبير بمس يفيد أن الاصابة بالشر ولو خفيفة تصيب من النفس ما تجعلها يائسة ، والنشر كل مالا يرغب فيه ، ويطلق على الأمور الضارة حسيًا ونفسيًا ، وعلى الأمور القبيحة خلقياً والتعبير بالنشر هنا يشمل الضر ، كقوله « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره (١) » ويشمل نتائج الطغيان والعميان فيكبه الله تعالى على وجهه ، ويشمل العقاب الذي ينزله جزاء لما ارتكب ، واذا كان قد جحد بنعمة الله تعالى ، اذ أنعم بها ، وأعرض ، ونأى بجانبه ، فان النفس التي تطغى بالنعمة تذلل وتهون وتضعف بسلبها ويصيبها اليأس المطلق اذا نزلت بها النعمة •

الكلمة الثانية كان يئوسا وهنا نجد كلمة كان الدالة على اللزوم والاستمرار فكان في قوله تعالى « وكان الله غفوراً رحيماً (٢) » وكلمة يئوسا بصيغة المبالغة

الدالة على لزوم اليأس وإيغاله في النفس وعدم افتراقه عنها ، فيكون في حال يؤس مستمر ، ويأس دائم ، يكفر — إذا أنعم الله عليه ويصاب بالطغيان ، ويكفر إذا اختبره الله تعالى بالشبر يصيبه •

ولا شك أن هذه الجمل السامية ، والكلمات تصور حال انسان غير قار ، ولا ثابت تبطره النعمة ، ويؤتسه الاختبار ، وكل ذلك في ألفاظ منسجمة في نعماتها ، متصافرة في معانيها ، تدل على النفس المنحرفة ، وتصورها •

ولقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » (١) وهنا نجد النص الكريم يفيد ما يدل على أن الناس جميعا ليسوا سواء في ذلك ، فمنهم شقى على الصورة التي ذكرها سبحانه ومنهم سعيد ، وهم الصابرون الذين لا تضطرب نفوسهم بنازلة تنزل ، ولا يطغون بنعمة تسبغ وكأن هذه الجملة في موضع التخصيص من عموم الانسان المذكورة أولا كالاستثناء في قوله تعالى : « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه انه يؤس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور ، الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » (٢) •

والكلمة السامية « قل كل يعمل على شاكلته » ، نجد فيها ثلاث كلمات منها ينبثق نور ، فالأمر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يقول ذلك فيه ما يصور أن بعض الناس كذلك وأن في الناس من ليسوا كذلك ، فدلّت كلمة « قل » التي تتضمن آتد على هذا الاعتراض المفروض ، وانتقل الكلام من ضمير المتكلم من الذات العلية الى الخطاب الذي أمر به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن الأمر تنبيه ، يتولاه صاحب الرسالة المتكلم عن الله نازلا الى مرتبة المعارضين ليواجههم بالرد ، وفي ذلك فضل تنبيه وتقريب ، وذات الانتقال من المتكلم الى المخاطب فيه تهديد بياني ، وتصوير بلاغى ، والشاكلة — الهيئة والصورة والسجية ، والمنهج الذى يخطه لنفسه ، ويسير عليه من الضلالة كالأولين والهدى للمهتدين ، والشاكلة تطلق على الطريقة ،

ويقول الزمخشري أنها من قولهم : طريق ذو شواكل ، الطرق التي تنتشعب منها •  
 وفي هذا الكلام معان دقيقة تنبعث من صور الكلمات ، ومرامى العبارات ،  
 وحسن المقابلات ، ان الناس قسمان قسمٍ شاكلته ، تلقى النعمة بالاعراض ، ووراء  
 الاعراض الظلم والطغيان والفساد في الأرض ، وقسمٍ صابر ضابط لنفسه ، لا تبطره  
 النعمة ، بل يصبر عليها فيطيع الله ، ويقوم بحق شكرها ، والأول مضطرب النفس  
 غير منضبط القلب تطغيه النعمة فيستكبر ، وتوئسه النعمة ، فيكفر باليأس من رحمة  
 الله •

وان لله تعالى العلم الكامل بالصنفين ، وهو مجاز للفريقين ، وقد ختم النص  
 الكريم بقوله تعالت كلمته « فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » وهنا نجد المعانى  
 تشع بنورها من هذه الكلمات •

فأولاً — الفاء التي تفيد ترتب الجزاء على الأعمال ، وثانياً التعبير بربكم انذى  
 فيه الاشارة الى أنه هو الذى خلق فسوى وهو المربى المكمل — الهادى كلالى غايته ،  
 وثالثاً — ترتب العلم الكامل على كونه الخالق ، ورابعاً — ذكر العلم الكامل بأفعل  
 التفضيل الذى يدل على أنه لا علم فوقه ان كان ثمة تفاضل ، وخامساً — التعبير عن  
 الجزاء بأنه أثر للهداية ، وأن الله تعالى أعلم بالمهتدين ، وسادساً — التعبير بأفعل  
 التفضيل فى أهدى • أن أنه العالم بمن اهتدى بعد أن يغفر الله ، وسابعاً — فى  
 التمييز بكلمة سبيلا ، وفيه بيان بعد نوع من الابهام ، وبذلك يكون العلم متمكناً  
 فضل تمكين ، علم بالهداية وعلم بمنهاجها ، وهو السبيل القويم •

٤٨ — بعد هذا النظر السريع الى تلك الآية نتجه الى آية أخرى نجد فيها الكلمة  
 تدل على معنى أو غيرت بغيرها مما يكون فى معناها ظاهراً ، مرادفا لها بادى الرأى ،  
 لايمكن أن يؤدى المعنى الذى يشرق منها ، ويجتمع به فى الدلالة صورة اللفظ ،  
 وأشراق المدلول •

اقرأ قوله تعالى : « والصبح اذا تنفّس (١) » فاننا لو أردنا تغيير كلمة من  
 هاتين الكلمتين لتغيرت الصورة البيانية ، ولننظر فيهما •

الكلمة الأولى، وهي الصبح، فإنها تدل على النور الذي يتخلل الظلمة، ويسرى فيها شيئاً فشيئاً وينبعث في هذا الوجود، فيملؤه نوراً، وتتبعث من بعده الحياة، ويخرج الناس الى معاشهم بعد سبات الليل وسكنه، وما يعشى به السكون من لباس الظلمة.

ولا شك أن كلمة الفجر قد تدل على بعض معاني كلمة الصبح، والعلماء يعدونها من المترادفين، ولكن عند التحقيق نجد كلمة الفجر تدل على معنى شق الظلمة، وعلى مجرد ابتداء نهاية الظلمة، ولذلك يقتزن بها ذكر الليالي، كما قال تعالى: « والفجر، وليال عشر، والشفق والوتر (١) » فقد كان ذكر الليالي مع الفجر متناسباً، لأن الليل هنا مخ مع الفجر في معناه، وقصد به مجرد نهاية الليالي.

ولكن كلمة الصبح لوحظ فيها الإشارة الى ابتداء النهار، فإذا كان وقت الفجر والتصبح واحداً، فإن الفجر فيه بيان انهاء الليل، والصبح ابتداء النهار. ولذا يستحسن الناس أن يقال طلع الفجر، ولا يقال طلع الصبح، بل يقال أشرق الصبح، وهنا نجد المعنى واحداً في الجملة، ولكن الدلالة اللغوية الدقيقة مختلفة، فهذا اشراق، وذلك انهاء.

والكلمة الثانية - كلمة - تنفس - فإن كلمة التنفس في ذاتها تدل على بدء مظاهر الحياة شيئاً فشيئاً، ذلك لأن أصل التنفس من النفس، وهي الحياة، وهي أيضاً الريح، وهي الحركة الدائمة المستمرة، في الداخل والخارج، فهي تشمل ما يدخل في النفس من أسباب الحياة، وما يخرج منها لتستمر الحياة، ويقال نفس عنى أى فرج عنى، وبذلك يكون كلمة التنفس يندرج فيها ثلاثة معان تتصل بالحياة الدائمة المستمرة أولها التنفس بمعنى الحياة، وثانيها حركتها واستمرارها، وثالثها ندرجها في الظهور شيئاً فشيئاً، ولو أنك وضعت كلمة أشرق بدل تنفس، كأن يقال، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى: « والصبح اذا أشرق، أو أصبح أو أثار أو أضاء، فإن كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام تنفس، ولا تغنى عنها.

(١) الفجر: ١ - ٣.

ولو أننا تركنا لفظ تنفيس بانفرادها ، وتابعناها مقتترنة بكلمة الصبح ، وهو النور الذى بيتدىء به النهار ونظرنا ما يصوره قوله تعالى : ( والصبح ادا تنفس ) ورأينا كل حى فى الوجود ، يفيض عليه الاصباح بالعمل والحركة فانسدى يصيب الزهور ، والضوء يضىء الحدايق الغناء ، والطيور ترقزق بموسيقاها ، وينبعث كل من فى الوجود خارجا من لباس الليل الى معاش النهار ، فالزارع يخرج الى حقله ، والماشية تنبعث من مرايضها ناعقة ، فرحة ، سائرة الى المراعى ترعاها ، والكلأ تنتجعه ، والصبيا يخرجون من أكتانهم كما تخرج الطير من أكتانها ، وكل ما فى الوجود يخرج مما يخفيه الظلام .

وهكذا نجد كل مظاهر الحياة تندرج فى الظهور ، حتى يميل الى الضمها فيكون المعترك القوى الصاحب اللالع ، فهل ترى كلمة تدل على هذه المعانى أبلغ من كلمة : والصبح اذا تنفس ، وبهذا يتبين أن ألفاظ القرآن الكريم كل كلمة فى حيزها ، لا يميل غيرها فى موضعها فراغها .

٤٩ - بعد هذا البيان الذى حاولنا فيه أن نتسامى الى أن نذكر مواضع البلاغة أو انفصاحة فى كل الكلمات التى سقناها وتلونا آياتها ، وكون كل كلمة فى موضعها ذات بلاغة خاصة تصور صورة بيانية رائعة ، وهى مع أخواتها تتلاقى فى صورة كاملة ، لها أطراف تروع القارىء ، وتستولى على لب المتفهم .

ولنتقل الآن من الألفاظ الى عبارات لها معان لا يحل مطها فى نسجها ولا فى مدلولها ما يقوم مقامها ، ولنذكر منها أربع آيات .

أولها قوله تعالى « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعنساء بها ، ولكنه آخذ الى الأرض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم ينتفكرون » (١)

وان هاتين الآيتين الكريمتين تصوران رجلا آتاه الله تعالى العلم بالآيات

الموجبه التصديق بالحق ، وأن هذه الآيات احاطت بقلبه ونفسه ، حتى لا ماص من انكارها كما يحيط الاهداب بالجسم ، ولكنه ترك الاخذ بالهدى استجابة لداعى الشيطان وصار من الضالين الذى اغواهم ابليس العين ، فكان مثله كمثل من ينسج عن الاهداب الذى لبسه ولصق بجسمه ، ولو تساء الله تعالى لرفعه من كبوه الضلال بما آتاه الله تعالى من علم ، ولكنه هو الذى انحط الى الارض ونزل اليها ، بسبب هواه فصار مثله كمثل الكلب يلهث دائما ، ان ترك يلهث ، وان حمل عليه يلهث ، ولننظر فى الكلمات التى تشتمل عليها هذه الآيات .

الكلمة الاولى - انسلخ - والسلخ نزع جلد الحيوان يقال سلخته فانسلخ ووضع هذه الكلمة فى ذلك النص الكريم له معنى لا يوجد فى لفظ غيره ، وهو يشير الى أن البيئات والآية المعلمة للحق احاطت به ، ولصقت بنفسه واتصلت بعقله اتصال اهداب الحيوان بلحمه ، ولكنه انسلخ من هذه البيئات فكلمة انسلخ فيها استعارة ، فشبه الكفر والفساد بالانسلخ فى الاهداب لكمال الملازمة ، ولأن الانسلخ يكون بمعاناة وعنف ، إذ أن مادة المطاوعة لا تكون الا للأفعال التى تحتاج الى معالجة . فلا يقال كسرت القلم فانكسر ، ولا يقال كسرت الزجاج فانكسر ، ولكن يقال كسرت الباب فانكسر ، ويقال طويت الحديد فانطوى ، فكان هذا تصويرا لاثبات أن الكفر ضد الفطرة ، وأنه يحتاج الى معانسة للنفس ، ومقاومة لدواعى الهدى ، ولكنها لا تكون الا اتباعا لهوى الشيطان .

الكلمة الثانية - أتبعه الشيطان : أى لحقه الشيطان ، فانه يقال أتبعه اذا لحقه ، ومن ذلك قوله تعالى « فأتبعوهم مشرقين » (١) وقوله تعالى « فأتبع سبياً » (٢) ، وقوله تعالى : « وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » (٣) ، وان وضع هذه الكلمة فى هذا الموضع لهو وضع بلاغى عميق ، ففيه اشارة الى أن الشيطان انما يلاحق الذين يتركون الآيات ، ولا يعملون على الاخذ بموجب البيئات ، فأول دركات الضلال هو ترك الدلالة المعلمة للحق مع قوة سلطتها ، واذا تركها فان الشيطان يلحقه ، ويأخذ به الى آخر غايات الضلال ، واذا

وصل الى هذه الدرجة صار من الغاوين ، والغواية معناها الجهل المردى ، انذى يصحبه اعتقاد فاسد مردود وكأنه بهذا الانسلاخ من موجبات المعرفة ، ودواعى الحقيقة ينقلب من عالم بالبيئات مدرك لها الى جاهل أرداه جهله فى الفساد .

الكلمة الثالثة - « أخذ الى الأرض » . ومعنى أخذ الى الأرض ركن اليها بحسب أن الركون اليها يجعله خالدا ، ويجعله باقيا مستمرا ، وهو يريد البناء على أى صورة . وان مقابلة هذه الكلمة بقوله تعالى « ولو شئنا لرفعناه بها » أى بالبيئات ، يفيد أنه اختار الاستئصال بدل الارتفاع ، والضعفة بدل الرفعة ، ويكون فى هذا اثبات أن الرفعة تكون بطلب الحق والايمان والاستجابة لبيئاته ، وعدم الانخلاع من موجبها .

وكل هذه المعانى تشرق من مقابلة الارتفاع بالاخذ الى الأرض .

وهنا نجد صورة رائعة تلتقى فيها أطراف مميزة بالفاظ مصورة ، فهى تصور شخصا أفاض الله تعالى عليه بأسباب الايمان بالحق ، والتصقت به . حتى صارت كأنها جزء من كيانه ، وقد اتصلت ببنائه ، ولكنه بسبب أنه أخذ الى الأرض وكان نزوعه متصلا بأعلاقه قد سلخ البيئات المتصلة بها بانغماس فى الضلال-متكرر مستمر ، حتى انسلاخ من الهداية ، وفى ذلك إشارة بيانية الى أنه ترك الهداية بعد عمل مسقمر قام به ، فهو قد ابتدأ فى الشر متبعا هواه ثم كرره حتى كون له خطوطا فى نفسه ، وتكرر حتى صارت الخطوط مجارى ، فكان الانسلاخ ، وبعد الانسلاخ وجد الشيطان طريقه فاتبعه بغية الضلال ، وقد مثله تعالى بمثال آخر ، وذكر له صورة أخرى .

وذكر فى الكلمة الرابعة : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث » والله كما يقول علماء اللغة أن يفرج الحيوان لسانه مرطبا بلعابه فى حال عطشه أو جوعه أو اعيانه ، أو اهاجته ، وذعره ، ويقولون ان أخس أحوال الكلب أن يكون منه اللهث فى كل أحواله ، فإنه يكون مكروبا دائما ، وقد ذكر القرآن الكريم حال من ينسلخ من الهداية الى الغواية بأنه يكون فى حال هياج نفسى مستمر لا يستقر على قرار ، ولا يسكن على حال ، اذ أن الهداية ايمان ، والايمان



الطمئنان وقرار ، ومن يكفر بالله ، وينسلخ على هدايته اتباعا لهواه يكون في الهج مستمر ، فيكون كالكلب في أخس أحواله وأذلها ، ان هيج لهث ، وبدت صورته شوهاه ، وان سكت عنه بدا على هذه الصورة •

وان هذا تصوير واضح لمن غلب عليه هواه ، اذ تغلب عليه شقونه ، ويكون في اضطراب ، وشعور بحرمان دائم يستقر في نفسه ، لأن الهوى يجعل النفس طلعة تتطلع ولا تهدأ ولا تستقر ، ولا تطمئن •

ونرى من هذه الآية وما سبقتها كيف يكون كل لفظ مؤدياً معنى خاصاً يقصد ، ويعطى صورة من البيان لها أطراف كأطراف صورة التصور الحسية التي تصورها يد صناع لمصور ماهر ، والكلام الله تعالى المثل الأعلى ، ومن مجموع هذه الصور المتكونة من الكلمات تكون صورة كايية يتمثل فيها أعلى صور البيان •

٥٠ - ولننتقل من هذه الصورة الرائعة التي تتكون من مجموع صور بيانية للعبارات الى صورة بيانية لبيان حال ، ما ينزل بالكفار يوم القيامة ، ولا يصح أن يجول بخاطر أحد أننا نبحت في ألفاظ القرآن الكريم متخيرين ، بل نفتح فنجد الأمثال الواضحة من غير تحر ولا تخير •

لقد قال تعالى في سورة الدخان في تصوير غذاء المشركين يوم القيامة ، وترى كل كلمة من النص تبين صورة مؤلة مزعجة لما يتناولون ، ويشترك في الصورة نغمة الكلمات ونسقتها ، وتأخيها •

اقرأ قوله تعالى : « ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى في البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق انك أنت العزيز الكريم » (١) •

ولننظر اليها ، ونبين ما فيها من صورة بيانية ، تتخذ منها ومن أخواتها صور بيانية لأغلظ عيش وأقسى حياة ، وكيف يكون الغذاء كله ايلاما لا اشباع فيه ،

وايذاء لا متعة معه ، ثم يختم القول بتهمك على من كان يحسب نفسه عزيزا كريما ، والمؤمنين أراذل منبوذين .

أول هذه الكلمات : شجرة الزقوم - وهذا استعمال قرآني لم يكن كثيرا عند العرب ، وإن كان أصل اشتقاقه من لغتهم ، والزقوم صيغة مبالغة من الزقم ، والزقم إعطاء الطعام السكريه أو الأمر السكريه ، ويقال تزقم إذا ابتلع شيئا كريها غير مرغوب فيه ، بل تنفر عنه الطباع وتستكرهه .

فشجرة الزقوم للشجرة التي لا تثمر الا ثمرا كريها تعافه النفوس ، ولا يناله المتناول الا مكرها باكره من ذى جبروت ، أو من جوع ، أو من يكون في حال من يريد تناول أى شىء مهما يكن ذلك الشىء ، ومهما يكن مذاقه ، ومهما تكن وباءته . والتعبير بشجرة الزقوم فيه إشارة الى أنه طعام مثير مستمر ، لأن ثمراته الوبيئة السكريه لا تنقطع ، فهي في شجرة دائمة الاثمار .

وفي هذه الآية يذكرها ، وفي آية أخرى يذكر سبحانه أنها تثبت في أصل الجحيم ، فهي من ثمرات شجر جهنم ، وفي ذلك تصوير لحال الطعام ، وتصوير لحال المقام ، وكيف أن المترف في الدنيا ينتقل من واد نيرانى الى واد مثله وكل حياته منها ، فأقامته فيها وغذاؤه من ثمار أشجارها ، وبفس مئوى الكافرين .

الكلمة الثانية : طعام الأثيم - يقول الذين تكلموا في ألفاظ القرآن : إن الأثم الأمر المبطىء عن الخير ، المعوق عنه أو المؤخر له ، وعبر عنها بكلمة أثيم ، وهى صيغة مبالغة من اثم وصفة مشبهة تدل على حال دائمة مستمرة ، فهي تدل على أنه فعل الأثم كثيرا ، ولذلك وصف بصيغة الصفة المشبهة ، وهو حال دائمة عنده ، إذ الصفة المشبهة تقتضى أن يكون الموصوف بها في حال دائمة في صفتها لا تفارقه ولا يفارقها ، وهنا معنيان كلاهما يدل على بلاغة اللفظ ، وعظم مؤداه .

أول المعنيين : ذكر الوصف الذى يشير الى أن سبب ذلك الجزاء هو الأثم الدائم الكثير الذى كان منه فى الدنيا ، فالجزاء من جنس العمل ، والعدل يقتضى ألا يتساوى المسىء بالمحسن ، فهل يستوى الأعمى والبصير ؟

ثانيهما : أن لذلك الثمر السكريه الذى تثمره شجرة من نار جهنم هو الطعام

الدائم المستمر الذي لا يقدم للطغاة الا هو ، فلا يذوقون طيبيا ، لأنهم لم يذيقوا الناس في الدنيا طيبيا ، وهل يكون جزاء الخبيث الا خبثا .

الكلمة الثالثة : كالمهل يغلى في البطون - والمهل دودي الزيت ، أى الراسب أو بقايا الزيت ، وتكون عادة سوداء معتمة ، ثم هي في ذاتها شيء رديء وأعطاه القرآن وصفا ، وهو أنه يغلى في البطون ، فهو بقايا رديئة أصابها العطن ، لغليناها اما لحموضتها ، اذ تغلى كالأشياء المعطنة التي تنتخر ، وتغلى بالزبد ، واما لأنها تكون ذات حرارة شديدة تغلى من شدة هذه الحرارة ، ولعمل غليناها من الأمرين ، فهي متعفنة تغلى بالزبد من الحموضة ، أو هي حارة تغلى منها البطون لشدة الحرارة وفي كلتا صورتين تدخل على البطون غذاء وبييئا ، ان كان فيه مادة الغذاء ، وليس غذاء مريئا ، فهو ان يمنع عائلة الموت ، ويبقى فانما يبقى لتستمر الآلام ، وتكون حياته نكداء ، فطعام كريبه في مذاقه ، وبىء في مآله ، مؤلم في كل أحواله .

وعد يقال ان الأظهر هنا أن الغليان من العفونة التي تكون من بقايا هذا الزيت ، لأن التشبيه جاء بعد ذلك في قوله تعالى « كغلي الحميم » ، وهو الماء الحار اذ بلغ أقصى درجة الحرارة ، فغلا واشتد غليانه ، والجواب أن الزيت يغلى من شدة الحرارة كغليان الماء ، وهو في هذه الحال يكون أشد ، لأنه يكون في درجة حرارة أعلى ، وكان تشبيهه بالماء التصوير والتقريب ، وكثير من تشبيهات القرآن للتقريب والتصوير ، فالغليان يكون بالعفونة ، وبالحرارة معا .

الكلمتان الثالثة والرابعة : « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم » فان كل كلمة من هذه الكلمات، تصور صورة عنيفة لهذا الذي عصى وغوى ، وفضل اذ حسب أنه استغنى .

فكلمة الأخذ تنبئ عن القبض بعنف ، وقد كان في القرآن الكريم ما يدل على العنف فيها كما قال تعالى : « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ، ان أخذه أليم شديد (١) » ، وكان الأخذ بأمر الله للملائكة غلاظ شداد ، فكان الأخذ في ذاته شديدا ، وكان الآخذون أشداء وتجميلهم هنا مع وصفهم في آية أخرى بأنهم

غلاظ شمداد ، فيه ارهاب وبيان لعظم الأخذ بالآخذين •

وقد فسر سبحانه في الآية بما يدل على شدة الأخذ ، وبيان أنه نوع خاص منه ، إذ قال سبحانه « فاعتلوه » إذ العتل أو الأخذ بمجامع الشيء والاحاطة به وجره بالقهر والعنف ، فإذا كان الأخذ في ذاته عنيفا ، فهو في هذا النص أشد عنفا ، إذ هو جر واحاطة قوية بالمأخوذ ، وان الأخذ بهذه الصورة من جر عنيف واحاطة فيه ما يدل على الاهانة ، والتحقير ، وخصوصا إذا كانوا يحسبون أنهم وحدهم الكرام ، وغير أراذل دونهم ، فان الأخذ بطريق العتل يعطى صورة للمهانة التي يكون عليها من يستكبرون على الحق أن يتبعوه ، ويتبع الحق أهواءهم ، وفي هذا بيان أن هذا العنف جزاء وفاق ، لما كان منهم من غطرسه مقيتة ، فانهم سيعاملون بمثلها يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم •

الكلمتان الخامسة والسادسة : « الى سواء الجحيم » فكلمة سواء معناها المكان المتوسط ، والجحيم النار المتأججة التي تكون في مهواة ، والصورة التي توضحها كل كلمة من هذه أنه يؤخذ عنوة ويوضع في وسط النيران المتأججة التي تشتعل وتتأجج مرتتعة من وهدة جهنم الى أعلى ، ويلقى في المكان المتوسط بحيث لا تكون قادرا على الخروج منها ، إذ لا يكون في طرف من أطرافها ليستطيع أن يخرج منها ، بل هو في وسطها لا ينتقل الا اليها ، وليته يستمر على حاله لم يجيء له عذاب من خارجها ، بل انه يجيئه العذاب من الخارج ، فيلتنقى عذاب الداخل والخارج معا بل يجيء ما تدل عليه العبارات التالية :

الكلمات السابعة والثامنة والتاسعة : « ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » والصب هو نزول الماء من أعلى الى أسفل ، ويكون متدفقا مندفعا ، وهو مرتفع من فوق رأس الأثيم من عذاب الحميم ، فالصب في ذاته من عل يؤلم ولو كان ماء ياردا ، فكيف الحال اذا كان عذابا ، فهو صب لا لأجل التبريد ، ولكن لأجل التعذيب ، والاضافة هنا بيانية أي عذاب هو الحميم وهو السائل الحر الشديد الحرارة ، فهو عذاب ينزل فوق الرأس ، فيذيب أديمه ، ويصهره دهنا •

وباجتماع الآيات من أولها يكون العذاب المهين في غذاء من المهل من الزيت الرديء يغلَى في البطن من شدة العفن ، ويغلَى من شدة الحرارة ، ويساق في هذه الحال مأخوذاً أخذاً عنيفاً محيطاً بمجامعه الى وسط جهنم ، ثم ينزل من فوق رأسه عذاب هو سائل شديد الحرارة ، يصب على رأسه صبا عنيفاً يذيب كل ما يقع عليه .

ومع هذا العذاب المهين المؤلم الشديد يوجد عذاب معنوي بانتهمك عليه فيقول لسان الحال « ذق انك أنت العزيز الكريم » يعلم أنه كان طاغياً .

٥١ — هذه جمل من الآيات الكريمة تسامينا فحاولنا أن نسمو الى ألفاظ قرآنية مشرقة بمعان ، وكل كلمة منها لها طيف خاص بها ، وتدل على معان عميقة تصور ناحية بيانية تبدو واضحة في انضمامها لغيرها ، وتكون من مجموع الصور البيانية للكلمات صورة بيانية رائعة ، وإذا كان لكل صورة حسية أطراف تعطى الصورة حيوية ، فالصور البيانية لها أطراف عالية ، تعطى الصورة روعة عالية ، لا توجد في أى كلام غير القرآن الكريم .

وان الصور البيانية القرآنية تبدو أوضح ما تكون في القصص القرآني ، وان كان كل البيان القرآني رائعاً واضحاً ، فان القرآن في وصف الحوار والأجواء الفكرية والاعتقادية يصورها تصويراً واضحاً ، فاذا وصف حالاً لرجل تجده يصور قلبه وخواطره .

اقرأ قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى : ان الملائم يأتون بك ليقتلوك ، فاخرج انى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين » (١) هذه القصة بسياقتها كل لفظ منها ينبىء عن معنى اللفظة والحذر فهذا الرجل الناصح الأمين تجده يسعى من أقصى المدينة ، والتعبير بأقصى يدل على المحبة الخالصة الطيبة ، ثم كلمة يسعى تدل على أنه جاء عدواً لا قرار عنده ، ولا اطمئنان ، وقوله « ان الملائم » وهم كبار القوم يدبرون الأمر ليقتلوك .

واستجاب موسى لنصيحة الرجل الأمين ، فخرج خائفاً يترقب « انظر الى

كلمة يترقب ، فهو ينظر يمينا وشمالا وأماما وخلفا يترقب من يأتيه من أمامه ، ومن يأتيه من ورائه ومن يأتيه من شماله ومن يمينه ، وكلمة يترقب تصور تلك الحال ، وتصور النفس المحترسة الآخذة تجدها في اطمئنان نفسى ، واحتراس من غير اضطراب ، فالترقب الخائف غير المضطرب الخائف . لأن الخائف المضطرب لا يحسن الترقب ولا الحذر ، فيصيبه الهلع فيخاف من غير مخوف ، ويقع بهلعه وفزعه ثيما يخشاه ، واغظ القرآن الكريم ينبىء عن هذه المعانى السبامية . وللکلمات صور لمعان حسية ومعنوية ، ظاهرة وباطنة ، والله سبحانه السميع العليم ، الذى أنزل كتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

## الكلمة مع أخوتها والعبارات مع رفيفاتها

٥٢ - قلنا ان للكلمة اشراقا خاصا ، فكل كلمة لها اشعاع فكرى ، ولكنها لا يبدو منها ذلك الاشعاع ، والبالغة البيانية لا تكون الا مع أخت لها تناسبها ، وتتلاقى فكريا معها ، فمثلا كلمة تنفّس التى ذكرناها فى قوله تعالى « والصبح اذا تنفّس » لا ينبعث منها ذلك الاشعاع الفكرى الا اذا كانت كلمة الصبح معها ، فلا بد لى يكون ذلك الاشعاع المعنوى معنى صحيحا واضحا مؤديا الى غايته من أنه يكون مقترنا بالصبح ، ومع أن الاشعاع منها وحدها ، الا أنه لا يضىء الا مع كلمة الصبح ، وكلمة الصبح لا تنفّرق عن كلمة النجر ، الا اذا كان يتبعه التنفّس ، والاسفار . فالصبح والتنفّس متلازمان ، وان كان كل منهما مؤديا معنى مستقلا ، والتلازم كان بالأ يتبين ذلك المعنى الاستقلالى الا بضم الأخرى الى الأولى .

وذلك ما أشرنا اليه فى ابتداء الكلام فى بلاغة الكلمة القرآنية ، وما ارتضاه الجرجانى الذى حمل عبء القول عن نذى بلاغة اللفظ المنفرد ، فقيد نفيه بأن يكون مستقلا منفردا ، فاذا انضم الى غيره بدت بلاغة الكلمة فى أنه يكون لها صورة بيانية ، وبانضمامها تكون لها صورة بيانية من الهيئة المجتمعة .

وقد راجعنا من بعد ذلك القاضى عبد الجبار (١) فى كتابه اعجاز القرآن ،

(١) هو القاضى أبو الحسن عبد الجبار توفى سنة ٤١٥ هـ .

نوجدناه يقرر فصاحة الكلمة منفردة ، ولكن لا تبدو بلاغة معانيها الا اذا تضامنت مع غيرها فهو يقول :

« اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وانما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة ابتداء ، وقد يجوز أن تكون هذه الصفة بالمواضع التي تتناول الضم ، وقد تكون بالاعراب الذي له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام رابع ، لأنه اما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات اذا انضم بعضها الى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية اعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه انما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ماعداها .

هذا كلام من ذلك الامام المعتزلى ، نهج فيه نهجا فلسفيا ، ولكنه يؤدي الى ما قصدنا الى بيانه ، ولعله يريد من المواضع الالغوى للكلمة ، ويشمل ذلك الأهل اللغوى ، والحقيقة العرفية ، والمجاز والاستعارة والتشبيه ، وغير ذلك ، ويريد من الموقع موقع الكلمة من أخواتها من غير تنافر بينهما ، بحيث تكون الكلمة لتف أختها ، متناسقة متناسبة ، ولعله يريد من موقع اختيار الكلمة في وضعها بأن تكون فاعلا أو مفعولا أو حالا ، أو فيها اختصاص ، اذ غير بالاشارة القريبة ، وهكذا ، فهو لم ينظر الى بنية الكلمة وحدها بل نظر الى موقعها من الاعراب .

وعلى ذلك نرى أن الكلمة البليغة تظهر بلاغتها مع أخواتها ، وأن الكلمة قد تكون بليغة في موضع ، ولا تكون بليغة في موضع آخر في كلام الناس ، أما القرآن فالكلمة تكون بليغة دائما ، لأن منزل القرآن وهو الله تعالى يضع الكلمات في مواضعها ، وفي الكلام الذي ينسب الى الناس قد تكون اللفظة في موضع بليغة ، وفي غيره غير ذلك . ولذلك يقول عبد الجبار في تفاوت كلام الناس « لا بد في الكلامين اللذين أحدهما يكون أفصح من الآخر أن يكون انما زاد وعليه بكل ذلك أو بعضه (أى بالأمر السابقة) ولا يمنع في اللفظة الواحدة أن تكون اذا استعملت في معنى تكون أفصح منها اذا استعملت في غيره » والله أعلم .

## ٢ - الأسلوب القرآني

٥٣ - قد تكلمنا في سابق قولنا في ألفاظ القرآن المفردة ، أن اللفظ المفرد له بلاغة خاصة في ضمن الأسلوب وأن كل كلمة في جملة من الكلام تدل بمفردها على معان تتساوق مع المعنى الجملي للكلام ، وأن كل كلمة تكون بمفردها صورة بيانية تكون جزءا من الصورة العامة للقول وقلنا ان ذلك ليس معناه أن الكلمة لو جردت من الكلام تعطى وحدها ذلك الاشراق ، ولكن ينبثق نورها بالتضام مع غيرها من غير أن يفنى ضوءها في ضوءه ، ولا تنمحي صورتها البيانية التي أشرفت بهذا التضام .

وقلنا ان ذلك لم ينكره أحد حتى الجرجاني (١) الذي تشدد في اعتبار الأسلوب وحده هو سر الاعجاز ، من غير التفات الى معاني المفردات .

وإذا أردنا أن نحزر القول الذي رآه الأكثرون ، وخائف فيه الجرجاني ومن اف لفه ، فناننا نقول ان كلمات القرآن لها في تناسق حروفها ، وتلاقي مخارجها اشراق بلاغي ، ولكن لا يكتشف ذلك الاشراق الا بالتضام ، أي أن الاشراق ذاتي ، وهو الأصل ، ولكن شرط ظهوره ، تضام الكلمة مع غيرها .

وفي هذا المقام نتكلم على الأسلوب والصور البيانية التي تتكون منه والتأخي بين ألفاظه في النغم وفي تناسق القول ، بحيث تكون كل كلمة في موضعها الذي وضعت لا تنفر من أختها ، ولا يمكن تغييرها وكأن الكلمات في الأسلوب نجوم السماء وأبراجها ، لا تزايل أماكنها ، ولا تخرج من مواطنها ، ويقول في ذلك القاضي عياض في الشفاء :

« الوجه الثاني من اعجازه صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه . ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه ، بل حارت فيه عقولهم ،

(١) هو عبد القاهر الجرجاني توفي سنة ٤٧١ هـ .



وتبدلت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا الى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر (١) .

وأن الأسلوب هو الصورة البيانية التي تظهر في معنى رائع ، وكلام مشرق ، يثير في النفس أخيلة الحقيقة يصورها ويبينها ، ويحس الإنسان فيها بأطراف المعاني ، كما يحس بأطراف الصورة على حسب ترتيب الصور ، وحسن الاختيار في ألوان الصورة ، فلأساليب ألوان تحسن ، وتنسق وتصريف في أوضاعها كما قال تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات لقوم يفقهون » (٢) .

ولقد قال في هذا المعنى الخطابي (٣) في رسالة اعجاز القرآن : « وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعضه ، فتقوم له صورة في النفس فينتكلم بها البيان » وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفناه ، فقد علم أنه ليس المراد بذب اللسان وظلامته كافيًا في هذا الشأن ، ولا كل من أوتى حظًا من بديهة حاضرة ، وعارضة كان ناهضًا بحمله ومضطلعًا بعبئه ما لم يجمع إليها سائر الشروط التي ذكرناها على الوجه الذي حددناه ، وأنى لهم ذلك ، ومن لهم به : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٤) .

وان الشروط التي ذكرها في آنف قوله هو اختيار الألفاظ من ناحية معانيها ، وقوة تماسكها بعضها ببعض وأشار الى أن الألفاظ قد تكون مترادفة في الظاهر ، ولكن عند التحقق في مرماها يكون الاختلاف ، وان كان المعنى الجملي واحدا .

وان الناظر الى أسلوب القرآن الكريم في الخطاب والبيان ، يجده مختلفًا ، فمثلًا أحيانًا يكون بالاستفهام ، والاستفهام أحيانًا للتوبيخ ، وأحيانًا للتقرير ، وأحيانًا يكون للتنبيه ، والكلام يكون باطناب لا حشو فيه قط ومعاذ الله أن يكون في كلامه تعالى ما يشبهه ، وفي الاطناب يكون تكرر القول ، وأحيانًا يكون الكلام

(٢) الأنعام : ٦٥ .

(١) الشفاء ج ١ ص ١٧٦ .

(٤) رسالة الخطابي ص ٣٧ - الإسراء : ٨٨ .

(٣) أديب لغوى محدث توفي سنة ٣٨٨ هـ .

إيجاز ليس فيه اخلال ، وأحيانا يحون حريم تهديدا تضرب له القلوب وتفرع ،  
 وأحيانا يكون توجيهها يدعو الى التأمل والفكر وأحيانا ببيان أحكام الحلال والحرام  
 وتوجيه أنظار المكلفين الى حكمها ، وكل ذلك في أسلوب متناسب مؤتلفه الفاظه ،  
 ومؤتلفه معانيه ، بحيث يتكون من الجميع صورة بيانية متناسقة في معانيها  
 مؤتلفه في ألفاظها لا ينبو واحد منها في لفظ أو معنى بل يتأخى الجميع •

### التألف في الألفاظ والمعاني :

٥٤ — التألف في الألفاظ ، بالألا تكون بينها نفرة في الخارج ، ولا نفرة في  
 الضمير ، بل يتلقى نغمها ، وتسهل مخرجها فلا تكون واحدة نابيه عن أختها ، بل  
 تتألف وتتأخى في نسق واحد ، بحيث لا تبدو واحدة ينطق غير مؤتلف مع نطق  
 تاليتها ، أو كما قال الجرجاني في دلائل الإعجاز ، كل كلمة لقف مع أختها ، ولو  
 حاولت أن تنزع كلمة لتضع مكانها أخرى في معناها ، ما أثتلف السياق ولا انسجم  
 الأسلوب ، ويقول في هذا الباقلاني في كتابه ( اعجاز القرآن ) :

« واعلم أن هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان قليل الطلاب ضعيف  
 الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل بيت ، عصمة تقطن لسا فيه ، وهو  
 أذق من السحر ، وأهول من البحر •• وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع  
 الصبح ، في موضع الفجر يحسن في كل كلام ، إلا أن يكون شعرا أو سجعا ،  
 وليس كذلك فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع ، وتزل عن مكان تزل فيه  
 اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضرب بجرانها ، ونراها في مظانها ، وتجدها في  
 غير منازعة في أوطانها ، وتجد الأخرى لو وضعت في موضعها لكانت في محل نفار ،  
 ومرهى شرار ، ونابيه عن استقرار (١) •

هذا ما ذكره الباقلاني في كتابه • وإذا أطرحنا ما فيه من سجع لم يجيء على  
 رسله ، واتجهنا الى ما يرمى اليه وجدناه سليما دقيقا ، وأنه لا ينطبق على كلام  
 كما ينطبق على القرآن ، ومقام القرآن الكريم فيه مقام الذروة والسنام •

وان التأليف ليس فقط في نسق الألفاظ ونغمها ، بل انه يشمل التآخي في المعاني كالتآخي في المباني ، فلا يكون معنى لفظ ناهرا من المعنى الذي يجاوره . ويألف من الألفاظ والمعاني وما توقعه من أخيلة ، وما تثيره من معاني متداعية يدعو بعضها بعضا . ويألف منها علم زاهر ، كثير خصب ، وقد عبر عن هذا المعنى الوليد بن المعيرة بقوله : « ان أعلاه لمثمر ، وأن أسفله لمغدق » .

ولنذكر لك شاهدا على ما نقول . هو قصة الأعرابي الذي سمع قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (١) » فأخطأ القارئ وقال غفور رحيم ، فقال الأعرابي ، انه يقطع الأيدي نكالا ، فلا ينتق القول ، فراجع القارئ نفسه وأدرك المعنى .

هـ - وان التآخي في المعاني والألفاظ ونسقتها ونغمها ومعانيها ، واضح في كل آيات القرآن ، لا في آية دون أخرى ولا في سورة دون سورة . فلا تجد في لفظ معنى يوجه الخاطر الى ناحية ، ويليه آخر يوجهه الى ناحية أخرى ، بل تجد انواعا متحدة اما بالتقابل واما بالتلاصق والمجاورة وفي ذاتها الحائين ، تجد معنى كل لفظ يمهد لمعنى الآخر فلا تتأخر في المعاني ، كما لا تتأخر في الألفاظ وهما في مجموعهما ينسابان في النفس غذاء رطيبا مريئا ، ونميرا عذبا سلسبيلا .

وقد ساق الباقلائي آيات ليست مختارة اختيارا ، لأن آيات القرآن كلها لا نظير لها ، فليس اختيار من ينتقى ، لأن كله خير وسنذكر آيات مما ذكر وأخرى لم يذكر كنا نفتح الكتاب ، فيبدو نوره فنقبس منه قبسة .

اقرأ قوله تعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا الى الله تصير الأمور » (٢) .

هذه الآيات الكريمة بعباراتها و اشاراتها البيانية ، وسياتها تدل على ابتداء

الرسالة المحمدية ، وانتهاء أمر الناس في الاخذ بها ، وعاقبة من اهتدى ومن ضل وعصى وغوى •

وإذا نظرت الآيات الكريمت مع ما سبقها ، وجدتها كلاما متآخيا ، يندمج بعضه في بعض في ائتلاف ، لا نفرة فيه ، فالآية قبلها تبين طرق كلام الله تعالى لخلقها ، لقد قال تعالى قبل هذه الآيات : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ، فيوحى باذنه ما يشاء ، انه على حكيم » (١) • ولنبتدىء بالاشارات البيانية التي وعدنا أن ننبه الى بعضها ، فليست لنا الطاقة الى ادراك كلها ، ولعل غيرنا يدرك بعضا آخر ، ولا أحسب أننا جميعا نصل الى كنه اشاراتها •

فهنا نجد كلمة كذلك تربط هذه الآيات بما فيها ، فهي تدل على المؤاخاة بينهما ، وهي تشير الى علو الله في المعنى الذي قرره « انه على حكيم » وتشير الى حكمة اختيار الطريقة في الرسالة المحمدية •

ولننظر في الألفاظ نجد التآلف بينها في النطق والنعيم ، أفلا نجد ائتلافا بين كلمة أوحينا ، وكلمة روحا ، وكلمة من أمرنا ، لا أنبه الى ما فيه من تآلف في النطق ، وتآخى في المخارج والنعيم فذلك بين لا يحتاج الى بيان ، وهو يتصل بالذوق والجرس في السمع ، فهو يدرك بالحس ، ولا ينبه اليه بالمعنى • ولكن نريد أن ننبه الى التآخى في المعنى لكل كلمة نسقيت ، وما تنتسح له كل واحدة من معان تتلاقى مع أخواتها ، وتتألف ، فتعطي صورة بيانية رائعة •

فكلمة أوحينا تدل على أن لخطاب الله تعالى لرسله لا يكون جهرا يعلمه كل واحد ، ويسمعه كل انسان ، فهو لخطاب لرسول ، والرسالة بمجرى الأمور تكون بين المرسل ، وبين من يرسله ، والتعبير بأوحينا أبطال لقول من يقولون أرنا الله جهرة ، أو قول من يقولون عن جهل بالله ورسالاته الذين يقولون « لولا أنزل عليه ملك » أى نراه ونحسه ، ولذا رد الله تعالى قولهم بقوله « وقالوا لولا أنزل عليه

مَلِكٌ ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ، ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ،  
وللبسنا عليهم ما يلبسون » (١) .

فكلمة أوحينا مع حلاوة لفظها فيها إشارة الى هذه المعاني وفي عمومها ، ولم  
يبين نوع الوحي ، اذ هو على ضروب مختلفة متعددة بالنسبة لخطاب الله تعالى  
لأنبيائه عامة وبالنسبة لمحمد خاتم النبيين خاصة . وذلك اما برسول يشاهد يرى  
ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبي ( يراها النبي عليه السلام وحده ) واما باللقاء  
في الروع كما قال عليه السلام : « ان روح القدس نفث في روعي » واما بمخاطبة  
الله تعالى وسماع كلامه سبحانه من غير حس ، كما كان في المعراج وفرض  
الصلوات .

وبكل تلك الأنواع والطرق كان وحى الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى  
عليه وسلم .

ونجد في اضافة الايحاء الى الله تعالى بيان عظمة الوحي ، وكون الايحاء الى  
النبي مخاطبا له جل جلاله ، اعلاء لشأنه وبذلك تتآخى في رفع شأن الرسالة والنبي  
صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى « روحا من أمرنا » والروح هنا قال أكثر المفسرين للقرآن  
جبريل ، ونرى أنها تشمل جبريل عليه السلام فقد سماه الله تعالى روح القدس ،  
ويكون معنى الايحاء الارسال ، ويشمل القرآن ، ويشمل الشريعة نفسها ، وتسميتها  
بالروح لما فيها من معنى البقاء والحياة الى يوم القيامة وازافتها الى من أمر الله  
تعالى لتشريفها وتشريف من جاءت اليه وبعث باسمها وهكذا نجد مع ائتلاف  
الألفاظ في النسق والنغم وجرس الكلام تآخيا في المعاني فانها كلها تدل على شرفها  
بعظم مصدرها وهو الله تعالى ، وكبر المعاني في ذاتها ، لكان لها شرف المعاني ، وكان  
لها شرف أنها من الله تعالى فأى كلام بليغ يصل الى كل هذا في التآلف بين المعاني  
و الألفاظ .

(١) الانعام : ٨ ، ٩ .

١٥ - والآية السامية تحتوى فى سياقها ، دليل الرسالة ، فيقول تعالى « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » وان هذا النص الكريم مع ايجازه يرمى الى ثلاث حقائق :

الأولى : أنه ما كان يعلم علم الكتابة فلم يكن قارئاً ، ولا كاتباً ، وعبر هنا عن العلم بالدراية ، لأن الدراية علم يأتى بالتعلم والممارسة ، فهو علم كسبى ، وأنه ما كان يعلم بالدراية ، ونفى الدراية فى الايمان ، لأنه لم يكن هناك من يلقنه علم الايمان الا أن يكون الهاما من الله ، تعاونه الفطرة المستقيمة ، وقد يقال أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان مؤمنا منذ بلغ التمييز وقبل ذلك ، فكيف كان لا يدري الايمان ، والجواب عن ذلك أنه كان موحداً ، ولكن بقية ما يقتضيه الايمان من صلوات وزكوات وتنظيم للمجتمع ، وطرق التعامل السليم ، ما كان يدريه ، وبهذا يفسر قوله تعالى « ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى (١) » .

الثانية : أن فى هذا الكلام السامى حجة على أن القرآن من عند الله تعالى ، وأن محمداً لم يأت به من عنده ، لأن ما كان يقرأ ولا يكتب ، وهذا كما قال الله تعالى فى سورة أخرى ، « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، اذا لارتاب المبطلون (٢) » .

الثالثة : أن قوله تعالى « ماكنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » الدراية داخلة على الاستفهام ، فنفى الدراية متجه الى الحقيقة أى أنه ماكان يدري حقيقة الكتاب ، ولا تفصيل الايمان ، وهذه تأكيدات لنفى العلم بالكتاب علم دراية ، ونفى العلم بتفاصيل الايمان علم دراية .

ولا شك أن كل كلمة من هذا النص وما سبقه تتناخى مع ما بعدها وما قبلها فى تقرير حقيقة ثابتة ، وهى أن القرآن روح من عند الله ، وكل روح فيها حياة ، وحياته فى الشريعة التى أنزلها ، والتوحيد الذى دعا اليه ، والحق الذى أثبتته ، والصلاح الذى بنه ، ودفع الفساد فى الأرض ، ولكن القرآن نور هذا الوجود ،

« ولكن جعلناه نورا يهدى به من نشاء من عبادنا » •

٥٧ - وننظر في النص ، وانسجام ألفاظه ، وتلاقى معانيه ، وانك تجد

للاستدراك هنا موعضا لطيبا ، اذ أن النص الكريم السابق كان فيه نفى الدراية عن حقيقة الكتاب وعن حقيقة الايمان والاستدراك هنا لا يفيد أن نفى الدراية دائم ، بل انه ينتهي يعلم الكتاب الذي هو النور الذي يهدى به الله تعالى •

ولنترك الكلمة للباقلانى فى الإعجاز فهو يقول :

« جعله سبحانه وتعالى روحا لأنه يحيى الخلق ، غله فضل الأرواح فى

الأحياء ، وجعله نورا ، لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق ، ثم أضاف وقوع الهداية الى مشيئته ، ووقف وقوع الاسترشاد به عن ارادته • وبين أنه لم يكن ليهدى اليه • لولا نونيقه ، ولم يكن ليعلم ما فى الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه ، وأنه لم يكن ليهدى لولا هداة فقد صار يهدى ، ولم يكن من قبل ذلك ليهدى أى أن القرآن الكريم قبل نزوله ما كان النبى يدرى ما فى الكتاب ولا الايمان وبعد نزوله اهتدى ، وعلم ، وبلغ مرتبة أن يحمل الهداية والارشاد للناس بعد أن كان لا يدرى الكتاب ولا تفصيل الايمان وهذا يفيد أن القرآن تعليم الله للنبى ، وللناس من بعده » •

وأن الكلام السامى « ولكن جعلناه نورا » فى هذا استعارة تمثيلية أى أنه

هو كالنور المضىء الذى لا يضل فيه السارى ، ولا يخفى على من يبصر بسببه شىء بل ان فيه تأكيد التشبيه يجعله هو النور ، وأن الذين لا يبصرون حقائقه ، وما فيه من علم ، العيب فيهم ، وليس فيه ، والنقص منهم ، وليس منه ، واطافة جعله نورا الى الله تعالى تشرىف له فوق تشرىف ، وهو يتفق مع النسق الذى ابتدأ به النص الكريم ، ولكن مع أنه النور الذى يهدى - لا يهدى به الناس من غير أن يكون ذلك بمشيئة الله تعالى ، فقال سبحانه « من نشاء من عبادنا » ، فبين سبحانه سلطانه على القلوب ، وخص بالهداية من شرفه بأنه من عباده تعالى سلطانه ، وقام عدله ، وفى هذا اشارة بيانية الى أن الذى شاء الله تعالى هدايته هو من خلص

نفسه ، وجعلها لله وحده ، وشرف بأنه من عباد الله لا من أخوان الشياطين •  
ولقد شرف الله تعالى نبيه بأن نسب إليه هداية الارشاد ، وبيان السبيل  
فهو نور معه نور الكتاب ، ولذا قال تعالى :

« وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، أكد الله تعالى عمل النبي صلى الله تعالى  
عليه وسلم ببيان سبيل الحق ، والدعوة اليه ، وأنه المستقيم الذي لا عوج فيه ،  
ولا اضطراب •

فهنا هدايتان أولاهما هداية التوجيه والارشاد وبيان الحق ، ودعوته وهي  
للرسل ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فمن علم واستنار واهتدى  
فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما الله بظلام للعبيد والهداية الثانية العليا •  
وهي امتلاء القلب بالايمان بعد أن سار في طريقه وأرشد اليه ، وهذا لمن يشاء الله  
هدايته من عباده المؤمنين •

وقد ذكر الله تعالى من بعد ذلك الحكم العدل باعطاء الطائع جزاءه من  
ثواب ، وما يستحقه العاصي من عقاب ، فقال تعالى : «ألا الى الله تصير الأمور» أي  
واليه وحده مآل الأعمال كلها ، وكل امرئ بما كسب رهين ، فمن عمل صالحا فله  
جزاؤه ومن عصى وبغى نال عاقبة ما عمل •

ونرى من هذا تأخى المعانى فى الآيات • وتسلسل ما ترمى اليه ، فبين أولا  
بعث النبي عليه السلام ، واعطاءه الدليل بمعجزة القرآن الذى لا يأتيه الباطل  
من بين يديه ولا من خلفه ، وذكر ثانيا الحجة على صدق القرآن ، ثم أشار  
الى أنه نور ، وذكر أن النبي عليه السلام عمله الارشاد وبيان الحق والطريق اليه ،  
وأن الهداية من بعد ذلك •

هذا تأخى المعانى ، وكون كل معنى مقدم لذى يليه ، وبالتالي مبنى عليه  
ودعامة لما بعده ، أما تألف الألفاظ فى النعم ، والحروف ، فأمر فوق طاقة البشر •  
وانه ليتألف من هذا الكلام صور بيانية للوحى ، والقرآن ونوره وهداية  
الأنبياء وموضعها ، وهداية الله تعالى ، وثمرتها فى القلوب وكونه لعباد الله  
المخلصين ، لا لعبدة أهوائهم وشهواتهم •



## صورة بيانية للطمع والشح ثم الندم

٥٨ — تلك صورة لمن سيطر عليهم الشح فذاقوا عاقبته ، ثم تنادوا بالتوبة والتلاوة . قال تعالى :

« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا ، وهم يتخافتون ألا يدخنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا انا لضالون ، بل نحن محرومون . قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلومون قالوا ياويلنا انا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (١) » ♦

سبحان الله تعالت كلماته ، وعز قرآنه ، وعلا بيانه ، ولعل من فضول القول أن أقول ان الآيات تصوير رائع لنفس الشحيح وحرصه ، وندمه ان ذلك من فضول القول : لأن القرآن كله رائع لا يصل الى روعته كلام مطلقا ، ولا يستطيعه قائل ♦

ان الآيات الكريمة فيها (١) صورة بيانية لنفس الحريص الغافل عن سلطان الله تعالى (٢) وصورة بيانية لغفلة الحريص عن قضاء الله تعالى ، وأن كل شيء عنده بحساب (٣) وفيها بيان الحال المناعين للخير . وما يدور في نفوسهم (٤) وصورة بيانية للندم كيف يدخل النفوس بعد التنبه . (٥) ثم حال الندم وما يليه من توبة نصوح . (٦) ثم بيان حال الرجاء في رضا الله تعالى ♦

وقبل أن نتكلم في تلك الصور البيانية نقول ان الألفاظ ليس فيها نبوة تبدو ، ولو بترجيح النظر كرات ، والتناسق فيها متوافق النعم تفيد برنينها ، وتصل الى القلوب في عميقها ، والمعاني متأخية تتجه كلها الى تصوير الطامعين أمل الشح،

وكيفَ يبتدىء بالحرص العنيفَ ، المغالى فيه ، وتغليب الطمع في كلِّ شيء ، والاستيثاق من تحقق ما يطمع فيه ، كما يصور له الطمع ، ثم يشتد المنع حتى يكون لكل خير ، ثم تكون المفاجأة •

هذا وان مجال التصوير يظهر في أن الموضوع كله ذكر لمثلا لكل مناع للخير ، لأنه ذو مال وبنين ، ودفعه غروره ، بما آتاه الله من مال ، ثم كفر به واعتدى ، وكانت عاقبته أنه حرم مما طعى به وصار يوم القيامة أمام الجزاء الأليم بيد أن أولئك أصحاب الجنة وهى الحديقة المثمرة ، كانت لديهم فرصة الرجاء بعد الندم ، أما هؤلاء فقد فاتت فرصة الرجاء ولات حين مناص ، ولنذكر بعد ذلك ما نستطيع الإشارة إليه من النواحي البيانية •

٥٩ - الصورة الأولى صورة الطمع المتغلغل في النفس الذى ينسيها كل شيء ما عدا ما تطمع به النفس ، فقد قال تعالى انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون •

اختبرهم الله تعالى بالطمع كما اختبر أصحاب البستان المثمر ، ونرى التشبيه هو ما يسمى بالتشبيه التمثيلى ، وهو تشبيه حال الطاغين المعتدين أن رأوهم استغنوا لأنهم ذوو مال وبنين ، فغلبهم الطمع ، حتى أوبأهم في أسوأ الأحوال ، والعناد مع الله تعالى ، يحال أهل الحديقة اذ غرهم الغرور فظنوا أنهم واصلون الى ما يبتغون ، وأقسموا على ذلك غير مقدرين عاقبة ، ولا حسابا لما يأتى به الله تعالى • والتشبيه بلا ريب للتقريب ، لا للمساواة ، لأن حال الكفار أشد عتوا وأبلغ غرورا ، وهكذا كل تشبيهات حال القيامة وما وراءها بحال ما يقع ليس للتساوى أو لأن المشبه به أبلغ في وجه الشبه ، ولكن لتقريب الغائب بتصويره بالحاضر ، ومثل ذلك تصوير المعنويات بالمحسوسات ، وما يكون من جزاء وعقاب هو من المحسوسات ، ولكنه غائب •

وهنا في النص نجد تصوير النفس الطامعة ، اذ أنها لشدة رغبتها تتصور محل الطمع واقعا لا محالة ، ولذلك أقسموا جاهدين في قسمهم ليصرمنها ، أي ليقطعنها

قطعا يستأصلونها من أديانها ، وهذا اللفظ في هذا المقام أبلغ من القطع ، لأن الصرم قطع من الجذور ، أى هو قريب من القلم ، ولتصورهم استجابة لطمعهم أنهم واصلون أكدوا الصرم باللام ونون التوكيد الثقيلة ، ولشدة الطمع لم يتوقعوا تخلفا قط ، ولذلك لم يستثنوا ، فلم يقولوا ان شاء الله ، أولا ، لأن حرصهم ورغبتهم الجامحة أنستهم الله تعالى • ولأن تطلعهم الى ما تهوى أنفسهم لم تجعل لاحتمال التخلف موضعا في عقولهم ، وكانت اللفتة والحرص على التنفيذ قد جعلاهم معجلين التنفيذ ، فهم يبكرون به مصبحين غير متلبئين ولا متأخرين لأن القطع أمر محبوب ، لا يرون معه ابطاء ، ولا تريثا ، بل يستعجلون ما يريدون بل ما يهونون • وقد صور الله سبحانه وتعالى غفلتهم عما يقدره الله تعالى ، مع أنه متحقق ، فهم يقدرون ويرغبون ، ويستعجلون ، والله من ورائهم محيط ، وقد صورت الآية الكريمة قدر الله تعالى بقوله تعالت كلماته : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » الطائف العارض الذي يعرض ليلا من ريح صرصر عاتية أو عواصف تقتلع الأشجار ، وتلقى بالثمار ، وهذا الطائف بأمر الله تعالى ، فكل شيء في الوجود بارادة الله تعالى القدير ، والصريم الأخشاب المتراكمة ، أو الأشجار القائمة المصروم ثمرها المقطوع منها ما أينعث ، وهذا بلا شك تصور بين ، لما يجريه الله تعالى في الأزراق ، ومهما يقدر الانسان في كسب الرزق ويحاول التحكم فيه ، فان الله تعالى فوق ما يقدر •

ونرى من هذا تصوير ما في نفوسهم ، وبيان ما يحيط بهم في بيان متماسك في ألفاظه ، متأخ في معانيه •

٦٠ - ولقد صور سبحانه وتعالى صورة الحرص ، ومنع الخير في أعنف صوره النفسية ، فقال تعالت كلماته « فتنادوا مصبحين ، أن اعدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » • أنزل الله بالحقيقة ما أنزل وهم لا يعلمون ، فكان حرصهم على ما هو عليه ، وتعجلهم لجنى الثمار ، كما هو ، وقد صور الله تعالى ذلك يذكر حالهم أنهم تنادوا ،

أى نادى بعضهم بعضا مجمعين على ما أرادوا ، أن أصبحوا في الغد مبكرين على زرعكم وثماركم الذى حرثتم أرضه ، وأصلحتم ثمره ، ان كنتم تزيدون قطعه ، وقطف ينعه ، ويلاحظ أن التعبير بصارمين ، فيه معنى الإرادة الصارمة للقطع الذى لا ريب فيه .

وان معنى التعجل والحرص قد أكد بقوله تعالى حكاية عنهم « فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » هذه النصوص تصور اجتماعا وافتراقا ، فقد اجتمعوا على نية القطع ، واجتمعوا على المسارعة فيه ، واجتمعوا على أمر خبيث لم يعلنوه ، ولكن انتفقوا عليه في تخافت واسرار ، واجتماع على تلك النية الخبيثة ، وان كلمة يتخافتون تصوير لحالهم الحسى ولأمرهم النفسى ، ولمعنى المنع ، فان الامتناع عن الخير لا يكون الا باصرار النفوس ، والتفاهم في سر ، ولا يكون في جهر ، فتخافتوا على ألا يعطوا مسكينا ، وعبر عن المنع عن اعطاء المسكين بمنعه من الدخول ، فهم لا يمنعون العطاء فقط ، بل يمنعون من الدخول بنهى مؤكد ، وباصرار على المنع ، ولو بالدفع أو القهر . فضلا عن الطرد والنهر ، واغلاق الأبواب واقامة الحراس المانعين ، وأكدوا تنفيذ فكرتهم بما حكى الله عنهم من تأكيد المنع بالنون الثقيلة . هذه أحوال اجتماعهم ، أما افتراقهم فهو دخولهم على الحديقة ، متفرقين كل في جانب منها ، ودل على ذلك قوله « فانطلقوا » فهم ذهبوا ليقطعوا ، ويجمعوا كل في جانب تجمعهم فكرة التعجل ، والتصميم ، والالخاف في منع المساكين ، وقال تعالى في تصوير تعجلهم مع سيطرة فكرة المنع عليهم « وغدوا على حرد قادرين » فغدوا معناها أقدموا في باكورة الغداة . والحرد معناه المنع والتشدد فيه ، والمعنى أنهم أصبحوا قاصدين القطع ، ومعتزمين المنع من حق الفقير بل منع دخوله ، وموضع قادرين هنا هو وصفهم بالقوة على العمل والتنفيذ والمنع بكل وسائل .

هذا تصوير لا تعرف اللغات تصورا للحرص والتعجل ، والاستيثاق بالايامن وعدم التردد فيما يعملون ، ونية السوء ، والتخافت فيها - مثله - « ولو اجتمعتم

الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » •  
٦١ - ولكن الآيات الكريّمات بعد تصوير حالهم هذه في التعجل والحرص ،  
لتصوير المفاجأة ، وتنبيه المفاجأة للغافل وإيقاظها للضمير النائم ، واثارتها  
للووجدان الساهى ، فيقول سبحانه في رؤيتهم لتهدم ما بنوا عليه اشباع طمعهم ،  
وما حملهم على نية الشر ، فقال تعالت كلماته ! •

« فلما رأوها قالوا انا لضالون ، بل نحن محرومون » •

كانت المفاجأة بمقدار حرص والطمع • واسترسالهم في المطامع المادية حتى  
استأثروا بها ، ولم يعطوا حق الفقير المسكين والسائل والمحروم ، واذا كان  
حرصهم يبلغ أقصاه ، فالمفاجأة بالحرمان كانت أشد وتعا ، أصابتهم بالحيرة  
الشديدة ، والضلال البعيد ، وأول الضلال أنهم توهموها غير أرضهم ، فلما  
استيقنوا أحسوا بضلال آخر معنوى أشد فنكا في النفوس وتأثيرا في القلوب وهو  
احساسهم بالضلال المعنوى اذ قدروا ، ولم يدركوا تقدير الله ، وحسبوا أن الأمر  
اليهم وحدهم ، والله فوقهم ، فلما أدركوا ضلال تفكيرهم قرروا الحقيقة الثانية ،  
وهي أن الله تعالى قدر حرمانهم ، وما قدره نافذ لا محالة ولذا قالوا كما حكى الله  
عنهم مؤكدين « بل نحن محرومون » فالأضراب معناه هنا أنهم ترقوا من حال  
الضلال المؤكد الى حال الايمان بالحرمان المؤكد •

وان قوله تعالى عنهم « بل نحن محرومون » وبعد « انا لضالون » فيه  
اشارة واضحة الى الأسف والألم المرير ، ألم الضال ، والحرمان من الهداية ، ثم  
الحرمان المطلق من الثمرات التي طعموها فيها ، وتخافتوا على ألا يعطوا الفقير ،  
واذا كان قد اجتمعوا على ما كان منهم أولا ، فقد اجتمعوا على المفاجأة  
والحرمان ثانيا ، ولكن يظهر أن الشر لا يمكن الاجماع عليه دائما ، بل لا بد من  
قائم لله تعالى بحجة ، واذا لم يستمع له قول ابتداء فان قوله سيكون له صدى في  
النتيجة بعد أن تتبدى الأمور وتتجلى •

وكذلك كانت حال أصحاب الجنة ، فقد كان فيهم رشيد ينبههم الى خطأ

ما أزمعوا أن يفعلوه ، وقد حكاه الله سبحانه وتعالى بقوله • « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » •

الأوسط هو الأمثل ، والوسط في أوصاف الخير هو الأمثل دائما ، ومن ذلك قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا (١) وهذا الأمثل عندما رأى حالهم وتدبيرهم وطمعهم ، وما يسرون به وما يجهرون ، وما يتخافتون وما يعلنون لاحظ أنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكان لا بد لكي يدركوا صالح أمورهم أن يؤمنوا بالله وأن يذكروه في أعمالهم ظاهرة وباطنة ، فهم لا ينقصهم الجد في العمل ، ولكن ينقصهم الايمان ، فقال لهم « لولا تسبحون » أى هل تسبحون وتنزهون الله تعالى ، وتقدسونه ، وتعلمون أنه القاهر فوق كل شيء ، وأنه العليم الحكيم ، وهنا كان فيما حكاه الله تعالى بالتعبير « ألم أقل لكم لولا تسبحون » الاستفهام الداخلى على النفى فى معنى الاثبات ، لأن نفى النفى اثبات ، وهو يدل على التوبيخ ، وتذكيرهم بأنهم لم يفعلوا ما فعلوا فاقدين للمنبه المرشد ، فقد أرشدهم الى الطريقة المثلى والمنهاج الأسلم ، وهو الايمان بالله تعالى وتقديسه وتزبيحه ، والاحساس بأنه الغالب على كل شيء القاهر فوق عباده •

٦٢ - ان المفاجأة مع التذكير ، ووجود الضمير والنفس اللوامة من شأنها أن تحيى موات القلوب ، وخصوصا أنه وجد من بينهم من ربط بين الحرمان الذى فوجئوا به والضلال الذى كان من نسيان ربهم ، وحرصهم وطمعهم ، وتفاهمهم على حرمان الضعيف مما أخرج الله تعالى من الأرض كان ذلك كله بسبيل الهداية التى تجىء ، ومن القارة التى تفرع الحس والنفس فتنبهوا فعملوا ما ينقصهم ، وأنهم لهجوا فى الدنيا ، ولم يذكروا الله تعالى خالق السموات ، فقالوا فيما حكى الله تعالى عنهم « قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين » •

بعد أن تنبهوا من غفلتهم ، واستأنسوا بالحق من تذكير أمثلهم طريقة استجابت نفوسهم لداعيه ، وعلّموا أمرين : علّموا أنهم كانوا غافلين عن ربهم ، وعلّموا أنهم ظلّموا أنفسهم وظلموا الناس فيما تخافتوا به ، قالوا فى اعلان

ايمانهم بالله ، « سبحان ربنا » تقدس ونزّه ونسلم أمورنا ، لربنا الذى خلقنا وربانا وهو الحى القيوم القائم على كل شىء . فرجعوا بذلك الى الله تعالى خالق كل شىء ، ولكن لا يكون الرجوع كاملا ، الا اذا تابوا توبة نصوحا ، وأحسنوا التوبة ، وأول طريق للتوبة الاقرار بالذنب اقرار من يحس بذل المعصية ، وذل الذنب قربه كما يقول ابن عطاء الله السكندرى « ان معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا » ولهذا الاحساس بالذنب ، قالوا مؤكدين القول « انا كنا ظالمين » لقد ظلموا أنفسهم بطمعهم وحرصهم ، ونسيان ربهم وظلموا الناس بمنع الفقراء من حقهم ، وأن الاحساس بأثم المعصية من شأنه أن يجعل كل واحد يلقى تبعه التقصير أو التنبه على غيرهم ، فهم كانوا مجتمعين على طمعهم وحرصهم وتعجلهم ، ولكنهم بعد أن أحسوا بجرمهم أخذ كل واحد يتبرأ من أنه الذى ابتدأ بالدعوة بالمعصية ، وأن الآخر هو الذى دعا فأجاب ، ولذا قال الله تعالى حكاية عنهم بعد أن دخل الايمان قلوبهم وأشربوا حبه « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » كل واحد منهم يلقى على الآخر لوما ، لا كل اللوم ، فانهم جميعا ملومون لأنهم جميعا نوا وهموا أن ينفذوا ما نوا ، والتلاوم هنا ليس هو الاختلاف الذمى ، ولكنه هو الاحساس الكريم ، اذ أنهم أحسوا بأن عبء المعصية كاملا ينوء بكل واحد منهم ، فيريد أن يلقى جزاء منه على صاحب له وان اتفاهم لا يجرى من غير داع منهم ، فاذا كان أوسطهم دعاهم الى الخير ، ولم يستجيبوا ، فقد وجد منهم من دعا الى الشر واستجابوا له ، وكان شرهم متعدد الأطراف ، فكان من كل منهم من دعا الى ناحية دون الأخرى ، وهنا نجد أن التعبير بالتلاوم لا يدل على الفرقة والانقسام ، بل انه فى هذا لا ينافى الائتنام .

وانهم ينتهون من هذا التلاوم الذى ابتدأ بالأثم من عبء المعصية ينتهون بعد التلاوم لفرط احساسهم بالندم الى أن يقولوا « قالوا ياويلنا انا كنا طاغين » كان الاقرار بالذنب فى هذه المرة أقوى من الاقرار أولا ، لأنهم أحسوا بالهلاك الشديد ينزل بهم ، قالوا منادين الويل : « ياويلنا » أى أيها الويل النازل باستحقاق أقبل فان ذلك وقتك ونحن موضعه ولا نترائل عنه ولا نخرج ، وعللوا الويل الذى

يستحقونه بأنهم كانوا طاعين « والطغيان دائما يؤدي الى الظلم ، فاذا كانوا في الآيه السابقة قد اعترفوا بالظلم ففي هذا النص السامى اعترفوا بسببه ، وهو الطغيان ، والطغيان يجعل صاحبه يحسب أن قدرته ليس فوقها قدرة ، والاحساس بالطغيان يبتدىء من وقت أن يحس الشخص بأنه استغنى عن معونة غيره ، كما قال الله تعالى : « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى (١) » وقد ظنوا أنهم لا يحتاجون الى معونة أحد ، وأن الله لا يمنعهم خيرا أوتوه ، وأن الأرض أرضهم والعمل عملهم ، والكسب كسبهم وحسبوا أن الثمرات آتية لا محالة •

بعد ذلك اتجهوا خاضعين الى ربهم معتقدين أن الخير بيده ، وأن لا سلطان الا سلطانه فاتجهوا بالرجاء بعد أن رأوا المنع جهارا نهارا وقالوا راجين « عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، انا الى ربنا راغبون » هنا كان التفويض كاملا ، وان ذلك النص الكريم يفيد في تفويضهم ثلاثة أمور في أجمل تعبير من الله تعالى عن ضمائرهم الخائفة ، بعد أن خلعوا رداء الطغيان •

أولها - الرجاء ، والرجاء يتضمن معنى التفويض من ناحية أنهم لا يرجون الا من الله ، ومن ناحية أن كل ما يكون من الله تعالى - خير ، فاذا كان نزل بهم ما يكرهون ، فعسى أن يكون الخير في هذا الحرمان ، كما قال تعالى « شعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (٢) » ومن الخير أن هذبت نفوسهم ، واذا كان حالهم من قبل بحال طغيان وغرور ، فعسى أن يعطيهم الله تعالى بديلا لما منعوه ، ويكون مع الاطمئنان •

ثانيها - الاتجاه الى الله تعالى مالك أمورهم ، ومربيهم ، والكالء لهم والهامى ، والشعور بالمساواة مع المساكين في ربوبية الله الخالق لكل شيء •

ثالثها - قولهم : « انا الى ربنا راغبون » ولا أحسب أنه يمكن أن نضع كلمة مكان راغبون ، مع الى ، وتجد في هذا التعبير اشارات بيانية رائعة « أولاها في تكرار كلمة ربنا للشعور بنعمه سبحانه الظاهرة والباطنة ، والثانية في تقديم الجار



والمجرور على خبر ان ، فان ذلك التمديد للفصر ، وهو يفيد أنهم لا يرغبون في مال ولا نسب ، ولا يحسبون شيئاً يمكن أن يكون بغير ارادة ربنا ، اذ كانوا قد حسبوا أنهم بجهودهم يصلون ويمنعون الماعون ، ويقسمون ألا يدخلنها مسكين ، ولكنهم الآن لا ينجحون الا الى الله تعالى العلى القدير ، والتعبير براغبون يفيد أنهم يسرون في طريق الله تعالى وحده برغبة ومحبة ، فهم يطلبون طريق الله تعالى لا خوفاً من عقابه ، ولا رجاء لثوابه فقط ، ولكن محبة لذاته العلية ، فانتقلوا من دركة العصيان الى مرتبة المحبة وطلب الرضوان .

٦٣ — ونرى في هذه الآيات الكريمة المصورة لتلك القصة التي نستعمل على العبرة الواضحة فيها تتلاقى المعانى وكل معنى ردف لما سبقه ، ومقدم لما يليه في تأخ بين جزئياته ، وتعانق مع كلياته ، كل جزء من الكلام يوعز لما يليه ، وفيها الألفاظ مؤتلفة في نغم يهز النفس وتكاف بين الألفاظ مفردة ، وجملا ، وفيها تصوير للنفس الانسانية كيف يدخل اليها الطمع ، ومع الطمع الشح ، واذا سكن الشح قلبا دخل منه الظلم وهضم الحقوق ، وانه لكي ينجو المؤمن من أن يكون ظالما عليه أن يراقب مداخل الشح الى نفسه ، فان سد طرقها اليها ، فقد فاز ، وكان عادلا ، كما قال تعالى في سورة أخرى: «ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون» (١) . فان وراء الشح الهلاك ، ووراء السماح الفوز .

وان الآيات تصور لنا حال من يغتر ، ومن يطغيه الاستغناء ، ومن يحرم نعمة الاعتماد على الله تعالى والتقويض اليه ، ثم حاله عندما يفاجأ ، فيجد قدر الله تعالى أمامه يرد عليه طغيانه ، ثم تصور النفس التائبة ، وذلك كلام العزيز الحميد .

### النفس الفرعونية

٦٤ — واذا كانت هذه الآيات تلونها تصور النفس التي تطغى أن رأتها استغنت ، وحسبت أنه لا قدر فوق ما تقدر ، وكيف تفاجأ بقدر الله فنتتبه ، فقد صور الله تعالى في كتابه العظيم ، النفس التي تطغى ، فنتعطرس فنتحكم في

الرقاب ، وتفرق بين العباد ، فهذه ياخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ولا مكان لتوبتها ، اذ تقابجا ، لانه لا يكفر ذنوب العباد الا ردها ، ولا سبيل لرد ما فعلوه .  
 ثم كان فسادهم ، وتضييعهم الناس ، ولذلك يؤخذون بذنوبهم • وانرا قوله تعالى :  
 « ان فرعون علا في الارض ، وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، بذبح  
 أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، انه كان من الفسدين ، ونريد أن نمن على الذين  
 استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (١) » •

ولا شك أن نسج الآيات متماسك ، بخيوط دقيقة غير قابلة لأن تنقطع وهي واضحة في تصوير الحاكم الفاسد كيف يعلو في الارض ، وكيف يتحكم ، وقد قال في صيغة العبارة الباقلاني بالنسبة للآية الأولى :

« هذه تشتمل على ست كلمات ، سناؤها وضيائها على ما ترى ، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، وروبقها على ما تعين ، وفصاحتها على ما تعرف •

وهي تشتمل على جملة وتفصيل ، وجامعة وتفسير ، ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان ، وسبى النساء واذا تحكّم في هذين الأمرين ، فما ظنك بما دونهما ، لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم ، والقلوب لا تنقر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد ، وكفت في التنظيم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره •

ثم ذكر وعده بالتخليص بقوله ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » وهذا من التأليف بين المؤتلف ، والجمع بين المستأنس (٢) •

هذا ما ذكره الباقلاني من ناحية التآخي في الألفاظ والالتحام في نسجها ، وأنتك لتجد ذلك التآخي في سوق العلو الذي تعالى به وهو في الأرض ، فقال تعالى  
 « علا في الأرض » ، فهو علو من في الأرض ولاصق بها فليس يعلو الى السماء ، ولكنه مستمر في الأرض ، فهو استعلاء • وليس بعلو ، والاستعلاء طلب للعلو ،

(٢) اعجاز القرآن ص ٢١٥ •

(١) القصص : ٤ ، ٥ •

أو الاحساس به ، وليس قائما على أى اعتبار ، فكان ذلك التقابل فى اللفظ من حيث الانسجام ، ومن حيث المعنى فيه دليلا على أنه استنكار وليس علوا فى ذاته •

ولكن كيف يستقيم له هذا العلو ، وهو لاصق فى الأرض متنقل فيها ، انما هو العلو فى الكبر ، وحمل الناس على الاقرار أو السكوت ، أو ظهور الرضا وما هم براضين ، لأن أساس الرضا التخير ولا اختيار ، فان لم يكن فلا رضا •

وانتقل من ذلك النص المصور للاستعلاء الكاذب الظالم الى ماسلكه لحمل الناس على السكوت عنه ، أو الخضوع له كارهين وأن مردت نفوسهم على الخضوع حتى صاروا كالمطاعين ، وذلة الاحساس بالتحكم قارة فى نفوسهم حتى أخضعتها ، فجعلتها خائفة • وأظهرتها راضية ، ولا رضا عندها لأنه لا اختيار لها فيما تختاره .

ذكر سبحانه ما سلكه فرعون كما يسلكه أى طاغية من طواغيت هذه الدنيا الذين يظهرون فى كل زمن ، وفى أرض كأرض مصر ، وناس كناسها ، كما أشار الى أنه عمل على تفريق جمعهم ، وتشتيت أفكارهم ، وصاروا متفرقين فى ذات نفوسهم ولا تجمعهم جامعة حق ، ولا ثورة على ظلم ، بل كان يقول لهم فى استنكار « أنا ربكم الأعلى » ، ويقول فى استنكار « ما علمت لكم من اله غيرى » (١) •

وقد قال تعالى فيما سلكه « وجعل أهلها شيعة » وهنا نجد كلمات ثلاثا ، كل واحدة منها تنبئ عن قصد الفرقة والانقسام بعد الوحدة والائتلاف ، فكلمة جعل هى بمعنى صير • وهى تدل على أنهم كانوا متحدين فى المشاعر والاحاسيس متفقين فى المنازع ، والمطامح والآمال فجعلهم متفرقين منتشرين فى غير اجتماع ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، والكلمة الثانية أهلها فهم كانوا قبيلها أهلا - أى أنهم كانوا مجتمعين غير منقسمين ، فلكى يعلو عليهم أجمعين فرق جمعهم وتشتت شملهم ، فكيف يعلو انسان مهما يكن طاغوته ومهما تكن قسوته وغلظته وحيلته على قوم متحدين مجتمعين ، ولكنه يخذل بينهم ، ثم يملك عليهم •

والكلمة الثالثة كلمة شيعة ، فان الشيعاء يتضمن معنى الانتشار ، وأن يقوى

جزء على الآخر يحسب كل جزء منهم أنه أقوى من الآخر ، وأنه لا تربطه به رابطة ، ولا يجمعهم به قومية أو رجم ، أو تشابك المصالح ، ودفع المضار ، فإذا كانوا كذلك استعلى واستكبر ، ولا يجد من يرده عن غيه ، ويقمعه في شره ، فيكون الهلاك ، وتقطع الأسباب •

وان النتيجة التي تكون أثرا لذلك ، أن يجعل من طائفة منهم بطانة له ، وجندا يستنصر بهم ويتخذهم أسواطا يضرب بها غيرهم ، ويتحكم في جمعهم ، ولذلك قال تعالى في ذكر هذه النتيجة الحتمية التي تتبع التفرق تبعية المسيب لسببه ، والنتيجة للمقدمة : « يستضعف طائفة منهم » أي يصور طائفة منهم ضعفاء ، أو يطلب ضعف طائفة منهم ، ويتبعه ، وهنا إشارة بيانية رائعة لا تكون الا في القرآن الكريم ، وهذه الاشارة هو أنه ذكر الطائفة المستضعفة ، ولم يذكر الطائفة التي جعل فيها قوته يضرب بها رقاب الناس ، والسبب في أنه تعالى لم يذكرها موصوفة بالقوة ، لأنها وان لبست لبوس القوة ليست في حقيقة أمرها قوية في شيء ، لأنها ليس لها اختيار فيما اختارت ، ولأنها لا تملك من أمرها شيئا بل مسخرة لطفواه ، مرادة له ، وليست بمريدة فيما تفعل ، والقوى هو الذي يفعل ما يريد هو ، لا ما يريده غيره ، ويعمل ليرضى شهوة نفسه لا ما يرضى غيره وليس هو من تكون ارادته فانية في ارادة غيره قد لبس جلد النمر ، وما هو اهابه ، واذا كانت الطائفة المستضعفة ايداؤها بدنى مادي • فهؤلاء الذين ظهروا بمظهر القوة ايداؤهم معنوى ، وهو فناء انسانيتهم وارانتهم وتفكيرهم ، وكل مكونات الانسان الكامل ، فهم ضعفاء ، وان ظهروا كأنهم الأقوياء ، فجنود السلطان العاشم لا يعتبرون الأقوياء ، لأنهم أداة طائفة ، وامعات طامعة •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ذكر الضعفاء تمهيدا لبيان مظاهر الطغيان الذي يفعله الملوك مع من يتحكمون فيهم بحكم الهون والفساد ، لا بحكم المصلحة والرشاد ، وأنهم يرتكبون أقصى ما تتصوره العقول من تذبيح وتقتيل ، ولذا قال تعالى « يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم » وان ذلك شأن الطغيان دائما ، يقتل نخوة الأمة بقتل شبابها ، أو زجهم في غيابات السجون من غير أمد ، ومن غير حكم ،

كما رأينا في حكم الدكتاتورية في ألمانيا ، وفي إيطاليا ، وهكذا ، وقد رأينا مثل ذلك في العراق •

وقد ختم الله تعالت كلماته بالنص السامى بالباعث على الطغيان والتحكم والاستعلاء ، وتفريق الأمة ، فقال : « انه كان من المفسدين » أى أن الفساد مستحكم متغلغل في أطواء نفسه ، وقد بعثه على جعل الأمة متفرقة ، وتحكيم طائفة في طائفة ، فأغرى بينهم بالعداوة والبغضاء ، يحس كل فريق منهم بأنه مظلوم ، وظالمه هو الفريق الآخر ، يتظالمون فيما بينهم ، ويتعادون ، ليتمكن الظالم من ظلمهم والتحكم في رقابهم ، وأن يقول لهم « أنا ربكم الأعلى » ولا ينكر أحد ، ولو في قلبه ، لأن لكل فريق يتهم الآخر بأنه عين عليه ، ويريد النكاية به •

وقد أكد سبحانه وصف الافساد فيهم بان وبكأن الدالة على أن الفساد كان في الماضي ، ومستمر في الحاضر ، وببيان أنه داخل في ضمن المفسدين في الأرض اخوان ابليس ، وينطبق عليه قوله تعالى في شأن الظالمين الذين يمينون الناس الأمانى ويكذبون ويخلفون ، « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالأثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد (١) » •

وان هذا الوصف الذى ساقه الله تعالى للوالى الفاسد ، هو وصف فرعون ، ومن استعلى واستكبر ، ووصف لكل طاغية من طغاة الدنيا يمنى الناس بالامانى ، حتى أنه ليصور لهم أنه سيجعل لهم الأرض نعيما ، وخيراتها لنا وعملا ، حس اذا حكم تحكم ، وكان شهوته نظاما ، وهواد حكما ولا بد أن يرضى الناس حكومته طوعا أو كرها ، ومن قال له اتق الله قطع عنقه ، أو سلب عليه كلابه الذين جعلوا أنفسهم ملكا له ، يملك رقابهم ، ويظنون أنه سلبهم الاحرار ، وهم العبيد حقا •

٦٥ — هذا ما تصوره الآيات في وصف فرعون وأمثاله من الطواغيت الذين يظهرون في العصور المختلفة ، واداء لم يتسموا باسم فرعون ، ففيهم صفاته وفعاله وفي أتباعه أوصاف أتباعه ، والمستضعفون مأكولون في عهدهم ، كما هم مأكولون في عهده .

وبعد تصوير الله تعالى طغيان فرعون ، كان من نسق البيان الرائع أن يذكر نهايته ، وأنه اذا وصل الطغيان الى أقصى حده ، كانت النهاية ، ولذا ذكر سبحانه وتعالى في مقابل ارادته الافساد ، وكونه متغلغلا في كيانه ذكر في مقابلة ارادة الله تعالى ، وارادته سبحانه فوق كل ارادة ، ولو كانت طغيان فرعون ، ولذا قال سبحانه في بيان ارادته ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (١) » .

ارادة طاغية مغرورة مستكبرة ، وهي ارادة الطغيان ، وارادة كريمة معطية مانحة مانعة من الشر والعيث ، وهي ارادة الله سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه يمن على المستضعفين ، ونجد هنا تعميما في المن ، فلم يذكر سبحانه وتعالى ما يمن به ، بل كان التعميم ، فهو سبحانه يمن عليهم بالحرية بعد الاستعباد ، ويمن عليهم بالقوة بعد الضعف ، ويمن عليهم بالعزة بعد الذلة ويمن عليهم بالثمرات بعد الجذب ، وهكذا تتعدد النعم التي يمن بها سبحانه « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (٢) وكل هذه المعاني هي بعض ما تدل عليه كلمة نمن ، وخص سبحانه من بين هذه النعم التي يمن بها نعمة كبيرة هي للخلاص من حكم فرعون الى أن يكونوا أئمة ، أي ولاية لأنفسهم لا يملك أحد التحكم فيهم ولا السيطرة ، فكل حر أمير في نفسه ، ويجعل منهم أمراءهم وأولياء أمورهم ، لا يفرض عليهم أمير لا يرضونه ولا ولى من غيرهم ، وآراؤهم في حكمهم هي الغالبة فلا يحكمهم متحكم ، ولا يسير أمورهم متغلب ، فانظر كيف جمعت الكلمة كل هذه المعاني ، وجاءت من بعد ذلك كلمة تدل على كمال

(١) القصص : ٥ - ٦ .

(٢) ابراهيم : ٢٤ .

ارادته سبحانه في هذا الوجود فقال « ونجعلهم الوارثين » ونجد أنه سبحانه لم يبين الموروث ، وفيه اشارة الى عموم ما آل اليهم ، إذ أنهم سيخلفونه في جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ولكن يكون لهم هذا اذا استقاموا على طريقة الحق ، ولم يخرجوا عن جادته ومنهجه ، وغير ذلك •

بعد هذا يبين سبحانه وتعالى أن طغيان فرعون انتهى بالفناء وأن يذوق عاقبة أمره ، كما اغتر أصحاب الحديقة بحديثهم المذكورة ، فقال تعالت كلماته •  
« ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » •

التمكين كان بإعطاء سلطان لهم في الأرض ، اذا استطاعوا القيام بحق التمكين ، فانه يحتاج الى قوى نفسية عالية وادراك لمعنى العزة والكرامة ، ولم يوردوا على الذلة والمهانة •

ثم يبين سبحانه عاقبة الظلم ، وأنه لم يدفع المحذور ، فقال تعالى : « ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » •

لقد كان فرعون وحده وزيره ، وجنود معهما تابعين غير مستقلين في فكرة أو ارادة منهم ما كانوا ما يحذرون ، وهو أن يدبر الناس ما ينتقضون به على حكمهما ، أو يقتلوا فرعون ، فقد أراهم رب العالمين ، فكان موت فرعون على ما قدره الله تعالى لموسى عليه السلام ومن معه وهكذا كل طاغية ، يطغى ويستبد ، ويرتكب الفجور في كل ناحية ، حذر أن تخرج خارجه ، وبعد أن يكون منه وما يكون من مثل ما فعل فرعون ، ثم تكون من بعد كلمة الله تعالى هي العليا ، ويقع المحذور في وقت لا يملك الرجوع ، كما قال فرعون ، قد أدركه الغرق • قال « آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » (١)

٦٦ — وبعد ذلك البيان الذى حاولنا به الوصول الى بعض أسرار المعانى القرآنية التى نعلو ولا يعلى عليها ، واليانعه الثمار الدائيه القطوف فى أعلاها ، والثروة الخصبة المملوءة حياة فى أدناها • كما قال البليغ العربى القرشى نريد أن نتسير اشارة الى ما وصل اليه تفكيرنا فى اجمال ماسبق ، فنجد :

اولا — اتساق العبارة فى المقابلة بين العلو المصطنع والالتصاق بالأرض ، الذى يفيد مع هذه المقابلة اللفظية أنه سيطر على الأرض واستمكن فيها وتحكم حتى نساغ له أن يقول : « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى » (١) •

ثانيا — أن التعبير باستضعاف طائفة منهم فيه اشارة الى أن الضعف ليس طبيعيا فطريا ، ولكنه يكون بالاستضعاف وأن كل من يراد على الضعف لا يستسلم فيستضعف ، بل يقاوم ويناضل ، فيموت عزيزاً ، أو يمنحه الله تعالى القوة ، وان الرضا بالذل يؤدى الى الموت ، وطلب العزة يؤدى الى الحياة ، وكما قال خليفة رسول الله أبو بكر رضى الله تعالى عنه « اطلب الموت توهب لك الحياة » •

وثالثا — أن الاستضعاف يؤدى الى الموت لا محالة ، ويكون الموت على نحو لا كرامة فيه ، وصوره سبحانه وتعالى بقوله تعالى :

« يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » فهو موت ذليل فيه خسة الذل ، وقتل النخوة ، أما الموت فى سبيل الكرامة فهو موت عزيز كريم ، ورحم الله الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده اذ يقول : « ان موتا فى سبيل الحق هو عين البقاء ، وحياة فى ذل هى عين الفناء » •

رابعا — أن القوة تكون للقوى بتمكين الله تعالى وبمشيئته ، ذلك بأن يهبىء الأسباب ليستبدلوا بضعفهم قوة فيمنحهم الأمن ، وذلك بأن يجعلهم يشعرون بأنهم سادة ، وليسوا عبيداً ، وهذا يتضمنه التعبير بقوله تعالى « ونجعلهم أئمة » ، أى يجعلهم مسيطرين على أنفسهم ، كما نوهنا فيما ذكرنا من قوله تعالى كما من الله تعالى على بنى اسرائيل اذ جعلهم مالكين لأنفسهم مسيطرين على أمورهم اذ قال



تعالى : « واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين (١) » ومعنى جعلهم ملوكا أنه سبحانه وتعالى جعلهم أحراراً يماكون شئون أنفسهم • ويتولون أمورهم لا مسيطر يسيطر عليهم •

هذه نظرات الى النص القرآنى الكريم فى بعض شأن فرعون وماله ، ومن يجرى فى حكم شعبه على طريقته ، ويتحكم فى الرقاب تحكمه ، ونجد فيه جمال اللفظ ، وجمال القصص ، والألفاظ التى تشع منها المعانى كأنها الضياء المتألىء والماء العذب النмир الذى ينساب فى النفس المؤمنة ، والله سبحانه هو العلى الحكيم ، وكلامه هو النور المبين الهادى الى رب العالمين •

## قوة البلاغة فى الأسلوب من كلمات متألفة

٦٧ - يقول الخطابى فى رسالته فى اعجاز القرآن فى بيان البلاغة القرآنية : « اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو بوضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى اذا أبدل مكانه غيره ، جاء منه اما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، واما ذهاب الرونق الذى يكون منه سقوط البلاغة ؛ ذاك أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى افادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكانعت والصفة ، وكقولك اتعد واجلس وبلى ونعم ، والأمر فى ترتيبها بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة خاصة تتميز بها عن صاحبها • وهكذا يسترسل فى بيان التفرقة بين الألفاظ ، ويصرب الأمثلة فى القرآن ، وفى اللغة فى التفرقة بين الألفاظ التى يزعم أنها تدل على معنى واحد يؤديه كل واحد منها من غير افتراق فى المؤدى مع أن المؤدى مختلف متباين •

وانه يذكر أن ألفاظ القرآن مختارة تدل على أدق معانيها ، فمثلا ذكر عن اخوة يوسف عليه السلام أنهم قالوا أكله الذئب ، ولم يقولوا افترسه ، لأنهم لو قالوا افترسه لطالبهم ببعض أثره ، والأكل افناء الجسم فى جسم •

وان الخطابى ليقول فى بحثه القيم : « اعلم أن القرآن انما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعانى من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء الى طاعته » وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وابطاحه ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وارشاد الى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شىء منها فى موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه » •

وإذا كانت ألفاظ القرآن ومعانيه لها ذلك المكان الأسمى الذى لا يمكن أن يباهد الى سمائه انسان أو جن ، شرقى أو غربى ، فان فى القرآن مع جمال الألفاظ ورونق الأسلوب ، خاصة لا يصل اليها أحد فى الألفاظ والأسلوب والمعانى •

وقد قسم الخطابى الكلام البليغ الى أجناس ثلاثة ، ومراتبها فى نسبة التبيين متفاوتة ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق السهل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه البتة » •

وان هذا الكلام لا يمكن أن يمر من غير أن نبدى عليه ملاحظة لاحظناها ، انه يفرض أن الكلام البليغ يتفاوت بتفاوتة فى الجزالة والسلاسة والسهولة ، وهذا يوهم أن القرآن الكريم تتفاوت بلاغته ، وهذا الزعم باطل ، فالقرآن كله رتبة واحدة فى البلاغة فى المنزلة التى لا يمكن أن يسمو اليها بليغ ، لأن البلاغة أن يكون الكلام موافقاً لمقتضى الحال ، فالعبارات الجزلة القوية تكون فى موضع الانذار ، والعبارات السهلة غير المسترسلة تكون فى التبشير ، والعبارات المسترسلة فى مواضع التنبيه الى وجوب التفكير والتدبير ، وكل بليغ فى موضعه ، ولا يختار سواه ، فلا تكون عبارات الانذار كعبارات التبشير ، ولا تكون عبارات الدعوة الى التأمل كعبارات التهديد والتخويف ، هذه ملاحظة أبديناها ، على عبارة الخطابى ، وكان حقاً علينا أن نبيدها فلا نجعلها تمر بغير تعليق •

وان الخطابى قد بين أن القرآن الكريم قد اشتمل على الأجناس الثلاثة فى عبارات قيمة حازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فاننظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة ، والعذوبة ، وهما على الانفراد كالمتضادين ؛ لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليكون آية بينة ودلالة على صحة ما دعا اليه من أمور دينه ، وانما تعذر على البشر • الاتيان بمثله لأسباب ؛ منها أن علمهم بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التى هى ظروف المعانى والحوامل لها غير كامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع وجوه النظم التى بها يكون ائتلافها ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلون باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها الى أن يأتوا بكلام مثله ، • • وانما يقوم الكلام بهذه الأشیاء الثلاثة لفظ حامل ، ومعنى قائم ، ورباط لهما ناظم •

وانا نوافق الخطابى فى أن عدم قدرة البلغاء من الناس على الاتيان بمثل القرآن من أسبابه نقص علمهم باللغة ، جزلها وسهولها ، وعدم علمهم بالمعانى وأنى يكون علمهم بجوار علم الله تعالى الذى أحاط بكل شىء علما •

ونقول من ناحية ثانية : ان البلغاء من الناس يختلفون جزالة وسهولة واسترسالا ، تبعا لطبائعهم وبيئاتهم وما يتجهون اليه ، فالفرزدق كان يميل الى اختيار الألفاظ القوية ، أو الحوشية ، ويتقحم بذلك الوعر من القول وقالوا انه كان يحاول أن ينهج نهج البدويين من الجاهليين ، وجريير يتخير السهل العذب من الألفاظ ، وكذلك كان الأمر فى شعراء الجاهلية فامرؤ القيس كان يتخير الوعر الجزل من الألفاظ ، وهو يقيم فى الصحراء العربية ، ولانت ألفاظه لما كرتته الكوارث ، ورحل الى أنقرة ، وهكذا • • فكان من البلغاء من البشر من غلبت عليهم عذوبة الألفاظ ، ومنهم من غلبت عليه جزالتها وقوتها ، بل وعورتها ، ويختلف الرجل الواحد باختلاف حاله ، وتغير البيئات عليه •

هذا في بلاغة البشر ، أما القرآن فبلاغته من عند الله خالق كل شيء القادر على كل شيء ، والخالق للناس وبيئاتهم ، فكان في كلامه المبين ، كل أجناس القول ومناهج البيان بلا تفاوت في البلاغة القرآنية ، وان اختلفت ألوان الألفاظ وأجناسها بين جزل قوى • وعذب سهل ، وكلام مرسل ينساب في النفس انسياب النмир ، وكل في موضعه •

### التلاؤم :

٦٨ - يقصد بالتلاؤم في الأسلوب أن تأتلف مخارج الحروف والكلمات كما ذكرنا ، والانسجام في النعم بينها ، ويعد القاضي عبد الجبار أن تأخى النعم في الألفاظ والحروف من حلاوة الكلام ومحسناته ، ولكننا نقول انها بالنسبة للقرآن الكريم من تأثيره في النفوس ، فهو في القرآن طريق الوصول الى القلوب ، وان نظمته على ماسنين يسير هو وأسلوبه بألفاظه ومعانيه الى القلوب ليأخذها من طبعها الأرضي ليعلو بها الى الأفق السماوي •

ويذكر أبو عيسى الرماني فائدة التلاؤم فيقول : « والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل النفس لمعناه ، لما يرد عليها من حسن الصورة ، وطريق الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراء الكتاب في أحسن ما يكون الخط والحرف وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت في الصورة • وان كانت المعاني واحدة » •

وان الكلام يذاق كما يذاق الطعام ، فكما كان التنسيق والتلاؤم حسن في الذوق •

وان لغتنا العربية لغة نطق ابتداء ، وصارت من بعد لغة كتابة ، ولم تنفصل عنها خاصتها ، فهي نطق وكتابة ، ولذلك كان لمخارج الحروف أثر في فصاحة الكلام • ولا شك أن مخارج الحروف مختلفة منها ما يكون في أقصى الحلق ومنها

ما هو امن أدنى الفم • ومنها ما هو في الوسط بينهما ، فالتلاؤم فيها بأن تكون  
الكلمة حروفها متقاربة الخارج ، والكلمات متقاربة الخارج ليسهل النطق على  
اللسان ، وتتقبله الأسماع •

فاذا أضيف الى ذلك التأخى في المعانى كان التلاؤم الكامل، والأسلوب الرائع،  
ذلك ما جاء في القرآن •

### ٣ - تصريف البيان

٦٩ - اختلفت مناهج البلغاء كتاباً وشعراء ، كل يجيد منهاجا معيناً ويمتاز فيه ، ويكون من الأوساط في غيره أثر دون الأوساط ، فمنهم من يجيد الوصف ، ويحكى الأثيياء لقارئه كأنه يراها ، ومنهم من يجيد القول الوعر العنيف ، ولا يكون منه السهل الميسر ، ومنهم من يجيد شعر الغزل ، ولا يجيد غيره ، ومنهم من يجيد القول الساخر ، ولا يجيد القول الجاد كما نرى في بعض كتاب العصر ، ومنهم من يجيد الكتابة في السياسة ، فاذا كتب في غيرها هان وابتذل ، ومنهم من يجيد الكتابة في التحليل ، واثارة التأمل ، وهكذا ، وقل من يجيد الدخول الى الكلام البليغ في أكثر من باب أو بابين ويكونان متآخيين ، غير متناقضين .

أما القرآن المعجز الذى هو فوق قدرة البشر ، فان البلاغة فيه في كل أبواب القول ، وهى في كل باب تعلو علواً كبيراً عن المجيدين في هذا الباب وحده ، ولذلك كان تصريف القول فيه من تهديد وانذار وتبشير ، واثارة للتأمل ، ودعوة للتفكير في آيات الله تعالى الكونية والقرآنية ، والتفكير في النفس وفي الحس ، كل ذلك من دلائل الاعجاز وسره .

ولقد قال سبحانه في ذلك : « ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعذروا ، وما يزيدهم الا نفوراً (١) » أى أن التصرف لزيادة التنبيه ، وكلما زاد تنبيههم بالحق وارشادهم ازدادوا نفوراً ، فزادوا كفراً ، وقال تعالى « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس الا كفوراً (٢) » أى أن الله تعالى صرف في القرآن بضرب الأمثال وبيان الأحوال ، رجاء أن يؤمنوا ، ولكن سبق الكفر اليهم جعلهم يأبون الايمان بالله والخضوع له ، فزادوا نفوراً عن الحقائق كما ينفر المريض السقيم عن الدواء الناجع ، والغذاء الصالح وقال تعالى « ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شئ جدلاً (٣) » ذكر الله تعالى أنه يصرف القرآن بذكر الأمثال والأحوال ، ولكن الذين سبق الضلال اليهم يجادلون والجدل

(٢) الاسراء : ٨٩

(١) الاسراء : ٤١

(٣) الكهف : ٥٤

في الحق الواضح المبين ، يطمس الحقائق ، ويطفىء النور ، ويختفى نور الحق وسط الأقوال المتضاربة والأهواء المتنازعة •

وقال تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم ينتنون أو يحدث لهم ذكراً (١) » •

وقال تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون » (٢) •

وقال تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفتنون » (٣) •

وقال تعالى : « وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون » (٤) أى نصرف الآيات ليفقهوه ويدركوا الحق ان كانوا غير ضالين ، ولم يطمس على قلوبهم وليقولوا درست وتعلمت ويكذبوا ان طمس على قلوبهم ولم يؤمنوا بالحق ، كما قالوا يعلمه غيره ، ورد تعالى عليه بقوله : « لسان الذى يلحدون اليه أعجمى • وهذا لسان عربى مبين » (٥) وقال تعالى : « كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » (٦) •

٧٠ - وبهذه النصوص الكريمة تبين أن القرآن كان يصرف الآيات بمعنى أنه يتضمن الأمر بالتوحيد والتكليفات السريعة التى بها صلاح المجتمع وتكوين مدنية فاضلة تحترم فيها حقوق الانسان احتراماً كاملاً ، بأوجه مختلفة من البيان ، من تهديد وانذار الى تبشير ، وتوبيخ واستنكار ودعوة الى التأمل فى خلق الله تعالى ، وفى الأنفس ، ومن قصص يدركها أولو الأبواب لسياق العبر والمثلات ، وهكذا تتنوع أساليب القول ومناهج التأثير ، لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد •

(٢) الانعام : ٤٦

(٤) الانعام : ١٠٥

(٦) الاعراف : ٥٨

(١) طه : ١١٣

(٣) الانعام : ٦٥

(٥) النحل : ١٠٢

وان التصريف في القرآن الكريم على ضربين أحدهما - في المعاني ، وثانيهما في الألفاظ والأساليب ، فأما التصرف في المعاني ، فإن المؤدى في جملته يكون واحداً ، ولكن يختلف في دلالاته بالنسبة للسياق ، فالقصة الواحدة كقصة نوح تذكر في القرآن في عدة مواضع، ولكن لها في كل مرة عبرة، وهذا تصريف في المعاني وان كانت الألفاظ تختلف أو تتقارب أو تتحد العبارات في بعض الأحيان ، ولقد قال في تصريف المعاني الرماني في رسالته اعجاز القرآن : « وهذا الضرب من التصرف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره وتدل عليه ، وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة قد جاء في القرآن في غير قصة • منها قصة موسى عليه السلام في صورة الأعراف وفي طه والشعراء • لوجوه من الحكمة ، منها التصرف في البلاغة من غير نقصان ، ومنها تمكين العبرة والموعظة (١) » •

٧١ - وأول تصريف في مناحي القول في القرآن يكون في السور ، فمنها الطويل التي يجد فيها القارئ أبواب العلم الاسلامي المختلفة من بيان الوحدانية، وبطلان الوثنية ، وتوجيه الأنظار الى الكون ، وما فيه من دلالة على قدرة ، والأرض وما حوت من كنوز وزروع وثمار ، ومن اتصال الأرض بالسما بالمطر الذي يكون غيثاً يحيى الأرض ، وينبت الزرع ، ويسقى كل حي ، ومن شرائع فيها المصلحة الانسانية وكرامة الانسان ، وتكريمه بالعقل •

وفيهما القصار التي يسهل على القارئ حفظها ، وأن يعيها صدره لما فيها من جمل قصار يسهل وعيها ولاعتبار بها ، وذكرها في صلواته ، وفيها بيان الوحدانية وذكر اليوم الآخر ، وفي بعضها تجد أحكاماً شرعية ، مثل قوله تعالى في سورة الكوثر « انا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ان شأنك هو الأبر » ، ففيها ذكر لليوم الآخر ومقام النبي عليه السلام ، ومقام الشانئين الذين عادوه ، وعادوا الحق معه وحكم الأضحية •

واقراً قوله تعالى : « والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا

(١) رسالة الرماني من مجموع الرسائل في اعجاز القرآن ص ١٠١



الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» ، ففي هذه السورة القصيرة جماع الخصال الانسانية التي تصلح الاحاد والجماعات ، وهي الايمان الذي يعمر القلوب ، ويوجه الجوارح ، فلا صلاح لانسان أو جماعة الا اذا صلحت القلوب ، وأثمر الايمان العمل الصالح في الآحاد ، وكانت الجماعة كلها للحق تتواصى عليه وتتعاون ، فما صلح قوم ضاع الحق بينهم ، وتخاذلوا في نصرته ، وان السبيل الى احتمال أعباء الحق ، هو الصبر ، فان الصبر فيه ضبط النفس ، والاعتدال عن الشهوات وجعلها خاضعة للعقل ، بحيث تكون أمة ذلولا لا سيداً مطاعا وما تخاذل قوم عن نصره الحق الا لأن الشهوات قد استولت على نفوسهم ، وصار السائد على الجماعة الهوى المطاع ، والشح المتبع ، ولذلك نص الله سبحانه وتعالى على أن الجماعة الفاضلة هي التي تتواصى على الحق ، فلا يذل صاحب حق ، ولا يعلو أهل الباطل ، وتتواصى على الصبر ، وضبط النفس ، وقدها عن أهوائها ، وشهواتها .

وفي القرآن السور المتوسطة التي ليست بالطوال ولا القصار ، ومنها ما يقرب من الطوال ومنها ما هو قريب من القصار ، وهي مشتملة على جل مقاصد الشريعة الاسلامية في عبارة موجزة ، مثيرة ، ولكن بوضوح ، ومبينة ، ولكن بايجاز .

وكان الله سبحانه وتعالى بذلك التصريف في السور بين الطويل ، والمتوسط والقصير ، وكلها في أعلى درجات البلاغة يقدم مائدته الكبرى ، وهي القرآن للناس أجمعين ذوى العلم الذين يتسع علمهم للاحاطة بالسور الطوال وما فيها من علم بالشريعة ، وما فيها من علم الكون الذى لا يحيط به من دونهم ، وهم أوتوا مدارك تسموا اليها ، وتستخرج من كنوزها جواهر .

وأعطى الذين يشغلهم أسباب الرزق عن الاحاطة بقصار السور ، وفيها غناء لا قصور فيه ، بل انه كمال في كمال .

وبين هؤلاء وأولئك الذين يطلبون السور المتوسطة طولا ، وهم الشادون في العلم الذين لهم من وقتهم ما يمكنهم أكثر ممن كانت لهم قصار السور .

وقد يقول قائل هل تقسيم القرآن الى سور قصار وما بينها تنزيل من

الله تعالى ! \*

ونقول في الجواب عن ذلك : ان ترتيب السور بوحى من الله تعالى ، وقد

بيننا ذلك فيما أسلفنا من قول في جمع القرآن \*

## التكرار في القرآن

٧٢ — كانت السور منها القصار ، ومنها الطوال ، وأن الجميع بترتيب من

الوحى الالهى ولم يكن من عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وحى ، بل هو من توقيف الله تعالى ، ووحيه ، وان وضع الآيات بعضها بجوار بعض من

وحى الله تعالى ، اذ كانت الآية اذا نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها في مكانها من السورة التى يعينها بالوحى \* النازل عليه ، والذي كان لا يبنى عن

الاتصال به فيما يتعلق بالقرآن الكريم ، وان ذلك من الاعجاز اذ أن الآيتين المتلاصقتين مع أنهما قد تكونان نزلتا في زمنين متباعدين ، نجد أن كل واحدة لقف

للأخرى ، وهما صنوان متلازمان متآخيتان ، وذلك من سر الاعجاز ودلائله ، اذ أن التناسق البيانى بينهما متصل ، والمعانى متلاقية ، وكل واحدة منهما تتمم

الأخرى في الموضوع في أحيان كثيرة ، وفي التوجيه النفسى ، والتوالد المعنوى بينهما ، بحيث لا يتصور القارئ للقرآن الكريم ، أو المستمع لترتيبه والمدرک

لنغمه ، لا يحسب أن بينهما فارقاً زمنياً في النزول \*

وبجوار طول السور وقصرها ، مع الاعجاز في كلها قد نجد في القرآن

تكراراً ، وهو من تصريف البيان ، لا من الاطناب المجرد ، وانما هو لمقاصد ولتوجيه النظر ، ومناسبة المقام ، ولقد لاحظ ذلك الأقدمون الذين تكلموا في سر

الاعجاز وقد قال في ذلك الجاحظ في كتابه الحيوان \*

« رأينا الله تبارك وتعالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج

الإشارة والوحى والحذف ، واذا خاطب بنى اسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً

وزاد في الكلام » \*

وأنا نعد كلام الجاحظ حق قدره ، وان ذلك واضح في كثير من آى القرآن ،  
وان الأعراب الذين يعتمدون على ذاكرتهم لأنهم أميون يناسبهم الكلام الموجز ،  
وأحيانا يعنى فيهم لمح القول ولحنه وإشاراته ، ولكن نلاحظ ثلاثة أمور :

أولها — أنه قال وزاد في الكلام ، وانا لا نحسب أن هذه الكلمة تتفق مع  
بلاغة القرآن ولا مقامه ، فليس في القرآن زائد ، وان أظن في القول ؛ لأن الزيادة  
تتسم بالحشو ، ومجال ذلك في أبلغ القول الذى نزل من عند الله تعالى ، ولعله أراد  
معنى البسط والاطناب ، لا أصل الزيادة ، ولا يمكن أن يكون قد أراد الحشو ،  
ولكن مع كل نقول هذه العبارة ليست سائغة •

الثانى — أن الآيات المكية وقد كان الخطاب لعبدة الأوثان ، فانا نجد فيها  
بسطة في القول ، وخصوصاً في الاستدلال من الكون على أن الله سبحانه وتعالى  
خالقه ، وفي الاستدلال بعجزهم ، والالتجاء اليه سبحانه •

اقرأ قوله تعالى « أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ،  
فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ اله مع الله ، بل هم قوم  
يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى ، وجعل  
بين البحرين حاجزا أ اله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر اذا  
دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أ اله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن  
يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشاراً بين يدى رحمته أ اله مع  
الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء  
والأرض أ اله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ، ان كنتم صادقين » (١) •

وان هذا الكلام الكريم لا يمكن أن يكون خطاباً لليهود وحدهم ، وانما هو  
خطاب للعرب ، ولم يكن باللمح والإشارة • بل كان بالتحريح والعبارة ، فلم يكن  
بالإيجاز ، وان كان الإيجاز القرأنى من نوع الإعجاز • بل كان بالاطناب المتسق  
المبين ، وكان فيه بعض التكرار وهو تكرار في موضعه ، لأن التوجيه الى النظر فيما  
تحت أيديهم هو فى ذاته مقدمة لنتيجة وهى الوجدانية للمعبود ما دامت وحدانية

للخالق قد ثبتت بهذا الكلام ، فكان لابد أن تذكر النتيجة أمام كل مقدمة ، لأنها وحدها دليل ، ولو لم تذكر النتيجة أمام كل مقدمة، لكانت النتيجة ثمرة لمجموعهما، مع أن كل واحدة منها صالحة لأن تكون الوجدانية نتيجة لها ، دون أن تنضم معها غيرها •

الملاحظة الثالثة ، وهى مبنية على الملاحظة السابقة ، أن الإيجاز والاطناب يكون اكل موضعه ، ومقامه ، فلكل مقام مقتضاه الذى توجه أحوال البيان المعجز •

وقد لاحظنا أن مقام الاستدلال على الوجدانية من المواضع التى يحسن فيها الاطناب ، وكلام الله تعالى اتجه الى ذلك ، كما رأينا فى الآية السابقة ، وكما نرى فى سورة الرحمن فانها تذكير بنعم الله تعالى • وكل نعمة كفروا اذ استعملوها فى غير موضعها ، وفى غير أمر الله تعالى ونهيه ، واذا كان جزاء النعم كفراً بالنعم ، واشراك غيره معه فى العبادة ، فقد قال تعالى فى سورة الرحمن « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف ، والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ، ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان •• الى آخر السورة الكريمة •

وهكذا نجد بعد كل نص سام تتبين فيه نعمة الخالق بديع السموات والأرض يكون تذكيراً بنعم الله ، ووجوب شكرها بالطاعة وتجنب المعصية والاقترار بوجدانية المعبود ، وألا يعبدوا غيره سبحانه وتعالى ، وفى ذلك إشارة الى أن كل نعمة من هذه النعم ، وبينة من هذه البيئات توجب وحدها الشكر، وتوجب الاقترار بوجدانية الله سبحانه وتعالى •

## ١ - فصوص القرآن من الناحية البيانية

٧٤ - ومن المواضع التي يحسن فيها الاطناب ، بل التكرار أحياناً قصص القرآن ، ولا نذكره هنا من ناحية أنه من وجوه الاعجاز في ذاته ، فلذلك موضع خاص من القول ، انما نذكره من ناحية التكرار فيه ، وموضع ذلك من سر الاعجاز ، وبلاغة القرآن التي لا تساميهها بلاغة في الوجود ، وان ذلك التكرار من تصريف القول الذي هو وجه من وجوه البيان القرآني الذي قصد اليه الكتاب العزيز .

لقد تكررت قصص الأنبياء ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالاطناب أحياناً ، والايجاز أحياناً ، وذكرت قصة عيسى عدة مرات ، وذكرت قصة ابراهيم عدة مرات ، وذكرت قصة موسى عدة مرات ، وانه يبدو يادى الرأي أن ذلك من مكرور العقول . وفيه التكرار ، فما وجه البلاغة في هذا التكرار .

اننا اذا نظرنا نظرة فاحصة تليق بمقام القرآن ، ومكانته في البيان العربي ، نجد أن التكرار فيه له مغزى ، ذلك أن القرآن ليس كتاب قصص وليس كالروايات القصصية التي تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة .

انما قصص القرآن ، وهو قصص لأمر واقعة ، يساق للعبر واعطاء المثالات ، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية ، وبيان ما يقاوم به النبيون ، ووراءهم كل الدعاة للحق ، فهو قصص للعبرة بين الوائعات ، لا لمجرد المتعة من الاستماع ، والقراءة ، ولذلك قال الله تعالى في آخر قصة نبي الله يوسف عليه السلام ، « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١) .

ولكى يتبين القارىء الكريم ، أن التكرار بسبب تعدد العبر التي هي المقصد الأول من القصص ، نذكر قصة ابراهيم وقصة موسى عليهما وعلى نبينا أفضل

الصلاة وأنهم التسليم ، فانهما ذكرنا كثيراً في القرآن الكريم •

### قصة إبراهيم :

٧٥ - ذكرت قصة إبراهيم في القرآن عدة مرات ، لتعدد العبر فيها ، وان إبراهيم كان أبا العرب فقصصه له مقامه عند العرب ، ونذكر من قصصه بعضه لا كله ، فإنه ليس هذا مقام ذكره في القرآن •

( أ ) أول ما نذكر من قصة إبراهيم ، هو ما يربطه بالعرب ، وما كان شرف العرب به وهو بناء الكعبة ، فقد ذكر هذا البناء الذي قام به ، وعاونه فيه أبنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وبإبراهيم واسماعيل تشرف العرب ، بأنهم سلالاتهما ، وبالبيت الحرام اعترضوا ، وعلوا في العرب ، اذ كان مثابة للناس وأمناً ، وقد قال تعالى في هذا البناء الذي قام بأمر رباني :

« واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات غائبات ، قال انى جاعلك للناس اماماً ، قال ومن ذريتي ، قال لا ينال عهدى الظالمين ، واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا الى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين ، والركع السجود ، واذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر ، فأمتنعه قليلاً ، ثم اضطره الى عذاب النار ، وبئس المصير ؛ واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا: انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » (١)

ثم بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه كان استجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبذلك تتبين الصلة بين الاسلام ودعوة إبراهيم ، فاذا كان العرب يفتخرون بإبراهيم عليه السلام ، فهذه دعوته قد استجيبت في محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

(ب) نجد بعد هذه القصة قصة النفس البشرية في نبي الفطرة إبراهيم عليه

السلام ، أذ النفوس ربو كانت مؤمنة تتمتع بكثرة الدليل ، تقوّاد ايماناً ، وأن كان أصل الايمان قائماً ، فزيادة البيئات تزيد المؤمن ايماناً ، وتزيد الجاحد كفرة وعناداً .

واقراً قصة طلبه زيادة الايمان : « واذ قال ابراهيم : رب ارسى حيف تحيى الموتى . قال أو لم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير ، فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً . ثم ادعهن يأتينك سعيّاً ، واعلم أن الله عزيز حكيم » (١) .

ومن قبل ذلك فى الذكر كانت قصته مع الملك عندما ناقشه فى اثبات وجود الله وكيف استطاع ابراهيم عليه السلام أن يفحّمه اذ هو لا يؤمن الا بالمحسوس اذ قال تعالى : « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم والظالمين » (٢) .

وترى فى قصة ابراهيم والطير أنه صور النفس الانسانية ، ولو كانت نفس نبي مؤمن يدعو الى تكسّف المجهول ، وتعرف المستور ، والمؤمنون يديهم الله تعالى ، ومن لا يريدون الهداية يتركون فى غيهم يعمهون .

وفى قصة ابراهيم مع الملك نجد ابراهيم الأريب يأخذ بالطريق الذى يحسم الخلاف دون الطريق الذى يحدث لاجاة من غير افحام ، اذ الملك فهم أن القتل امانة وتركه احياء ، فلم يسترسل رسول الله الفطين الأريب فى تعريف للموت والحياة، بل عمد الى ما يفحّمه حسباً ، فهبت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين .

ومن هذا ترى أنه ليس ثمة تكرار فى المعانى والعبير والعظّات ، وان كان الموضوع فى الأحوال الثلاث يتعلّق بابراهيم عليه السلام .

(ج) ولننتقل الى قصة أخرى موضوعها يتعلّق أيضاً بابراهيم عليه السلام ، وهو تدرج النفس الانسانية فى الاتجاه الى طلب الحقيقة الالهية ، والايمان

يا لوحدانية كيف ابتداء إبراهيم عليه السلام تأمله في الكون ليتعرف من الوجود سر الوجود ، وعظمة الخالق ، فاول ما استترعاه نجم ساطع تالق ، فحسبه ربه ، ولكن الرب موجود دائما ، فلما غاب نفر مما زعم ثم رأى القمر ، فحسبه كذلك ، ثم رأى الشمس ، وهكذا حتى هدى الى أن سر الوجود يجب أن يكون غير هذا كله ، فاتجه الى الله ، واليك القصة كما ذكرها القرآن ، وكما وقعت ، قال تعالى : « واذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، انى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال يا قوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه . قال أتحتاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ماتشركون به الا أن يئس ربى شيئا ، وسع ربى كل شى علما أفلا تتذكرون » (١) .

ونرى من هذه لقصة أنها مغايرة تمام المغايرة لما سبق ، وان كانت غير معارضة لها ، بل هى متممة ، ولا تكرر فى القصص ، انما الموضوع ، وهو ابراهيم عليه السلام هو المتكرر ، ونرى أنه ابتداء بتفى عبادة الأصنام على أساس أن البديهة تدعو الى ذلك ، وأن ضلال العقل هو الذى يؤدى الى عبادتها ، ثم أخذ يبين أن طريق اليقين يبتدىء بالشك فى صدق ما تضل فيه الافهام ، فأخذ يعرض على عقله ما يتصور أن يكون فيه نفع ، فاتجه الى الكوكب السارى ثم الى القمر المنير ، ثم الى الشمس السراج ، فوجد أن كل ذلك يافل ، ويجرى عليه تغير ، فاتجه الى خالق ذلك كله ، ولذلك يقول بعض العلماء ، ومنهم ابن حزم الظاهرى ان ادراك الله ضرورى اذا استقامت الفطرة ، ولم تركس فى ضلال الأوهام .

(د) انتقل سيدنا الخليل من الاهتداء الى الله تعالى الى عمل ايجابى نحو الأصنام دفعه الشباب ونور الله الى أن يحطمها ، وهذا يجىء فى قصص القرآن



الكريم ، فيذكر سبحانه أنه عتب أن نال ابراهيم رشده ، وهو في حياة الله ، تقدم ليثبت ضلال عبادتها ، وأنها لا تضر ، ولا تنتفع ، فحطمها • ويقول سبحانه وتعالى في ذلك •

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ، وكنابه عالين • اذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجمتت بالحق أم أنت من اللاعبين • قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدين أصنامكم ، بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، انه من الظالمين ، قالوا سمعنا غنى يذكرهم يقال له ابراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ، فرجعوا الى أنفسهم ، فقالوا انكم أنتم الظالمون • ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ، ان كنتم فاعلين ، قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين (١) ( صدق الله تعالى العظيم ) •

هذه قصة من قصص ابراهيم عليه السلام ذكرها القرآن الكريم في موضع غير المواضع السابقة، ولا ترى تكراراً فيها ، واذا كان قد ذكر في قصة تتب الكواكب والقمر والشمس الحكم على أبيه وقومه بالضلال ، فقد ذكر ذلك مجملاً في الأول ، أما هنا فقد ذكر المناقشة التي جرت بينهم في ذلك، ثم ذكر تدبيره في حطم الأصنام، واثبات عجز الأصنام بالدليل القاطع ثم نجاته من النار ، فكان بهذا مثبتاً بالعمل أنهم لا ينفعون ولا يضررون ، ولما سأله عما فعل بالأصنام قلل منهكما : « بل فعله كبيرهم » فأنطقتهم بضلالهم اذ نكسوا ثم قالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ،

وقد أثبت الواقع أيضاً أن الله وحده هو الذى يضر وينفع اذ جعل سبحانه وتعالى النار « برداً وسلاماً على ابراهيم » .

وهنا لا نجد تكراراً مطلقاً ، وان الموضوع واحد ، فهذه قصة ابراهيم ولكن غرقت في أبواب شتى لأن النسق القرآنى المعجز اقتضى ذلك ، اذ يكون كل جزء مكوناً لقصة ذات عبرة مستقلة في ذاتها ، فهى قصة واحدة الموضوع ، في قصص متعددة العبر .

(هـ) ولندخل الى جزء آخر من قصة ابراهيم ، ونراه مستقلاً غير مكرر ، وهو صلة ابراهيم بأبيه ، وكيف كان حريصاً عليه مع رفق الدعوة واحسان البنوة ، وطرق الهداية الرشيدة ، يقول الله تعالى حكاية عن ابراهيم بعد أن صار صديقاً نبياً .

« واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً ، اذ قال لأبيه يا أبت لم تبعد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فانبعنى أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تبعد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فيكون للشيطان ولياً ، قال أرأغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم . لئن لم تنته الأرحم منك واهجرنى ملياً ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حنياً » (١) .

وهنا نجد رفق الدعوة التى تفيض بحنان البنوة في عباراتها، وفي نعماتها الهادئة وفي معانيها العاطفة ، ولا يمكن أن يوجد في أى لغة في أى كلام عبارات تفيض برفق الدعوة ، والعطف ، والرعاية بمثل هذه العبارات لأنها كلام العليم الحكيم العزيز الكريم .

و بمقدار ما في عبارات الابن من رفق واسترضاء واستعطاف كانت عبارات الأب كما صورها القرآن جفوة ، وكأنها الجنادل تصك الآذان ، ولم يمنع ذلك الابن

العطوف من أن يعد أباه بأن يستغفر له ربه ، لأن له مكانه عند الله تعالى « انه كان  
بى حفيياً » .

ولكن الله تعالى يخبره بأنه ليس له أن يستغفر لأبيه ، لأن كل امرىء بما  
كسب رهين ، ولا تترز وازرة ووزر أخرى ، وكل انسان وما قدمت يداه ، ان خيراً  
فخير ، وان شراً فشر ، وقد نهى الله تعالى عن الاستغفار للمشركين ، وعفا عن  
ابراهيم اذا استغفر لأبيه ولكنه أمره بالبراءة منه فتنبراً ، وقال تعالى في ذلك .

« ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى  
قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيه  
الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه  
حليم » (١)

هذه قصة ابراهيم عليه السلام قبضنا منها قبضة ، لكيلا يتوهم القارئ للقرآن ،  
أو المستمع لتلاوته أن فيها معانى مكررة وألفاظا مرددة ، ومنها يتبين أنه لا تكرر  
قط فيها ، ولكن حكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء في  
مواضع ، لتكون كل عبرة بجوار خبرها في القصة ، ولو اجتمعت في مكان واحد ،  
لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية وما تميزت كل عبرة تميزاً يجعلها كونا مستقلا  
مقصوداً بالذات ، وبقيّة الأجزاء التي لم نرطب قلمنا بذكرها لا تكرر فيها بل كل  
واحدة لها عبرتها .

#### قصة موسى عليه السلام :

٧٦ - قصة سيدنا موسى ذكرت في القرآن الكريم كثيراً ، لأنه هو الذى نزلت  
عليه التوراة ، وفيها المبادئ المقررة في الشرائع السماوية ، وكثير من أحكام المعاملات  
فيها لم ينسخ ، بل جلها صدق عليه القرآن الكريم ، كما وصفه الله تعالى اذ قال  
سبحانه « ومصدقا لما بين يدي من التوراة » (٢) ولأنها تبين أحوال اليهود ، ولأن  
فيها أوصافهم الحقيقية من الشك والتردد في الحق ، وخذلانه ، وما وسموا به من

(١) التوبة : ١١٣ - ١١٤ .

(٢) آل عمران : ٤٥ .

خنوع وخضوع الى آخر ما ذكره القرآن عنهم ، وكل ذكر لهم يجيء معه ذكر لنبي من الأنبياء ، ففيهم تجارب الانسانية الفاسدة ، وحالهم في هذه الأيام هي امتداد لما ذكره القرآن من أوصافهم .

وان المتتبع لقصة سيدنا موسى في القرآن يجدها متعددة العبر ، في جهاده ، وفي قومه ، وفيما لقيه ، وهو من أولى العزم من الرسل الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، ففي كل واقعة من وقائع حياته عبرة . ولا تكرر بالقدر الذي يتوهمه التالي للقرآن أو المستمع لتلاوته ، ولتقبس قبسات من ميلاده الى جلاده مع فرعون الطاغية الذي كان من أغنى ملوك العالمين ، وأشدهم طغيانا ، ولسنا نحصى كل المواضع بل نذكر ما يتوهم فيه التكرار من قصد لجديد .

(١) أول ما نتجه اليه هو ميلاده ، وما أحيط به من خوارق للعادات ، فقد قال تعالى في سورة القصص « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ، لا تتناولوه عسى أن ينفعنا ، أو نتخذة ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ان كادت لتبدي به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب ، وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ، فرددناه الى أمه كي تقر عينها ، ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » (١)

وفي هذه القصة نجد عدة خوارق للعادات اقتترنت بنبي الله موسى عليه السلام في نسأته . فقد ولد ، فخافت عليه أمه ، اذ أن فرعون اللعين الذي يعد أستاذاً لكل طاغية في الأرض ، كان يرهق بنى اسرائيل ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم لكيلا تكون منهم في القابل قوة تناوىء حكمه ، وترد طغيانه ، ولكن الله تعالى ألهم نفس

أمه الصافية ، أن تصنع له تابوتاً ، وتلقى فيه غلظة كبدها ، وتدفعه الى البحر ، فكان الوحي أو الإلهام صادقا كل الصدق ، مصدقا كل التصديق ، فالتقطه آل فرعون ليكون المصير والمآل أن ينجو ، وأن تكون رسالته عدوا للشرك ، وحزنا على آل فرعون ، إذ أنه سيقاوم فرعون ، ويقتلعه من أرض مصر . وقد وهب قلب امرأة فرعون الرحمة لهذا الملقى في اليم ، وقد ألهم الله أم موسى أن تتقصاه ، حتى تعرف أنه آل أمره الى بيت فرعون ، ويحيى الأمر الثالث الخارق للعادة ، فيمنع الرضيع عن المراضع بأمر الله التكويني ، وتعرف أخته التي تقصت أخباره . فندلهم — وهي المترقبة المترصدة — على من يكفله ، تدلهم على أمه ، وبذلك يرده الله تعالى اليها ، وتخصيصه بنى إسرائيل بظلم خاص . فيقول الله سبحانه « ولما بلغ أشده آتيناه كما وعد ، وهو أصدق الواعدين ، وقد اقتترنت هذه الخوارق بنشأة موسى ، كما تقتزن الخوارق بنشأة كل رسول من رب العالمين ، وقد رأيناها من بعده مقترنة بولادة محمد خاتم الأنبياء ، وآخر لبنة في صرح النبوة ، مما هو مذكور في السيرة النبوية العطرة ، ان سورة القصص يرى التالي لها المتبع للقصة أنها ذكرت بالاجمال ولادته ونشأته في بيت فرعون الى أن أرسله الله رسولا نبياً ، ولاقى فرعون في غزوة المؤيد من الله تعالى ، وفيها ختام حياة فرعون ، وما انتهى اليه من غرق في اليم .

ابتدأت بعد نشأته . ببيان أنه فهم طغيان فرعون ، وظلمه لبنى مصر عامة ، حكما وعالما ، وكذلك نجزي المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . . . فقال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضل مبين ، قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على فلان أكون ظهيراً للمجرمين » (١) .

أدرك موسى بنفاذ بصيرته القدرة على الحكم على الأمور والعلم بمدخلها ، فأعطاه الله تعالى حكمة وعالما وخرج من سجن القصر الى حيث الشعب يتحسس الأمور ، ويتعرف مقتضياتها ، وغاياتها ومآلاتها ، فدخل المدينة في وقت لا يعلم

أهلها أنه من قصر فرعون ، ورأى الاسرائيلي الذي يدل ظاهر الحال على أنه من المظلومين ، يقتتل مع المصري الذي يدل ظاهر الحال على أنه من الظالمين ، فاستنصر به الذي من شيعته على الذي من عدوه وقتله ولكنه ندم ، اذ قتل قبل أن يتبين ، وتاب الى الله ، واعتزم على ألا يعود لمثلها •

ولكن تتكرر المأساة ، وتعاوده رغبته الانتصار لمن هو من شيعته ، فينبهه الآخر الى انه لا يصح أن يكون جباراً في الأرض ، اذ جاء من شيعته من يستنصر به على مصري آخر فيعرفه المصري فينبهه •

عندئذ يحس الطيب الأمين الذي أراد الله تعالى له أن يكون من المصطفين الأختيار • بأنه صار في خطر أن يبطن به فرعون وأعوانه ، وقد جاء النذير بذلك : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى ان الملا يأترون بك ليقتلوك ، فأخرج انى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب • قال رب نجنى من القوم الظالمين » (١) •

خرج من المدائن الى حيث الأمن والاستقرار ، خرج الى الصحراء ، حيث السماء الصافية ، والنور المشرق ، فتوجه تلقاء مدين ، وارتبطت حاله بشعيب كبير مدين . وخاطبه الله تعالى من وراء الشجرة ، وقد آنس ناراً ذهب ليصطفى هو وأهله بها ، فهداه الله تعالى ، وبعثه الى فرعون وقومه ليلقى الطاغى الأول في العالم • وأعطى المعجزة الأولى ، وكانت لأن الله تعالى يخاطبه ، وقد قال الله تعالى لما أتى الى جذوة النار : « فلما أتاها نودى من شاطيء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتزا كأنها جان ولى مدبراً ، ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف أنك من الأمنين ، اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم اليك جناحك من الريب ، فذائك برهاتان من ربك الى فرعون وملائته ، انهم كانوا قوما فاسقين ، قال رب انى قتلت منهم نفساً ، وأخاف أن يقتلون ، وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى أنى أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضك بأخيك ، ونجعل لكما

سلطانا ، فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ، فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين ، وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار ، انه لا يفلح الظالمون ، وقال فرعون يأيها الملام علمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين ، فأجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى ، وانى لأظنه من الكاذبين • واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » (١) •

الى هنا بين القرآن حياة الكليم عليه السلام من وقت أن نشأ رضيعا ، وكيف ملأته عناية الله تعالى ، وهو يتدرج ، حتى صار شابا سويا ، قادرا ، ورأى الظلم عيانا ، وصقلته الحاجة الشديدة ، حتى صاح ضارعا الى ربه « انى لما أنزلت الى من خير فقير » فصار من تربي فى ترف فرعون فى حاجة الى عيش المكاف ، ووجده فى أن يكون أجيرا لشعيب بمهر احدى ابنتيه ، فالتقى فيه ترف النعمة ابتداء حتى زهد فيه ، لما تأشب حياته فيه من احساس مرير بالظلم فأقبل على الشعب يعيش فى وسطه عيشا مريرا ، ولكنه هنىء ، وحياة لاغبة ، ولكنها فى راحة الضمير والوجدان •

عندئذ بدأت أرهاص النبوة ، ثم كانت الرسالة ، وشعر بشدة التكليف ، لأنه سيكون فى مواجهة فرعون الذى قتل من قومه نفسا ، والتقى فرعون بطعوائه ، وجهله ، فحسب أن الله فى السماء الدنيا ، وأراد أن يتخذ الأسباب الارتفاع اليه • ومع جهاه بالحقائق الالهية استكبر هو وجنده ، فكأن الجند فى جانبه ، والشعب ليس فى جانبه ، أو هو مغلوب على أمره لا يحرك ساكنا حيث يجب أن يتحرك ، ولا يدفع ظلما يجب أن يدفع ، ثم نزل العقاب بفرعون وجنده ، فألقوا فى البحر • هذه قصة موسى رضيعا ، فشابا قويا ، فأجيرا فتيا ، فمبعوثا نبيا ، فمجاهدا مجادا ، حتى أدال الله تعالى من الطاغى المتعطرس •

٧٧ - جاء بعد هذا الاجمال تفصيل لما ذكر بالاجمال من الوقائع ، وكان في

التفصيل ذكر للنعم التي أنعم الله بها على موسى •

وأول تفصيل كان في ذكر التأهب للقاء فرعون ، فقد توقع أنه سيلقى عنفاً ، وما ذكر من بعض التكرار فلأنه لا بد منه ليقوى موسى على اللقاء ، وليذكر بالنعم التي أنقذته سابقاً ، ليعلم أن الله تعالى معه ومؤيده ومنقذه ، ذكره بنعمه عليه رضيعاً ثم كيف ابتدأ التكليف ، ثم كيف استعان بأخيه ، ثم كيف استعد للقاء الرهيب ، اذ قال : « رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ، واحط عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واحمل لي وزيراً من أهلي هرون أخي ، أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً انك كنت بنا بصيراً قال قد أوتيت سؤالك يا موسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى » (١) ثم ذكره بعظم منته السابقة ليتأكد أن الله تعالى مؤيده بنصره ، وليعلم أنه مهما يكن أمر فرعون ، فإن الله تعالى لن يمكنه منهما •

ثم جاء التكليف بالرسالة ومخاطبة فرعون نتيجة للآيات التي ذكرها أولاً ، ثم ذكرها ثانياً ليربط التكليف بها ، وهذا نص التكليف الخطير : « اذهباً إلى فرعون انه طغى ، فقلوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالوا ربنا ، اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافنا اننى معكما أسمع وأرى ، فأتيناها ، فقلوا له انا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى اسرائيل ، ولا تعذبهم ، قد جئتاك بأية من ربك . والسلام على من اتبع الهدى » (٢) •

وفي هذا النص دعاهم الى التقدم برقيق القول ارشاداً لسبيل الدعوة ، اذ هي تكون بالتي هي أحسن ليلين الطاغى وليسكن النافر ، وقد أبدى الله سبحانه الخوف من أن يطغى ، فوعدهما سبحانه بأنه سيكون معهما ، وقد سبق القول ، بسابغ نعمه ، وصادق وعده ، وكان لابد من ذكر ذلك عند دعوتهما الى ذلك الاقدام الخطيرة وقد كانت اجابة فرعون أن سألهما عن ربهما فأجابا قائلاً أهدهما ومصدقاً من



الآخر : « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يصل ربى ولا ينسى ، الذى جعل اكل الأرض مهذا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم أن فى ذلك لآيات لأولى النهى .. » (١) .

وأخذا يذكران أسباب الهداية مبينين حقائق الوجود كله ، ولما تقدم موسى له بالعصا التى قلبت شعباناً مبيناً وقال سبحانه « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » لم يفكر فرعون الا فى سلطانه ومن استرقهم ، فقال : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينك بسحر مثله ، فأجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى (٢) » . التقى السحرة وموسى ، ووقعت المعارك بين الحق يؤيده الله ، والسحر يؤيده الباطل ، والله يطمئن عبده الرسول وقد رأى السحرة فيقول له : « لا تخف انك أنت الأعلى » (٣) .

وقد كانت نتيجة المعركة بين الحق والباطل أن خر السحرة ساجدين لله ، وهنا تتجلى الحقيقة ، وينجلي الفداء فى سبيل الحق والظغيان الفرعونى الذى يستكثر أن من المصريين من يذعن الحق قبل أن يأذن الطاغوت الأئيم ، وينذر بالعذاب العسير ، وقال « آمنتم له قبل أن آذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر تلاقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » (٤) .

وهنا تتجلى قوة الايمان لأنه اذا سكن القلب ، واطمأنت به النفس هان تهديد العباد ولو كان من فرعون ذى الأوتاد ، « قالوا لن نؤترك على ما جاءنا من البينات والذى غطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا ، أنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ، انه من يأت ربه مجرمًا فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا » (٥) .

(٢) طه : ٥٧ - ٥٨

(٤) طه : ٧١

(١) طه : ٥٠ - ٥٤

(٣) طه : ٦٨

(٥) طه : ٧٢ - ٧٥

وينتهي هذا الجزء من قصة موسى وفرعون بأنه مقصد قائم بذاته ، وهو تفصيل اللقاء بين الحق يؤيده الدليل ، وبين الباطل يؤيده الطاغوت ، وفيه قوة الايمان عند المؤمن ، وما جاء من ذكر لألاء سبق بيان فيها ، فلكى يتخذ من التأييد الأول والوعد به وصدق الوعد دليلاً على صدق الوعد الجديد، وقد اشتمت الشديدة.

### الدعوة في اوساط الشعب :

٧٨ - سرت الدعوة بين المصريين سريان النور في الظلمة ، ومع قوة فرعون الطاغية سرت الدعوة بين الشعب ، بل كان من ملا فرعون نفسه من آمن ، ودعا الى الايمان ، وتجرى المجاورة في ربوع مصر حاضرها وريفها ، وفرعون يردد ويبرق ، ويهدد ، ولا مستمع يستمع ، لان الحق أبلج ، فإله تعالى يقول عنه : «فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين الا في ضلال ، وقال فرعون ذروني أفتتل موسى وليدع ربه ، انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ، وقال موسى انى عدت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذباً فعليه كذبه ، وان يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ، قال فرعون ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيلاً الرشاد ، وقال الذى آمن يا قوم ، انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب • مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد ، ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ، ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » (١) •

استمرت المجاوية بين الذين آمنوا وبين فرعون ، وكان فرعون ومن معه يصدون عن سبيل الله تعالى . والذين آمنوا يدعون الى سبيل الرشاد « وقال الذى آمن يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار » الى قوله تعالى « ويا قوم ما لى ادعوكم الى النجاة ، وتدعونى الى النار ، ندعونى لاكفر بالله واشرك به ما لى به علم وانا ادعوكم الى العزيز الغفار ، لا جريم انما تدعوننى لئى لى به دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وان مردنا الى الله ، وان المسرفين هم اصحاب النار ، فستذكرون ما اقول لكم ، واغفوض امرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد ، فواقه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بال فرعون سوء العذاب (١) .

استمرت المجاوية بين الحق والباطل ، فى داخل الشعب المصرى ، وبين آل فرعون والمؤمن ، ولعله — والعلم لله وحده — ان الذين آمنوا من آل فرعون وأهل مصر عدد قليل كالذين آمنوا بمحمد من بعد قد كانوا عدداً قليلا ، ومن الضعفاء ، فكان لا بد من هجرة موسى من مصر ، كما هاجر محمد من مكة الى المدينة ، وكان معه الذين اتبعوه باحسان ، ونالهم ما نالهم من الأذى .

### خروج بنى اسرائيل وموسى من مصر :

٧٩ — كان أتباع موسى عليه السلام من بنى اسرائيل الذى جاء لاستنقاذهم ، وبعث للدعوة الى الوجدانية أولاً ، واستنقاذ المظلومين من الظالمين ثانياً ، فكان لا بد من الهجرة ، ومن أراد أن يلحق بهم من المصريين .

لقد جاء الأمر بالهجرة وأن تكون ليلا ، كما كانت هجرة محمد عليه السلام خفية ، وقد ساق سبحانه وتعالى قبل الخروج قصة الدعوة الموسوية ، وما لاقته من فرعون وشيعته . ولينبتن انه لا أمل فى ايمان غير الذين آمنوا من قبل ، لذلك جاء الأمر بالهجرة كما جاء بعد ذلك الأمر بالهجرة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى فى ذلك : « وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى ، انكم متبعون ، فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وأنهم لنا لغاظون ، وانا

لجميع حذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ، فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون ، قال كلا ان معى ربى سيهدين ، فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فما انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخريين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخريين » (١) •

انتهى أمر فرعون بهذا الاغراق . ولكنه لما أوشك على الغرق جاء اليه الايمان متأخراً ، فكانت المعجزة أن الله أبقاه مثلاً للآخريين وان الله يقول مفصلاً مهلكه من غير تكرار ، وان ذكر المقدمات مفصلاً ، قال سبحانه : « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى اذا أدركه الغرق قال ، آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت من قبل ، وكنت من المفسدين ، فالايوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » (٢) •

انتهى فرعون ، ونلاحظ هنا ثلاث ملاحظات :

أولها : أن فرعون كان دائماً يذكر جنوده على أنهم الذين يوالونه في طغيانه ، ويمالتونه في عدوانه ، وينصرونه ، والشعب لا يذكر في مقام المناصرة لفرعون •

وثانيها أن الذين آمنوا من الشعب عدد لا يكون كثرة تهزم ملك فرعون ، واذا كانوا كثرة لم يذكروا مع فرعون لأنهم فريسته ، فلم ينصروا بكثرتهم دعوة موسى ، وكانوا كسأنهم فيما يتعلق بما ووكهم ان خالفوا الحق نافق منهم من ينافق ، وتملق من يتملق ، والشعب وقف موقف النظارة ، ولذلك كانت الهجرة اذ قل النصير المؤبد ، وكثر العدو المناهض •

ثالثها : أن الله تعالى أجرى على يد موسى معجزات تتصل بمصر الزراعية كما ذكر في سورة الأعراف ، لقد ذكر في السورة موسى وفرعون ، وذكرت هنا كما ذكرت في غيره العصا والسحرة وكررت لأنها المعجزة الكبرى التى تحدى بها ، كما

كان القرآن الكريم يذكر كثيراً في القرآن لأنه المعجز كبري التي جاء بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد اختبر الله تعالى آل فرعون بمعجزات زراعية تتعلق بالزرع والضرع ، فقال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا انما طأثرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا ما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فارسلنا عليهم الطوفان والنجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينجثون • فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين » (١) .

وهكذا توالت المعجزات حتى بلغت تسعاً ، كما قال تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم ، فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر ، وانى لأظنك يا فرعون مثبورا ، فأراد أن يستفزههم من الأرض ، فأغرقناه ومن معه جميعا ، وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض ، فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيئاً ، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشراً ونذيراً » (٢) .

هذه قصة موسى مع فرعون ومع أهل مصر قد ذكرنا جزءاً منها ، وهى فى فصول متعددة من أجزاء القرآن الكريم ، ونلاحظ مع بلاغة القصص وقوة تأثيره الذى قد نتكلم عليه من بعد ، أنه لا تكرار فى جزء من القصة فلا يكرر جزء بمعناه فى آيات واحدة ، بل يذكر أيضاً بمعناه فى آيات أخرى ، وان كل جزء من القصة اتجه فى معناه وجزئياته ، وغاياته ومراميها الى مقصد بل لكل جزء معنى سبق له لم يسبق له غيره ، واذا كانت بعض العبارات أو المعانى تكررته ، فان ذلك لبيان المقصد الأسمى

(١) الاعراف : ١٣٠ - ١٣٦

(٢) الاسراء : ١٠٤ - ١٠٥

في الجزء - عمثلاً رأينا في لقاء موسى لفرعون ذكرت عبارات النعم وهو رضىيخ ، وكيف سهل الله سبيل العيش الرغيد ، ليبين له سبحانه أنه معه في لقاء فرعون ، كما كان مع أمه في القائه في اليم ، ليلقى فرعون وهو رابط الجأس ، وهكذا نجد تكرار بعض المعاني ، لأنها ذكرت في موضعها الأول مقصودة ، وذكرت في موضعها الثاني تمهيداً لتصدده ، وتثبيتاً لمغراه ، فالتكرار لم يكن لمجرد التكرار ، بل هو تجديد للمعاني ، وليس ترديداً ، والفرق بين التجديد ومجرد التردد أن التردد يكون تكراراً لا غاية لها ، أو يكون لمجرد التوكيد ، أما التجديد في تكرار اللفظ فإنه يكون لغاية بعده لا تتم الا به .

### موسى مع بنى اسرائيل :

٨٠ - قد قسمت قصة موسى في القرآن الى قسمين : أحدهما ما كان وهو في مصر يجاهد فرعون ويجالده ، وقد أشرنا فيه الى أنه لم يكن يتكرر الا لتجديد الأمر ، اذ يكون تمهيداً للمقصد من الجزء لا يتم البيان الا به ، أو هو مقدمة يتلوها الجزء الذى سبق له القول ، وكان لقصد غير الأول .

أما القسم الثانى فهو ما كان بعد الهجرة الى الطور ، وصار موسى مع بنى اسرائيل ، وقد ظلموا من فرعون وجنده ، وفي هذا القسم تلقى الألواح وعلم التوراة ، ولأقى المرارة فيها من بنى اسرائيل وضعفهم وتقليدهم كما لاقى من قبل الجهاد مع فرعون .

وفي قصة بنى اسرائيل مع موسى عليه السلام يتبين ما يكون عليه قوم قد مردوا على الخنوع ، وضعفت ثيهم النفوس ، واستمرعوا الهون من الحياة ، ورضوا بالماكان الدون واستقروا فيه .

انتقل بهم موسى عليه السلام الى الطور ، فأرسل الله لهم السلوى والمن طعاما ، وأظلم الله تعالى عليهم بالعمام حتى لا تالفحهم شمس الصحراء ثم توالى عليهم النعم وتوالى خوارق العادات ، ولقد ذكرت الآيات القرآنية في أول سورة البقرة بعض أخبارهم ، فقال تعالى :

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على

العالمين (١) ، وابتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ، واد نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويسنحون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، واذ فرقنا بكم البحر ، فأنجيناكم ، وأغرقنا آل فرعون ، وأنتم تنظرون ، واذ وعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده . وأنتم ظالمون ، ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ، واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . واذ قال موسى لقومه ، يا قوم ، أنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذكماً خيراً لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، انه هو التواب الرحيم ، واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى ترى الله جهرة فاخذتكم الساعة وأنتم تنتظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ، وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً ، وادخلوا الباب سجداً ، وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين ، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . واذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرأ ، فان لكم ما سألتهم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباعوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون ، ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ثم توليتهم من بعد ذلك ، فلو

(١) هو تفضيل نبي ، وليس تفضيلاً ذاتياً ، وذلك لان الله اختارهم بقيادة موسى لمقاومة فرعون ، ولانه أفضلهم واختار بعض الانبياء منهم ، وقد عصوا فأنكروا نعمة الله فاستحقوا

خصل الله عليكم ورحمته اكنتم من الخاسرين • ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ، فمناهم من كونوا قردة خاسئين ، فجعلناهم نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين واذ قال موسى لقومه ، ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة ، قالوا أنتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين • قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي : قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون • قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقح لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي أن البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون ، قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لا شية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون • واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكيم آياته لعلكم تعقلون ، ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون (١) صدق الله العظيم •

وفي هذه النصوص السامية المعجزة المحكمة نجد القرآن الكريم يذكر بنى اسرائيل بأن الله تعالى خصهم بنعم لم يعطها غيرهم ، وأنه فضلهم في عصرهم بأن جعل منهم الذين يقاومون طاغوتاً من أعظم طواغيت الأرض ، وخصهم بكثرة المعجزات التي تجرى على أيدي نبيهم الذي هو من أولى العزم من الرسل ، وأنه سبحانه جعل من ذرية يعقوب أبيهم أنبياء كثيرين ومرسلين ، ومع هذه النعم المتصافرة ، والآيات المتكاثرة يكفرون بالنعمة ويبطرون معيشتهم ، ويتخذون تفضيل الله لهم تفضيلاً نسبياً في عصرهم ذريعة للكفر بالنعمة ، لا نشكرها ، وان الله قد أخذ عليهم الميثاق ألا يعبدوا غيره ولا يؤمنوا الا به ، ولكن نفوسهم التي مردت على التقليد والخنوع للقوى ، سولت لهم أن يعبدوا العجل ، كما كان يعبده المصريون ، وفعلوا ذلك تقليداً ، وخضوعاً للأهواء ، وتركوا وراءهم ظهرياً أوامر الله تعالى الذي أنقذهم من ظلم فرعون الذي كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ويأمرهم الله تعالى



بأن يدخلوا متطامنين خاضعين فيحرفون كلام الله تعالى عن مواضعه ، وبين الله تعالى عليهم بخير الطعام ، وأطيبه فيأخذهم الألف الى ما دونه ، ويستبدلون الذي هو أدنى بالذى هو خير ، لأنهم خاضعون لأهوائهم غير مستطييين لرزق ربهم ، ويرون المعجزة نهراً ، وينعمون بها ، اذ يطلبون الماء فلا يجدونه فيأمر الله نبييه موسى الكليم بأن يضرب الحجر بالعصا ، فينبعث اثنتى عشرة عيناً ، ويكون لفرقهم الاثنتى عشرة مشاربهم « قد علم كل أناس مشربهم » (١) •

ومع هذه النعم المتوالية والآيات البيّنات الباهرة يأمرهم الله تعالى بالطاعات ويأخذ عليهم الميثاق ، ويؤكدده بأن يرفع عليهم الطور حتى يصير كأنه ظلّة فوقهم تأكيداً للميثاق بالآية التى اقتترنت به ، ومع ذلك لا يطيعون عامدين ، اذ يتولون معرضين عن ذلك البيان الموثق ، لأنهم قد طبعوا على الجحود ، وكانوا مضرب المثل فيه ، واذا كانت الآيات قد تضافرت بالبيان عليهم ، فان الله تعالى جعل فيهم ومنهم آية بيّنة تدل على أن الجحود لا ينشأ عن نقص الدليل ، بل يكون مع تضافر البيّنات ، فتزيدهم الآيات كفراً وعناداً •

وان الله تعالى يأمرهم بيوم السبت لكى يكون لهم راحة واستجماما ، وأن ينتعدوا فيه عن المادة ويعكفوا على أنفسهم يهذبونها ويفطمونها عن دواعى المادة ، فيذهب شرهم المادى ، ورغبتهم فى طلب المادة الى أن يعملوا فيه شرها وطمعاً فيمسخ الله تعالى نفوسهم قرده تنزوا مثلها ، وخنازير تطلب الخسائس طلبها •

« ان الله تعالى يختبرهم فى ايمانهم بأن يذبحوا بقرة ، ولكنهم تأثراً بالمصريين وما كانوا عليه من عبادة العجل ، يترددون فى ذبح البقرة فيجادلون فى ذبحها متجاهلين أمرها ، ولو أتوا الى أى بقرة فذبحوها لكان فى ذلك الاستجابة الكاملة ، ولكنهم يثيرون الريب حول الطلب ، سألوا عن حقيقتها ، وعن كونها صغيرة أو كبيرة ، فأجيبوا ، ثم سألوا عن لونها ، فأجيبوا ، ثم سألوا عن كونها متخذة معلوفة للنماء

والتوالد ، أم هي ذلول عاملة ، فذبحوها وما كادوا يفعلون تقليدياً للمصريين وتأثراً بأفكارهم ، وأوهامهم في دينهم •

هذه قصة بنى اسرائيل في تلقيهم لأوامر الله تعالى ، وما جاء من القرآن خاصاً بهم في عهد موسى عليه الصلاة والسلام ، فهو لمقاصد أخرى من أجزاء القصة كما ذكرنا في قصة موسى ذاته •

### بنو اسرائيل والأرض المقدسة :

٨١ — لم يكن بنو اسرائيل في عهد موسى الا قوما أذلهم الخضوع وضربت عليهم الذلة ، وأرمرضتهم الطاعة الذليلة التي كانت رقاً أو ما يشبهه ، وقد بدا ضعف نفوسهم في عهد موسى ، فقد أراد أن يدخل بهم الأرض المقدسة ، فضعفوا ووهنوا ، وتلمسوا لأنفسهم المعاذير ، وما هي الا معاذير المستكين المؤثر للاستكانة ، والرضا من الحياة بأدائها •

طلبهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يدخلوها ، ولنسمع الى كتاب الله تعالى يحكى حالهم من الجبن والخنوع والذل •

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكاً ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تترددوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون • قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه ، فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى أنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون • قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين • قال ، فانها محرمة عليهم أربعين سنة • يتيهون في الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين (١) » •

هذا نص القرآن الكريم في قصة جبن اليهود وتخاذلهم عن أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله سبحانه وتعالى عليهم أن يدخلوها ، ويجب أن ننبه هنا الى أن المراد أن الله تعالى كتب عليهم أن يدخلوها ، لا أنه كتبها لهم ملكاً دائماً مستمراً باقياً ، يطالبون بحقه ، وان ذلك هو مفهوم الكتابة ، ويستفاد من النص الكريم ذلك ، أن النص الكريم ليس فيه أنه كتبها لهم ، بل كتب فقط عليهم أن يدخلوها ، اذ يقول سبحانه عن طلب موسى منهم الدخول : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » فالكتابة التي فرضها الله تعالى هو الدخول وهو واجب وليس بحق ، فلم يكتب لهم أرضاً ، بل فرض عليهم أمراً بدليل عودة الضمير على الدخول المكتوب لا على الأرض •

وان منطلق الاحداث يوجب عليهم أن يدخلوها ، ليقيموا فيها شعائر الموسوية ، اذ أنهم خرجوا من مصر لعدم صلاحيتها لأن تقوم فيها شرائع موسى ، كما لم تصلح مكة ، لأن تكون موطن الشرع الاسلامي الا بعد تحطيم الأوثان ، وأن يمنع المشركون من دخولها ، لأنهم تجس لا يدخلون المسجد الحرام بعد عامهم •

وان دخولهم فيها كان لأجل اقامة التوراة فيها ، وجعلها الحكم الذي لا ترد حكومته ، وما كانت لذواتهم ، فلم تكن لأنهم بنو اسرائيل ، بحيث يكون الاستحقاق ذاتياً ، أو ميراثاً يرثه الأخلاف عن الأسلاف ، وقد انتهى عهد موسى ، وانتهى شرعه ، وحالت أحوالهم ، وتغيرت أمورهم وليست الأرض ميراثاً يؤخذ ، انما الأمر هو الدخول لاقامة الشريعة الموسوية ، وقد نسخت بشريعة محمد ، فصارت الخلافة النبوية الى محمد خاتم النبيين ، فقومه الذين يقيمون شرع الله هم أهلها ، والذين يجب عليهم أن يدخلوها آمنين مطمئنين ، فليست أرض الله ميراثاً يورث للذوات ، انما هي مقام الشرع الناسخ لا المنسوخ •

ويلاحظ من بعد ذلك أمور ثلاثة قد أشارت اليها الآيات الكريمات :

أولها - أن الاسترخاء والضعف النفسي قد أصابهم بسبب ترفهم أولاً ، واستضعافهم ثانياً ، وطغيان فرعون في حكمهم ثالثاً ، وبأنهم حرموا حب الفداء ، واذا حرم قوم حب الفداء هانت عليهم أنفسهم ورزقوا الوهن ، وكذلك بنو اسرائيل ،

فقد خافوا من غير مخوف ، وماتت فيهم النخوة ، كما تدل الآيات الكريمةات •  
وثانيها — أن ضعفهم أفقدهم قوة الايمان ، والشك في حكم الديان حتى انهم  
ليقولون لموسى عليه السلام « اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون » • وذلك تهكم  
يدل على وهن ايمانهم ، كما وهنت نفوسهم •

وثالثها — أن الأمم لا تتربى الا بتعود خشونة العيش ، كما تعودت نعومتها ،  
وأن تذوق جشبهه كما ذاقت حلاوته ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى أنه لا يمكن أن  
يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله تعالى أن يدخلوها قال « فإنها محرمة عليهم  
أربعين سنة يتتيهون في الأرض » •

وهذا كما يبدو من الآية تحريم كوني ، أي أنه لا يمكن أن يستطيعوا الدخول  
الى الأرض المقدسة مقاتلين مجاهدين الا بعد أن يذهب عنهم ذل الوهن ، ويأتى  
جيل جديد قد ذاق طعم الشدة ، وعلم الحياة نضالا ، ولم يعلمها استكانة وضعفاً ،  
والتقدير بالأربعين ، لا أحسب أنه يقصد به العدد ولكن يقصد به الكثرة التي تغشىء  
جيلا تربى في شظف العيش وصلابة الحياة وقسوتها •

ولقد أخذ هذه الحقيقة القرآنية ابن خلدون ، وجعل أساس قوة الأمم شدة  
الحياة وصلابتها ، فانها اذا استرخت أبدل الله منها بقوم أولى بأس شديد تربوا في  
البداءة ، وذاقوا بأساءها •

## ٢ - فحوص القرآن لون من تصريف بيانه

٨٢ - ذكرنا أن البيان القرآنى فيه تصريف القول على ألوان متعددة متباينة في حقيقتها متلاقية في غايتها ، ولا يمكن أن يكون لكلام بشر مع سمو البلاغة ، وبلوغها المقام الذى لا يناصى في كل أصنافها ، بل لا يمكن أن يبلغ الغاية في صنف واحد من أصنافها ، وقد ذكرنا ما في القرآن من اطناب من غير تكرار ، وذكرنا ما يتوهم فيه التكرار في القصص وبيننا أنه لا تكرار يعد ترديدا ولو على سبيل التوكيد ، انما ما يتوهم فيه التكرار انما هو تجديد المعنى لغاية أخرى ومقصد آخر ، وكان الذكر لما يتوهم تكراره فيه كمال المعنى ، ولا يمكن أن يستغنى القول عنه ، انما التكرار المردود يكون فيما لو حذق المتوهم تكراره ما نقصت الغاية ، وما اختل بيان المقصد ، وتكرار القرآن ليس على هذا بل هو تكميل لا بد منه ، وتنمिम لا يستغنى عنه ، وذلك يكون في القصص ، وفي الاستدلال بآيات الله تعالى الكونية ، على وحدة من خلق وكون وأبدع ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال • •

والآن نذكر القصص القرآنى على أنه لون من تصريف البيان القرآنى ، وتغير أشكاله كما ذكر الله تعالى في القرآن ، ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل •

ان القصص القرآسى فيه العبرة ، وما ذكرت قصة الا كان معها عبرة أو عبر ، وفيها المثالات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم ، وفيها بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور ، والجبابرة الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ، والله من ورائهم محيط •

وان القصص فيه ايناس صاحب الرسالة المحمدية بأخبار أخوانه من المصطفين الأخيار ، واثبات قوله ، ثم قد كانت تلك الأخبار الصادقة ما كانت لتعلم الا لمن شاهد ، وما شاهد أحداثها وهو لا يزال في بطن الغيب ، كما قال سبحانه وتعالى عقب قصة مريم : « وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم ، اذ يختصمون » (١) • وكما قال في قصة موسى عليه السلام ووقائعها ، فقد قال تعالى :

« وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قروناً ، فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين يتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور ، اذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك لتتذرن قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يذكرون » (١) •

لم يكن محمد مشاهداً للأحداث التي جاء القرآن الكريم بقصصها ، وهي صادقة ، وثابتة في الصادق من أخبار النبيين في كتبهم التي يتداولها أهل الكتاب ، ولم يتناولها التحريف •

ولم يكن بمكة مدرسة لاهوت ، بل لم يكن بمكة يهود ، ولا نصارى الا خمارة الحدوا بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ منه كذباً وبهتاناً ، فقال الله تعالى رداً عليهم « لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » (٢) •

وكانت مكة بلداً أمياً ، ليس به علم ولا رياضات ، الا مباريات رياضية في البيان ، وكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك اذا لا رتاب المبطلون » (٣) •

لذلك نقول : ان القصص القرآني ذاته فيه اعجاز ذكره الكتاب جاء على لسان أمي لا يقرأ ولا يكتب ، اذ هو النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل •

ويتساءل أي تال للقرآن من أين جاء محمد بهذا القصص الحق ، وهو لم يشاهد وقائعه ، ولم يقرأها ، لأنه لم يكن قارئاً ، انه من عند الله العزيز الحكيم علام الغيوب ، وبذلك كان القصص الصادق من التحدي •

التصريف البياني في قصص القرآن :

ذكر الله تعالى الحقائق الاسلامية في القصص ، فلم يكن عبرة فقط ، بل كان

(٢) النحل : ١٠٣

(١) القصص : ٤٤ - ٤٦

(٣) العنكبوت ن ٤٨

بيانا لعتائق الاسلام ، فتجد فيه بيانا لعقيدة التوحيد ، والبرهان عليها جاء في سياق القصص عن النبيين السابقين • فقد رأيت في قصص سيدنا ابراهيم عليه السلام ، كيف كانت الدعوة الى التوحيد ، وكيف أبطل عبادة الأوثان بأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنه جعلها جزاءً الا كبيراً لهم • وأنهم أرادوا عقوبته بالحرق بالنار ، فجعلها الله تعالى برداً وسلاماً على ابراهيم •

واقراً بعض القصص عن سيدنا نوح الأب الثاني للبشر ، تر الأدلة على التوحيد بأن تجد في بعضها أدلة التوحيد تساق الضالين ، ويوجه أنظارهم الى الكون وما فيه ، فقد قال تعالى :

« قال يا قوم انى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه ، وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم الى أجل مسمى ، ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ، قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم دعائى الا فراراً ، وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً • ثم انى دعوتهم جهاراً ثم أنى أعلنت لهم وأسرت لهم أسراراً ، فقلت استغفروا ربكم انه كان غفراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهاراً ، ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طياتاً ، وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً ، والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخركم اخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » (١) •

ألم تر في هذه للنصوص السامية تسلية واضحة للنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ فيها بيان ما لقيه نوح ، وكيف كانت الأدلة القاطعة لا تزيدهم الا نفوراً من الحق وقراراً من اتباعه ، واصراراً على الباطل ، وفي كل ذلك عزاء للنبي صلى الله عليه وسلم لثلاث تذهب نفسه حسرات على كفر الكافرين وجحودهم بعد الأدلة القاطعة •

ومع هذا العزاء الروحى ، والعبرة التى تريح الدعاة الى الحق ، نجد في السياق

البرهنة على التوحيد ، وأن الله تعالى وحده هو الخالق ، وأنه بالتالى المستحق للعبادة وحده ، فلا معبود سواه •

وسوق الأدلة على التوحيد فى سياق قصة ، يجعله يسرى الى النفس من غير مقاومة ، وتكراره يجعله يخط فى النفس خطوطاً ، وتتعمق الخطوط فيكون الايمان • وانك لترى الدعوة الى التوحيد واضحة فى قصة يوسف عليه السلام ، فهو فى السجن يدعو الى التوحيد وعبادة الله وحده ، ويجعل سلواه ، وهو فى السجن الدعوة الى الوجدانية ، وسوق الأدلة ، فالله تعالى يحكى عنه أنه يقول لصاحبه فى السجن : « قال لا يأتىكما طعام ترزقانه الا نبأكما بتأويله قبل أن يأتىكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ، ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبى السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » •

انظر الى الاستدلال القيم على أن الواحد الأحد ، خير من أرباب متفرقين ، بينه العقل فيهم ، وأنهم لا حقائق لهم تتعلق بالألوهية ثم يذكر ذلك عقب أن بين تأويل ما عجز عنه المؤلون من رؤى ، وقال انه قد علمه ربه •

ثم انظر الى هذا القصص وذكر التوحيد يجيء فى أثناء السجن بسبب فرية نسائية افترينها عليه ، ويجيء فى وسط قصة نسوة المدينة ، انه يكون طريفاً ، فيكون له تأثير أقوى وأشد •

٨٤ - وليس القصص القرآنى فيه اثبات أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وبطلان عبادة الأوثان التى هى أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، بل فيها اثبات الوجدانية أمام الذين يدعون ألوهية المسيح عليه السلام •



واقرا قصة عيسى عليه السلام ، فان فيها الدليل على أنه ليس الا عبداً لله تعالى ، ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك : « يا همل الحساب ، دعوا في دينكم ، ولا تعوبوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وحلمته الها الى مريم وروح منه فامنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا نلانه اننها حيرا لحم ، انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الارض ، وخفى بالله وكليلا ، لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستنكبر فسيجزيهم الله بما يشاء » (١) .

ونرى من هذا أن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقتترن ببيان وحدانية الله ، واتبات بطلان أن الله تعالى ثالث ثلثته ، وساق الدليل ، وهو أن الله تعالى خالق كل شيء وله كل ما في السموات والأرض ، وصلة كل مخلوق كمثله وان اختلف طريق غيره فصلة المسيح عليه السلام بالله من حيث الخلق والتكوين كصلته بأى مخلوق سواء ، ولا يؤثر في هذه الصلة التكوينية أنه عبد ممتاز ، وأنه رسول من رب العالمين ، وان كانت طريقة تكوينه أنه وجد من غير أب ، فان ذلك لا يجعله الها أو ابن اله ، كما قال تعالى في مقام آخر فيه اشارة الى قصة عيسى ، اذ قال الله تعالى « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون (٢) » .

وأقرأ قصة أخرى لسيدنا عيسى عليه السلام ، فقد قال الله تعالى : « وحسبوا الا تكون فتنة فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون ، لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، وأما النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم الا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم

(١) النساء : ١٧١ - ١٧٢

(٢) آل عمران : ٥٩

الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ظمراً ولا نفعاً ، والله هو السميع العليم » (١) .

وهنا نجد الرد على من يجعلون المسيح الها، لقد نفى الدعوى من أصلها اذ بين أن المسيح الأمين لم يدعها ، ولا يمكن أن يدعيها فقد كان هو داعياً الى التوحيد ، نافياً للشرك بربوبية الله ، وأنه كسائر الناس مخلوق وأن الله ربه كما هو رب الناس جميعاً ، وبين سبحانه بطلان دعوى الأنوهمية له ولأمه بأنهما محتاجان ، ويأكلان الطعام كسائر الناس ، والله تعالى غنى لا يحتاج ، وليست له صفة الحوادث من طعام وغذاء ، وبين ثالثاً أنه لا يضر ولا ينفع الا بإذن من الله تعالى خالقه من غير أب ، وأنه من بعد ذلك عبد لا يستتكف ولا يستكبر . ونرى أن نفى التثليث واثبات بطلانه بالدليل ، جاء في ضمن قصة ، فكان تصريحاً في الاستدلال ، اذ أن سوق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سريانا في النفس ، وانسياباً في أطوائها .

### الحث على المعاملة الطيبة في القصص :

٨٥ - وأنه مما جاء في القصص أن دعوة النبيين عليهم الصلاة وأتم السلام جاءت للخير الى حسن التعامل ، واصلاح الأرض ، وأن اصلاح الأعمال والنفوس ومنع الفساد في الأرض من أعظم المقاصد في الشرائع السماوية بعد عبادة الله تعالى ، والايمان باليوم الآخر ، واذا كان ذلك في ضمن قصة استمكننت في النفس واتجهت الى مداخلها من غير تعويق من ملاحاة جديدة ، غير ما كان في عهد النبي الذي ذكرته القصة .

اقرأ قصة شعيب عليه السلام ، فقد قال تعالى « والى مدين أخاهم شعيباً ، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره، قد جاءكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها، ذلكم خير لكم أن كنتم مؤمنين ، ولا تتعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن

سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين • وان كان طائفه منكم آمنوا بالذي أرسلت به ، وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » (١) •

أما ترى في هذا النص القرآني الذي يتضمنه قصة شعيب عليه السلام دعوة صريحة الى ناحية عملية ، تتصل بالاصلاح الاجتماعي ، ومنع الفساد في الأرض ، والقيام بحق الأمانة في التعامل •

وفي موضع آخر من قصة شعيب نجده يكرر الدعوة ، ثم يبين سبحانه كيف تقاوم دعوة الحق بالاصرار على الشر ، وكيف كان الاصرار عليه الى أن يدب الله تعالى بما ينزل بالعصاة ، وبما يؤدي الى فساد أخلاق الأمة ، لقد قال الله تعالى حكاية لقول شعيب : « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعشوا في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ، ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً ، وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » (٢) •

ونرى من هذه المجاوبة أنهم يصرون على ما هم عليه ، ويعدون ارشادهم الى الحق في المعاملة ، تدخلا في شئونهم المالية ، وكأنهم يظنون أن شئون المال لا صلة له بالتدين ، كما يجرى على ألسنة بعض الذين لا يريدون بالدين الحق وقارا ، ويبين سيدنا شعيب عليه السلام أنه اذ ينهاهم ، هو أول من يتمسك بالألا يفعل ما نهى عنه ، اذ يقول عليه السلام : « وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه » وفي ذلك إشارة الى أن من يدعو الى أمر يهدمه ان خالفه في عمله ، وأن الاستجابة الى الداعي الى الخير تقتضى أن يكون الداعي مستجيبا له وهكذا ، فان الله تعالى يأخذ

على بنى إسرائيل ، أنهم يأمرّون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، فقد قال تعالى «أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» (١) .

### ميزان العدالة في الحكم :

٨٦ — ويبين الله سبحانه وتعالى بطريق القصص القرآنى — لأنه من تصريف البيان ، كما أشرنا — أن مقياس الحكم العادل ادراك الحق ، وألا يجعل القاضي أو الحاكم للهوى سلطاناً في الحكم . فان كان الهوى كان الشطط في الحكم ، ومظنة الوقوع في الظلم ، وان كان الحاكم لا بد أن يكون مدركاً للحق فلا بد من عنصر العلم ، وابعاد الهوى .

وأقرأ قصة داوود عليه السلام الذي أعطاه الله الملك والحكمة ، فافقرأ العبارات السامية التالية :

« وهل أتاك نبأ الخصيم ، اذ تسوروا المحراب ، اذ دخلوا على داوود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا الى سواء الصراط ، ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها ، وعزنى في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيراً من الخلاء ، ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داوود أنما غتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راکعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ، يا داوود انا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (٢) .

هنا نجد القصة عن نبى الله داود عليه السلام تتضمن ثلاثة أمور في التنبيه على كل واحدة منها تنبيه الى أمثل الطرق للوصول الى العدل في الأحكام .  
أولها : أنه سبق الى الحكم من غير أن يستمع الى كلام الخصم ، ففضى لأحد

الخصمين ، قبل أن يستمع الى كلام الآخر ، فإن ذلك مدرجة الظلم ، بل قد يكون ظلماً •

ثانيها : أنه لم يكتف بالحكم في القضية المعروضة ، بل عمم الحكم ، والقضاء يكون في القضية المدروسة ، ولا يتجاوزها •

الأمر الثالث ، وهو يفصل التفرقة بين الحكم الظالم والحكم العادل ، أن الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة وأما الحكم الظالم فإنه يكون تحت سلطان الهوى والشهوة وان الملوك والحكام المستبددين يكون مصدر شرهم أهواؤهم ، فهم يتبعون أهواءهم فيما يحكمون به ، وما ينزلونه بالناس ، فهم يسنون النظم تبعاً لأهوائهم ، ويطبّقونها تبعاً لأهوائهم ويجعلون شيعتهم تسارع الى تنفيذ أهوائهم ، ولا يفهمون المصلحة الا تابعة لأهوائهم ، فاذا نهى الله تعالى نبيه داود عن اتباع الهوى وهو خليفة حاكم ، فانما نهاه عما يؤدي الى فساد الحكم ، وبهذا يتبين أن حكم الهوى كان مصدر فساد الحكم في الماضي ، كما هو مصدر الفساد في كل الأزمان ، وذكر ذلك في قصة من قصص القرآن يزيد المبدأ تبيناً وتأكيداً ، وقد بينا أن ذكر أي أمر في قصة يجعله يسرى في النفوس • ويدخل الى الضمائر ان كان فيها استعداد للحق •

ولا شك أن هذا كله يدل على أن القرآن يصرف فيه سبحانه البيان تصريحاً ليكون أقرب الى التأثير والدفع الى العمل ، وليس ذكر القصص للعبرة فقط ، بل هو مرشد وهاد مع ذلك الى أقوم السبيل ، والله أعلم •

#### بيان بعض الأحكام بالقصص القرآني :

٨٧ - من صور التصريف البياني بالقصص القرآني بيان ببعض الأحكام الشرعية ، فإن ذلك يثبت هذه الأحكام ويدعمها ، لأنها تكون أحكاماً متفقاً عليها في كل الشرائع السماوية ، وبيان أنها غير قابلة للنسج ، وأنها مؤكدة ثابتة • وفي القصة تكون حكمة شرعيتها قائمة والغاية منها ثابتة ، ولنذكر من ذلك قصة قابيل وهابيل ولدى آدم •

تقدّم قال الله تعالى فيها : « وأتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال لأمتلئك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الی يدك لتنتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأمتلئك ، انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تبوء بأثمي واثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوء أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوء أخى ، فأصبح من النادمين (١) » .

هذه القصة تثبت أن الغيرة والحسد يؤديان الى الاعتداء ، وأن ذلك يحدث بين أقرب الناس بعضهم لبعض ، وأنه لا علاج للحسد باخراجه من النفوس ، فهو فيها دفين ، نعم انه مرض ، ولكنه مرض لايمكن أن يكون منه شفاء ، والناس ليسوا سواء فمنهم شقى وسعيد .

وإذا كان الأمر كذلك فلا علاج الا ببتن من استكن فى قلبه ان تعدى استجابة له ، والاعتبار فى النظم لصالح الجماعة ، لا لصالح الآحاد فقط ، ولذلك قال الله تعالى عقب ذكر قصة ولدى آدم :

« من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لسرفون (١) » .

وانا لنرى هذا القصاص المحكم قد ارتبط فيه الحكم بسببه ، فهو فى جزء من القصاص ذكر سبحانه ما كان بين الأخ وأخيه من محاربتة فطرة الأخوة الرابطة ، وأنه حمل نفسه حملاً على ارتكاب جريمته ، اذ هى مخالفة للطبائع السليمة ، ولذلك قال سبحانه وتعالى « فطوعت له نفسه » حتى اذا تمت الجريمة رأى بشاعتها فى جثة أخيه ، فأراد أن يواريه فضل ، حتى رأى غراباً يبحث فى الأرض ليوارى جثة غراب مثله ، وعندئذ بدا له جهله ، وندم اذ رأى غراباً هو أحسن على أخيه منه ، وهو أعلم كيف يوارى سوء أخيه .

وما كانت أمور الناس لتترك فوضى ، يجرم من يجرم ثم يندم ، فكانت شرعية القصاص ، لأن الاعتداء بالقتل اعتداء على حق الحياة في كل انسان ، ومن قتل نفساً بغير حق فهو على استعداد لقتل غيرها ففى عمله تعريض النفوس الانسانية لاعتداء المعتدين المفسدين ، ومن أحيأها بالقصاص من القاتل ، فكأنما أحيأ الناس أجمعين ، كما قال تعالى : « ولكم في القصاص حياة (١) » .

وان هذا يدل على أن شريعة القصاص شريعة أزلية خالدة باقية ، وأنها كانت فى الشرائع السابقة ، ولم تخل شريعة من شرائع النبيين الكرام منها ، ولقد ذكرت بحكمتها ، ونتيجتها ، وهى احياء للأمة واهمالها أهانة لها .

ولا شك أن ذلك تصريف بيانى قرآنى فى بيان الأحكام .

وقد جاءت الأحكام أكثر تفصيلا فى بيان القصاص فى الأطراف مع النفس فى قصص عن بنى اسرائيل ، والتوراة وما جاء فيها . ولنتل على القارىء الكريم ما جاء فى ذلك ، وان كنا سنتلوا أكثر مما تلونا من الماضى ولقد قال الله تعالى فى وصف بعض بنى اسرائيل فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم الذين أرادوا أن ينفروا من حكم التوراة فى مجرم ارتكب جريمة لاجئين الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حاسبين أن عنده حكما أخف من حكم التوراة ، لهوى فى نفوسهم . قال تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت ، فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين ، وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ،

والجروح قصاص ، فمن تصدق به ، فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون ، وثفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناها الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه ، فأحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً • فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم • وان كثيراً من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية بيغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون (١) » •

وترى من هذا النص الكريم بياناً للأحكام الشرعية الخاصة بالقصاص في تفصيل محكم مستقر مقنع ، فهو يجعل القصاص في الأطراف ، كما هو ثابت في النفس ، بل انه يثبت القصاص في الجروح ، ويوثق الأحكام بأنها نفذت في الانجيل ، اذ جاء الانجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ويوثقها بأن القرآن مصدق لما جاء في التوراة ، ولكن له هيمنة ، وسلطان ، يبقى ما يبقى ، وينسخ ما ينسخ ، وما يثبت أنه نسخ من أحكامها ، فهو منسوخ ، لأن له الهيمنة الكاملة • وفي القصاص الشرعية باقية • وفي التوراة كما هو في القرآن جواز العفو عن القصاص ، اذ يقول سبحانه فمن تصدق به ، فهو كفارة له • والقصاص ثبت بالقرآن ، فإله تعالى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه باحسان »



هَذَا تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون « (١) »

وهكذا نجد ذكر الأحكام الثابتة التي لم يعترها تغيير ونسخ بطريق القصص نوع من تصريف البيان وتثبيت الأحكام •

## أسلوب القصص في القرآن

٨٨ — قد ذكرنا في القول السابق ما يختص به أسلوب القرآن من صور بيانية وفي ألفاظه فكل لفظ يعطى صورة بيانية ، يناسب المقام الذي ذكر فيه ، ويتجمع من الأسلوب صورة بيانية تكون الصور اللفظية أجزاء فيها ، وإن كان لها صفة الاستقلال ، ومن المجموع تتكون صور تصور المعاني ويكون لها أطراف في اجتماعها وانفرادها •

وذلك ثابت في أسلوب القصص ، كما هو ثابت في كل أساليب القرآن الكريم من غير تخصيص فيها ، بل كلها درجة واحدة يعجز البشر عن أن يصلوا إليها ، فكل لفظ له إشعاع نوراني يشع منه ، وكل جملة ينبثق منها النور الإلهي الذي تنطفئ بجواره كل الأنوار •

ومع هذا فالقصص القرآني باعتباره قصصاً فيه أخبار عن أمم ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم وأشخاص يعاندونهم وإن القصص يمتاز مع الصور البيانية التي تتبع من الكلام مجرداً ، وصور أخرى تصور الأشخاص والوقائع والمشاهد فإذا ذكرت حال شخص صور تصويراً واضحاً كأنك تراه وتشاهده ، والعبارات تصور حاله من خوف ، أو حنان ، أو انزعاج أو جحود ، وكأن المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصوراً متحركاً يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ، ما كان أكثر تصويراً من الألفاظ القرآنية والأساليب في تصويرها •

ولندكر في ذلك بعض ما تلونا من قبل ، لنعيد تلاوة حال أم موسى ، وقد ولدت

ولدها ، وهى تعلم أن فرعون يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، وتضطرها الفطرة  
الملهمة التى كانت بمثابة وحى أو هى وحى لها أن تلقى ولدها فى اليم ، لأنها خير  
لها أنه يلقى لقدر الله تعالى وقضائه من أن يذبح بين يديها ، وهذا ما نعيد تلاوته ،  
وما أطيب القرآن فى إعادة تلاوته « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا  
خفت عليه ، فآلقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى انا راحوه اليك وجعلوه من  
المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما  
كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو  
نتخذة ولدا ، وهم لا يشعرون ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كانت لتبدى به  
لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن  
جنب ، وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل  
بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون » (١) •

ان القصة تزيينا صورة أم مضطربة منزعة خائفة لما أثقلت ألت حملها ، فإذا  
اثقال جديد ، انها تريد نجاته ، فيعلوها الاضطراب والخوف والفرع ، واذ الالهام  
يجيئها بالقائه باليم مع ائلاج قلبها بالأ تخاف ، وألا تحزن ، ومن الله تعالى عليها  
بالاطمئنان بأنه سيعود اليها ، وهكذا يكون الاطمئنان فى موطن الخوف ، والقرار  
فى موطن الاضطراب ، والسكون فى موطن الهلع ، يغيب عنها فلذة كبدها فيفرغ  
قلبها ، ويغلب الفرع على الاطمئنان وهى تغالب حال الفرع بحال الاطمئنان الى أن  
وعد الله تعالى بالاطمئنان ويصطرع الأمران فى نفسها ، يغلب الالهام فطمئن ،  
ويغلب الفرع القلبى فتكاد تبدي أمرها ، وتظهر سرها ، ولو علم به أعداؤه  
وأعداؤها أعداء الله تعالى ، ولكن الله تعالى يربط على قلبها بالصبر وهى تصبر  
وإكبتها لا تسكن بل تتحرك بعمل ، فترسل أخته لتتقصى أخباره ، وتتعرف أحواله  
فترى المعجزة الكبرى ، اذ يمتنع عن المراضع ، حتى يعود الى أمه وتأخذة أخته  
الى الأم التى تضطرب بين اليأس والرجاء ، بين الأمل الباسم والحرمان الدائم •  
أقرأ النص القرآنى ، وتراه مصورا لحال تلك الأم الرعوم ، فهل تجد مصورا

متحركاً أو واقفاً يستطيع تصوير هذه الحال ، ولكنه القصص القرآنى المصور الذى نزل من عند الله تعالى •

٨٩ — ولنعد الى قصة موسى وقد تربى فى قصر فرعون ، حيث الترف والبطر ، وفى جو الغطرسة والسلطان ومن يدعى لنفسه الألوهية ، فهل شعر موسى بما يشعر به المترفون المسرفون ، الذين يستعبدون الناس ولكنه فى الوقت ذاته كان يعيش فى أحضان قومه ، حيث كان على كذب ممن يقتل فرعون أبناءهم ، ويستحيى نساءهم فهو البعيد عنهم بحسه القريب منهم بنفسه ، يعيش معهم ، وان جفاهم فى المسكن والاقامة ، ولذلك كان القريب فى قصر فرعون المستأنس بمن يؤويهم فرعون ، فيعيش معهم •

ولقد بدا ذلك على أكمله يوم أن بلغ رشده ، واستطاع أن يخرج من محبس فرعون فى النعيم ، ويلاقى الحياة التى يلاقيها قومه ، ولقد قص الله سبحانه وتعالى قصصه بعد أن بلغ رشده ، وصار رجلاً سوياً ، فى أسلوب ينم على الرغبة فى الجهاد وتحمل شدايد الحياة ، فيقول سبحانه فى أحسن قصص مصور « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » (١) •

خرج موسى من المحبس ، ودخل المدينة ، وأهلها لا يتوقعون أن يخرج رجل فى ظل القصر ، الى حيث الشعب ، ينازل من ينازل ويسالم من يسالم الى حيث الحياة اللابئة العاملة ، فكان ذلك مفاجأة ، عبر عنها القرآن بقوله على حين غفلة من أهلها ، خرج ونفسه مملوءة غيظاً على الذين كانوا أداة فى يد فرعون يسوم بهم الناس عذاباً ، فوجد مصرياً يقتل واحداً من شيعته فسارع اليه زعمه أنه اليهودى يعتدى عليه ، فاندفع فقتل المصرى • ولكنه وقد استرجع ضميره الذى كان فى غفوة بسبب العداوة المستحكمة بين العنصرين ، وبسبب ما رأى من فرعون ومن معه من جند وأشياع ، وأهل مصر صامتون كدأبهم عندما يرون ظلاماً عنيفاً

صارخاً يتفنون كالنظارة ، لا يتحركون لظلم واقع ، ولا لهم مستحکم مانع •  
وتكررت المأساة بين اليهودى الذى استنصره بالأمس ومصرى آخر فيقوى  
صوت الضمير على استغاثة اليهودى ، ويعلم أنه فرعونى ضال كثير الشكاس ،  
وأن المصرى مظلوم فى معاملته ، ولكنه مع ذلك تغالبه فى نفسه مشاعر ، فيهم بأن  
ييطش بالذى هو عدولهما • وعندئذ نطق المصرى لاثماً ، مذكراً بأنه يريد أن يكون  
جباراً فى الأرض ، وما يريد أن يكون من المصلحين الذين يعملون على الإصلاح بين  
المتخاصمين من غير اضافة اعتداء الى اعتداء ، ويقول له فى عتب لاثم « ان تريد الا  
أن تكون جباراً فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » (١) •

وموسى فى نفس حائرة بين عز الدنيا وقد تركه وراء ظهره ، وجعل نداءه دبر  
أذنه ، وبين الحق والعدل والايخلاق وهو الى الثانى يميل ، ومن الأول ينفر ، وبيننا  
هو على هذه الحال يتردد بين ماض مريح ، وجديد يريد أن يخوض فى شدائده ،  
ليعيش كما يعيش قومه ، فيشاركهم فى ضرائهم ، واذا النذير ينذره : « وجاء  
رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى ان الملائمة ياتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج  
انى لك من الناصحين (٢) » قضى الأمر ، وانتهت الحيرة ، واستقبل الحياة  
الجديدة بلاوائها وجهاً لوجه ، ولنترك القول لكتاب الله تعالى يذكر لنا حاله من بعد  
ذلك الانذار • اذ نجد التصوير الذى تعجز عنه كل أدوات التصوير الساكن  
والمتحرك ، وهو يصور موسى قد أحس بخطر قوم فرعون ، وفرعون ، وآل مصر ،  
يترقبونه ، فإله يقول فى كلام مصور الأرواح والأشباح : « فخرج منها خائفاً  
يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن  
يهدينى سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد  
من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء  
وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى الى الظل ، فقال رب انهم لما أنزلت الى من  
خير فقير » (٣) •

(٢) القصص : ٢٠

(١) القصص : ١٩

(٣) القصص : ٢١ - ٢٤

تصوير للحيرة • فربيب النعمة خائف يترقب المتبع ، والمترصّد ، ويتوجه من ريف مصر وخضرته الى لفح الصحراء وجدها ثم هو يحس بالحاجة ، وهو الذى كان يتناول ويرمى ، واذا لفته الشمس آوى الى الظل ، لا يرجو الا الله ويعلم أن الله تعالى لا يتخطى عنه •

وانى مهما أحاول من تصوير للقصة بعبارتى ، نلن نصل الى ما يقع فى نفس القارئ اذا تلاها مجرد من غير تعليق عليها ، انها تصور ربيب النعمة فى صورة كأنها المرئية ، وكأنها مشاهدة محسوسة ، وليس أخباراً مكتوبة أو متلوّة •

انه حائر ، فيفاجأ بأحدى المرأتين تأتيه تمشى على استحياء ، وهى تدعوه الى أبيها ليجزيه أجر ما سقى لهما ، ويذهب الشاب القوى الى الشيخ الضعيف ، وهنا يرى الشجرة الوارفة ، فى وسط الصحراء ، ويجد الحياة الزوجية ، وراحة الحياة بعد شقائها ، ويذوق طعم الدنيا ، ولم يكن فى بيت فرعون يذوقها ، ذلك أن النعيم معنى نسى لا يذوقه الا من ذاق الألم فى هذه الدنيا ، والنعيم من غير ألم يرنقه يكون راحة عفنة ، فموسى عليه السلام ، بعد أن نال عيشه بالكد واللغوب ، وعاش بين الرجاء والخوف أحس بطعم الحياة ومعناها ، وتأهب للرسالة ، لأن الرسالة لا تكون الا لمن اصطفاهم الله تعالى ممن ذاقوا طعم الحاجة وعزة الحق ، ولم يترفوا بالنعيم ، وكذلك أمر النبيين والصديقين ، وكذلك كان تاريخ كل الأنبياء ، وخصوصاً أولى العزم من الرسل •

هذا وانا نطالب القارئ أن يقرأ أى جزء من قصة موسى فانك تراه مصوراً للموقف الذى يعرض له أبداع تصوير ، وكأنك تشاهد ، ولا تسمع وتتلو ، وانه لهو القصص الحق •

٩٠ — وانك اذا قرأت مجادلة المشركين مع نبي من الأنبياء ، كنوح وابراهيم وعيسى • وشعيب وهود ، تحس بأنك تشاهد مشهداً مرئياً ، لأنك تستمع الى كلام متلو ، فتنقل أنت وعقلك وجوارحك كلها الى هذا المشهد الكريم الذى يصور

عقلية الذين يجادلون ، وما يبذله الرسول ، وما يتحملة في سبيل اقناعهم ، أو الزامهم كلمة التقوى ، ولا يريدونها ، اقرأ مجادلة نوح عليه السلام لقومه ، وهم يجادلون في الله ، ونوح يريد أن يهديهم بأمر الله تعالى ، واثق قوله تعالى « ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه انى اكرم نذير مبين ، ألا تعبدوا الا الله ، انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ، فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوماً تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيتهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذا لمن الظالمين ، قالوا يانوح قد جادلنا فأكثرنا جدالنا ، فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال انما يأتيكم به الله ان شاء ، وما أنتم بمعجزين (١) » •

هذا مشهد من مشاهد القول تجدد فيه مناقشة قوية بين دعوة الحق ، ووجود أهل الباطل ، وتراه كأنه مصور أمام البصيرة وترى فيه صاحب الحق يدلى بالبيانات والحق وحده أبلج ، وترى فيه أهل الباطل يتخذون من الحس دليلاً على الحق ، وحسهم كاذب ، فيستدلون على أن الدعوة ليست دعوة حق بأن أتباعها الفقراء الأردلون فى أعينهم الذين يزدرونهم والنبي عليه السلام يجادلهم بالتى هى أحسن ، وهو يسوق البيئات ، ولكنهم يتبرمون بدعوة الحق •

ولا شك أن العبارات لا تدل على المعانى المقصودة فقط ، بل وضعت الألفاظ ومعانيها ، وأطياها فى بيان مصور يسكن به الخيال والنفس ، كأنه واقع محسوس ، لا تقصص متلو فقط •

وبعد ذلك بين الله تعالى انوح أنهم لا يؤمنون ، ولم يبق الا انزال العقاب بهم ،

وأقرأ صورة العقاب تراه قصصاً مجرداً ، ولكنه مشهد واضح بين يصل الى درجة المرئى للتارىء المنتبه ، اقرأ قوله تعالى :

« وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا انهم مغرقون ، ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه قال : ان تسخروا منا ، فانا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى اذا جاء أمرنا ، وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال ساوى الى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقتين ، وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء ألقعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا القوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ، قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » (١) •

ذلك هو بعض قصص نوح عليه السلام من وقت أن يؤس من ايمانهم وأخبره ربه العليم الحكيم أنه بلغ الحجة وحقق الرسالة ، وأنه لن يؤمن أحد من قومه لم يكن قد آمن • وأن العقاب نازل لا محالة ، وترى كل نص من نصوص هذا الجزء من القصة مصوراً بيانياً لما أنزله تعالى ، فترى جزءاً يصور كيف أخذ نوح بينى سفينته ، والقوم ينظرون اليه ساخرين غير عالمين بالعاقبة التى تنتظرهم ، والغاية التى قدرها الله تعالى من هذا البناء والخيال يرى الصورة من وراء العبارات كأنها

بين يديه حقيقة بالعيان ، وليس خبراً من الأخبار ، وان كان يذكر في أعلى صوراً القصص المصور ، ثم ترى الايذان بالابتعاد عن موطن الغرق ، وقد فار التنور ، وانى قد أدرك من هذا أنها كانت تسير بالبخار اذ فار التنور فتحركت بعد أن فار ، والله تعالى أعلم بمراده ، وان كان اللفظ دالاً ، بل هو مصور لتنور فار فحرك ببخاره ماحرك من آلات تسير السفينة ، وتجري بهم في موج كالجبال والقارىء يرى في هذا صوراً تثير الخيال ، وتجعل الخبر مرئياً أو كالمرئى ، وان ذكر الموج في هذا المقام يصور كيف كان السيل عارماً ، وأنه لم يكن غيثاً حتى لم يبق الا من خرج بالسفينة نجياً •

ثم نجد في ذلك القصص أمراً معنوياً مصوراً كأنه ملموس ، وهو حنان الأب ، وورفقه بولاده ، فقد رأينا في النبي المجاهد عاطفة الأبوة تعلقوا ، فينادى ابنه وكأننا نسمع النداء في مشهد من مشاهد الأبوة ، ثم نجد الابن ، وقد غره غرور الصبا ، والابتعاد عن التصديق ، حتى حسب أنه بمنجاة من الغرق اذ اعتصم بحبل آوى اليه ، وحال بينه وبين أبيه الموج ، فكان من المغرقين ، والأب تنفطر نفسه ، فتغلبه شفقة الأبوة عن رؤية أمارات الموت ، ويتجه الى ربه باكياً حزيناً اذ نجا أهله الا ابنه ، فيقول ، وكأننا من فرط التصوير نسمع أنين الأب ، بعد أن نجا كل من في السفينة ، وقد استوت في طريقها وهلك الظالمون ، يضرع الى ربه يقول ان ابني من أهلى ، وكان قد وعده ربه بأن ينجي أهله ، فيقول ان وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، وهنا نجد رب العالمين يبين أنه داخل في عموم الكافرين ، لأنه كفر ، وأهلك هم الذين آمنوا ، ولم يعارضوك • ويقول سبحانه : « انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس به علم ، انى أعظك أن تكون من الجاهلين » •

تعارض العطف مع الواجب ، فتحت قوة العاطفة الأبوية نطق بما نطق فنبهه الله تعالى الى الواجب ، ولم ينبه غافلاً ، ولكنه نبه يقظاً مؤمناً ضارعا وان كان قد تناجى ربه بصوت البشرية ، فتاب ، وقال « رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس الى به علم ، والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » •



## القصص الحق المصور في أهل الكهف :

٩١ — ومن أروع القصص القرآنى المصور فى صدقه ، وسرد حقايقه قصة أهل الكهف التى هى آية وحدها فى التصوير البيانى القصصى الصادق ، وهى فى كل جزئيه تصور الأمر كأنه مرئى بالحس ، لا مذكور بالخبر وحده واقراً قوله تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، إذ أوى الفتية الى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من ادنك رحمة ، وهينء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الهأ ، لقد قلنا اذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهدى الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملت منهم رعباً ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم بزرق منه ، وليتططف ، ولا يشعركم أحداً ، انهم ان يظهروا عليكم يجرموكم ، أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تقاها اذا أبدا ، وكذلك أعثرنا عليهم ، ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لننخذن عليهم مسجداً ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم الا قليل ، فلا تمار قيهم الا مرء ظاهراً ، ولا تستنق فيهم

عنهم أحداً ، ولا يتقولن لشيء انى فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينى ربي لأقرب من هذا رشداً ، ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به .  
• يا أسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً » •

هذه قصة أهل الكهف ، والرقيم ، وهو الحجر الذى رقم عليه أنه رمز لمأواهم فليكونوا عبرة ، وليكونوا دليلاً ناطقاً ، على الايمان بالبعث والنشور وان الذين يجحدون بهما يرونهما عياناً فيهم ، اذ بعثهم الله سبحانه وتعالى ، وقد حسبوا أنهم مضى عليهم يوم أو بعض يوم •

والقصة الكريمة كما ذكرها القرآن الكريم فى قصصه الحق لها مشاهد تذكر كأنها ترى ، وكأن الانسان يعاين وقائعها ، فى أسلوب قرآنى قصصى تؤخذ منه مغزى القصة فى غير التباس ، ولا ارتياب •

المشهد الأول : اراء فتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله تعالى هدى ، وقد فروا من الوثنية الى الوحدانية ، ومن الوثنيين الى جوار ربهم ، وقد ربط الله على قلوبهم فاستمسكوا بايمانهم ، واعتصموا بربهم ، وكان الايمان قد سكن وعاء القلوب ، فربط الله تعالى بالصبر حتى لا يخرج من وعائه الذى استقر فيه ، واطمأن ، فلا يبتسع أمام أى حادث وان الايمان اذ سكن ، واطمأنوا كانت رحمة الله تعالى أن يضرب على آذانهم بمعنى أنه خيم عليها ، فأصبحت لا تسمع لغو الحديث ، وانهم اذا آوا الى الكهف قطعهم الله تعالى عن لغو الوثنية وظلم أهلها ، فاجتمع لهم الانزواء عن الناس ، والبعد عنهم بالحس ، فلا يرون الناس ، ولا يسمعون عنهم ، وساروا فى غيبوبة كأنهم الموتى ، وليسوا أمواتاً ، وتحسبهم أيقاظاً وهم وقود ، وكل ذلك فى تصوير قصصى كأن التالى للقرآن يراهم ، وهم يهرعون الى الكهف يأوون راجين الرحمة والرشد ، مبتعدين عن الآثام ، وما فى الدنيا ، وقد زادهم الله تعالى ، فجعلهم رقوداً ، وهنا نجد الصورة واضحة أن ناساً يظن أنهم أيقاظ ، وهم رقود ، وقد بقوا على ذلك سنين عدداً تجاوزت ثلاثمائة •

**والشاهد الثاني :** بعثهم ، وقد اختلف الناس في أمر المدة التي استمروها في الكهف ، وقد مرت الأجيال ، وهم يحسبون أنهم أيقاظ ، فقد استمروا كما ذكر في القرآن الكريم ثلاثمائة سنة و زادوا تسعاً .

ويجىء بعد البعث الكلام في المدة التي مكثوها ، والسبب في اختيار مأواهم ، فقص الله خبرهم بالحق تفصيلاً بعد أن ذكره اجمالاً ، لقد قاموا من سباتهم ، وهم يرددون ايمانهم بالله تعالى ، واعتراضهم على أقوامهم ، ويحكون ما كان منهم مع أقوامهم « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسطان بين » وأن قومهم اعتزلوهم ، وهم لا يعبدون الا الله تعالى ، ونرى الصورة القصصية واضحة بيّنة ، هادية مرشدة تصور الملاحظة بينهم وبين أقوامهم ، حتى اعتزلوهم معتصمين بربهم ، مؤمنين به ، وهذا المشهد كل أجزائه واضحة ، حتى انه يصور الكهف ومن فيه وخرجوا منه في مشهد واضح بين ، هو كالعيان بتصوير القرآن الكريم .

**والشاهد الثالث :** منظرهم وهم رقود ، وحال الكهف ، وصورته ، فهم في فجوة منه ، يتجهون فيه الى الشمال والشمس تخرج لهم من الشرق يمينا ، وتودع الكون في غربهم . فالشمس والهواء ، يحيطان بهم ، وذلك أصلح مكان ، اذ يستقبل الشمس في غدوها طالعة ، وفي غروبها رائحة ، والهواء من البحر يجىء اليهم ، فينعشهم نسيمه العليل . فأسباب الحياة الطيبة قائمة ومهيأة لهم ، وهم رقود ، وان كان الرائي يحسبهم أيقاظاً ، والوصف القصصي مصور المكان كأن القارئ للقرآن يراه ، وهو بتلو كتاب الله تعالى .

وانهم في هذه الخامة يتقلبون كالأيقاظ الأحياء بارادة الله تعالى وأمره الكوني « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ولا يترك القرآن الكريم من الصورة المكانية شيئاً الا بيّنه ، وصوره ، فيذكرهم وكلبهم يحرسهم وهو بالوصيد ، وهو فجوة بالجبل الذي فيه الكهف ، فالتصوير القصصي كامل يرى فيه القارئ صورة للمكان ، وكأنها مصورة بصورة باهرة ، وليست كلاماً متلوأ ، ولكن كلام الله تعالى العزيز الحكيم .

وان المكان فيه رهبة ، وحالهم فيها هيبة ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم  
فراراً ، وللت منهم رعباً •

المشهد الرابع : الذى تصوره القصة ، وقصص القرآن كله حق لا ريب  
فيه ، وهو يتيقظهم بعد الرقدة ، وحالهم ، وقد رأوا الحياة اللابئة التى كانوا عنها  
غافلين ، وكانوا فيها راقدين ، وأول سؤال توجهوا به ، سألوا به أنفسهم ، كم  
لبثوا فى منامهم ، وقد سألهم هذا السؤال واحد منهم ، فقالوا كأنهم مجمعون  
لبثوا يوماً أو بعض يوم ، ولكنهم كشأنهم لم يتخبطوا ، ولعلمهم ظنوا أن المدة  
أطول من ذلك ، ولذلك قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، وهنا نجدهم اتجهوا الى  
الحياة يطلبون رزقهم ، ومعهم نقود فضية قد ضربت منذ تسع وثلاثمائة سنة  
تكشف للناس عن أمرهم ، وكانوا ككل أهل الايمان أهل تسامح ، فقد  
طلبوا من مبعوثهم أن يتلطف ، وألا يشعر بهم أحداً ، حتى لا يكون منهم أذى  
ويظهر أنهم بهذه النقود عثر الناس على أمرهم ، وعرفوا حقيقتهم ، وكان الهام  
الله بذلك ليعرف الناس حقيقتهم وتكون حياتهم فى الكهف ورتدتهم فيه دليلاً  
محسوساً على أن وعد الله تعالى بالقيامة حق ، ولذا قال سبحانه « وكذلك أعثرنا  
عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، اذ يتنازعون بينهم  
أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم  
لنتخذن عليهم مسجداً » وهذه كلها مشاهد فى القصة تعين غيب أحداثها فى  
قصص محكم •

## التصريف فى صور العبارات القرآنية

٩٢ — من أدل شئ على بلوغ القرآن أعلى درجات البلاغة ، وتصريف المعانى  
والألفاظ فى كل باب من أبواب القول ، وقد أشرنا الى ذلك فى أول كلامنا فى  
بيان تصريف الكلام القرآنى ، وتصريف القول يتناول الألفاظ ، وتصريف الألفاظ  
يتضمن لا محالة تصريف المعانى ، لأنه لا مرادف فى القرآن ، ولا يوجد أفظان  
يؤديان معنى واحداً ، من حيث الاحكام والدقة ، ولا يوجد أسلوب يؤدى معنى  
يؤديه الأسلوب الآخر ، وان كان يبدو بادية الرأي أن المعنيين يتحدان فى جوهر

المعنى ، ولكن عند التأمل في الاشارات البيانية التي تشير اليها الألفاظ ، والتي تطيف حولها ، وتتشع منها ، تجدها مختلفة ، وان كل تعبير في العبارات القرآنية عن أخواتها في مثل موضوعها يحدث تغييرا في المرامي ، ولح القول ، حتى الوقوف والفواصل تؤدي باختلاف نعمها مالا تؤديه متيلاتها مما هو في موضوعها ، وان النعمات القرآنية التي تتخالف أحيانا تكون كل نعمة في مقامها توميء بموسيقاها الى اشارة لا توميء انيها نعمة أخرى لايه في هذا الموضوع نفسه .

ولنضرب في ذلك بعض الأمثال في الاختلاف في الأسلوب ، والموضوع واحد ، وتغير المعاني قوه ورغقا . وكل فيما يناسبه .  
الاستفهام والنفي :

٩٣ — لاشك أن النفي المجرد ، والنفي بطريق الاستفهام كلاهما يدل على أصل النفي . ولكن النفي بطريق الاستفهام أقوى دلالة في معنى النفي ، لان النفي بالاستفهام فيه معنى أن المخاطب سبق الى النفي ، فكان النفي من القائل ، والاقترار به من المخاطب ، اقرأ قوله تعالى في ادعاء المشركين أن الله تعالى حرم بعض الأطعمة ، فنفي الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله : « قل هل عندكم من عام فتخرجوه لنا ؛ ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون ، قل فله الحجة البالغة ، فلو شاء اهداكم اجمعين ، قل هل من شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فان شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بريهم يعدلون (١) ، ألا ترى أن هذا الاستفهام للنفي ، اذ المعنى الجملي « ما عندكم من علم بأن الله تعالى حرم عليكم ان أنتم ان الا تخرصون ؛ تتوهمون ما ليس له حقيقة واقعا .

ولا شك أن المجيء بصورة استفهام فيه مزيتان احدهما تنبيهه الى أنه كان يجب عليهم قبل أن يعتقدوا أن يتعرفوا الدليل الذي يسوغ لهم العلم حتى لا يقولوا على الله مالا يعلمون . والثانية — أن في الاستفهام حملا لهم على

(١) الانعام : ١٤٨ — ١٥٠

أن يفروا بالنفى ، ووفق ذلك كله فان سياق الكلام فيه توبيخ لهم لأنهم بنوا عقائدهم على أمور باطلة ، لأساس لها من حق ولا علم ، وان هذا نوع من الاستفهام الذى يراد به النفى يعبر عنه علماء البلاغة بأنه استفهام انكارى ، لانكار وقوع موضع الانكار ، وهناك انكار يقال له انكار الواقع ، وهو يكون فى معنى التوبيخ على ما وقع على أنه لا أصل له .

اقرأ قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق (١) » . وهذا انكار لما وقع منهم ، وانكار الواقع توبيخ ، ذلك لأن المشركين كانوا يوجبون الطواف عراة ، وحنأوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، والله سبحانه وتعالى نفى ذلك التحريم الواقع منهم بهذه الصيغة « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » والنفى بصيغة هذا الاستفهام فيه مبالغة ، لأن فيه إشارة الى أنه لا يسوغ لعاقل أن يكون منه ذلك التحريم ، لأنه عمل غير معقول فى ذاته ، اذ المؤدى : لا أحد حرم زينة الله من لباس ساتر ، ولا أحد يحرم طيبات الرزق التى لاخبت فيها من حيث الحقيقة ، ولا من حيث المعنى ، مادام طريق الكسب طيباً ، وأن الله لا يأمر الا بالقسط الذى يتفق مع الفطرة ، ولذا قال تعالى من بعد ذلك ، « قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون (٢) » .

وقال سبحانه من قبل هذه الآيات : قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون ، فريقاً هدى ، وفريقاً حق عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ، يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين (٣) » .

٩٤ - وقد ذكر عبد القاهر فى كتابه دلائل الاعجاز الحكمة فى سبب تسمية

(٢) الامرات ٢٤

(١) الامرات : ٢٢

(٢) الامرات : ٢١ - ٢٢

الاستفهام بالانكارى ، سواء أكان لانكار الوقوع بمعنى النفى أو لانكار الواقع  
بمعنى التوبيخ ، فقال رضى الله تعالى عنه •

« وأعلم أننا وان كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا الانكار بالنفى ، فان الذى  
هو محض المعنى أنه لينبئ السامع ، حتى يرجع الى نفسه ، فيخجل ويرتدع ،  
ويبين الجواب ، اما لأنه قد ادعى القدرة على فعل ما لا يقدر عليه ، فاذا ثبتت  
على دعواه قيل له فافعل فيفضحه ذلك واما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب  
فعله ، فاذا روجع فيه تنبه ، وعرف الخطأ ، واما لأنه جوز وجود أمر لا يجوز مثله ،  
فاذا اثبت على تجويزه وبخ على تعنته ، وقيل له فأرناهُ في موضع وفي حال ، وأتم  
شاهداً على أنه كان في وقت ، ولو كان يكون للانكار ، وكان المعنى فيه من بدء  
الأمر لكان ينبغى ألا يجيء فيما يقوله عاقل : انه يكون حتى ينكر عليه ، كقولهم  
أتصعدا بي الى السماء ، أتستطيع أن ننقل الجبال ، أالى رد ما قضى من سبيل •

ومؤدى هذا الكلام أن الانكار اذا كان نفياً لوقوع أمر ، فمؤداه أن الأمر  
لا يقع ، ولا يعقل أن يقع ، فهو نفى مؤكد ، اذ هو ليس نفياً للفعل فقط ، بل هو  
نفى له مع بيان أنه لا ينبغى ولا يجوز أن يقع ، واذا كان الفعل قد وقع فهو  
توبيخ على الوقوع ، واستنكار له ، كما رأيت في قوله تعالى : « قل من حرم زينة  
الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق (١) » ويلاحظ أن الانكار سواء أكان  
انكاراً للوقوع بمعنى النفى أم انكاراً للواقع بمعنى التوبيخ ، فان فيه حمل الفاعل  
على الاقرار بالنفى أو اثبات ما أوجب التوبيخ •

٩٥ — ومن الاستفهام في القرآن ما يكون لبيان الاستحالة ، وهو يقارب في  
معناه معنى انكار الوقوع الى حد أنه يكون احتمال غير معقول ، ومن ذلك قوله  
تعالى « أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى » ، بمعنى أنك تخلق فيهم بهراً  
يبصرون به وان هذا فيه استفهام انكارى ، وفيه استعارة تمثيلية ، فقد مثلت  
حالههم بحال الأصم الذى لا يسمع ، أو فى آذانه وقر ، وبحال من فقد البصر ،  
وان من يطلب هدايتهم كمن يطلب السمع من الأصم ، أو يطلب الابصار ممن فقد

البصر ، فالاستفهام لاستحالة موضوع السؤال وانه لا يقع •

ومن ذلك أيضاً الاستفهام الذى عبر به القرآن عن حال الجاحدين الذين يتوهمون أن الفقراء فى الدنيا لا يمكن أن يكونوا هم أول المهتدين متوهمين أن الفضل بسعة الرزق وكثرة المال ، لا بالتقوى والمسارعة الى الخير ، فإله تعالى يصور حالهم بهذا الاستفهام ، فيقول تبارك وتعالى : « وكذلك فبتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا (١) » فالاستفهام على مقتضى نظرهم يوجب ألا يكون الله تعالى من عليهم قبلهم ، وذلك من فساد القياس ، اذ قاسوا الفضل بمقياس المادة ولم يقيسوه بمقياس الفضيلة والتقوى والمسارعة الى الخير •

ومن الاستفهام الذى ينبىء عن استحالة الجواب ، قوله تعالى أمراً نبيه :

« قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ، اثتناقل ان هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين (٢) » فى فالاستفهام هنا واضح أنه لبيان استحالة أن يدعو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما يدعون من دون الله تعالى ، وان حالهم فى عقيدتهم الباطلة ، كحال من يسير فى بيداء وقد استهوته الشياطين الصارخة فاندفع الى غير هدى حتى تاه فى المهمة القفر ، وله أصحاب ينادونه فلا يستجيب لهم لأن الباطل قد ضرب على قلبه ، ولأن استهواء الشياطين قد غلب عليه •

ومن قبيل الاستفهام الداخلى على ما لا يجوز التغيير فيه ما جاء على لسان ابراهيم عليه السلام ، وقومه يحاجونه يريدون أن يردوه ، فقد قال تعالى «وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان (٣) » •

ومن الاستفهام الذى يدل على استحالة موضوعه ما ذكره سبحانه وتعالى من أنه يوجه الى السيد المسيح عيسى عليه السلام يوم القيامة ، اذ يقول سبحانه :

(٢) : الانعام : ٧١

(١) الانعام : ٥٣

(٣) المائدة : ١١٦ — ١١٨



« واذ قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد • ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم (١) » •

وهنا نجد تلك المجابوة التى أعلمنا سبحانه تعالى أنها ستكون بينه وبين المسيح عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم كان الاستفهام فيها لبيان استحالة أن ابن مريم قال لهم اعبدوني « وأمي الهين من دون الله » ولذلك جاءت الاجابة على السؤال باستحالة موضوعه ، وأنه ما كان ولا يمكن أن يكون من عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام •

٩٦ — ومن الصيغ الاستفهامية تلك التى تجيء فى القرآن الكريم ما يكون للافحام ، والرد ، كالرد بالصيغة الاستفهامية ، اذ يقول سبحانه وتعالى عنهم • « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما ، واليه المصير (٢) » •

وان ذلك الاستفهام مع دلالاته على استنكار قولهم فيه داللتان أخريان : احدهما — اعلامهم بأنه سيعذبهم بذنوبهم وأنهم مأخوذون بما يقترفون من سيئات ، وما يجترحون من مآثم ومظالم • الثانية — الدلالة على أن عمل الخير له ثوابه ، وعمل السوء له عقابه ، وأن من يقول غير ذلك فهو مبطل ، وما كان لهم أن يدعوا محبة الله ، وأنهم منه بمنزلة الأبناء من الآباء ومع ذلك يعصونه ، وينشرون فى الأرض الفساد •

فهذا استفهام مع ما فيه من احكام واستنكار يتضمن معانى سامية فيها التهديد لمن يعصى ، والتبشير لمن أطاع •

وهناك لون من ألوان الاستنكار يكون منصباً على المساواة الظالمة بين الخين الأدنى ، وما هو أعلى منه ، كما في قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين (١) » •

لقد كانت قريش تتنافس على السقاية وسدانة البيت الحرام ، وتسابق الى عمارته ان احتاج الى عمارة ويحسبون أن ذلك يجعل لهم فضلاً على الناس ولو كانوا مشركين ، وقد قرر سبحانه أن الايمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيله ، والتقدم لفاء الحق ونصرته لا يساويه مجرد السقاية والسدانة والعمارة ، ولو كان انبيت الله الحرام الذي هو مثابة للناس وأمن ، والايمان والعمل الايجابي لنفع الناس وحماية الحق والذود عنه ، هو في المكانة السامية وقد أتى سبحانه بذلك في صيغة استفهام انكارى ، وهو منصب على التسوية بين الأمرين ، وهو استنكار فيه توبيخ ، وفيه ابطال للباطل ، واحقاق للحق ، واعلاء لثأر الايمان والجهاد ، وأنه فوق كل شأن •

ومن الاستفهام الذى يحكى عن المشركين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ما يذكر على سبيل الاستغراب ، وظن الاستحالة • ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن المشركين « وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون البك رعوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً (٢) » •

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الرعد : « وان تعجب فعجب قولهم أنذا كنا ترابا أننا لفي خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٣) » •

وان هذه الاستفهامات هي من قبيل الانكار ، والاستغراب ، فترى المشركين يعلنون انكارهم للبعث ، ويستغربون أن يكون ، يستغربون البعث في ذاته ، ويقرنون

(١) التوبة:

(٢) الإسراء : ٤٩ - ٥١

(٣) الرعد : ٥

ذلك بحال الذين يموتون من بعثرة أجسامهم بعد أن يصيروا رفاناً ، ويضيئون الى استغراب البعث في ذاته ما يقررونه في اعتقادهم من أحوالهم ، يحسبون أنها تبرر الانكار ، أو تزيد الاستغراب ، فيسألون من الذي بيعتهم من مراقدهم ويوهم قولهم أن ذلك غريب •

وفي سورة الرعد في النص الذي نقلناه يستغربون ويتعجبون بين الله تعالى أن موضوع العجب هو عجبهم ، لأن البعث فيه سر الوجود ، إذ أنهم لم يخلقوا عبثاً ، وإذا كان الابتداء ليس فيه عجب ، فالإعادة ليس فيها عجب أيضاً ، فالاستغراب موضوعه استغرابهم هم •

وانا نجد في كل الأمثلة التي ذكرناها في الاستفهام تصريفاً في القول يوجد جدة في جملة عن سابقتها، وأنه لو كان النفي أو الاستغراب والتعجب أو الاستنكار والتوبيخ بلغة واحدة ما كان التنويع في التعبير ، الذي هو ميزة لكل كلام ، فضلاً عن أبلغ كلام رأته الانسانية ، لأنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه بديع في نسقه ، في أعلى درجات من الابداع ، وأنه كما قال الكافر الذي سمعه : يعلو ، ولا يعلى عليه ، وأنه ذو القطف الدانية ، والجمال دائماً •

٩٧ — ومن الاستفهام ما يكون تقريراً للواقع ، وذلك يكون في الحال التي تستوجب العجب ، أو توجب الاستنكار ، إذ يكون الواقع المقرر مستنكراً ، لأنه ليس من صنيع أهل الايمان ، ولا مما تستسيغه الفطرة السليمة ، أو تستحسنه الأخلاق الحكيمة ، أقرأ قوله تعالى : « رأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراعون ويمنعون الماعون (١) » •

وان هذا الاستفهام التقريري الذي يؤكد الرؤية العالمية من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان معنى رأيت ، لقد رأيت الذين يكذبون بالدين ، وان مجيء

العبرة بطريق الاستفهام فيه تأكيد لمعنى الرؤية لأولئك الذين اتصفوا بهذه الصفات الغريبة التي تتماسك كل صفة مع أختها ، وكأنها ملازمة لها لا تفترق عنها ، وكأنها منها ، فالتكذيب بالدين هو صفة الجاحدين ، لا يؤمنون بالحق ، ولا يهتدون بهديه ، وأولئك دأبهم النفرة من الناس ، وألا تكون فيهم رحمة بالضعيف ، فهم يتهرون اليتيم ويذلونه ويرهقون ، ويمنعون كل عون ، اذ يمنعون الذكوات التي هي عون الأتقياء للضعفاء ، وهم لا يتذكرون ربهم ، ولا يدنون منه ، حتى في الصلاة ، وصلاتهم ويل عليهم ، وليست قربة لهم ، وهي محسوبة عليهم على أنها من السيئات ولا تحسب لهم على أنها من القربات ، وهم في أعمالهم يراءون ، والرياء شرك خفى ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك •

وان موضع الاستفهام هنا لا يغنى عنه التقرير المجرد ، لأن مؤدى الاستفهام أن المخاطب قد سئل عن الرؤية مثلا ، فأجاب عنها بالإيجاب ، فكان تقرير الواقعة باقرار من المسئول ، فهو تقرير معه التصديق وهو مع ذلك تنبيه الى الصفات المرذولة التي اتصف بها أولئك الجاحدون بأصل الدين ، من قهر اليتيم ، ومنع المسكين ، والصلاة الساهية عن معنى القرب الى الله تعالى ، وهم يراءون الناس ويمنعون كل عون حقيقى •

ومن الاستفهام التقريرى الذى يثير الانتباه الى الحقائق التي يتضمنها قوله تعالى : « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتينكم به انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون ، قل أرأيتم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك الا القوم الظالمون (١) » •

وان هذه الآيات الكريمات فيها عدة استفهامات أولها تقريرى ، وهو تقرير الرؤية كأنهم سئلوا عنها • فأجابوا بالإيجاب ، فكان التقرير مؤيداً بالقرار ، وكان حكما مؤيداً بالدليل ، وهو الاقرار سلطان الأدلة والاستفهام كان موضوع الاستفهام الأول ، وهو قوله تعالى « ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتينكم » وهو استفهام فى معنى النفى ، فهو انكارى ، أى

أنه لا اله غير الله يأتيكم فهو يتضمن مع النفي اقراراً من السامعين بأنه لا اله غيره واثارة العجب ممن لا يقرون بهذه الحقيقة فهي موضع البرهان وقد يتضمن النص الكريم استقهماً ثالثاً لتوجيه النظر الى ما يصرفه القرآن من أدلة مختلفة ، وذلك الاستقهماً توجيهي تنبيهي تقريري ، وهو قوله تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات ، ثم مم يصدفون » فقوله كيف نصرف الآيات فيه توجيه النظر الى تصريف للآيات ، وجاء بصيغة الاستقهماً لتصوير التصريف في الآيات التي أنزلها الله تعالى ، أو كانت في الكون ، وما كان ذلك التصور لها ليتحقق اذا لم تكن الدعوة الى النظر ، ثم الاستقهماً الذي يأخذ النظر ليضعه على ذلك التصريف ، ثم كان الاستقهماً متضمناً معنى الاستنكار لحالهم ، اذ أنهم مع تصريف الآيات وجعلها في صورها جديدة تسترعى الانتفات والاتجاه الى ادراكها ، والتنبه لها ، ومع ذلك - لكثرة جحودهم ولحاجة الباطل في نفوسهم - يعرضون ، ولا تستولي عليه نفوسهم ، كشأن الفكرة المجددة ، فانها تسترعى الأفهام وتأخذ بالألباب ، ولكنهم عموا ، فلا يجديهم تصريف ، ولا يأخذ بألبابهم تجديد الأسلوب لأنهم معرضون ، انك لاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين •

وفي النص استقهماً تقريري على منهاج لا يعرف الا في القرآن ، فاني لم أقرأ كثيراً في غير القرآن ذلك المنهاج الاستقهماً اذ يقول سبحانه « رأيتم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون (١) » فالتعبير في الاستقهماً رأيتمكم - ليس مشهوراً في الأساليب العربية ، ونجد هنا الخطاب تكرر فيه ، فالتاء المفتوحة خطاب ، والكاف خطاب التاء خطاب للمفرد ، والكاف خطاب للجمع ، والتاء متجهة الى مخاطبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والكاف متجهة الى خطاب الجمع ، فاجتمع خطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخطاب الجماعة ، وذلك لأن في الاستقهماً تقريراً لرؤية النبي عليه الصلاة والسلام وتقريراً لرؤية كل المخاطبين بالقرآن الكريم ، وكان لا بد لاجتماع الخطابين ، خطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليقرر الواقع وهو علمه عليه السلام ، وتقرير الحقيقة الثابتة للناس

أجمعين ، وهى أن عذاب الله الذى يجىء بغتة فى خفاء ، أو جهرة فى وضوح النهار لا يهلك الا القوم الظالمون فهو جاء لأجلهم منصّباً عليهم ، وهنا أمران يجب التنبيه اليهما .

— أولهما — أن الزمخشري ، ومن حاكاه ، كالبيضاوى وغيره قالوا ان الكاف حرف لتأكيد الخطاب لا موضع لها من الاعراب فهى ليست ضميراً ، ولكنها من الحروف التى تبني على غير محلّ من الاعراب ، وحينئذ لم يأتوا على استوفت المفعولين من غير تقدير الكاف فى موضع الضمير ، ونحن نميل الى أنها ليست زائدة ، لتأكيد الكلام ، وليست حرفاً ، ولكنها اسم بمعنى أنفسكم ويكون تأويل القول على هذا رأيت أنفسكم ، وجمع ليشمل كل الناس ، وكل المخاطبين ، وعلى هذا التأويل يكون المعنى رأيت أيها النبي الناس ، وقد صاروا عرضة لعذاب يعم الجميع أم يخص الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الناس وظلموا العقل فضلوا وأضلوا كثيراً ، وأفسدوا فى الأرض والله لا يحب الفساد .

— الأمر الثانى — أن قوله تعالى : « هل يهلك الا القوم الظالمون فيه استنهام انكارى بمعنى انكار الوقوع والمعنى لا يهلك الا القوم الظالمون . واقترن الكلام بالوصف يدل على سبب استحقاق الهلاك ، وهو الظلم ، فبظلم منهم هلكوا ، وكان ذلك تأكيداً للنفي بذكر السبب فى أنهم اختصوا بالهلاك .

ومن هذا النوع فى الاستنهام الذى اقترن ببناء الخطاب والكاف ، وكان كلاهما بالمفرد قوله تعالى : « رأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته الا قليلا ، قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً (١) » .

الله سبحانه وتعالى يحكى عن ابليس اللعين قوله وهو يخاطب رب العالمين والاستنهام لتقرير الواقع ، لا لنفيه والكاف على قول الزمخشري هى تأكيد لمعنى التأكيد ، ونحن نرجح ذلك ، لأن التاء مفرد والكاف مفرد ، وهو تأكيد لفظي

يتوافق المؤكد مع المؤكد في الأفراد ، أما الاستفهام السابق فمعنى التأكيد فيه بعيد ،  
للتخالف في الأفراد والجمع ، وهذا النوع من البيان لتصريف القول ، وقد ذكر  
طبيعة إبليس الفاسد بأنه سيجعل ذلك الذى كرمه تعالى عليه الهلاك لذريته الا قليلا ،  
وهذا من غرور إبليس ، ومن يسكن الشيطان قلوبهم ، وهذا كقوله : « لأغوينهم  
أجمعين الا عبادك منهم المخلصين » •

ونلاحظ أن حول الاستفهام على رأى ، مع وجود ضميرى خطاب في جملة  
واحدة أو على قول الزمخشري ضمير خطاب وحرف خطاب - هو استعمال  
قرآنى ، لا أعرف أن العرب قد استعملوه كثيراً قبل القرآن ، وفيه من معانى  
الاستنكار أو التنبه أو التعجب في أبلغ صور • وان هذا من سر الاعجاز ، ودليل  
على أن القرآن لم يكن علمه البيانى عند العرب من قبله •

٩٨ - والاستفهام أحياناً يكون للتسوية « بين أمرين ، ويكون هذا لبيان  
وحدة النتيجة والغاية مثل قوله تعالى « ان الذين كفروا سواء عليهم أن أنذرتهم  
أم لم تنذرهم لا يؤمنون (١) » وان أداة الاستفهام في هذه ليست للاستفهام  
الحقيقى ، ولا للانكار ولا للتعجب ، ولا لغير ذلك مما ذكرناه مقاصد للاستفهام ،  
وفي النص القرآنى تأكيد لجحود الذين كفروا ، والاشارة الى أنهم سبقوا الى  
الجحود ، فالأدلة مهما تكن قوية لاتجد مكاناً فارغاً لتملأه ولكنها تجد قلباً مملوءاً  
جحوداً ، فلا سبيل لأن يدخل الحق ، ومن ذلك قوله « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا  
مالنا من محيص (٢) » •

فهنا كانت التسوية بين أمرين من حيث الانتهاء الى نتيجة واحدة ، فان الأمر  
الذى لا يكون ثمة مفر منه ، يستوى فيه الصبر والجزع من حيث ان كليهما لا يندفع  
المحذور ، وان كان الصبر أجدى لأنه يوجد في الجملة قراراً ورضاً وتقديراً للأمر •  
كما قال عليه الصلاة والسلام « ان صبرتم أجرتم ، وان جزعتم وزرتم •  
وقد تكون ألف الاستفهام للتريديد بين أمرين في ظاهر القول ، وليست الغاية

متحدة ، والعقل يقرر صدق أحدهما كما في قوله : « أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها نسواها وأعطش ليلها(١) » فان هذا الاستفهام ليس فيه تسوية بين أمرين في الحكم أو النتيجة والغاية ، بل المعقول يثبت أحدهما ، وينقض الآخر بدليل من العقل والحس ، فانه لا شك أن الأشد خلقاً هو الأكبر حساً ، والأعظم تأثيراً ، والأدق احكاماً ، وهو السماء بما تصف فيها ، واذا كان سبحانه مالك السموات والأرض ، وما بينهما ، وما فيهما ، من دابة فهو على ما يشاء قدير •

ومؤدى هذا الكلام نفى سلبي ، وحكم ايجابي ، فأما النفي السلبي فهو أن الانسان ليس أشد خلقاً ، وأما الحكم الايجابي ، فهو بيان سلطان الله سبحانه وتعالى القاهر فوق كل شئ •

وهذا النوع من التريديد انما يكون دائماً لحمل المخاطب على الحكم الصحيح فهو لا يدل على التسوية ، بل يدل على التفرق في الحكم ولينطقوا بالصواب أو ليلتزموا به ، ان لم ينطقوا ، أو ليفحموا ان لم يستترشدوا وضلوا ، وهو استدلال على الحكم ومن ذلك النوع من الاستفهام قوله تعالت كلماته •

« أفرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم ، وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعون أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناهم حطاماً فظلمتم تفكهن ، انا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرايتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون • أفرايتم النار التي تورون ، أنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ، ومناعا للمقوين (٢) » ونرى هذه الاستفهامات المتقابلة التي يجيء فيها بين الاستفهامين لفظ أم التي تدل على التعادل بالظاهر من اللفظ ، ولكنها ليست متعادلة من ناحية الحقيقة الثابتة فهي مقابلة بين حق وباطل ، للتنبيه على الحق بالدليل والتنبيه بالاستفهام بطريق التقابل



هذا حان التقابل بين أن يكونوا هم الخالقين للأنفس في ظهور الآباء وبطون  
الأمهات إذ أن الخالق هو الله سبحانه : فالفطرة والبداة والحس تقرران الأول  
فالحكم بلا ريب ينتهي بمقتضى التقابل هو أن الخالق هو الله سبحانه ، وكذلك  
الأمر في الزرع ، وكذلك الأمر في الماء ، وكذلك الأمر في النار .

فهو استفهام ليس على حقيقته ، ولا للانكار المجرد ، ولكنه للتبنييه ،  
والاستدلال على الحق بالاشارة الى البطلان الذى يكون فى الجانب المقابل للحق ،  
فانه اذا بطل النقيض كان الحكم بصحة نقيضه ، فاذا كان التردد بين كونهم  
الخالقين ، والخالق هو الله ، وتأكد بالحس بطلان وصفهم بالخلق فقد هيئت صفة  
الخلق لله تعالى ، وبذلك يكون الاستفهام للتبنييه والاستدلال ، كقوله تعالى « وأنا  
وأياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين (١) »

ومن ذلك النوع ما حكاه الله تعالى عن سيدنا يوسف وهو يقول لصاحبه  
السجن : « أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (٢) » فان هذا التقابل بين  
باطل تثبت البداهه بطلانه ، واذا بطل أحد المتقابلين صدق فكان الاستفهام للتبنييه  
الى الحق مؤيداً بالدليل القاطع .

٩٩ — والاستفهام التبييه كثير فى القرآن ، وكذلك لاثارة العجب حصول  
ما يدعون من ترهات وأباطيل وبيان وجه غرابتها ولا يمكن احصاء ذلك ،  
واستقراؤه وتتبعه ، ولكن يمكن ضرب الأمثال ، وما يذكر يكون شاهداً على ما لم  
نرطب ألسنتنا بهنلاوته ، ولا أسمعنا بالاستماع له والانصات والتدبر فيه .

اقراً قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ، اذ دخلوا عليه  
فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ الى أهله فجاء بعجل حنيد ، فقربه  
اليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم »  
فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها ، وقالت عجوز عقيم (٣) الى آخر القصة ،  
وترى القصة ابتدأت بالاستفهام للتشويق ، وللتبنييه الى الاستماع ، وقد ابتدأت

(٢) يوسف : ٢٩

(١) سبأ : ٢٤

(٣) الذاريات : ٢٤ — ٢٩

بعبارة فيها اجمال لتكون تمهيداً لما يجي بعد ذلك من التفصيل .

ومن الاستفهام الذى للتنبيه الى قدرة الله تعالى ، وهم لا ينكرون الجواب فيكون الاستفهام للاقرار به وتقريره قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا نتقون ، فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون ، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى الى الحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع ، أمن لا يهدى الا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون ، وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، ان الله عليهم بما يفعلون (١) » .

ففى الآية الأولى كانت أربعة استفهامات عن الرزق من يرزقه وعن يملك السمع والأبصار فيسلبهما ان شاء ويبيقيهما ، ويردهما ان سلبهما ، وسألهم عن يخرج الحي من الميت ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فى إجابة هذه الأسئلة ، فجاء الاستفهام الأخير فى هذه محرضاً على التقوى ، إذ أن التقوى كانت من نتائج اقرارهم بالاجابة الصادقة عن هذه الأسئلة التقريرية التنبيهية إذ أن العبادة لا تكون الا للخالق وحده ، فالمعبود الذى يستحق أن يكون الها هو الخالق النافع الضار .

ونرى أن الأسئلة كانت اجابتها بالايجاب لا بالسلب وبين سبحانه وتعالى ماترتب على الايجاب باقرارهم المريح ، وهو أن تمتلىء قلوبهم بتقوى الله تعالى ، فلا تعبد غيره .

وجاءت بعد ذلك الآيات أسئلة الاجابة فى بعضها بالسلب لأنها خاصة بما يشركون بها عبادة الله سبحانه وتعالى من أوثان ، وغيرها .

الاستفهام الأول كان عن شركائهم هل يفعلون ما قرروا أن الله يفعله ، ولسان حالهم أن يجيبوا بالسلب لأنهم يرون أنهم لا يضرّون ولا ينفعون ، وسألهم عن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ولسان حالهم يقول الله •

وهكذا نرى أن الاستفهام في كل هذه المقامات في القرآن كان لاثارة التنبيه الى الحقائق ، واذ انتبعت العقول اتجهت الى طلب الحق في غير عوج بل بطريق مستقيم •

وانى أحسب أنه بعد أن نزل القرآن وأشرب الناس مناهجه ومسالكه ، كان من أجود الطرق التعليمية اثارة الانتباه بالاستفهام تنبيهاً الى ما يوجه الى التلاميذ من علم ، فكان استفهام القرآن موضحاً أقوم المسالك للتنبيه الى الحقائق واثارة الأنفهام اليها ، وتفتيح الذهن لتدخل عليه المعانى والحقائق العلمية •

١٠٠ - وان القرآن سلك في الاستفهام مسلكاً لم نره كثير الاستعمال عند العرب من قبل نزول القرآن ، ولكنه شاع بعد نزوله من غير سمو الى مسلك القرآن وهو دخول أداة الاستفهام على حرف النفي ، مثل قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروع ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى اكل عبد منيب ، وانزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج (١) » •

فأنت ترى من السياق القرآنى أن همزة الاستفهام دخلت على لم التى هي حرف نفي ، فالاستفهام دخل على حرف نفي وجاء بينهما فاء هي للدلالة على أن السؤال مرتب على ما كان قبله وما قبله كان تعجباً من أمر البعث ، اذ قالوا « أئذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد » ، وأنهم كذبوا بالحق لما جاءهم فكانت الآيات التى وليت الاستفهام رداً على تكذيبهم ، وفيها الدلالة على اثبات ما أنكروا ، فالفاء للدلالة على ترتيب الاستفهام ، ولكنها أخرجت عن أداة الاستفهام ، لأن الاستفهام له

الصدارة ، فهي مؤخرة عن تقديم في نسق الترتيب الفكري •

والاستفهام الداخِل على النفي مؤداه الحث على النظر ، لأن الاستفهام عن نفي النظر ، وتقرير عدم النظر ، فإذا كان الاستفهام ابتداء يقرر أنهم لم ينظروا ، وفي النظر تعرف لآيات الله تعالى في الكون ، فالاستفهام وحرف النفي يدلان على الإثبات وهو هنا طلب النظر ، فكأن المعنى على هذا المنطق المستقيم ثبت أنكم لم تنظروا ، فالواجب أن تنظروا فالاستفهام ابتداء كما يبدو من سياق الكلام يقرر أنهم لم ينظروا لأن عدم النظر كان موضع الاستفهام ، ومن المقررات البلاغية أن الاستفهام دائماً يدخل على ما يكون موضع شك ، ويقدم فيه ما يكون موضع الشك ، فإذا كان موضع وقوع الفعل • كان الاستفهام مسلطاً على الفعل ، مثل قول الموحدين للوثنيين : « وندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا (١) » فهنا نجد موضع الاستفهام هو ذات الفعل ، فكان عقب أداة الاستفهام ، وإذا كان الفعل قد وقع ، وموضع الشك هو الفاعل ، فإنه يجيء وراء الاستفهام ، كقوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم إذ رأوا أصناماً جذاذاً ، قال الله تعالى عنهم أنهم قالوا له « أنت فعلت هذا بالهتأ يا إبراهيم (٢) » فالفعل ثابت بالعيان أمامهم ، ولكن لفاعل هو الذي يريدون البحث عنه ومعرفته •

وبهذا المنطق البياني نرى أن الاستفهام في هذا النص أفلم ينظروا داخل على الفعل المنفي ، فإذا كانت الهمزة للتنبيه أو التقرير ، أو التوبيخ ، لأنهم لم ينظروا وهو الراجح في نظري فيكون لانكار الوقوع وانكار الواقع ، وإذا كانوا يوبخون لأنهم لم ينظروا ، فالتوبيخ يكون دعوة للفعل ، وحثاً على النظر •

ومن الاستفهام الداخِل على النفي ، قوله تعالى في قصص القرآن عن أنبيائهم : « ألم يأتيكم نبي الذين من قبلكم ، قوم نوح ، وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما ندعوننا إليه مريب قالت رسلهم أفي الله

شك فاطر السموات والأرض (١) » ونجد في الاستفهام الذى صدرت به الآية الكريمة أن همزة الاستفهام دخلت على (لم) النافية ، فكان موضع الاستفهام عدم اتيان نبأ الذين من قبلهم ، ولو سرنا على ما يقتضيه السياق اللفظي للنص السامى يكون الاستفهام عن عدم الوقوع ومعناه انه لم يأتكم ، وإذا كان الاستفهام للتقرير أو التنبيه فمؤداه أنه لم يأتكم ذلك ، وفي هذا تشويق لمعرفة ، وتوجيه لطلبه ، ولذلك جاء من بعد ذلك البأ عن الرسل السابقين ، ويكون في هذا تثبيت الخبر لمن يطلبه مصغيا الى حقائقه ، معتبرا بعبره .

ولقد جرت بين كتاب علم البلاغة كلمة نفى النفى اثبات ، ويطبقونه على استفهام يدخل على فعل منفى فيكون الاستفهام داخلا على منفى ، والاستفهام نفى ، فيكون نفيا لنفى ، ونفى النفى اثبات ، وان ذلك يسير اذا كان الاستفهام لانكار ، انكار الوقوع ، فيكون انكارا للمنفى فيكون اثباتا ، وقد قلنا انه حتى في هذه الحال ، لا يخلو الاستفهام من تنبيه ، واقرار بما جاء الاستفهام عنه ، ولكن الاستفهام الداخلى على النفى يتضمن الحث على طلب الأمر المنفى الذى دخل عليه الاستفهام كما رأيت في قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم » كما تلونا من قبل ، وقد يكون الى تلقى علم ما نفى في حيز الاستفهام كما رأيت في الآية السابقة .

وقد يتضمن الحث على العمل ، والتحريض عليه اذا كان ذلك العمل غير محقق في الوجود ، أو هناك شروع في تحقيقه ، وذلك يكون غالبا عند نفى الأمر المستقبل كما نرى في قوله تعالى : « ألا تتقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدعوكم أول مرة ، أتخشونهم ، فإله أحق أن تخشوه ، ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء (٢) » .

ونرى من ذلك أن الاستفهام دخل على النفى ، وهو عدم القتال أو عدم الابهة

(١) ابراهيم : ٩ - ١٠

(٢) التوبة : ١٢ - ١٥

له ، والاستعداد للتقديم ، فالمستفهم عنه عدم القتال والاستعداد له وقد وجدت أسبابه ، وتعددت موجباته ، فكان الاستنكار منصبا على النفي ، والاستنكار لحال مستمرة ، حث على تغييرها ، وإذا كان الاستنكار على ما وقع توبيخا لمن أوقعه ، فالاستنكار لأمر لم يقع بظاهر الحال واستصحابها تحريض على تغييرها ، وتوجيه للاتيان بها •

وان الاستفهام الذي ينطبق عليه قول بعض الكتاب في علم البلاغة وهو نفي النفي اثبات يكون في مثل قوله تعالى « ألم يك نطفة من منى يمى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (١) » وثرى من هذا أن الاستفهام دخل على المنفى ، فكان انكاريا لنفى الوقوع ، فنفى على زعمهم القائل أنه لم يك في نشأته من منى ، أو كانوا عن ذلك في غفلة ساهين وكانوا في حاجة الى التذكير ، والاحساس بمبدئهم ، ليعرفوا منتهاهم ، وأن الذى أوجدهم من منى يمى أشخاصا ذكورا واناثا قادر على اعادتهم ، كما بدأهم يعودون •

فالاستنكار لجهلهم هذه الحقيقة ، أو تجاهلهم ، وكأنهم لا يعلمون ، فاستنكر هذا عليهم فكان نفيا مستنكرا لحال التجاهل •

ولا شك أن هذا فيه تنبيه ، وفيه لوم على تجاهلهم تلك الحقيقة ، وبيان أنه يجب عليهم أن يعرفوها ، ليكونوا في تذكور دائم بقدره الله تعالى في تدرجهم في الوجود من أصلاب الآباء الى أرحام الأمهات ، ويعلموا بذلك قدرة الله تعالى على الاعداد •

ومن الاستفهام الداخلى على النفي الذى من قبيل أن نفى النفى اثبات ، والتنبيه الى أن النبى يصنع على عين الله تعالى ، ويتولاه وألا يكون فى يأس من رحمة الله تعالى ؛ لأنه فى ولايته ، ولا يضيع من يكون فى ولاية الله تعالى • ومن ذلك قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا

لك ذكرك ، فان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا ، فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب » (١) •

فان الاستفهام هنا لانكار الوقوع ، أى لانكار أن الله تعالى لم يشرح صدر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليتلقى الوحي الذى أوحى به اليه ، واذا كان الانكار نفيا فالمؤدى للقول : قد شرحنا صدرك ، وكان الاستفهام للنفي •

١٠١ - واننا فى ختام هذا البحث من التصريف البيانى فى القرآن نقرر بالنسبة للاستفهام فيه ، أن الاستفهام باب من تصريف القول فى القرآن ، وفيه من أسرار الاعجاز ما فيه ، فمن الاستفهام ما يكون بعبارات تتفق مع النسق العربى السليم ، ولكنه لم يعرف بين البلغاء قبل القرآن وانى أرى أن أكثر صيغ الاستفهام التى جاء بها القرآن غير مسبوقه قبله ، وان الاستفهام كان يستعمل أحيانا للتبويه ، وأحيانا للاستدلال ، وأحيانا للتعجب ، وأحيانا ليوجه الأنظار الى الكون وما فيه ، وما يجرى بين الناس ، وان ذلك كله مما يدل على علو القرآن على مستوى ما كان عليه أكبر البلغاء ، وأقواهم سلطانا فى الأسلوب العربى •

## الحقيقة والتشبيه والاستعارة في القرآن

١٠٢ — هذا باب من أبواب تصريف القول في القرآن ، وضرب الأمثال به ، والحقيقة في اصطلاحنا ليست مقابلة للمجاز بكل فروعه ، فقط بل هي مقابلة للمجاز والتشبيه والاستعارة ، وهي ضرب من ضروب المجاز ، وإذا كان علماء البلاغة يعدون التشبيه من قبيل الحقيقة ، إذ أن أساس الحقيقة في نظرهم أن يستعمل اللفظ ذميا وضع له والتشبيهات التي تكون بأدوات التشبيه الألفاظ موضوعة في مواضعها ، والمجاز الذي يقابل الحقيقة أن تكون الكلمة غير دالة على غير ما وضعت لعلاقة بين المعنى الأصلي ، والمعنى الذي استعملت فيه مع قرينة دالة على هذا ، وعدم ارادة المعنى الأصلي •

ذلك هو اصطلاح علماء البلاغة ولاغبار عليه ، ولكننا في مقام الاعجاز القرآني نذكر الحقيقة — غير المجاز ، وغير التشبيه ، ونريد الحقيقة المجردة ، أي استعمال الألفاظ نيا وضعت له من غير ذكر مقابلة بين لفظ ولفظ طريق التشبيه الذي يجمل المعاني أو يقربها ، أو يأتي بصورة بيانية تلتقى فيها الحقيقة مع اشارة خيال يكون كأطياف الصور •

فالحقيقة التي نطلق عليها حقيقة ونحن نتكلم في القرآن ما تدل عليه الألفاظ في أصل وضعها من غير مجاز ، ولا استعانة بتشبيه ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، ونتكلم هنا في الحقيقة ، والتشبيه ، والاستعارة التي هي التشبيه من غير ذكر أداة التشبيه أو مايدل عليه • وفي القرآن هذه الأمور كلها مع أنواع المجاز المرسل الذي لم تكن العلاقة فيه بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي المشابهة بينهما •

١٠٣ — ان القرآن قد كان فيه التعبير بالحقيقة ، وهنا نجد السكاكي يعتبر التعبير المجازي أبلغ من التعبير عن المدلولات بالألفاظ التي وضعت لها ، وقد يكون ذلك في غير القرآن ، ولكنه ليس على اطلاقه حتى في غير القرآن ، أما القرآن فليس فيه جزء أبلغ من جزء ولا أبين ، بل كل في موضعه وفي مناجه ، بلغ أقصى درجات البلاغة التي لا تسامى ولا تتاهد وليس في طاقة أحد من البشر أن يأتي بمثله •



ولا شك أن بعض الموضوعات القرآنية لا يكون للمجاز أو للتشبيه موضع ، بل أن المجاز والتشبيه فيها يخل بالبلاغة فيها حتى في كلام الناس ، وليس من النثر الفني فيها التشبيه الا أن يكون للتقريب •

وان الحقيقة تستعمل في كثير من مواضع القرآن كالأحكام الشرعية التكليفية ، لأن بيانها يحتاج الى أن تكون الكلمة محدودة المعنى ليتم القيام بموجبها ، وتكون الطاعة محدودة المعالم ، لا احتمال فيها إذ أن المطالبة بعمل توجب تعيينه بما لا يوجد فيه احتمال لمعنى غير المراد ، ليتم التكليف على بينة وعلم واضح بالمطلوب •

وكذلك القصص ، فان القصص ذكر لحقيقة ما وقع لتكون به العظة الكاملة ، بحيث يتجه التالي للقرآن الى مغازى القصة • ومراميتها من غير تزيد ، كما رأينا في كثير من القصص القرآني فيما تلونا من قصص نوح و ابراهيم وموسى ويوسف من قبله ، فانك ترى فيه الحقائق مجردة الا من بيان وجه العبرة ، ولا تجد للمجاز والتشبيه الا قليلا •

وكذلك الاستدلال على الوحدانية بالنظر في الكون وما اشتمل عليه ، والنظر في الشمس والقمر والنجوم المسخرات وهكذا ، مما يوجب الاتجاه مباشرة الى الحقائق •

١٠٤ - وان بلاغة الحقائق التي تذكر من غير استعانة بمجاز أو تشبيه لا تقل عن المواضع التي كان فيها تشبيه أو مجاز بالاستعارة أو غيرها ، فان ذلك يكون لمعان مقصودة ، وغايات أخرى وراء فكرة البلاغة التي هي وصف عام للقرآن كله من غير تفاوت ، لأنها تتعلق بكتاب الله العزيز الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولو كان معه الجن والانس ، كما قال تعالى ، « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (١) » • ويقول في ذلك البلاقلاني ، في كتابه اعجاز القرآن « ان عجيب نظمه ، وبديع

تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين ، على ما يتصرف فيه من الوجوه التي يتصرف فيها من قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، واعذار وانذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ، وتجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلح ، والخطيب المصقع يختلف على حسب الأحوال .

وبعد أن يبين اختلاف البلغاء فيما يجددون من أبواب ، ثم يقصرون في غيرها فيقول : « وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والوصف لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا . ولا اسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك تأملنا ما ينصرف فيه من وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والتقصيرة فرأينا الاعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً وتبيناً . ويختلف اختلافاً كبيراً ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو نهاية البلاغة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه .

ونرى من هذا أن الاجماع على أن القرآن كتاب الله لا تتفاوت عباراته (١) لأنه من عند الله الذي لا تفاوت بين الأشياء عنده ولا فرق في البلاغة بين ما كانت الحقائق فيه تذكر مجردة عن التشبيه ، والمجاز

ولنذكر بعض آيات الأحكام التي تذكر الأحكام مجردة ، أقرأ آية المحرمات قال الله تعالى : « ولا تتكحوا ما نكح آبؤكم من النساء الا ما قد سلف ، انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ، حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم

بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن ، فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من  
أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ، ان الله كان غفورا رحيما  
والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم وأهل لكم ما وراء ذلكم  
أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن ، فاتوهن  
أجورهن فريضة، ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة، ان الله كان عليما  
حكيمًا، ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم  
من غنياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض فأنكحوهن باذن أهلن  
وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات، ولا متخذات اخدان فاذا أحصن  
فان أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى  
العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (١) » •

هذه آية من آيات الأحكام لم يستعمل فيها المجاز ، ولا التشبيه ، ومع ذلك  
هي بالغة من البلاغة حد الاعجاز القرآني فالتأخي بين الألفاظ والمعاني ثابت ،  
حتى ان كل كلمة فيها حكم ، توميء الى التي تليها ، مع بيان الحكمة الشرعية ،  
والتعليل لبيان المحرمات التي حرمها وكانت حلالا في الجاهلية في زعمهم ، كزواج  
من كانت زوجة لأصل من أصوله ، وابتدأ بها سبحانه لما لها من خطر وشأن ،  
اذ يتبين تحريم ما أحلوا بزعمهم وما يبتدأ به الكلام يكون قوى التأثير ، وقد  
وصفه سبحانه بأنه فحش في الواقع ، لأنه أمر غير مألوف في الطبائع السليمة ،  
والأخلاق الكريمة ، وأنه ممقوت عند الناس لا يفعله رجل يألفه الناس ، بل  
ييمقتونه ، ولذلك كان يسمى عند العرب ( نكاح المقت ) ، نصح أن الجاهلية ما كانت  
تحرمه بزعمها ، كانت تكرهه وتمقته ، ولا يفعله الكرام •

ولما جاء النص الكريم بتحريم الأمهات ، وهن الأصول من على استشرفت  
النفس لمعرفة حال البنات ، أتطأ أم تحرم ، فجاء التحريم في وقت الاستشراف  
اليه ، والتطلع نحوه ، فكان البيان وقت الحاجة اليه وكذلك الأخوات وهن أولاد  
الآباء والأمهات ، والعلاقة بهن تلي العلاقة بالأولاد ، ثم جاء من بعد أولاد

الأبوين ، وهن الأخوات ، أولاد الأجداد ، وهن العمات ثم الخالات فكانت كل طائفة ممهدة لذكر التي تليها ، تجذبها إليها بمقتضى تداعى المعانى ، كل معنى يدعو أخاه ، وكل واحدة تلتحم مع أختها فى تآلف لفظى ، وتآخ معنوى •

ولقد كانت المرضع تعد أمأ ، كالأم النسبية ، لأن هذه اذا كانت قد حملته فى بطنها ، وغذته من دمها جنيئاً فتلك قد وضعتة فى حجرها وغذته من لبنها رضيعاً وأنشزت عظامه ، وأبنتت لحمه ، كما كانت الأولى ، فكان من تداعى المعانى ، أن يذكر فى ايجاز غير مخل ، الأمهات الرضاعيات من أولادهن ، ومن التقى معه على ثدى واحد •

وكان من مقتضى التناسق المعنوى أن تذكر بعد صلوات النسب الصلات السببية ، وهى المصاهرة فابتدأ بأمهات الزوجات ، ثم اتجه الذهن بعد تحريم أمهات نسائكُم الى الربائب ، لأنه اذا ذكرت الأم تطلعت النفس الى ذكر حكم البنت ، فذكر بعد تحريم أمهات الزوجات ما يتعلق بتحريم بنات النساء ، وهن الربائب ، وذكر حكمة التحريم وهو أنهن فى حجره وكيناته •

وإذا ذكرت ، أمهات الزوجات ، وبناتهن ، وزوجات الآباء ، يكون لتتميم القول ، ولما يستدعيه قانون تداعى المعانى أن تذكر زوجات الأبناء أهن حلال ، أم لا •

وهكذا نرى أن المعانى كل واحدة تدعوها السابقة فتلاحقها فى اتساق ونسق جامع •

وكل ذلك فى نعم متآخ ، وفى صورة بيانية من مجموع القول ، فعندما تقرأ الآيات من أولها الى آخرها ، تجد صورة بيانية ، لأسرة متكاملة ، ليس فيها تقاطع ، بل فيها تراحم ، وتواصل ومحبة ومودة فما كان ذلك التحريم الا لتكون المودة هى الواصلة فلا يفحش ابن مع أبيه ، ولا يمقت ولد أباه ، ولا يعندى أب على ابن •

وان ما اختص به القرآن من تقابل بين الحقائق فى البيان ، وتوافق فى العبارات من غير منافرة ، ولا معاضة ، متحقق ثابت لا مجال لانكاره ، وما اختصت به العبارات من اشراق وضياء ، تجده منيراً حول الكلمات •

وإذا كنا قرأنا آيات الزواج وتكوين الأسرة ، فلنقرأ حكم الله إذا تنافر ودها ، وأصبح التفرق بينهما أمراً لا بد منه ، « وان ينفرتا يغب الله كلا من سعته » فقد قال تعالى :

« يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، وانتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجهن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بدعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً ، واللأئى يئسن من المحيض من نسائكم . ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللأئى لم يحضن ، وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله اليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا ، أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن ، وان كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأنتموا بينكم بمعروف ، وان تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله لا يكاف الله نفساً الا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسرا » (١) •

وترى من هذه النصوص القرآنية أنها تضمنت أحكاماً كثيرة، تضمنت أحكام الطلاق وأحكام العدة ، وأحكام الرجعة ، وأحوال المعتدات وتضمنت بعض أحكام الرضاة ، وأحكام النفقات بين الأزواج ، وخروج المعتدات من بيوتهن • وهنا نلاحظ ملاحظة نفسية قد نبه اليها القرآن الكريم فى أطف تعبير وأعطف نص وكأنه بلسم لشفاء نفوس مجروحة ، قد أرثتها حرقة الألم بسبب الفراق ، ذلك أن الآيات موضوعها الطلاق وهو لا يكون الا اذا تعذر الوفاق ، فالنفوس تكون مضطربة ، واليأس يكون مخيماً ، والعلاقات تكون فى حال آيسة ، ولذلك

نجد فتح باب الأمل لتلك النفوس التي اعتراها يأس من الحياة الزوجية السليمة .  
اذ يقول سبحانه بعد وضع الحدود ، وأن من يتعدها يظلم نفسه « لعل الله يحدث  
بعد ذلك أمرا » (١) ، ثم يبين سبحانه وتعالى العدة ويبين أنها فيصّل تفرقة ، أو  
عودة ، وأن المطلوب امسك بمعروف أو تسريح باحسان ، ويذكر أن الأمر قد  
يكون في طياته ما يخرج النفوس من مضطرب الخلاف الى متسع الوفاق ، فيقول  
سبحانه ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » (٢) من ذلك المزدحم الذي تعترك فيه  
الأحاسيس والمشاعر بين عشرة طيبة أو فرقة لا ظلم فيها ، ويقول سبحانه وتعالى  
في ذلك المقام أيضا « قد جعل الله لكل شئء قدرا » (٣) وبعد أن يبين سبحانه  
وتعالى العدة للآيسة من الحيض ، ومن لم تره ، وهي ثلاثة أشهر ثم يبين عدة  
الحامل ، بعد أن بين عدة الحائل هنا ، ويقول لنفوس محرجة آسفة حزينة عرفنت  
الحاضر والماضى قد فات ان خيرا وان شراً ، وهي تجهل القابل ، فهي تجهل  
ما يطويه ، فيقول سبحانه « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » (٤) ويذكر  
سبحانه وتعالى وجوب النفقة في مواضع وجوبها ، وأحوال وجوبها ، والارضاع  
ووجوبه ، ثم يبين مقدار الواجب ، على أن يكون على قدر طاقته ، على الموسع  
قدره وعلى المقتر قدره ، « لا يكف الله نفساً الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر  
يسراً » (٥) .

وهكذا نجد العبارات القرآنية السامية فيها ظمأنة النفس على ما يطويه  
المستقبل ، فيجعل لهم رجاء بمخرج يخرجهم ، أو يجعل من أمره يسرا ، وان هذا  
النوع من القول هو الذى يقال عندما تتأزم النفوس ، وتقطع العلاقات بعد ود  
كان دائما أو كان يرجى له الاستمرار ، ويشترط لتحقيق ذلك الذى الأمر فرج الله  
به الكروب التقوى والعمل الصالح ، وان هذين اذا تحققا في تلك الحال طابت  
النفوس ورضيت بالواقع ان لم يكن منه مناص وغيرته بالايمان ان كان ثمة  
محل للتغيير .

وان هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ، ليعلم الذين يرون أسرة قد ضاقت

(٣) الطلاق : ٣

(٢) الطلاق : ٢

(١) الطلاق : ١

(٥) الطلاق : ٧

(٤) الطلاق : ٤

صدور أهلها حرجا ، واستولى عليها من الحياة الزوجية الصالحة يأس وغلبت سدنتها  
وذمت رخاؤها أن يفتح باب الرجاء فيها بعد اغلاق الآمال ، وأن يكون ميسراً ،  
ولا يكون معسراً ، وأن يكون مبشراً ، ولا يكون منفراً •

وان تلك النصوص القرآنية السامية تجد فيها البلاغة التي تصل الى أعلى  
الدرجات في ذاتها لافي نسبتها ، فابتدأ الله تعالى الخطاب للنبي صلى الله تعالى  
عليه وسلم ، ثم خاطبت المسلمين من بعد مواجته ، وخوطفوا بالجمع للإشارة الى  
تكافل جمعهم ، وتضافرهم وتعاونهم على البر والتقوى في المواطن الحرجة ،  
والاستعانة بالمشورة والرأى ، وقد أمر بالرفق بالمرأة ، فلا يطلقها الا وهى  
متصلة بحال العدة ، لكيلا يرهقها باطالتها ، فتكون بين اليأس والرجاء في قلق  
نفسى ، وهكذا استمرت الأحكام الرفيعة تبين الآيات منها حكماً بعد حكم •

وجمال التعبير يشرق دائماً ، وحلاوة النغم تنساب في النفس انسياب النмир  
العذب ، كما تتطلق الأحكام الى العقل والقلب في اتعاظ واعتبار واهتداء الى الحق  
وفى انسجام فكرى •

واذا كان سرد الأحكام خصوصاً في موضع دقيق كأحكام الأسرة يكون بادى  
الرأى في كلام الناس جافاً غير مشرق ، فان ذلك كلام الناس ، أما في كلام الله  
تعالى فانه مشرق طيب الأعراق ، واضح القسمات في نعم هادىء يطب للقلوب  
جفاؤها ، فيذهب وللنفوس فتقى الشح ، وهو عظة وهداية وتوجيه الى العدل  
المطلق المنظم للأسرة في سلامتها وبقائها ، وفي فصلها وانتهائها ، وسبحانه ان  
العليم الخبير •

## التشبيه في القرآن

١٠٥ - انتهينا الى أن التشبيه في القرآن ليس هو مقياس البلاغة ، لأن  
البلاغة القرآنية العالية كما تكون في حال التشبيه والاستعارة والمجاز ، تكون أيضاً  
في الكلام الخالى من كل هذا وأخص ما يكون ذلك في آيات الأحكام ، وقد يكون  
في القصص والاستدلال ، وغير ذلك مما نعرض له ، وقد تلونا عليك آيات من آيات

الأحكام ، وجدنا فيها النص الكريم في حقائقه ، وفي بعده عن كل المحسنات البديعية أعلى من كل كلام ، وهو بديع في ذاته من غير حاجة الى البديع الصناعي ، أو الاصطلاحي ، فانه فوق قدر البشر ، وفوق ما يصطنعه البشر ، وما يصطلح عليه العلماء ، وانه يتعلم منه ، وان كان لا يحاكي ، ويؤخذ منه وان كان الوصول الى مقامه غير ممكن •

ولنتكلم الآن في تشبيه القرآن •

لقد ذكر الرماني في رسالته النكت في اعجاز القرآن : « التشبيه هو العقد على أن أحد الشئيين يسد مسد الآخر في حس أو عقل وان ذلك التعريف يضع المشبه والمثبه به في مرتبة واحدة ، وانى لا أرى ذلك ، ولا يراه علماء البلاغة الذين جاءوا بعد أبى الحسن الرماني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ - فأنهم يعرفونه بأنه جعل أحد الشئيين في مقام الشئ الآخر لأمر مشترك بينهما • وهو في ثانيهما أقوى مظهراً أو أبين مخبراً ، كما تقول على كالأسد في الشجاعة ، فهو في الأسد أظهر ، ولا يمكن أن يقال : « ان أحدهما يسد مسد الآخر ، صورة أو معنى » •

ولنترك التعريف مع رأينا فيه ، ولننظر في قوله من بعد ، فهو يقول : « وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء ، وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وهو على طبقات في الحسن ، فبلاغة التشبيه الجمع بين شئيين بمعنى يجمعهما ، والأظهر الذى يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه » ويذكر وجوه التشبيه وأنواعه فيقول في ذلك :

« منها اخراج ما لاتقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، ومنها اخراج ما لم تجربه عادة الى ما جرت به عادة ، ومنها اخراج ما لا يعلم بالبديهة الى ما يعلم بالبديهة ، ومنها اخراج ما لا قوة له في الصفة الى ماله قوة في الصفة ، فالأول نحو تشبيه المدوم بالغائب ، والثانى تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه اعادة الأجسام باعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء النهار » •

ولاشك أن هذه الوجوه لا تشمل كل أقسام المقسم ، فمن التشبيهات ما ليس بوجه من هذه الوجوه كتشبيه غير الواضح بالواضح كما ترى ذلك في كثير من



الآيات القرآنية ، وبالتشبيه الذى يقصد به بيان ما أكنه سبحانه وما خلق وما دبر فهو تقريب بالمعيب عنا الى المعلوم لنا ، وما عند الله أعظم وأكبر ، وقد يكون التشبيه لتقريب المعنى الكلى من المعنى الجزئى أو لتصوير المعنى الكلى فى بعض جزئياته ، كقوله تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون (١) » فإنه كار عقد المشابهة بين المعنى الكلى ، وهو المعنى الجامع الذى يوضح به الحقائق بالأمثال التى ضربها وبينها للناس ، ومن ذلك الأمثال التى تضرب لتقريب أصل الخلق والتكوين من عقول المكلفين ، وهكذا وقد يكون هذا يتضمنه مطوى كلامه ، ولكنه غير بين •

ولقد قسم أبو الحسن الرمانى التشبيه بالنسبة للغرض منه الى قسمين فيقول التشبيه على وجهين تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة ، فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب ، وتشبيه الحقيقة نحو هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت • ونحن نقول ان ذلك التقسيم يجوز أن يكون بالنسبة لكلام الناس ، أما القرآن الكريم ، فان كل تشبيحاته ، فيها البلاغة وفيها الحقيقة ، والمثل الذى ذكره وان كان فى أعلى درجات البلاغة هو الحقيقة ، فان التشبيه صادق فى الواقع لأن أعمال الذين كفروا هى السراب الذى ليس له واقع ، ولكنه وهم يسيطر بأبصار ضال ، فكما أنه لا جدوى والمتعلق به لا يتعلق بأمر واقع ، فكذلك اذا رأوا أن أعمالهم فيها خير يعود عليهم فهم واهمون ، والصفة المشتركة فى التشبيهين هى أن الوهم وهو ما ليس واقعاً وتصوره على أنه واقع ، فقد تصوروا أن أعمالهم حسنة ، اذ زينت لهم أمراً حسناً ، كمن يرى السراب فيحسبه ماء وهو ليس بماء •

ولذلك نقول ان الوجهين محققان فى كتاب الله تعالى ، ففى التشبيه القرآنى الحقيقة الصادقة ، والبلاغة القائمة المعجزة • وقد أتى بالأمثلة على وجه التشبيه التى ذكرها ، وتبعه الباقلان فى كتابه اعجاز القرآن ، فلا ضير علينا اذا تابعناه ، كما تابعه من كان عصره على مقربة من عصره •

١٠٦ — وقد ذكر الرمانى ، وتبعه الباقلانى مثلاً للتشبيه الذى شبه فيه

ما لا يقع عليه الحس مما يقع بقوله تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً (١) » .

هذا ما ساقه الرماني من الآية ، ولنتمه ببيان مافيها من تشبيه ، فقد قال تعالى بعد ذلك « ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٢) » .

وقد علق الرماني على التشبيه الأول في الآية الأولى ، فقال : « وهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، وان اجتمعا في بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، وبوقيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه كان على خلاف ما قد رأى لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمآن أشد عليه حرصاً ، وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الأمنية حصل على الحساب ، الذي بصيره الى عذاب الأبد ، نعوذ بالله من هذه الحال ، ونشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف اذا تضمن ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفوائد ، وصحة الدلالة » .

ولم يبين لنا الرماني ، لماذا كان تعبير القرآن في التشبيه حيث يرى السراب ، أبلغ من أن يقال يحسبه الرائي ماء ، لم يبين بوضوح أوجه ذلك ، ونرى أن قول القائل يحسبه الرائي ماء يفسد التشبيه ، ولا يفيد الحاجة ، لأن النص فيه ما يفيد الرغبة في طلب الماء وشدة الحاجة اليه ، وذلك محقق في المشبه ، إذ أن الذين كفروا بآيات الله في وقت حاجتهم الى عمل صالح يظنون أن عملهم هذا منه وهم محتاجون الى ما يتقدمون به الى ربهم من عمل صالح فهم في وقت حاجة الى عمل صالح ، كالظمآن يطلب الماء » .

وان التشبيه يدل على حيرة الكافرين ، حتى يتوهموا ما لا يقبل الوقوع واقعا وقد أكد حيرتهم ما جاء بعد ذلك ، إذ يقول سبحانه وتعالى : « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا

أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (١) » •

فإذا كان التشبيه الأول شبه حالهم بحال من يتوهمون في علمهم خيرا ، فيكونون كالظلمان يحسب السراب ماء لحيرتهم ، واضطرابهم واجتنبهم الى الماء ، فالمثل الثانى يصور حيرتهم ، بسبب أنهم في ظلام دامس فقد تشب سبب سببانه وتعالى حالهم من حيث الحيرة والتباس الأمور عليهم ، وانقطاع الادل وانهم يظنون الخير حيث لا مظنة ، أعمالهم بظلمة حالكة فوقها ظلمة مثلها ، وفوق هذه الظلمات سحب يوجد غمة ، فليست أعمالهم خيرا ولكنها شر عظيم عليهم ، وهم يضاعفون من الظلمات بتوالى أعمالهم الشر فيهم ، وسيرهم في طريق الغى الذى لا حدا ، وقد تكاتف عليهم سوء ما فعلوا •

وخلاصة ما يستنبط من التشبيهين أنهم في حيرة يطلبون ما ينجيهم فما يجدونه ، واذا توهموه في أمر زال الوهم بالحقيقة المبصرة ، وأنهم بسوء أعمالهم في ظلمات بعضها فوق بعض وهى في نفوسهم ، وما يحيط بهم ظلمة داكنة لا يجدون بصيصا من الأمل يفتحون أعينهم لرؤيته •

والتشبيهان يعطيان صورتين من البيان، تدلان على كمال الحيرة وكمال الظلمة، فالمثل الاول يعطى صورة عطشان يطلب الماء ، فيتوهمه في سراب فيجرى وراءه عطشان صادياً ، حتى اذا أجهده المشقة وبعد الشقة لا يجد شيئاً ، والثانى يعطى صورة لشخص كانت عليه الظلمات توضع واحدة فوق واحدة ، واذا كانت فيها فرجة يرجو منها الرؤية لا يصل اليه النور للسحاب الذى به كانه الغمة ، ومن تشبيه الأمر غير المحسوس بالأمر المحسوس ، كالمثل السابق في قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد (٢) » •

ويقول الرماني في التعليق على التشبيه « فهذا بيان قد أخرج ما لاتقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم

الانتفاع ، والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة  
البليغة « هذا كلام الرمانى » وهو صدق ، وانى أدق من التشبيه شيئاً بيانياً آخر ،  
ذلك أن أولئك الكافرين كانوا يحسبون أن أعمالهم لها أثر في الوجود في زعمهم •  
ويتوهمون وقوع ذلك وأنهم قدموا ، ولكنهم يفاجئون بريح شديدة في يوم  
عاصف ، تبدد ما كانوا عليه من أحلام ، كانوا يتوهمون أن مالهم في الدنيا ينفعهم  
فلما جاء يوم القيامة بددت أحلامهم ، فنتقدموا عاطلين في حلبة العمل الطيب وكان  
ذلك هو الضلال البعيد ، لأنهم زعموا باطلاً ، ثم رأوا الحقيقة عياناً وفي ضمن  
القول عبر عن عملهم بأنه سراب ، أى أنه شيء ليست له قيمة ذاتية بل هو هباء  
في ذاته •

١٠٧ - وقد جاء الرمانى بمثل فيه تشبيه ما لم تجربه العادة بما تجرى به  
العادة ، وهو قوله تعالى في توثيق الميثاق على بنى اسرائيل « واذ نتقنا الجبل  
فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه  
لعلكم تتقون (١) » ويقول في ذلك الرمانى « وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة  
الى ما جرت به العادة ، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة ، وفيه أعظم  
الآيات لمن فكر في مقدرات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو علمه به ، ليطلب الخير  
من قبله ، ونيل المنافع بطاعته » •

هذا ما ذكره الرمانى في معنى التشبيه • وهو تشبيه ما لم تجربه العادة ، الى  
ما جرت به العادة ، كأن التشبيه كان لغرض تقريب المعنى ، وتصوير الغريب كأنه  
قريب ، وذلك في تشبيه الجبل مرتفعاً كأنه ظلة ، وهذا المعنى في ذاته صحيح ولكنه  
فيما أعتمد ، لا يصور معنى التشبيه من كل الوجوه ، لأن رفع الجبل كان لتوثيق  
الميثاق عليهم ، وحملهم على الأخذ به واثبات قدرة الله تعالى ، والقاء المهابة في  
قلوبهم ، فالتشبيه بالظلة للدلالة على الاحاطة وتصويره لهم كأنه نازل بهم واقع  
عليهم ، ليعرفوا أن ميثاق الله له رهبتهم وأن عليهم طاعته ، ولذلك قال سبحانه بعد  
أن رأوا الجبل مرفوعاً عليهم وأنه محيط بهم « خذوا ما آتيناكم بقوة - أى بعزم

شديد — واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » •

ومن هذا النوع الذى ذكره الرمانى قوله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى اذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كان لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات ، لقوم ينتفكرون » (١) •

وقد خرج الرمانى التشبيه كالأية السابقة فى نظره ، فقال : « قد أخرج ما لم تجرب به العادة ، الى ما جرت به العادة ، وقد اجتمع المشبه ، والمشبه به فى الزينة والبهجة ، ثم الهلاك بعده ، وفى ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر فى أن كل فان حقير ، وان طال مدتة ، وصغير ، وان كبر قدره » •

وما ذكره الرمانى حق فى ايجازه ، ولكنه ناقص ونوضحه بعض التوضيح فنقول ان التشبيه تصوير للحياة ، فان مثلها فى بهجتها ومسراتها ، وهنائتها والسعادة فيها مهما تبلغ من المظهر البهى ، والزينة الباهرة ليس لها بقاء ، وانما مآلها الى الفناء ، كمثل الماء ينزل من السماء فينبت النبات الذى يأكل منه الناس مستمتعين ، والأنعام والدواب ، وانه اذ يبلغ أقصى زخرفه ونضرتة ومتعته ، وامتلاء أهل الأرض بالغرور ، وظنوا أن كل شئ فى قبضة أيديهم جاءهم أمر الله ، فصار النبات هشيما ، والانسان رميما كان لم يقيم أحد بالأمس •

وان ما ذكره الرمانى صادق فى ايجازه ، ولكنه لا يصور الصورة التى يدل عليها التشبيه ، وهو يريك الحياة كالعروس فى جلوتها ، ثم كالهشيم فى صفاره • ومن التشبيهات التى ساقها الرمانى قوله تعالى : « انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » (٢) •

ويقول الرمانى فى بيان وجه التشبيه ، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجرب به عادة

(١) يونس : ٢٤

(٢) القمر : ١٩ — ٢٠

الى ماقد جرت به عادة وقد اجتمعا في قلع الريح لهما واهلاكه اياهما وفي ذلك توحد الآية الدالة على عظيم القدرة ، والتخويف من تعجيل العقوبة •

وان هذا القدر الذي ذكره الرمانى متحقق ، ولكن لا يمكن أن يكون وجه التشبيه هو تشبيه ما لم تجر العادة به بما جرت به العادة فقط ، انما الألفاظ والأسلوب ، وما يثيره من صور بيانية تعلق به عن أن يكون مجرد اثبات ما لا تجرى به العادة الى ما تجرى • انما المقصود من التشبيه فيما نحسب تصوير عذاب الله تعالى ، فالله تعالى أرسل عليهم ريحا شديدة البرد ، في يوم كله بأس وشدة ، وهو كالنحس عليهم ، طويل في آلامه ، ومستمر غيها ، ولو كان في الزمن قصيرا ، ثم يصور الله تعالى نزع المشركين من غرورهم واعتزازهم بمالهم وطعوائهم ، وينزع بعنف شديد لا يقوون فيه على الامتناع ولا الاصرار على البقاء ، كما نزع مؤخرات وجذور نخل غاصت جذوره في أعماق الأرض •

هذا بريق التشبيه المرعد الذي يصور ما ينزل بالمشركين الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد •

ومن التشبيهات التي ذكرها الرمانى على أنها تقرب ما لم تجر به العادة الى ما جرت به العادة ، قوله تعالت كلماته « فماذا انشقت السماء ، فكانت وردة كالدهان » (١) •

وقال في التشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة الى ماقد جرت به عادة ، وقد اجتمعا في الحمرة وفي لين الجواهر السائلة ، وفي ذلك الدلائل على عظم الشأن ونفوذ السلطان لتتصرف الهمم الى ما هناك بالأمل •

وان تصوير التشبيه ، وقصره على ذلك الوجه ، وهو تشبيه ما لم تجر به عادة الى ما تجرى به عادة ربما يكون غير مصور لمعنى التشبيه ، وما يثير من صور •

ان التشبيه تصوير لما يقع اذ تقوم القيامة ، فالسماء ذلك البناء الذي تجرى

فيه الكواكب والنجوم ، كل في مساره ، وهى البناء الذى بناه الله تعالى شامخاً عظيماً ذا بروج صار وردة كالدهان .

وفى ذلك تصوير للدنيا اذ تقوم القيامة ، فتكون السماء لينة كالورد الذى يشبهه الدهن مبالغة فى ليونته التى تصل الى حد السيولة .

١٠٨ — ويسوق الرماني أمثلة أخرى يتبين فيها تشبيهه ما لم يعلم الا بالنظر بما يعلم بالبداهة من غير محاولة نظر واستدلال ، ومن ذلك قوله تعالى : « وجنة عرضها كعرض السماء والارض » (١) ، ويقول فى التشبيه هنا ، قد اخرج مالا يعلم بالبداهة الى ما يعلم ، وفى ذلك البيان العجيب بما قد تقرر فى النفس من الأمور ، والتشويق الى الجنة بحسن الصفة مع مالها من السعة وقد اجتمعا فى العظيم .

وانا نجد الآية الكريمة فى تشبيهها ليست من قبيل تشبيهه ما لا يعلم بالبداهة بما يعلم بالبداهة ، فاننا نرى أن كليهما لا يعلم بمجرد البداهة ، بل يعلم بالنقل المصدق ، فهما سواء فى صلتهما بالعلم الضرورى ، وانما اذا قيل ان المراد تصوير العقول بما يتصور أن يكون مشهورا محسوسا والجميع باخبار الله تعالى ، لا بمجرد النظر ، سواء كان الامر ضروريا أم نظريا . واننا اذا تلونا ما قبل هذا النص وما بعده وهو قوله تعالى : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماء والارض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم (٢) » .

ونرى من هذا أن المراد السعة فى النعمة ، وان السعة فى النعمة كالسعة فى المكان ، وهى تدل عليه ، والمراد من الكلام كله الحث على طلب مغفرة الله تعالى ، وان الكلام كله يصور الجنة ، بأنها خير الوجود كله ، وأنها أوسع ، وأنه اذا كانت النار تسع كل المجرمين ، لان لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم ، فالجنة تسع المتقين الابرار ، لانها واسعة عريضة كعرض السماء والارض .

ومن التشبيه الذي ذكره الرماني على أنه تشبيه ما لا يعلم بالبداية الى ما يعلم  
توله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل  
أسفارا » (١) ثم قال : وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة الى ما يعلم  
بالبديهة ، وقد اجتمعا في الجهل بما حملا ، وفي ذلك العيب أن ضيع العلم بالاتكال  
على حفظ الرواية من غير ولسنا نرى في الكلام ما يدل على أن المشبه لا يعلم  
بالبداية ، والمثبه به يعلم بالبداية . ان الذي نراه ليس علم الرواية وعلم  
الدراية ، انما الذي تنتجه اليه الآية الكريمة في صدرها ونهايتها ، هو تشبيه علم  
لا يقرنه العمل ، بعدم العلم ، فهم يحملون علما لا ينتفعون به ، بل يعملون  
بنقيضه ، يحملون علم الهداية ولا يهتدون ، كمثل الحمار يحمل أسفارا .

وكان تشبيههم بالحمار الذي يحمل أسفارا وهو غير صالح للانتفاع ، وفي  
التعبير القرآني اشارة بيانية تبين أن العمل هو ثمر العلم ، ولا يقال انه قد ناله  
من أخذه من غير عمل ، وذلك قوله تعالى : « حملوا التوراة ثم لم يحملوها » ان  
الله حملهم التوراة علماً لأجل العمل ، فعلموها ولم يعملوا بها . فكانوا غير حاملين .

١٠٩ — وقد ساق الرماني من تشبيهات القرآن تشبيهات فيها المشبه يكون  
أضعف صفة من المشه به فيلحق به لأنه أقوى صفة منها ، ومن ذلك قوله تعالى :  
« وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام » (٢) ويقول في ذلك فهذا تشبيه قد  
أخرج ما لا قوة له في الصفة الى ماله قوة فيها ، وقد اجتمعا في العظم الا أن  
الجبال أعظم ، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة ، فبما سخر من الفلك  
البارية مع عظمها ، وما في ذلك الانتفاع بها ، وقطع الاقطار البعيدة فيها .  
وان ذلك الكلام حق ، فانه اذا كان الجميع بين المشبه والمثبه به القوة ، فالجبل  
أقوى ، واذا كان الظهور فالجبل أظهر ، ولكن يلاحظ أن المقصود من التشبيه لا  
يعنى به الرماني كثيرا ، بل تكون عنايته بالاوصاف الظاهرة ، أو المقاصد القريبة .  
وان المقصود في هذا السياق هو بيان سر الله تعالى في خلقه وتسخيره للانسان ،  
فانه اذا كانت الجبال والأوهاد وجدها الانسان كذلك ، وهي رواسي الأرض ، وبها



ثباتها ، فإن الجوارى ، وهى السفن التى تقارب فى علوها وفى قوتها وأثقالها الجبال تجرى على الماء وهو يحملها مع أنه سائل لا صلابة فيه وتجرى فيه ، وتنقلهم الى بلد لم يكونوا واصلين اليه بغيرها ، فقدره الله تعالى فيها أظهر، لأنها منشأة ترى نشأتها ، وهى تجرى بأمر الله تعالى ولا يجرونها •

ويضرب الرماني مثلا فيما يجرى فى المعنويات ، ومن ذلك قوله تعالى «أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر (١) » • ثم يقول : وفى هذا انكار لان جعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن بالله وكحرمة الجهاد ، وهو بيان عجيب وقد كشفه التشبيه بالايمان الباطل والقياس ، وفى ذلك الدلالة على تعظيم حال المؤمن بالايمان ، وأنه لا يساويه مخلوق على صفته فى القياس • ومثله قوله تعالى « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات » (٢) •

ونجد الرماني فى المثال يأتى بالتشبيه منفيًا مستنكرا ، كما أتى به محققا موجها ، فان الاستفهام هنا لانكار الواقع ، فهم قد آثروا أن يكونوا عامرين للبيت ، قائمين بالسقاية والرفادة ، ويتنافسوا على ذلك زاعمين أن فيه الخير كله ، وأنه قد يغنيهم عن الايمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله ، بل يزعمون أنهم بسدانة البيت الحرام ، والقيام على السقاية والرفادة أفضل ممن آمن بالله وجاهد فى سبيله • والحقيقة أنهما لا يستويان ، فالانكار المشابهة والتساوى بينهما فضلا عن اعتبار السقاية والعمارة أفضل وأشرف • والله سبحانه وتعالى أعلم •

هذا ما ساقه الرماني من وجوه التشبيه ، وقد نقلناها ، كما نقلها الباقلاني لأنها وجوه لها اعتبارها ، ولان فيها ضبطا لأقسام التشبيهات القرآنية ، وان كانت غير شاملة لكل الأقسام ، بل انها ذات وجوه شتى •

واكنه لم يتعرض الا قليلا لأغراض التشبيبات ومراميتها ، وما تصوره من صور بيانية ، وما نتجه من بسط للمعاني النفسية ، وتوجيه للحقائق الكونية والروحية ،

ووصف للملائكة الأطهار ، والآدميين الأخيار •

ولنضرب بعض أمثلة لتشبيهات القرآن الكريم التي تجعل فيها المعاني كأنها صور محسوسة لافتة العقول الى الكون وما فيه ، اقرأ قوله تعالى في تشبيه المنافقين وترددهم بين الحق والباطل ، وظهور ضوء الحق ، وعمى بصائرهم عنه ، فقد قال تعالى :

« مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١) » ، وترى هنا تشبيه حال المنافق المضطرب بين الحق والباطل ، ولكن يريد الحق تابعا لهواه ، فهو يطلبه ليستضيء بنوره ، ولكن ما أن بيدو النور ، حتى يصاب بالعمى بسبب الهوى الذي يسيطر على قلبه ، فيضيء النور ما حوله ، ولا يستضيء به ، وهو الذي استوقد النار ، ثم ينتهي أن يصير كالصم الذين لا يسمعون ، لأنه لا يستمع لنداء الحق ويصير كالكم ، لأنه لا ينطق بالحق الذي يجب عليه أن ينطق به ، وكالأعمى الذي لا يميز بين الاشياء لأنه وقد طمس الله تعالى على بصيرته ، فأصبح لا يميز بين باطل استهواه لفساد قلبه ، وحق قامت البيئات عليه ، وفي الحكم عليهم بالصم والبكم والعمى تشبيهات فردية ، وهي تقوم على التشبيه •

والتشبيه في هذا النص تشبيه حال بحال ، والآية صريحة في ذلك لأن الله تعالى يقول : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » أي حالهم كحال الذي استوقد نارا ، فهو تشبيه تمثيلي شبهت حال المنافقين ، وأكثرهم من اليهود في كونهم كانوا يتطلعون الى نبي قد حان حينه ، وأدركهم ابانه ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلما بدأ الضوء من حولهم ، ولم يستضيئوا هم به ، فلم يهتدوا بقول سمعوه ، ولا نطقوا بحق عرفوه ، ولا استرعتهم بينات رأوها فكانوا صما بكما عميا •

وقد ضرب سبحانه وتعالى في السياق القرآني مثلا بتشبيه آخر ، يمثل جانبا من جوانبهم ، فقال بعد التشبيه الأول « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد

وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله مهيب  
بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم  
عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، ان الله على كل شيء  
قدير (١) » .

وفي هذا المثل شبه سبحانه وتعالى حالهم بأمرين : كل واحد منهما تشبيه  
قائم بذاته ، أولهما : أنه سبحانه وتعالى شبه حالهم بحال قوم أصابهم مطر  
شديد ينصب عليهم انصبابا ، صحبه غمام بعد غمام فيه ظلمة بعد ظلمة وفيه رعد  
وبرق ، وفيه الانذار بالعذاب الشديد ، فهم في خوف ووجل يحسبون كل صيحة  
فيها الموت ، ويجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت ، وفي هذا تصوير لنفس  
مناغقة ، فهي نفس تائه فارغة دائما لا تستقر على أمر ، ولا تطمئن على قرار ،  
فهم في اضطراب ، لأنهم لا يؤمنون بشيء ، والايمان هو المطمان دائما . الا يذكر  
الله تطمئن القلوب ، واذا كان التشبيه السابق يصور حالهم في طلب الدليل وعدم  
الخذ به لغلبة الهوى ، وسيطرة الشهوة ، والجحود الموروث ، فهذا التشبيه يصور  
حالهم من هلع مستمر وخوف من غير مخوف وذلك يقول بعض علماء النفس : ان  
النفاق منشؤه ضعف في النفوس .

والتشبيه الثاني متفرع عن التشبيه الأول ، وان كان يصلح تشبيها قائما  
بذاته وهو ما أوما الله تعالى بقوله : « يكاد البرق يخطف أبصارهم » وان  
هذا تتيمم للأول ، وهو أيضا قائم بذاته ، فانه اذا كان الرعد يجعلون أصابعهم  
في آذانهم به ، فالبرق الذي يصحب الصيب شديد مفرع له بريق يكاد يخطف  
أبصارهم ، ولكن كان هو تشبيها لحالهم ، وهي أن المنافق متردد دائما . فالبريق  
يضيء لهم فيمشون فيه ، ولكن سرعان ما تظلم عليهم نفوسهم فيقيمون حيث هم  
من نفاق ، ويختتم الله تعالى النص القرآني في هذا التشبيه المحكم ببيان قدرة  
الله تعالى وسيطرته عليهم وأنه سبحانه لو شاء لأفقدهم سمعهم وبصرهم  
حقيقة ، كما فقدوا سماع الحق استماع انصات ، وادراكه ادراك طالب للحقيقة .

والتشبيه في هذا المثل كسابقه ، تشبيه تمثيلي ، انه شبه حالهم في ضعف نفوسهم والبلبال المسيطر عليهم واضطراب أحوالهم بحال قوم أصابهم مطر لم يكن غيثا منقذا ، بل كان مرهبا ومفزعا ، فكانوا في خوف واضطراب من غمام مظلم ، وريح عاصف ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف وصاروا يجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت ، فهو تصوير لضعفهم وفي التشبيه الثاني الذي هو شرع بالنسبة لما قبله تصوير لفرعهم من البرق ، وتصوير لكون أسباب الهداية بين أيديهم وهي في ذاتها مضيئة ، ولكنها تظلم عليهم فيقيمون على نفاقهم ، ويستمرون في غيهم ، والله قاهر فوقهم ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم .

١١٠ - وقبل أن نغادر الكلام في التشبيه الى الاستعارة ، وهي لون من ألوانه لا بد أن نشير الى أمور ثلاثة :

أولها - أن التشبيه بلا شك من أسرار الاعجاز ، ويعده الباقلائي من أسباب الاعجاز ، ولكن يعد الكلام في القرآن من غير مجاز ولا تشبيه بأي لون من ألوانه معجزا بلغ ذروة البلاغة من غير أن تعرف سببا واضحا يدرس على أساسه ، وتتعرف أسرار البلاغة فيه من اشعاعه وليسع معنى ذلك أن الاعجاز ليس بيانيا ، بل هو بياني ، ويبدو ذلك في تساوق المعاني ، وأخذ الألفاظ بعضها بحجز بعض في احكام قول . ونعم ورنين يكون أحيانا شديدا يصك آذان المنذرين ، وأحيانا كأنه نسيم عليل يحيي النفوس ويشفي أسقام القلوب وأحيانا يكون وصفا عميقا لخواطر النفوس ، وما يستكن في القلوب ، وهذه هي البلاغة في القرآن التي تعلق عن أن توضحها الأفهام كما يرى ضوء الشمس ولا يعرف كنهه ، وكما تحس بالحرارة الدافئة ، ولا تعرف ماهيتها ، والله على كل شيء قدير .

الأمر الثاني - أن تشبيهات القرآن أيا كان وجهها صور بيانية ، تتضح منها الحقائق الظاهرة ، والمعاني العاطفة ، كأنها أمور محسوسة مرئية ، فاذا كان التشبيه بأمر محسوس كانت الصورة البيانية كأنها مرئية واضحة ، فالتشبيه الأول من تشبيهات المنافقين تقرأه كأنك ترى رأى العين رجلا استوقد نارا ، والسين والتاء للطلب ، وهما يدلان على أنه بذل مجهودا في طلب الضوء ، وعالج الأمور

في طلب الوقود ، حتى وصل اليه بجهد ومشقة ، ولكن ما أن أضاء حتى ثبت أنه لم يكن في الضوء فائدة له ، لانه غلبته شهوته ، فغابت شقوته فكان الضوء لمن حوله ولم يكن له ، فلم ير النور الذي طلبه ، وأصم أذنه عن الحق ، وانتخب لسانه فلم ينطق بحق ، والبيان القرآني الكريم صور ذلك كأنك تراه ، لا تقرؤه تعالت كامات الله •

والتشبيه بما تضمن من تشبيه في آخره ، يريك صورة الضعف ، وما يحدثه النفاق في النفوس من ضعف يجعلها تطير حول كل مطار ولا تطمئن على قرار ، فهي تسير برعونة نحو المطامع ، وتستخذى وتذل وتخضع أمام المفازع ، وقد شبيهم بقوم نزل عليهم مطر ينصب انصبابا ، والظلمات قد صارت كسقف مرفوع فوقهم والرعد بهزيمه يزعجهم ، والبرق يخطف أبصارهم ، وذلك تصوير كأنه المرئي ، وتبين لمعنى الخوف والاضطراب الذي يسكن قلوبهم ، ويجعلهم بين خوف يؤرقهم ، ومطامع تحركهم ، والشر يحوط بهم في كل أحوالهم •

الأمر الثالث الذي نجده في تشبيهات القرآن أننا نجده يقرب المعاني ، ويأخذ من التشبيهات الأدلة المفرقة بين الحق والباطل ، اقرأ قوله تعالى ؛ « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستونون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون • وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم » (١) •

ونرى أن التشبيه الأول من قبيل التمثيل ، وهو تشبيه حال من يعبد الأصنام اذ يسوى بينها وبين الخلاق العليم — بحال من يجعل العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء بحال من رزقه الله تعالى رزقا حسنا ، وهما لا يستويان حالا وشأنا ، والنتيجة لا يستوى صنم لا يقدر على شيء بالله تعالى الذي يملك الوجود كله ، وهو على كل شيء قدير •

وفي التشبيه الثاني كان التشبيه بين حال المشركين في تسويتهم بين الله القادر ، والحجر الذي لا يضر ، ولا ينفع ، وحال من يسوى بين رجل أبكم وهو كل ،

وبين رجل ينطق بالحكم ويقيم العدل لا يستويان ، فلا تصح عبادة الأوثان  
وتسويتها بالله •

وان الله سبحانه وتعالى يقرب الحقائق بين قوم حسين بالمحسوسات ، يضرب  
الأمثال بالتشبيهات لتقريب الحقائق ، وتوضيح الأدلة بما يقربها ، ولو كان ذلك  
بالاشياء التي يستحقها المشركون ، وهي في ذاتها ليست بحقيرة ، ولكنها جليلة ،  
لأنها من خلق الله تعالى ، ولقد قال الله تعالى في ذلك : « أن الله لا يستحيي أن  
يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فليعملون أنه الحق من ربهم ،  
وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ،  
وما يضل به الا الفاسقين » (١)

وبعد فان القرآن غذاء الأرواح ، ومائدة الله للنفوس مختلف ألوانها ، وكلها  
طيب الثمرات ، نفعنا الله به ، وجعله درعنا في الأحداث التي تنزل بنا نأوى عنده  
ونركن إليه ، ولا تعشو الا الى ضوئه •

## الاستعارة

١١١ — الاستعارة ضرب من ضروب التشبيه وتكون العلاقة بين المعنى  
الأصلي للفظ بالوضع الأصلي والمعنى في الاستعمال المجازي المشابهة ، فاذا قال  
القائل عن رجل شجاع معبراً عنه بكلمة الأسد ، أو قال عن رجل خطيب شجاع  
انه على بن أبي طالب فان العلاقة تكون في الأول الشجاعة التي يضرب بالأسد  
المثل فيها ، وفي المثل الثاني الشجاعة والخطابة •

وعلى ذلك يكون بين التشبيه والاستعارة اتصال ، وان شئت فقل انها طريق  
من طرق التشبيه أو هي تشبيه فيه مبالغة فان المشبه يدعى فيها أنه فرد من أفراد  
المشبه به ، ولذلك لا بد فيها من أمرين : أولهما ألا تكون ثمة أداة تشبيه كالكاف  
أو الاستعمال أو أن يكون المشبه محمولاً عليه والمشبه محمولاً مثلاً ، وألا يكون  
المشبه مذكوراً بأي صورة من الصور ، وثانيهما — أن يكون اللفظ الدال على المشبه

به لفظاً عاماً كاسم جنس ، لكى يدخل المشبه في عموم أفراده بمظهر اللفظ ، كأن يقول تقدم للأعداء أسد له لبد ، فانتقم الله تعالى به منهم ، فان قرينة القول تدل على أنه انسان ، وكأنك ادعيت أنه من أفراد الأسد ذلك الرجل الشجاع الذى أطلقت عليه اسم الاسد .

وقد عرف أبو الحسن الرمانى الاستعارة ، فقال : وهى تعايق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة . وهذا التعريف هو فى معنى ما ذكرنا ، غير أنه أشار الى أن الاستعارة نقل اللفظ من المعنى الذى وضع له الى معنى آخر لعلاقة المشابهة بين المعنيين . وهو فى المعنى ادعاء أن لفظ المشبه به اتسع حتى صار عاماً ، فدخل فى عموم المشبه ، ويفرق بين المعنى بالوضع الأول والمعنى بالوضع الثانى بالقرينة ، فهى مانعة من ارادة المعنى بالوضع الأصلى .

والاستعارات فى ألفاظ القرآن كثيرة منها قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الأبواب » (١) .

فالتعبير بأم الكتاب تعبير مجازى بالاستعارة ، لأن الأم هى الأصل وهى التى تقوم على أولادها ، ويرجعون اليها فى غذائهم وعواطفهم ، فشبّهت بها الآيات المحكمات التى هى أصل الدين ومرجعه ، واذا كانت متشابهات ، فهى تفسر بالرجوع الى هذا الأصل ، وهو المحكمات .

ومثل ذلك قوله تعالى : « يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (٢) ولتعبير مجازى بالاستعارة ، والمراد بالأم الأصل ، وهو الشريعة المتفقة فى كل الديانات ، فبنسخ الله تعالى ، وثبت ، ولكن أصل هذه الشرائع لا يتغير ، وهو

الذى بينه الله تعالى فى قوله : « شرع اكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب » (١) •

ومن الاستعارة فى الافعال قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ، ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن (٢) » • فقد شبه سبحانه وتعالى تقديم المؤمنين أنفسهم رجاء ما عنده من نعيم مقيم ، ورضوان من الله أكبر شبه ذلك بمبايعة بينهم وبين ربهم لكمال الالتزام عليهم ، ورجاء ما طلبوه من رضوان ونعيم مقيم ، وهى استعارة تمثيلية ، والاستعارة التمثيلية فيها تشبيه حال بحال ، لا تشبيه ألفاظ مفردة يمثّلها ، وان المشبه محذوف ، ولذا تحقق كونها استعارة •

ومن الاستعارة التعبير عن النفاق بالمرض ، وان ذلك كثير فى القرآن ومنه قوله تعالى فى وصف المنافقين : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » (٣) وقوله تعالى « واذا ما أنزلت سورة ، فمنهم من يقول أيكّم زادته هذه ايماننا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون » (٤) •

وفى الآيتين الكريمتين نجده سبحانه وتعالى عبر عن النفاق بالمرض ، وذلك للمشابهة بين مرض الأجساد والنفاق فهو يفسد القلوب ، والعقول والمدارك ، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات وقد يشلّها ، ومعه الوهن دائماً •

ومن الاستعارات القرآنية التى تعلو الى أسمى مراتب البلاغة ، ولا يصل اليها بيان انسانى ، انما هو بيان القرآن مُقطّ قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً قريّة كانت آمنة مطمئنة يأتيتها رزقها رعداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (٥) •

(١) الشورى : ١٣

(٢) التوبة : ١١١

(٤) التوبة : ١٢٤ - ١٢٥

(٣) البقرة : ١٠



ففى هذا النص السامى تلاقينا عدة استعارات تبلغ أعلى درجات السمو البيانى ، ولنأت من آخر النص الكريم فأخره كأوله فى اجتذاب النفوس والعقول والمشاعر الى معانيه ومبانيه . أضاف اللباس الى الجوع ، وفى ذلك تشبيه اللباس بالجوع من اضافة المشبه الى المثبه به على سبيل الاستعارة ، فالجوع القائم المستمكن الذى يعم فيه القل ويكثر العدم ، والخوف الذى يفرغ النفوس ، ويذهب بالاطمئنان ، ويلقى بالاضطراب شبه باللباس السابغ ، لأن اللباس يعم ويكسو الجسم كله ، وكذلك الجوع اذا عم ، والخوف اذا طم ، فانه لا يبقى فى الجماعة أحد لم ينفه ، لأن الأزمات الجائحة ، والخوف من عدو داهم لا ينجو منه أحد ، فكان التعبير عن هذه الحال باللباس ، وفوق ذلك فان اللباس يلتصق بالجسم ويلازمه ولا يفارقه ، وكذلك الجوع والهيم والغم والخوف ، وفى ذلك تصوير للأمة أو المدينة اذا عمها البؤس والشقاء وداهما الخوف من كل ما يحيط بها .

وهناك استعارة أخرى ، وهى قوله تعالى « أذاقها الله لباس الجوع » فان اللباس يلبس ولا يذاق ولكن لباس الجوع والخوف لأنه يتصل بالنفوس ، وبالنعمة تزول بعد أن كفروا بها ، عبر عنه بالذوق ، فشبه حال النزول بحال الاذاقة ، للنزول الذى ترتب عليه أن أحسوا بمرارة المذاق بعد أن كانوا فى بصوحة العيش ، فكان التعبير بأذاق أنسب لهذا المعنى .

وهناك استعارة تمثيلية ثبتت من مجموع العبارات ، وهو تشبيه حال جماعة من الناس كانت مؤمنة مرزوقة فلما كفرت بالنعيم فلم تقم بحقتها ، ولم تؤد الطاعات ، ولم تنته عن المنهيات بحال قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها واسعاً من كل مكان فحدثت نعمة الله تعالى فضاقت رزقها ، وبدلت من الأمن خوفاً ، ومن الرغد جوعاً .

١٠٢ - ومن الأمثلة التى ساقها الرماني للاستعارة قوله تعالى : « واشتغل الرأس شيباً » (١) ويقول فى التعليق على هذا النص الكريم : « أصل الاشتغال للنار وهو فى هذا النص أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس الا أن الكثرة لما كانت

تتزايد تزايداً سريعاً ، صارت في الانتشار والاسراع كاشتعال النار ، وله موقع في البلاغة عجيب وذلك أنه انتشر في الرأس انتشاراً لا يتلانى كاشتعال النار .

وان هذا التعبير لم يكن معروفاً عند العرب ، وذلك أنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار ، للسرعة ، وللبياض ، وللملازمة ، ولأنه ينتهى بتدمير ما تتصل به ، وتجعل حطامه تراباً .

ويسوق الرماني من أمثلة الاستعارة قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون » (١) ، ويقول الرماني في ذلك : « نسلخ مستعار ، وحقيقته يخرج منه النهار ، والاستعارة أبلغ ، لأن السلخ اخراج الشيء مما لا يسه ، وعسر انتزاعه منه لا لالتصاقه به ، فكذلك لباس الليل » .

هذا ما قاله الرماني ، ولكي نتصور الاستعارة ، وما تضيفه من معان على الحقيقة المجردة ، نقول : ان مفردات الراغب الاصفهاني جاء فيها في مادة سلخ : السلخ نزع جلد الحيوان . وقال تعالى : « نسلخ منه النهار » أي ننزعه ومؤدى هذا الكلام أن المسلوخ المنزوع هو النهار ، وأن الجسم الذي انسلخ منه هو الليل ، ولذلك قال تعالى كنتيجة للسلخ « فإذا هم مظلمون » أي أن النزع كانت نتيجة أن صار الناس في ليل مظلم ، ويكون معنى الاستعارة أن القرآن الكريم شبه فيه النهار بالنسبة لليل باهاب من النور أحاط بالليل احاطة الاهاب بالثشاة مثلا ، فلما نزع منه كان الليل ، والجامع بين السلخ والنزع ، هو الرفع لشيء ملازم محتك ، ولا شك أن الاستعارة أبلغ كما ذكر الرماني ، ولكن ماوجه البلاغة المفضلة ، نقول فيما نحسب ان الاستعارة تدل على أن الذي أحاط هو النهار ، ونسلخ لا تدل على أن أيهما هو المحيط بالآخر ولكن المسلوخ هو النهار ، ان هذا يدل ، على أن النور بالنسبة للكرة الأرضية عارض من نور الشمس ، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى دوران الشمس فقال : « والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (٢) .

(١) يس : ٣٧

(٢) يس : ٣٨

ومن الاستعارات الواردة في القرآن التعبير عن العلم والايمان بالنور وعن الكفر والعناد بالظلمات مثل قوله في أول سورة ابراهيم « الركنات أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » وقد قال في ذلك الرماني : كل ما جاء ذكر من الظلمات الى النور ، فهو مستعار ، وحقيقته من الجهل الى العلم والاستعارة أبلغ ، لما فيه من البيان بالافراج الى ما يدرك بالابصار .

وان الظلمات ليست الجهل فقط ، بل هي تشمل الجهل والكفر والجحود والعصبية الجاهلية وكل ما يسيطر على الأنفس من غير سلطان من الحق ، ولا العقل ، ولا الاتجاه الى الحق في طريق مستقيم لا التواء فيه ، ولذلك عبر عن الباطل بالظلمات ، لأن له أسباباً متكاتفة بعضها فوق بعض والنور واحد ، وهو الحق وطلبه والاذعان له .

وان الافراج من الظلمات الى النور نقول انه استعارتان ، ان جعلنا الاستعارة في معنى الظلمة ، فاستعير لفظ الظلمة وهي حسية للجهل والكفر ، وتحكم الهوى والجحود ، لأن هذه يحدث منها ضلال في طلب الحق ، كما يحدث الضلال من السير في الظلام ، فكان وجه التشبه الضلال في كل ، والايمان مع الاذعان له يبعد عن الضلال ، كما يبعد النور عن السير في الطريق الضال ، ويهدى الى الطريق المقتيم ، أو نقول ان القرآن الكريم يشبه حال الضالين الذين يطلبون الحق ، ويجدون الهداية ويأخذون بها ، ومع رسولهم الكتاب المبين الذي يهدى بحال أولئك الذين يكونون في ظلام دامس لا يهتدون معه ويخرجون من الظلمة الحالكة الى النور فهو تشبيه حال بحال بجامع الحيرة ثم الاهتداء في كل .

١١٣ — ويذكر الرماني من الاستعارة البيانية قوله تعالى « وفي عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » (١) ويقول في ذلك الرماني العقيم مستعار الريح ، وحقيقته ريح ليس بها سحب غيث ، والاستعارة أبلغ ، لأن حال العقيم أظهر من حاله

الرياح التي لا تأتي بمطر ، لأن ما يقع لأجل حال منافية أوكد مما يقع من حال منافية وأظهر » والمعنى أن الاستعارة هنا في لفظ عقيم ، لأن العقيم لا يرجى معها خير قط ولا تنتج ، لأن العقم حال تمنع الانتاج ، فعدم انتاج الرياح بماء ذكر سببه ، وهي أنها ليست منتجة بذاتها كحال العقيم التي لا تحمل ولا تلد ، والوصف بالعقم مناسب لأنهم توقعوا أن يكون غيثاً ، فكان فيها الهلاك ، ولقد بين الله تعالى معنى عقمة في آية أخرى فقال تعالت كلماته « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين » (١) . وهكذا نجد الاستعارات البيانية في القرآن كثيراً وذلك لأسباب كثيرة نذكر منها ثلاثة :

أولها : أن اللغة العربية لا تنتسج للمعاني النفسية السامية في القرآن ، فانه علم لا تدل على حقائقه ألفاظ ذات دلالة معينة وكانت بلغة العرب الذين لم يصلواهم ولا غيرهم الى الحقائق العلمية والنفسية التي يتصدى القرآن الكريم لبيانها ، وكشف عيون الحقائق فيها . فكان لابد من الاستعانة بالاستعارة من الألفاظ التي وضعت للمعاني الحسية لتكتشف بها العلوم النفسية والاجتماعية والعقلية ، ولتقرب المعاني الى ذهن الأعراب ، ومن هم أعلى منهم ادراكا لأنه الكتاب المبين ، وليخرج الأميين الى حيث العلم ، والى الكتاب الذي علم الانسان ما لم يعلم .

ثانيها : أن القرآن الكريم فيه الأخبار عن الأمور المعيبة التي وقعت في الماضي ، والأمور القابلة ، وخصوصاً ما يكون في الجنة وفي النار من عذاب أليم ، فنعيم الجنة فيه فاكهة ونخل ورمان ، وفيها أنهار من عسل مصفى ، وفيها أنهار من خمر نذة للشاربين ، وهكذا ، ولكن أهي من نوع خمر الدنيا ، وفاكحتها ، لقد ورد عن ابن عباس أنها ليست كخمر الدنيا ، وما يذكر فيها ليس من نوع ما في الدنيا ، ولا من جنسه ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ونحن نؤمن أولاً بأن نعيم الجنة حسي وعذاب النار حسي ، ونؤمن ثانياً ، بأن كل ذلك ليس من جنس ما هو في الدنيا ، بل هو أعلى وأعظم ، فكان الألفاظ التي تتقال عن ذلك مستعارة من ألفاظ الدنيا، ليتمكن تقريبها الى النفوس والأشخاص الذين لا يرون الا المحسوس .

ثالثها : أن الاستعارة تثير صوراً بيانية في الألفاظ والمعاني كالتشبيه ، لأنها تربط بين المعاني بعضها مع بعض وفيها نقل ألفاظ من معان الى القريب منها المتناسب معها ، فوق ما يثيره من أخيلة تطلق بالتالي للقرآن في أجواء من البيان اقرأ قوله تعالى في تصوير حال من اعتراه الندم ، ولا يجد مخلصاً الا أن يعترف قوله « ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يررحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » (١) .

فالتعبير بقوله تعالى « سقط في أيديهم » هو استعارة في اندلالة على الندم ، لأن الندم يحس بالسقوط ، ويحس بأنه هبط ، فشبّه القرآن حالهم في أن الندم برح بهم بمن سقط في يده وهو دال على سقوطه فيما لا يليق ، فشبّه المعنى الخاص بالندم من ألم ، ومن ظهور للخطأ ، أو الاحساس بالخطيئة بمن سقط في يده دليل اثمه ، ولا يجد مناصاً من التخلص من جرمه ، وان الصورة البيانية التي تصورها كلمة سقط ، وتبين حالهم لا يقوم مقامها كلمة ندموا .

ولقد صور سبحانه وتعالى حال أهل الكهف في أنهم لا يسمعون ، فقال تبارك وتعالى « فضرَبنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً » (٢) فان كلمة ضرب تدل على أن الله تعالى منع السماع ، كأنه غلق عليهم باب السمع ، وضرب عليه ، فلا يفتح سنين عدداً ، وذلك يصور حالهم من أنهم لا يسمعون ما يجري ، والناس يحسبونهم أيقاظاً يحسون بما يحس غيرهم ، ولقد قال الرماني في معنى الاستعارة هنا ، فقال : « حقيقة معناه ، منعناهم الاحساس بأذانهم من غير صمم ، والاستعارة أبلغ ، لأنه كالضرب على الكتاب ، فلا يقرأ ، كذلك المنع من الاحساس فلا يحس ،

(١) الاعراف : ١٤٩ (٢) الكهف : ١١

وأتما دل على الأُحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار ، لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير ذهاب للبصر فلا يبطل الإدراك رأساً ، وذلك بتغميض الأجفان ، وليس كذلك منع الأُسماع من غير صمم في الآذان ، لأنه إذا ضرب عليها دل على عدم الأُحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك ، ولأن الأذن كانت طريقة الى الانتباه ، فلما ضربوا عليها لم يكن سبيل إليه » .

ومؤدى هذا الكلام أن الضرب على الآذان يفيد فقد الأُحساس المطلق بعمل الله ، وهو غير الضرب على الأبصار ، لان عدم الابصار لا يقتضى فقد الأُحساس إذ قد يكون غير مبصر باغماض ، ولكن الأُسماع لا يفقده مع بقاء الآلة سليمة الا بفقد الأُحساس ، فاذا كان الله تعالى قد ضرب على آذانهم ، مع بقاء الآذان سليمة ، فان ذلك لا يكون الا بفقد الأُحساس والله على كل شىء قدير .

### المجاز والكناية

١١٤ - المجاز يعم الاستعارة وغيرها من أنواع المجاز ، إذ أن المجاز معناه أن ينقل اللفظ من دلالاته على المعنى الذى وضع له الى معنى آخر ، لعلاقة بينهما ، مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الأُصلى ، مثل قوله تعالى ، « فليدع ناديه » (١) فان المكان لا يدعى انما يدعى من يظنون في هذا المكان . والقرينة الاستحالة . والعلاقة هى المحلية ، أطلق المحل وأريد الحال ، ومثلاً قوله تعالى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » (٢) والآذان لا تدخلها كل الأصابع ، وانما أريد بعضها والعلاقة هى الجزئية أطلق اسم الكل وأريد الجزء . وهكذا .

وتختص الاستعارة من بين أنواع المجاز بأنها مجاز علاقته المشابهة بين المعنى الأُصلى ، والمعنى الذى نقل اللفظ اليه وقد كان التقسيم المنطقى يوجب أن نتكلم فى استعارات القرآن بعد الكلام فى المجاز ذاته ، لأن الكلام فى العام يسبق الكلام فى الخاص ، إذ أن العام جزء من الخاص ، والخاص جزئى والعام كلى ، ومن المقررات المنطقية أن كل عام جزء لجزئية ويضربون لذلك مثلاً بالحيوان والانسان ،

فالإنسان حيوان ناطق ، فيتكون من جزئين جزء هو الحيوانية ، والثانى النطق  
بمعنى العقل والادراى ووزن الأمور ، فالحيوان وهو الكلى جزء من الانسان ،  
وهو النوع الجزئى •

ولكن عدلنا عن منطق التقسيم فى التصنيف الى تقدم الجزئى على الكلى أو الى  
تقديم الاستعارة على عموم المجاز لأن الاستعارة من حيث ان العلاقة فيها المشابهة  
كانت ضرباً من ضروب التشبيه دخل فيه المشبه فى عموم المشبه به فكانت المناسبة  
بينها وبين ماسبقها من تشبيه أقوى من دخولها فى عموم المجاز •

وقدمنا الاستعارة لأنها أشهر وأكثر فى القرآن ، وأكثر تصويراً لمعانى البيان ،  
والصور البيانية القرآنية فيها أوضح ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال ، وقد قصر  
عبد القاهر فى كتابه دلائل الاعجاز القول على الاستعارة ومايتبعها من تمثيل  
وضرب للأمثال ، فقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه :

« وأنا اقتصر هنا على ذكر ما هو أشهر منه ( أى من المجاز ) وأظهر ،  
والاسم والشهرة لشيئين الاستعارة والتمثيل ، وانما يكون التمثيل مجازاً اذا جاء  
على حد الاستعارة » •

فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ،  
وتجىء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه ، تريد أن تقول رأيت رجلاً  
هو كالأسد ، فى شجاعته وقوة بأسه سواء ، فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً •

واما التمثيل الذى يكون مجازاً لمجيبك به على حد الاستعارة فمثاله قولك فى  
الرجل يتردد فى الشيء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلاً ، وتؤخر أخرى ، فالأصل  
فى هذا أراك فى ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ثم اختصر الكلام ، وجعل  
كأنه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى على الحقيقة ••

وكذلك نقول للرجل يعمل فى غير معمل أراك تتفخ فى غير فحم ، وتخط على  
الماء ، فتجعله فى ظاهر الأمر كأنه يخط • والمعنى على أنك فى فعلك كمن يفعل ذلك ،  
ويقول فى الرجل يعمل الحيلة ، حتى يميل صاحبه الى الشيء قد كان يابأء ، ويمتنع

لأنه ، مازال يقتل في الذروة والغارب ، حتى بلغ منه ما أردنا ، فتجمله بظاهر اللفظ كأنه كان من مثل ذروة وغارب ، والمعنى على أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقا يشبه حاله فيه حال الرجل يجيء الى البعير الصعب ، فيحككه ، ويفتل الشعر في ذروته وغاربه ، حتى يسكن ويستأنس ، وهو في المعنى مثل الرجل يقول فلان يقرود فلانا ، يعني به أنه يتلطف له فعل الرجل ينزع القراد من البعير ليلاذ لذلك ، فيسكن ويثبت في مكانه ، حتى يتمكن من أخذه ، وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحوا فيه هذا التمثيل ، ثم لم يفصحوا بذلك ، وأخرجوا مخرجه ، وان لم يريدوا تمثيلا » •

وان الأمثال كلها من قبيل التمثيل ، وهو من باب الاستعارة ، كما قال عبد القاهر ، ذلك ، لان الاستعارة ذات شعبتين ، احدهما أن تكون في تشبيه شيء بشيء ، من غير أداة تشبيه كتشبيه الرجل بالأسد ، وتشبيه شيوع الشيب في الرأس باستعار النار في وقودها والشعبة الثانية تشبيه حال بحال ، وهو التمثيل ، وهاتان الشعبتان تجريان في التشبيه الذي يكون بأداة التشبيه ، كما تكونان في الاستعارة ، اذ أنهما متلاقيان في المعنى والاختلاف في طريق الأداء •

ومن الاستعارة التمثيلية ظهرت الامثال التي تعد من جوامع الكلم ، فهي ليست الا تشبيه حال بحال ، فهي تشبيه حال مضر بها بحال موردها ، تقول العرب الصيف ضيعت اللبن ، فموردها أن شيئا طلب يد فتاة فردتها ، وكان الزمان صيفا لكبر سنه ، ثم احتاجت من بعد الى قدر من اللبن عنده ، فقال لها الصيف ضيعت اللبن فصار مثلا ، يضرب لمن يرفض أمرا ، ثم يجيء يطلب سيئا ، ما كان يحتاج اليه لو لم يرفض •

وهكذا ، والأمثال من أبلغ كلام العرب ، لأنها تؤدي معانيها في أوجز لفظ ، وأروع خيال •

١١٥ — وان عبد القاهر يعد طريق التعبير ثلاثة ، الحقيقة ، ويدخل فيها التشبيه على طريق علماء البلاغة ، وقد بينا من قبل أننا نعد الحقيقة مالا يدخل في عمومها التشبيه ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، والاختلاف لفظي •  
والثاني من طرق البيان المجاز ، وقد أشرنا الى القول فيه •



والثالث من الطرق الكناية ، ويعرف عبد القاهر الكناية بأنها : « أن يريد المتكلم اتيان معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فميوّتى به اليه ، ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم طويل النجاد ، ( أى طويل علاقة السيف ) يريدون طويل القامة ، وكثير الرماد يعنون كثير القرى ، وفى المرأة نعوم الضحى ، والمراد أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا فى هذا كله — كما ترى — معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا اليه بذكر معنى آخر ، من شأنه أن يردفه فى الوجود ، وأن يكون اذا كان ، أفلا ترى أن القامة اذا طالت طال النجاد ، واذا كثر القرى كثر رماد القدر ، واذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ، ردف ذلك أن تنام الى الضحى » .

ويلاحظ فى الكناية أنه لا مجاز فى المعنى ، واللفظ على ظاهره بادى الرأى ، ولكن لا يراد ذلك الظاهر ، وانما يراد لازمه وسماء عبد القادر رادفه ، أى أنه يفهم تبعاً له ، واللزوم ليس هو اللزوم العقلى دائماً ، بل قد يكون فى بعض الأحوال لزوماً عادياً يجوز أن يختلف ، فمثلاً طويل النجاد يلزم عقلاً أن يكون طويل القامة ، واكن كثير الرماد ، لا يلزم لزوماً عقلياً أن يكون كثير نار القدر ، فقد يكون وتود النار لغير القدر ، ونعوم الضحى قد تكون لأنها مترفة عندها من يقوم بحاجاتها ، وقد يكون ذلك كسلاً ، أو مرضاً .. الى آخره ، واكن الكثير فى العادة أن يكون ذلك عن عرف .

وقد ذكرنا فى الماضى مكان المجاز ، بكل صوره فى دلائل الاعجاز ، وقد ذكر عبد القاهر مكان الكناية فى الكلام البليغ فقال رضى الله عنه « قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح ، والتعريض أوقع من التصريح .. الا أن ذلك وان كان معلوماً على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل فى كل ما يطلب به العلم حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يغلغل الفكر فى زواياه وحتى لا يبقى موقع شبهة ، ولا مكان مسألة » .

المجاز ، والكناية ليست في ذاتها أصل البلاغة ، بحيث اذا وجدت في أى قول كان بليغاً ، انما البلاغة لا بد أن تكون متحققة ابتداء في مادة الكلام وفي موضوعه ، وفي صورته البيانية ، وان هذه طرق تكون جزءاً من بلاغة الكلام البليغ ، وليست هي الخاصة التي تجعله بليغاً ، ولو لم يكن ذا موضوع ، أو كان موضوعه من سفساف القول ، وغث المعانى ومبتذنها ، انما هي تكون مع أخوات لها في مثل جمالها ، وجمال موضوعها » ♦

وقد ذكرنا ذلك في ماضى قولنا في الاستعارة قوله تعالى « واشتعل الرأس شيباً » فاننا نجد أنه بلا ريب جمالا واضحا في تشبيهه شيوع الشيب في الرأس باشتعال النار ولكن في الحقيقة لا نجد الجمال في هذه الاستعارة وحدها ، بل فيها وما معها من نظم ، وتأخ في الكلمات وقد بين ذلك عبد القاهر في دلائل الاعجاز ، فقال في بيان أن الجمال والجلال انما يكون في مجموع القول لا للاستعارة وحدها : انك ترى الناس اذا ذكروا قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف الا اليها ولم يروا للمزية موجبا سواها ، هكذا نرى الأمر في ظاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ولا هذه الروعة التي تدخل على النفوس لجرد الاستعارة ، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه الى الشيء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند اليه ، ويؤتى بالذى هو الفعل له في المعنى منصوباً بعده مبينا أن ذلك الاسناد ، وتلك النسبة الى ذلك الأول انما كان من أجل الثانى ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم طاب زيد نفسا ، وقر عمرو عينا ، وتصيب عرقا ، وكرم أصلا ، وحسن وجها وأشباه ذلك مما نجد الفعل فيه منقولا الى ما ذلك الشيء من سببه (١) ، وذلك أننا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى ، وان كان هو الرأس في اللفظ كما أن طاب للنفس ، وقر للعين ، وتصيب للعرق واذا

(١) يريد عبد القاهر أن يقول إن الجمال في اشتعل الرأس شيباً ليس في الاستعارة فقط وانما هو ابتداء في التمييز المحول من المفاعل ، ففي ذكر العقل غير مسنه افاعله بل أسند لما هو في موضع المفاعل . ثم ذكر بعد ذلك المفاعل الحقيقي وهو الشيب على أنه تمييز ، وفي التعبير بالتمييز يدل المفاعل اشارة الى سبب اسناد العقل . وسبب ذكر الاشتعال ♦

أسند الى ما أسند اليه كان لأنه سلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب وان تدع هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ فتهتسده الى الشيب صريحا • فنقول اشتعل شيب الرأس ، والشيب في الرأس ، ثم ننظر هل تجد ذلك الحسن ، وههل ترى الروعة التي كنت تراها فان قلت ، فما السبب في أنه كان اشتعل • اذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، ولم تأت بالمزية من الوجه الآخر فما وجه هذه البيونة ؟ ان السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع غيبه ، وأخذ من كل نواحيه وأنه قد استقر به وعم جملة ، حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا مالا يعتد به ، وهذا مالا يكون اذا قيل اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة » •

وقد أجاد عبد القاهر في بيان وجه البلاغة في الاستعارة مع أردافها من مجموع الكلام ، واذا كانت هي في ذاتها ، تجعل القول ، فان سر الاعجاز فيها ، وفي مجموع العبارات •

وقد ضرب الامام عبد القاهر مثلا آخر مقاربا لقوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » وقوله تعالى • « وفجرنا الأرض عيونا » (١) فقال رضى الله تبارك وتعالى عنه في بيان أن التمييز بعد التعميم ولو من غير استعارة بلاغة معجزة •

« ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل : « وفجرنا الأرض عيونا » التفسير للعيون في المعنى واقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتعال الى الرأس ، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا ، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد صارت كلها عيونا وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها ، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل ، وفجرنا عيون الارض ، أو العيون في الارض ، لم يفد ذلك ولم يدل عليه ، ولكن المفهوم منه أن الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض ، وانبجس من أماكن منها » •

وهكذا يبين من ذلك الكلام القيم أننا اذا كنا قد ذكرنا التشبيه والمجاز

والكنائية فليس الاعجاز لها وحدها ، بل لها مع مجموع الألفاظ والأسلوب وتتسق المعاني ، فمن كل ذلك يتكون اعجاز الذكر الحكيم .

## الكنائيات في القرآن

١١٧ — قد تكلمنا في التشبيه والاستعارات ، وسائر أوجه المجاز بكلام مجمل واقتبسنا شواهد من القرآن ، وان لم تكن كثيرة فانها منيرة ، وان لم يكن فيها استقرار ففيها غناء .

ولكن لم نتعرض للكنائيات في القرآن بقدر كاف اذا كانت الكنائيات كما تدل عبارات اللغويين وعلماء البلاغة هي الدلالة على اللازم عادة أو عقلاً بذكر الملزوم ، فكثرة الرماد كما مثلوا يلزمها كثرة الضيفان ، وطول النجاد يلزمه طول القامة ، فان الكنائيات في القرآن كثيرة ، ولكنها تمتاز بارادة اللازم والملزوم ، وفي ذلك كثرة المعاني مع ايجاز الألفاظ ولنضرب على ذلك بعض الأمثال نقتبسها من كتاب الله سبحانه وتعالى . يقول الله تعالى في وصف المتقين .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » (١) .

هذا وصف حصي لمشيهم ، ولقائهم ، فهم يمشون غير مسرعين ، ولا متباهين بل يمشون مشياً هيناً لا سرعة فيه ولا ابطاء ، واذا خاطبهم الحمقى ، لا يمارونهم ولا يجادلون ، فان المراء يخل بالرقار ، وملاحاة السفهاء ليست من دأب العقلاء . هذا هو الظاهر وهو المراد ، ولكن المقصود مع هذا هو وصفهم بتقوى الله وخوفه ، والاطمئنان الى عفوهِ ، فيلتقى الخوف بتكبير الذنوب ، مع الرجاء في العفو والغفران . والمعاني الثانية ملازمة للأولى ، فكان المراد ابتداء هو اللازم والملزوم في ذاته ، ولكن السياق كان للثاني .

ومن الاشارات الكنائية التي أريد فيها اللازم ، وذكر الملزوم كان للدلالة

عليه قوله تعالى : «ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١)» فان ذلك الكلام السامى فيه حكم على أولياء الله المخلصين له سبحانه بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وذلك مراد لأريب فيه ، وذلك يلزمه أن يكونوا قريبين من ربهم ، قد أخلصوا له ، واستحقوا رضوانه ومن يكون قريباً من حبيبه ، لا يخافه في مستقبل ولا يحزن فيه على ماض وقع منه ، لأن المحبة تجعله قريب الرجاء في الغفران ، والطمع في الرحمة ، وقد بين سبحانه الطريق لمحبة الله تعالى ونيل رضوانه ، وهو التقوى ، فقال تعالت كلماته : « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة (٢) » •

ومن كلام الله تعالى في التنزيل ما جاء عن وصية لقمان لابنه اذ قال تعالت كلماته :

«يابنى انها ان تك متقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير ، يابنى أقم الصلاة. وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، ان أنكر الاصوات لصوت الحمير (٣) » •

وان هنا عبارتين ساميتين فيهما كناية واضحة ، وقد علمت أن كنايات القرآن تدل على اللزوم والملزوم ، ويقصد ان بالعبرة الأولى قوله : « انها ان تلك متقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله » أنه يراد بها ما تحويه الألفاظ الظاهرة من معان عالية ، وفيها اثبات قدرة الله تعالى باخراج حبة الخردل من صخرة أو في السموات أو في الأرض هذا هو ما تدل عليه الألفاظ ، وهناك اللزوم لهذا ، وهو اثبات علم الله الذي لا يخفى عليه خافية ، واثبات قدرة الله تعالى الذي لا يعجز عن شيء في السماء ولا في الأرض ، ولازم لهذا اللزوم ، وهو البعث والنشور ، لأنه اذا كان سبحانه وتعالى قادراً على أن يأتي بالحبة من الصخرة أو من أى جزء في السماء أو الأرض ، فهو قادر على اعادة

(٢) يونس : ٦٤

(١) يونس : ٦٢

(٣) لقمان : ١٦ — ١٩

ماخلق ويتلاقى ذلك القول الحكيم مع قوله تعالى « قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذي فطركم أول مرة فسيتغضون اليك رعوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده ، وتظنون ان لبثتم الا قليلا (١) » •

العبارة السامية الثانية حكايته تعالى لقول لقمان : « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض • الى قوله تعالى • ان أنكر الأصوات لصوت الحمير (٢) » فان هذه الأوامر يراد منها ما يدل عليه ظاهر الألفاظ من أنه لا يصعر خده للناس بأن يميله عن شكله ، فلا يقبل عليه بكل وجهه ، ومن أنه يقصد في مشيه فلا يتباطأ ولا يسرع ، بل يسير بتؤدة واطمئنان ، ومن أنه يعضض من صوته ، فلا يتعالى ، ويتكلم صياحا ، ويراد أيضا معنى لازم لها ، وهو التظامن والاتصال بالناس اتصال رفق ومودة من غير كبرياء ، وألا يغمط الناس حقوقهم ، وألا يبيطر نعمة الله تعالى ، وألا يدل على نفسه بغرور ، لأن الغرور مطية الشيطان ، والسبيل الى العصيان •

١١٨ — هذا وان الكنايات فيها الاشارة البيانية التي تكون لوازم للعبارات ، ولقد قسم علماء الأصول دلالة الألفاظ القرآنية الى دلالة العبارات ، سواء أكانت هذه العبارات تدل بالدلالة الحقيقية من غير تشبيه أو دلالة فيها تشبيه أو فيها مجاز ، فالاستعارة أو غيرها من أنواع المجاز ، وبجوار ذلك دلالة الاشارات ، وهي دلالة للوازم ، وانه كلما كانت دلالة اللوازم كانت البلاغة » •

ولتقبض قبضة من الآيات التي قال الفقهاء فيها ان فيها دلالة على الأحكام بالاشارة ، أي بالكناية أو بدلالة المزموم على اللازم ، وهي تثم كنتيجة لازمة للعبارة ، وقد قالوا في تعريفها ان الدلالة بالاشارة هي ما يدل عليه اللفظ بغير العبارة التي تدل عليها الألفاظ ، ولكنه يكون نتيجة لازمة لما تدل عليه ألفاظ العبارة ، ومن ذلك قوله تعالى « وان خفتنم ألا تقسطوا في اليتامى ، فانكحوا

(٢) لقمان : ١٨ — ١٩

(١) الاسراء : ٥٠ — ٥٢

ما طاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا (١) » •

وان عبارة النص يفيد طلب العدالة مع اليتامى ، وانماذة اباحة تعدد الزوجات مثني وثلاث ورباع ، واباحة الدخول بملك اليمين ، هذه أحكام علمت من العبارة نفسها •

وهناك أحكام أخرى فهمت من لوازم العبارة ، وهي الدلالة بالاشارة التي هي ضرب من ضروب الكناية : الأول وجوب العدل مع الزوجة ، وأن الرجل لا يحل له أن يتزوج اذا لم يعدل مع الزوجة ولو واحدة ، اذا تأكد أنه لا يعدل ، والثاني الذي يدل عليه لازم الآيات أن المساواة بين الأزواج في الأمور الظاهرة ، كالطعام والمسكن ، والكسوة ، والمبيت اذا تعدد الأزواج واجبة ، وتدل باللازم أن عليه نفقة زوجته ، وأنه لا يتزوج الا اذا كان قادراً على اعالة زوجته •

وذكروا من الآيات التي تدل بلازم المعنى فيها آية المداينة، فقد قال تعالى: (ربأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب ، كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبئس منه شيئاً ، فان كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً ، أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليمل وليه بالعدل • واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وأمرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احدهما فتذكر احدهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء ، اذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ، ذاكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا اذا تبايعتم • ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، وانتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شئ عليم » (٢) •

وان الأحكام التي وردت بهذا النص كثيرة ، لا نريد أن نحصيها • ولكن ورد

فيها أحكام ليست من النص ، ولكنها لازمة للنص ، منها أن المكتوب يكون حجة على من أملاه وخصوصاً أنه موثق بالشهادة ، وهو حجة لمن أثبت الاستدلال بالكتابة في المرافعات ويفيد بال لزوم بأن السفيه أو الضعيف الذي له ولى مال تكون عبارة الولى المالى عبارته ، ويلتزم بما تثبته •

ويفيد ثالثاً بأن شهادة المرأة لا تسمع وحدها ، بل تسمع مع أختها التى تشهد معها ، لأن الله تعالى يقول « أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى » وذلك يقتضى أن تحضرا معاً لتسترشد كل واحدة بالأخرى ان ضلت ، وذلك فهم من مقتضى أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، لأنه لا يمكن أن يكون ذلك الا اذا اجتمعتا فى الأداء ، وسمعت كل واحدة كلام الأخرى ، وذلك بخلاف شهادة الرجل فإنه لا بد أن يسمع كل واحد منهما منفرداً ، لكيلا يومية أحدهما الى الآخر •

ومن النصوص التى تدل باشارتها وعبارتها قوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكاف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك ، فان أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير » (١) •

قد فهمت الأحكام التى ذكرتها الآية الكريمة بالنص ، وفهم بالاشارة معان أخرى تلازم ما نص عليه كنتيجة له • وما نص عليه فى العبارة هو ملزوم والثانى لازم له •

ومن ذلك أولاً — أن المولود ينسب الى أبية لا الى أمه ، لأنه المولود له ، فاللام تنفيذ ذلك الاختصاص ، وتنفيذ ثانياً — أن المولود لأبيه له عليه شبه ملكية ، فمال الولد لأبيه عليه نوع ملك فالولد كسب أبية ، ولقد صرح بذلك النبى صلى الله



تعالى عليه وسلم فقال : « أنت وما لك لا بيتك » ويفيد ثالثاً — أن الأب لا يساركة في نفقه ولده أحد وأن الواد لا يساركة في نفقة أبيه أحد. ويفيد رابعاً — أن الاصل في الارضاع أن يكون على الأم ، ويجوز الاسترضاع باتفاقهما وأن أجرة الرضاعة تكون على الأب ، ونفيد خامساً — أن فصل الواد الذي لا ارادة له عن الأم في رضاعته يكون عن تراض منهما وتشاور .

وهكذا نجد أسرار البيان القرآني تتكشف عن طريق هذه اللوازم التي تجيء تبعاً للمنطوق ، وتتفاوت فيها الأحكام من غير أن تكلف الألفاظ من المعاني اللازمة مالا تطبيق بتكلف التأويل ، وتجيء الأسرار القرآنية العالية التي لا تكون الا لكلام الله سبحانه وتعالى .

ومن الآيات القرآنية التي تدل فيها العبارات على معان من الألفاظ ، ثم تجيء لازماً لها عن طريق الاشارة كما يعبر الأصوليون . أو الكنايات كما يعبر علماء البلاغة — قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » (١) فان هذا النص الكريم أفاد بالعبارة أن الحكم الاسلامي وادارة الدولة الاسلامية في اقتصادها ونظمها ، وادارتها تقوم الشورى ، وهذا ما تفيده الآية بالنص .

وتفديد مع ذلك بطريق الاشارة ، والنتائج التي تكون ثمرة لهذا النص أو طريقاً لتنفيذها — أولاً — أنه لابد أن يكون اختيار الحاكم أو الخليفة برضا المسلمين فلا تصح الخلافة الا باختيار المسلمين ورضاهم ، ولذلك كانت البيعة في الاسلام ، وتفديد ثانياً أنه لا ينفذ حكم أو قانون الا اذا أقرته جماعة المسلمين ، أو الصفوة المختارة منهم ، وتفديد ثالثاً أنه لابد من وجود جماعة مختارة من الشعب اختياراً أساسه الحرية والرضا ، يكون عملها مراقبة الحكام ، والنظر بعين فاحصة في أعمالهم وألا يسن قانون الا برأيهم فكل هذه لوازم لتحقيق معنى الشورى وتنفيذه ، وتفديد رابعاً أن الأعمال الفنية كقيادة الحرب ، والصناعة تكون ثمة تحت رقابة على القائمين بها من صفوة مختارة منهم ، يكون عملها التوجيه .

وهكذا تثبت هذه الأمور كنتائج لتنفيذ الأمر بالشورى •

وان دلالة العبارات التي يمكن معرفتها بالسنة واللغة هي المفاتيح لما تومىء اليه ، فلا يمكن أن تعرف أسرار القرآن الكريم الا اذا عرفت المعانى الأولى ، وان معرفة ما تومىء اليه ألفاظ القرآن من اشارات لا يكون الا بعد الدخول الى الساحة العليا ، والارتفاع بالعقل الى أعلى المدركات الانسانية ، ولذلك يقول الغزالي رضى الله تعالى عنه ان معرفة السنة واللغة هي المفتاح الذى يدخل منه العالم الى علوم القرآن ، وفيه علم كل شىء يتعلق بالشرائع والنفوس الانسانية ، وعلاج أدوائها ، واليوم الآخر ، وما أخبرنا به العزيز الحكيم علام الغيوب •

## ٤ - نظم القرآن وفواصله

١١٩ - تكلمنا في ماضى قولنا في وصف عام لبلاغة القرآن ، وتكلمنا في ألفاظه ، وبيننا بشواهد الآيات أن كل كلمة لها صورة بيانية في السياق الذى سيقته له ، ثم تكلمنا عن الأسلوب ، وذكرنا مستشهدين بالآيات البيئات أن كل كلمة لقف مع أختها ، ويتكون من مجموع الكلمات المتلائمة المتأخية صورة كاملة للبيان تعطيك صورة بيانية ، كل كلمة تعطيك جزءاً منها ، مع كونها في ذاتها صورة بيانية وحدها ، وضربنا لك الأمثال •

ثم تكلمنا من بعد على تصريف البيان القرآنى ، فبيننا كيف كان التصرف في الاستدلال على وحدانية الديان ، وبطلان عبادة الأوثان ، وكيف كان التنوع في البراهين التى يسوقها ، والتى تعلقو في دقة الحكم على الأدلة الخطابية ، وتعلقو في النسق البيانى ، والنغم الموسيقى عن البرهان المنطقى ، مع اشتغالها على أدق معناه ، وان غاير الأشكال •

وذكرنا الاستدلال على الوحدانية في سياق القصص والعبرة ، ثم بينا من بعد ذلك تصريف القول بطريق القصص ، والتصوير القصصى للوقائع ، حتى كأنك ترى المشاهد ، لا أنك تقرأ القصص •

ثم تكلمنا في الاستفهام القرآنى ، وخضنا في التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والاشارة البيانية لمن يغوص في علوم القرآن الكريم ، ويتعرف أسرار الحقائق التى اشتمل عليها ، سواء أكانت حقائق كونية أو نفسية ، أم كانت تتعلق بنواميس الاجتماع وتربية المجتمعات •

ذكرنا ذلك في إجمال يشير ولا يحيط ، ويوجز ، ولا يفصل •

ولكن مع ذلك نرى للقرآن صورة هى في الاعجاز أبعد مما سبق ، ذلك أنك اذا قرأت القرآن مرتلا ، أو كاشفاً بالصوت مع الترتيل تهس بأنه ليس من نوع الكلام الذى سمعته وتسمعه وتقرؤه ، وانك تميز بذوقك القرآن عند سماعه عن

غيره ، فله نظم يعلو عن كلام البشر ، وله نغم أعلى من أن تسميه موسيقى ، يذوقه كل فاهم ، وان كان لا يستطيع وصفه ولا تعريفه ، ولا بيان سره ، كما يذوق الذائق طعاماً طيباً ، ولا يعرف اسمه ، ولا أرضه ، ولا سر طيبه ، ولكنه يحكم بطيبه وان كان تفصيل السبب لا يعرف •

وليس ما نقوله هو من قبيل ما غندناه من قبل ، وهو ما سمي بالصرفة ، فان الصرفة على قول الذين يزعمونها ، عجز عن المحاكاة أو المشابهة بصرف الله تعالى • انما الذى نقوله ، هو أن الإعجاز من خصائص القرآن البيانية وغيرها وان كانت البيانية أظهرها ، وهى التى تحدى الله تعالى بها العرب أن يأتوا بمثلها ولو مفتريات فالنظم والنغم ، والفواصل ، وما يشبه الموسيقى وان كان أعلى أوصاف ذاتيه ولعلنا ننتزل بالقرآن ان سميناه ما نذكر موسيقى ، فروع القرآن أعلى ، وذلك سبب من أسباب العجز ، وهو غير الصرفة •

لقد وجدنا للقرآن حلاوة فى الألفاظ والأسلوب والفواصل ، وغير الفواصل — ليست فى غيره ، وهذا ما سميناه النظم تقريباً للفهم ، وكلام الله تعالى المثل الأعلى ، وهو ما وصفه الوليد بن المغيرة بقوله :

ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر •

١٢٠ — وبعد هذه التقدمة التى نمهد بها للقول ، نقول ان نظم القرآن ليس من أى نوع من أنواع النظم الذى يعرف عند أهل البيان ، فليس نثراً مرسلأ ، وليس نثراً مصنوعاً ، وليس نثراً فيه ازدواج كما أنه ليس نثراً مسجوعاً ، وليس فيه فواصل تشبه السجع ، ولكنه شئ غير هذا ، وغير ذلك •

ويقول الباقلانى فى كتابه اعجاز القرآن عن بديع نظمه : أنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ، والذى أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ، ونكشف الجملة التى أطلقوها « ثم يتكلم عن الاعجاز فى النظم فيقول :

« فالذى يشمل عليه بديع نظمه وجوه :

منها ما يرجع الى الجملة ، وذلك أنه نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم الى ما يرسل ارسالاً ، فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وان لم يكن معتدلاً في وزنه ، وذلك شبيهة بجملة الكلام الذى لا يتعمل فيه ، ولا يتصنع له . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ، ولا فيه شئ منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لأن الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى أن فيه شعراً كثيراً ، والكلام عليهم يذكر بعد هذا الوضع .

فهذا اذا تأمله المتأمل ، تبين له بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ، أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز وهذه خصوصيات ترجع الى القرآن وتميز حاصل في جميعه » .

وان الباقلانى لا يكتفى بذكر ما بين أن القرآن ليس على الصفة التى امتاز بها بليغ الكلام عند العرب ، بل هو أعلى من ذلك يأتى بابلغ الشعر وأبينه وأجود الخطب وأوقعها ، ثم يأتى بأكمل الكتب ، ولا يكتفى بذكر كلام البلغاء ، بل بكلام صاحب جوامع الكلم وهو محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقرر أنه وان كان فوق أى كلام للبشر ، دون كتاب الله ، المعجز بكل ما اشتمل عليه ، وبكل ما فيه من لفظ ونعم وأسلوب .

ويذكر رضى الله عنه وجهاً آخر من وجوه الاعجاز فى نظم القرآن وأسلوبه ، فيقول .

« ومنها أنه ليس للعرب كلام يشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، والتصريف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد العزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات محدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ( قليلة أو كثيرة ) يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال ويعترضها ما نكتشفه من الاختلاف ، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز ، والتعسف ، وقد كان القرآن على طوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به ، فقال عز من قائل : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلتن جلودهم ، وقلوبهم إلى ذكر الله (١) » وقوله تعالى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٢) » فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي أن امتد وقع التفاوت ، وبيان الاختلاف .

• وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا ذكره ، فتأمل تعرف الفضل .

وفي ذلك معنى ثالث ، وهو أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، واعدار وانذار ووعد ، ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم ، وأخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ، وتجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلح ، والخطيب المصنف يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور » .

ثم يقول رضى الله عنه : « وقد تأملنا نظم القرآن » فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا اسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما تتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الاعجاز في جميعها ، على حد واحد لا يختلف ، وكذلك قد

(١) الزمر : ٢٣

(٢) النساء : ٨٢

بينفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بينا ، ويختلف اختلافاً كبيراً ، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ، ولا متفاوت ، بل هو نهاية البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه (١) .

ويذكر الباقلاني أن من دلائل الاعجاز تفاوت كلام البلغاء في الوصل والعضد ، والانتقال من معنى الى غيره ، وتقريب المعنى وتبعيدها ، وأن القرآن ليس فيه ذلك النقص الذي يعرو كلام البشر ، ويختلف قوة وضعفاً في ضم المعاني وتقريبها ، والقرآن في ذلك النمط المتسق الذي لا يجارى .

١٢١ — هذه أمور تقريبية تقرب معنى الاعجاز ، ولا تحده ، وتذكر بعض الأسباب ولا تتقصاها ، انه ككل الأمور التي تحس بها ولا نستطيع تعرف دقائق أسرارها ، فهو كتاب الله الذي يعلم السر وأخفى ، ولكننا نقر بالعجز عن الاتيان بمثله لاننا ندرك علوه ولا تعرف الاسباب التي عات به . وليس هذا من الصرفة كما ذكرنا ، انما الصرفة أن تعرف قدره وقدرتنا على مثله ، ولكن ننصرف عن ذلك .

وان القرآن ليس من قبيل ما اصطلح عليه الناس في علوم البلاغة ، فليس نثراً مرسلاً كما ذكرنا ، لأن النثر المرسل ليس له نغم مؤتلف ، وهو في قدرة كل انسان بليغ ، وقد تلونا عليك بعض الآيات في الأحكام الشرعية ، فرأينا اثتلافاً في النغم ، وروعة في البيان ، لا تجعلانها كلاماً مرسلاً كسائر الكلام . فانك واجد التآخي بين الألفاظ والتناسق في الأسلوب ، والمعاني التي تتداعى ، ويأخذ بعضها ببعض ، وكل كلمة توميء الى أختها .

ولنضرب مثلاً من الكلام الذي ليس ما يشبه السجع ولا القافية ولا الازدواج ولا الشعر ، اقرأ قوله تعالى :

« ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي ، فلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الاصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر

حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتتهتدوا بها فى ظلمات  
البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة .  
فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (١) •

انك واجد فى كل كلمة مع أختها اشراقاً ، وصوراً بيانية : لقد ذكر سبحانه ،  
كيف يفلق الحب فيكون زرعاً ، اذا أتى حصاده أكل منه الانسان والحيوان ، وازينت  
به الأرض ، وأنت من كل زوج ، وغير ذلك من الصور والأحياء ثم التعبير بفالق  
النوى ، وكيف يخرج من النوى الدوحة الباسقة الوارفة الظلال ، والأشجار الدانية  
القطوف ، واليانعة الثمار ، ثم كيف يعطر الوجود بالرياحين والزهور من هذه  
النواة اليابسة ، وكيف يخرج سبحانه وتعالى من التراب أحياء ومن الحب الجامد ،  
والنواة الصلبة غصونا حية ، وزروعاً رطبة ، وكيف تدور الحياة الى موت ، فيخرج  
الميت من الحى وان ذلك مرئى ، وانما ينبت الزرع ويخضر ، ويستوى على سوقه  
بعد أن يخرج شطاً ، ثم يصير حطاماً •

ثم بين سبحانه أن الذى فعل ذلك هو سبحانه فى اشارات بيانية ، فهنا  
استعلاء ، وفيها توجيه بأبلغ ما يكون التوجيه ، ثم كان الختام باستفهام انكارى  
وتعجب ، لأن الأمر يستدعى التعجب فى ذاته ، ثم ختم الكلام بختام فيه رنات  
قوية لائمة فى معناها ، ومنبهة للعقول فى نعمها وفى موسيقاها ، ثم جاء بعد البيان  
عن الارض وما فيها من زرع وضرع ، وباسقات — الى السماء ، وما فيها من بروج  
وأفلاك ونجوم وشمس وقمر ، وما يصدر عنها من نور وضيء ، وكان الانتقال من  
الأرض الى السماء بتقريب فى الألفاظ والمعانى ، فعبر سبحانه عن خروج النهار من  
الليل بالفجر الصادق الذى يشق الظلام ، فقال سبحانه — فالق الاصباح — وفى  
ذلك مقاربة فى التعبير بين فلق الحب « والنوى ، وشق النور فى الظلام ، ثم جعل  
من بعد ذلك نتيجة لهذا الاصباح أن كان الليل سكناً ، ووجه الأنظار الى الشمس  
والقمر ، فجعلها سبيلاً لحسان الايام والليالى والشهور ، ثم ختم النص بما يفيد  
أن ذلك كله من حكمة الله تعالى العلى القدير ، وهنا نجد المعنى واللفظ يختمان بختام



من القول يدل على انتهاء هذا الجزء ومثله في ذلك — ولكلام الله تعالى المثل الأعلى،  
كمثل من يصور أجزاء كل جزء منه ناطق وحده متميز بوجوده مع الاتصال الوثيق  
ببما يليه ، وقد كانا على مقربة بعضهما من بعض في نسق بياني ، لا هو من السجع ،  
وولاً من الرسائل ولا من الشعر ، ولكنه فوق ذلك ، وغيه مزايا كل واحدة من هذه  
الأقسام مع الزيادة التي تجعل الكلام لا يطاول بياناً .

وقد ذكر من بعد ذلك زينة السماء إذ قد زينت بالنجوم كالمصابيح للأرض  
يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، وفي ذلك إشارة واضحة الى بيان نعم الله تعالى  
في اليابس والماء ، ففي الأرض زروع وثمار ، وحيوان قد سخرت لبنى الانسان ،  
ومن البحر تستخرج حلية ، وتأكل منه لحمًا طرياً ، وفي السماء يهتدى بالنجوم في  
دجنة الليل ، ويسير في البحر بالجوار المنشآت كأنها الأعلام .

وختمت الآية الكريمة بما يدل على أن ادراك هذه النعم يحتاج الى علم وايمان  
بالحق ، ولا حياة لعلم بغير ايمان بالحق ، ولا حياة لايمان من غير علم ، فهما  
ممتلازمان .

ثم بين سبحانه خلق الانسان ، وهو كون قائم بذاته في ادراكه مصبر وبصيرة،  
وفي أصل نشأته ما يساوى أصل الوجود كله ، ولذلك قال سبحانه وتعالى « وفي  
أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون » (١) .

وان الله ختم الآية الكريمة بما يناسب خلق الانسان الدقيق الذي لا يدركه الا  
غافذ البصيرة ، فقال سبحانه : « ان في ذلك آيات لقوم يفقهون » فالفته هو العلم  
الدقيق العميق الذي يشق الظلام حتى يصل الى الحقيقة .

واننا نجد من هذا أن القرآن لا يمكن أن يوصف بأنه نثر ، ولا بأنه مزدوج  
له فواصل ، ولا بأنه سجع له قواف ولا بأنه شعر ، فليس له أوزان ولا قواف ،  
بل هو ذو نظم اختص به من كل الكلام .

ولو حاولنا أن نعرف سر ذلك النعم وتلك الموسيقى ، وذلك التآخي لعجزنا

أن نعرفه على وجه التحقيق ، انما نعرف تأثيره في نفوسنا اذا تهتدت ووصلت الى ذوق ذلك الأسلوب ، وذلك أمر يدرك لذوى الألباب ، ولا يعرف سره •

وان النظم القرآنى تأليفه كله له رنين الموسيقى ، لقد جرى العرب كتاباً وشعراء وخطباء على أن يجدوا النغم في فاصلة سجع أو قافية شعر ، ولكن نظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه ، فحروفه متأخية في كلماته لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر ، وتسكن عندها فتطمئن النفوس ، والكلمات في تأخيتها في العبارات تنتج موسيقى ونغما يخيص به القرآن وحده وان أى كلام مهما يكن علو صاحبه في البيان لا بد أن يكون مخيلفا عن القرآن لا يمكن أن يلحق به ، لأنه كلام الله تعالى وموق طاقة البشر •

ويعجبني ما كتبه في هذا الكاتب المؤمن مصطفى الراقعى اذ يقول : « كان العرب يتربصون في منطقهم كلما اتفق لهم ، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التى هى مادة الصوت الى أن يتفق من هذا قطع في كلامهم تتقى بطبيعة الغرض الذى تكون فيه ، أو بما تعمل لها المتكلم على نمط من النظم الموسيقى ان لم يكن في الغاية ، ففيه قرب من هذه الغاية •

فانما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه ، في كلماته ، وكلماته في جملة ألحاناً لغوية رائعة ، كأنها لاتلأفها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به وكان ذلك أبين في عجزهم ، حتى ان من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته الى ما حسبه نظماً موسيقياً ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى ، كأنما فطن الى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، أنما هو في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ، وليس يتفق ذلك فى شىء من كلام العرب الا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع » •

### التلاؤم :

١٢٢ — ان المعنى الذى ذكره المرجوم الأستاذ مصطفى صادق الراقعى هو

ما سماه الرمانى بالتلاؤم ، أى تكون نعمات الحروف متلائمة بعضها مع بعض فى الكلمة ، والكلمات يتألف نعمها بعضها مع بعض ، فى الجمل ، والجمل يتألف بعضها مع بعض فى القول كله ، لما نرى فى القرآن الكريم ، فان الآية تتضافر ألفاظها فى نغم هادىء ان كانت الآية فى تبشير أو داعية الى التأمل والتفكير ان كانت فى عظة ، وتتلاءم نعماتها قوية اذا كانت فى انذار ، أو فى وصف عذاب اقرأ قوله تعالى « الحاققة ما الحاققة وما أدراك ما الحاققة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية (١) » •

انك ترى فى هذه الآيات الكريمات ، وهى انذار بما يكون يوم القيامة ، وما يستقبل الذين طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد من عذاب شديد يترقبهم — ترى فى النغم قوة شديدة فمارة لأسماع الذين يشركون ، ويكفرون بالله تعالى ، ويفسدون ، ويعتدون ، ويظلمون ، ويشتركون فى نعمة الترهيب الألفاظ بحروفها ، والجمل بكلماتها ، والخواتم بشدة جرسها ، وقرع الأسماع بها •

ثم اقرأ فى صورة الضحى نعمات الرحمة الواسعة ، اذ يقول سبحانه : « والضحى والليل اذا سجدى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث (١) » •

وانظر الى الآيات الداعية الى التأمل فى الكون ، وما فيه من أمور هادية تجد فيها النعمات الهادئة اللامعة الموجهة من غير قرع للأسماع ، بل بتوجيهه للأفهام ، اقرأ قوله فى سورة الغاشية •

« أنفلا ينظرون انى الابل كيف خلقت ، وانى السماء كيف رفعت ، وانى الجبال

كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر ، إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ان لنا اياهم ، ثم ان علينا حسابهم » (١) •

وانك ترى في هذا النص المبين قد اجتمع التأمل ذو النعمة الهادئة الموجهة من غير عنف في جرس يسترعى الأسماع ويصرف الأنظار، واجتمع الانذار الشديد القوى ، ولم يكن ثمة تنافر بين الانذار الشديد ، والتأمل السديد بل كان الانتقال من مقام الى مقام لا يبدو فيه التباين ، وان كان المقام الثانى انذارا ، ذلك لأن الانذار كالثمره للتوجيه بالنسبة لمن لم تهده الآيات ، وتوجهه النظرات الى الكون وما فيه •

وانك اذ تنتظر في وصف الجحيم تجده في نغم كأنما يخرج منه ريح السموم، وان وصف الجنة تجده في نعمة أصواتاً حلوة كأنها ريح وريحان لأنها جنة ، وقرأ بعض السورة التي تلونا منها أنفا ، وصفا للجحيم ووصفا للنعيم ، فانك واجد لا محالة الفرق في النغم ، اقرأ قوله تعالى : « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة ، تصلى ناراً جامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ، ولا يغنى من جوع — وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وورابي مبشوة » (١) •

تجد في هذه النصوص وصفين لأمرين متباينين، أولهما وصف الجحيم وأصلها، وتجد فيه الألفاظ والمعانى والنغم ، كله يلقي بالألم في النفس، والخوف من العذاب الشديد ، والمصير العتيد • والثانى وصف النعيم وأهله ، وترى فيها الراحة ، والأطمئنان والقرار ، والسعادة ، ويشترك في هذا ألفاظ وجمل ومعان ، ونغم حتى كأنك ترى لا تسمع •

١٢٣ — وان الكلام الذى يتسم بالبلاغة لا بد أن يكون فيه التلاؤم ، والتلاؤم ضد التنافر ، وعرفه الرماني • فقال « التلاؤم نقيض التنافر ، وهو تعديل الحروف

(٢) الغاشية : ١ — ١٦

(١) الغاشية : ١٧ — ٢٦

في التأليف ، والتأليف متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا ، ثم يضرب الأمثلة على التنافر الذي هو ضد التلاؤم ، ثم يذكر أن التلاؤم الذي يكون في الدرجة الوسطى هو التلاؤم الذي يكون في كلام البلغاء وأهل الفصاحة من الناس ، أما التلاؤم في الطبقة العليا ، فإنه لا يكون الا في القرآن الكريم ، ويقول في ذلك رضى الله عنه :

والمتلائم في الطبقة العليا في القرآن كله وذلك بين لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى ، وبعض الناس أشد احساساً بذلك وغبطة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد احساساً بتمييز الموزون في الشعر من المكسور ، واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق ، والسبب في ذلك تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً .

ويستفاد من معنى هذا الكلام أنه يرجع السبب في علو التلاؤم في القرآن كله الى التعديل بين الحروف بأن تكون الحروف متلاقية في النطق ، فليس فيها تباعد في المخارج شديد ، بحيث يصعب الانتقال من مخرج الى مخرج ، ولا التقارب الشديد الذى يجعل بعض الحروف يندغم في بعض .

وان ذلك ينطبق على النطق ، فالتعديل في المخارج بالبعد عن الاختلاف الشديد أو القرب الشديد ، انما هو يتعلق بالنطق وانك بلا ريب تجد ألفاظ القرآن الكريم وجمله بعيدة عن هذا كل البعد ، بل انه المثل الأعلى في ذلك .

وان التلاؤم في ألفاظ القرآن الكريم وجمله وآياته ومواضع الوقف فيه ليس في المخارج فقط ، بل هو فيما هو أعلى من ذلك ، انما هو في النغم ، وجرس القول وموسيقاه ، فلا تجد حرفاً ينشز في موسيقاه عن أخيه ، ولا الكلمة عن أختها ، ولا الجملة عن لاحقتها ، والآية كلها تكون مؤتلفة النغم في الغرض الذى سيقت له ، فان كان انذاراً كان النغم ارعاداً ، وان كان تبشيراً كان نسيماً ، وان كان عظة كان تنبيهاً ، وان كان توجيهها لامتنا عما سواه ، وهكذا .

وقد قال الرماني والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد ذلك يظهر بسهولة على اللسان ، وحسنه في الأسماع ، وتتبله في الطباع ، فاذا انضاف الى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الاعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام ، كما تظهر له أعلى طبقات الشعر من أدناها اذا تفاوت ما بينها وقد عم التحدى للجميع لرفع الاشكال ، وجاء على الاعتبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الاعجاز فقال عز وجل : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهدائكم من دون الله ، ان كنتم صادقين » • ثم قال : « فان لم تتعلموا وان تفعلوا » (١) فقطع بأنهم لم يفعلوا ، وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » (٢) ولما تعالوا بالعلم والمعاني التي فيه قال : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات (٣) ، فقد قامت الحجة على العربي والعجمي •

وان هذا يدل على أن العجز لم يكن لأجل المعاني فقط ، وان كانت معجزة في ذاتها ، ولكن التحدى كان بالألفاظ والأساليب ، لأنهم أمة بايعة ولكنها أمية • وقد أدركوا من أول الامر ما في الالفاظ من جمال ، وما في تأليف القول من نسق وانسجام ، وما في جرسها من نغم ، ولما تورط بعض منهم في أن يحاكوا القرآن ، لم يكن اتجاعهم الا الى النغم أرادوا محاكاته في نغمه ، فجاء كلامهم غثاً ، ليس فيه نغم ولكن فيه ما يدل على ادراك سقيم •

### الفواصل :

١٢٤ - يعرف الرماني الفواصل بأنها حروف متشاكله في المقاطع توجب حسن فهم المعاني ، ويقول : الفواصل سلاغة والاسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع ، فالمعاني تابعة لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة ، اذ كان الفرض الذي هو حكمة انما هو الابانة عن المعاني التي اليها الحاجة ماسة ، فاذا كانت المشاكله موصلة اليه فهو بلاغة ، واذا كانت المشاكله على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة ؛ لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة •

(٣) هود : ١٣

(٢) الاسراء : ٨٨

(١) البقرة : ٢٤

ومثله مثل من رصح تاجاً ، ثم ألبسه زنجياً ساقطاً ، أو نظم قلادة ، ثم ألبسها كلباً ، وتبجح ذلك وعييه بين لمن له أدنى فهم ، فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : والأرض والسماء والغراب الواقعة بنقعاء ، لقد نفر المجد الى العشاء .  
وهكذا نجد الرماني يفرق بين السجع والفاصلة بأن الفاصلة بلاغة ، وأن السجع عيب ، وأن الفواصل الألفاظ فيها تتبع المعانى والسجع الألفاظ فيها مقصودة ، والمعانى تابعة ، ويظهر أنه لم يكن بين يديه الا سجع الكهان ، ولكن أكل السجع كذلك ، وألا يوجد سجع يزيد المعانى قوة ، وتكون فيه المعانى هي المتبوعة ، وليست تابعة ، وأن السجع يزيد المعانى ، ويعطيها قوة ويسهل قبولها ، ويكون باباً من أبواب تأكيدها .

واذلك خالف الرماني في ذلك الكلام الذين كتبوا البلاغة من بعد ، وقبل أن نخوض فيما قالوه ، نقرر أن الفرق ، هو بين الفواصل والسجع ، ان الفواصل معناها أن تكون مقاطع الكلام متقاربة في الحروف كالنون والميم في قوله تعالى « الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » ، وأما السجع فهو أن تكون المقاطع متحدة في الحروف ، ونلاحظ أن الرماني متأثر في فكرة السجع بسجع الكهان الذى قصد به اتحاد الحروف من غير نظر الى المعنى ، ومن غير أن تكون المعانى في ذاتها ذات قيمة بل لا يتصدون الا رص الكلمات متحررين اتحاد المقاطع .

وأنة عند التحقيق نجد أن الفواصل أعم من السجع ، فهى اما سجع تتحد فيه حروف المقاطع أو مجرد فواصل تتقارب فيها حروف المقاطع ، وذلك رأى ابن سنان في كتابه سر الفصاحة (١) فهو يقول : الفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعا ، وهو ما تماثلت فيه حروفه في المقاطع ، وضرب لا يكون سجعا ، وهو ما تقابلت حروفه في المقاطع ، ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين من أنه يأتى سهلاً طوعاً وتابعا للمعانى ، وبالضد من ذلك ، حين يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فان كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة ، وحسن البيان ، وان كان من الثانى فهو مذموم .

وان هذا الكلام معناه أنه ليس كل فاصلة تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، فيكون للحسن والافصاح والاحسان وليس كل سجع تكون المعاني تابعة للألفاظ ، فيكون التكلف ، بل التعميم بالحسن في غير السجع والتبجح في السجع هو الخطأ ، ولا شك أن فوصل القرآن كلها من البليغ الذي تكون فيه الألفاظ تابعة للمعاني •

وأنه بلا ريب في القرآن مقاطع تتحد فيها الحروف ، ومقاطع أيضاً لا تتحد فيها الحروف ، ولكن تتقارب ، ومن المقاطع التي تتحد فيها الحروف قوله تعالى في سورة العنكبوت « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة • وزرابى مبثوثة » (١) • ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور ، ان عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » (٢) •

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « والعاديات ضبحا ، فالمريات قدحا ، فالغيرات ضبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا ، ان الانسان لربه لكنود ، وانه على ذلك لشهيد ، وانه لحب الخير لشديد » (٣) •

وهكذا نجد اتحاد حروف المقطع ، في مقطعين أو أكثر ، ثم تتغير ، الى اتجاه المقاطع في حرف آخر ، ومن القرآن ما تتقارب فيه المقاطع ، مثل قوله تعالى « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أنذا متنا ، وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الارض مبهم • وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ، أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروج » (٤) •

اننا لا نجد المقاطع متحدة الحروف ، ولكن نجد أموراً ثلاثة :

(٢) الطور : ١ - ٨

(٤) ق : ١ - ٦

(١) الغاشية : ١ - ١٦

(٣) العاديات : ١ - ٨



أولها — تقارب مخارج الحروف في المقاطع ، فإدال والباء ، وإظاء مخارجهما  
واحدة النطق فيها متقارب ، ولا نفرة بينها •

ثانيها — وجود حرف المد قبل الحرف الأخير من كل مقطع ، وهو حرف الباء  
في خمسة منها ، وواحد بالواو والوزن في الخمس الأول منها هو وزن فعيل •  
وبهذين الأمرين كان التقارب في المقاطع ، تقارباً بيناً يجعل نسق القول واحداً ،  
ولو لم نتحد المقاطع •

والأمر الثالث هو اتحاد النغم والموسيقى في كل المقاطع ، فهي كلها مؤتلفة  
في حروغها وألفاظها ، وجملها ومقاطعها ، حتى كونت صورة بيانية تجعل كلام الله  
العزیز فوق كل منال •

وقد يكون الكلام في القرآن خالياً من المقاطع في بعض الآيات ، ولا ينزل في  
نغمه وموسيقاه عن سمته ومستواه الاعلى ، ومن ذلك قوله تعالى «محمد  
رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون  
فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في  
التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على  
سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات  
منهم مغفرة وأجرًا عظيماً » (١) •

ومن ذلك كثير من آيات الأحكام مثل آية المواريث ، فالله تعالى  
يقول : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فان كن نساء فوق  
اثنتين ، فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما  
السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ،  
فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم  
لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ، ان الله كان عليماً حكيماً • ولكم  
نصف ما ترك أزواجكم ، ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد ، فلكم الربع

مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وان كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ، غير مضار وصية من الله والله عليم حلِيم ، تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدین فیها ، وذلك الفوز العظيم « (١) » .

وأنا لانجد في هذا الكلام الا مقطعين لا يعدان فواصل متقاربة ، ولا فواصل متحدة في آخرها بحروفها ، انما هو كلام الله المنثور من غير ارسال ، بل النغم متآخ ، والمعاني متلاقية ، والألفاظ متجانسة ، ومتلائمة مع بيان لأحكام ميسراً سهلاً ، فلم ينزل ذكر الأرقام ، بمرتبة الكلام ، عن حد التلاؤم والتآخى .

### أفي القرآن سجع ؟

١٢٥ — الأمر الذي لا مرأ فيه أن القرآن الكريم فيه فواصل تد تتحد فيها حروف المقاطع ، وأحياناً وقد تلونا فيما مضى من القول آيات بينات فيها المقاطع متحدة الحروف ، فهل تعد هذه سجعاً ! اختلفت في ذلك عبارات كتاب البلاغة في القديم .

ونجد الرماني يحكم بأن القرآن فيه فواصل ليست من السجع ، وبذلك يعلو القرآن في نظره عن أن يكون سجعاً ، ويقاربه في ذلك الرأي أو يوافقه الباقلاني في كتابه دلائل الاعجاز ، وسنعود الى الاستدلال اذلك الرأي ان شاء الله تعالى .

ولكن الآن نتكلم في وجهة نظر الذين أثبتوا أن القرآن فيه سجع ، وان كان أعلى مما يستطيع الناس أو يزاولونه .

ومن هؤلاء أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين ، فهو يقول :

« وجميع ما في القرآن مما يجري على القرآن من التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة ، لما يجري مجراه من كلام الخلق ،

ألا ترى قوله عز اسمه « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا (١) » . قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والفرض والغمر ، والبرض ومثل هذا من السجع المذموم ، أما فيه من التكلف والتعسف ، ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لرجل أئدى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح غاستهل ، فمثل ذلك يظل : أسجعا كسجع الكهان ، لأن التكلف في سجعهم فاش ، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعاً لقال : أسجعا ثم سكت ، وكيف يذمه ويكرهه ، وإذا سلم من التكلف ، وبريء من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام .

ونرى من هذا أن أبا هلال العسكري يخالف الرماني في أن السجع كله مذموم ، بل منه المذموم الذي يظهر فيه التكلف ، ويرهق الألفاظ والمعاني ، حتى يحاول القائل أن يكون كلامه رصاً غير متماسك بملاط من المعاني .

ويرى أنه لا مانع من أن يوصف القرآن بأن فيه سجعاً ، ولكنه سجع في أعلى مراتب الكلام ، بحيث لا يمكن أن يجاربه أحد ، ولا يصل الى علوه أحد من الخلق .

وابن سنان في كتابه سر البلاغة يسمي ما فيه المقاطع متحدة سجعاً ولكن في درجة العلو القرآني الذي لا يستطيع أحد أن ينهد في كلامه اليه .

ويسوق نصوصاً قرآنية يعدها من السجع منه ماتلوننا ، ومنه قوله تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر » (٢) وقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد » (٣)

ويقول ابن سنان ان نعم السجع كان مقصوداً ، فقد حذف الياء في يسرى ،

وحذفت في انواد ، وذلك صحيح في اللغة ، ويقول قصد اليه طلبا للموافقة في  
الفواصل •

ويستدل أيضاً بقوله تعالى : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وان يروه  
آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » (١) •

وينكلم ابن سنان في البواعث التي بعثت الذين ينكرون أن يكون في القرآن  
سجع ، فيحمد تلك البواعث مع الإصرار على المخالفة فيقول : وأظن أن الذي  
دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه  
سجعا ، رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن  
الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية تريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه ، لأنه  
لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره في كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه في  
كونه عرضاً وصوتاً وكلاماً عربياً مؤلفاً ، وهذا مما لا يخفى ، فيحتاج إلى زيادة  
في البيان ، ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع •

ويقول نارضاً اعتراضاً ، وراداً عليه ، فإذا قال قائل « اذا كان عندكم أن  
السجع محمود ، فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً ، وما الوجه في ورود بعضه غير  
مسجوع ! قيل ان القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم ، وكان الفصيح  
من كلامهم لا يكون كانه مسجوعاً لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه ،  
والتنصع ، لا سيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعاً ، جرياً على عرفهم في  
الطبقة العالية من الكلام ، ولم يخل من السجع ، لأنه يحسن في بعض الكلام  
على النصبة التي قدمناها ، وعليها ورد في فصيح كلامهم ، فلم يجوز أن يكون عالياً في  
الفصاحة ، وقد أخل فيه شرط من شروطها ، وهذا هو السبب ، فأورد القرآن  
مسجوعاً ، وغير مسجوع » •

ونحن لا نفرض احتمال التكلف في القرآن قط ، لأنه من عند الله تعالى ولكن  
نقول هكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون هكذا كتابه ، واذا أردنا أن نلتمس  
حكمة لذلك ، فهي فيما قال سبحانه « ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل

مثل « فتصريف القول في القرآن ، كان من جماله الذى يعلو على كل البشر ، بأن يكون تصريف القول فيه بسجع أحيانا ان ارتضينا مذهب السجع ، أو الفواصل المتقاربة حروفها في المقاطع أحيانا أو اطلاق الألفاظ في القرآن ، من غير مقاطع ، مع ملاحظة أن ذلك كله في أعلى ذلك درجات البلاغة التى لا يصل اليها أحد من البشر .

وابن الأثير في كتابه المثل السائر يستنكر قول الذين يذمون السجع ، ويستنكر قول الذين لا يسمون ما في القرآن من اتحاد المقاطع في الحروف سجعا ، ويقول في ذلك .

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به ، والا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير ، حتى انه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن ، وسورة القمر وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة .

وترى أنه يستحسن السجع ، ويرمى الذين لا يستحسنونه بأنهم لا يهيّدونه ونقول انه لا يمكن أن يكون حسناً في كل الأحوال ، فمثلا بيان الأحكام الشرعية في أى كلام بليغ لا يصح أن تكون سجعا ، ولكل مقام مقال كما يذكر علماء البلاغة .

وخلاصة ما يقرره المثبتون للسجع في القرآن أنهم يعتمدون على مايتلونه من اتحاد الحروف في مقاطع القرآن ، ويقررون مع ذلك أن سجع القرآن أعلى من كلام البشر ، فليس على شاكلة مثله في كلام الناس ، لأنه أعلى من كلام الناس .

١٢٦ — من هذه النقول التى نقلناها نجد الذين يقررون أن في القرآن سجعا يعتمدون أولا — على نصوص القرآن التى ثبت فيها أن الفواصل المتحددة في الحروف كثيرة في القرآن ، وثانياً على أن السجع ليس عيباً في القول ، ولكنه من مصنفات القول ، وقد وقع كثيراً في كلام العرب الجيد وانه لم يكن سجع الكهان

هو السائد فقط ، بل كان من بلغاء العرب من اتجه الى السجع البليغ ، فقد روى عن  
أبي طالب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لسيف بن ذى يزن :  
« أنبتك الله منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ،  
ونبت زرعه في أكرم موطن ، وأطيب معدن » .

وان الذين نفوا السجع من القرآن قالوا انه مذموم ، وعلى رأسهم الرمانى ،  
وجاء من بعده أبو بكر البلاقلانى ، فنهج ذلك المنهج وسار على ذلك الخط ، ونسبه  
الى الأشاعرة ، فقال :

ذهب أصحابنا كلهم الى نفى السجع من القرآن ، وذكره الشيخ أبو الحسن  
الأشعري في غير موضع من كتبه .

واذا كان الذين ردوا على الرمانى قد بينوا أن السجع ليس مذموماً على  
اطلاقه ، انما المذموم منه سجع الكهان ، وما كان فيه اللفظ هو المقصود ،  
والمعنى تابع له .

وقد أنكر البلاقلانى أن يكون في القرآن سجع ، وما ادعوه من سجع فيه  
وساقوه ، هو وهم لا أساس له فقال :

والذين يقدرون أنه سجع هو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع ،  
وان لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا ، يختص ببعض الوجوه دون  
بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس  
كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ لا يقع فيه تابعاً  
للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود  
فيه ، وبين أن يكون السجع منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع ، كانت  
افادة السجع كافادة غيره ، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً  
لتحسين الكلام دون تصحيح .

واننا هنا نجد افتراقاً بين البلاقلانى وابن الأثير وابن سنان وأبى هلال  
العسكري في تعريف السجع ، فأولئك يعتبرون السجع ما اتحدت فيه ألفاظ

المقاطع ، سواء أكان المعنى هو المقصود ، وجاء الاتحاد تحسیناً للقول ، أم كان المقصد هو اللفظ واتحاد ألفاظ المقاطع هو المقصود ، وفي الأول يكون السجع محموداً ، وفي الثاني لا يكون لائقاً بمقام القرآن الكريم .

أما الباقلائی وسائر الأشاعرة ، ومن سلك طريقتهم ، فانهم لا يذكرون السجع الا في الصورة التي يكون فيها اللفظ مقمدا على المعنى .

وان الذي دفع الباقلائی الى هذا هو تشبيه السجع بالشعر ، فالشعر تقصد فيه القوافي والمقاطع المتحدة في الألفاظ ثم تكيف المعاني على الألفاظ ليستقيم المقطع ، كما تستقيم القافية ، واذا كان الشعر منفياً في القرآن بالاتفاق فكذلك السجع الذي ينهج منهجه ، ويتبع طريقتة ، وتجيء المعاني تابعة للألفاظ مكيفة بكيفها ، مأخوذة بطريقتها ، وان الله تعالى عندما استنكر أن يكون قول شاعر ولا كاهن ، أدخل السجع في النفي ، وهو السجع الذي يكون فيه المقصد الأول للفظ .

وانه اذا كانت الفكرة نفيًا أو اثباتاً قائمة على الاختلاف في الاصطلاح ، فانه قد زال الخلاف ، اذ لا مشاحة في الاصلاح .

وبذلك فنتهي الى الاتفاق على أن القرآن فيه فواصل تتحد فيها المقاطع ولعلوها وسموها في البلاغة كانت المعاني هي المقصد الأول ، وجاءت الألفاظ بجمالها واشرافها وحسن نغمها ، ورنة موسيقاها تابعة لذلك ، وقد يكون اتحاد المقاطع في الحروف من مظاهر الجمال وحسن النغم . وانسجام الموسيقى وفي ذلك قوة التأثير ، بما لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله .

وعلى ذلك نقول ان من يفسر السجع بأنه الاتحاد في حروف المقاطع من غير أن يكون المعنى تابعاً للفظ يحكم بأن القرآن الكريم فيه سجع فوق قدرة البشر أن يأتيوا بمثله ، ومن يقول ان السجع كالشعر يكون المعنى فيه تابعاً للقافية والأوزان يكون القرآن الكريم منزهاً عنه .

ونحن نميل الى أن اتحاد المقاطع في القرآن لا يعد سجعاً ، لأننا نرى السجاعين

يتجهون الى الألفاظ أولا ، وقد يكون سهلا وحاوا ولكن الاتجاه فيه أولا الى الألفاظ ، وذلك غير لائق بالنسبة للقرآن •

١٢٧ - وبذلك يكون الحكم في أمر اتفق الطرفان المتخاصمان فيه على تقديس القرآن الكريم ، وتنزيهه عن أن يكون مشابها لكلام الناس ، وان كان من جنسه ، ومكونا من حروفه •

ونختم الكلام بكلام لكتابين مؤمنين قال أحدهما في وصف ألفاظ القرآن ونظمه ، وقال الثانى في فواصله ومقاطعته ، أما الأول فالباقلاى ، فقد قال :

« ان القرآن سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريبا الى الأفهام ، يبادر معناه لفظه الى القلب ، ويساق المخرى منه عبارته الى النفس ، وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قربه فى نفسه ، ولا موهم مع دنوه فى موضعه أن يقدر عليه ، أو أن يظفر به ، فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام البتذل ، والقول المسفسف فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة ، فيطلب فيه ، ولكنه أوضح مناره ، وقرب منهاجه ، وسهل سبيله ، وجعله فى ذلك متشابها متماثلا ، وبين مع ذلك اعجازه فيهم •

أما الثانى فهو الكاتب المؤمن مصطفى صادق الرافعى رحمه الله ورضى عنه فهو يقول فى فواصل القرآن ومقاطعته •

ما هذه الفواصل التى تنتهى اليها آيات القرآن ؟ ما هى الا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا ، يلائم الصوت والوجه الذى يساق اليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى بانون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها ، أو بالمد ، وهو كذلك طبيعى فى القرآن ... قال بعض العلماء : كثير فى القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين ، والياء والنون ، وحكمة وجودها التمكن من التطريب بذلك • كما قال سيويوه انهم ( أى العرب ) اذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك اذا لم يترنموا ، وجاء ذلك



في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع •• فإذا لم تنته بأعادة من هذه ( بالميم والنون والمد ) كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعاً لصوت الجملة ، وتقطع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه • وعلى أن ذلك لا يكون أكثر مما أنت واجده الا في الجمل القصار ، ولا يكون الا بحرف قوى يستتبع القلقة أو السفير ، أو الصغير أو نحوهما مما هو صروف أخرى من النظم الموسيقى •

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة ، وأثرها طبيعي في كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه • ثم لا يجد من النصوص على أي حال الا الاثرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره ، ولما وجد أثر يتعدى أهل هذه اللغة الغربية الى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز • فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره ، أو أتحم معه حرف آخر لكان ذلك خلافاً بينا ، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن ، وجرس النغمة ، وفي حس السمع وذوق اللسان ، وفي انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ، وتساند الحروف ، وإفضاء بعضها الى بعض ، ولرايت لذلك هجنة في السمع كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاءه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضاً ، وذهب ما بقي منها الى جهات متناكرة •

وان هذا الكلام يفيد فائدتين : أحدهما — أن موسيقى القرآن الكريم ونغماته هي التي استرعت أسماع العرب ، واستهوت نفوسهم ، ورأوا لها حلاوة ، وعليها طلاوة ليست من الشعر ، وان علت على أعلى ما فيه ، وليست من نوع كلامهم البليغ وان كانت من جنس كلامهم ، وأن ذلك التأليف في النغم والجرس مع علو المعزى ، والمعنى ، واحكام التعبير ، ودقة الاحكام ، لا يمكن أن يصل اليه أحد • وقد يقول قائل هل هذه الأنغام المؤتلفة مقصودة في ذاتها ، وهي الاعجاز فنقول اننا مهما نحاول في رد الاعجاز الى أسباب لا نجد سبباً واحداً بذاته هو الذي اختص بالاعجاز ، بل تضافرت في ذلك الأسباب ، وكل واحد منها يصلح سبباً قائماً بذاته •

ولكن نؤكد أن جرس المقاطع والحروف والكلمات والجمل ، والفواصل ، وأبعادها كل هذا فيه اعجاز للعرب عن أن يأتوا بمثلها .

وان الدليل على أن جرس الآيات القرآنية بما حوت من حروف وكلمات هو من الاعجاز أن الله تعالى أمر بترتيل القرآن لا بمجرد القراءة ، فقد قال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلاً » وبين سبحانه أن ترتيل القرآن بتعليم من الله تعالى ، فقد قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » (١) فالله تعالى علم نبيه صلى الله عليه وسلم الترتيل ، وهو علم أمته ذلك الترتيل ، وليس الترتيل مجرد القراءة ، انما الترتيل قراءة منعمة تنعيمياً يظهر التناسق في الحروف والجمل والآيات ويكشف معانيها ، ونعماتها ، وتلك هي موسيقى القرآن .

الفائدة الثانية التي يفيدها أن اعجاز القرآن لغير العرب هو بنعمه وجرسه الموسيقى ، فان الموسيقى لغة الانسانية ، وتهتز لها كل القلوب ، ونحن نوافقته في اتجاهه الى أن القرآن معجز للعرب وغيرهم ، ولكن لانقصر اعجاز غير العرب على الموسيقى وحدها ، بل نقول ان ذات العبارات ، وشرائعه ، والعلم المبتوث فيه ، وكونه من أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ في بلد أمى ليس فيه معهد ، ولا مدرسة — هذا كله فيه الدلالة على أنه من عند الله تعالى .

## هـ - الإيجاز والاطناب في القرآن

١٢٨ - ان القسمة العقلية للكلام كثرة وقلة بالنسبة لمعناه تحصره في أربعة أقسام ، أولها الإيجازة بأن تكون الألفاظ قليلة والمعاني كثيرة . وثانيها التقصير بأن تكون الألفاظ غير كافية للدلالة على المعاني . وثالثها الاطناب بأن تكون المعاني كثيرة ، والألفاظ كثيرة لا حشو فيها . ورابعها التطويل ، وهو أن تكون الألفاظ كثيرة ، وفيها ما لا حاجة اليه . وهذه الاقسام الاربعة من الناحية البلاغية متقابلة ، فالإيجاز والتقصير متقابلان ، وأولهما باب من أبواب البلاغة وثانيهما عى في القول ، ونقص في البيان . والاطناب والتطويل متقابلان ، وأولهما بلاغة وحسن أداء ، وثانيهما عى وعيب في البيان ، يدفع الى الملل والسامة ، حتى يتبرم به السامع .

وقد ذكر الرماني هذه الاقسام المتقابلة ، مع كل ما يقابله ، فقال : الإيجاز بلاغة والتقصير عى ، كما أن الاطناب بلاغة والتطويل عى ، والإيجاز لا اخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ، لأنه لا بد فيه من الاخلال ، فأما الاطناب فانما يكون في تفصيل المعنى ، وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل ، فان لكل واحد من الإيجاز والاطناب موزعا ، يكون به أولى من الآخر ؛ لأن الحاجة اليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فأما التطويل فعيب ، وعى ؛ لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل فكان كالسالك طريقا بعيدا ، جهلا منه بالطريق القريب ، وأما الاطناب فليس كذلك ؛ لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة ، والفوائد العظيمة ، فيحصل في الطريق على غرضه من الفائدة ، على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب .

وانه يستفاد من هذا الكلام أن الاطناب هو في زيادة المعاني ، لا في زيادة الألفاظ ، فان اللفظ اذا زاد لا يكون الكلام من الاطناب البليغ المستحسن الا اذا زادت معه المعاني ، وذلك يكون بتفصيل القول ، لا باجماله . اقرأ قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى ، قال هي عصاى أتوكأ عليها ، ورأيت بها على غنمي ،

ولى فيها ما رب أخرى (١)» اننا نرى هنا اطناباً حلواً تنترب به الألسنة والأسماع ، كان الايجاز أن يقول هي عصى • وبقية المعانى تفهم ، ولكن محبة موسى لربه ، ورغبته في أن يطيل المحادثة ، صرح بما يفهم ضمناً ، وبما يعلمه الله تعالى من غير بيان •

واقراً مرة أخرى ما قاله موسى عليه السلام عندما كلفه ربه أن يقوم بحق الرسالة ، ثم قال راعياً في حديثه مع ربه : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، انك كنت بنا بصيراً ، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى ، اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن ائذفيه فى التابوت ، فائذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدولى وعدوله ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، اذ تمشى أختك ، فتقول هل أدلكم على من يكلفه ، فرجعناك الى أمك كى تتمر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم ، وفهتاك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك لنفسى (٢) •

وهنا نجد فى هذا الكلام اطناباً فى خطاب كليم الله تعالى لربه ، فهو لا يكتفى باللزوم حتى ينطق باللازم ، لأن الخطاب محبب الى نفسه لانه يخاطب ربه فيسهب فى القول من غير تزويد •

ثم تجد بعد ذلك فى كلامه ايجازاً غير مغل ، قد حذف منه ما صرح به فى آيات آخر من قصة سيدنا موسى مع فرعون ، فذكر أن أخته قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، ولم تذكر أنه حرم عليه المراضع ، وقد عرف هذا من الآيات الأخرى ، ومنهم من هذه اذ أنه لا يمكن أن يكونوا فى حاجة الى من يكلفه لهم ، الا اذا احتاجوا الى ذلك ، وحذف من قبل كلام امرأة فرعون ، وقد فهم ضمناً من قوله تعالى ، وألقيت عليك محبة منى •

وذكر هنا قتله نفساً ، وطوى ما كان منه عندما بلغ رشده ، ورؤيته

(١) طه : ١٧ - ١٨

(٢) طه : ٢٥ - ٤١

رجلا من شيعته يستغيثه فأغاثه وقتل الذى من عدوه ، ثم طوى سبحانه وتعالى  
خبر الأئتمار به ليقبله المتآمرون ، ثم خروجه ، والتقاؤه بابنتى شعيب وسقيه  
لهما ، ومجىء احدهما تمشى على استحياء ، ثم زواجه ، على أن يكون المهر عمله  
ثمانى حجج أو عشر ثم ايناسه بالنار ثم مكالة الله تعالى ، وقد ذكر ذلك كله فى  
قوله تعالى « فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك  
لنفسى » (١) •

وهكذا نجد أن الاطناب لا يكون بكثرة الألفاظ فقط ، بل بكثرتها مع كثرة  
المعنى ، والايجاز لا يكون بكثرة المعانى فقط ، بل لا بد أن يكون فى الألفاظ دلالة  
واضحة على المعانى الكثيرة ، أو أن تكون هذه المعانى ذكرت فى مقام آخر من  
القرآن ، فان القرآن الكريم كل كامل لا يتنقص معانيه ، ولا تستغلق على قارئيه  
وقد يحذف القول فى مكان ، لأنه يفهم بدلالة الأولى فى مكان آخر •

وبين أيدينا فى هذا الباب آيات فى الميراث •

لقد قال تعالى فى ميراث الأولاد : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ  
الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة ، فلهما  
النصف » (٢) ، ونرى هنا أن النص الكريم ذكر أن ميراث الواحدة اذا انفردت  
النصف ، وميراث الاكثر من اثنتين الثلثان ولم يذكر الميراث اذا كانتا اثنتين فقط  
ولم تزيدا عن اثنتين ، أيكون النصف أم يكون الثلثين ؟

لقد تبين ذلك فى ميراث الأخوات ، فقد قال تعالى : « يستفتونك قل الله يفتيكم  
فى الكلالة ، ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها ان لم  
يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء  
فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم ان تضلوا والله بكل شىء عليم » (٣) •

وهنا نجد الايجاز المحكم ، فنجد فى الآية الأولى تحذف ما يفهم بالأولى من  
الآية الثانية ، ويحذف من الثانية كذلك ، فقد ذكرت الآية حكم ما فوق الاثنتين :

(٢) النساء : ١١

(١) طه : ٤٠ - ٤١

(٣) النساء : ١٧٦

ولم تذكر حكم الاثنتين ، وهو ما بين في الآية الأخرى لأنها ذكرت أن ميراث الاثنتين هو الثلثان ، وإذا كانت البنت أقرب الى الميت من الأخت فيكون ميراث البنتين الثلثين بدلالة الأولى ، لأنه اذا كانت الأختان وهما أبعد تأخذان الثلثين ، فأولى أن تأخذهما البنتان الاثنتين ، لأنهما أقرب ، فلا يمكن أن يكون نصيبهن أقل من الثلثين .

والآية الأولى نصت على أن الأكثر من بنتين تأخذان الثلثين ، فلا زيادة عن الثلثين ، فالأولى بالأولى بالآية الأولى نصيب الأكثر من أختين لأن الأكثر من اثنتين من ذوى القرابة القريبة لا يزيد عن الثلثين ، فأولى ألا يزيد عن ذلك ذوات القرابة الأبعد .

وأمثال ذلك كثير في القرآن ، ومنه قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك (١) » ، وهذه حال المطلقة الحامل ، وذلك ايجاز لا تفصيل فيه ، وبينت حال الحامل ، في قوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » (٢) .

١٢٩ — وان الأمر الذى يجب أن نعرفه ونؤمن به ونؤكد ، وهو الذى يليق ببلاغة القرآن التى لا تسامى ، ولا تتاهد ، وتتحدى بها الأجيال كلها — فى كل اللغات — أن الایجاز ليس فيه تصور فى الألفاظ بجوار كثرة المعانى ، وليس فيها ابهام أو عدم وضوح ، بل الألفاظ تكون على قدر المعانى مع كثرتها ، فهى واضحة الدلالة ، كما أن المعانى وفيرة غزيرة معدقة .

وان الاطناب كذلك فان المعانى تكون كثيرة ، والألفاظ على قدرها لازيادة فيها بحيث لا يمكن الاستغناء عن بعضها والاكتفاء ببعضه ، بل انك لو أردت حذف كلمة ، بل حرف من كلمة لأهسست بأنك قطعت جزءاً من الصورة البيانية : فلا تكون الصورة كاملة بدونها ، بل تحس بفراغ فى مكانها لا بد أن يملأ .

وإذا كان الاطناب مع كثرة الألفاظ على قدر المعانى بحيث لا يستغنى بكلمة

عن كلمة ، والايجاز كذلك ، فما الفرق اذن بينهما ، ولم يكن ثمة حاجة • لأن يقسم بيان القرآن الى ايجاز واطناب ، وقد اتفق علماء البلاغة على أن في القرآن الكريم النوعين •

واننا نقول في الجواب ، ان الايجاز والاطناب طريقتان للبيان ، كل منهما واف في موضعه ، يؤدي الغرض الأول في موضعه ، وهما يتباينان لا يجمعهما الا البلاغة البينة الواضحة ، وكل له مقامه •

ولنوضح الفرق بينهما في الحقيقة ، ثم نوضح الفرق بينهما في مواضعهما من القرآن الكريم •

فالفرق بينهما في الحقيقة أن الايجاز يكون بحذف كلمة دلت القرائن عليها مع الوفاء في حذفها ، كالوفاء في ذكرها ، والبلاغة تكون في الحذف في مقام البيان ان كانت الدلالة قائمة ، والقرائن مثبتة ، ويكون في الحذف فائدة لا توجد مع ذكر المحذوف كقول الله تعالى عن قول أخوة يوسف لأبيهم « واسئلكم القرية التي كنا فيها ، والعرير التي أقبلنا فيها وانا لصادقون » (١) •

وان القرية وهي مجموع المساكن والطرقات لاتسأل انما يسأل من فيها ، بل يسأل بعض من فيها ، وذلك دليل على أن المسئول هو البعض ، فهنا ايجاز بالحذف ، ولا نقص بذلك الحذف ، بل فيه زيادة معنى ، وهو أن الأمر شائع عام للجميع ، وكأن كل من في القرية يعرف حتى البنيان ، والمساكن والأسواق ، أي أن ذلك أمر معروف ، لا موضع للكذب فيه •

وحقيقة الاطناب أن المعاني تكون والألفاظ على قدر واحد في الكثرة ، والألفاظ بناء متكامل لا ينتقض منه لبنة ، ولكن الاطناب يكون متجها الى تفصيل الألفاظ في الدلالة ، فلا يستغنى بلازم عن ملزوم ، ولا بملزوم عن لازم ، ولا بعام عن خاص ، ولا بخاص عن عام ، ولا بدلالة الأولى عن نص اللفظ ، ولا بالاشارة عن العبارة ، بل كل ما يقتضيه المقام يجيء في وضوح كامل ، لا يكتفى فيه بالتضمن ،

ولا بالاشارة ولا بالالتزام ، ومثال ذلك في الحسيات ، وان كان لكلام الله تعالى المثل الأعلى أن تطلب من شخص وصف قصر ، فيصف أبعاده ، طوله وعرضه ، وارتفاعه وزيناته ، ثم يصف الغرفات غرفة غرفة ، ودعائم بناء القصر ، ويسترسل في وصفه كأنك تراه وهذا الطناب يكون له مقامه اذا كان لمن يريد شراءه أو سكناه .

وقد يقول في وصفه أحياناً انه على أكمل صورة لتصور المترفين طلاء وحلية .

ولا شك أن الأول اطناب لا زيادة فيها مادام غير قاصد الا لبيان مافيه والثاني

ايجاز لا قصور فيه .

ولنضرب لذلك مثلاً سورة الطلاق التي بينت وقت الطلاق ، وما يكون بعده ، وما يجب للمطالقة ، وما يجب على المطلق ، مع الايجاز في بعض الأحكام التي تشمل حال الطلاق وغيره .

قال الله تعالى : « ياأيها النبي اذ طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدراً ، واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ، ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ، ذلك أمر الله أنزله اليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن ، وان كن اولات حمل فأنفقوا عليهن ، حتى يضعن حملهن فان أرضعن لكم فأتوهن أجورهن ، وأنتمروا بينكم بمعروف ، وان تعاسرتم فسترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ،



لا يكف الله نفساً الا ما أتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا » (١) ۞

وانك ترى في هذا النص الكريم المعانى الكثيرة ، فهى تكاد تشتمل أحكام المطلقات ، وفيها إشارة الى بعض أحكام عدة المتوفى عنهن أزواجهن ، وان الألفاظ ليست قليلة ، ومن المؤكد أنه لا زيادة فيها ، بل تخلل الايجاز بعضها •

وان أكثر آيات الأحكام فيها ذلك الاطناب الذى لاتزيد فيه الألفاظ عن المعانى ، لأنها تتعرض لما يكلف الله تعالى عباده ، ولا بد أن يكون ذلك واضحاً ، للمكلف كل الوضوح حتى لا يكون فى ذلك موضع ابهام تكون فيه معذرة للمكلف ، بل انه بيان الله تعالى اشامل الذى لا ابهام فيه ، ولا مظنة ابهام • أقرأ قوله تعالى فى تحريم الخمر ، اذ أطنب سبحانه ، فقد قال تعالت كلماته : « ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة ، والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة • فهل انتم منتهون ، واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم ، فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ، ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » (٢) •

واننا نرى القرآن الكريم يأتى بالاطناب الذى لا زيادة فيه فى آيات الأحكام كما أشرنا بذلك ، وتلوناً من كتاب الله تعالى ، فانك لا تجد أن حكماً أصلياً يأتى به القرآن يكتفى فيه بالإشارة عن العبارة ، وباللازم عن الملزوم ، بل كل ذلك صريح فى القرآن الكريم ، ولكن الفقهاء فى استنباطاتهم كانوا يأخذون أحكاماً من اشارات العبارات وكناياتها ، كما رأينا فيما سنتبوه من قوله تعالى « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن » فانهم فهو منه أن الولد لأبيه وأن له حق التربية وأخذ الفقهاء من اشارات العبارات كثيراً فى أبواب الفقه ، وعد ذلك من بلاغة القرآن الكريم •

وان أخذ الأحكام بطريق الاشارة دون العبارة لا يمنح أنه لم يكتف بذكر الملزوم في بيان الحكم الأصلي ، وان ذلك ثمرات الحكم الأصلي فهتم منه وأما الأصل فلم يفهم الا بالعبارة الواضحة .

هذا ومن مواضع الاطناب الواضح في القرآن الكريم ، القصص القرآني في مواضع العبرة وتسلية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان ما نزل بالأنبياء السابقين وما لاقوا من أقوامهم ، فان الاطناب في ذلك يزيد قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تثبيتاً وأتسأ ، وان القصص فوق ذلك يكون مشتتلا على مناقشة الأنبياء السابقين لأقوامهم ، وأدلة التوحيد التي جاءت على أسنتهم ، وفيه بيان أحوال السابقين ، وما كان يسيطر عليهم وعلى بيئاتهم .

وانه من مواضع الاطناب الذي لا يكفى فيه الايجاز بطلان عبادة الأوثان ، ومجادلة المشركين ، ورد مطالبهم من معجزات غير القرآن . وبيانات تثبت الرسالة سواء ، فان القرآن مشتتلا على الكثير منه .

ومن مواضع الاطناب توجيه النظر الى الكون ، وما فيه من خلق السموات والأرض وما بينهما ، فان هذه مواضع تحتاج الى الاطناب الذي لا تغنى فيه الاشارة عن العبارة ، وفي القرآن الكريم من ذلك ما يدل على عظمة الخالق من مظهر المخلوق ، ودلالة الأثر على المؤثر والموجود على من أنشأه ، والحاضر على الغائب . ومن مواضع الاطناب مناقشة أهل الكتاب ، وبيان انكارهم ، واثبات ماضيهم الذي امتد في حاضرهم .

١٢٨ - ويجب أن ننبه هنا الى أن التكرار ليس من الاطناب ، وهو من الحشو اذا كان في سياق واحد ، فالسياق الواحد لا يتكرر فيه المعنى ، ولا يتكرر فيه اللفظ ، واذا بدا للقارئ الذي لا يمحص المعاني والحقائق أن في الكلام القرآني تكراراً للمعنى ، فان ذلك عند ذوى الفهم السليم تفكير سقيم ، لأن تكرار المعنى له وصف آخر يؤدي فكرة جديدة ، ومن ذلك قوله في وصف ميثاق بنى اسرائيل الذي

أخذ عليهم وأقروا به ثم أعرضوا عنه ، فقد قال تعالى : « واذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقلوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم الا قليلا منكم ، وأنتم معرضون ، واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون » (١) .

ولقد ادعى بعض الناس أن فى الكلام تكراراً فى المعنى فى موضعين ، وان كان اللفظ لا يتكرر ، ففى الأول يقول تعالى « ثم توليتم الا قليلا منكم ، وأنتم معرضون . » فيدعى بعض الناس أن فى النص الكريم تكراراً ، لأن التولى هو الاعراض ، فما معنى وأنتم معرضون « الا أن يكون تكراراً ، وان النظر العميق يثبت أولاً أن التولى هو الانصراف ، والبعد بالجسم ، والاعراض هو الانصراف بالقلب ، فأثبته هذا قوله تعالى « فأعرض ونأى بجانبه (٢) » وفى هذا تصوير حسى للاعراض فهو لم يعرض بالقلب بعدم الازعان بل قرن المعنى النفسى بالمظهر الحسى ، كذلك هنا قرن الاعراض النفسى بالمعنى الحسى لتصوير الاعراض - وجعل حق وراءهم حسياً ، ثم قوله تعالى : ( وأنتم معرضون ) حال وفيه معنى توليتم ان كانت بمعنى الاعراض عامة ، وذلك لأن معنى هذه الجملة الحالية أى أن الاعراض النفسى عن الحق ، وجحودهم حال مستمرة من أحوالهم فالحق لا يصل الى قلوبهم .

والثانى وهو قوله « ثم أقررتم ، وأنتم تشهدون » فان الذين يدعون التكرار فى المعنى يقولون ان الشهادة هنا هى الاقرار فما معنى ذكرها بعد الاقرار الا أن يكون تكراراً .

ونقول فى الاجابة عن ذلك ان ذكر وأنتم تشهدون بعد الاقرار ليس تكراراً ، لأن الشهادة هنا ليس معناها الاقرار لأن الاقرار قد يكون عن أمر مغيب ، وانما معناها الحضور والرؤية ، والمعنى على ذلك أنكم حضرتم الميثاق وأقررتم على

ما فيه ، فهو اقرار موثق لا تستطيعون أن تدعوا الغفلة اذ هو قول وحضور ، فعن أيهما تغفلون •

ومن الآيات القرآنية التي يدعى فيها التكرار بادی الرأي قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام مع قومه •

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتحتنون الجبال ، بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين » (١) •

وقد قالوا ان هنا تكراراً في المعنى لأن العثى هو الفساد ، فمعنى لا تعثوا لا تنفسدوا ، فكلمة مفسدين تكون تأكيداً للمعنى ، والجواب عن ذلك انه لا تكرار ، لأن النبي الأمين نهى عن الفساد ، وعن القصد اليه فكلمة مفسدين تدل مع لا تعثوا على عدم القصد اليه ، ومن جهة أخرى فيها ايماء الى أن الافساد وصف لهم ، فعليهم أن يتخلوا عن الوصف ، وهي كذلك تدل على شناعة حالهم ، وفساد جمعهم ، اذ أنه فساد لا صلاح معه ، فهل يقال بعد هذا ان ثمة تكراراً في المعنى في أى جملة من آيات كتاب الله تعالى •

وانه لا يوجد تكرار لفظي في جملة واحدة ، ولا في موضع واحد •

وقد ادعى بعض العلماء التكرار في مواضع في القرآن وعلله بما لا يتتافى مع اعجاز القرآن الكريم بل انه من دلائل الاعجاز ، اذ أن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة في مواضع مختلفة مع جمال الألفاظ والجمال في مواضعها المختلفة ، كأن يكرر المعنى في قصة ، في سور مختلفة ، وكل عبارة معجزة في ذاتها ، ويتحدى بها في نغمها وموسيقاها وألفاظها وجمالها ، وعجز العرب عن أن يأتوا بأى عبارة منها دليل على كمال الاعجاز في جملة وفي أجزائه •

ونحن نرى أنه لا تكرار في عبارات القرآن بمعنى أن يكرر المعنى من غير حاجة اليه بل ذكرنا أنه اذا تكرر لفظ أو معنى فانما يكون ذلك لمناسبة جديدة ، ويكون عدم ذكر ما يدعى فيه التكرار اخلافاً ، وذلك مستحيل على كتاب الله تعالى •

وقد ضربنا على ذلك الأمثلة من قصص القرآن ، ومن أنواع الاستقهام وذلك في صدر كلامنا في تصريف القول في القرآن .

### اقسام الایجاز :

١٢٩ — يقسم الرماني الایجاز الى قسمين : ايجاز حذف ، وایجاز قصر فيقول رضى الله عنه . الایجاز على وجهين حذف وقصر والحذف اسقاط كلمة للاجتراء فيها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام ، والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، فمن للحذف ، « واسأل القرية » ومنه « ولكن ابر من اتقى » ومنه « طاعة وقول معروف » ومنه حذف الأجوبة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاء منه في القرآن كثير كقوله جل ثناؤه ، « ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » ومنه قوله تعالى : « وسيق الذين انتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها (١) » ، كأنه قيل حصلوا على النعيم ، وانما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس فيه تذهب كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان ، فحذف الجواب في قوله : لو رأيت عليا بين الصفيين أبلغ من الذكر ، لما بيناه .

هذا كلام الرماني في الایجاز بالحذف ، ونلاحظ في ذلك أمرين :

أولهما — أن الایجاز هنا نسبي في جزء من الكلام ، فقد يكون الكلام في مقام الاطناب ، ولكن في جزء منه يكون الحذف ، وذلك موجود في بعض ما ذكره من أمثلة من تلك قوله آية البر ، فانها مطنبة بالنسبة لبيان المستحقين للبر . ثم قد قال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والمؤمنون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وأجبن البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (٢) .

(٢) البقرة : ١٧٧

(١) الزمر : ٧٣

ونرى من هذا أن مجموع الآية في بيانها لا يعد من قبيل الإيجاز ، بل هو  
اظناب عنى المعنى الذى بيناه فى الأظناب •

ولكن ذلك لا يمنع أن فى جزء من الآية الكريمة إيجازاً ، وعلى ذلك نقول ان  
الإيجاز هنا نسبى أو جزئى •

ثانيهما - أن الحذف فى ذاته بلاغة اذ أنه يعطى الكلام قوة ، ويثير الخيال  
ليتصور المحذوف أعلى من المبين ، وقد بين ذلك فى حذف الجواب فى قوله تعالى  
«وسيق الذين اتنوا رسهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها » •

ومن ذلك فى معناه الذى يريعه قوله تعالى : «ولو يرى الذين ظلموا ، اذ يرون  
العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب » (١) فان جواب لو محذوف يلحق  
الرهبة فى النفوس ، وتذهب بقيه العقول كل مذهب وتقدير ، ولم يذكر البلاغة فى  
إيجاز الحذف فى مثل قوله تعالى : «واسأل القرية » (٢) وفى مثل قوله تعالى «ولكن  
البر من أتقى » (٣) وقد تظهر بلاغة الحذف فى قوله تعالى «واسأل القرية » اذ أن  
فى ذلك اشارة الى شيوع القول فيها ، وأن القرية كلها تكلمت ، ومثل ذلك قوله  
تعالى : « فليدع ناديه » وأما قوله تعالى : « ولكن البر من اتقى » فان فيه تزكية  
للمتقين بجعلهم البر ذاته ، وأن نفوسهم علت وزكت قلوبهم حتى صارت هى ، وفى  
ذلك فوق هذا تصوير للمعنى قائماً بالذين يتصفون ، فيكون محسوساً معلوماً فيهم •

١٣٠ - ويعد الرمانى إيجاز القصر الذى عرفه بأنه بناء الكلام على تقليل  
الألفاظ - ويعدده أغمض من إيجاز الحذف لأن الحذف فيه غامض يحتاج الى العلم  
بالمراضع التى يطبق فيها ، ويتول : فمن ذلك قوله تعالى : « ولكم فى القصص  
حياة » (٤) : ومنه قوله تعالى : « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » (٥) ، ومنه  
قوله تعالى : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها (٦) » ، ومنه « ان يتبعون  
الا الظن وما تهوى الأنفس » (٧) : وقوله جل وعلا « انما بغيكم على أنفسكم » (٨)

- |                   |                  |
|-------------------|------------------|
| (١) البقرة : ١٦٥  | (٢) يوسف : ٨٢    |
| (٣) البقرة : ١٨٩  | (٤) البقرة : ١٧٩ |
| (٥) المنافقون : ٤ | (٦) الفتح : ٢١   |
| (٧) النجم : ٢٣    | (٨) يونس : ٢٣    |

هو منه « ولا يحق المكر السيء إلا بأهله » (١) وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير . وهو المثل الكامل لجوامع الكلام ، وجل كلام الله تعالى عن أن يكون له مثل . ونلاحظ أن الأمثلة التي ساقها متصل بكلام قبلها ، فليست منقطعة . فهي أما أن تكون حكمة أو أعلى من حكمة أو قضية مستقلة مؤيدة للحكم الذي سبقها ، مبينة حكمته ، كقوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » . فهي ختام آية القصاص ، التي يقول الله تعالى فيها « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى » الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون (٢) » .

وترى من هذا أن الآية الكريمة تتميم لآية قبلها ، لأنها بيان للحكمة والمصلحة الكاملة في القصاص ، ليقدموا عليه غير نافرين لأنه انتقاء لشر مستطير ، وإذا كان القصاص في القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من المضرة ولا شك أن الألفاظ قصيرة ، والمعاني التي تنطوي تحتها كثيرة ، وخصوصاً أن تكبير كلمة « حياة » يدل على تعظيم هذه الحياة التي تترتب على تنفيذ القصاص ، لأنها تكون حياة آمنة سعيدة لامزيجات فيها ، وخصوصاً إذا كان مع حق القصاص . حق العفو من الجنى عليه فإنه يربى التواد ، ويحل المحبة والمودة محل البغض والعداوة .

والآية الثانية التي ساقها الرماني هي « انما بغيكم على أنفسكم » ، ونلاحظ أن الرماني قطعها عن سابقها ولاحقها من لفظ ، إذ الآية هي قوله تعالى : « فلما أنجاهم إذا هم يبيعون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس : انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم اليئا مرجعكم فتنبئكم بما كنتم تعملون (٣) » .

ولا شك أن الجملة التي اختارها من الآية الكريمة فيها إيجاز القصر الذي يعد

(٣) البقرة : ١٧٨ - ١٧٩

(١) فاطر : ٤٣

(٢) يونس : ٣٣

من أعلى جوامع الكلم ، ولكن يقطعها عما قبلها وما بعدها وما جاءت فيه من أن الظالمين يدعون الله تعالى ضارعين في حال فزعهم وخوفهم حتى إذا أمنوا بغوا وطغوا ، وفي قطع الكلمات عن أخواتها ، قطع للمعنى عما يكنها ويظلمها •

وقوله تعالى : « ولا يحق المكر السيء إلا بأهله (١) » هي في عمومها وشمولها فيها انجاز قصر ، ويمكن أن تكون مثلاً عالياً يستشهد به في القول ، ويصدق على كثر خب لئيم ، ولكنه قطع الكلام عما قبله وما بعده ، فالآية الكريمة بهذا النص السامى « استكباراً في الأرض ومكر السيء ، ولا يحق المكر السيء إلا به » فهل ينظرون الآسنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً » وكنا نود أن يأتي بالمثل الطيب في بيئته من كلمات سابقة له ولا حقة •

وقوله تعالى : « وأخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديراً » هو كلام محكم بالغ أعلى ما تصل إليه بلاغة القول ، وهي آية مستقلة ، ولكنها متممة لما قبلها • فهي متممة بالعطف على قوله تعالى : « وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطاً مستقيماً وأخرى لم تقدرُوا عليها (٢) »

وقوله تعالى : « ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس » (٣) هي حكمة عالية في ذاتها ، ولكنها مسبوقة ولها لا حق بها يحددها ، فهي جزء من قوله تعالى : « ان هي الا أسماء سميتوها ، أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » وان أخراجها عما قبلها وما بعدها يكون أخراجاً لها عما يحد أطرافها •

وقوله تعالى « يحسبون كل ضيعة عليهم العدو » وصف كامل لكل جماعة يغلب عليها الخور والجبن ، ولكنها وصف للمنافقين ، وأخراجها عما جاءت فيه يعمم معناها ، وهي مخصوصة في السياق •

(٢) الفتح : ٢٠ — ٢١

(١) فاطر : ٤٣

(٣) النجم : ٢٣



١٣١ — وتنتهي من هذه النظرات الى الكلمات السامية ، نجد في ألفاظها ذات عموم ، ولكن لها في حيزها خصوص الاقوله تعالى : «ولكم في القصاص حياة» فهي في حيزها ، ذات عموم ، لأن كونها حكمة لأحكام مقررة يجعل لها عموماً ، ولا يقيدها حيزة ، لأنها منطلقة ، وكذلك مثل قوله تعالى « لا يكلف الله نفساً الا وسعها» وقوله تعالى لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها» أما الآيات الكريمت الأخرى ، فانها اذا ذكرت منفردة عن أخواتها كانت مثلاً من جوامع الكلمة وكان لها العموم ، واذا أخذت مع أخواتها قيّدت .

وعلى أى حال ، فان ايجاز الحذف فيها ثابت ، ولا مانع من استعمالها كأعلى مثل سائر ، والله أعلم .

وان الایجاز بغير حذف كلمات كثيرة في القرآن لا تكاد تخلو منه سورة ، بل جزء من السورة ، بل صفحة من صفحاته النورانية ، وقد قلبنا بعض صفحات في القرآن فوجدنا العبارات الآتية ، وكلها فيها ايجاز قصر ، ومن ذلك :

١ — قوله تعالى : «كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً ، وهو شر لكم» (١) فان هذا النص له معان كثيرة شاملة يطبق في كل أمر يحبه الانسان ، وعاقبته وبيئته أو لا يدري عاقبته ، ولا ماينترب عليه ، ومثل ذلك قوله تعالى : « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» (٢) .

ومنه قوله تعالى : «ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» (٣) فان هذا النص الكريم يشير الى المعركة الدائمة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والفضيلة والرذيلة ، وأن سيطرة الرذيلة والشر والباطل فساد في الأرض ومقاومة الخير للشر دفع للفساد ، وفيه اشارة الى أن مقاومة الشر بسلاحه من غير انحدار الى الرذيلة ، رحمة بالناس ، فدفع الشر رحمة ، ورد الاعتداء ، وفي هذه الآية اشارة الى نظرية الحرب الفاضلة ، والسلم الفاضلة .

(٢) النساء : ٩

(١) البقرة : ٢١٦

(٣) البقرة : ٢٥١

٣ — وقوله تعالى : « وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربيكم فلانقون (١) » فان هذه الآية تبين وحدة الأمة الاسلامية مع غيرها بأوجز عبارة ، فنشمل الوحدة الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، والاصفر ، والبادى والحضرى ، وسكان الوبير ، وسكان المدن ، لاتفرقهم الألوان ، ولا الاسنة ، وان التقوى يجب أن تكون لباسهم وشعارهم ، وهى التى تعلقى ، ومثل ذلك قوله تعالى فى ايجاز « انما المؤمنون اخوة » •

٤ — ومنها قوله تعالى : « وما أبرئ نفسي ، ان النفس لأمرارة بالسوء » (٢) فهى فى ايجازها اعتذار عما كان من امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ، وانها لأحداث كثيرة ، فوق ما فيه من دلالة على معان نفسية تكون فى الوجدان الذى تحكمه شهوات ، الضمير اللائم ، المحاسب الذى يصوره قول الله تعالى « النفس اللوامة » •

٥ — ومنها قوله تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » فان هذا النص السامى بكلماته القليلة الموجزة ، فيه تصوير لحال المشركين الذين ألزمتهم الحجة ، ولكن لم يذعنوا عصبية وعناداً ، ومحافظة على سيطرتهم العاشمة •

٦ — ومن ذلك قوله تعالى : « أنا كفييناك المستهزين » (٣) وفى هذا النص ايجاز فيه ألفاظ قليلة ومعان كثيرة بمقدار جرائم المشركين فى الاستهزاء بالنبى وأصحابه ، ومضايقتهم فى العبادة ، ومنها الطواف بالبيت فقد كانوا كلما لقوهم سخرؤا منهم ، فمعنى كفييناك المستهزين عاقبتناهم على ما فعلوا فى الماضى ، وخضدنا شوكتهم فى الحاضر ، وشغلناهم فى القابل ، وسلط الله الحق على باطلهم الى آخر ما نالهم فى الدنيا من خزى وما نالهم فى الآخرة من عذاب •

٧ — ومنها قوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً (٤) » فان هذا النص قليل الألفاظ فيه معان كثيرة لأنه سبحانه يشير الى أن هلاك الأمم انما يكون اذا شاع الفساد بين آحادها وانما

(٢) يوسف : ٥٣

(١) المؤمنون : ٥٢

(٤) الاسراء : ١٦

(٣) الحجر : ٩٥

يشيع الفساد ممن غلبت أهوائهم وسيطرت عليهم شهواتهم ، وان ذلك من الذين نشئوا مترفين لا يرون حق الحياة خالفاً الا لهم، فيعم الفساد في الأرض، وتتقطع الأمة وتتبايز ، وكل ذلك من سيطرة المترفين •

ومن ذلك قوله تعالى : « كل امرئ بما كسب رهين » أى أنه (١) مجزى بعمله ان خيراً فخير، وان شراً فشر، ومثله قوله تعالى : « وأن ليس للانسان الا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى » (٢) ومثل قوله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (٣) •

١٣٢ — وان العرب كانوا يميلون الى الايجاز فى القول ، ويعدون الايجاز بلاغة ، وذلك لأنهم لم يكونوا أهل قراءة وكتابة ، بل كانوا أهل بيان باللسان ، وقد صقلت بذلك كلماتهم وهذبت عباراتهم ، وقد قال الجاحظ ان الايجاز فى القرآن كان عند محاجة العرب الاميين الذين يثهمون القول بالكلمات المشيرة غير المفصلة، والتفصيل من شأن من يعتمد على الكتاب دون اللسان •

ولقد كانوا يتبارون فى الكلام الذى تدل ألفاظه على معان كثيرة ، وكانوا يعدون من أبلغ كلامهم قول بعض العرب « القتل أنفى للقتل » أى من يريد القتل اذا علم أنه سيفقتل ، فانه لا يقتل ، ولا شك أن ذلك حق وقد اتجه كثيرون من الأدباء والمفسرين الى الموازنة بين ما يعدونه أبلغ قولهم ، وقوله تعالى « ولكم فى القصص حياة » والموضوع أيهما أبلغ وأجمل أداء ، وكلام الله تعالى المثل الأعلى •

وقد عقد الرمانى فى رسالته موازنة بين الجملتين ، وان كانت الموازنة ليست بين منمائلين ، بل ليست بين متقاربين وان كان الموضوع متقارباً فقتال :

وقد استحسن الناس من الايجاز قولهم : « القتل أنفى للقتل » وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والايجاز وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلازمة ، أما الكثرة فى الفائدة ففيه كل ما فى قولهم : « القتل أنفى للقتل، وزيادة معان حسنة منها ابانة العدل ، لذكره القصص ، ومنها ابانة القرب المرغوب

(٢) النجم : ٣٩ — ١٠

(١) السطور : ٢١

(٣) الانعام : ١٦٤

فيه ، لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرغبة لحكم الله تعالى ، وأما الإيجاز في العبارة فان الذي هو نظير القتل أنفى للقتل « للقصاص حياة » والأول أربعة عشر حرفا والثاني عشرة أحرف وإنما بعده عن الكلفة بالتكرار الذي فيه مشقة على النفس ، فان في قولهم القتل أنفى للقتل تكرارا ، غيره أبلغ منه ومتى كان التكرار فهو مقصر ، في باب البلاغة عن أعلى طبقه ، وأما الحسن بتأليف الحروف المتلازمة فهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ ، فان الخروج من الفاء الى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة ، وكذلك الخروج من الصاد الى الحاء أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة ، فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغ وأحسن وان كان الأول بليغاً حسناً » •

وهناك وجه لم يذكره الرماني ، وهو أن كلمة العرب مقصورة على القتل أما كلمة الله تعالى ، فانها تشتمل القتل والاعتداء على الأطراف ، فتشمل النفس بالانفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، بل تشمل الجروح ، فمعناها أشمل • وأمر آخر لم يذكره الرماني ، وهو أن كلمة القرآن ايجابية وسلبية معاً ، فهي ايجابية في أنها تبين أن ثمة حياة رافهة هادية آمنة بالقصاص ، وفيها معنى النفي ، وهو ألا يكون اعتداء بأي نوع ، أما كلمة العرب فلا تتجاوز المنع ، وهو أن القتل يمنع القتل •

وأيضاً فان كلمة القصاص فيها معنى المساواة بين الجنائية وعقوبتها ، والقتل أنفى للقتل لا تستدعي بظاهر لفظها أن يكون القتل بالمساواة ، بل لا تمنع أن يكون القتل اعتداء ، والنص القرآني السامي الذي لا يسامى فوق كل ما يدخل من معان على كلمة العرب القتل أنفى للقتل •

هذا ما بدا لنا من زيادة كلمة القرآن من معان على كلمة العرب ، ولنعد من بعد الى ما قاله الرماني في هذا المقام فهو يقول :

وظهور اعجازه في الأمور التي نبينها يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة في أعلى طبقة ، لا يجازه وحسن رونقه ، وعدوبة لفظه ، وصحة معناه ، كقول علي رضي الله عنه : قيمة كل امرئ فيما يحسنه فهذا كلام

عجيب ، يعنى ظهور حسنه عن وصفه ، فبمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ،  
غذاذا انتظم الكلام ، حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الاعجاز ،  
كما وقع التحدى فى قوله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » فبان الاعجاز عند ظهور  
مقدار السورة •

ومؤدى هذا الكلام أن الاعجاز القرآنى ربما لا يبدو فى الكلمة أو الجملة  
مقطوعة عن سابقها ولاحتقها ، ولو كانت الجملة ايجازاً انما يبدو فى السورة  
أو الطائفة من القرآن ، ونحن نخالف الرمانى فى ذلك ، فان كلمات القرآن مع أخواتها  
لها اشعاع من المعانى يثير الخيال والتأمل فى معانيها مادامت الجملة مستقلة فى  
دلالاتها ، تأتى بمعان مفيدة ، مثل قوله تعالى « والصبح اذا تنفس » (١)  
« والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها » (٢) فكل جملة من  
هذه الجمل لا يستطيع أحد أن يأتى بمثلها •

ولقد ختم الرمانى كلامه فى الايجاز بذكر فضله وخواصه ، فقال رضى الله  
تعالى عنه :

وإذا عرفت الايجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء فى القرآن منه عرفت فضيلته  
على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع  
البيان ، والايجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والايجاز تصفية الألفاظ من  
الكدر ، وتخليصها من الدرن ، والايجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ،  
والايجاز اظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير والايجاز والاكثر انما هما فى المعنى  
الواحد ، وذلك ظاهر فى جملة العدد وتفصيله كقول القائل لى عنده خمسة وثلاثة ،  
واثنان فى موضع عشرة ، وقد يطول الكلام فى البيان عن المعانى المختلفة ، وهو مع  
ذلك فى نهاية الايجاز • وإذا كان الاطناب فى منزلة الأمر بحسن أكثر منها ، فالاطناب  
حينئذ ايجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه فاطناب فيه ايجاز •  
وان الرمانى ينتجه بهذا الى معان ثلاثة :

أولها أنه يصف الايجاز بأن فيه تصفية للألفاظ من الكدرة ودرن القول وحشوه،

وأنة البيان عن المعنى بأقل ألفاظ ، وأن المعنى الكثير يكون في أقل مقدار من اللفظ .  
وأن المتكلم أو الكاتب يجهد فكره عند الاتجاه الى الايجاز ليأتى بأوجز لفظ يحمل  
أكبر معنى ، وقد قال امام من أئمة عصرنا في البيان في كتاب أرسله الى صديق له  
وأطنب فيه « اعذرنى في هذا الاطناب فانه ليس عندى وقت للايجاز ، لأنه بالنسبة  
للبشر ليس سهلاً ، لأن الاطناب ارسال الحقائق ارسالاً ، أما الايجاز ، فانه جمع  
للحقائق في أقل الألفاظ وأجملها ، وأبعدها عن الكدر والدرن .

ثانيها — أن الاطناب نسبي ، فانه اذا كان المعنى كثيراً واللفظ كثيراً ، فانه  
يكون اطناباً ، واذا كان المعنى الكثير يمكن أن تكون ألفاظه أكثر فان ذلك يكون  
ايجازاً مسيباً .

ثالثها — أن كل ألفاظ ذات معان كثيرة ، وقد وضعت على قدرها ، فان كان  
الواضح قلة الألفاظ مع كثرة المعنى كان الايجاز ، وان كان الواضح الكثرة في اللفظ  
والمعنى من غير تزديد ، بل لتقصده ، فهو اطناب .

والقرآن في حالى الايجاز والاطناب محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من  
خلفه تنزيل من حكيم حميد .

## طوال السور وقصارها

١٣٣ — ونحن نتكلم في الايجاز والاطناب لابد ان نمس موضوع السور الطوال والسور القصار . لقد علمت مما قدمناه جمع القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم واعادة جمع ما كان في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مصحف جامع وما أعاد به عثمان جمع ما جمع أبو بكر وعمر ، ونشر نسخ مما جمع في الاغالييم للمسلمين .

وقد قررنا في ذلك أن الاجماع على أن السور رتبت بوحي الهى ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل الى الرفيق الاعلى الا بعد أن قرأه على جبريل عليه السلام بذلك الترتيب وذلك موضع اجماع ، بل موضع تواتر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وان ترتيب السور في المصحف العثماني كانت بهذا الترتيب الذى نغروه .

وان هذا الترتيب في آيات السورة الواحدة لم يكن على حسب النزول بل كان كما ذكرنا بالوحي فكانت الآية اذا نزلت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال عليه السلام لكتابه وصحابته : في موضع كذا من سورة كذا ، وكذلك لم يكن ترتيب السور فيما بينها تابعا لنزول الوحي ، بل كان بوحي توجيهي لوضع السور في أماكنها ، فاذا كانت السور الطوال في هذه المواضع من القرآن والسور القصار في هذا الموضع من الطرف الاخير فيه بتوجيه من الله سبحانه وتعالى .

وكان من المستحسن أن نتكلم في هذا لا في مقدار البلاغة فيها ، فالجميع سواء ولكن من حيث الحكمة أن أمكن أن يؤدي تطاولنا الى معنى ندرکه ، فكتاب الله فوق طاقتنا في ادراك مراميه كلها ، لأنها ارادة الله وهى لا تقبل التعليل ، لأنه لايسأل عما يفعل ، وعباده هم الذين يسألون .

ولكن مع ذلك نحاول أن نتعرف حكمة الله تعالى أو ما نراه من أوصاف للسور

الطوال وأخواتها القصار .

أننا نجد في قصار السور وصفين :

أحدهما — أن نظم السور القصار كله يكاد يكون على نسق واحد مؤتلف النظم متأخى الالفاظ متلأم في نظمه ، اقرأ قوله تعالى: «والشمس وضحاها ، والقمر اذا

فتلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والارض وما  
طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب  
من دساها ، كذبت ثمود بطغواها اذ انبعث أشقانا ، فقال لهم رسول الله ناقة الله  
وسقياها فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها»  
وانك لترى النعم متحدا ، والفواصل متحدة ، والتلاؤم بين الفاظها منهاجه واحد  
، وكأنها لتصرها لا تتغير فيها الانعام ولا مقاطع الكلام •

الثانى — من الاوصاف الواضحة فى السور القصار ايجاز القصر ، فتجد القصة  
من قصص القرآن تذكر فى كلمات جامعة ويبعد فيها الاسلوب عن الاطناب فى القصة  
لجلالها فى مواضع من القرآن الكريم ، وكلها معجز ببيانه وبلاغته •

اقرأ قوله تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ،  
هل فى ذلك قسم لذى حجر ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد ، التى لم  
يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد الذين  
طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك  
لبارصاد ، فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمن ، وأما  
اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » •

وترى من هذا كيف كان الايجاز المعجز ، لقد أشار سبحانه وتعالى الى قصة  
عادو ثمود وفرعون ، وقد وصف طغيانهم كما وصف قوتهم فى صنائعهم ، وصلابة  
أرضهم ، وكل ذلك فى ايجاز •

والسورة القصيرة كلها فى موضوع واحد ، كما ترى فى قوله : « انا أعطيناك  
الكوثر فضل لربك وانحر أن شانئك هو الأبتى » وكما ترى فى سورة الفيل فى قوله  
تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل  
وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل » وكسورة قريش : « لا يلاف  
قريش ايلانهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من  
جوع وآمنهم من خوف » •



واننا نرى أن الجزء الأخير في ترتيب القرآن الكريم الذي اختص باشماله على قصار السور ، والذي يسهل حفظه على الناشئين الذين لا يريدون جمع القرآن كله في صدورهم ، قد اشتمل على بيان العقيدة الإسلامية ، وعلى معاندة فريش ، وعلى جهود النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما لاقاه من عنف في قومه ، وعلى المبادئ الخلقية الإسلامية وما على أن كل مسلم يتحمل التبعية ، وعلى أصول المبادئ الاجتماعية ، وفيه اجمال كامل لقصص القرآن الكريم •

هذا شأن قصار السور وهي جزء من ثلاثين من القرآن الكريم • أما الطوال والمتوسط والأقرب إلى الطول والأقرب إلى القصر فهو يشمل نحو تسعة وعشرين جزءاً من ثلاثين جزءاً من القرآن •

وان السور المدنية أكثرها ليس من القصار ، وهو يشتمل على الأحكام التفصيلية للتكليفات الشرعية ، فسورة البقرة والنساء والمائدة فيها كثير من الأحكام الفقهية سواء أكانت في الأسرة أم في المعاملات المالية ، أم في الزواج الاجتماعي ، أم في العلاقات الدولية ، وأحكام الجهاد ، وفيها كل ما يتصل بالسلوك الانساني الذي فرضه القرآن الكريم وبعض التكليفات المتعلقة بالأسرة أو المعاملات المالية جاء في السور التي بين القصر والطول كسورة الممتحنة وكسورة الطلاق •

وان السور الطويلة أو القرينية منها مع أنها ليست مرتبة على حسب النزول بالوحي ، بل هي كما ذكرنا مرتبة بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحي عن ربه ، لأن النبي عليه السلام كان يأمر بوضع الآية عند نزول الوحي في موضعها من السورة التي أمر بوضعها في موضعها فيها •

ومع هذا الترتيب الموحى به الذي لم يكن على حسب النزول نجد السورة كلها مترابطة الأجزاء متصلة ، يأخذ بعضها بحيز بعض في نسق بياني رائع ، وكل آية مرتبطة برباط معنوي وبياني • فالآية تتبع ما قبلها ، لا في الموضوع ولكن في نظام يشبه تداعي المعاني ، فالآيات تثير في النفس المؤمنة المتبعة خواطر تجيء التي تليها لاشباعها وكأنها تجيء في وقت الحاجة إليها ، فيكون التناسق القرآني في الألفاظ

والأنعام والفواصل والمعاني • وكل ذلك سر من أسرار الإعجاز الذي لا يمكن أن يكون الا اذا كان القرآن كله من عند الله العزيز الحكيم القادر على كل شيء ، الذي اختار القرآن معجزة صفيه خاتم الأنبياء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

### القصار وتيسير الحفظ :

١٣٤ - يأمرنا الله تعالى بأن نحفظ ما تيسر من القرآن ، لأنه سبحانه وتعالى قال « فاقراءوا ما تيسر منه » وانه سهل سبحانه وتعالى علينا أن نحفظ المتيسر . حفظه من القرآن ، فكانت تلك السور القصار الموجزة في الفاظها الغزيرة المعاني في مؤداها وهذا المعنى ذكره المرحوم الأستاذ مصطفى كامل ارادعى رضى الله عنه في كتابه اعجاز القرآن ، ولنترك الكلمة له فقد قال : « ان لهذه السور القصار لأمرأ وان لها في القرآن لحكمة من أعجب ما ينتهي اليه التأمل حتى لا يقع من النفس الا موقع الأدلة الالهية المعجزة ، فهي لم تنزل متتابعة في نسق واحد على هذا الترتيب الذي تراه في المصحف ، اذ لم يكن أول ما نزل من القرآن ولا آخره : « قل أعوذ برب الناس » ثم هي ( أى القصار من السور ) بجملتها وعلى احصائها لا تبلغ من القرآن أكثر من جزء واحد والقرآن كله ثلاثون جزءا ، وهو يتسع من بعدها قليلا قليلا ، حتى ينتهي الى الطول ، فقد علم الله أن كتابه سيثبت الدهر كله على هذا الترتيب المتداول ، فيسره للحفظ بأسباب كثيرة ، أظهرها في المنفعة ، وأولها في المنزلة ، هذه السور القصار التي تخرج من الكلمات الى الآيات القليلة ، والتي هي مع ذلك أكثر ما تجيء آياتها على فاصلة واحدة ، أو فواصل قليلة ، الا يضيق بها نفس الطفل الصغير • وهي تتماسك في ذاكرته بهذه الفواصل التي تتأني على حرف واحد أو حرفين ، أو حروف قليلة متقاربة ، فلا يستظهر الطفل بعض هذه السور ، حتى يلتئم نظم القرآن على لسانه ، ويثبت أثره في نفسه ، فلا يكون بعد الا أن يمر فيه مرأ ، وهو كلما تقدم وجده أسهل عليه ، ووجد له خصائص تعينه على الحفظ وعلى اثبات ما يحفظ • • فهذا معنى قوله تعالى : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين (١) » وهي امر الله رحمة وأى رحمة » •

ولذا أردت أن تبلغ عجباً من هذا ، فتأمل آخر سورة في القرآن ، وأول

عما يحفظه الأطفال ( أى بعد الفاتحة ) وهى سورة « قل أعوذ برب الناس » وانظر كيف جاءت فى نظمها ، وكيف تكررت الفاصلة ، وهى لفظ الناس ، وكيف لا ترى فى فواصلها ، الا هذا الحرف ( السين ) الذى هو أشد الحروف صغيراً ، وأطربها موقعاً من سمع الطفل الصغير، وأبعثها لنشاطه واجتماعه ، وكيف يناسب مقاطع السورة عند النطق تردد النفس فى أصغر طفل يقوى على الكلام ، حتى كأنها تجرى معه ، وكأنها فصلت على مقداره ، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته فى أحرفها ونظمها ومعانيها ، ثم انظر كيف يجيء ما فوقها على الوجه الذى أشرنا اليه وكيف تمت الحكمة على هذا الترتيب العجيب •

وهذه السور القصار ، لو لم تكن فى القرآن كلها أو بعضها ما نقصت شيئاً من خصائصه فى الإعجاز ، ولكن عسى أن يكون الأمر فى حفظه على غير ما ترى اذا هى لم تكن فيه ، فتبارك الله سبحانه « ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا » •

ويضاف الى هذه الحكمة فائدة أخرى ، وهى تيسير القرآن ، وأداء الصلاة على العامة ، فانهم لولا هذه السور الصغار اتركوا الصلاة جميعاً وانه لاتصح الصلاة ( أى كاملة ) الا بآيات مع الفاتحة ، وقد أعانت الصغار ، ويسرت عليهم ، فكانت على قانتها معجزة اجتماعية كبرى • انتهى كلام الرافعى •

١٣٥ — واذا كانت ثمة سور طوال وأخرى قصار ، فانه يجب علينا أن نلتفت الى أن هناك آيات تطول ، وآيات تقصر مع أن الايجاز والاطناب يكون فى طوال الآيات وقصيرها ، ففى أثناء الآية الطويلة تقرأ قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (١) وهى كلمات ذات معان غزيرة، فيها حكمة شرع الله وغايته، وتكليفاته ، وأنها تتجه الى التيسير ولا تتجه الى التعسير •

وأكثر الآيات الطوال تكون فى الأحكام التكليفية التى تحتاج الى التوضيح ، ولا يكتفى فيها بالاجمال بدل التفصيل كآية المحرمات فى قوله تعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وأخواتكم ••• الى قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم (٢) » •

ومثل ذلك آية المداينة ، وهى أطول آية فى القرآن فقد قال تعالى : « يا أيها

الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئاً ، فان كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليمل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احدهما فتذكر احدهما الأخرى ولا ياب الشهداء إذا مادعوا ، ولا تستموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ، ذلكم أفسط عند الله وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم (١) » •

• وقريب منها فى الطول آية المحرمات كما أشرنا ، ومثلها آيات المواريث ومن الآيات الطوال المبينة للأحكام التكليفية آيات الصوم • اقرأ قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبيانات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلمكم تشكرون ، واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون ، أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم ، وعفا عنكم ، فالآن باثروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل ، ولا تباثروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلمهم يتقون (٢) » •

وترى أن الآيات الأخيرة فيها بيان جزء من أحكام الصوم ، ولا تعد قصيرة ، بل طويلة ، ومن الآيات الطويلة بعض آيات القصص ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة

بنى اسرائيل « واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وغنائها ، ونؤمها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصر فان لكم ما سألتهم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١) » •

وانا اذ نقول ان بعض الآيات فيها طول ، وبعض الآيات الكريمات فيها قصر ، ليس معناه أن ما فيه طول هو من قبيل التطويل في الكلام بل هو من قبيل الاطناب الذى لا تجد فيه كلمة زائدة ، ولا تجد فيه عبارة ليس ثمة حاجة اليها ، بل ان الآية التى يكون فيها تطويل قد تجيء في جملة ما هو من قبيل ايجاز القصر مثل قوله في أثناء آية الصوم الطويلة « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » ، كما ذكرنا آنفاً •

وليس المراد بالتطويل أن تكون الألفاظ أكثر من المعانى ، بل المراد ما لا يتجاوز حد الاطناب البليغ المستحسن • فالمعانى مع الألفاظ متكافئة وربما كان فيها ايجاز لا اطناب فيها فضلاً عن التطويل ، والطول للآية ألفاظ كثيرة ومعان كثيرة ، ربما تكون أكثر من الألفاظ •

وان الطول لا يبعد عن حلاوة النعم ، وجمال النسق ، وحسن النظم ، وحلاوته وطلاوته ، ومن الآيات ما يكون قصيراً كما ذكرنا والفواصل متآخية ، والمعانى متكاملة • اقرأ قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى ، قال فانا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى • فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أطفال عليكم العهد أم أردتم أن يجل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك يملكنا ، ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى (٢) » •

(٢) طه : ٨٣ — ٨٧

(١) البقرة : ٦١

وشرى أن هذه الآيات بعضها قصار ، والأخير كان منها طويلاً نسبياً ، لأن ثيها  
عتاباً ، وطبيعة العتاب لا يكون قصيراً ، ولا يكون بالإشارة •

واقراً قوله تعالى في هذه السورة « يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً  
فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً ، يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ،  
وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً ، يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من  
أذن له الرحمن ، ورضى له قولاً ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به  
علماً ؛ وعنت الوجود للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً (١) » •

واننا نجد في الظاهرة القرآنية العالية أن الآيات القصار تختص عن غيرها بأن  
لها خاصة وهو الاعتبار والوقوف عند فواصلها المتقاربة غير المتباعدة ، فتكون وقفة  
يقتضى السكون عندها ، فالجواب عن حال الجبال وهى أوتاد الأرض وبها تتماسك  
بأمر الله تعالى ، بأن الله تعالى ينسفها نسفاً ، وفي هذه الوقفة الصامته يتدبر أمر  
الله في نفس الجبال ، ويتخيل ذلك ، فيدرك قدرة الله تعالى على الاعادة ، ويتدبر  
الأرض وقد نسفت جبالها ليس بها علو بتضاريس ، ولا انخفاض بجوار علو ،  
وهكذا تتبع الآيات القصير والوقوف عند آخر كل آية ، وكأن الله سبحانه وتعالى  
يدعوك الى أن تقف لتتدبر وتتفكر ، وتعرف مالك ، وأنه لا غرابة في أن تعساد  
الأجساد يوم البعث والنشور •

وان الآيات الطوال تكون في موضوع يحتاج الى التدبر في أوله وآخره ، وأخذه  
جميعاً ، كما رأينا في آيات الأحكام ، وفي بعض القصص الذى يكون التدبر في  
مجموعه لا في آحاده ، وفيه يتلاحق آخره بأوله ، كما رأينا في النعم التي أفاض  
الله بها على بنى اسرائيل ، وكيف لا قوها بالكفران والعتو عتواً كبيراً •

وقد رأينا في الآيات القصار أن كل آية تصلح وحدها لأن تكون موضع تدبر ،  
بل يلزم فيها التدبر وان كانت متصلة بما بعدها وثيقة الاتصال •

ولننل عليك بعض الآيات القصار من ذلك قوله تعالى في سورة ص « كذبت

فجلبهم قويم نوح ، وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقويم صالح ، وأصحاب الأيكة ، أولئك الأحزاب ، ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق ، وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب ، انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق ، والطير محشوره كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ، وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب ، اذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ، ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ، ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة ، فقال أكفانيها وعزنى في الخطاب ، قال انقد ظلمك يسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيراً من الخلاء ليبنى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما افتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأواب ، فمغفرنا له ذلك ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » (١) .

وهنا نجد الآيات كلها تتلافى معنى العبرة ، وتشببت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأخبار النبيين ، وما كان من أقوامهم معهم ، وذكرت بعض قصة داود عليه السلام ، وما يتعلق بحكمه ، ومتاعبه من الخصوم ، ثم حكمه وخطأه فيه .

هذا كله معنى متلاحق الأجزاء بعضه يتمم بعضه ، ويتكون من الجميع صورة بيانية تستولى على لب الناظر اليها ، والمتفهم لمعناها ولكن في الآيات انقصار أجزاء كاملة في ذاتها ، وان تكون من مجموعها كل كامل غير منقطع فاقراً من قصة داود عليه السلام أول ما أورد تجد قوله تعالى : «واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب» فهذه صورة كاملة لنبي من أنبياء الله تعالى ، آتاه الله تعالى السلطان القوى المؤيد الثابت القائم على الحق ، وتلك وحدها صورة بيانية تستدعى التدبر فيها وجاء بها القرآن الكريم مفصولة في الفاصلة عما وراءها لأنها وحدها يجب تدبرها ، لاجتماع الدنيا والدين في رسول رب العالمين فلا يحسبن أحد أن الزهد في الفقر والحاجة ، انما الزهد في العفة حيث تكون القدرة ، ثم جاءت الآية التي تليها مبينة مقدار قوته

لقال : « أنا سحرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والأشراق » فهي له خاصة ، ثم الطير مشبورة وهكذا كانت الفواصل معلنة أن ما قبلها يدعسو الى تدبره والتفكير فيه .

وقد تكون في الآية القصار، آية بين كل آية وأخرى تدعو الى التفكير بصراحة، كما دعت فواصل الآيات الى التدبر ميزات الفاصلة ، اقرأ قوله تعالى في سورة الرحمن :

« الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنعام • فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما بروخ لايغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » (١) •

هذه نصوص قرآنية من الآيات القصار تجد كل آية منها تدعو الى التدبر والتفكر فيما تدعو اليه وما تدل عليه ، وقد كانت الفاصلة منبهة الى التروى في معناه ، والتدبر في مغزاه ، وهى متضامة مع سابقتها ولاحتتها لتأتى بمعنى كلى جامع ، وصورة بيانية رائعة •

وهكذا تكون آيات القرآن ، وألفاظه وجمله ، وكله اعجاز فى اعجاز تدل على أنه اللطيف الخبير العزيز الحكيم السميع البصير •



## الإعجاز بذكر الغيب

١٣٦ - هذا باب من أبواب الإعجاز ، فيه جزء من القصص ، والجزء الثانى من الأخبار التى يتحدث القرآن فيه عن المستقبل ، فالغيب المذكور فى القرآن نوعان أحدهما غيب مضى ، وهو جزء القصص ، والثانى عن أمور تقع فى المستقبل وكلاهما اعجاز ، أو من دلائل الإعجاز مع البلاغة والبيان ، ومع العلوم القرآنية ، والأحكام التى اشتمل عليها القرآن الكريم •

ووجه الإعجاز فى الماضى وقصصه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تكن نأته بين أهل الكتاب ، حتى يعلم بالتلقين علمهم ، وكان قومه أميين لا يسود فيهم علم من أى طريق كان الا أن يكون علم الفطرة والبيان ، وارهاف أحاسيسهم بالشعر والكلام البليغ ، وتذوق الكلمات ، والمعانى •

لم يكن عندهم مدرسة يتعلمون فيها ، ولا علماء يتلقون عليهم ، وكانوا منزوين بشركهم عن أهل الكتاب ، والمعرفة فى أى باب من أبوابها ، وكانت رحلتا الصيف والشتاء الى الشام واليمن تجاريتين ، لا تتصلان بالعلم فى أى باب من أبوابه ، ولا منزع من منازعه •

وجاء القرآن الكريم فى ذلك الوسط الأسمى يذكر لهم أخبار الأنبياء السابقين ، وأحوال أممهم معهم ، وما حل بالذين كفروا وضلوا ، وهم يرون هذه الآثار فى الأمم التى تصاقبهم •

جاء القرآن الكريم بتفصيله الصادق المحكم عن أخبار هؤلاء النبيين ، وقد وافق كثير منهم الصادق عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وما اختلفوا فيه عما جاء فى القرآن ، فان الفحص الدقيق يثبت بطلان تحريفهم ، وصدق القرآن الكريم ، فيما حكاه الله ، فانه علام الغيوب الذى أحاط بكل شىء علماً •

ولقد ذكر القرآن ذلك الوجه من الإعجاز فقد قال تعالى بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبى الله تعالى زكريا لها : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت

لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون (١) فان هذا النص يشير الى الدلالة على أن القرآن من عند الله ، وعلى أن ذلك النوع من العلم ما كان عند العرب ، وليس لهم به دراية •

وانه لم تذكر قصة مريم البتول في التوراة ، ولا الانجيل ولا رسائل الرسل قط ، والقرآن الكريم وحده هو الذي بين اصطفاءها ، وفضلها على نساء العالمين • ويقول الله تعالى بعد قصة نوح عليه السلام « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ان العاقبة للمتقين » (٢) • وفي هذه الآية والتي قبلها اشارة واضحة الى أن هذا النوع من العلم ما كان معروفا عندهم وما كانوا يتذكرون به •

وقد قال تعالى في ذلك أيضا : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (٣) فذكر القرآن أدق الأخبار ، وما لا يعلمه أحد الا الله تعالى •

وكان ذلك القصص الحكيم اخباراً بالغيب ، الذي لا يعلمه الا علام الغيوب دليلاً على أنه من عند الله العزيز الحكيم • وموافقته للصحيح من أخبار النبيين دليل على أن القرآن من عند الله ، وأنه ليس حديثاً مغترى وليس أساطير الأولين اكتتبها ولا يمكن أن تملى عليه • ولا يوجد من يملئها عليه واذا كانوا قد ادعوا أنه تلقاها من بعض الناس في مكة ، فهو لم يثبت اتصاله به ، ولسانه أعجمي ، وهذا كتاب عربي مبين ، وفوق ذلك ففى القرآن من صادق الأخبار ما لم يكن في كتب أهل الكتاب المسطورة ، ولا يأتيه الباطل فيما يقول •

١٣٧ - هذا الاخبار عن الماضى التى يشتمل عليه القرآن الكريم ، وهى فيما احتوت دليل قاطع على أن القرآن من عند الله ، اذ جاء بها أمى لا يقرأ ، ولا يكتب كما قال تعالى : « وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا منى كتاب المبتلون (٤) » •

(٢) هود : ٤٩

(١) آل عمران : ٤٤

(٤) العنكبوت : ٤٨

(٣) يوسف : ١٠٢

وأما الأخبار عن أمور وقت في المستقبل كما أخبر القرآن الكريم ، وما كان لأحد أن يعلمها الا من قبل العليم الحكيم اللطيف الخبير ، الذي لا يغيب عن علمه شيء في السماء ولا في الأرض فهو كثير •

ومن ذلك اخبار القرآن عن هزيمة الفرس بعد غلبهم ، فقد قال سبحانه :  
« ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون • في بضع سنين (١) » •

وقد حدث ما أخبر به القرآن ، فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس في بضع سنين ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ممن حضر هذه الحرب ، وعرف سبب الغلب ، وما يتوقع من بعده ، وقد تفاعل المشركون من هزيمة الروم ، وهم كتاب ، وعلوا الفرس ، وهم أهل شرك ، وحسبوا من ذلك أن دعوة محمد مآلها الخسران وشأنهم في ذلك هو شأن الذين بينون علمهم على الأوهام ، وتخيّل ما يحبون •

ومن ذلك أيضاً ما كان قبيل غزوة بدر الكبرى اذ يقول سبحانه : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم ، وتؤدون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » (٢) لقد خرجت قريش بغيرها الذى كانت فيه ثروة قريش كلها ، وأراد المؤمنون أن يترصدوها مضايقة للكفار ، وأن يأخذوها نظير ما أخرجسوا المؤمنين من ديارهم وأمواهم ، ولكن أبا سفيان التوى عن طريق يثرب ، ونجا بالعر ، وكان طلب الى قريش أن ترسل جيشاً يحمى غيرها ، ويغزو موطن الخطر ، فكانت المعركة ، فهم أرادوا ابتداء العير ، وليست ذات الشوكة ، وأراد الله تعالى الجيش ، وكان ذات الشوكة •

وما كانوا يتوقعون النصر على المشركين ، ولكنها حرب الفداء للعقيدة ، لا ينظر فيها الى الاستيلاء ، بل ينظر فيها الى الاستشهاد ، ولكن الله تعالى أخبرهم بالنتيجة قبل وقوعها ، فقال تعالت قدرته : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » (٣) فكان هذا اخباراً بمغيب لم يكن الا في علم الله تعالى •

(٢) الإنفال : ٧

(١) الروم : ١ - ٤

(٣) القمر : ٤٥

ومن ذلك اخباره عن اليهود بقوله تعالى « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » (١) •

ويقول تعالى عن المشركين انهم عاجزون عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن « قل لأن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٢) وقوله تعالى : « فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحارة » (٣) •

وهكذا تجد في القرآن اخبارا عن أمور قابلة ، وتقع كما أخبر ، وصدق في ذلك كله ، وذلك لا يكون الا من عند الله ، ولا يمكن أن يكون بالتقدير الشخصي أو الحدسي ، فان ذلك يصدق أحيانا ، ويكذب أحيانا ، والأمر هنا كله صدق لا تخلف فيه وكان دليلا على أنه من عند الله العليم الخبير اللطيف البصير ، أودعه كتابه الكريم •

## جدل القران واستدلالة

١٣٨ — القرآن كل ما ئميه معجز ، فايجازه معجز ، واطنابه معجز ، وألفاظه معجزة ، وأسالبيه معجزة ، ونغماته ونظمه وفواصله ، كل هذا معجز ، واستدلالة وجدله وبيانه لا يصل الى درجته نوع من الكلام، وقد ساق الامام الباقلاني طائفة من خطب العرب ، وأهل اللسن ، وأهل الايمان طائفة من أبلغها وأقواها ، ووازن بينها وبين الزام القرآن واقناعه واستدلالة ، فوجد أن الموازنة غير لائقة بذات القرآن ، والفرق بين القرآن، وكلام أعلى أئمة البيان يجعل الموازنة غير مستقيمة ، والفرق بينها وبين القرآن هو كالفرق بين الخالق والمخلوق ، لأنه فرق بين كلام الخالق ، وكلام المخلوق •

ولعله من الخير أن ننقل تلك الخطبة التي اعتبرها الباقلاني من أعلى ما عرف من بليغ القول ، وهي رثاء على بن أبي طالب كرم الله وجهه لخليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه •

(٣) البقرة : ٢٤.

(٢) الاسراء : ٨٨

(١) البقرة : ٩٦

لما قبض أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء على باكياً متوجعا ، وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة •

رحمك الله أبا بكر ، كنت الف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنسه ، وثقته ، وموضع سره ، كنت أول القوم اسلاماً وأخلصهم ايماناً وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله ، وأحوطهم على رسول الله ، وأثبتهم على الاسلام ، وأيمنهم على أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سنناً وهدياً ورحمةً وفضلاً ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده •

فجزاك الله عن الاسلام ورسوله خيراً كنت عنده بمنزلة السمع والبصر صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، فسماك في تنزيله صديقاً ، فقال والذي جاء بالصدق ، واسينته حين بخلوا ، وقمت معه عند المكاره حين قعدوا ، وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة ، ثانی اثنين ، وصاحبه في الغار ، والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه في الهجرة ، وخليفته في دين الله وفي أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالأمر حين ثشلوا ، ونطقت حين تعتوا (١) مضيت بنور اذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت أصوبهم منطقاً ، وأطوابعهم صمتاً ، وأكثرهم رأياً ، وأشجعهم نفساً ، وأعرفهم بالأمر ، وأشرفهم عملاً كنت لادين يعسوباً (٢) • أو لاحقين نفر عنه الناس ، وأخيراً حين قفلوا (٣) وكنت للمؤمنين أباً رحيماً ، اذ صاروا عليك عيالا ، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه ، ورعيت ما أهملوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شمريت اذ خنعوا ، وعلوت اذ هلعوا ، وصبرت اذ جزعوا ، وأدرکت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك مالم يحسبوا •

وكنت كما قال رسول الله أمن الناس عليه في صحبتك ، وذات يدك ، وكنت كما

(١) التعتعة : في الكلام التردد من حصر أوعى

(٢) رجعوا

(٣) اليعسوب : الرئيس المقدم

قال ضعيفا في بدنك ، قويا في أمر الله ، متواضعا في نفسك عظيمًا عند الله ، جليلا في أعين الناس كبيرا في أنفسهم •

لم يكن لأحد فيك مغمز، ولا لأحد مطمع، ولا لمخلوق عندك هواة ، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل ، حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء ، أقرب الناس إليك ، أطوعهم لله ، شأنك الحق والصدق والرفق ، وقولك حكم وحتم ، وأمرك حلم وحزم ، رأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ، واعتدل بك الدين ، وقوى الايمان ، وظهر أمر الله ، ولو كره الكافرون ، واتعبت من بعدك اتباعا شديدا ، وفزت بالخير فوزا عظيما ، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك في السماء ، وهدت مصيبتك الأنام ، فانا لله ، وانا اليه راجعون ، رخصنا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره • قو الله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمثلك أبدا ، فالحقك الله تعالى بنبيه ، ولا حرمانا أجرك ، ولا أضلنا بعدك •

وسكت الناس ، حتى انقضى كلامه ، ثم بكوا حتى علت أصواتهم •

١٣٤ — هذه خطبة من عيون البيان العربى ، بل لعلها أبلغ خطبة بعد خطب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ان وضعناها بجوار القرآن أفلت ، كما تختفى النجوم اذا طلعت الشمس ، وأصبحت لا تساوى بجوار القرآن شيئا ، وان الذين يسيئون الى كل كلام بليغ مهما تكن درجته هم الذين يضعونه بجوار القرآن ، وأنى يكون كلام بجوار كلام خالق البشر وأنى يكون كلام ابن الأرض بجوار كلام الله في اللوح المحفوظ •

واننا مهما نحاول تعرف أسرار البلاغة في القرآن ، فلن نصل الى كلام محكم، كمن يحاول معرفة الروح فهى من أمر الله تعالى تعرف مظاهر الحياة منها ، ولكن لا نعرف كنهها ، فنحن نعلم علو القرآن ، واعجازه وامتيازه ، وأنه لا يحاكي ، ولكن لا نستطيع أن نعرف سر هذه الروعة التى يحسها كل قارئ مدرك •

ولعل من التوفيق للباقلانى أن جاء بأبلغ كلام ووضعه بجوار كلامه سبحانه ،

فبدأ بجواره هزيلا ، مهما تكن درجته في البيان وذلك أمر ظاهر ، لم يجيء الإعجاز بصرف ، ولكن بادراك المقام البلاغي للقرآن وان لم يعرف السر كاملا •

ونعود الى ذات الخطبة نجدها صادقة كل الصدق في وصف أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنها وصلت الى أقصى الغاية في مناقبة ، وفي مقامه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي موافقه في حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وموافقته اذ انتقل عليه السلام الى الرفيق الأعلى ، فقد أنقذ الاسلام عند الصدمة الأولى ، وهي حالة الردة •

والخطبة العلوية هذه فيها وصف للحاكم العادل ، كيف يكون رحيمًا برعيته مصدر أمن ، لا مصدر ازعاج ، متظامناً لهم قريبا من أنفسهم ، لا يطمع القوى في حيفه ، ولا يبتئس الضعيف من عدله •

وقد ذكرنا هذه الخطبة أيضاً لنشير الى اليناابيع البيانية التي استقى منها القول في إعجاز القرآن ، وهي أساس لكل كلام محكم •

ومن معرفة بلاغة القول أن نعرف المواضع التي بنى عليها الاستدلال •

ونحن هنا نريد ابتداءً أن نتعرف المنهاج القرآني للاستدلال ، والأصول التي بنى عليها استدلاله في نظرنا القصير وان كان في كل ما يتعلق بالبيان عز عن المثل ولا يمكن أن يكون له مثل •

١٣٥ - وان رجال البيان في بيان مناهج الخطب واستدلالها يتكلمون في اليناابيع التي يستقى منها الخطيب أدلته أو براهينه ، ونحن مع اقرارنا بأن منهاج القرآن أعلى من الخطابة ، كما هو أعلى من الشعر ومن السجع ، نرى أن نستعير من علماء البلاغة كلاماً في مصادر الاستدلال ، ونريد أن نتعرف المصادر الذاتية التي بنى القرآن الكريم استدلاله عليها ، وان كان مقامه أعلى وأعظم ، وهو معجز في ذاته ، وليس ككلام البشر ، وان بنى على حروف البشر وألفاظهم ، ومن جنس كلامهم •

ويقولون ان الاستدلال الذي يستمد من مصادر ذاتية ، أي تؤخذ من ذات

لموضوع ، وهى أشبه بالبرهان المنطقى ، وان كانت أعلى ، هى ستة مواضع أو ينابيع أولها التعريف أى معرفة الماهية وثانيها ، التجزئة بذكر أجزاء الموضوع ، وثالثها التعميم ثم التخصيص ، ورابعها العلة والمعلول ، وخامسها ، المقابلة ، وسادسها التشبيه وضرب الأمثال •

#### ١ - الاستدلال بالتعريف :

١٣٦ - الاستدلال بالتعريف بأن يؤخذ من ماهية موضوع القول دليل الدعوى بأن يؤخذ مثلاً من حقيقة الأصنام دليلاً على أنها لا تصلح أن تكون معبوداً ، ومن بيان صفات الله تعالى دليلاً على أن يكون وحده المستحق للعبادة ، وإذا كان موضوع القول هو الذات العلية تقديست أسماء الله ، فانه يكون الاستدلال على ألوهيته سبحانه ، ببيان صفاته ، وخلقته للكون صغيره وكبيره ، ولا تعرف الذات العلية الا بصفاتهما ، ومن ذلك قوله تعالى : « ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الاصباح ، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ، وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » (١) •

ونجد فى هذا الكلام اثباتاً لوحديته سبحانه وتعالى ، وأنه وحده المعبود بحق ، وأنه لا اله الا هو ، وكان طريق الاثبات هو بيان خلقه وتنوعه ، وأنه وحده الخالق لكل شىء ، وإذا كان الله تعالى هو الخالق وحده فهو الاله وحده ، وكان التعريف بالله تعالى هو السبيل لاثبات الربوبية له سبحانه ، وقد عرف سبحانه



وَتَعَالَى بِصِفَاتِهِ وَأَثَرِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْوُجُودِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْرِفُ إِلَّا بِسُفَاتِهِ  
وَأَثَرِهِ فِي الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ ، لِأَنَّ مَعْرِفَةَ حَقِيقَةِ ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَيْرَ مُمْكِنَةٍ فِي  
هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَإِنَّ الَّذِي نَعْرِفُهُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنزَهُ عَنِ مِثَابَهَةِ الْحَوَادِثِ ،  
فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ •

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِظَمَةِ الْخَالِقِ ، وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادِيَّةِ ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ  
التَّعْرِيفِ بِالْمَخْلُوقِ ، وَخُصُوصاً الْإِنْسَانِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا  
الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ  
عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ  
أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، ثُمَّ أَنْكَمَ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَنْ نُونٌ ، ثُمَّ أَنْكَمَ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعَثُونَ ، وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ، وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ  
غَافِلِينَ » (٢) •

وَمِنْ هَذَا نَرَى أَنَّ التَّعْرِيفَ بِالْإِنْسَانِ فِي خَلْقِهِ ابْتِدَاءً دَلِيلٌ عَلَى بَعْثِهِ أَنْتِهَاءً ، أَلَمْ  
تَرَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَهُ عَلَقَةً وَمِنْ الْعَلَقَةِ مُضْغَةً وَمِنْ الْمُضْغَةِ عِظَامًا ،  
ثُمَّ كَسَاهَا لَحْمًا ، ثُمَّ أَمَاتَهَا ، وَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى الْإِحْيَاءِ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ  
عَلَى غَيْرِ اللَّهِ أَصْعَبُ مِنَ الْإِعَادَةِ ، وَلَا صُعُوبَةَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فِي إِنْشَاءِ ، وَلَا إِعَادَةِ •  
وَمِنْ تَعْرِيفِ بَعْضِ الْمَحْرَمَاتِ يَسْتَبِينَ تَحْرِيمَهَا ، وَالْأَمْرَ الْقَاطِعَ بِالتَّحْرِيمِ ، وَمِنْ  
ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ  
وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ  
أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ  
الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَاحْذَرُوا فَإِنَّ  
تَوَلَّيْتُمْ ، فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » (٢) •

وَنَرَى مِنْ هَذَا أَنَّ التَّحْرِيمَ الثَّابِتَ بِالنَّصِّ ذَكَرَ أَوْصَافَ الْخَمْرِ وَبَيَّانَ ذَاتَهَا  
وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا ، لِمَعْرِفَةِ حِكْمَةِ تَحْرِيمِهَا ، فَذَكَرَ تَعْرِيفَهَا بِالْحَدِّ وَالرَّسْمِ أَمَا التَّعْرِيفَ  
بِالْحَدِّ فَبَيَّانَ ذَاتَهَا بِأَنَّهَا مَعَ إِخْوَانِهَا مِنَ الْمَيْسِرِ وَالتَّبْذِيعِ عَلَى النَّصْبِ ، هُوَ التَّعْرِيفُ  
بِالْحَدِّ ، وَهُوَ ذِكْرُ الذَّاتِ ، بِذِكْرِ جِنْسِهَا وَفَصْلِهَا ، وَأَمَا فَذَكَرَ هَذَا التَّعْرِيفَ بِالرَّسْمِ ،

فهو ذكّر ما يترتب على الشرب من وقوع العداوة والبغضاء والصد عن الصلاة وعن ذكر الله تعالى ، فهي لهو لتزجية الفراغ بما فيه الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، والانغمار في اللهو الفاسد .

## ٢ - الاستدلال بالتجزئة :

١٣٧ - أن تذكر أجزاء الموضوع ، وبتتبعها يكون اثبات الدعوى ، ومن ذلك أن المقرر الثابت بالبديهية الذي لا مجال للريب فيه الحكم بأن الأثر يدل على المؤثر ، وأن الكون يدل على خالقه ، وأن القوى البشرية والعقول المستقيمة تنقر بأن الخالق لهذا الكون صغيره وكبيره قوة واحدة؟ ، وهي قوة الله سبحانه وتعالى .

وقد كان القرآن يذكر ذلك في آياته الحكيمة أحياناً مجزئاً وأحياناً غير مجزئاً ، ومن الاستدلال بالتجربة قوله تعالى : « قل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، الله خير أما يشركون . أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبئنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً أله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء أله مع الله قليلاً ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (١) .

ونرى من هذا كيف كانت التجزئة في مادة الاستدلال ، وان لم تكن الأجزاء كلها مستوفاة مستقراه ، وانه من منهاج الاستدلال يتبين أن كل جزء يصلح وحده دليلاً على أن الله وحده هو المنشئ للكون ، والمدير له ، والقائم على كل شيء ، ولذلك قرن السياق في كل جزء نفى أن يكون اله غير الله معه ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

ومن التجزئة أيضاً في الاستدلال قوله تعالى : « ومن يقل منهم انى اله من

قوته فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففلقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجائبا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ، وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفان مت فهم الخالدون ، كل نفس ذائقة الموت ، وتبوكم بالشر والخير فتنة ، والينا ترجعون « (١) » .

ونجد هنا في هذه الآية الكريمة تجزئة في الاستدلال بحيث يعتبر كل جزء دليلا قائما بذاته ، ومن مجموعه دليل كلي على أن كل صغير أو كبير من خلق الله تعالى ، وأنها دليل على وجوده سبحانه وتعالى .

### ٣ - التعميم ثم التخصيص :

١٣٨ - التعميم أن تذكر قضية عامة ، وتؤدي الى اثبات الدعوى باجمالها ، ثم يتعرض المستدل الى جزئيات القضية ، فيبرهن على أن كل جزئي منها يؤدي الى اثبات الدعوى المطلوب اثباتها ، أو أنها في مجموعها تؤدي الى اثبات الدعوى .  
ومما سبق ذكره يتبين صدق دعاوى العامة التي هي صلب الدين ، وهي التوحيد ، وأنه تجب اطاعة الرسول ، وأنه لا خضوع الا لله سبحانه ، ومن ذلك قوله تعالى في المجابوة بين موسى وفرعون : « قال فمن ربكما ياموسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهذا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى « (٢) » .

ونرى من هذه القضية العامة الكاملة التي تذكر بجوار الله سبحانه وتعالى وهي التي بها يعرف الله سبحانه وتعالى الذى خلق كل شيء فأحسن خلقه وهو الهادى ،

قال سبحانه كلمةً بجامعة كاشفة لمعنى الربوبية ، ومع الربوبية العيادة ، وكمال الألوهية ، فقال الله تعالى على لسان موسى «ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» فهو سبحانه وتعالى مانح كل شىء فى هذا الكون الوجود ، وهو مانح الهداية لمن اهتدى .

ثم أخذ القرآن الكريم بعد هذا التعميم الجامع يبين جزئيات داخلية فى هـ وذكر من هذه الجزئيات ما ينبه فرعون وأهل مصر وهم أهل زرع وضرع وختم النص الكريم بما يناسبهم ، وهو نعمة للجميع : « كلوا وارعوا أنعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » .

#### ٤ — العلة والمعلول :

١٤٩ — أساس الاستدلال الربط بين القضايا التى تصور أجزاء الحقائق فى هذا الوجود ، بأن يكون وجود بعض الأشياء علة لوجود شىء آخر ، وبمقدار قوة الارتباط تكون قوة الاستدلال ، وذلك بأن يكون أحدهما علة للآخر ، وإذا وجدت العلة كان المعلول ثمرة لوجودها ، وهما متلازمان من الناحية العقلية ، أو على حسب مجرى الأمور ، وإذا ذكر المعلول ، كان كاشفاً لعلة لأن ذكر النتائج مع إحدى المقدمتين للدليل يدل على المقدمة الثانية ، ولأن المقدمات تطوى فيها ، فإذا ذكر تحريم الخمر ، وحاول العقل أن يتعرف سبب التحريم يستطيع تكشفه من أوصاف الخمر ، فإذا عرف الوصف المناسب للتحريم استيقن أنه السبب ، وهو يكون وصفاً لا يشاركها فيه غيره من المباحث وفى القرآن كثير ، يكون فيه التعليل جزءاً من الدليل الذى يسوقه القرآن الكريم بتنزيل من العزيز الحكيم ، ولئن آية اباحة القتال ، فان فيها السبب الذى يبرره ، والدليل الذى يوجبه ، اتل قوله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون

فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (١) •

واننا نجد في سياق هذا النص القرآني الكريم أن السبب الذي برر أمر الله تعالى بالقتال أمران أحدهما الاعتداء ، وثانيهما فتنة المؤمنين في دينهم فاذا زال الأمران لا يكون ثمة مبرر للقتال ، ثم هذا الاعتداء ، وتلك الفتنة دليل الوجوب وكذلك نجد الأمر في الاذن بالقتال اذ كان دليله والمبرر له هو الاعتداء ، ولذلك قال تعالى :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور » (٢) •

ونرى في هذه الآيات الكريمة أن العلة الموجبة هي الاعتداء واخراج المؤمنين مفتونين في أنفسهم وأموالهم ، ثم قامت المعلولات الغائية المترتبة على السكوت ، وعدم دفع المعتدين أن يعم الفساد ويسود الشر فلولا هذا الدفاع لفسدت الأرض ، ولهدمت المعابد ، ولم تقم الشعائر ، فاتخذ من هذه النتائج المترتبة على ترك المشركين يعيئون مبررة لمقاومتهم ، وموجبة لحربهم ، فكان هذا من قبيل الاستدلال بالنتائج وهي الغايات الواقعية دليلاً على الوجوب ، وان هذه الآيات الكريمة صور سامية لما سنه الاسلام من سنة تتفق مع الطبيعة الانسانية ، وهو ازالة الشر بالعقاب الشديد ومقاومته ، لأن الفضيلة في الاسلام ليست سلبية ، ولكنها ايجابية بين سبحانه على السبيل الايجابي لرد الرذيلة ودفع شرها ومقاومتها، فكان الاعتداء على الفضيلة سبباً موجباً للقتال ، والقتال في سبيلها جهاد ماثوب •

٥ — المقابلة :

١٤٠ — ان المقابلة بين شيئين أو أمرين ، أو شخصين تكون ليعرف أيهما المؤثر في عمل معين ، واذا ثبت أن التأثير لواحد منهما كان له فضل التقدم على غيره ،

(١) البقرة : ١٩٠ — ١٩٣

(٢) الحج : ٣٩ — ٤١

(م ٢١ — المعجزة الكبرى)

وقد كان ذلك النوع من ينابيع الاستدلال كثيراً في القرآن الكريم ، لأن المشركين كانوا يعبدون أحجاراً يصنعونها أو مخلوقات الله تعالى خلقها ، وكانوا يعتقدون أن لها تأثيراً في الإيجاد ، أو في الشر يمنع ، أو الخير يجلب ، فكانت المقابلة بين الذات العلية وبين ما ابتدعوا من عبادة الأوثان ينبوعاً للاستدلال على بطلان ما زعموا ، ومن ذلك قوله تعالى :

«أمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان

الله لغفور رحيم » (١) •

هذا هو النص الكريم ، وفيه مقابلة بين المعبود بحق ، وهو الله سبحانه وتعالى خالق السموات ، وهم يؤمنون بأن الله وحده خالق السموات والأرض «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» (٢) • وهم يعلمون أن الأحجار التي يعبدونها صنعت بأيديهم ولم تخلق شيئاً ، فالقرآن من هذه المقابلة يأتي بدليل يترجمهم ويفهمهم أو يقنعهم ، ان استقامت القلوب ، وان الدليل بالتقابل يصح أن يكون عندما ادعيت الألوهية للخالق جلت قدرته مع المخلوق المصنوع بأيدي العباد ، وبالمقابلة بينهما نجد الخالق يحتاج إليه كل مافي الوجود ، والمصنوع بأيدي العباد لا ينفع ولا يضر ، فالله وحده هو الاله الحق الذي لا يعبد سواه ، لأنه لا يحتاج لأحد ويحتاج إليه كل أحد « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » (٣) •

ومن المقابلة التي كانت ينبوعاً للاستدلال قوله تعالى : « قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء كخلقه فتنسبه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار » (٤) •

وان هذا الاستدلال قائم على المقابلة ، فكانت المقابلة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ومن هو القهار القادر على كل شيء وهو الواحد الأحد الذي لا يشبه أحد ،

(٢) لقمان : ٢٥

(٤) الرعد : ١٦٠

(١) النحل : ١٧ - ١٨

(٣) الاخلاص

وكانت المقابلة بين الأعمى والبصير ، ويشمل الأعمى من لا يدرك الحقائق ، واليصير من يدركها ، وبين الظلمة التي تعتم النفس ، والنور الذي يشرق به القلب ، ومن يخلق ومن لا يخلق • وهذه المقابلات ينابيع الإدراك الموجه المسترشد ، والظلام المعتم المحير •

وان هذه المقابلات تصلح دليلاً مثبتاً في عدة دعاوى ، ويكون في المقابلات الحكم الفصل الهادي المرشد •

نفى الدعوى الأولى ادعاء المساواة بين من يملك كل شيء ومن لا يملك لنفسه النفع والضر ، والحكم الذي ينتجه الدليل أنهما ليسا متساويين ، وإذا كانت الدعوى المساواة في الألوهية باطلة ، فالحكم بالنفى ، والاله هو الله وحده الذي يملك كل شيء وفي الدعوى الثانية نفى التسوية بين من أدرك الحق ، واهتدى ومن ضل ووعى ، والأخير كالأعمى ، والأول كالبصير ، فأيهما يهتدى الى الطريق السوى ، ولا شك أن الحكم أن الخير في البصر المهتدى ، وليس في الضال المرتدى ، فالفضل لأهل التقوى ولو كانوا ضعفاء يستضعفهم الناس •

وفي الدعوى الثالثة ادعاء الاشتراك في الخلق والتكوين بالزعم لا بالحقيقة وهذه باطلة بل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، وبذلك يتحقق الحكم فيما هو صادق واقع ، لا فيما هو مزعوم مختلق •

ومن المقابلات القرآنية التي دلت على البعث ، وكان فيها رد على أوهام الكافرين قوله تعالى :

« أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ، ولم يعمى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى انه على كل شيء قدير ، ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » (١) •

ونرى هنا استدلالاً على أن البعث ممكن في ذاته ، والتصديق به واجب ، لأن

الله تعالى أخبر به على لسان نبيه الكريم وفي كتابه المكنون ، اذ جاء به القرآن الكريم ، ودعا اليه محمد الأمين •

وكان الاستدلال بطريق المقابلة ، وكانت المقابلة بين انشاء الاحياء ابتداءً والخلق والتكوين من غير سابق ، وان القدرة فيه كانت ، ولم يعى بخلقهن ، وبين الاعادة للأجسام التي خلقت ثم صارت رميما ، وانه اذا كانت قد وجدت ، فالثانية قد تجيء ، وهي تجيء اذ أخبر بها العزيز الحميد القادر على كل شيء •

وانه بهذه المقابلة ، بين الانشاء والاعادة ، وبين الخلق من غير أصل سابق ، والاعادة ينتهي به ذو العقل الرشيد الى الحكم بأن البعث ممكن في ذاته ، وأنه واجب الاعتقاد لأن الله تعالى أخبر به ، « وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا. أئنا لفي خلق جديد » (١) •

ومن الآيات الدالة على أن الله تعالى خالق كل شيء ، واعتمدت الدلالة فيها على المقابلة قوله تعالى : « نحن خلقناكم ، فلولا تصدقون ، أفأرأيتم ما تمنون ، أن أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفأرأيتم ما تحرثون ، أن أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناهم حطاما فظلمتم نفكهم ، انا لمعرمون ، بل نحن محرومون ، أفأرأيتم الماء الذي تشربون ، أن أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ، أفأرأيتم النار التي تورون ، أن أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم » (٢) •

ونجد من هذه المقابلات بين انشاء الخالق وعجز الانسان ما يدل على أنه هو الذي خلق فهدى ، وأنه العليم بما خلق ، وأنه بهذا المستحق للعبادة وحده ، وأنه ليس كمثله شيء وأنه الواحد الأحد •

#### ٦ - الاستدلال بالتشبيه والأمثال :

١٤١ - من يتابع الاستدلال في القرآن التي تثبت قدرة الله تعالى ، وصدق



ما يطلب الدين الحق ، وما أتى به القرآن التشبيه وضرب الأمثال ، وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنه يضرب الأمثال ويبين الحقائق عن طريقه ، وضرب الأمثال باب من أبواب التشبيه ، وهي تضرب كما ذكرنا في باب التشبيه لتقريب الحقائق العليا ، ولتشبيه الغائب غير المحسوس بما يقربه من القريب المحسوس ، ولتنويع المعاني الكلية بالمشاهد الجزئية ، وللاستدلال بحال الحاضر على الغائب . ومن ذلك قوله تعالى الذي ذكر فيه أن المثل يكون لبيان الحقائق ، سواء أكان بالصغير أم كان بالكبير ، فقد قال تعالى :

« ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فَيُعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ، يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به الا الفاسقين » (١) .

وفي هذا النص يثبت الله تعالى أنه سبحانه يقرب الحقائق الثابتة بالأمثال ، ويأتي بالدليل من بيان الأشياء ، واستخراج خواصها ، والاثبات بالأدلة عن طريقها ، وإن الناس في تلقى هذه الأدلة فريقان : فريق آتاه الله قلباً نيراً يصغى الى الحق ، ويأخذ به ، ومنهم من أصاب العناد قلبه ، فاذا قوى الدليل فانه يزيد التصراً ، وامعانا في الضلال ، فيوغل فيه ، وهذا معنى قوله تعالى « يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به الا الفاسقين » .

فهذا النص يفيد أن الله تعالى في القرآن الكريم يتخذ من الأمثال تبييناً للحقائق ، وتثبيتاً ، واقامة للدليل بها .

واقراً قوله تعالى مثلاً في بيان عجز الأصنام ومن يعبدونها العجز المطلق ، وقدرته تعالى على كل شيء ، فقد قال تعالى :

« يأبىها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، وما قدروا الله حق قدره ، أن الله لقوى عزيز » (٢) .

انظر الى الدليل القاطع الذى يثبت بطلان الوثنية ، و يقيم الدليل على  
الوحدانية ، فان الأوثان ، ومن يتبعونها ، ولو تضافرت كل القوى معها • لا يمكن  
أن يخلقوا ذباباً ذلك الطير الضعيف أو تلك الحشرة الضئيلة التى يستحقرونها ، ولو  
أن الذباب سلب منهم شيئاً ، ولو اجتمعوا مع أوثانهم على أن يستردوه ما استطاعوا  
الى ذلك سبيلاً ، وهم والذباب سواء فى الضعف وان بدوا أوثياء ، وهذا أضعف  
خلق الله تعالى فى زعمهم ، فكيف يكون للذين يدعونهم آلهة أمام قوة الله ، وكيف  
يعبدونهم معه ، وهم لا وجود لهم ولن يعبدونهم بجواره سبحانه وتعالى علواً  
كبيراً ، فهذا المثل سيق مساق الاستدلال وكان دليلاً قوياً ، ان كانوا طلاب حق  
يلتمسون الدليل عليه ، وان كانوا طلاب باطل ضلوا سواء السبيل ، لا يزيدهم  
الدليل الا كفراً •

ومن الأمثلة الموضحة التى تثبت كمال سلطان الله وأنه وحده القادر ، وبطلان  
غرور الانسان أزاء قدرة الله تعالى قوله سبحانه :

« واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما  
بنخل ، وجعلنا بينهما زرعاً ، كننا الجنتين آتت أكلها ، ولم تظلم منه شيئاً ، وغجرنا  
خلالهما نهراً ، وكان له ثمر فقال لصاحبه ، وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز  
نفراً ، ودخل جنته ، وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن  
الساعة قائمة ، ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه وهو  
يخاوره ، أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ، لكننا هو الله  
ربي ، ولا أشرك بربي أحداً ، ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة الا بالله  
ان ترن أنا أقل منك مالا وولداً ، فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ، ويرسل  
عليها حسباناً من السماء ، فتصبح صعيداً زلقاً ، أو يصبح ماؤها غوراً ، فلن  
تستطيع له طلباً ، وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهى خاوية  
على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربي أحداً ، ولم تكن له فئة ينصرونه من  
دون الله ، وما كان منتصراً ، هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثواباً ، وخير عقبا» (١) •

وهذا المثل الواقعي التصويري فيه دليل على اثبات حقيقتين — أولاهما ، أن المغتر دائماً يدلى به غروره الى أنه يحكم على المستقبل بما هو عليه في الحال القائمة ، والقوة الموهومة ، فذو الجنة والنفر ظن أن الحاضر ينبئ عن المستقبل وعره بالله الغرور ، وتعالى من غير علو ، وتسامى من غير سمو ، واستقوى من غير قوة ، فجاء المستقبل ، وخيب الأمل وكشف الحقيقة •

الحقيقة الثانية اثبات أن الولاية والنصرة لله سبحانه وتعالى ، وأنه وحده المالك للأمور كلها في ماضيها ومستقبلها وشاهدها ، وغائبها •  
فكان المثل دليلاً على وباء الغرور ، وأن الأمر لله وحده •

ومن الأمثال الموجهة الى الحقائق الخلقية والدينية قوله تعالى في سورة ن « إنا بلوناهم ، كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها من ربك ، وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا أنا لصالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أثل لكم اولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلأمون ، قالوا ياويلنا انا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ، انا الى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (١) •

سبقت قصة أصحاب الجنة الدنيوية ، وهي قصة واقعية تصويرية ، وهي دليل مثبت — أولاً — لأن الزكاة تطهر المال وتحميه لقوله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » • فهي للمال نظافة ونماء — وهم قد أقسموا ليصرمنها مصبحين ، وأن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وتثبت — ثانياً — أن العاقبة الحسية تؤثر في النفس ان كان فيها قابلية للهداية ، وهؤلاء اذا كانت قد ضاعت منهم الثمرات ، فقد عادت اليهم بأعظم العظات ، فما كسبوه من عظة أكثر مما فقدوه من ثمرة ، وثمرات القلوب أطيب من ثمرات تشتهي الأبدان طعمها ، وهي

دليل على أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأن الأقدار تحت سلطانه ، ويجريها ، كما يحب وكما يشاء .

ومن الأمثلة التي تساق مساق الدليل قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهرأ ، هل يستون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم » (١) .

والآيات قبل ضرب هذين المثلين كانت في الأمر بعبادة الله تعالى وحده والاختار عن عبادة المشركين من لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، اذ يقول سبحانه ، ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون (٢) » فجاء سبحانه وتعالى بهذين المثلين ، وهما بيطلان عقيدة الشرك ، وزعم المشركين بأمثلة تنفع في الحياة ، والحكم فيها من البدهيات التي لا ينكرها عاقل ، ولا يختلف فيها فكر عن فكر ، وكل مثل من المثلين دليل قائم بذاته على بطلان الوثنية ، اذ فيه تسوية بين من لا يقع بينهما التساوى .

أما أولهما فقد ضرب برجلين أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شيء ، لأنه مملوك لغيره ، فهو ليس له مال ، فهل يستوى هذا مع رجل مرزوق من الله تعالى رزقاً حسناً ، ان التسوية غير معقولة بين من له مال يعطى منه غيره ، أو ينفق منه في الخير سراً وجهرأ ، وبين المملوك الذي لا مال له اذ اكانت التسوية غير معقولة ، فتسوية أولئك المشركين بين الأحجار التي لا تضر ولا تنفع في عبادتها مع الله تعالى الرزاق ذي القوى المتين المالك لكل شيء الذي له ملك السموات والأرض أبعد عن كل معقول ، وذلك برهان قوى على بطلان الشرك كله ، سواء أكان اشراك حيوان أو انسان أم كان اشراك حجر .

وثانى المثلين أن الله يضرب مثلاً برجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مالكة أو ذى قرابة له يتولى أمره ولا يتجه الى جهة ويأتى فيها بخير ، بل

إن الطرقات مسدودة أمامه أما من جوارحه المثوفة الناقصة فهل يستوى مع رجل هو هوب في عقله وخلقه ، وكيانه الانساني والنفسي يسلك الصراط المستقيم يأمر العدل ، ولا يجحد عن سبيله ، فهما اذن بالبداهة لا يستويان •

وإذا كان هذان الرجلان لا يستويان بداهة ، فأولى ألا تتساوى في العباد الأبحار مع خالق الكون ، وهادى الخلق ، ومانح النعم ومجريها رب العالمين •

ومن الأمثلة التي تدل على أن العبادة الخالصة لا تكون الا لله تعالى وحده ، وأنها لا يغير ذلك لا تكون عبادة — قوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » (١) ان هذا المثل التصويرى فيه دلالة على صدق التوحيد ، وفساد الشرك ، فانه سبحانه وتعالى جعل الفرق بين التوحيد والشرك كالفرق بين رجل مملوك لعدة أشخاص هم مختلفون فيه كل يريد أن يختص بأكبر حظ منه ، وأن يكلف أقل قدر فيه ، وهو في ذاته ضائع بينهما نفسياً ومادياً لا يدرى أيهما يطالبه بحقه ، فهو ضائع لا محالة ، وهو لا يحس بأمن في هذه الملكية المتنازعة ، وذلك مثل من يعبد آلهة مختلفة تكون نفسه جائرة باثرة غير مستقرة • ولا مطمئنة ، فليست كحالها ، مع رجل سلما خالصا لرجل لا يشاكسه أحد فيه ، وهو مستقر يعرف من يخدمه ومن يعتمد عليه ، ومن فوض أمره اليه ، وذلك مثل من يعبد الله تعالى وحده ، فان من يعبد الله وحده تطمئن نفسه ، ويجد المأوى ، ويجد الملجأ والمعاذ ، وذلك مثل ، تهتدى به النفوس الشاردة •

ومن الأمثال التي ساقها القرآن الكريم للاستدلال بها على البعث والنشور ، بالإماتة والإحياء قوله تعالى : « أو كالذى مر على قرية ، وهى لظاوية على عروشها ، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه قال كم لبثت ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم • قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر الى العظام كيف فنشزها ، ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل

• شىء قدير (١) »

ان هذه قصة واقعية ، وليس فى سياق اقول مما يدل على أنها تصويرية ، والأصل أن تكون حقيقية ، فلا بد أن أجزاءها قصة واقعة ، وليست مجرداً مثل تصويرى . وهذه القصة معها دليل واقعى على البعث والنشور ، وأنه فى قدرة الله تعالى إعادة الموتى فمن أنشأ الكون يحيى الموتى ، وأننا سنموت كما ننام ، ونبعث كما نستيقظ ، فهو مثل واقعى ، لبيان كيف يحيى الله ، فقد مات الرجل مائة عام ، ثم أحياه الله ، ورأى طعامه لم يتغير ، ورأى حمارة حتى حسب أنه نام يوماً أو بعض يوم ، والله على كل شىء قدير .

## أسلوب جدل القرآن

١٤٢ — ذكرنا فيما أسلفنا من قول بعض ما سلكه القرآن ، وما يعتمد اليه من استدلال وما يتخذه من ينابيع ، وقد كانت لاثبات الحقائق فى العقيدة والأحكام وما يقربها به الى العقول حتى لا يكون موضع ارتياب لمرتاب ، يزيل الريب بالحقائق ، ويبدد الأوهام بالأدلة التى تنبه الى حقائق الوجود .

وما كان ذلك للجدل مع المخالفين من مشركين وأهل كتاب فقط ، بل كان لاثبات الحقائق فى ذاتها ، من غير محاجة مع منكر ، ولا مجادلة مع جاحد ، والآن نتكلم فى جدله مع المجادلين ، وقطعه الطريق على الجاحدين .

وقبل ذلك نتكلم فى مقام الاستدلال القرآنى، سواء أكان فى مقام تثبيت وبيان أم فى مقام جدل مع قوم خصمين .

ولقد لاحظنا فى أدلة القرآن أنها قريبة التناول فى الإدراك لكل الناس يفهمها الخاصة ويفهمها العامة ، وان تفاوت الفهم بمقدار الإدراك ، وسعة الأفق ، وهى واضحة للجميع ، ولقد قرر ذلك ابن رشد الفيلسوف الفقيه فى كتابه فصل المقال ، فقد قسم الطرق لاثبات صدق القضايا والتصديق بها الى عامة لأكثر الناس بحيث يكون التصديق بها من كل الناس ما داموا قد سلمت عقولهم من الآفات ، ومنها

ملهى خاصة بأقل الناس وهي البرهانية ، وجعل الأدلة التي تعم الناس الأدلة الخطابية وتتقوم على اثبات الحق بأدلة قطعية أو أدلة ظنية ، ولكن بكثير منها ومقارنتها ، وإثارة الخيال يجعل السامعين يقتنعون ، ويجزمون ، وإذا كانت الأدلة في ذاتها مجردة عما أحيط بها من عرض ، وأسلوب بيانى وإبقاء مؤثر ، وإثارة للأخيلة الموجهة ، تكون ظنية ، ولكن آثارها قطعية ، كما نرى في آثار البلاغ من الخطباء ، والخطابية أعم أنواع الاستدلال في البيان ، وأكثرها إنتاجاً ، ودونها في العموم الجدلية ، وهي ما يكون الاستدلال مأخوذاً مما يسوقه الخصم من الحجج ، وهي تعتمد على قوة الاستدلال على الخصم ، ولأن الفلج على الخصوم لا يكون أمراً مستوراً ، بل يكون أمراً له صفة الشياخ بين الناس ، ولأنه مأخوذ بحجج المخالف كان مع عمومته وشيوعه أقل من الاستدلال الخطابي الذى يقوم على اثبات الحقائق من غير تقييد بحجة خصم .

والحجة الخاصة بأقل الناس عند ابن رشد ما يلزم فيه المتكلم بالأقيسة البرهانية ، ذلك لأن هذه الأقيسة مجردة خالية من كل تحسين ، وليست متجهة الى الاقتناع وطرائقه من مشاركة وجدانية ، ومن إثارة للمشاعر ، ومن اتجاه الى ما يأمنون من أمور وان التجرد كله لا يكون الا للخاصة الذين يتجهون الى الحقائق من أى تأثير .

ويقول ابن رشد بعد أن أشار الى الأدلة الخطابية والجدلية والبرهان . « ولأن أكثر الشرع مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير اغفال لتبنيه الخاصة كانت أكثر الطرق المصرح بها في الشريعة الاسلامية على أربعة أصناف : أن تكون مع أنها مشتركة خاصة بالأمرين جميعاً أعنى أن تكون في التصور والتصديق يقينية مع أنها خطابية أو جدلية ، وهذه المقاييس هي المقاييس التي عرض لمقدماتها مع كونها مشهورة ومظنونة أن تكون يقينية وعرض لنتائجها أن قصدت أنفسها دون مثالاتها ، وهذا الصنف من الأقوال الشرعية ليس له تأويل ، والجادد لها أو المتأول لها كافر ، والصنف الثانى أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مظنونة يقينية . وتكون النتائج مثلات للأمور التي قصد إنتاجها ، وهذا يتطرق اليه التأويل ، والثالث عكس هذا وهو أن تكون النتائج هي الأمور التي قصد إنتاجها نفسها »

وتكون المقدمات مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية ، وهذه أيضاً لا يتطرق اليها تأويل أعنى نتائجها وقد يتطرق لمقدماته والرابع أن تكون مقدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية حملها وتكون نتائجها مثالات لما قصد انتاجه وهذه فرض الخواص فيها التأويل ، وفرض الجمهور على ظاهرها ، وبالجملة فكل ما يتطرق اليه من هذه التأويل لا يدرك إلا بالبرهان ففرض فيه ، وهو ذلك التأويل ، وفرض الجمهور هو جماعها على ظاهرها في الوجهين جميعاً ، أعنى في التصوير والتصديق ، اذا كان ليس في طباعهم أكثر من ذلك ، وقد يعرض للنظار في الشريعة تأويلات من قبل الطرق المشتركة بعضها على بعض في التصديق •

وان كلام ابن رشد هو في مقام الأدلة القرآنية من حيث التصور المنطقي والتصديق وما يترتب على قوة الاستدلال من حيث قبول الحكم الشرعي أو الاعتقادي للتأويل ، وعدم التأويل ومن حيث قبول الاعتقاد للنظر أو عدم قبوله •  
وخلاصة ما قاله بايضاح أن المقدمات اذا قامت على المشهور أو المظنون ، ولكن بتضافر أنواع الاستدلال ، وتكاثر الطرق ، صارت يقينية من حيث النتيجة ، والنتيجة تثبت حقيقة ثابتة ليس لها مثل ، فان النتيجة لا يصح انكارها ، ومنكرها كافر ومحاولة تأويلها كفر ، واذا كانت المقدمات مظنونة أو مشهورة وليس لها مرادفات ترفعها الى درجة اليقين ، والنتيجة ليست يقينية ، فالتأويل يجرى في النتيجة والمقدمة اذا كان له مسوغ أو تعارضت طرائق الاستدلال •

واذا كانت المقدمات مشهورة أو مظنونة ، ولكنه بتضافر الأدلة تنتج يقينياً ، والنتيجة تحتل عدة صور متشابهة ، فان التأويل لا يدخل في المقدمات ، ولكن يدخل في النتائج •

وقد تكون المقدمات مظنونة أو مشهورة ولا يقين فيها ، ولكنها تنتج نتيجة واحدة لا مثوية فيها ، فانها لا تقبل التأويل في النتيجة ، وتقبل التأويل في المقدمات •

١٤٣ — هذه كلمات ابن رشد ، وذلك بيانها ، وان كانت في ذاتها غير بينة



واضحة المقصد ، ولكن يثار هنا قول ، وهو أيصح أن نقول ان أدلة القرآن  
خطابية أو جدلية أو برهانية ، اننا لا نستطيع أن نقول انها خطابية ، كما قد يشير  
الى ذلك ابن رشد •

وقبل أن نقطع في ذلك برأى نذكر تعريف الأدلة الخطابية ، كما في الشفاء لابن  
سينا ، يقول ابن سينا : ان الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر في أقسام المنطق ،  
لأن المقصود من المنطق أن يتوصل الى التصديق ، فان أوقع التصديق يقينا فهو  
البرهان ، وان أوقع ظنا أو محمولا على الظن فهو الخطابة • أما الشعر فلا يوقع  
تصديقا ، لكنه لافادة التخييل الجارى مجرى التصديق ، ومن حيث أنه يؤثر  
في النفس قبضا أو بسطا ، عد في الموصل الى التصديق •

والتخييل عنده كما عرفه : اذعان للتعجب والالتذاذ تفعله صور الكلام •

ونراه من هذا يضع المنطق والخطابة والشعر في ثلاث مراتب ، فالأول يتجه  
الى التعيين ، وهو أعلى مراتب التصديق ، والخطابة تصل الى مرتبة الظن الغالب ،  
والاتجاه اليها لا يوصل الا الى ذلك ، والشعر يتجه الى ايثار الخيال ، والاعجاب  
والالتذاذ بصورة الكلام ، ولا يؤدي في ذاته الى تصديق الا اذا تضمن ما يشبه  
المنطق أو يشبه الخطابة ، فانه يؤدي الى يقين أو الى ظن •

ولابد لنا من أن نذكر أمرين ثابتين :

أولهما — أن الخطابة في أقيستها لا تعتمد الا على الظن ، ولا تنتج الا الظن  
ولكن يجب أن يعلم أن من الحقائق التي تجيء على ألسنة المتكلمين والتي تجرى في  
الأسلوب الخطابى ما هو يقين ينتج قطعا ، ولا ينقص القطعية فيها أنها خلت من  
صور الأقيسة المنطقية والأشكال البرهانية • فليست العبرة في اليقين بالشكل ،  
اتما العبرة بالحقيقة أهى مقطوع بها أم غير مقطوع ، والشكل البرهانى لا يمنحها  
يقينا ، كما أن عدم التماسك به لا ينقص يقينها •

وان كثيراً من الأدلة الخطابية تعتمد على أقوى المقدمات الزاما وأشدّها افحاما ،

وان المنطق مميز لباطل القول وليس موجدا لليقين بذاته ، فان الاشكال المنطقية  
أخص خواصها أنها تكشف زور الباطل •

وقد يكون الكلام الخطابي مجملا بالأشكال المنطقية في مقام الرد على حجج  
الخصوم ، وكشف زيفها ، وبيان وجه البطلان فيها ، وكثيراً ما تستخدم الخطب  
التي تقوم على المحاجة ، والجدال والبراهين والأقيسة المنطقية لبيان وجه البطلان  
في كلام الخصم •

الأمر الثاني : أنه لا ينطبق ما يقال في الخطابة والجدل من أنهما يقومان على  
الأدلة الظنية على القرآن •

ونحن نميل الى أن الاستدلال القرآني له طريق قائم بذاته ، واذا نظرت  
اليه وجدت فيه ما امتازت به الأدلة البرهانية من يقين لامرية فيه ، وما امتازت به  
الأدلة الخطابية من اثاره للاقناع ، وما امتازت به كل خواص البيان العالي •  
مع أنه لا يسامى ، وهو معجز لكل الناس عربهم وعجمهم •

### أسلوب القرآن في الاستدلال والجدل :

١٤٣ — ان القرآن خاطب الناس جميعا في أجيال مختلفة ، وأقوام تباينت  
مشاربهم ، ومن أجل أن نعرف بلاغة القرآن في الاستدلال والجدل يجب أن نشير  
بكلمات موجزات الى أصناف الناس •

إن طبائع الناس متفاوتة ، ومشاربهم مختلفة ، وأهواءهم متنازعة ،  
ومسالكهم في طلب الحق متعددة :

( ١ ) فمنهم من يصدق بالبرهان ، ولا يرضيه الا قياس تام أو ما يجرى  
مجراه ، وهؤلاء هم من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية وكان  
لهم من أوقاتهم ما أزجوه في دراسات واسعة النطاق ، وعلوم سيطرت عليهم ،  
فسادهم التأمل الفلسفي ، والنزاع العلمي • والمستقرى لأحوال الأمم المتتبع  
لثئون الاجتماع يجد أن هذا الصنف قلة في الناس ، وعددهم محدود بالنسبة  
لغيرهم ، إذ أن أكثر من في الأرض قد انصرف الى المهن من زراعة وصناعة ، فما

كان له وقت يزيجه في تلك التأمّلات ، ولهذا أمر الله تعالى نبيه أن يدعو بالحكمة في قواه تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي أحسن » (١) •

(ب) من الناس من غلب عليه مذهب دينى ، أو غير دينى ، قد استأثر بلبه ، وسد مسام الادراك ، اذ استوات عليه نحلة مذهبية فتعصب لها • والتعصب يعمى ويصم ويجعل النفس لا تستسيغ الحق الا بمعالجات عسيرة ، وان باقناع ذلك لا يكون الا بالطب لأدواء النفوس ، وأدواء النفوس أعرس علاجاً ، وأعز دواء من علاج الأجسام •

وهؤلاء لا بد لهم من طريق جدلية ترزى ما لبس الحق عليهم ، ويتخذ بها قوة مما يعتقدون ، اذ يلزمهم بما عندهم ، ويفحهم بما بين أيديهم ، ويتخذ مما يعرفون وسيلة لازامهم بما يرفضون •

وهذا الصنف من الناس • وان كان أكثر عدداً من الأول ليس هو الجمهور الأعظم ، ولا الكثرة الغالبة بين الناس ولعله الذى أمرنا الله تعالى بألا نجادله الا بالتى هي أحسن في قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هي أحسن » (٢) •

(ح) أما الجمهور الأعظم من الناس فليسوا هؤلاء ، ولا أولئك ، بل هو في تفكيره أقرب الى الفطرة ، فيه سلامتها ، وفيه سذاجتها وفيه اخلاصها وبراعتها ، وهو لا يخاطب بتفكير الفلاسفة ، ولا يخاطب بما يخاطب به المتفكرون تفكراً علمياً ، بل يليق به ما التقى فيه الحق مع مخاطبة الوجدان ، وما اختلطت فيه الحقائق اليقينية بما يجعل الأهواء تابعة لها ، والميول خاضعة لمنهجها ، وما التقت فيه سياسة البيان وبلاغته بقوة الحق ، وليس بما يختص به أهل المنطق ، ولا ما عليه أهل العلوم الكونية ، انما يخاطب الجمهور الأعظم بالحق ، وبما يغذى الفطرة ، وبما يثيرها ويوجهها الى السبيل الأقوم •

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التى جاءت الكافة ، وبعث بها

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للناس جميعاً بشيراً ونذيراً ، فلا تقتصر دعوته على قبيل ، ولا على جيل ، بل هى لكل الأجيال والقبائل والأقوام ، والألوان ، الى أن يرث الله تعالى الأرض ، ومن عليها •

١٤٤ - لذلك وجب أن يكون القرآن ، وهو الحجة الكبرى فيه من الأدلة ، والمناهج ما يقنع الناس جميعاً على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم ، وتفاوت مداركهم ، ووجب أن يكون أسلوبه الفكرى والبيانى ، بحيث لا يطو على مدارك طائفة بعد بيان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه الذين تلقوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم القرآن ، وبيانه ، ويجد العلماء فيه غذاء نفسياً واعتقادياً وخلقياً وصلحاً انسانياً ، بل يصل الجميع اليه ، يجد فيه المثقف بغيته ، والفيلسوف طلبته ، والعامه من الشعوب دواء نفوسهم ، وشفاء قلوبهم ، والحق المبين الهادى لهم الذى يأخذ بأيديهم الى العزة والرفعة •

وكذلك سلك القرآن الكريم ، فالمتدبر لآياته ، والمفكر فى مذاجه يجد فيها ما يعلم الجاهل ، وينبه الغافل ، ويرضى نعمة العالم إقرأ قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون » (١) • إقرأ هذا وارجع البصر فيها كرتين ألا ترى أن فيها توجيه الأذهان الى عظيم قدرة الله تعالى وقوة سلطانه على الوجود كله ، وبين سبحانه كيف اخترع وأبدع على غير مثال سبق ، ويثبت بذلك أنه وحده الأحق بالعبادة ، وإن القارىء للقرآن من دهماء الناس يرى فيها علما بما لم يكن يعلم ، قد أدركه بأسهل بيان وأبلغه • ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث فى نشأة الكون ، دقة العلم واحكامه ، وموافقة ما وصل اليه العقل البشرى لما جاء بذلك النص الكريم مع سمو البيان وعلو الدليل فتبارك الذى أنزل القرآن •

واقراً قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه • فخلقنا العلقه مضغه فخلقنا المضغه عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم

بعد ذلك لميتون ، ثم انكم يوم القيامة تبعثون . الخ الآيات الكريّات (١) ،  
ثم تدبر هذه الآيات البيّنات تجد أن الأُمى يستفيد منها علماً غزيراً فوق أنه  
يعرف منها أن الله سبحانه وتعالى سيبيعت الناس يوم القيامة ، فيزداد ايماناً ، كما علم  
ما لم يكن يعلم ، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الانسان ، والدارس للحيوان جرثومه  
فجنينا ، فحيواناً على ظهر الأرض حياً ، فيرى فيها دقّة العلم والتكوين ، وصدق  
الحكاية ، حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء في أوربا ، فاعتقد أن محمداً صلى الله  
تعالى عليه وسلّم أعظم طبيب رآته الأجيال السابقة ، فلما علم أنه كان أمياً لا يقرأ ،  
ولا يكتب آمن بأن هذا من علم الله تعالى بارىء النسم .

وهكذا يرى القارىء لكتاب الله تعالى ، وما فيه من أدلة أنه قريب من الأُمى  
يفهمه ويعرفه ، ويعلم منه علم ما لم يكن يعلم ، يدرك منه ما يناسب معرفته ،  
ويسمو إليه ادراكه وما يدركه منه صدق يقينى لا شبهة فيه .

ويرى فيه العالم الباحث حقائق صادقة ، ما وصل إليها البحث العلمى الحديث  
الابعد تجارب ، ومجهودات عقلية ، وكلما ازداد التأمل المتبصر فى الآيات التى تتعلق  
بالكون ازداد استبصاراً ، ورأى علماً أسمى مما يدركه الانسان بتجاربه ، وأعلى مما  
يهتدى إليه الانسان بعقله المجرّد .

## مسلك القرآن فى سوق الأدلة

١٤٥ — قد شرحنا من قبل الأدلة الخطابية والبرهانية والجدلية ، وقد أشرنا الى  
أن أسلوب القرآن فوق هذا ، والآن نوضح ما أشرنا اليه من قبل فنذكر بالعبارة  
الواضحة ، ما ذكرناه بالاشارة اللاتحة .

ان أسلوب القرآن أسمى من الخطابة ، وأسمى من منطق أرسطو ، ومن  
لفه ، تراه قد اعتمد فى مسالكة على الأمر المحسوس أو الأمور البديهية التى  
لا يمتري فيها عاقل ، وليس فيه قيد من قيود الأشكال المنطقية من غير أن يخل  
بدقّة التصوير ، وقوة الاستدلال ، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات ونتائج فى

## أحكام العقل •

وانك لتتري بعض أوصاف الأسلوب الخطابي ، قد أتى فيها بالمثل الكامل فيه ، وهو أعلى من أن يوصف بأنه جاء على مناهج من مناهج الخطابة ، وفيه تصريف القول الذي يلقي بجدة في نفس القارئ والسامع ، فتصريف فنون القول من إيجاز غير مخل ، وحذف كلمات أعلن الأسلوب وجودها وغازرة في المعاني مع قلة في الألفاظ واطناب مبين ، بحيث لو حذفتم كلمة لاختلفت بنيان القول ، إذ أن الكلام القرآني بعضها مع بعض كالبنيان النوراني المرصوص ، ولكل كلمة اشعاع مشرق فيه بحيث لو لم تكن ، يكون جزءاً ناقصاً من الأطياف للآيات القرآنية •

ثم من قصص حوى أقوى الأدلة في ذات القصة وما حوت ، وفي الأدلة التي سيقى في بيان الأنبياء السابقين لرسالاتهم ، ومجادلة المخالفين والمناوئين •  
ومهما يكن من قول في استدلالات القرآن الكريم ، فإن له مناهج في الاستدلال تعلق على براهين المناطق ، والأخيلة المثيرة للاقناع ، والأدلة الخطابية •

١٤٦ — ونستطيع أن نذكر بعض مناحي القرآن في الاستدلال من غير احصاء ، بل نذكر بعضها ، وبعضها ينبىء عن غيره •

ومن ذلك الأقيسة الاضمارية ، وهي الأقيسة التي تحذف فيها إحدى المقدمات ، مع وجود ما ينبىء عن المحذوف فهو محذوف معلوم مطوى في الكلام منوى فيه ، وهذا الحذف يكثر في الاستدلال الخطابي ، بل يقول ابن سينا في الشفاء « الخطابة معولة على الضمير والتمثيل ، والضمير هو المقياس الاضماري ، والتمثيل هو إلحاق أمر بأمر لجامع بينهما ، ويسمى في عرف الفقهاء قياساً فقهيًا ، بينما هو في عرف المناطقة تمثيلاً ، لأن فيه مشابهة بين أمرين » •

وقد يقول قائل انك قررت أن القرآن أعلى في اقناعه واستدلاله من الخطابة والمنطق والشعر ، ومع ذلك تقرر أنه ينهج مناهج الخطابة في الاستدلال !!

ونقول في الاجابة عن ذلك : اننا نعلو بمنهجه القرآن عن الخطابة ، وان كان يسلك بعض مناهج الخطابة في الاستدلال ، وعلو القرآن في هذه الحال بأسلوبه

أولاً ، فهو كيفما كان من نوع الكلام المعجز ، وثانياً — القرآن يعلو عن الخطابة في ان كل مقدماته ونتائجها يعيبيه لا مجال للظن فيها ، فان الظن لا يعنى من الحق شيئاً ، فكل ما فى القرآن حماس يقينيه ، ولا يينع منهاجه الا من اليقين ، وقد لام على مخالفيه أنهم يتبعون الظن ، وان هم الا يحرصون .

ونعود من بعد ذلك الاعتراض الذى يرد على خاطر ، وان كان لا يرد على الموضوع فنقول « ان الناظر المستفري لادله القرآن يرى أكثرها قد حذف فيه احدى المقدمات ، ولقد قال الغزالي بحق :

ان القرآن مبناه الحذف والايجاز ( أى فى شكل الأقيسة ) . وقرأ قوله تعالى يرد على النصرارى الذين يزعمون ان عيسى ابن الله ، لانه خلق من غير أب : « ان مثل عيسى عند الله ، كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين » (١) .

ولا شك أن المثل الذى ساقه الغزالي ، واضح فيه حذف احدى المقدمات ، وواضح المقايسة بين خلق آدم عليه السلام وخلق عيسى عليه السلام ، وانه اذا كان الخلق من غير أب مبرراً لاتخاذ عيسى إليها ، فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مبرراً لاتخاذ آدم إليها ، ولا أحد يقول ذلك .

واننا نجد أنه قد حذف مقدمة وبقية واحدة وكان سياق الدليل لو فى غير كلام الله تعالى يكون هكذا : ان آدم خلق من غير أب ولا أم ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى إليها بسبب ذلك لكان آدم أولى ، لكن آدم ليس ابنا ولا إليها باعترافكم ، فعيسى أيضا ليس ابنا ولا إليها .

وان الحذف قد صير فى الكلام طلاوة ، وكسبه رونقا ، وجعل الجملة مثلا ماثورا ، يعطى الكلام حجة فى الرد على النصرارى ، ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعا ينتهون اليه ، وانما خلق من تراب ، فلا عزة الا لله تعالى .

١٤٧ — وقد يساق الدليل فى قصة ، وقد ذكرنا من قبل مقام القصص القرآنى فى هذا المقام ، ونقول ان القرآن اتخذ القصص سبيلا للإقناع والتأثير ، وضمن

القصة الأدلة على بطلان ما يعتقد المشركون وغيرهم ، وقد يكون موضوع القصة رسولا يعرفونه ويجلونهم اذ يدعى المجادلون أنهم يحاكونه ويتبعونه ، فيجىء الدليل على لسانه فيكون ذلك أكثر اجتذاباً لأنهمهم وأقوى تأثيراً ، وقد يكون مفحماً ملزماً أن كانوا يجادلون غير طالبين للحق •

وانظر الى قصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه وقصته مع قومه ( وقد ذكرناهما في موضوع القصص ) ، فانك ترى في القصتين أدلة التوحيد واضحة قوية تثبت بطلان عبادة الأوثان ، ولابراهيم من بين الرسل مكانته عند العرب ، اذ هو شرفهم ، ومحتدهم الذي إليه ينتسبون ، وقد كانوا يزعمون أنهم على ملته ، فإذا جاءهم الخبر بتوحيده ومحاربته للأوثان ، وسبق لهم ما كان يحتج به على قومه ، كان ذلك مؤثراً أى تأثير في قلوبهم •

ومجىء الدليل على لسان رسول يقر بفضل المخلصين كابراهيم عند العرب ، وموسى عند بنى اسرائيل يعطى الدليل قوة فوق قوته الذاتية ، اذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين : من جهة قوة الدليل الذاتية ، ومن جهة أن الذى قاله رسول أمين يعرفونه ، فيكون هذا قوة اضافية ، وفوق ذلك فيه الزام وافحام ، اذ أنهم يدعون أنهم أتباعه •

وقد يجىء الدليل أحياناً في قصص القرآن على لسان حيوان في قصة ، فيكون لذلك غرابة تسترعى الذهن ، وتثير الانتباه ، وتملأ النفس ايماناً بالحقيقة ، كما جاء على لسان الهدد في سورة النمل ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى حاكياً عن سيدنا سليمان عليه السلام : « وتفقذ الطير ، فقال مالى لا أرى الهدد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبياً يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يبهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » (١) •



وترى من هذا أن دليل التوحيد جاء على لسان الهدد ، في أوجز عبارة ، وأوضح إشارة ألا تراه ينبه الى بطلان عبادة الشمس من دون الله ، لأنها لا تؤثر في الابداع ، والانسان بذاتها ، وبين أن ذلك هو الضلال للفطرة ، انما من تزيين الشيطان الفاسد الأفكار ، وجعلهم يعتمدون عن حكم الفطرة الانسانية ، وهو أن يسجدوا لله تعالى الذي يخرج المخبوء من البذور والنوى ، وكل أسباب الوجود ، وهي مختفية عن الشمس وضوئها ، فاذا كان تأثير ظاهري في الظاهر الذي خرج من الخبء ، فما يكون تأثيرها فيما هو خبء ، لا تأثير لها فيه لظاهرا ، ولا حقيقيا .

### قياس الخلف :

١٤٨ - قياس الخلف هو اثبات الأمر ببطلان نقيضه ، وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان ، ولا يخلو المحل من أحدهما ، كالمقابلة بين الوجود ، والمقابلة بين نفي أمر معين في مكان معين وزمان معين ، اثباته في هذه الحال ، فان انتفى بالدليل كان ذلك حكما بوجود نقيضه .

فدليل الخلف أن يبطل النقيض ، فيثبت الحق ، وأن القرآن الكريم يتجه في استدلاله الى ابطال ما عليه المشركون فيعبط عبادة الأوثان ، فيثبت التوحيد . ومن ذلك الاستدلال على التوحيد بقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (١) . وهنا نجد الاستدلال القرآني اتجه الى اثبات الوجدان بدليل قياس الحلف ، وتقدير الدليل من غير أن تتسامى الى مقام البيان القرآني كما يسوقه علماء الكلام : هكذا : لو كان في السموات والأرض آله غير الله لتنازعت الارادتان بين سلب وايجاب ، وان هذا التنازع يؤدي الى فسادهما ، لتخالف الارادتين ، ولكنهما صالحان غير فاسدين ، فبطل ما يؤدي الى الفساد ، فكانت الوجدانية . فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، ويسمى علماء الكلام هذا الدليل دليل التمانع ، أي امتنعت الوثنية لامتناع الفساد ، فكانت الوجدانية .

ومن القياس الذي يعتبر قياس الخلف قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ،

وما كان معه من إله ، إذا ذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض « (١) ،  
أى وان ذلك باطل ، فما يؤدي إليه باطل ، وبذلك ثبت التوحيد .

ومن قياس الخلف قوله تعالى : « لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا  
الى ذى العرش سبيلا » (٢) . وهذا أيضا من قبيل فرض التمانع الذى يؤدي  
الى الفساد ، ولا فساد ، فيبطل ما يؤدي اليه .

ومن قياس الخلف فى اثبات أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى قوله  
تعالى كلماته : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٣) . وإذا  
ثبت أنه ليس فيه اختلاف ، ولا تضارب فى مفرراته ، ولا عباراته ، فانه يثبت  
النقيض ، وهو أنه من عند الله تعالى .

ونرى أنه فى كل هذه الآيات البينات كان اثبات المطلوب بابطال نقيضه ،  
وقد أشرنا الى ذلك فى كل آية مما تلونا .

ثم إنك ترى مع هذا القياس الذى واجه المخاطبين بابطال ما يدعون ليثبت  
ما يدعوهم اليه الرسول ، معنى ساميا قويا ، وهو مهاجمة المخالفين بابطال  
ما عندهم ، وأنه ليس من القول الذى يقام له دليل ، وان ذلك يوهنهم ، وينهضهم  
من قوتهم ، ولذلك كانوا يشكون من النبى يسفه أحلامهم ، ويصغر من أصنامهم .  
ومع هذا القياس نجد الاضمار للمقدمات ، وابرار أوضحها الذى يومئ الى  
ما وراءها ، فما يضمرة من المقدمات هو المختفى المعلوم ، والظاهر المكتوم .

### السير والتقسيم :

١٤٩ - السير والتقسيم باب من أبواب الاستدلال الكاشف للحقيقة ،  
الهادى اليها ، وهو أيضا من أبواب الجدل ، يتخذ المجادل سبيلا لابطال دعوى  
من يجادله ، بأن يذكر أقسام الموضوع الذى يجادل فيه ، ويبين أنه ليس فى أحد  
هذه الأقسام خاصة تسوغ قبول الدعوى فيه ، فيبطل دعوى الخصم .

وقد ذكر السيوطى أنه من أمثله فى القرآن الكريم قوله تعالى : « ثمانية

(١) النساء : ٨٢

(٢) الاسراء : ٤٢

(٣) المؤمنون : ٦١

أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل الذكركين حرم أم الأثنين ، أما اشتملت عليه أرحام الأثنين ، نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبله اثنين ومن البقر اثنين قل الذكركين حرم أم الأثنين ، أما اشتملت عليه أرحام الأثنين ، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » (١) .

وبين السيوطى وجه الإستدلال فقال : ان الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة ، واناثها أخرى ، رد الله تعالى عليهم ذلك بطريق السير والتقسيم ، فذكر سبحانه أن الله خلق الخلق مما ذكر زوجين ، ذكراً وأنثى ، ثم جاء به تحريم ما ذكرتم عندكم . ما علته ، لا يخلو اما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة ، أو اشتمال الرحم الشامل لهما ، أو لا يدري له علة ، وهو التبعيدى بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله تعالى إما بوحى وإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقى ذلك عنه ، وهو معنى قوله تعالى : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » . فهذه وجوه التحريم ، ثم لا تخرج عن واحد منها ، والاول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً ، والثانى يلزم عليه أن يكون جميع الاناث حراماً ، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً ، فيطال ما فعلوه من تحريم بعض فى حالة ، وبعض فى حالة . لأن العلة على ما ذكر تقتضى اطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة ( وحى ) باطل ، ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت اليهم رسول قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى ، وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلالاً » (٢) .

وخلاصة الاستدلال على بطلان ما ادعوا من تحريم السائبة والوصيلة ، وبعض الماعز والبقر ، أن الله تعالى العلى الحكيم ينبههم الى أن التحريم يكون لوصف ذاتى فى هذه المحرمات أو لتحريم بوحى أو رسول ، ثم أخذ يبين سبحانه أنه لا يوجد وصف ذاتى فى هذه الأشياء التى يحرمونها فذكر سبحانه أن السبب فى التحريم إما أن يكون فى الذكورة وحدها ، أو الأنوثة وحدها ، أو فيهما معاً ، لا جائز أن تكون

في الأنوثة وحدها ، لأنكم حرمتم ذكوراً ، ولأن مقتضى العموم أن تحرم كل أنثى ، وكذلك الأمر في الذكورة ، لأن ذلك يوجب تحريم كل الذكور ، وكذلك اذا كان وصف التحريم ذاتياً في كل ما تحمّل الأنثى وتلد الأرحام ، فان ذلك كان يوجب تحريم كل الأنعام ، وأنتم اقتصصتم بالتحريم بعضها دون كلها •

واذا لم يكن ثمة وصف ذاتي اقتضى التحريم فهل كان نص من رسول ، أو وحى ، أو من أين جاءكم العلم ، لا شيء من هذا ، وهذا الجزء الأخير كقوله تعالى في آخر سورة الأنعام « سيقول الذين كفروا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان نتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون(١) » •

#### التمثيل :

١٥٠ — التمثيل أن يقبض المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بدهى لا تنكره العقول ، وتقربه الألفاظ ، ويبين الجهة الجامعة بينهما ، وان القرآن الكريم قد سلك هذا المسلك على أدق وجه وأحكمه مقرباً ما بين الحقائق القرآنية ، والبدائنه العقلية وكثير من استدلالات البعث تقوم بتقريب البعث وقدرة الله تعالى عليه بما يرون من انشاء لذلك الكون البديع ، وما خلق به الانسان وبيان أطواره من أصلاب الآباء الى أرحام الأمهات •

اقرأ قوله تعالى : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » (٢) •

وترى من هذا عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته ، التي لخصها الله سبحانه

وتعالى في قوله « كما بدأكم تعودون » وفي هذه الآيات الكريمت بين سبحانه كيف ابتداء خلق الانسان من طين ، ثم جاءت الأطور المختلفة حتى آل الى القبر ثم كيف خلق الأحياء في الأرض من نبات وحيوان ، واهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، وان كل ذلك دليل على قدرة المنشىء علام الغيوب ، بديع السموات والأرض ، وأنه على ما يشاء قدير •

وان هذا النسق البياني قرب فيه البعيد ، وسهل على الألفهام دخوله ، والله على كل شىء قدير •

واقراً في هذا النوع من الاستدلال قوله تعالى : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم » (١) •

وتجد في هذه الآيات الكريمة عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته في أبلغ تعبير وأسلم تقرير وان في هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم قياس ما في الغيب على المشاهد ، وقياس ما بينه الله تعالى ، وأوجب الايمان به على ما هو واقع مرئى مشاهد ، فيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى ، وأنه المالك لما هو واقع ، والقادر على ما لم يقع الآن ، وسيقع ، كما وعد ، ووعدده لا يتخلف •

١٥١ — هذا ويلاحظ القارئ للقرآن التالى لآياته ، المتبصر في عبره وعظاته ، والدارس لأدلته — أن جدل القرآن لا ينتجه الى مجرد الانحمام والالزام ، بل ينتجه في الكثير الغالب الى ارشاد القارئ والمدركين ، والأخذ بأيديهم الى الحق ، وتوجيه النظر الى الحقائق ، وما في الكون من دلائل على القدرة ، كما ترى في قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة

وذكرى لكل عبد مخيب ، وأنزلنا من انشاء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب  
الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك  
الخروج» (١) •

فترى في هذه الآيات البيان فيها ليس مجرد افحام الوثنيين ومنكرى التوحيد،  
بل فيه توجيه الى الكون ، وما فيه من دلائل القدرة ، وعجائب الصنع وما فيه من  
سماء زينت ببروجها ونجومها ، والأرض وما فيها من رواسى كأنها تمسكها أن  
تميد ، وما فيها من نبات يحصد في ابلانه ، وجنات تونع وتثمر في وقعتها •

واقراً قوله تعالى في سورة الرحمن : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ،  
علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ،  
ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ،  
والأرض وضعها للانام ، فيها فاكهة ، والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف  
والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق  
الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ،  
فبأى آلاء ربكما تكذبان » • الى آخر السورة الكريمة ، وفي هذا ترى الاستدلال  
القوى متجها الى الارشاد الى ما في الكون ، وما أنعم الله به على الانسان من علم  
بما لم يكن يعلم ، وما علمه من الشمس والقمر ، وما علمه من معاملات كريمة ،  
وتعاون انساني مبنى على الفضيلة ، وعلمه كيف خلق الانسان ، وهكذا من استدلال  
حكيم ، وارشاد وتوجيه وتعلم •

وانه اذا اتجه القرآن الكريم الى الالزام والافحام ، لا يلبث أن يأخذ بيد  
المعاند الى الحقيقة يبينها واضحة جلية لا ريب فيها ، كما تترى في قوله تعالى رادا  
على المشركين طلبهم أن يكون الرسول ملكا :

« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ،  
ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وألبسنا عليهم ما يلبسون » (٢) • فانك ترى أن في ذلك  
افحاما لهم من ناحيتين : الفاحية الأولى أنهم لو أحيبوا الى ما يطلبون لقضى عليهم

ما هددهم الله تعالى به ، ولا ينظرون • والثانية أنه لا يزول اللبس الذي يلبسون به الحق بالباطل ، لأنه لو جعله الله تعالى ملكاً لجعله في صورة رجل ، وبذلك يجيء الالتباس الذي لابس به عليهم •

ومن الاستدلال المفحم الهادى قوله تعالى في الرد على اليهود ووصفهم : « الذين قالوا ان الله عهد بيننا ألا نؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات ، وبالذى قتلتم ، فلم تقتلتموهم ان كنتم صادقين » (١) •

وكما ترى في قوله تعالى رداً على الذين ينكرون الرسالات الالهية ، فقد قال تعالت كلماته : « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » (٢) • ويظهر أن الذين قالوا هذا القول من اليهود ، قالوا لينكروا رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وفي هذه الآيات التى تلونها ترى الالتزام المفحم ، والحجة البالغة ، والفيصل الفارق بين الحق والباطل ، قد أدرجت به حجة الخصوم وأرشدوا الى المحجة ، ووضعت الصوا والأعلام ، ليسيروا على الجادة بعد أن بددت الظلمات ، وأذهب ضوء الحق ظلام ما موه به الخصوم ، فمن أبى واستكبر بعد ذلك فهو من الأخرسين ، بعد أن أزيلت من أمامه غياهب الباطل •

١٥٢ — وعند توجيهه الله تعالى نظر المجادل الى الحقائق من غير اتجاه الى الزام من أول الأمر ، أو بعد الزامه واتهامه يكون تصريف البيان ، ومناحى التأثير ، وتكون العبارات التى تخاطب العقل والوجدان ، وتمس مواطن الاحساس ، وتتنوع المناهج وتتضافر المعانى ، وللألفاظ جدتها وطلاوتها ، ومع التكرار أحياناً تزداد الفائدة ، وتكثر الثمرات ، وتتنوع الأساليب من استفهام الى تعجب الى تهديد الى اخبار ، ويختلف الاتجاه الى مواضع الاستدلال وينابيه •

(١) فمرة يكون الاستدلال برد المسائل الى أمور بديهية معروفة ، كما أشرنا ،

و حقائق مشهورة مألوفة يختر المجادل أمامها صاغراً كما ترى من ابطال قول من زعم أن الله تعالى ولداً ، اذ يقول سبحانه : « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » (١) •

ألا ترى أن الاستدلال القرآنى اتجه الى بطلان مدعاهم الى أمر معروف مشهور مألوف لا يمارى فيه أحد وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة ، ولم يدع أحد أن الله تعالى صاحبة ، فبطل أن يكون له ولد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً •

( ب ) وأحياناً يضرب الله تعالى الأمثال ليقرب الحقائق ، ويدينها وقد بينا ذلك وأمثله عند كلامنا في ينابيع الاستدلال القرآنى •

( ج ) وأحياناً يوجه نظر الناس الى المخلوقات ، والى مافى الكون مما يدل على قدرة الصانع ، وعلم المبدع ، انظر الى قوله تعالى : « والهكم اله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم ، ان في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » (٢) •

وهكذا ، وارجع الى ما قدمنا من مصادر الاستدلال في القرآن الكريم •

ويلاحظ أن القرآن الكريم في الجدل الذى يلزم الخصوم ، ويفهمهم ، يجيء الى الافحام من أقرب الطرق ، وأقواها الزاما ، ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن خليله ابراهيم عليه السلام في مجادلة مدعى الألوهية ، فقد قال تعالى :

« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربي الذى يحيى ويميت • قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم ، فان الله يأتي بالشمس



من المشرق ، فأنت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر • والله لا يهدي القوم الظالمين » (١) •

وان وسائل أخذ الخصم بأقرب طريق للانحطام والزمام كثيرة :

( ا ) منها التحدى كما تحدى الله تعالى كفار قريش بأن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، وكما تحدى ابراهيم الملك الوثنى •

( ب ) ومنها أخذ الخصم بموجب كلامه ، واثبات أنه عليه وليس له ، ومن ذلك قوله تعالى في شأن المنافقين ، اذ يقول سبحانه وتعالى عنهم : « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، والله العزة ولسوله وللمؤمنين » (٢) ، فسلم لهم أن الأعز يخرج الأذل ، ولكن من هو الأعز ، فله العزة ولسوله وللمؤمنين •

( ج ) ومنها مجارة الخصم فيما يقول ، ثم التعقيب عليه بما يقلب عليه نتائج قوله ، ومن ذلك قوله تعالى حاكياً عن الرسل مع أقوامهم : « قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٣) •

فترى من هذا النص السامى أن الرسل سلموا بالمقدمة التى بنى عليها الأقوام رفضهم ، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم « ولكن الله يمن على من يشاء » ، فكأنهم قالوا لهم ما قلتموه من أننا بشر حق ، ولكن ما تريدون أن تبينوا عليه من اثبات أننا لسنا أنبياء باطل ، لأن الله يمن على من يشاء من عباده ، وهو قد من علينا ، وقدمنا لكم السلطان أى الدليل ، ولا سلطان لنا الا ما يأذن به الله تعالى •

١٥٣ — هذه قبسة من نور الذكر الحكيم الذى أضاء الله تعالى به الخليقة لتنهدى الأجيال بهديه ، وتسير على ضوئه ، وتعشو اليه اذا أظلمت ، وعمتها

الجهالات ، وتاه الناس في مشارات الشيطان .

وما أردنا بذلك البيان احصاء لطرق الاستدلال في القرآن ، ولا استقصاء لمسالكه في جدله ، فدون ذلك ننفق القوى ، وينبت الطهر ، ويقصر الشأو ، ولكن أردنا أن يرى الدارس للقرآن الكريم أمثالا عن طرق جدل القرآن واستدلالاته وكيف كانت أعلى من المنطق في دقته ، وان لم تنتقيد باساليب المناطقه، ولا باشكال أدلتهم ، ففي أدلة القرآن التقديم والتأخير ، والايجاز والاطناب تبعا لروعه البيان ونسقه وجماله ، وليس تبعا لأشكال البرهان ، وكانت مع ذلك أعلى من الخطابه ، وان كان بيانه المثل الأعلى الذي لا يستطيع أن يجاريه الخطباء .

ولو أن المتكلمين الذين عنوا باثبات العقائد ، والجدل فيها ، سلكوا مسلك القرآن ، وساروا في سمنه لكان علمهم أكثر فائدة ، وأدنى جنى ، وأينع ثماراً ، ولكنهم سلكوا مسلك المنطق وقيوده ، والبرهان وأشكاله ، فكان علمهم للخاصة من غير أن يفيد العامة ، فان العامة يدركون دقائق القرآن على قدر عقولهم ، ولا يدركون شيئاً من أشكال الأميصة .

وقد وازن الغزالي في كتابه الجامع العوام عن علم الكلام بين أدلة القرآن وطريقة المتكلمين ، فقال رضى الله عنه : أدلة القرآن مثل الغذاء ، ينتفع به كل انسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون ، بل ان أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا .

وفي الحق ان الناس لو شغلوا بدراسة القرآن ، وما فيه من استدلال لينهجوا على نهجه ، ويمسروا في طريقه ، لكان لهم من ذلك علم كثير ، فان القرآن قد اشتمل على مناهج في الاستدلال والجدل والتأثير تتكشف عن أدق نواميس النفس الانسانية ، وتبين شيئاً كثيراً من أحوال الجماعات النفسية والفكرية وفيها الطب لأدوائها ، والعلاج الناجع لأمراضها ، والدواء الشافى لعللها وأسقامها .

وفي مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام النافذ الى القلوب والاحجج الدامغة

واعتبر ذلك بأثره في المشتركين وأثره في المسلمين الأولين •

وقد ذكرنا فيما مضى من قولنا أن كل من كان يسمعه من المشركين يناله منه قيس يهتدى به ان آمن ، وان استمر على حجوده أطفأ الله النور في قلبه ، وطمس الله على بصيرته وكان على ريب في الأمر ، وتردد ، فكان كل من داناه منهم مس نوره قلبه ، ونال أثره وجدانه ، حتى لقد تناهى زعمائهم عن سماعه ، لما رأوه من أثره في قلب كل من سمعه •

وقد كان من أثر القرآن في المؤمنين الأولين أن عكفوا عليه يرتلون ، ويتفهمونه ، ويتعرفوا معانيه ومراميه وجعلوه معلمهم الأول ، ومرجعهم اذا اختلفوا ، ومنهل عقائدهم ، يأخذون منه ما يقوى ايمانهم ويدفع الشبهات عنهم ويثبت يقينهم ، ولم يعرفوا حجة مع السنة سواء ، ولا محجة غير طريقه وهديه • به يجادلون وعن هديه يصدرن ، فاستقام أمرهم ، وحكموا بعدله العالمين •

## علم الكتاب

١٥٤ — قال الله تعالى وهو آصدق القائلين ، « ويقول الذين كفروا لست برسلا ، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب ، ومن عنده علم الكتاب » (١) ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى من عنده علم الكتاب وهو القرآن الكريم الذي نزل على رسوله الأمين شهادته بجوار شهادة الله سبحانه وتعالى ، وأى شرف أعظم من شرف علم الكتاب بعد هذا ، وأى مقام أعنى من مقام علم الكتاب الكريم ، انه اذاً مقام عظيم ، وهو مشتق من ذات العليم ، ولا بد أن يكون لهذا علم الكتاب علما عظيما ، وأن يكون كبيرا عزيزا ، وأن يكون واسعا بمقدار ما تتسع له طاقة البشر من علوم ، وان العلماء الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله تعالى والملائكة هم العلماء بالكتاب المذكورون ، الفاهمون لمراميه ومغازيه العاملون به ، فقد قال الله تعالى : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة ، وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » (٢) ، فأولو العلم الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله ، والملائكة هم أولو العلم بالكتاب .

وأولو العلم بالكتاب هم العلماء الذين ذكر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخشى الله غيرهم ، اذ قال سبحانه « انما يخشى الله من عباده العلماء » (٣) .

هذه مكانة العلم القرآني ، كما صرحت العبارات السامية عن الله سبحانه وتعالى ، فما هذا العلم الذي يعلو بصاحبه الى هذا المقام الأسمى ، والمنزلة العليا ؟ نجيب عنه بجوابين أحدهما فيه اجمال ، والثاني فيه بعض التفصيل .

أما أولهما — فنقول انه علم النبوة ، أى علم الرسائل الالهية ، فان القرآن الكريم اشتمل فيما اشتمل عليه على لب الرسالة الالهية وهو التوحيد ، وقد قال تعالى في ذلك « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه كبر علم المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب » (٤) . وان القرآن ذكر كل الرسائل التي سبقته ، وما لم يذكره بالبيان ذكره بالاشارة

الواضحة ، فقال تعالى : « منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك » (١) وما لم يذكر قصصه مطوى في ذكر من قصص ، فالرسالة الإلهية واحدة ، والحق واحد ، والدعوة اليه واحدة •

ولقد صرح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن من يحفظ القرآن يحفظ النبوة بين جنبيه ، فقال عليه السلام فيما يروى عنه الحسن البصرى : « من أخذ ثلث القرآن ، وعمل به ، فقد أخذ ثلث النبوة ، ومن أخذ نصف القرآن ، وعمل به ، فقد أخذ نصف النبوة ، ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ النبوة كلها » • ويروى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « من حفظ القرآن فقد حفظ النبوة بين جنبيه » • فالقرآن فيه قبسة علم من الله تعالى •

ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا القرآن مادبة الله ، فتعلموا من مادبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن هو حبل الله ، والنور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعجب ، ولا تنتقض عجائبه ، ولا يخلق عن رد ثناتوه ، فان الله يأجركم على تلاوته ، بكل حرف عشر حسنات » •

وان هذه الآثار الواردة تدل دلالة قاطعة على أن القرآن حوى علم النبوة كله ، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من علم النبوة الا أحصاها ، وان الله سبحانه وتعالى ما فرط في الكتاب من شيء من علم النبوة ، كما قال تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (٢) مما يتعلق بالشرائع والأحكام ، وبيان ما يطلب من المكلف ، وما به صلاحه في الدنيا ، وثوابه في الآخرة ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه •

١٥٥ — هذا الجواب مبنى على ما قرره الذين قرءوا القرآن من السلف الصالح ، وما نقلوه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بيان اجمالى لعلم القرآن الكريم مبنى على أنه تبليغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه ، وأنه التبليغ الخالد الى يوم القيامة الذى تخاطب به الأجيال بالرسالة العامة التى نعم الانسانية كلها ولا تخص عصرا من عصورها •

(١) غافر : ٨٨

(٢) الأنعام : ٢٨

ولكن لابد من أن نعرض بالذكر ببعض التفصيل لما اشتمل عليه علم القرآن ، وهذا هو الجواب الثانى الذى لا يعنى فيه الاجمالى الكلى عن بعض التفصيل الجزئى .

وان الذى قرره السلف ، وأجمعوا عليه أن القرآن الكريم فيه علم النبوة بأكمله ، وأن من علمه فقد حوى علم النبوة بين جنبيه .

وأول علوم النبوة علم الغيب ، ففى القرآن علم الغيب ، وبيان الغيب والغيب هو لب الايمان ، وفيه علم الحاضر الذى يدل على الغيب المستكن .  
فيه بيان الوحداية ، وبراهينها المستمدة من الكون واستقامة حاله ، والتي يستدل عليها بالآثار القائمة وبما خلق الله سبحانه وتعالى .

وان العلم بمنشىء الكون هو الفطرة الانسانية التى لا تضل الا بما يسيطر على العقل من أهواء وبما يقف دون الادراك السليم من أوهام ، وبما يحيط بالعقل من غيم يمنعه من الفهم السليم ، فالقرآن يزيل غيب الضلال ، ويأخذ بالشارد الى حيث الأمن العقلى .

وان الفلاسفة يحاولون أن يدركوا الغيب عنهم من حقيقة المنشىء ، ومنهم من ضل فى سبيل ذلك ضلالا بعيدا ، ومنهم من قارب ، ومنهم من باعد ، ولا تجد فى كلام أولئك الفلاسفة ما يهدى للتى هى أقوم ، وما كان عجز الفلاسفة عن أن يدركوا الشىء الأول الا من سيطرة أوهام سبقت ، عكرت على الفطرة وضلت العقل ، ولنظريات ضالات قد سيطرت عليهم ، وهى نظرية الأسباب والمسببات ، وتوهموا أنها تنطبق على منشىء الوجود ، كما هى ثابتة فى العلة بين الموجودات ، يتوالد بعضها من بعض ، ويكون لكل شىء سبب ، وهو سبب لغيره ، وهكذا تتتابع الأسباب والمسببات ، كل سبب يتبع سببا ، وهو نتيجة سبب ، وتوهموا لهذا أن الأشياء نشأت عن منشىء الوجود نشوء المطول عن علته ، والمسبب عن سببه ، وتسلسلوا فى الأسباب والمسببات حتى ضلوا ضلالا بعيدا ، وجاءت الأديان السماوية موجهة الأنظار الى أن الله تعالى خالق السموات والأرض على غير مثال سبق ، وهو المبدع وهو الفاعل المختار ، وهو القادر على كل شىء ، لا يخرج عن واسع علمه شىء ، ولا عن محيط قدرته خارج يفعل ما يشاء ويختار .

وقرر القرآن تلك الحقيقة التي هي هدف العقول ، وأخرجها من تيه الضلال إلى الحق القويم .

وسيقت الأدلة الدالة على ذلك من الكون وتنوعه ، وإن المقرر عقلا أن السبب يكون من جنس المسبب ، ويكون كهيئته لا يختلف عنها ، وإن الاختلاف إنما يكون لأمر آخر لا بمجرد السببية ، فبيّن القرآن الكريم تنوع الأسياء وتنوع الأحوال .. اقرأ قوله تعالى :

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه لينا قبضا يسيرا ، وهو الذي جعل لكم الليل لباسا ، والنوم سباتا ، وجعل النهار نشورا ، وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيي به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسا كثيرا ، ولقد صرفناه بينهم ليعلموا ، فأبى أكثر الناس الا كفورا » (١)

وهو أذى مرج البحرين هذا عذب ثمرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا ، وحجرا محجورا ، وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا » (٢) .

وإنك ترى من هذه الآيات الكريمة ، بيان تنوع المخلوقات ، ولا شك أن هذا التنوع يتنافى مع كون الأسياء نشأت من المنشئ كما ينشأ المعلول من العلة ، لأن المعلوم يجب أن يكون مماثلا للعلة ، غير مختلف عنها ، وهنا نجد لاختلاف الموجودات من انسان يتفكر ويتدبر ، وحيوان ينقع ، وطائر يطير ، ومن شمس وتمر يسيران بحسبان .

فكان التنوع الذى ذكره القرآن أبطلا لما يقرره الفلاسفة من نظرية العلة والمعلوم ، والسبب والمسبب .

ضاق بهم مسلكهم ، فلم يتصوروا غير ذلك ، ولو نظروا الى الكون ، ومايجرى تحيه من أحوال ، لأدركوا بقطرتهم المستقيمة أن المنشئ واحد أحد ، ليس بوالد ولا

وله ، ولآمنوا بقوله تعالى : « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة » (١) واقراً قوله تعالى فى التعريف بالذات الإلهية :

« ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى فإلهم الله فأنى تؤفكون ، فإلق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباتا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتتهدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وحنات من أعناب ، والزيتون ، والرمان مشتبها وغير متشابه ، أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذاكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » (٢) •

انظر الى تعريف الذات العلية بخلقها ، وما تنتسئ في هذا الوجود ، وان هذا يدل على الفاعل المختار دلالة قاطعة بتنوعه ، واختلاف مظاهره وتنوع حياته ، ألا تراه يسقى بماء واحد ، وغذاؤه واحد ومع ذلك تتنوع أنواعه ، وتختلف أجزاءه مما يدل على أنه نشأ بغير العلية ، بل بارادة مختارة حكيمة تفعل ما تريد ، والله خالق ما يشاء ويختار •

وان القارىء الحكيم يرى فيه قدرة الذات العلية ، وأرادتها الخلق ، وانعكس لا يقبل غير ما جاء فيه ، وما يسلكه الفلاسفة من أوهام بالنسبة للسببية يؤدى الى التسلسل الى ما لا نهاية ، فإذا كان الوجود نشأ من موجود ، فمم نشأ الوجود



السابق ، والسابق على السابق ، ويتأدى الى ما يستحيل العقل تصوره ، واذا كان هناك موجود تنتهي عنده السلسلة فلماذا يفرض أنه الاله ، ويفرض أنه وجدما بعده من ارادته ، لا بالعلية • واقرأ الآيات القرآنية في اثبات الوجدانية في الذات والصفات ، وفي الخلق والايجاد ، وما ينجم عنهما من وحدة العبود بحق ، فانك واجد علما كثيرا، يساير العقل ، ولا يعانده ، لأنه الفطرة المستقيمة التي لم تقسدها نظرية السببية في المنشئ التي أخذوها من السببية في الأمور العادية ، وفرق بين واجب الوجود الذي أنشأ الكون ودبره ، وهو القيوم القائم عليه الذي قدر كل شيء تقديرا ، وبين توالد الأحداث ، والموجودات ، وهي لا تكون بغير تقديره وتدبيره سبحانه وتعالى انه فعال لما يريد •

١٥٦ — وفي القرآن علم الرسالة الالهية ، والمعجزات التي اقتترنت بها ، فهو يبين أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، وخص العالم الانساني بالرسول يرسلهم اليه ، ليسير الناس في الصلاح بدل أن يسيروا في الفساد ، وليكونوا في مودة وسلام بدل أن يكونوا في حرب وخصام ، وليصلوا ما أمر الله به أن يوصل ، لأن الله تعالى الذي خلق الانسان جعله إما شاكرا وإما كفورا ، فهيا للشاكر أسباب شكره وجعل الكفور مسئولوا عن فعله بعد انذار المنذر وتبشير المبشر ، كما قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١) • وكما قال تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » (٢) • فما كانت هذه الرسائل الالهية الا لتهدى الناس الى خير الطرق ، ومن يكفر فانما يكون عن بينة لئلا يكون للناس على الله حجة •

والقرآن الكريم يبين أن الرسل يكونون من البشر ، ومن أقوامهم ليكونوا أكثر لبا ، وعندهم علم بهم ، كما قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » (٣) ، وقومه هم دعامة الأولى ، فهم الذين يكونون القوة الأولى لدعوته ويكون منهم الحواريون الذين يناصرونه ، ويرعونه حق رعايته •

وعندما طلب المشركون أن يكون الرسول ملكا ، رد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا للقى الأمر ثم لا ينظرون ،

ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » (١) •

وان الله تعالى صرح بأن ارساله للرسول لكي يقوم الناس بالحق ، والميزان فقد قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز » (٢) •

وفي هذا النص الكريم ، بين الله سبحانه وتعالى أن الرسل جاءوا بالكتاب من عنده سبحانه ليقوم الناس بالقسط ، ومن لم يقنعه الدليل ، ولم يهتد بهداية الرحمن ، وبمقتضى الفطرة المستقيمة ، والادراك السليم ، فان الحديد فيه بأس شديد يقمعه من الشر ، ويبعد عن الناس فسادة ، واقتتله

والآيات بتقيد أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يبعث الرسل ، ومعهم المعجزات الباهرات الخارقات للعادات التي تثبت أنهم جاءوا من عند الله تعالى ، وأنهم لم يفتروا على الله الكذب ، بل هم جاءوا برسالة ربهم ، ويتحدون الناس أن يأتوا بمثلا ، وهي خارقة لقانون الأسباب والمسببات ، وهي فوق اثباتها لقدرة الله تعالى الفعال لما يريد تثبت رسالة الرسول التي جرت على يديه •

١٥٧ — والقرآن الكريم فيه علم المعجزات بجوار العلم برسالة الله تعالى لخلقه ، ففيه معجزة نوح عليه السلام ، وهي السفينة التي نجا فيها المؤمنون ، وأغرق الله تعالى بعدها الكافرين ، وقرأ قوله تعالى :

« وأوحى الى نوح أنه ان يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا ، فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل ، وقاله

أركبوا نبيها بسم الله مجريها ومرساها ، ان ربي لغفور رحيم ، وهي تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى الى جبل يعصمني من الماء ، قال لا غاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين • وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر • واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » (١) •

هذه بيعة من بينات الله تعالى تدل على اصطفائه لنوح أبى الانسانية الثانى وتدل أيضا على أن الله تعالى فاعل مختار ، لا يتقيد بالأسباب والمسببات التى نعرفها ، بل هو القادر المريد المختار « ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون » • وجاء هود عليه السلام الى عاد ، فقاودوا دعوته ، وناووا رسالته ، وقالوا مغترين عليه كما حكى القرآن الكريم عنهم : « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آهنتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين • ان نقول الا اعتراك بعض آهنتنا بسوء ، قال انى أشهد الله واشهدوا انى برى مما تشركون » (٢) •

وقد كانت الآية عقابا دمر الله عليهم بريح صرصر عاتية ، وقال الله تعالى فى هذه « فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم ، قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ریح فيها عذاب أليم • ندمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين » (٣) •

وقال الله تعالى فى سورة الحاقة « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » (٤) •

وقد أرسل الله تعالى صالحا الى ثمود ، وقال الله تعالى فيهم : « والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، هو أنشلكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أنتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب • قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بيعة من ربي ، وآتاني منه

(٢) هود : ٥٣ — ٥٤

(١) هود : ٣٦ — ٤٤

(٤) الحاقة : ٦

(٣) الاحقاف : ٢٤ — ٢٥

رحمة ، فمن ينصرنى من الله ان عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير • ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تاكل في ارض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها ، فقال تمتعوا في داركم ثلاثة ايام ، ذلك وعد غير مكذوب • فلما جاء امرنا نجينا صالحا ، والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزي يومئذ ، ان ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاهمين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود » (١) •

ونجد من هذه النصوص الكريمة أن معجزة صالح التي تحدى بها ، وكانت بها للبينة على رسالته هي ناقة كان لها شرب ، ولكم منهم شرب معلوم ، وكان التحدى ليس بأن يأتوا بمثلها ، ولكن كان التحوى بالهلاك ان مسوها ، فعقروها ، فأنذرهم الرسول المتكلم عن ربه بأن العذاب نازل بهم بعد ثلاثة ايام ، وقد صدق الوعيد عليها •

١٥٨ — ولنتقل الى المعجزة التي أجراها الله تعالى على يدي سيدنا لوط عليه السلام ، لقد بعثه الله تعالى الى قوم هبطوا في مفاصلهم الى ما لم يهبط اليه الحيوان ، فأنسدوا الفطرة ، وجاءهم لوط بالطهر ، ليحملهم على العودة الى الفطرة المستقيمة التي فطر الله الناس عليها ، ولما لم تجد معهم دعوة الاصلاح ، بل استمروا في غيهم يعمهون ، أمر الله تعالى نبيه أن يسرى بأهله بقطع من الليل ، واستثنى امرأته من أهله فقد كانت على شركهم وان موعد العذاب النازل بهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ، فلما جاء أمر الله تعالى جعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود •

وكان يعاصر لوط ابراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام ، ولذلك جاءت الملائكة التي ذهبت الى قوم لوط ، وجعلت أرضهم عاليها سافلها ، جاءوا لابراهيم عليه السلام ، وظهر معهم أمر خارق للعادة ، وهو أن تحمل امرأته وهي عجوز ، ولنتل الآيات الكريمة التي أثبتت هذه الحقائق :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام فما لبث أن

جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط ، وامرأته قائمة ، فضحكت ، فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت يا ويلتي ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ، ان هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ، فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشري ، يجادلنا في قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب يا ابراهيم أعرض عن هذا ، انه قد جاء أمر ربك ، وانهم آتيهم عذاب غير مردود « (١) » .

وترى أن خارقا للعادة كان في أول لقاء بين ابراهيم خليل الله ، وبين ملائكته ، وهو أن تحمل امرأة عجوز قد انقطع حيضها من زوج عجوز . وان الله أجرى على يد خليله ابراهيم معجزات كثيرة ، منها مسألة الطير اذ يقول الله تعالى في ذلك :

« واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم (٢) » .  
ومن أبرز ما أجرى الله على يديه من خوارق للعادات أنه ألقى في النار ليجرق ، فحافظها واقراً قوله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ، اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجبثنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ، وانا على ذلكم من الشاهدين وثالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم ، أعلمهم انه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بالكهنتنا ، انه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا عني يذكرهم يقال له ابراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أنت فعلت هذا بالكهنتنا يا ابراهيم قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ، ان كانوا يبنطقون ، فارجعوا الى أنفسهم ، فقالوا انكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على

رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، فأوأ حرقوه ، وانصروا آلهتكم ، ان كنتم فاعلين • قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا ، فجعلناهم الأخرين » (١) •

وانك لترى أن خوارق العادات التي تنقض التزام الأسباب والسبببات والمسببات التي تلزم البشر ، ولكن قدرة الله و ارادته ، فوق ما عليه • وما يجري من أسباب ومسببات بينهم •

وكذلك الأمر بالنسبة لشعيب الذي دعا الى مكارم الأخلاق ، وحسن المعاملات الانسانية ، اذ يقول كما حكى القرآن الكريم عنه : « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ، ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، انك لأنت الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرايتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت ، واليه أنيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ، ثم توبوا اليه ، ان ربى رحيم ودود ، قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وانا لنراك فىنا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز • قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراكم ظهريا ، ان ربى بما تعملون محيط ، ويا قوم اعملوا على مكانتكم ، انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب ، وارتقبوا انى معكم رقيب ، ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كان لهم

يغفروا فيها ، ألا بعدا لمدن كما بعدت ثمود » (١) .  
ونرى من هذا أن الأمر الخارق للعادة كان صيحة عليهم .  
وان الملاحظ أن الخوارق للعادة التي جاءت على يد الأنبياء الذين عاشوا في  
البلاد العربية كانت حسية مناسبة للعرب ، وكانت من الناحية التي تناسب الصحراء  
والبادية ، فمعجزة هود كانت أحجاراً من سجيل منضود ، وقد ظنوه عارضاً ممطراً ،  
ومعجزة صالح كانت ناقه غريبة بين أهل النوق في البادية ، ومعجزة لوط كانت جعل  
الأرض عاليها سافلها ، ومعجزة شعيب كانت صيحة جعلتهم في ديارهم جاثمين .

### معجزات سيدنا موسى :

١٥٩ — قصصنا بعض القصص عن سيدنا موسى عليه السلام ، وعلى نبينا  
أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وكنا نذكر ذلك بصدد بيان أنه لا تكرار في قصة  
موسى إن تدبر ، وتتكر في المغازى والمقاصد ، لافي ظواهر الألفاظ ، والآن نذكر  
فقط الخوارق للعادات التي جرت على يد موسى عليه السلام ، وهي تسع آيات كما  
جاء في القرآن الكريم ، فقد قال تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ،  
فاسأل بنى إسرائيل ، اذ جاءكم فقال له فرعون انى لأظنك ياموسى مسحورا » (٢) .  
ولنذكر ان شاء الله تعالى تلك الآيات التي لم تجد مع فرعون وقومه الضالين .  
أولها : العصا التي قال الله تعالى فيها « فألقى موسى عصاه ، فاذا هي تلقف  
ما يأفكون » (٣) . وقد نزل موسى ، يباهى بها السحرة من قوم فرعون « قالوا  
ياموسى اما أن تلقى ، واما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا ، فلما ألقوا سحروا  
أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاعوا بسحر عظيم ، وأوحينا الى موسى أن ألق  
عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك  
وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين » (٤) .

الثانية : أنه يخرج يده من جيبه ، فاذا هي بيضاء من غير سوء ، كما قال تعالى :  
« ودأخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » (٥) . وكما قال تعالى : « ونزع

(٢) الاسراء : ١٠١

(١) هود : ٨٤ — ٩٥

(٤) الاعراف : ١١٥ — ١٢٠

(٣) الشعراء : ٤٥

(٥) الفصل ٧ : ١٢

يده فإذا هي بيضاء للناظرين» (١) •

الثالثة : أن الله تعالى أخذ آل فرعون بالجذب ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، كما قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلمهم يذكرون » (٢) •

الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة : ما ذكره الله تعالى بقوله : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » (٣) •

الآية التاسعة أنهم عندما نزل بهم الرجز الشديد طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرجز ، كما قال تعالى : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » (٤) •

وإذ لم تجد هذه المعجزات ، مع أنها قارنت حياتهم ، ومست معيشتهم حتى لم يكن لطالب حق أن يرتاب ، ولا لطالب الهداية أن يمتري • عندئذ كانت الضربة القاصمة لفرعون وملئه ، ولذلك قال تعالى : « فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عاقلين ، وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ، التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون » (٥) •

هذه اشارات الى معجزات سيدنا موسى ، وكل خارق للأسباب والمسببات مما يجدل بذاته أولاً — على أن الله تعالى فعال لما يريد ، خالق الأشياء بارادته وقدرته ، ولم تنشأ عنه كما ينشأ المعاول عن غلته ، وتدل ثانياً على رسالة موسى عليه السلام وجعته الى بني إسرائيل ، وفرعون وقومه •

الخوارق التي جاءت على يد سليمان :

١٦٠ — كان سليمان حاكماً ، ونبياً ، ولم يكن حاكماً طاغوتياً ، بل كان حاكماً

(٣) الاعراف : ١٢٣

(٢) الاعراف : ١٢٠

(١) الاعراف : ١٠٨

(٥) الاعراف : ١٢٦ — ١٢٧

(٤) الاعراف : ١٢٤ — ١٢٥



ربانياً . أعطاه الله تعالى علم الحاكم العادل ذى السلطان غير المسيطر ، وأنظاه  
علمنا آخر ، أعطاه العلم بلغة الحيوان ، وسخر له الطير ، وسخر له الجن ، وأوتى  
علم لغة النمل والطير ، ولنتل ما جاء فى سورة النمل من خوارق كانت مع سليمان ،  
قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين « وورث سليمان داوود ، وقال يأيها الناس  
علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ، ان هذا هو الفضل المبين ، وحشر لسليمان  
جنوده من الجن والانس والطير ، فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادى النمل ،  
قالت نملة ، يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم  
لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى  
أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك  
الصالحين ، وتفقد الطير ، فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائين ، لأعذبه  
عدابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت  
بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من  
كل شىء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، من دون الله ،  
وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا  
لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون ، وما تعلنون ، الله  
لا اله الا هو رب العرش العظيم ، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب  
بكتابى هذا ، فألقه اليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت يأيها الملأ ، انى  
ألقى انى كتاب كريم ، انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا  
على وأنتونى مسلمين ، قالت يأيها الملأ أفأتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى  
تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمر اليك فانظرى ماذا  
تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك  
يفعلون ، وانى مرسله اليهم بهدية ، فنظرة بم يرجع المرسلون ، فلما جاء سليمان  
قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع  
اليهم فلأنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، وانخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال  
يأيها الملأ أياكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا

آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وانى عليه لقوى أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر ، فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر ، فان ربي غنى كريم ، قال نكروا لها عرشها ، ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلى الصرح ، فاما رأته جسبته لجة ، وكشفت عن ساقها ، قال انه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب انى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (١) .

تلونا هذا الجزء من هذه السورة الكريمة ، وكلها أمور ليست مما يجرى في عادات الناس ، ولنشر اليها اشارات نوجه فيها الأنظار الى ما اشتملت الآيات للكريمات في بيان فوق طاقة البشر .

أولها — الأمر الذى لا يعرف ولم يعرف لغير سليمان ، وهو أنه علم منطق الطير والحيوان ، وهذا يدل على أن غير الانسان ، أم أمثال الانسان لها منطق ، ولغة ، وان كنا لانعرفها ، وعرف نبي الله سليمان بعضها ، كما قال تعالى في كتابه الكريم : « وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء » (٢) . فاذا كان سليمان قد علم منطق بعض الحيوان ، فهو مصداق لقول الله تعالى الخالق الفعال لما يريد .

وثانيها — تسخير الطير له ، فهذا الهدهد كان له من الادراك الربانى ، ما جعله يعرف الهدى من الضلال .

وثالثها — الاتيان بعرشها بين غمضة عين وانتباهتها ، أو كما عبر القرآن الكريم « آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » . وهذا من تسخير الله تعالى لسليمان ، ومن العلم الذى أعطاه الله بعض عباده المخلصين ، ونقول ان الآية صريحة فى أن الذى أتى هو عرشها حقيقة ، لا صورته ، كما يقول بعض المتشددين فى المادية ، ومع ذلك اذا

كانت هي الصورة ، فان الخارق ثابت ، وهو أنه أتى به قبل أن يرتد اليه طرفه .  
وفي قصة نبي الله سليمان عليه السلام خوارق أخرى غير ما جاء في سورة  
النمل ، فقد جاء في سورة سبأ ما نصه : « ولسليمان الريح غدوها شهر ، ورواحها  
شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ، ومن يزغ  
منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ،  
فوجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، تعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادي  
الشكور ، فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته ،  
فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون ما لبثوا في العذاب المهين (١) » .

### العبرة في فوارق العادات لسليمان :

١٦١ — أظننا بعض الاطناب في النقل من القرآن الكريم عن خوارق العادات  
في عهد نبي الله سليمان عليه السلام ، وذلك لأن هذا العصر كانت فيه الفاسفة  
الأيونية مهيمنة في آسيا الصغرى وتولدت عنها فلسفة اليونان . وكانت الفلسفة  
الأيونية قائمة على الأخذ بالأسباب والمسببات ، وتولد المعلول من العلة في انتظام  
قائم لا تخلف ، فجاء سليمان عليه السلام ، وقام سلطانه كله على خرق للأسباب  
والمسببات والقيام على اثبات أن الكون كله بارادة مريد مختار ، لا يفعل الا ما يريد ،  
ولا يصدر عنه شيء بغير ارادته الخالدة الثابتة — فقام سليمان بذلك ، وأجرى الله  
تعالى تلك الخوارق على يديه ، فأجرى الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر على  
يديه ، وعلم منطق الطير ، وسمع حديث النمل ، وجاءه عرش بلقيس بين يديه قبل  
أن يرتد اليه طرفه ، وسخر الله تعالى له الجن ، وكان كل شيء في حكمه بخوارق  
العادات ، أو بخرق نظام الأسباب والمسببات العادية التي بنيت عليها نظرية أن  
المخلوقات نشأت عن الموجد الأول نشوء العلة عن معلولها ، فكانت حياة نبي الله تعالى  
سليمان في ملكه تجرى على هدم هذا النظر ، وسخر الله له الريح تجرى بأمره حيث  
أصاب وكذلك كانت الخوارق للأسباب هي المسيطرة في معجزات من جاء بعده من  
الرسول .

### معجزات عيسى عليه السلام :

١٦٢ — في هذا العصر الأيونى كان مبعث عيسى عليه السلام ، ووجوده ، ولم يكن علم الطب رائجا عند بنى اسرائيل كما توهم عبارات بعض الكتاب فى العقائد من المسلمين ، بل كان بنو اسرائيل أجهل الناس بالطب كما يقرر علماء تاريخ الفلسفة ، ومنهم رينان الفيلسوف المسيحى •

انما كانت معجزات عيسى لإبطال النظرية الأيونية التى تعتقد أن المخلوقات نشأت عن الموجد نشوء العلة عن معلوله •

وكانت ولادة عيسى ابطلا صارخا لهذه النظرية ، فان المعتاد فى الحياة الحيوانية ومنها الحياة الانسانية أن الولد يولد من أبوين ، أب ملقح ببذرة الوجود ، وأم تتلقى فى رحمها تلك البذرة ، أو الجرثومة كما يعبر العلماء ، أو المنى الذى يمنى كما عبر القرآن •

فجاء عيسى من غير أب ، وكان ذلك خرقا للأسباب الطبيعية الجارية ، وكان غريبا على مريم البتول •

واقراء قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم ، اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت بقيا ، قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت انى يكون لى غلام ، ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا ، قل كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا • وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فان أكلم اليوم انسيا ، فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك أمرا سوء وما كانت أمك بغيا ، تأسارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال انى عبد الله

أتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ، ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (١) .

هذه كلها خوارق تتبىء عن أن الله خلق الكون بارادة سرمدية ، وولادة عيسى نفسها أول خارق للعادة ، ولذا قال الشهر ستانى ان وجود عيسى ذاته معجزة . وأكدت معجزة الایجاد من غير أب بمعجزات أخرى ، أو بخوارق عادات أخرى ، أولها الرطب الجنى من النخل بهزه ، ومناداته لها وهو فى المهد ، وحديثه فى المهد حديث الحكماء ، فكل هذه خوارق ، للأسباب والمسببات تدل على أن الایجاد والتصوير والتزييب كلها بارادة الله العليم الحكيم خالق كل شيء ، ومنها الأسباب والمسببات ، تعالى الله علوا كبيرا .

ومعجزاته عليه السلام من هذا القبيل الذى هو تحد حسى للأسباب والمسببات ، فقد قال تعالى بعد أن بعثه رسولا لله رحمة للعالمين : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص ، وأحیی الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون ، وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بأية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (١) .

هذه دعوة عيسى عليه السلام ، وفيها البينات الدالة على رسالته ، بما هو خرق حسى واضح يرى بالعين ، وليس خفيا يدرك بالمعنى ، هو يبرىء الأكمه الذى ولد أعمى ، والأبرص الذى عجز الطب الى الآن عن إبرائه ، وهو فوق ذلك يحيى الموتى باذن الله بالفعل لا بمجرد الامكان كما ادعى بعض المفسرين ، وهو روحانى ينبئهم

(١) آل عمران : ٤٨ - ٥١

• بما يأكلون وما يدحرون في بيوتهم •

وهل يسير كل هذا على قانون الأسباب والمسببات ، لكي نقول ما يقوله  
الفلاسفة يجب أن نلغى حكم العقول ، وبدهيات المدارك •

وقد ذكر سبحانه وتعالى معجزات أخرى في آخر سورة المائدة، فقد قال تعالى:

« يوم يجمع الله الرسل ، فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا ، انك أنت علام  
الغيبوب • اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك ، وعلى والدتك ، اذ أيدتك  
بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة  
والانجيل • واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى ففتفخ فيها فتكون طيراً باذنى  
وتبرىء الأكمة والأبرص باذنى واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كفتت بنى اسرائيل  
عنك ، اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم : ان هذا الا سحر مبين ، واذ  
أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، اذ  
قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء  
قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن  
تد صدقنا ونكون عليها من الشاهدين • قال عيسى ابن مريم ، اللهم ربنا أنزل  
علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك ، وأرزقنا وأنت خير  
الرازقين • قال الله انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فانى أعذبه عذابا  
لا أعذبه أحداً من العالمين » (١) •

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمات ذكرت بعض المعجزات السابقة ، وأضافت

ليها معجزتين أخريين :

احدهما : أنه ينادى الموتى من القبور فتخرج • وذلك فى قوله تعالى « واذ

تخرج الموتى » •

والثانية : أن الله تعالى أنزل عليهم مائدة من السماء •

١٦٣ — ونرى من هذا أن الخوارق للعادات كثرت على يد عيسى عليه السلام ،

وكان وجوده ذاته خارقا للعادة ، اذ ولد من غير أب كما بينا ، وكلها تدل على أن كل شيء في الوجود هو بارادة مختار ، فعال لما يريد •

وما كان ذلك الا ابطالا لنظرية وجود الأشياء بالفلسفة التي سادت في العصر الايوني ، ثم انتقلت الى اليونان • وأخذت تتسع حتى كانت الافلاطونية الحديثة التي التفت مع النصرانية المحرفة غير المسيحية الاولى في نظرية العلية فجعلت العقل الاول هو الاب ، والعقل الثاني هو الابن ، ثم كانت بعد ذلك الروح القدس المنبثقة من الاثنين أو أحدهما •

ووجود المسيح ، وحياته ، وما أجراه الله تعالى من خوارق للعادات ، كانت تحيط بكل تصرفاته ، وأعماله ، وكل ذلك كان حججا قاطعة مثبتة أن العالم كله مخلوق بارادة حكيم قادر قهار سميع بصير مريد مختار •

١٦٤ - وان قصة أهل الكهف التي أشرنا إليها في بعض ما قلنا • وقد حدثت بعد المسيحية على ما يبدو من وقائعها كانت فيها ارادة الله ظاهرة في بيان سر هذا الوجود ، وأن الفاعل له مريد مختار لا يتقيد في ايجاده لخلقه بأن يكون وجود الأشياء مربوطا بالعلة والمعلول ، بل هو مربوط بارادة حكيم يفعل ما يشاء ويختار ولننتلها عليكم ، ولا مانع من تكرار تلاوتها ، ان كنا قد تلوناها هي من قبل •

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا ، اذ آوى الفتية الى الكهف ، فقالوا ربنا آتتنا من لدنك رحمة ، وهبىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، أنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم ، اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططاً ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، واذا اعتزلتموهم ، وما يعبدون الا الله ، فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهوىء لكم من أمركم مرثقا ، وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن

يضل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وتحسينهم أيقاظاً ، وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولما كنت منهم رعباً ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم بزرع منه ، وليتلفظ ، ولا يشعرن بكم أحداً ، انهم ان يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا اذا أبدأ ، وكذلك أعرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، اذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لننخذن عليهم مسجداً ، يقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم الا قليل ، فلا تمار فيهم الا مراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحداً ، ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ، ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ، أبعصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه أحداً (١) » •

وان المفسرين والمؤرخين للديانات يقررون أنهم مسيحيون مؤمنون بالمسيحية الحق التى جاء بها عيسى عليه السلام • وأنهم فروا بدينهم من الرومان الذين أرهقوا المسيحيين الصادقين من أمرهم عسراً ، حتى كان نيرون اللعين ، كان يطليهم بالقار ، ويشعل فيهم النيران ، ويسيرهم فى موكبه ، وهو فخور مختال بنتاك المشاعل البشرية •

وإذا كان القرآن الكريم ذكر أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين ، وازدادوا تسعاً ، فإنه يكون ظهورهم ، فى وقت ظهور الأفلاطونية ، التى نسخت النصرانية ، والتى دخل فيها قسطنطين بعد أن ابتداء بالسير بها فى طريق الثلاث الأفلاطونى الذى بنى على أساس أن الكون ظهر من الأول ظهور المعلول عن علته •



فكانت واقعه اهل الذهب ، وظهورهم بعد ثلاثمائة سنة وتوسع ، وهى وقت الانحراف المسيحى فى الاعتقاد دليلاً قوياً على بطلانه ، وعلى بطلان الأساس الذى قام عليه ، وهو مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى يقوم على أن الموجودات علة لمعلول ، وليست من خالق مرید قادر .

١٦٥ — أطنبنا بعض الاطناب فى ذكر الخوارق التى هى بعض ما جاء فى القرآن الكريم ، وذلك لأمرين : أولهما أن التوحيد الذى هو لب العقيدة الاسلامية ، بل هو اللب فى كل الأديان السماوية يقوم على أوصاف ثلاثة . وحدة الخالق فى انشائه الكون ، ووحدانيته فى ذاته ، فهو منزه عن المماثلة للحوادث ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ، ووحدة المعبود ، وهو الله سبحانه وتعالى .

الثانى أن الله تعالى مرید مختار فعال لما يريد ، وأنه أنشأ كل ما فى الوجود بإرادته وقدرته ولم ينشأ عنه نشوء المعلول عن علته .

الثالث ثبوت الرسالة الإلهية للمصطفين من خلقه ولا تثبت الرسالة إلا بأمره . الأمر الثانى الذى من أجله أفضنا فى ذكر بعض الخوارق ، ولم نضن على القرطاس فيه أن بعض الذين يجعلون أمور الدين خاضعة للتجارب ويحسبون أنهم يخدمون القرآن ، يدعون أن رسالة محمد قامت على العقل ، ولم تقم على الخوارق ، وأن القرآن الذى هو حجة محمد الكبرى خاطب العقول ، ولم يخاطب بالخوارق ، وجرت عباراتهم بما يفيد أن الاسلام لا يعرف الخوارق ، الى درجة أن بعض علماء اللاهوت المسيحى سألنا هل القرآن يعارض الخوارق والمعجزات ، فأجبنا سؤالهم لابان القرآن سجل معجزات الأنبياء ، وها نحن أولاء نبين بعض ما فى هذا السجل الاخالد .

## البعث واليوم الآخر

١٦٦ — ان العالم يتنازع فيه الخير والشر ، والشر ربما يتغلب على الخير ، وفى الناس الأخيار والأشرار ، وقد يغلب أهل الشر على أهل الخير ، وعدل الله يوجب أن تكون العقاب للأخيار ، وأن تكون للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، والله سبحانه جعل الخير والشر لحكمة أرادها ليبنتلى الانسان اما شاكراً واما كفوراً ،

ولم يخلق الانسان عبثا ، ولم يجعله سدى بل انه مسئول عن فعله ان خيراً فخير،  
وان شراً فشر •

وان ذلك يقتضى ألا تكون هذه الحياة هى الحياة الدنيا وحدها ، بل لابد من  
حياة أخرى تكون للأخيار الذين لم ينتصر خيرهم فى هذه الحياة ، ولا تكون  
للأشرار الذين غلبوا الأخيار ظلماً واعتدوا وفتنوا الناس فى أمورهم •

ولذلك كانت الحياة الآخرة وبيانها من مقاصد الأديان السماوية ، فلا يوجد  
دين سماوى الا كان الايمان بالبعث والحساب ، والثواب والعقاب من أركان الايمان •

ولذلك جعل القرآن الكريم الايمان بالغيب أول أجزاء الايمان فقد قال الله  
تعالى فى أوصاف المؤمنين : « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيّمون الصلاة ، ومما  
رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة  
هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (١) •

وترى أن أول وصف للمؤمنين هو الايمان بالغيب فلا تستولى عليهم مادة  
الحياة ، ولا يسيطر عليهم سلطانها ، فان فرق ما بين الايمان والزندقة الايمان  
بالغيب ، فمن حسب أنه لا وجود الا للمادة المشاهدة المحسوسة ، فهو ليس بمؤمن  
وليس عنده استعداد للايمان الا من رحم ربك •

وقد ختم الله سبحانه وتعالى أوصاف المؤمنين بقوله تعالى « وبالآخرة هم  
يوقنون » فأوجب الايمان بالآخرة وأكدته بتقديم الجار والمجرور ، أى أن الآخرة  
وحدها هى الجديرة بالايمان ، وأنه لا ايمان الا باليقين الذى لا مجال للريب فيه،  
وان رقى الانسان فى أن تكون حياته غير مقصورة على الدنيا ، لأن التكليف شرف ،  
وهو يقتضى تحمل التبعات ولا سبيل لتحمل التبعات الا أن يكون ثمة يوم يجرى  
فيه الحساب والثواب والعقاب •

ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى الذين لا يؤمنون بلقاء الله تعالى بأنهم  
الخاسرون « قد خسروا الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة ، قالوا

ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحسبون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرعون ، وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون « (١) » .

نعم خسر الذين لا يؤمنون بالآخرة ، خسروا انسانيتهم ، فقد حسبوها عبثا ليس لها غاية ، وخسروا العزاء اذ شقوا فيها ، فان الايمان بالآخرة عزاء روى لمن يؤمن بها فيتحمل شقاء الدنيا لينال نعيم الآخرة ، وأنهم لم يترقبوا اللقاء ، فلم يستعدوا بالعمل الصالح .

وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن الانسان يكون مخلوقا سدى كالهمل ان لم يكن هناك يوم آخر ، حيث قال « أychب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطقاً من منى يمنى ، ثم كان علقه فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » (٢) .

١٦٧ - ولذلك عنى القرآن الكريم باثبات حقيقة البعث ، وبين الحال فى الحياة الآخرة وكان خطاب القرآن لقوم لا يؤمنون بالبعث ، ولا يدركون الا الحياة الدنيا ، ويقولون ان هى الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين .

وان عقيدة البعث لب الايمان ، وغاية من غايات الرسائل الالهية ، ولذلك تجد القرآن يحثنى ببيان حقيقة البعث ، وتنبيه العقول اليه ، وما من موضع فى القرآن الكريم ، الا ذكر فيه البعث وقيام الدليل عليه ، بقياس قدرة الله تعالى على الاعادة على قدرته على الابتداء ، وأن البعث تكون الحياة الدنيا من غيره عبثاً لا جدوى فيها كما قال تعالى : « أفحسبتم أنما خلفناكم عبثاً ، وأنكم اينا لا ترجعون » (٣) .

وانقبس قبسة من الآيات الكريمة التى تدعو الى الايمان بالبعث ، وتبين أن المشركين فى ضلال اقرأ قوله تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا أينا لفى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٤) .

انهم يعجبون من أنهم بعد أن يصيروا تراباً يخلقون خلقاً جديداً ، بل انهم يعجبون من أن تدخل أجسامهم بعد البلى في أجسام أخرى ثم تبعث ، فيبين سبحانه وتعالى قدرته على ذلك ، فيقول تبارك وتعالى :

« قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذي منطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا » (١) •

ولقد يقولون مستغربين « من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فماذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ، انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون » (٢) •

وترى من هذا أن الذين ينكرون البعث ينكرون مع ذلك قدرة الله تعالى ، بل ينكرون أصل الرسالة الالهية الى خلقه ، اقرأ قوله تعالى في سورة ق « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقل الكافرون هذا شيء عجيب ، إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريب » (٣) • ويقول سبحانه : « أفعمينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من خلق جديد » (٤) •

وهكذا نرى المنتبِع لآيات القرآن يجد مجادلة فى أمر البعث ، فانكار البعث مقتدرن بالكفر ، ومقتدرن بانكار الرسل ، والقرآن يرد على المنكرين انكارهم بمنطق العقل والحق ، فان الله خلق السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى يملك الرزق فى السماء والأرض ، وهو الذى أنشأ الحياة والأحياء ، وبقياس الغائب على الشاهد يثبت بلا ريب أن القادر على الانشاء قادر على الاعادة ، وأن من آمن الادراك ،

(٣) ق : ١ - ٥

(٤) ق : ١٥

(١) الاسراء : ٥٠ - ٥٢

(٢) يس : ٧٨ - ٨٣

وفساد التفكير أن يحسبوا أن شمة عائقاً يعوق المنشىء الأول عن الاعادة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً •

## يوم القيامة

١٦٨ — هو اليوم الذي يضطرب فيه الكون ، والشمس تكور ، والنجوم تنكدر ، والجبال تسير والعشار تتعطل ، ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموعودة سئلت بأي ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت ، علمت نفس ما أحضرت » (١) •

وان يوم القيامة يقتزن بخروج من في القبور والبعث ، كما قال تعالى : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك ، فسواك فعدلك ، في أى صورة ما شاء ركبك ، كلا بل تكذبون بالدين ، وان عليكم لحافظين كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » (٢) •

وان الله سبحانه وتعالى يسمى يوم القيامة الساعة ، لأنه ساعة الهول الأكبر ، وقد قال تعالى في وصفه :

« يأيها الناس اتقوا ربكم ، ان زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد » (٣) •

وكما سماها الله تعالى الساعة سماها أيضا الحاقة ، والقارعة ، فمثل تعالى : « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة » (٤) • ويقول سبحانه في وصف الكون ، وقت هذه القارعة : « فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة ،

(١) الانفطار : ١ - ١٢

(٤) الحاقة : ١ - ٤

(١) التكويد : ١ - ١٤

(٢) الحج : ٢ - ٣

وحملت الأرض والجبال ، فدكتنا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء ، فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (١) .

وقال تعالى في وصفها بالقارعة : « القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كإفراش المبثوث ، وتكن الجبال كالعهن المنفوش » (٢) .

وعلم الساعة خفى عن الناس ، وعن الأنبياء والمرسلين ، فهي من علم الغيب الذى استأثر به علم الله تعالى ، حتى يسير الناس فى أعمالهم ، وبارادتهم ، ويتحملون تبعه الأعمال ، وقد قال تعالى « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تاتينكم الا بغتة ، يسألونك كأنك خفى عنها ، قل انما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ، الا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (٣) .

ولقد قال الله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوماً لا يجزى والد عن واده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، ان وعد الله حق ، فلا تغرکم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » (٤) .

## الميزان والحساب

١٦ — اذا كان يوم القيامة هو اليوم الذى يبعث فيه ما فى القبور ، وقد حدثنا القرآن الكريم فى علمه عن ذلك بتفصيل واضح تطمئن اليه العقول والقلوب ، فانه بعد قيام القيامة يكون الحساب على ما قدم المرء من أعمال الخير ، ويحاسب الأشرار على ماقدموا من شر ، ولذلك نجد النصوص القرآنية تقرر الحساب

(١) الحاقة : ١٣ - ١٧ (٢) القارعة : ١ - ١٥ (٣) الاعراف : ١٨٧ - ١٨٨

(٤) لقمان : ٢٣ - ٢٤

والميزان ، وان الناس منتهون من بعد الحساب اما الى الجنة واما الى السعير ،  
اقرأ من سورة الواقعة قوله تعالى :

« اذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، اذا رجت الارض  
رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ، وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب  
اليمين ما أصحاب اليمين ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون  
السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولي ، وقليل من الآخري ،  
على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين • الخ » (١) •

وانه يجيء كل انسان ومعه كتابه فيه حسناته وفيه سيئاته قال تعالى :

« وكل انسان أئزمناه طائرله فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه  
منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، من اهتدى فانما يهتدى  
لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين  
حتى نبعث رسولا » (٢) ويقول سبحانه وتعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ،  
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ، يوم ندعو كل اناس بامامهم ، فمن اوتى  
كتاباه بيمينه ، فأولئك يقرءون كتابهم ، ولا يظلمون فتىلاً ، ومن كان فى هذه أعمى  
فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » (٣) •

ويقول سبحانه بعد وصف يوم القيامة فى سورة الحاقة « يومئذ تعرضون  
لا تخفى منكم خافية ، فأما من اوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم افرعوا كتابيه ،  
انى ظننت انى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها  
دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من اوتى كتابه  
بشماله فيقول ياليتنى لم اوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ،  
ما أغنى عنى مالىه ، هلك عنى سلطانيه » (٤) •

(٢) الاسراء : ١٣ - ١٥

(١) الواقعة : ١ - ١٦

(٤) الحاقة : ١٨ - ٢٦

(٣) الاسراء : ٧٠ - ٧٢

ويقول سبحانه في سورة القارعة بعد ذكر يوم القيامة وهوله « فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ما هي نار حامية » (١) •

## الجنة والنار

١٧٠ — فصل القرآن الكريم أحوال أهل الجنة ، وما فيها من نعيم مقيم ، وأحوال النار ، وما فيها من عذاب أليم ، وبين ما يجزى الله تعالى به عبادة المتقين ، وما يعاقب به الذين استحوذ عليهم الشيطان •

ولنضرب لذلك أمثلة مما ذكره من أحوال الجنة ونعيمها ، فقد قال تعالى :

« مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة لشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم » (٢) •

ويقول سبحانه في وصف أهل الجنة • وهم فيها « والسابتون السابقون أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق ، وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ، وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، الا قليلاً سلاماً سلاماً ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، انا أنشأناهن انشاءً ، فجعلناهن أبقاراً ، عرباً أتراباً ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين » (٣) •

وقال تعالى في وصف الجنة ووصف النار : « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تضلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسعيها

(٣) الواقعة : ١٠ - ٤٠

(١) الاسراء : ٧٠ - ٧٢

(٢) محمد : ١٥



راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لافية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ،  
وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبتوتة ، أعلا ينظرون الى الأبد  
كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الارض  
كيف سطحت ، فذكر انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وحمر ،  
فيعذبه الله العذاب الأكبر ، ان لنا ايايهم ، ثم ان علينا حسابهم (١) » •

ويقول سبحانه في وصف الجنة : « ولن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء  
ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى  
آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكتين  
فيها على فرش بطائنها من استبرق ، وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ،  
فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ،  
كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الاحسان الا  
الاحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ،  
مدامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما  
تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان  
فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات في الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ،  
لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكتين على رفرف  
خضر وعبقري حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذي الجلال  
والاكرام » (٢) •

١٧١ — وقد ذكر القرآن أوصاف النار التي هي جزاء الكافرين ، الذين  
استكبروا عن أن يؤمنوا بربهم ، واتبعوا اغواء ابليس الرجيم ، ولنذكر بعض أمثلة  
من أوصاف الجحيم ، يقول الله تعالى :

« ان جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لا بئس فيها أحقاباً ، لا يذوقون فيها  
برداً ولا شراباً ، الا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، انهم كانوا لا يرجون حساباً ،  
وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، فذوقوا فلن نزيدكم الا عذاباً » (٣)

ويقول سبحانه في جهنم أيضاً : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون .  
 ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ،  
 وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم  
 الدين ، وما يكذب به الا كل معتد أثيم ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ،  
 كلا بل إن عى قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون .  
 ثم انهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون » (١) .

ويقول سبحانه في بعض ما يذوقه الكفار الضالون «وأصحاب الشمال ما أصحاب  
 الشمال في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، انهم كانوا قبل  
 ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون اذا مننا وكنا  
 ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو أبأؤنا الأولون ، قل ان الأولين والآخرين ،  
 لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ، ثم انكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من  
 شجر من زقوم ، فمائلون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون  
 شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، نحن خلقناكم فلولا تصدقون » (٢) .

ويقول سبحانه وتعالى في جزاء اتباع ابليس وذكر ذلك في أصل عصيان ابليس  
 عندما طاب سبحانه وتعالى منه السجود ، فلم يسجد ، يقول سبحانه : « واذ قال  
 ربك للملائكة انى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه  
 من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس أبى أن  
 يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن  
 لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم ،  
 وان عليك اللعنة الى يوم الدين ، قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من  
 المنظرين ، الى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتنى لأزینن لهم فى الأرض ،  
 ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ، ان  
 عبادى ليس لك عليهم سلطان ، الا من اتبعك من الغاوين ، وان جهنم لموعدهم

أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » (١) •

وهكذا نرى وصف الجحيم مبثوثاً في القرآن ، لأنه جزاء وفاق على الشر ، ولأن جزاء الاحسان على الاحسان ، كما قال تعالى : «لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ» (٢)

١٧٢ — وان القرآن الكريم قد جمع بين صفتيه بيان العقيدة الاسلامية التي لا يسع مسلماً أن ينكرها ، ومن أنكرها يقال له : « نكب » • كما قال الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه •

وان العقيدة كلها قائمة على الايمان بوحدانية الله تعالى ، وعدله سبحانه وأنه الفاعل المختار ، وأنه المجازى بالاحسان احساناً ، ويعاقب من يخرج عن الجادة ، ويكون من المفسدين •

وبالبناء على عقيدة الوحدانية ، وأن الله تعالى فاعل مختار ، وأنه العادل كان بعث الرسل ، وكانت المعجزات الخارقات لما يعرفه الناس من الأسباب والمسببات ، وكان العدل الالهى موجباً أن يكون ثمة بعث ، وحساب ، وعقاب ، وثواب ، وكل امرئ بما كسب رهين •

## البعث والجنة والنار أمور حسية

١٧٣ — يحلو لبعض المتفلسفين من الكتاب في الماضي أو يقولوا ان البعث والجنة والنار ، والحساب والعقاب والثواب أمور روحية معنوية ، وليست أموراً حسية ، وذلك قد جاء من نقص ايمانهم بالغيب ، وباطل ما يقولون وما يعتقدون فاذا كان البعث معنوياً للأرواح ، فلماذا يعجب المشركون من أنهم بعد أن يكونوا تراباً يعودون ، فان عودة الأرواح لا يقتضى أن يكون ذلك الاستنكار ، اذ أن الأجساد التي صارت لاتعود • وكان الرد عليهم سهلاً ، بأن يقال لهم ان أجسامكم لاتعود ، بل أرواحكم هي التي تعود •

وإذا كان البعث مادياً بصريح القرآن الكريم ، فإن الجزاء يكون لأحياء بأرواحهم وأجسادهم ، والنتيجة المنطقية لهذا أن يكون نعيم أولئك الذين بعثوا من قبورهم ، نعيماً لأجسادهم وأرواحهم ، ونعيم الأجساد مادي لا محالة ، ولذلك يجب الإيمان بأن نعيم الجنة وعذاب النار ماديان ، وليساً معنويان فقط ، لأن البعث حق ، ويجب التنبيه الى أن حقائق اليوم الآخر سواء أكانت معنوية أم كانت مادية لا تتسع لها لغتنا ، وأي لغة من اللغات ، لأنها أعلى من مستوى حياتنا ، ونحن نعتبر على ما هو من معاشنا ، وفيما هو في طاقتنا •

ولكن تعبير القرآن عن الآخرة وما فيها هو باللغة العربية ، وإن كانت أعلى مما يستطيعه البشر •

ولذلك كانت تعابير العربية لتقريبها من مألوفنا ، ولكي نتسامى الى معرفة ما ينتظر المتقين من نعيم مقيم ، وما ينتظر العصاة من عذاب مهين •

ولقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت » • وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عبارات القرآن ، فيما يتعلق بالجنة والنار ، مجازية في ألفاظها •

ولكن مع إيماننا بهذه الحقائق ، يجب أن نقرر أن ما ذكر من رمان ، وعسل مصفى وخمر لذة للشاربين ، هي مما يجوز اطلاق هذه الأسماء عليه ، ولكنه نوع آخر • ليس من جنس الأنواع في حياتنا هذه ، وإن كان لها اسمها ، ولذا وصفت خمر الآخرة بأنهم لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، ولكن فيها لذة للشاربين •

هذه كلمات نقولها في ختام بحثنا عن يوم القيامة ، وما يجرى من بعده من حساب وعقاب وثواب •

والقرآن الكريم روضة يانعة مستمرة فيها الحقائق عن الغيب كله بمقدار ماتدركه عقولنا ويقرب الى أفهامنا ، والحقائق كاملة في غيب الله ، اللهم اكتبنا من الشاهدين •

## علم الحلال والحرام

١٧٤ - علم الحلال والحرام في الاسلام مصدره القرآن، وهو الشريعة العملية، والأحكام التكليفية وما من أمر شرع بالسنة الا كان مرجعه الى القرآن ، فهو كلى هذه الشريعة ، حتى لقد قال العلماء انه لا يوجد حكم شرعى الا كان له أصل في القرآن ، والسنة النبوية الكريمة بينته ، أو شرحته ، ولقد طار بعض الملحدين بهذه الحقيقة • وزعموا أنه يمكن الاستغناء بالقرآن عن السنة وذلك هو الافتيات على الحقائق ، لأن السنة مبينة القرآن ، كما قال تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (١) • وكما قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » (٢) •

فاهمال السنة والاقتصار على الكتاب ضلال مبين ، أو تضليل أثير ، انما هما يتعاونان في بيان أحكام الشريعة ، والسنة تفصيل لما أجمل الكتاب ، وتوضيح لما عساه لا تدركه الأذهان •

أمر الله تعالى بالصلاة ، ولم يذكر أركانها ، ولا شكلها ، وترك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيانها ، فبينها بالعمل ، وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلى » وتضافرت بذلك الأخبار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصار العلم بالأركان والكيف من أصول الدين ، والعلم بها ضرورى ، من أنكره فقد أنكر شيئاً علم من الدين بالضرورة ، فهو كافر ، وكذلك الأمر في الزكاة ، ذكرت مجملة وبينها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطبقها وجمعها ، حتى أن من ينكرها يخرج عن الاسلام •

١٧٥ - وقد ذكر القرطبي أن من أوجه اعجاز القرآن علم الحلال والحرام فيه ، وقد وافقناه على ذلك تمام الموافقة ، وذلك لأن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع واقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة ، لم يسبق به في شريعة من الشرائع الارضية ، واذا وزنا ما جاء

(١) النحل : ٤٤

(٢) النساء : ٦٥

في القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الاصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن ، وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور ، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية في تجارب ثلاثمائة سنة وألف من وقت انشاء مدينة روما الى مابعد خمسمائة من الميلاد ، ومع أنه قانون تعهده علماء قليل انهم ممتازون منهم « سولون » الذي وضع قانون أثينا ، ومنهم ليكورغ « الذي وضع نظام اسبرطة » .

فجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومع القرآن الذي ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى ، من غير درس درسه ، وكان في بلد أمي ليس فيه معهد ، ولا جامعة ، ولا مكان للتدارس وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الانساني ، لم يسبقه سابق ، ولم يلحق به لاحق .

وقد كتبنا في هذا بما فيه بيان للناس (١) . والآن نكتفي بالاشارة الى موضوعات الأحكام من غير إطناب تتميما لأجزاء الموضوع ، والتفصيل في موضعه مما كتبنا .

## العدالة

١٧٦ — كل النظم الاسلامية قامت عنى العدالة ، اذا كانت الشعارات تدعو الى التسامح ولو مع الظالم ، ويقول قائلها : استغفروا لأعدائكم ، فالاسلام يقول اعدلوا مع كل انسان ولو كان عدوا مبينا . ومكان التسامح في الأمور الشخصية ، لا في الأمور التي تتعلق بتنظيم العلاقات الانسانية . ولذا يقول الله سبحانه وتعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (٢) .

ولقد قال العلماء ان هذه الآية أجمع آية لمعاني الاسلام ، ويروى في ذلك أنه عندما شاعت دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الارض العربية ، وتناقلتها الركبان ، أرسل حكيم العرب أكثم بن صيفى ولده ليسألوا محمدا صلى

(١) كتبنا في ذلك رسالتين احدهما بعنوان شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله ، ورسالة للامكية بالخلافة في الشريعة والقانون الروماني ، وقد طبعهما مجلس الشؤون الاسلامية وترجمهما

(٢) النحل : ٩٠

الله تعالى عليه وسلم عما يدعوون فتلا عليهم هذه الآية : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » الآية . فرجعوا الى أبيهم وذكروا له ما سمعوا ، فقتل الحكيم العربي : ان هذا ان لم يكن ديننا فهو في أخلاق الناس أمر حسن ، كونوا يا بنى في هذا الأمر أولا ، ولا تكونوا آخرا .

والعدل ليس موالاته الاولياء ، وظلم الاعداء انما العدالة للجميع على سواء ، والله تعالى يقول مخاطبا أهل الايمان « ولا يجرمكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (١) فالعدالة مع الاعداء المبعوضين كماله مع الاولياء المحبوبين أقرب للتقوى .

ويقول سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً ، فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً » (١) .

وان هذه الآية تدل على أمور ثلاثة : أولها أن العدالة في ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات الى الله تعالى ، والعدالة في كل شيء وفي كل عمل ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : « كونوا قوامين بالقسط » في كل أعمالكم سواء أكنتم حكاماً أم كنتم محكومين ، وأن تكونوا شهداء لله لا لأنفسكم ، ولا لأوليائكم والأقربين منكم .

الأمر الثاني الذي تدل عليه الآية ، أن الاعراض عن الحكم ظلم ، أو تمكين للظالمين ، فالسكوت عن رد الباطل ظلم ، والمؤمن يجب عليه أن يقوم بالحق ، وأن ينصر الحق ، وأن يؤيد الحق حيثما كان .

الأمر الثالث الذي تدل عليه دلالة صريحة أنه لا طبقية في الاسلام بالغنى والفقير ، فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ، بل الجميع أمام العدالة على سواء ، « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء » (٢) .

(١) المائدة : ٨ (٢) النساء : ١٣٥ (٣) النحل : ٧١

١٧٧ — ولا تفرقة بين العناصر في تحقيق العدالة ، فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق على ألوان مختلفة ، ولكنهم جميعاً خلق الله تعالى ، وان اختلاف الألوان والألسنة من آيات الله تعالى الكبرى ، فهو يقول سبحانه في كتابه العزيز الخالد بلفظه ، وحفائقه ، ومعانيه : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين » • والجميع عباد الله تعالى ، فلا يصح أن يظلم زنجى للونه ، ولا يحابى أبيض لشقرته ، ولقد صرح بذلك القرآن ، فقال تعالى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) •

وان هذا النص الكريم ينبىء عن ثلاثة معان سامية توجب المساواة بين الأجناس ، لأن الأصل واحد ، وهو الام ، والاب ، كما قال النبي عليه السلام « كلكم لأدم ، وأدم من تراب لافضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى » •

المعنى الثانى الذى دلت عليه الآية الكريمة أن الاختلاف فى الشعوب والقبائل والأجناس يوجب التعارف ، ولا يسوغ التخالف ، والتعارف يقتضى تعاون أبناء الأرض على استغلال كل ينابيع الثروة فى الأرض ، بحيث يفيض أهل كل اقليم على الآخر يفاضل ما عنده ، من غير يفسد ولا شطط ، ومن غير من ولا أذى ، ويقتضى المساواة فى أصل الحقوق الانسانية الثابتة من اتحاد الأصل ، ويقتضى العدالة ، ولا يرهق جنس آخر يظلم ، أو أذى ، أو مضايقة ، أو استعباد •

والمعنى الثالث الذى يدل عليه النص الكريم ، أن الفضل لا يكون بالجنس والعشيرة بل يكون التفاضل بالعمل الصالح الذى يتقى به صاحبه وجه الله تعالى ، والذى لا يريد به الا النفع العام ، ودفع الفساد فى الأرض ، فالأكرام ليس باللون ، ولا بالسامية أو الآرية ، إنما الأكرام بالعمل لخدمة الانسانية ، وان النصوص القرآنية كلها تدعو الى التراحم بين الناس ، فالله تعالى يقول : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث متهما رجالاً كثيراً ونساء ،



واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيباً » (١) •

ونص القرآن على الوحدة الانسانية ، فقال تعالى : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » (٢) •

## العدالة الدولية

١٧٨ — والعدالة كما تكون بين الآحاد تكون بين الجماعات والدول فقد قامت العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس العدالة • فلا يظلمون شيئاً ، ولا يمتنعون من خير ، والناس جميعاً نسبتهم الى الله واحدة لقد كانت الدول حتى التي بلغت شوطاً من الحضارة في عهد نزول القرآن كالفرس والرومان واليونان لا تعترف بأى حق لغير المستوطنين معهم ، فغيرهم يعدون يرابرة ، وليسوا منهم في شيء حتى ان الاسرائيليين الذين يعيشون في حكم الرومان لا يعتبرون رومانين ، ولا يمتحنون هذه الرعوية ، وتلك الجنسية ، باعتبار أن الجنسية الرومانية شرف لا يحوزه الا الرومان ، وكذلك كان الفرس •

وان من يعيش في بلد آخر يسرقونه ، حتى أن أفلاطون جرى عليه الرق ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل الاسلام قد ذهب الى أرض الروم فاسترقه فسييس روماني ، وأظهر عمر الاستسلام ، حتى اطمأن اليه القسيس وخرج معه الى الصحراء في أرض الشام ، فلوى عمر رقبتة — وكان قوياً في بدنه ، كما صار من بعد قوياً في ديبته — وقتله ، وهرب بحريته •

جاء القرآن الكريم فحارب التعصب القبلي ، والتعصب الجنسى ، والتعصب الاقليمي ، وجعل الناس كما رأيت أمة واحدة ، لا فرق بين عربى وغير عربى ، كما أشرنا •

وقامت بذلك العلاقة الدولية على أسس العدل ، قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » (٣) • وقال جل وعلا

(٣) البقرة : ١٩٣

(١) النساء : ١

(٢) البقرة : ١٠٥

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (١) •

وقال تعالى : « وأن عاقبتهم ، فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (٢) •

وقد نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن العصبية الجاهلية ، وبالأول كان النهى عن العصبية الاقليمية ، ولقد سئل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ، قال : لا ، وان من العصبية أن يعين قومه على الظلم •

وسيكون لذلك شيء من البيان عندما نتكلم عن العلاقات الدولية التي نظمها القرآن •

ومهما يكن من ايجاز في هذا المقام ، فانه يجب أن نشير الى أن شرائع القرآن قسما عبادات ومعاملات مالية واجتماعية ، وأساس العلاقات المالية والاجتماعية العدالة •

## الأحكام الفقهية في القرآن

### ١ - العبادات :

١٧ - قد ذكر القرآن الأوامر التكليفية في العبادات بالاجمال ولم يتعرض لها بالتفصيل كما أشرنا من قبل ، فالصلاة ، تعرض النص القرآني لها بالأوامر بالتكليف بها ، والغاية منها ، وهو اصلاح النفوس ، وتزكية القلوب ، وتربية الوجدان • كما قال تعالى : « ان الصلاة تنتهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر » (١) • وكما قال تعالى في وجوبها ووجوب الوضوء والاعتسال : « اذا قمتم الى الصلاة ، فاغسلوا وجوهكم ، وأيديكم الى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين • وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا » (٢) •

وجاء الأمر المؤكد بالصلاة في قوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » (٣) •

وكذلك كان الأمر بالزكاة مجملا ، ولم يبين القرآن شيئا من أحكامها ، ونصابها ومقاديرها ، ولم تذكر الا مصارفها في قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (٤) •

والحج من العبادات التي لم تبين أحكامها كلها تفصيلا ، بل ذكر القرآن بعضها ، وان لم يكن قليلا ، وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سائرها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم « خذوا عنى مناسككم » لقد بين القرآن أركان الحج وأشهره وموقفه ، وهديه ، والنبي عليه الصلاة والسلام فصل واجباته ، وكان بيانه أكثره عملي •

(٢) المائدة : ٦

(٤) التوبة : ٦٠

(١) المكنوت : ٤٥

(٣) البقرة : ٢٣٨

ومن العبادات الصوم ، وقد طالب القرآن به اجمالاً ، وذكر وقته ، والأعذار التي تبيح الفطر في الجملة ، وأشار سبحانه الى حكمة اختيار شهر رمضان لفرضية الصوم ، كما قال تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبيّنات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر ، فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام آخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر وانكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » (١) •

وهنا يرد على خاطر سؤال لماذا بينت العبادات بالقرآن اجمالاً مع تأكيد طلبها ، والتفصيل فيها ان استثنيت الحج ، كان قليلاً ، ولا يمكن أن تقام العبادة على وجهها مع ذلك الاجمال •

والجواب عن ذلك أن العبادات هي لب الدين ، وهي قوام اليقين ، وهي ذكر الله الذي به تطمئن القلوب ، وهي التي تربي الضمير وتنيره ، وتقيمه ، وهي التي تربي الضمير الجماعي ، والوجدان الانساني ، وروح التعاون بين الناس بعضهم مع بعض •

والعبادات هي قوام الجماعات ، لأن تكوين الجماعات لا يكون الا بأمر معنوي يوافق بينهم ويزيل النفرة ، وذلك بأن يكون المؤمن ربانياً يتجه الى رب الخلق ، ويسير على ميزان الحق •

ولهذه المعاني في العبادات ، وعموم تطبيقها على كل المؤمنين ، كان لابد من تربية عملية عاينها ، ومقدوة حسنة في تنفيذها ، وأسوة من الرسول في القيام بها ، وأن تتوارث تلك الأسوة الأجيال ، وتكون مع القرآن اتصال الرسالة المحمدية ، ولذلك تثبت أحكام العبادات التوصيلية بسنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتواترة التي عرفها المسلمون جمعاً عن جمع باقية الى يوم القيامة •

ولا شيء من العبادات يثبت بالقياس ، بل يثبت بايجاب القرآن ، وعمل الرسول عليه السلام •

٢ — الكفارات :

١٨٠ — الكفارات ، وهى تأخذ جانبيين: جانب العقوبة المادية على ذنب ارتكب، أو خطأ ترتب عليه أذى غيره ، وكان يجب الاحتراس من ذلك ، والجانب الثانى فيها معنى التقرب الى الله تعالى بالتوبة مقرونة بذلك الجزاء ، ولقربها من العبادات ذكرناها بجوارها ، وفوق ذلك هى درءا لتقصيرات فى العبادات نفسها ، فهى فى هذه جزء منها •

وعلى ذلك نقسمها من هذه الجهة الى قسمين أحدهما تعويض عن التقصير فى بعض العبادات ، أو استعمال الرخص ، أو العجز الكامل عن أداء الفرض ، ومن هذا القبيل رخصة الافطار للمريض بمرض مزمن ، والشيخ الفانى والشيخة اذا عجزا عن الصيام أو كانا لا يصومان الا بمشقة فوق الطاقة ، وقد ثبتت هذه الفدية بالقرآن الكريم ، قال تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » (١) أى الذين يبلغون فى صومهم أقصى الطاقة التى لا يمكن المداومة على تحملها ، ولذا قال ابن عباس انها نزلت فى الشيخ والشيخة اذا شق عليهما الصوم ، ومن الفدية التى تعد كفارة لبعض التقصيرات فى العبادات الهدى فى حال عدم القيام ببعض الواجبات التى لا تعد ركنا من أركان الحج ، وقد ثبت ذلك بالقرآن الكريم ، وعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن ذلك كفارة الصيد فى الحرم ، وقد ثبتت بالقرآن أيضاً ، اذ قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليلونكم الله بشيء من الصيد قتاله أيدىكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك ، فله عذاب أليم ، يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما ليدوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ، أحل لكم صيد البحر ، وطعامه متاعا لكم وللسارة ، وحرم عليكم صيد البر ، ما دمتم حرما ، واتقوا الله الذى اليه تحشرون » (٢) •

وهكذا ترى أن الكفارات هنا ثابتة بالقرآن الكريم ، وهى فى موضوع وهى سد لنقص ، أو لاعتداء فى عمل ما نهى الله تبارك وتعالى عنه •

وبجوار هذا النوع من الكفارات التي كانت درءاً لنقص أو لرخصة أو لعدم الاستجابة لأمر ، وموضوعها العبادة ، هناك كفارات أخرى هي في معنى العبادات في ذاتها ، ولكنها شرعت لمعنى خلقي أو اجتماعي أو لحقوق العبادات ، وهذا هو القسم الثاني •

ومن ذلك كفارة اليمين ، وهي عتق رقبة ، أو اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم وقد ثبت ذلك بقوله تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم » (١) •

وترى أن هذه الكفارة شرعت لمعنى خلقي ، وهو صيانة الألسنة عن كثرة الأيمان واخلافها ، والتعرض للمهانة ، كما قال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين » (٢) • وأيضا ، لكيلا يتخذ المؤمنون يمين الله حاجزا بينهم وبين فعل الخير ، ان حلفوا ، وبدا الخير في غير ما حلفوا عليه ، فشرع لهم تلك الكفارة تحلة لأيمانهم ، كما قال عليه السلام : « من حلف على شيء فرأى خيراً منه ، فليحنت وليكفر » •

• وان الكفارة ذاتها عبادة بدليل أنها كانت صوما في بعض أحوالها •

ومن الكفارات التي ذكرت في القرآن علاجا لحياء الأسرة ، ولنزع الظلم عن المرأة كفارة الظهار ، وهي كفارة من يحرم امرأته على نفسه ، ويجعلها كأحد محارمه من غير ارادة طلاق ، وما كان لشريعة القرآن أن تترك المرأة المظلومة فريسة لكلمات ينطق بها اللسان ايذاء ، وظلما • ولا يترك المكلم بها من غير عقاب لغوا عابثاً ، بل لا بد من رد الحق ، وعقاب العايب ، فكانت الكفارة ، وتثبت بقوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ،

فَلَنْ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَلْكَ حُدُودَ اللَّهِ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (١) •

ونرى أن هذه الكفارة فيها اقامة للحياة الزوجية على دعائم من المودة والأنس، النفسى من غير ايحاش ولا اعفات ، لأن النطق بهذه الكلمات وأشباهاها ، يلقى بالجفوة فى قلب الزوجة فلا تطمئن الى زوجها ، ولا الى الحياة الزوجية الكريمة المتوادة ، ولهذا كانت تلك الكفارة محافظة على هذه المعانى •

ومن الكفارات التى نص عليها القرآن الكريم كفارة القتل الخطأ ، فان الله أوجب الدية تعويضاً لأسرة المقتول وأوجب الكفارة اذا كان القاتل المخطئ من أهل التكليف ، وذلك لتعويض جماعة المؤمنين ، ولتربية النفس على الاحتراز من الخطأ ، والاحتياط له ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك :

« ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليماً حكيماً » (٢) •

وواضح أن الدية لتعويض الأسرة ، وهى تجب على أسرة الجانى لأسرة المجنى عليه ، وفى وجوبها على أسرة الجانى معنى التعاون الاجتماعى بين الأسرة فى دفع الأذى ، والحمل على المعاونة فى التأديب النفسى •

والكفارة فيها تعويض لجماعة المؤمنين ، لأنه بقتله لمؤمن قد نقص عدد المؤمنين ، فكان الواجب أن يعوض ما نقص بعق رقبة مؤمنة ، لأن العتق ، اعطاء الحرية ، والحرية كالحياة •

وفى الجملة ان الكفارات كلها التى جاء بها القرآن ، وبينتها السنة النبوية فيها معنى العبادة ، وفيها صلاح ، وفيها تعاون اجتماعى انسانى •

٣ — فى الأسرة :

١٨١ — قبل أن نتلو الآيات الكريمة التى تصدت لأحكام الأسرة وتنظيم

العلاقات بين آحادها ، أو نشير الى بعض تلك الآية الكريمة لا بد أن ننبه الى أمرين :

أولهما — ما ذكرناه آنفاً من أن العبادات قد ذكرت في القرآن اجمالاً وترك أمر بيانها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأشرنا الى ما أدركنا حكمته لعمل الله تعالى في شرعه وبيان أحكامه .

الأمر الثاني — أن الأسرة ذكرت أحكامها تفصيلاً من وقت تكوينها بعقد الزواج الى أن يقرر الله تعالى التفريق بالموت ، أو الطلاق ، وذكر أحكام الأسرة الممتدة غير المقصورة على الزوجين ، وما بينته السنة لا يعد كثيراً بالنسبة لما بينه القرآن الكريم .

ثم ذكر القرآن الكريم توزيع المال في آحاد الأسرة ، وفي الميراث ، ويكاد القرآن الكريم يستغرق كل أحكامه في تفصيل لا اجمال فيه .

وهنا يسأل سائل ، لماذا كان التفصيل في أحكام الأسرة ، ولم يترك أمرها لبيان النبي عليه السلام فقط ، ونقول في الجواب عن ذلك أن هذه حكمة علام العيوب ، واننا نتلمس معرفة بعض هذه الحكمة ، راجين ألا نكون داخلين في النهي في قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (١) .

وان هذا بلا ريب من عناية القرآن الكريم بالأسرة ، اذ جاء النص على أحكامها بآيات محكمة ، واذا كانت عناية الاسلام بالعبادات ، جعلت أحكامها عملية يتولى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتربي النفوس عليها بالدربة والتهديب ، لا بمجرد التلقين ، فعناية الاسلام بالأسرة كانت بالنص الكامل على نظامها ، لكيلا ينحرف الناس بأهوائهم عنها ، ولكيلا ينكروا تطبيقها ويجعلوا لعقولهم سبيلاً للتحكم في أموالها ، ونظامها ، ولأنها متصلة بالرضا والغضب بين الزوجين والأقارب ، فكان لا بد من ميزان مقرر ثابت يحكم الأهواء ، ويضع الأمور في مواضعها .



وان أحكام الأسرة مؤثرة في المجتمع وموجهة له لأن الأسرة هي دعامة البناء الاجتماعي يضطرب باضطرابها ، ويقوى بقوتها ، ولأن الاسلام جاء لاقامة مجتمع فاضل تربطه المحبة ، وتوثق روابطه المودة ، كانت عنايته بأحكام الأسرة ، وأن تكون مستقرة يتصل فيها ماضي الأمة بحاضرها •

ومن الناس من ظنوا أنهم يستطيعون اقامة بناء صالح للأسرة من غير أن يتقيدوا بأحكام القرآن الكريم باسم ما يسمونه « تطور الزمان » يقبلون فيه الأوضاع ، فتضطرب الموازين ، ومن الناس من يبالغون في اعطاء المرأة حقوقاً لا تقتضيها فطرتها ، ولا النظام الاجتماعي ، ويحسبون أنهم يسيرون بالجماعة الى الأمام ، وهم يرجعون بها الى الوراء ، حيث تفسد الطباع وتخالف الفطرة •

ولقد يقول بعض علماء الاجتماع ان النشأة الأولى في جاهلية الانسان كان فيها السلطان على الأولاد للمرأة كأنثى الحيوان ، أو أكثره ، حتى اذا عرف البيت ، وانتظمت العلاقة بين الرجل والمرأة ، وكان لكل واحد منهما ، ماهياته الفطرة له ، فالمرأة ترأم الأولاد ، وتقوم على رعايتهم ، والأب يكدح ويعمل ليوفر لهم الرزق •

والآن يحاولون أن يقلبوا الأمور ، ويضعوها في غير مواضعها حتى لقد قال بعض المفكرين اننا لو سرنا خطوات بعد ما ابتدأنا السير فيه ، وأوغلنا ، فستعود الأمور الى سيطرة المرأة على البيت ، ويكون الرجل غير مستقر في بيت ، ويكون نظام المسافدة •

من أجل هذا فيما ندرك وعلى قدر ادراكنا نص القرآن الكريم على أحكام الأسرة بالتفصيل ، حتى لا يتجهج المنحرفون ليشرعوا لأنفسهم ما لم يشرع الله ، ويفسدوا الفطرة •

ولقد كان سبحانه وتعالى بعد ذكر بعض أحكامها يقول جل شأنه : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار » (١) • ومن

ذلك قوله تعالى بعد بيان الموارِيث : « بين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم » (١) •

١٨٢ — وأحكام الأسرة التي تعرض لها القرآن الكريم نبتدىء من وقت انشاء الزواج أو التفكير فيه ، فأوجب الاعلان في الزواج ، فقال تعالى « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، أو أكننتم في أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ، ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفاً ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ، واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حلیم » (٢) •

وبين سبحانه وتعالى في كتابه أن المهر واجب على الرجل ، لأن كل الواجبات المالية على الرجل ، حتى لا تبتذل المرأة في كسب المال فتتدلى الى الهاوية ، وقد قال تعالى في ذلك : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شيء منه نفسا ، فكلوه هنيئاً مريئاً » (٣) وقرر أن المرأة مستحقة للمهر كاملاً بالدخول بها وقد قال تعالى في ذلك :

« وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتن احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، تأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » (٤) •

وإذا لم يتم بينهما عشرة زوجية ، وكان تفرق قبل الدخول ، فان المرأة لا تحرم من المهر حرماناً كاملاً ، بل يبقى لها نصفه ، ولأن الرجل لم تقم بينهما حياة زوجية يشتران عسلها ، فانه يسقط عنه النصف وذلك ما قاله سبحانه في القرآن الكريم ، اذ يقول : « لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن ، أو تفرضوا لهن فريضة ومنعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حتماً على المحسنين ، وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح

(٢) البقرة : ٢٣٥

(١) النساء : ١٧٦

(٤) النساء : ٢٠ — ٢١

(٣) النساء : ٤٠

«وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (١) •

والقرآن الكريم بين من يحل الزواج منهن ، ومن لا يحل بالنص وبعض البيان كان مستعلقا على بعض الأفهام ، فبينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اقرأ قوله تعالى :

« وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنْ كَانَ فُأْحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا • حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُ الْأَخِ ، وَبَنَاتُ الْأَخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرِبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، إِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَأَحْلَ لِكُلِّ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَعَهُ أَيْمَانُكُمْ مِنْ قُرْبَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْأَرْوَافِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَخَدَّاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أَحْصَنْ ، فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ، فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَإِنْ تَصَبَرُوا خَيْرَ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ ، وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٢) •

ولأن الإسلام يريد مجتمعاً فاضلاً طاهراً ، لا تشيع فيه الفاحشة ، أباح تعدد الزوجات الى أربع فقط ، وقد كان من قبله الى غير عدد محدود ، كما ذكرت التوراة •• فقال تعالى :

« وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » (١) ••• أي لا تظلموا •

وشرط اباحة الزواج في الأحوال كلها العدالة ، سواء أكان الزواج الأول أم الزواج الثاني ، ولقد أجمع الفقهاء على أن من تأكد أنه سيظلم امرأته ان تزوج يكون آثما ، لأن الزواج حينئذ يكون موصلا للظلم فيأخذ حكمه ، ولكن الزواج لا يبطل ، وليس للحاكم أن يقرر بطلانه أو يمنعه ، لكن اذا وقع الظلم بالفعل كان للقاضي أن يفرق بينهما ان طلبت الزوجة ذلك • وذلك لمقام النهي في قوله تعالى : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا يتخذوا آيات الله هزوا » (٢) •

١٨٣ — والإسلام اذ جعل دعامة العلاقات الاجتماعية الأسرة ، فقد دعمها القرآن بوصاياه الحكيمة التي يأثم كل الإثم من خالفها ، وتجانف لإثم في العلاقة الزوجية •

أولا : أمر الأزواج بالعدل وحسن المودة ، والعشرة الطيبة التي تقرب القلوب وتدنيها ، ولا تنفرها وتجنبها ، فقال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتهن فمعى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (٣) » • وقال تعالى : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » (٤) • وقد تلونا ذلك آنفا •

وأمر سبحانه وتعالى ثانيا : كلا الزوجين أن يعمل على اصلاح الآخر ، ان بدا منه اعوجاج ، فيقول سبحانه في القرآن العظيم : « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء التي لا تؤتوهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تتكوهن ، والمستضعفين من ولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما ، وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا ، فلا جناح عليها أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ،

(٢) البقرة : ٢٣١

(١) النساء : ٣

(٤) البقرة : ٢٣١

(٣) النساء : ١٩

وأحضرت الأنفس الشح ، وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً ،  
ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين الناس ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها  
كالمعلقة ، وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان عفورا رحيماً ، وان يتفرقا يعن الله  
كلاماً من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً » .

وأمر ثالثاً : بعلاج نشوز الزوجة ، وعلاج نشوزها ان لم يتمكن من الإصلاح  
بينهما من غير اطلاع غيرهما عليهما الا ان يكون من اهل الخير أو الجيران  
الصالحين ، فقال تعالى :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا  
من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافون  
نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا  
عليهن سبيلاً ان الله كان علياً كبيراً (١) » .

وأمر سبحانه في القرآن رابعاً : اخراج حكمين ان كان الشقاق متوقفاً ، ويخشى  
استمراره ، فقال تعالى :

« وان خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكماً من أهله ، وحكماً من أهلها ان  
يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيراً (٢) » .

والاسلام وزع واجبات الحياة الزوجية بين الزوج والزوجة توزيعاً عادلاً يتفق  
مع الفطرة من غير ظلم للمرأة ، ولا ارهاق ولا اذلال لها ، فجعلها قواماً على البيت  
تديره ، وتدبره ، وتربى ثمرة الزواج ، وعلى الرجل الانفاق ، ولقد قال تعالى في  
ذلك « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن سعييراً  
وان كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن ، حتى يضعن حملهن ، فان أرضعن لكم ،  
فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وان تعاسرتن ، فترضع له أخرى ،  
لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف  
الله نفساً الا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسراً » (٣) .

(١) النساء : ٣٤

(٢) النساء : ٣٥

(٣) الطلاق : ٦ - ٧

١٨٤ — ولقد تعرض القرآن لثمرات الزوجية ، وهي الأولاد ، وقد تعرض لبيان حالها ومدة الحمل ، والرضاع ، وحال الأم في حال الحمل ، فقال تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى اذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي انى ثبت اليك ، وانى من المسلمين » (١) . وان القرآن الكريم بين وقت ارضاعه وعلى من تجب ، وعلى نفقة الوالد ، وعلى من تجب ، فيقول سبحانه . « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بوادها ، ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فان أراد فصلاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير » (٢) .

ولقد عني الاسلام بالمحافظة على الأولاد ، اذا فقدوا آباءهم ، وهم اليتامى ، وعنى منهما بأمرين .

أولهما : المحافظة على أموالهم ، فيقول تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن » (٣) ويقول سبحانه « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالكم الى أموالكم ، انه كان حوباً كبيراً (٤) ولحرص الاسلام على أموال اليتامى من أن تتبعثر أو أن تذهب ، نهى الأوصياء عن أن يعطوهم أموالهم قبل أن يدربوهم على ادارة أموالهم ، فقال تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، التي جعل الله لكم قياماً ، وارزقوهم فيها ، واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً ، وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستغف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم ،

(٤) النساء : ٢

(٣) الانعام : ١٥٢

(٢) البقرة : ٢٣٣

(١) الاحقاف : ١٥

فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيباً ، للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه ، أو أكثر نصيباً مفروضاً ، وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فازرقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ، وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، غلبتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ، ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً » (١) .

وهكذا نجد القرآن حث على المحافظة على أموال اليتامى ، ونظم طريق المحافظة عليها ، بعد أن تسلّم اليهم .

الأمر الثانى الذى حث عليه القرآن الكريم بالنسبة لليتامى أنه منع قهرهم ، واذلال نفوسهم ، لكيلا تكون لهم عقدة نفسية تحول بينهم وبين الاندماج فى الأمة ، ولذلك أمر الله نبيه بالآلا يقهر يتيماً ، فقال تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر » (٢) .

وقد أمر المؤمنين الصادقين أن يضموا اليتامى الى أسرهم ، ويكونوا كأولادهم حتى لا يشعروا بذل اليتيم ، فقد قال تعالى « ويسألونك عن اليتامى ، قل اصلاح لهم خير ، وان تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم » (٣) .

وعنى الاسلامى باليتامى كئيباً ينشئوا فافرين من الجماعة فيكون منهم المشردون ، وقطاع الطرق ، ويكونون حرباً على أمنها ، فيكونون ذئاب الجماعة ، وهم ان أحسنت تتشبههم يكونون قوة عاملة ، نافعة .

وكذلك الأمر فى كل مسكين أدلته الحاجة وقهره الفقر ، فانه يكون قوة ان أكرم وعاملاً هداماً ان تهر ومنع ، وهؤلاء هم العقبة ان لم يكرموا ولذلك قال تعالى : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » (٤) .

وكما أوجب الإسلام رعاية اليتامى ، والقيام على شؤون الأولاد ، وتربيتهم على المودة والرحمة والنزوع الاجتماعى أمر الأولاد باكرام الوالدين ، والاحسان اليهما ، ولو كانا كافرين ، ولذلك ترى ، أن الأمر بالاحسان الى الوالدين يقترن بالأمر بعبادة الله وحده ، ومن ذلك قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا » •

ويذكر الله تعالى من وصايا لقمان لابنه : « واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه رهناً على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المحير ، وانجاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفًا واتبع سبيل من أناب الى ، ثم الى مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون » (١) •

ولقد حرص القرآن على الوصية بالوالدين عندما يصيبهما الضعف ، ويكونان فى حاجة الى النظرة الرفيعة الطيبة ، فيقول سبحانه فى كتابه الكريم : وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما » (١) •

وهكذا يربى القرآن الكريم الأسرة ، ويقيمها على دعائم من المودة ، والرحمة ، ورعاية القوى للضعيف ورحمة الكبير بالصغير ، واکرام الصغير للكبير •

### انهاء الحياة الزوجية غير الصالحة :

١٨٥ - تقوم الحياة الزوجية فى الإسلام على أساس المودة الواصلة والرحمة بين الزوجين ، وتنشئة الأولاد على نزوع الرحمة والتكاف ، والائتلاف بالمجتمع ، وقد أشار الله تعالى الى ذلك فى قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » (١) •

ووصف سبحانه وتعالى العلاقة بين الزوجين بقوله تعالى : « هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن » ، وأثبت أن التزاوج للانسال والرحمة بين الناس ، فقال تعالى



فيما تلونا من قبل : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » (٣) .

وإذا كانت العلاقة الزوجية تقوم على المودة والتفاهم ، لا على المباغضة والتنافر ، فإنه إذا تنافرت القلوب ، وأصبحت غير قابلة للانتئام ، فإن بقاء هذه الحياة ليست فى صالح الأسرة ، ولا فى مصلحة المجتمع المتواد المتراحم ، ولقد عالج القرآن كما رأينا هذه الحال عندما تتشعب القلوب ، فإذا لم يجد علاج بينهما ولا علاج من ذويهما ، فإن الانهاء أولى من الابقاء ، ولذلك قال تعالى فيما تلونا ، « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته » (٣) فعندئذ يكون الطلاق أمراً غير محظور .

ويلاحظ أنه عند الطلاق الذى يكون بيد الرجل عندما تحل البغضاء محل المودة أنه لابد من تحقيق أمور ثلاثة :

أولها - التسريح يكون باحسان من غير مشاحة ، ولا معاندة ، فقد تلونا قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراً لتعتدوا » (١) .

والاحسان يوجب أن يعمل على أن تكون نفسها طيبة بانفاق مال عليها ويكون متعة طلاق لها ، وقد أوجبها القرآن فى قوله تعالى : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (٢) .

ولقد أوجب الشافعى وأحمد بمقتضى هذه الآية المتعة لكل مطلق مدخول بها .  
وذلك نص كتاب الله تعالى .

الأمر الثانى الذى أوجبه القرآن الكريم أن يكون الطلاق رجعياً ، بحيث يكون للمطلق الحق فى أن يرجع زوجه اليه قبل انتهاء عدتها ، وهى فى الغالب تقدر بنحو ثلاثة أشهر تقريباً ، وهى مقدار ثلاث حيضات ، وقد ثبتت الرجعة بقوله تعالى :

(٢) البقرة : ٢٤١ - ٢٤٢

(١) البقرة : ٢٣١

(٢) النساء : ٤٣

(٢) النساء : ١

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ، ان أرادوا اصلاحا ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم ، الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح باحسان » (١) .

وان هذه الآيات الكريمة صريحة في أن الطلاق يكون رجعياً ، وأن الأجل للرجعة هو ثلاثة قروء أى ثلاث حيضات ولكن تحتسب الطلقة من ضمن ثلاث الطلقات التى يملكها ، وان الرجعة تثبت في الطلاق الأول والثانى ، أما الثالث فلا رجعة فيه . ولقد قال تعالى في ثبوت الرجعة أيضاً : « يأيها النبى اذا طلقتم النساء ، فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، وانتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فاذا بلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدراً » (١) .

وهذه الآيات تدل على ثلاثة أمور : أولها — أن الطلاق لا يكون الا رجعياً ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله تعالت كلماته : « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » وأن الطلاق حيث يمكن الرجوع من حدود الله التى لا يجوز أن يتعدها المكلف .

وثانيها — أن الإشهاد على الرجعة واجب حتى تكون المرأة على علم بالرجعة ، وحتى تستنهر بين الناس اعادته الحياة الزوجية ، ولأن شرط صحة الزواج الشهادة ، فيكون شرط اعادته الشهادة أيضاً .

وثالثها — أنها لا تخرج من بيت الزوجية ، ولا يخرجها منه .  
وذلك هو الأمر الثالث الذى قررنا أن القرآن أوجبه .

## الخلع :

١٨٦ — واضح من هذا أن الرجل اذا نفر من زوجته ولم يكن سبيل لازالة نفرتة كان له أن يطلق في الحدود التي بينها • ومع الواجبات التي أوجبها القرآن، فاذا نفرت المرأة من عشرة الزوج ، فهل تبقى مع هذه النفرة ، التي حاول الزوجان ، وذووهما ازالتهما ، فلم يستطيعوا ، هنا تجلت العدالة التي قررها الله تعالى في قوله تعالى : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » (١) فكما أن الرجل له أن يوقع الطلاق اذا نفر من زوجته وتأكدت النفرة ، وشدد في أن يكون الطلاق رجعيًا • لأنه عسى أن تكون النفرة لأمر عارض وقد زال ، فهو أحق بامرأته •

اذا كان الأمر كذلك في الطلاق عند نفرة الرجل ، فانه يفرض أن هذه النفرة قد تكون منها وتكون العشرة مباحضة ، ومع المباحضة العنت ، لذلك شرع الخلع ، وكان الخلع بالاتفاق بينهما ، وقد يكون بحكم القاضي ان ترافعا اليه •

ولماذا كان الخلع في حال نفرة المرأة ؟ الجواب عن ذلك أن الرجل ينفق في سبيل الزواج مالا ، وقد يكون كثيراً ، وذلك بحكم القرآن ، وقد يكون كل ما يملك ويستقبله زواج آخر يقيم به حياة زوجية ، بدل هذه الزوجية التي أبغضت فيها المرأة ، ولا يمكن العشرة مع بعضها ، فكان لا بد من أن يأخذ ما أنفق أو بعضه •

وهذا هو الخلع ، وقد شرعه الله سبحانه وتعالى بقوله : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فان خفتما ألا يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله ، فأولئك هم الظالمون » (٢) •

## الطلاق ثلاث مرات :

١٨٧ — شرع الله الطلاق ثلاث مرات سواء أكان بايقاع الزوج منفرداً ، أم كان باتفاقهما في الخلع ، أو بحكم القاضي فاذا وقعت الطلقات الثلاث بثلاث مرات، فانها لا تحل له الا بعد أن تتزوج زوجاً غيره بزواج شرعى صحيح على نية البقاء،

لا على نية التوقيت ، ثم طلقت من بعد لأمر عارض أو توفي عنها زوجها ، فإن لهما أن يتزوجا من بعد ، ذلك ما بينه سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته ، وتسامت أحكامه « فإن طلقها ، فلا تحل له من بعد ، حتى تنكح زوجاً غيره ، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (١) » .

وكان تحريمها بعد الطلقة في المرة الثالثة ، لأنها تدل بعد التجربة على أن الحياة لاتستقيم بينهما على ما هما عليه ، من أخلاق ، أو تنافر ، فكان لا بد من تجربة تكون شديدة عليهما ان كان ثمة محل للصلاح ، أو احتمال له . وكانت تلك التجربة أن تتزوج آخر . فإن كانت الاساءة من جانبها كانت عشرة الآخر مهذبة لها أو مقرررة لما كان منها ، وان كانت الاساءة من جانبه ، فإنه يراها في أحضان رجل آخر ، فيثير ذلك أسفه على ما كان منه .

فان انتهت التجربة ، وتلاقيا من بعد ، كان ذلك بعد تهذيب في تجربة شديدة .

### العدة :

١٨٨ — اذا تم الافتراق بين الزوجين سواء أكان المفرق هو الموت أم كان المفرق هو الطلاق ، فإنه لا بد من عدة تنتظر المرأة غيبها ، فلا تتزوج زوجاً آخر ، استبراء لرحمها من مظنة الحمل ، واحدادا على الزواج السابق وليتمكن الرجل فيها من مراجعة نفسه اذا كان الطلاق رجعياً .

واذا كانت المرأة حاملا ، فالعدة تكون بوضع الحمل ، لقوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » (٢) سواء أكان الفراق بالطلاق أو الخلع ، أم كان بالموت ، ورأى ابن عباس وعلى رضى الله عنهما أن تكون العدة بوضع الحمل بشرط مرور أربعة أشهر وعشرة أيام ، اعمالا لآية العدة « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرة ، والآية السابقة .

وعدة المطلقات ثلاث حيضات، لما تلونا من قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » (١) والقروء هي الحيضات .

وإذا كانت المطلقة قد بلغت سن اليأس ، وقد يئست من الحيض ، أو لم تر الحيض أصلاً فعدتها تكون بثلاثة أشهر ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن » (٢) .

ولا بد قبل ترك الكلام في العدة كما ورد منها في نصوص القرآن الكريم لابد من التنبيه الى ثلاثة أمور : أولها : أن العدة بالنسبة للمطلقات انما تكون لمن دخل بها ، وذلك لقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ، ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها » (٣) . أما المتوفى عنها زوجها فانها تعتد عدة الوفاة ، ولو لم يدخل بها ، لأن النص الكريم « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » لم يفرق بين مدخول بها وغير مدخول بها .

الثانى : أن المطلقة تبقى في بيت الزوجية في مدة العدة ، ولا تخرج منه ولا يجوز اخراجها ، وقد تلونا في ذلك قوله تعالى : « لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة » (٤) .

والمتوفى عنها زوجها صرح القرآن بأنها تبقى في بيت الزوجية حولا لايجوز للورثة وأولياء الميت أن يخرجوها منه ، وذلك بصريح القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج ، فان خرجن ، فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم » (١) .

فهذا النص الكريم يدل على أن المتوفى عنها زوجها لها أن تبقى في بيت الزوجية الذى مات به الزوج حولا على أن يكون ذلك متاعاً وحقاً ، فلا يجوز اخراجها ،

(٤) النساء : ١٩

(٣) الاحزاب : ٤٩

(٢) الطلاق : ٤

(١) البقرة : ٢٢٨

(١) البقرة : ٢٤٠

لأنه يكون انتزاعاً لحقها ، ولكن يجوز لها أن تخرج ، وان ذلك بلا ريب حفظ للمرأة من الضياع ، وصيانة لحرمة الزوج المتوفى •

الأمر الثالث : أن نفقة الزوجية تبقى في العدة ، لقوله تعالى : « وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن » والحمل لا يعرف الا بعد الولادة ، فيفرض وجوده في كل معتدة من طلاق ، وخصوصاً أن قوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » (٢) هو علم للحامل والحائل على سواء •

### تنبيهان :

١٨٩ - يلاحظ أن المرأة في الزواج لها حقوق ، وعليها واجبات ، وأن الزواج لا يفرض عليها من وليها ، بل لابد من اختيارها ورضاها في أصل العقد وفي المهر ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم في المهر ، فقال تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة » (٣) •

ومنع القرآن الكريم بصريح اللفظ عضل المرأة بمنعها من الزواج ، أو تزويجها بمن لا تريد ، وقال تعالى : « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك أذكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١) •

والتنبيه الثاني : أن المرأة تأخذ نصيبها كما يأخذ الرجل نصيبه من المال مع التقاوت : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » (٢) •

وان هذا النص فوق دلالاته على وجوب توفير ميراث النساء يدل على أن ذمة المرأة منفصلة عن ذمة الرجل ، سواء أكان زوجاً أم كان أباً أو أخاً أو قريباً بأى درجة من درجة القرابة •

### الأسرة في الإسلام ممتدة :

١٩٠ - هذا لفظ استعمرناه ممن يكتبون في علم الاجتماع في هذه الأيام ، فهم

يقتسمون الأسرة الى قسمين ، قاصرة وممتدة ، ويقصدون بالقاصرة الزوجين ، وأولادهما ، ويقصدون بالممتدة ما يشمل ذوى القربى جميعاً من أصول وفروع ، وحواشٍ قريية وبعيدة بحيث يشمل الأقربين وغيرهم .

وقد جاء الاسلام منظماً العلاقة بين النوعين ، والقرآن في محكم آياته تعرض لأحكام الزوجين والأولاد ولم يترك أحكام بقية ذوى القربى ، وقد حث بالنسبة لذوى القربى الذين يشملون الأسرة القاصرة أو الممتدة على مراعاة الرحم ، وذكر الواجبات اجمالاً بالنسبة لصلة الارحام ، فأوجب مراعاة هذه الصلة التي أوجدتها الفطرة ، مهما تشعبت الفروع ، وتكاثرت ، فقال تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » (١) وجعل سبحانه من أقرب القربات الى الله تعالى اعطاء ذوى القرابة بسبب القرابة فقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (٢) .

ونرى أنه سبحانه جعل من أول أبواب البر اعطاء ذوى القربى بسبب القرابة ، لا لفقيرهم ، ولا حاجتهم ولكن صلة لهم ، وابقاء لحبل المودة في القربى أن يبقى .  
والوصية بأولى القربى كثيرة في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : « وبالوالدين احساناً وذى القربى » (٣) ، وقوله تعالى في قسمة الميراث : « واذا حضر القسمة أولو القربى ، واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولاً معروفاً » (٤) ، وقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى » (٥) فالمودة في القربى أجر يعطيه العبد لربه . وهكذا نجد نصوص القرآن .

(١) الانفال : ٧٥

(٢) البقرة : ١٧٧

(٣) البقرة : ٨٣

(٥) الشورى : ٢٣

(٤) النساء : ٨

١٩١ - وقد ذكر القرآن الكريم حقوقاً وواجبات متبادلة في القرابة ، نذكر

منها ثلاثة :

أولها - أن الدية في القتل الخطأ تجب على الأسرة ، وتعطى الأسرة ، فهي تجب على الأسرة بمعناها الممتد ، وقد قال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله ، الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » (١) .

وبهذا نجد وجوب التعاون بين الأسرة بمعناها الممتد ، فهي تتعاون في غرم الجرائم تدفعه ، وفي تعويضها تأخذه ، ولذلك لا يجب الا اذا كانت الأسرة مؤمنة ، أو كان بينها وبين المسلمين ميثاق تجب بمقتضاه الديات ، ولا تسقط الا اذا كان من قوم عدو للمؤمنين ، فان الدية تكون اعانة لهم على الاعتداء .

ثانيها - أن الله أوجب للفقير العاجز عن الكسب نفقة على قريبه الغنى وقد ذكر القرآن ذلك في قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوت بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت اخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكنم مفاتحه أو صديقكم ، ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ، فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » (٢) .

ونجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن الحكيم أنه لا اثم على من يأكل في بيوت هؤلاء عند الاحتياج ونفى الاثم يشير الى أنه حق ، إذ أن تناول الحقوق لا اثم فيها .



وقد يقال إن ذلك لم يكن مقتصرا على القرابة ، بل ذكر الصديق ، فدل على أن الحق ليس سببه القرابة • ونقول ان ذلك الحق سببه العجز ابتداء ، ولذلك ذكر في أول الآية ذوى العجز عن الكسب ، فكان الكلام كله في أهل العجز ، ولكن الأخذ كان للقرابة ابتداء ، فان لم تكن له قرابة يلزمها الشرع ، كانت المودة التي توجبها الصداقة مبرراً للأكل ، وان كان لا يلزم الصديق بذلك قضاء ، فانه يجب عليه ديناً ، ويأثم فيما بينه وبين الله ، ان كان قادراً ، ومع ذلك يترك صديقه يتضور جوعاً •• ولذلك كانت المؤاخاة •

وفي ذلك إرشاد خلقى اجتماعى حكيم لواجبات الأصدقاء نحو أصدقائهم •

### الحق الثالث حق الميراث :

ولذلك بعض التفصيل ، فقد ذكره القرآن مفصلاً ••

### الميراث :

١٩٢ - تولى القرآن الكريم بيان الميراث بالتفصيل ، ولم يكن في السنة النبوية تفصيل لجمل في القرآن ، ولكن فيها تطبيق لأحكامه ، وتوضيح لما عساه يستغلق على بعض الألفهام ، أو لما يحاول به بعض الناس من انحراف عن أحكام القرآن ، وتأثر ببعض أحكام الجاهلية كحرمان النساء من الميراث •

والآن نتلو أكبر آية في بيان المواريث ، وهى قوله تعالى :

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد ، وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أودين ، أبأؤكم وأبنأؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضة من الله ان الله كان عليماً حكيماً ، ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أودين ، ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ،

فإذا كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ، غير مضار ، وصية من الله والله عليم حلِيم ، تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله وينتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ، وله عذاب مهين « (١) » .

في هذه الآيات للكريمات بين الله تعالى ميراث الأولاد والأبوين والزوجين ، وميراث أولاد الأم ، فالكلالة هنا أولاد الأم ، كما ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وصلى تطبيقاً لأحكام القرآن في الميراث .

وهناك كلاله أخرى ، وهى كلاله الإخوة والأخوات الشقيقات أو لأب ، وقد بينها الله سبحانه وتعالى بقوله : «يستفتونك ، قل الله يفتيكم في الكلاله ، إن امرؤ هلك ليس له واد ، وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تصلوا والله بكل شىء عليم » (٢) .

ولا ننسى قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » (٣) ، فإنها كما تدل على المودة بين أولى القربى تدل على أولوية الميراث أيضاً . ولذا اقترن بها قوله تعالى « كتاب الله » .

وبهذا نرى أن القرآن الكريم تولى الأحكام في الملكية بالخلافة الإجمالية بعضها بالتفصيل وبعضه بالإجمال الذى يعنى عن التفصيل .

وقد كان عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تطبيق أحكام الكتاب . . ولنضرب لذلك مثلاً ، أن عبد الله بن مسعود سئل عن بنت وأم وأخت شقيقة ، فجعل

الأخت الشقيقة قائمة مقام الأخ الشقيق تأخذ الباقي ، وقال ذلك قضاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وطبق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » (١) ، فقرر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يعد أن يستوفي أصحاب الفروض فروضهم ، ولم يكن أب أو ابن ، أن الميراث يكون لأقرب رجل ذكر ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « فان بقى بعض أصحاب الفروض فلاقرب رجل ذكر » . ولا شك أن ذلك الحديث النبوي تطبيق دقيق لقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » ، فالأولوية تقتضى أن يكون الأقرب أحق بالميراث ، أو بما يبقى منه .

وقد ثبت بالسنة أن المتوفى إذا ترك بنتا وبنت ابن مات أبوها ، فان البنت يكون لها النصف ، ولبنت الإبن السدس تكملة للثلثين اللذين يكونان للبنت ، فاذا أخذت البنت الواحدة النصف ، فانه لا يذهب باقى الثلثين ، بل يكون لبنت الإبن لأنها بنت للمتوفى مجازا ، وذلك تطبيق للنص القرآنى .

وقد ثبت أيضا أنه إذا كان للمتوفى أم ، وأخت شقيقة ، استحققت النصف فقط ، وهناك أخت لأب فانه تأخذ السدس تكملة للثلثين ، حتى لا يذهب ما فوق النصف ، وذلك بتطبيق رسول الله لقول الله تعالى ، « فان كانا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك » .

وبهذا يتبين أن القرآن تولى أحكام الميراث بالتفصيل فى أصحاب الفروض ، والعصبة فى الأولاد والآباء ، وبالإجمال فى باقى الأحكام ، والسنة النبوية طبقت القرآن ، وكانت بيانا للناس .

ما يلاحظ على توزيع القرآن العادل :

١٩٣ - يلاحظ على ذلك التوزيع العادل الذى تولاه القرآن ما يأتى :  
أولا : أنه جعل للنساء ميراثا . ولم يكن العرب فى الجاهلية يعطون للنساء ميراثا ، وانه فى سبيل تكريم الأمومة وقرابنتها ، جعل لأولاد الأم ميراثا لا يقل عن

السدس ، ولا يزيد على الثلث ، وجعلهم يستحقونه بوصف أنهم كلاله ، أى لا يوجد ميراث بأصول وفروع ، ومع ذلك جعلهم يرثون مع وجود الأم .

ثانيا : أن يكون الميراث للأقرب فالأقرب ، لان العبرة فى استحقاق الميراث أن يكون لمن بعد وجودهم امتداد الحياة المتوفى فى الوجود ، ولذلك كان أكبر الأسرة حظا فى الميراث الأولاد ، وأولادهم الذين ينتسبون اليه .

ومع أنهم أكثر الأسرة حظا فى الميراث لا ينفردون به ، بل يشاركونهم فيه الأبوان والزوجان ، وانهم ليشاركونهم بمقدار قد يصل الى النصف أو الى قريب منه .

وان مشاركة غيرهم هو لمنع تركيز المال فى ورثة بأعيانهم ، فالأبوان اذ يأخذان مع الأولاد الثلث يكون من بعدهما لأولادهما ، وهم غالبا اخوة المتوفى ، فيكون الاشتراك فى المال بدل الانفراد ، واذا لم يكن أب فقد يأخذ اخوة مع الأولاد ان كانوا اناثا . . . وبذلك يتبين أن كون الميراث للأقرب لا يمكنه من الاستئثار بالتركة وحده .

والثالث : مما يلاحظ فى الميراث مقدار الحاجة ، فكلما كانت الحاجة أشد كان تدر الميراث أكبر . ولعل ذلك هو السر فى أن نصيب الأولاد كان أكبر من نصيب الأبوين ، مع أنه من المقرر شرعا أن للأبوين فى مال أولادهما نوع ملك ، كما ورد فى الحديث « أنت ومالك لأبيك » . ولكن حاجة الأولاد الى المال أشد لأنهم فى غالب الأحوال ذرية ضعاف يستقبلون الحياة ، ولها تكليفاتها المالية ، والأبوان يستدبران الحياة ولهم فضل من المال ، فحاجتهما الى المال ليست كحاجة الذرية الضعاف ، وفوق ذلك ما يرثانه يكون لأولادهما ، ولا يكون منه لهذه الذرية الضعاف .

وان ملاحظة الأكثر احتياجا هى التى جعلت نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى ، وذلك لأن التكاليف المالية على الذكور ، وتكاليفات الرجل المالية أكثر من تكاليفات المرأة ، فهو المطالب بنفقة المرأة نفسها ، وهو المطالب بنفقة الأولاد واصلاح حالهم ، وهو الذى يمد الأسرة بكل حاجاتها . . . وان الفطرة الإنسانية

هي التي جعلت المرأة قوامه على البيت ، والرجل كادحا عاملا لتوفير القوت ، فكانت قاعدة أن العطاء في الميراث على قدر الحاجة موجبة لجعل حق الرجل أكبر من حظ المرأة ، فالأخ يحتاج الى المال أكثر من أخته . . وان ملاحظة الحاجة هي العدل والمساواة عند تفاوت الحاجة هي الظلم ، فأولئك الذين يطالبون بمساواة المرأة في الميراث مع الرجل لا يطلبون المساواة العادلة .

والرابع : أن الشارع الإسلامي ، كما لاحظنا في ميراث الأولاد ، اتجه الى التوزيع بين الأقارب بدل التجميع ، فهو لم يجعل وارثا يستبد بالتركة كلها ، لم يجعل الميراث للولد البكر ، دون غيره ، ولم يجعل التركة كلها للأولاد دون الآباء ، ولم يجعل يد المورث مطلقة يختص بتركته من يشاء ، ويحرم من يشاء ، بل جعل نظام الميراث اجباريا في ثلثي التركة ، ووزع الثلثين من التركة بين عدد من الورثة ، والصورة التي يختص بالتركة فيها واحد فقط نادرة ، وهي تكون حيث يقل الأقارب ، وفي هذه الحال تكون ثمة وصية للأقارب غير الوارثين ، على ما سنبين في الوصية ان شاء الله تعالى .

وإذا انتقل الميراث الى الحواشي كالإخوة والأخوات ، والأعمام ، يوزع بينهم من غير أن يستبد بعضهم بالميراث كله ، بل من غير أن تستبد قرابة دون قرابة ، فإذا كان هناك أشقاء وإخوة لأم كان الميراث للجميع ، ويكون للإخوة الثلث .

وهكذا نجد الميراث في القرآن ، وفي بيان السنة للقرآن وتطبيقه ، نجد الميراث يتوزع ولا يتجمع ، وان التجمع في وارث واحد يكون فيه بلا ريب ظلم للباقيين ، ولا يكون المال دولة بين ناس من الأسرة ، والآخرون محرومون محدودون ، بل لا يكون المال في الأمة كلها دولة بين الأغنياء ، والحرمان للباقيين .

١٩٤ — ان من المقررات الشرعية أن الميراث يدخل ملكية الوارث في الثلثين جبرا عنه ، وبغير ارادة المورث ، بل بارادة الله سبحانه وتعالى ، ويسمى التوريث بالخلافة الإجبارية ، وهي تكون في ثلثي التركة ، ويقولون أيضا ان الثلث يكون للوصية ، وقد فرض القرآن الوصية ، بل ان صيغته في التحريض كانت صيغة ايجاب ، فقد قال تعالى : « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا

( م ٢٧ — المعجزة الكبرى )

الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المقتنين ، فمن بدله من بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ، ان الله سميع عليم ، فمن خاف من موص جنفا أو اثما فأصلح بينهم فلا اثم عليه ، ان الله غفور رحيم » (١) •

وان هذا النص يستفاد منه جواز الوصية ، بل وجوبها عندما تكون في موضع بر بأن تكون في الأقربين ، فهي سد لما عساه يكون في توزيع الميراث من حرمان بعض ضعفاء الأقارب من الميراث ، اذا لم يكونوا في نظام التوزيع ، فهي في وضعها بجواز الميراث تكميل لأحكامه • فقد تكون الأخت الفقيرة لا يصل إليها الميراث لوجود الأبناء ، فكانت الوصية التي كتبها الله تعالى في الثلث سداً لخليتها •

وانه بمقتضى هذا النص تكون الوصية واجبة لفقراء الأقارب غير الوارثين ، وذكر الوالدين لأنهما قد يكونان غير وارثين ، لاختلاف الدين ، كما كان الأمر في صدر الاسلام ، اذ كان الرجل يكون مشركاً والمرأة كذلك ، وولدهما قد هداه الله تعالى الى الاسلام ، فيكون عليه أن يوصى لهما ، لأن ذلك من الاحسان ، والمصاحبة لهما بمعروف ، كما قال تعالى : « وانجاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً » (١) •

ومن العلماء من قال : ان نصيب الأبوين من الميراث ان كان قليلاً تصح الزيادة عليه بالوصية ، وكذلك الأقربون من الورثة ان كان نصيب أحدهم ضئيلاً ، لا ييسمن ولا يغنى من جوع ، جاز زيادته بالوصية من الثلث • وذلك ما تفيده الآية ، وقوله تعالى بالمعروف معناه بالأمر المعقول ، فلا يزيد القادر ذا المسال على ماله ، ولكن يعطى الضعيف ذا الحاجة الذى لم يأخذ شيئاً من الميراث •

ودلت الآية الكريمة على جواز التدخل في الوصية اذا كان فيها ظلم للورثة بالميل الظالم أو كان فيها اثم كالوصية لخليله ، أو الوصية لحانة ، فانه يجوز في هذا الحال الدخول للإصلاح وتحويل الوصية الى خير ، ولذلك قرر بعض الفقهاء أخذاً من هذه أن ابطال الوصية الظالمة ، أو اصلاحها بحكم القضاء جائز •

ومن التابعين من قرر أن الميت اذا ترك الوصية لأقاربه الضعفاء غير الوارثين .  
كانت لهم وصية ، وأوجبها ابن حزم ، والله سبحانه وتعالى يعلم المفسد من  
المصلح .

١٩٥ — هذا هو نظام الملكية بالخلافة يجعله القرآن اجبارياً في الثلثين كما  
بينت السنة ، وجعله اختيارياً للوارث في الثلث ، وأوجب أن يكون في غير اثم ،  
وأنه يجب إبطاله ان كان اثماً .

واختص القرآن الكريم الأقارب الضعفاء الفقراء بايجاب الوصية لهم بالمعروف ،  
وقد وضحنا ذلك آنفاً .

واذا وزنا نظام الملكية بالخلافة بأى قانون من قوانين العالم في الماضي  
وانحاضر ، ما وصل الى العدالة فيه نظام مهما يكن إحكامه .

ولقد تضافرت كلمة القانونيين من علماء الغرب الذين اطلعوا على الشريعة ان  
أعدل نظام للملكية بالخلافة هو نظام الاسلام ، فكل نظام للتوريث غير نظام  
الاسلام ظالم أو ناقص ، وبذلك يعترف كل دارس منصف .

وان هذا النظام جاء به القرآن الكريم ، ونادى به النبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم الذي لم يدرس على معلم . ولم يكن الا في بلد أمي ، ليس فيه معهد  
ولا جامعة ، أمليس هذا دليلاً قاطعاً على أنه من عند الله تعالى .

١٩٦ — وقد يقول قائل أطلت في ذكر نظام الأسرة في القرآن ، وربما يكون  
ذلك خروجاً عن الكلام في القرآن الى الكلام في الأسرة .

ونقول في الجواب عن ذلك ، اننا نتكلم في علم الكتاب ، فمهما نتكلم في الأسرة ،  
فاننا نتكلم في موضوع علم القرآن الذي علمنا الله تعالى اياه ، واننا لم نأت بكل  
ما جاء في القرآن عن الأسرة ، ولكن اكتفينا ببعض ما جاء ليكون دليلاً على  
ما وراءه وإشارة لما بعده .

وقد ذكرنا الأسرة في القرآن ، ونكاد كل أحكامها تكون ثابتة بالقرآن الكريم ،  
والسنة مبينة لبعض ما يحتاج الى بيان كلفظ القروء في قوله تعالى : « والمطلقات

يُثْرِبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ» (١) • فالسنة هي التي بينت أن القُرُوء هي  
الحيضات على أصح الروايات في السنة •

• ولقد قررنا من قبل ما نبتلمسه حكمة لتصدى القرآن لكل أحكام الأسرة •

ونقول الآن ان أحكام الأسرة في الاسلام كانت موضع تهجم من بعض الذين  
ليس للدين حريجة في صدورهم من الرجال والنساء ، فأرادوا أن يجعلوا الأسرة  
الاسلامية خاضعة لما سموه تطوراً ، وما تطورهم الا تجانف لناحية المسيحية ،  
فالمسيحية في زعمهم تحرم تعدد الزوجات ، والمسيحية في زعمهم تمنع الطلاق ،  
فيجب أن تكون الأسرة في الاسلام تمنع التعدد ، وتمنع الطلاق (٢) وهكذا دفعهم  
التقليد ، والاسلام يجعل للرجل قوامه على المرأة ، وهم لا يريدون ذلك ،  
ويريدون أن يكون البيت فوضى ، وهكذا •

ولقد وصل بهم الانكار لحقائق الاسلام أن تهجموا على نظام الميراث ومنهم  
من يتمرد عليه ، اتباعاً لأهوائهم ، ونحن نقول لهم : دعوا التقليد الأعمى ، ودعوا  
التفكير الأعوج واعلموا أن الأمر في ذلك أمر القرآن ، ومن علم غير القرآن فقد  
كفر ، فان تمردتم باسم التطوير ، وهو عمى التقليد ، فاعلموا أنكم على شفا جرف  
من الكفر ، لأن من أنكر أحكام القرآن أو من خالفها جاحداً ، فهو كافر ، فكونوا  
كما تشاءون ، فان كنتم مؤمنين فخذوا بالقرآن ، وان كنتم غير ذلك « فليكن  
دينكم ولي دين » •

#### ٤ — الزواج الاجتماعية :

١٩٧ — هذا هو القسم الرابع من الأحكام التي اشتمل عليها القرآن الكريم ،  
وقد شرع القرآن من العقوبات الرادعة ما تتطهر به المجتمعات من الرذيلة ، وتتنج  
ناحية الفضيلة ، ويتحقق الخير في كل مظاهر الحياة خالياً من أدران الشر •

(١) البقرة : ٢٢٨

(٢) وقد كتبنا بحثاً في بيان أن التعدد كما جاء في القرآن ، والطلاق امثل نظام لتكوين أسرة فاضلة نشر

السنة الخامسة عشرة من مجلة القانون والاقتصاد



والعقوبات في الاسلام قسمان عقوبات مقدرة ، وعقوبات غير مقدرة  
والعقوبات المقدرة تعد أعلى العقوبات في نوعها ، وغير المقدرة تعد دون الأعلى ،  
وقد تولى القرآن الكريم بيان أكثر العقوبات المقدرة ، والعقوبات غير المقدرة ترك  
تقديرها للقاضي أو ولي الأمر ان رأى أن تنقيد القضاة ، فالاسلام يذكر الحد  
الأعلى للعقوبة وترك للقاضي تقدير مادونها على ماقررنا •

والعقوبات المقدرة قسمان : قسم فيه حقوق العباد واضحة ، كالقصاص  
وقسم كان احماية المجتمع من شروره ، وحق العباد فيه ليس في وضوح الأول •  
وفي الأول كان للمجنى عليه أوليائه حق العفو ، كما سنين • أما الثاني فلا  
عفو فيه ، لأنه حق الله •

وأول نص في العقوبات التي كانت لحق العبد أو حق العبد فيها أوضح من غيره  
من عقوبة القصاص وهي عقوبة توميء اليها الفطرة ، لأن العقوبة مساوية للجريمة  
ومن جنسها ، وقد نص عليها في القرآن في عدة آيات ، منها قوله تعالى : « ياأيها  
الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى  
بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ، ذلك  
تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم في القصاص  
حياة يا أولى الأبواب لعلكم تتقون » (١) •

وفي هذه الآية نجد القصاص في الأنفس ، وآية أخرى تعمم القصاص في  
الأنفس والأطراف ، بل الجروح ، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك مبيناً ما كان في  
التوراة ، وهو في الشرائع السماوية كلها : « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم  
النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب  
الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً  
قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن  
النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والاذن بالاذن ، واللسن باللسن

والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون » (١) •

وهذه الآيات الكريمات تدل — أولاً — على أن القصاص شريعة النبيين أجمعين طبقه النبيون على الذين هادوا ، وطبقه من بعدهم الربانيون والأخبار ، ويطبقه أهل الايمان من أمة محمد كما قال سبحانه وتعالى : « وأنزلنا الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فأحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٢) •

وان هذا النص الكريم يدل — أولاً — على وجدة الشرائع السماوية فيما يتعلق بالقصاص ، فهو شريعة عامة ، مشتقة من الفطرة الانسانية ، فهي عبثية طبيعية لامراء فيهما •

وتدل ثانياً على أن القصاص كما يقع في الأنفس ، لأن فيه حياة الجماعة حياة آمنة مطمئنة ، يقع أيضاً على الأطراف ، لأن فيه حفظ سلامة الانسان «ومنع التشويه ، إذ أن التشويه الانساني يكثر اذا لم يكن عقاب رادع يجعل الجاني عندما يقدم على جريمته يتوقع أن يقع عليه مثلها ، وذلك أمتع للجريمة ، كما قرر بعض علماء القانون الذين درسوا النفس الانسانية في الآحاد والجماعات •

وتدل ثالثاً — على أن الجروح يجري فيها القصاص ما أمكن ، وقد استنبط من هذا بعض الفقهاء أن القصاص يجري في اللطم والضرب بالسوط وغيره •

وتدل رابعاً — على أن الترغيب في العفو ابعاداً لإحزن القلوب ، وتقريباً للنفوس ، ولذلك اعتبر العفو في موضعه من غير تشجيع للجريمة صدقة ، وقال سبحانه ، « فمن تصدق به فهو كفارة له » •

وان التقصاص في موضعه احياء للنفس الجنى عليها ، و احياء للجماعة ، وهو القضاء على الأحقاد والضغائن المستكنة في القلوب ، ان لم يكن سبيل لردعها ، فقد قال تعالى بعد أن اعتدى قابيل على أخيه هابيل شفاء لغيظه وحسداً وحقدًا : « من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحيأها ، فكأنما أحيأ الناس جميعاً ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون » (١) .

وان هذا يدل على أن القصاص احياء للنفوس ، وتهذيب للجماعة .

١٩٨ — وان التقصاص فيه حفظ للنفس ، فان حفظ النفس يقنضى حفظ الأطراف وحفظ كل الأجزاء ، وهو حق للعباد لأنه عقوبة اعتداء مباشر عليهم ، ولذلك كان قابلاً للعفو ، كما ذكرنا وكما تلونا .

وأما حقوق الله أو حقوق المجتمع ، كما يجرى التعبير في هذا الزمان ، فان العقوبة المقررة فيها تختص بخاصيتين احدهما : أنها حماية للفضيلة ، وحماية للمجتمع من أن تنتعشاه الرذائل ، والخاصية الثانية أنها غير قابلة للعفو ، لأنها اصلاح ليس فيه أى معنى من معانى الانتقام أو شفاء الغيظ ، كما هو الحال في الدماء ، ولأن اقامة الحدود عبادة ، وهى العقوبات المقررة حقاً للمجتمع فيعد عبادة ، فاذا كان العفو في القصاص يعد أحيانا صدقة كما عبر القرآن الكريم ، فاقامة الحدود من ولى الأمر القائم على رعاية مصالح المجتمع ، و اقامة الفضائل ومطاربة الرذائل تعد عبادة ، بل هى أعلى العبادات بالنسبة له ، وأى عبادة أعلى من تطهير المجتمع من الشر .

وان الحدود شرعت محافظة على المصالح المقررة الثابتة ، وهى المحافظة على النفس وأمنها ، والمحافظة على النسل والمحافظة على العقل والمحافظة على المال .  
وأشد الحدود تكون لأتصى أنواع الاعتداء ، وهو الاتفاق على الجرائم التى

يكون فيها اعتداء على النفس وعلى المال ، بل وعلى الأعراس والعقول ، وهو ما يسمى حد الحراية •

والحراية اتفاق طائفة من المجرمين على الخروج على الجماعة بارتكاب مفسد من أنواع الاعتداء المختلفة من قتل أو اغتصاب أموال ، وارتكاب جرائم أخرى كما قرر الإمام مالك في تفسير معنى الحراية ، وقد سماهم القرآن الكريم محاربين ، لأنهم يحاربون الأمن والنظام بقوة يدرعون بها ، وقال الله تعالى فيهم : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم • الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » (١) •

ونلاحظ في النص الكريم أموراً ثلاثة :

أولها — أن الآية الكريمة سمتهم محاربين لله ورسوله وذلك لأنهم يحاربون أحكام الشرع ، وينتقصون على الحكم المنفذ لأحكام الله تعالى ورسوله الحكيم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسماهم ساعين في الأرض بالفساد ، لأن معاندة الشرع ، والاخلال بأحكامه ومحاربة الفضائل ، وازعاج الناس ، وقطع الطريق عليهم هو عين الفساد •

وثانيها — أن العقوبة هي التنكيل أو القتل والصلب ليكونوا عبرة لغيرهم ، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو تفريق جمعهم ، ونفيهم من الأرض بابعادهم حيث لا يستطيعون أن يجتمعوا •

وقد قرر مالك من بين الفقهاء أن ولى الأمر مخير في هذه العقوبات يختار منها ما يناسب حالهم •

ثالثها — أن الجريمة الأساسية في اجتماعهم واتفاقهم مع قوة تمكنهم من

جرائمهم ، فان تابوا من تلقاء أنفسهم ، فقد ذهب أصل الجريمة وهو الاتفاق الجنائي ، والخروج بقوة لتنفيذه ، وما داموا قد تابوا فقد عدلوا عن الارتكاب ، وهو جريمة مستمرة ، فاذا أنهوها ، لا تستمر عقوبة الحد .

ولكن يحاسبون على ما ارتكبوا قبل التوبة ، وللفقهاء كلام طويل في هذا وفي توزيع العقوبات على الجرائم ، فليرجع اليه في كتب الفقه ، ففيها ما يشفي غلة الصادي المتطلع .

ومن الناس من يلهجون باستغلال هذه العقوبة ، ويحسبون آثمين أنها ليست انسانية . وأولئك ينظرون الى العقوبة ولا ينظرون الى الجنائية ، ويرحمون الجاني ولا يرحمون المجنى عليه ، والمجنى عليه هنا الجماعة . أولئك يخرجون بقوة واتفاق ، لا ليقيموا حقاً أو يخفضوا باطلا بل لجرد أذى الجماعة وينتهكون كل حرمة ، ويقطعون الطريق على السابلة ، ويزعجون الجماعة ، فلا بد أن تكون العقوبة كفاء لما يرتكبون ورادعة ، والعدالة الانسانية توجب المساواة بين مقدار الجريمة ومقدار العقاب ، وكلما عظمت الجريمة كان لابد من عقوبة تناسبها ، وكما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « من لا يرحم لا يرحم » وذلك هو منطق العدل ، ومنطق العقول .

ولو أن تلك العقوبة عوقبت بها العصابات الأمريكية التي لا تبقى على شيء الا انتهكت حرمتها ، ولها ميزانية من السرقات تبلغ أحياناً ميزانية الولاية التي تكون فيها « فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

١٩٩ — وان الجريمة التي تقترب من جريمة الحراية — جريمة السرقة بيد — أنهما يفترقان ، فالسرقة أخذ المال في خفية من حرز مثله ، بينما الحراية أخذ المال بقوة لا يلاحظ فيها الاختفاء ، ولكن يلاحظ الأمن من الاستغاثة واجابة المستغيث ، فهي في خفاء عن المجتمع ، لافي خفاء عن صاحب المال ، ويفترقان في أن هذه جماعية تخرج بقوة تقاوم قوة الدولة ويفترقان في أن الحراية تتعدد فيها أنواع الجرائم ، والسرقة لا تتعدد فيها أنواع الجرائم ، ولذلك تتعدد فيها العقوبة .

ويتفتقان في أمرين أحدهما أن في الجريمتين افزع الناس وازعاج الآمنين ، فلا يأمن أحد على نفسه أو ماله ، ويتفتقان أيضا في أن التوبة تقبل من قطاع الطريق قبل القدرة عليهم ، وتقبل في السرقة على قول كثيرين من الفقهاء وهذا يتفق مع نص القرآن •

وعقوبة السرقة نص عليها في قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه ، وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، ان الله غفور رحيم » (١) •

وقد اشترط في التوبة في هذه الحال أن يصلح ، لا أن يتوب بلسانه ، ولا شك أنه اذا سرق من بعد التوبة فانه تقطع يده •

ولهذا التشابه بين السرقة والحراقة قالوا ان الحراقة هي السرقة الكبرى وتلك التسمية صحيحة ، وان كان معها جرائم القتل •

وقد يقول الذين يرحمون المجرم ، ولا يرحمون الآمن معترضين على ذلك متعللين بأمرين :

— أحدهما — أن العقوبة ليست متكافئة مع الجريمة مهما يكن نصاب السرقة ، فهل تقطع يد في سرقة عشرة دراهم أو ربع دينار كما قال الامام مالك ، ويرددون قول أبي العلاء •

يد بخمس مئتين عسجد وديت . . . ما بالها قطعت في ربع دينار

والثاني أن العقوبة في ذاتها غليظة تكثر من المشوهين الذي تقضى الأعين برؤيتهم •

ونجيب عن الأمرين ، فنقول في الاجابة عن الأمر الأول ، انه ليس التساوى بين العقوبة في الحدود بين الفعل والعقاب ، انما التساوى بين العقاب ، وآثار

الجريمة ، فبالنسبة للسرقة لا يكون التساوى بين المال الذى سرق ، وبين قطع اليد ، انما ينظر الى الإغزاع وازعاج الآمنين فى سرقة تقع فى حى أو قرية ، فكم من حراس يقومون ، وكم من مغالط يحترس بها من السارقين ، فجريمة السرقة ليست آثارها واقعة فقط على المسروق منه ، بل تتعداه الى كل من يكونون معه فى الحياة .

والجواب عن الأمر الثانى أن هذه العقوبة لا تقع الا اذا كان التكرار اذ أنه اذا سرق ابتداء وتاب وأصلح ، فانه لا يسرق ، فلا تقطع يده .

وان قطع يد واحدة تمنع السرقة ، فلا يكون ثمة من بعد ما يوجب القطع وهنا دولة عربية تقيم حد السرقة ، لا تقطع فى العام يداً أو اثنتين ، فالقطع يمنع سبب القطع .

وفوق ذلك ، فان القطع لا يكون الا حيث تنتفى الشبهات ، فالشبهات تسقط الحدود وان عدد السرقات التى تنتفى فيها الشبهات ، ويجب فيها الحد يقدر بنحو خمسة فى الألف من السرقات التى تقع ، ومن الشبهات التى اعتبرها السلف أن يكون السارق فى حال جوع أو مظنة جوع ، كأن يكون ثمة مجاعة فانه لا يقام الحد للشبهة ، كما فعل الامام عمر عام المجاعة .

وعلى ذلك يستغلظون عقوبة السرقة فى الحدود التى بينا أن يبينوا لنا كم من السرقات قطعت فيها أيدي نساء ورجال لأجل الوصول الى غاية السارق ، وكم من النفوس أزهدت فى السرقات بالاكراه أو فى اخفاء الجريمة وعدم معرفتها .

انكم ان وازنتم بين هذه الجرائم التى ترتكب فى سبيل السرقة وجدتم أن قطع اليد لا يساوى فى عدده عشر معشار هذه الجريمة ، واعتبر ذلك بالبلاد التى طبقت حد السرقة ، فان الأيدي التى تقطع فى البلاد كلها لا يتجاوز ان تواضعنا عدد أصابع اليد .

لقد عجزت القوانين عن علاج جريمة السرقة ، فهلا نستعين بحكم الله تعالى ، ولكن آفة الجماعات فى هذه الأيام أولئك الذين تذهب أنفسهم حبرات على المجرمين

ولا ننظر نظرة عطف على الذين كانوا فريسة للعابثين والمجرمين ، وذلك فساد منطقي غريب ، ومع ذلك يعدون أنفسهم اجتماعيين •

### الاعتداء على النسل :

٢٠٠ — أوضح جريمة في الاعتداء على النسل جريمة الزنى ، فانها اذا شاعت في قوم ضعف نسلهم ، وانحدروا الى الفناء كما رأينا في أمم حاضرة ، وجماعات ماضية •

وقد تعرض القرآن الكريم لبيان هذه الجريمة وعقوبتها ، أو بالأحرى لبيان هذه العقوبة مع التعرض الاجمالي للجريمة ، مفصلا العقوبة ، فقد قال تعالى : «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيناها منكم فآذوهما ، فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، ان الله كان تواباً رحيماً » (١) •

وان هذا النص الكريم دل على أمور ثلاثة :

أولها — أن الشهادة على الزنى لا تكون الا بأربعة ، فلا تصح الشهادة بما دون ذلك ، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى في حد القذف « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » (٢) •

ثانيها — أن الرجل والمرأة اذا ارتكبا الفاحشة ، وهي الزنى في الآية الأولى والثانية ، كان لابد من عقوبة مناسبة ، اذا لم تكن توبة يكون معها اصلاح أمورهم ، وأنهم ان كرروا لا تقبل التوبة ، وكذلك قرر كثيرون من الفقهاء كما قيل في السرقة •

الثالث : أن النساء يختصن بعقوبة لا تمنعها التوبة ، وهي أن يمسن في البيوت حتى الوفاة أو يجعل الله لهن سبيلا بالزواج ، وهذه في الحقيقة ليست عقوبة ، ولكنها صيانة وحمل على التوبة ، فان كان منهن من بعد فاحشة كان الايذاء •



وقد ذكر هنا الأمر بالايذاء مجملا ، وفصل في سورة النور ، فقال تعالى :  
« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بها رافة في دين  
الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، الزاني  
لا ينكح الزانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على  
المؤمنين » (١) .

وان هذا النص يدل على ثلاثة أمور : أولها — أن عتاب الزاني والزانية مائة  
جلدة قوية شديدة رادعة لا رافة فيها . وثانيها — أن هذا العقاب الشديد الرادع  
يكون علنا يشهده طائفة من المؤمنين . ثالثها — أن الزاني الذي يعلن زناه لا يرضى  
به الا زانية أو مشركة ، وأن الزانية لا يرضى بالزواج منها الا زان أو مشرك ، وأنه  
من المحرم على المؤمنين أن يتزوجوا من الزناة ، ومفهوم النص أن ذلك التحريم  
ان لم تكن توبة .

#### عقوبة العبد على النصف من الحر :

٢٠١ — هذا التقدير للعقوبة في الزنى انما هو على الأحرار من الرجال والنساء ،  
أما العبيد والاماء فعقوبتهم نصف هذه العقوبة ، فلا يجلدان الا خمسين جلدة ،  
وقد ثبت ذلك بنص القرآن الكريم بالنسبة للإماء ، وثبت بقانون المساواة بين الرجل  
والمرأة أن العبد تتصف عنه العقوبة ، وهذا نص القرآن الكريم الحكيم ، اذ يقول  
سبحانه وتعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات  
فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ،  
فانكحوهن باذن أهلن ، وآتوهن أجورن بالمعروف محصنات غير مسافحات  
ولامتخذات أخذان ، فاذا أحسن ، فإن آتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات  
من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم ،  
يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم  
حكيم » (١) .

وان هذا النص يدل على أن الأولى بالمؤمن ألا يتزوج الا حرة ، ولا يتزوج أمة الا اذا عجز عن الزواج بالحرة ، حتى لا يعرض أولاده للرق ، وان الإماء أولى بهن مالكن يدخل بهن ، فيكون أولاده منها أحرارا ، وتعتق هي بولدها من مالكتها ، فيكثر الأحرار .

وتدل الآية ثالثا على أن الأمة المتهوجة عقوبتها خمسون جلدة .

وبمقتضى المساواة في الأحكام كما أشرنا تكون عقوبة العبد أيضا منصفة كعقوبتها .

ونظرة صغيرة في الموازنة بين شريعة القرآن ، وشريعة الرومان ، لقد كان الرومان يضاعفون عقوبة العبد ان ارتكب جريمة ويخففون العقوبة على الحرة ، فهم يقولون ان العبد اذا زنى بحرة يقتل ، وأما الشريف الرومانى فانه اذا زنى يغيرم غرامة بسيطة ، فمنطقهم الظالم يسير سيرا عكسيا تصغر العقوبة عندهم يكبر المجرم وتكبر بصغره ، أما الاسلام فانه ينظر في الأمر بمنطق مستقيم ، فالجريمة تكبر بكبر المجرم ويكون العقاب على قدرها وتصغر بصغر المجرم ، ويكون العقاب على قدرها ، وذلك لأن الجريمة هوان وان الهوان يسهل على الضعيف ، اذ لا قوة نفس تعصمه وتنتاه ، وان العبد والأمة في ذل وهوان ، فالجريمة منهما قريبة ، فيعذران ، ويخفف عليهما العقاب ، وذلك هو منطق العدل المستقيم ، وهو شرع الله العظيم .

### حد القذف :

٢٠٢ -- القذف هو رمى المحصنات والمحصنين بالزنى ، من غير دليل مثبت بل بمجرد الظن الواهم ، أو الإيذاء الآثم ، وفي ذلك تهوين للجريمة وأشاعة للفاحشة في الذين آمنوا ، ولذلك كان العقاب الصارم على من يقذف ، ويرمى المحصنين والمحصنات من غير تثبيت ولا تحرج ، ولقد قال الله تعالى في ذلك مبينا له بعد حد الزنى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون الا

الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم» (١) •

وهذا النص السامى دل على أمور ثلاثة : أولها — أن الرمى بالزنى لأبد أن يكون ثابتا بشهادة أربعة من الشهداء ، والا عد قذفا باطلا ، وكان له عقوبة قاسية وهو الجلد ثمانين جلدة ، وهى عقوبة مادية لا هوادة فيها •

ويدل ثانيا على أن هناك عقوبة أدبية أو تبعية كما يقول علماء القانون ، وهو ألا تقبل لهم شهادة أبدا ، لأنهم دنسوا ألسنتهم بقول أمحش الباطل ، فيعاقبون على ذلك بالأ يقبل منهم قول فى قضاء ، والتأييد يقتضى أن التوبة لا تسوغ سماع شهادتهم •

ويدل ثالثا على أن التوبة تقبل عند الله اذا تابوا وأصلحوا ، وذلك لا يمنع نزول العقاب الاصلى والتبعى ، لأن التبعى ابدى •

وان هذه العقوبة لمنع اشاعة الفاحشة ، لأن الاتهام بالزنى وخصوصا للأبرياء يسهل ارتكابه ، ولقد قال تعالى فى ذلك : « الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة (٢) » •

ولقد ضرب الله مثلا للذين آمنوا بحال أم المؤمنين عائشة ، وهى الطاهرة بنت الطاهر ، وزوج أطهر من فى هذا الوجود ، تطاول المفترون عليها بالافك ، وقال الله تعالى فيهم « ان الذين جاءوا بالافك عصابة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم

بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ،  
ويبين لكم الآيات ، والله عليم حكيم » (١) .

هذا توجيه عظيم لمن يسمع أفكا على ظاهر من الطاهرين ، أو طاهرة بينة الطهارة ، فأول واجب على المؤمن إذا سمع أفكا أن يظن خيرا بالمؤمن ويجعل حال الصلاح هي الظاهرة ، وهي الحاكمة ، فإن كان ممن يظن الظنون فعليه أن يثبت حتى يجيء الدليل ، وهو أربعة شهداء ، ليكون الدليل مقابلا لظن الخير بأهل الايمان ، فإن لم يكن الدليل كان على المؤمن أن يقول هذا بهتان عظيم ، وأنه لايسوغ لمؤمن أن يتلقى قولاً يرمى من غير دليل ، ولا تثبت ، ثم يزيد الظن به ، فيقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، ويحسبونه تسلية ، وأمرا هينا وهو عند الله عظيم .

وفي هذا النص السامى بيان للمستهينين الذين يشيعون القول الفاسد ، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن ، وان الاسلام يريد جماعة طاهرة عفيفة لايسودها الا الكلام الطيب الفزيه العف .

### اللعان :

٢٠٣ - جاء رجل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيته شكواه ، ويقول : « ان الرجل يجد الرجل مع أهله ، فان قتله فقتلهموه ، وان تكلم ضربتموه ، وان سكت سكت على غيظ اللهم بين ، فكان اللعان .

وهو يكون في حال رمى الرجل زوجته بالزنى ، فقد جعل الله تعالى حكما خاصاً ، مخصصاً لمن يرمى أى محصنة غير زوجته ، لأنه لا يمكن أن يرمى زوجته الا وهو في عذر غالباً ، فكان اللعان للتثبت من الواقعة التي تتضمن الوقوع في الفاحشة من الزوجة ، وقد بين الله تعالى اللعان بقوله تعالت كلماته :

« والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم ، فشهادة أحدهم

أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ، ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها ، ان كان من الصادقين • ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم » (١) •

والشهادة هنا هي الحلف بالله تعالى ، لأن الحلف فيه اشهاد لله سبحانه وتعالى ، فالرجل يحلف أربع مرات أنه صادق فيما رماها به من الزنى ، أو نفى الولد ، ان كان الرمي بعدم نسبة الولد اليه ، ويتضمن ذلك الرمي بأنها حملت به من زنى ، فاذا حلف هذه المرات الأربع ، حلف الخامسة بأن يحلف بالله أن لعنة الله تعالى تنزل به ان كان من الكاذبين •

والمرأة ينزل عليها العقاب ، وما حده القرآن الكريم ، فتطف أربع مرات انه لمن الكاذبين ، وتحلف الخامسة بأن عليها غضب الله ان كان من الصادقين • وان التحالف ان تم على هذا الوجه رفع عن الرجل عقوبة القذف ، وهو ثمانون جادة ، وعن المرأة عقوبة الزنى ، ولقد حكم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك •

ولكنه صلى الله تعالى عليه وسلم فرق بينهما فرقة أبدية ما داما على هذه الحال ، لأن الحياة الزوجية تقوم على المودة ، والمودة تقتضى الثقة بين الزوجين ، وبعد هذا الترامى ، وتكذيب كل واحد لصاحبه ، ذهبت الثقة ولا مودة مع فقد الثقة ، فلا يتحقق معنى الزوجية الذى نص عليه في كتابه الكريم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢) ، بين زوجين يشك أحدهما فى صاحبه ، ولا يطمئن اليه •

٢٠٤ — وان ما ذكرناه من نصوص القرآن فى الزنى والقذف واللعان ، يتجه بالؤمن الى أن يكون ظاهرا نزا عفيفا ، ويتجه بالجماعة الاسلامية الى أن تسودها الفضيلة ، فلا تترامى برفث القول وفسوقه لأن فسوق القول يؤدى الى

(١) الروم : ٢١

(١) النور : ٦ - ١٠

قلعه ، والتراعى بالفاحشة يؤدي الى ارتكابها •  
وان الرذائل لا تنمو الا في أجواء فاسدة ، والفضائل لا تخبو الا في أوباء

• الرذائل

ولعل فساد مجتمعاتنا الحاضرة سببه التراعى بالفحشاء صراحة ، أو بلحن  
القول اذ يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله •

**الخمير :**

٢٠٥ — ذكرنا حدودا أقيمت لحفظ النفس والمال ، وحدودا أقيمت لحفظ  
النسل وحفظ البيئة الاجتماعية ، والآن نذكر مايؤسد العقل وقد ترك الله لنبيه  
تقدير العقوبة لها • وان كانت الجريمة قريبة من جريمة القذف ، ومن جنسها ،  
وذلك فهم نقيه الصحابة على كرم الله وجهه عقوبتها من عقوبة القذف وقد جاءت  
النصوص القرآنية مشيرة الى مزار الخمير ، وأنها شراب مذموم ، وجاءت بالنهي  
عنها ، وأول آية نزلت مشيرة الى أنها أمر غير حسن قوله تعالى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرأ ورزقأ حسنا ، ان في ذلك

لآيات لقوم يعقلون » (١)

وقد كان ذلك النص متضمناً استهجاناً لها • وهو استهجان ببيان أنها شيء  
غير مستحسن في ذاته ، فهو مقابل للأمر المستحسن ، والمقابل للمستحسن لا يكون  
الا مستهجناً •

وكان ذلك أول تنبيه للعرب باستهجانها ، لأنهم كانوا يألفونها في جاهليتهم ،  
ويتفاخرون بشربها كما يفعل أهل الجاهلية في هذا الزمان الذي نعيش فيه •

وهذه الآية نزلت في مكة ، فلما كانت الهجرة ، وأشرب المسلمون حب الاسلام  
أشار القرآن الى ما يوجب تحريمها ، فقال تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر ،  
قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » (٢) •

(٢) البقرة : ٢١٩ •

(١) النحل : ٦٧ •

وقلنا ان هذا النص السامى يوجب تحريمها ، لأن كل أمر غلبت مضاره على منافعه يوجب العقل أن يحرمه الانسان على نفسه ، لأن ما من شيء الا فيه نفع نسبي ، وضرر نسبي ، والعبرة بما يغلب ، ولكنه ليس تحريماً صريحاً ، ولذلك بعد هذا النص كان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً •

وأن النفس العربية كانت قد ألفت شربها ، وتعودته ، فلا بد من تربية تخلع هذه العادة غير الحسنه ، فجاء النص الآخر الكريم ليربى النفس على البعد عنها ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (١) •

وانه لا يتصور ايمان من غير صلاة ، فالصلاة أمر محتوم ، وقد نهى عن أن قوله وما لا ينبغي ، ونتائج القول ، وتحرى الصدق ، وكل هذا لا يكون الا من يقربها ، وهو سكران ، حتى يعلم ما يقول ، والعلم بما يقول هو العلم بما ينبغي ذوى وعى كامل مدرك لحقائق الأمور ، وغاياتها ، ولا يكون ذلك الا اذا كان على بعد من الشرب بوقت طويل • وقال سبحانه « لا تقربوا الصلاة » ، ولم يقل فى الصلاة ، لأن النهى عن المقاربة أبلغ من النهى عن الدخول •

واذا كانت الصلوات خمساً موزعة فى النهار وزلفاً من الليل ، فانه لا بد أن يكون على صحو كامل من قبل الفجر حتى لا يقرب صلاة الفجر ، وهو لا يعلم بمايقول ، ولا بد أن يكون فى صحو قبل الظهر ، ولا بد أن يكون الصحو مستمراً الى العصر ، لقرب ما بينهما ، ومثل ذلك المغرب والعشاء ، وبذلك يذوق المسلم حلاوة البعد عنها ، كما تعودها من قبل ، وهى شراب غير مرىء •

فكان ذلك النص الكريم تربية للنفس المؤمنة ، وعلاجاً لتترك أمر مذهبهم أفوه بأمر حسن عرفوه وذاقوا حلاوته •

ولم يجد عمر المدرك بنور الله فى ذلك بياناً شافياً ، لأنه يرغب فى نهى قاطع لا تردد فيه •

ولقد نزل بعد ذلك الأمر الحاسم القاطع نهياً لازماً فقال تعالى :

« يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام ، رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلمكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (١) •

وقد قال علماء البلاغة ان قوله تعالى « فهل أنتم منتهون » هى أبلغ صيغ

النهى ، ويجدر بنا هنا أن ننبه الى أمرين •

أولهما — أن أهل الجاهلية فى هذا العصر يقولون انه لم يكن ثمة نص على النهى مثل قوله : « لاتشربوا » وان ذلك القول المتألفه كان غير جدير بالالتفات اليه ، واكن كثر ترده ، فحق علينا البيان فنقول :

ان النص الكريم شدد فى النهى من وجوه كثيرة — أولها — أنه قرن الخمر والميسر بالعبادة بالذبح على النصب ، وتلك قرينة التحريم فى ذاتها •

— وثانيها — أنه وصفها بأنها من عمل الشيطان ، وأنها رجس ، أى أمر قذر فى ذاته ، فهى ضارة ، ولا تتقبلها النفس الفطرية ، ومضارها الجسمية معلومة لكل مدرك أريب •

— وثالثها — أنه طالب باجتنابها ، والاجتناب يقتضى البعد عنها ، وعن مجالسها ، وعن شاربها ، وذلك أبلغ من قولك : لا تشربها •

ورابعها — أنها تدفع الى العداوة والبغضاء ، وهما أمران مفسدان ، مقوضان لبناء المجتمع •

وخامسها — أنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، والصلاة فرض لازم هو شعار الاسلام ، والصد عنه أشد الأمور فى الاسلام فهو حرام ، فكل ما يؤدى اليه حراماً مثله ، لأن ما يفضى الى الحرام يكون حراماً •



وسادسها — قوله تعالى ، « فهل أنتم منتهون » ، وقد قلنا انها أبلغ صيغة في النهي عن الفعل .

— الأمر الثاني — الذى يجب التنبيه اليه هو أن الخمر كل ما يخامر العقل ، ويستنزفه ، ويمنعه من الادراك المستقيم ، سواء أكان النىء من ماء العنب أم كان المطبوخ منه ، وسواء أكان من العنب أو البلح ، أو غيرهما .

وعندما نزل ذلك النص القاطع في التحريم أراق الصحابة كل ما عندهم من أدنان الخمر ، ولم يكن فيها النىء من ماء العنب ، بل كانت كلها أنبذة .

فكل شراب من شأنه أن يسكر أو يؤدى الى السكر يكون حراما سواء أكان نبيذ العنب أو التفاح أو البلح أو البصل أو نىء القصب ، وسائر ما يختزعه ابن الانسان ليفسد عقله ، وسواء أكان سائلا أم كان جامداً .

ولقد عرضنا لهذا الأمر لأن بعض الفقهاء الكبار ظن أن الخمر هي التي من ماء العنب اذا غلا واشتد وقذف بالزبد ، فتعلق به الجاهلون ، وحسبوا أنه يبيح الأنبذة ، وهو يعلم أنها مسكرة ، وطاروا بذلك القول ليستبيحوا الخمر ويبيحوها ، ونقول ان ذلك الامام الجليل قد أخطأ ، وما كان عليهم أن يقلدوه في الرأى لیتمكثوا من شربها ، بل كان عليهم أن يقلدوه في فعله ، فقد قال رضى الله عنه وعفا عنه : « لو غرقت في الفرات على أن أنتاول قطرة من هذه الأنبذة ما تناولتها » .

٢٠٦ — وان القرآن اذ شدد في تحريم الخمر ، فإنه يعتبر ارتكابها جريمة تستحق العقاب ، ولكن ليس في القرآن نص على عقوبة لها ، وفيه نص على جريمة هي في كثير من الأحيان نتيجة لها ، فان السكران لا يدرى ما يقول فينطق برفث للقول وبالنسوق ، وهي جريمة القذف . ولقد قال على بن أبى طالب في الارتباط بين الجريمةين ، قال في عقوبة الشرب : اذا شرب افترى ، فيحد حد الاثراء ، وهو حد القذف .

وقد ترك تقدير العقاب بالنص الصريح ، أو بالعمل المبين للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال في

الشارب « اذا شرب فاضربوه ، فاذا عاد فاجلدوه ، فان عاد فاقتلوه » •

وقد قيل له عليه السلام اننا بأرض برد نستدفيء بالخمير ، فقال عليه السلام لا تشربوها ، فقال القائلون انهم لا يستطيعون ، فقال عليه السلام • فقاتلوهم •  
البعي :

٢٠٧ — جريمة البغي تعرض القرآن الكريم لبيانها ، والبغي معناه الخروج عن طاعة الامام العادل بقوة لتأويل تأولوه ، فيشترط لتحقيق جريمة البغي ثلاثة شروط :

أولاً — أن يكون الامام عادلاً •

وثانيها — أن يكون البغاة لهم قوة تعسكر مناوئة لحكومة الامام •

وثالثها — أن يكون خروجهم لاقامة العدل لا لمجرد الخروج ، والمحاربة والسعي في الأرض بالفساد ، وبذلك يفترقون عن قطاع الطريق ، لأن قطاع الطريق يخرجون على الحاكم من غير تأويل للفساد ، وانتهاك حرمة العباد وقد كانت عقوبة أهل البغي قتالهم من غير أن يكفروا ومن غير أن يعتبروا محاربين ، بل يقاتلون حتى تنقل شوكتهم ، وأن على المؤمنين أن ينصروا الامام العادل •

وهذا نص ماجاء في كتاب الله تعالى خاصاً بذلك : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ، فان فاعت ، فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون (١) » •

ويستفاد من هذا النص الكريم أنه قبل القتال يجب العمل على رَأب الصدع بجمع القلوب المتشرقة ، وتحرى أسباب التقاتل بين الطائفتين ، فان أمكن إزالة أسباب الخصام ، فانه بهذا يستقر السلام ، وان تبين الظلم من احدى الطائفتين كانت الباغية ، وحل قتالها ، وكان القتال فرضاً كفائياً على المؤمنين ، يعاونون

العادل ، ويدفعون الآثم •

وتدل ثانياً على أن القتال له غاية ، وهو أن تعود الى أمر الله تعالى ، ويستقيم أمرها على جادة العدل • فلا يؤسر منهم أسير ، وبالتالي لا يسترقت منهم ، ولا تنهب أموالهم ، ولا يجهز على جريحهم •

وتدل ثالثاً على أنها ان عادت الى صفوف المؤمنين تعامل بالعدل ، ولا تعامل بالانتقام ، فليست بينها وبين الحاكم خصومة ، انما بينهما الأخوة الجامعة ، ولذلك عقب ذكر العقوبة بقوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » (١) •

وقد ذكر حكم البغاة مجملاً ، ولم يكن بغى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الخروج على حكمه كفر ، وليس ببغى يكون أساسه التأويل ، فلا تأويل ، وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صريح •

وكذلك لم يحدث بغى في عهد أبى بكر ، بل حصلت ردة ، وكفر ، وكذلك لم يحصل بغى في عهد الفاروق ، وفي عهد عثمان كان بغى ، ولم تكن مقاومة للبغاة ، حتى قتل الشهيد ذو النورين رضى الله عنه قتلة فاجرة وفي عهد على فارس الاسلام والمجاهد الأول بعد النبي صلى الله عليه وسلم كان البغى ، بشرطه •

فقد خرج الخارجون على الامام العادل على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وزعموا أن لهم تأويلاً ، بدعواهم أن الذين أيدوه هم قتلة عثمان •

وتصدى على رضى الله عنه لمقاومتهم ، بعد أن حاول رتق الفتق ، واصلاحه بالموعظة ، حتى أرادوه على القتال ، وخرجوا اليه في صفين •

ثم خرج الخوارج من بعد ، وهم أشد البغاة تطرفاً في بغيتهم ، وكان القتال بين أهل العدل ، وأهل البغى ، ويلاحظ أن علياً رضى الله عنه لم يجرد سيفه للقتال مهاجماً الا بعد أن قتل معاوية عمار بن ياسر ، عندئذ تجرد على ، وهجم بجنده لأنه علم أنهم بغاة حقاً ، اذ قال عليه السلام لعمار تقتلك الفئة الباغية ، ولا تريد أن نخوض فيما قاله الفقهاء • فاننا نذكر الحكم من غير تفصيل •

### • — المعاملات المالية

٢٠٨ — اشتمل القرآن الكريم على بيان الحلال والحرام في الأموال وطرق كسبها ، ولكن بيانها كان اجمالياً ولم يكن تفصيلاً كالأسرة لأن المعاملات مختلفة في تفصيلها وطرقها ويجمع أحكامها قواعد عامة تعرض القرآن لبيانها • وذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيانه فيها •

وأول ما أمر به القرآن بالنسبة للمعاملات عدم أكل أموال الناس من غير أساس من التعامل المشروع أو الانتاج مما أخرجت الأرض • ومن التحويل في الصناعات المختلفة • فقد قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكوا أموالكم بينكم بالباطل • الا أن تكون تجارة عن تراض منكم • ولا تقتلوا أنفسكم • ان الله كان بكم رحيمًا » (١) •

وان هذا النص يدل على أمور ثلاثة : أولها — النهى عن أكل مال الناس بالباطل أى بغير حق موجب • وثانيها — أن أساس التعامل بين الناس هو التراضى فيما أباح الله تعالى به • وثالثها — أن أكل الناس بالباطل وشيوعه مثل شيوع الرشا والربا ، وغيرهما من المعاملات الفاسدة التي تتضمن في ذاتها أكل الأموال بالباطل يؤدي الى ضياع قوة الأمة ، وقتل روح التعاون في الجماعات ، ولذا كان قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيمًا » •

ولقد صرح القرآن الكريم بالنهى عن الرشوة ، وخصوصا رشوة الحكام التي تذهب بالثقة ، وتفسد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وتجعل أمور الناس فوضى ، فقد قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (٢) •

وان هذا النص الكريم يدل على حرمة الرشوة ، وقد سماها في موضع آخر السحت ، ويدل على أن الرشوة أكل لأموال الناس ، وافساد للحكم ، وضياع للعدل وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام في أن الأصل للعلاقة بين الناس ، وهو مراعاة العدالة •

وقد ذكر القرآن أن من أسباب ضياع اليهود • وفساد الحكم فيهم السحت •  
وقد قال تعالى فيهم : « سماعون للكذب آكالون للسحت • فان جاءوك فاحكم  
بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وان حكمت فاحكم  
بينهم بالقسط ، ان الله يحب المتقطين » (١) •

ومن الأكل المال بالباطل تطفيف الكيل أو الميزان أو تقدير الأشياء بأى نوع  
من التقدير فقد قال تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم حتى يبلغ أشده وأوفوا  
الكيل ، والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان  
هذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » (٢) •

وقال تعالى : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا  
كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم  
الناس لرب العالمين ، كلا ان كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين ، كتاب  
مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به الا كل معتد  
آثيم • اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا  
يكسبون » (٣) •

وترى من هذا الوعيد الشديد للذين يطففون ، الذين يظلمون الناس في الكيل •  
وقد يقول قائل لماذا اختص القرآن من بين المعاملات المادية ايفاء الكيل  
والميزان بالذكر •

ونقول ان الوفاء في الكيل والميزان صورة حسية لعدالة المؤمن في المعاملات،  
ويتحقق فيها بالحس معنى قوله عليه السلام « عامل الناس بما تحب أن  
يعاملوك به » •

فالأمر بوفاء الكيل والميزان أمر بالعدالة النفسية والأدبية في كل العلاقات  
الانسانية • وقد اهتم القرآن بذلك •

٢٠٩ - وان الإسلام لحرصه على أن يكون التعامل على أساس سليم من

(١) المساندة : ٤٢ (٢) الانعام : ١٥٢ •

(٣) المطففين : ١ - ١٤ •

العدالة ، والرضا الصحيح • أمر بكتابة الديون والعقود ، والأشهاد عليها لكيلا تكون مشاحة والمشاحة تؤدي الى المنازعة ، بله أكل أموال الناس بالباطل ، ولذا قال سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملأ الذي عليه الحق ، ولينق الله ربه ، ولا يبغض منه شيئا • فان كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أو لا يستطيع أن يملأ هو فليملأ وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم • فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احدهما ، فتذكر احدهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أمسط عند الله ، وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم • وان كنتم على سفر ، ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ، فان أمن بعضكم بعضا ، فليؤد الذي أؤتمن أمانته وأيتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم » (١) •

هذا نص شامل من نصوص القرآن الكريم معجزة هذا الوجود ، وهو يدل على أمور :

أولها : لزوم كتابة الدين ، وأن تكون هزم الكتابة يتولاها كاتب عدل مأمون تحريف القول ، أو تغييره ، وأن على هذا الكاتب أن يجيب إذا دعي الى الكتابة • والكتابة مطلوبة في الأحوال سواء أكان الدين صغيرا أم كبيرا بشرط أنه مقدار يدخل في معنى عرفنا •

ثانيها : أن الذي يملأ الدين هو من عليه الدين • فان كان ضعيفا لا يدرك

العقود • أو سفيها لا يحكم التصرف • أو كان لا يستطيع أن يملئ لضعف  
في بيانه • أو في تعبير : يملئ ولي يختاره • أو يكون مختاراً له من قبل  
القضاء المهيم أو الشرع •

ثالثها : أنه لا يستثنى من الكتابة إلا التجارة الحاضرة التي تدار بين التجار  
كأن تكون سلعة عند تاجر • فيأخذها من جاره • أو متعامل معه على أن يرسل  
إليه الثمن لهذه التجارة الحاضرة ان باعها فلتسهيل التعامل استثنيت من الكتابة •  
رابعها : أنه اذا كان الدائن والمدين على سفر • ولم يجدوا كاتباً • فان الرهان  
التي تقبض تقوم مقام الكتابة في الاستيثاق من وفاء الدين •

خامسها : أنه لا بد من الشهادة بأن يكون ثمة شاهدان يحضران الاملاء ، فان  
لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان على أن يكونوا جميعاً من العدول ، والشهادة لأجل  
الأداء عند الارتياح أو المشاحنة • ولذلك قال تعالى : « أن تضل احدهما فمتذكر  
احدهما الأخرى » أي عند الأداء •

هذا تفصيل محكم جاء في محكم التنزيل ، واذا علمنا أن مشاحات الناس  
أكثرها في المداينات والمبايعات ، سواء أكانت في داخل الاقليم ، أم في أقاليم  
علمنا لماذا عنى القرآن الكريم المنزل من عند الحكيم العليم بالمداينات والعقود  
تلك العناية •

وان تعجب فاعجب من قول كثيرين من الفقهاء أن الأمر هنا للارشاد لا للالزام  
وعجبنا من أن يتصوروا أن ذلك التفصيل ارشاد ، وليس حكماً تكليفاً • والله  
أعلم بكتابه •

### أربا في القرآن :

٢١٠ - من وقت البعث المحمدي والاسلام لا يرى التعامل بالربا علاقة مالية  
صالحة ، بل انه في الآية التي نزلت بمكة كان فيها استنكاراً ، وعده عملاً غير صالح  
اقرأ قوله تعالى في سورة الروم المكية :

« وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس ، فلا يربو عند الله • وما آتيتم من

زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المفلحون » (١) •  
 وهذا النص يفيد أن الربا لا يرضى عنه الله • وإن كان فيه زيادة فهي زيادة  
 آثمة • وإذا كان المتعاملون يريدون أن يتضاعف مالهم فسيبيل ذلك هو اعطاء شطر  
 من المال للسائل والمحروم • فإن المال ينمو بذلك وتكون الزيادة خيراً لأن ذلك  
 السبيل هو التعاون وجاءت من بعد ذلك في المدينة الآيات المحرمة للربا تحريماً  
 قاطعاً حاسماً • منها قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافاً  
 مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التي أعدت للكافرين ، وأطيعوا  
 الله والرسول لعلكم ترحمون » (٢) •

والربا المذكور هنا ، وفي الآية التي تلونها من قبل ، وفي الآية التي سنتلونها  
 من بعد هو الزيادة في الدين نظير الاجل ، فليس هو الدين ذاته ، إنما هو الزيادة ،  
 ونذكر هذا تصحيحاً لفهم بعض الذين يبيحون الربا أو بعضه ، فقد قال قائل منهم  
 عفا الله عنه ان المحرم هو ما زاد على ضعف الدين • وسارع الى تصديقتهم بعض  
 الثانونيين الذين يؤمنون بما في هذا الزمان أكثر من ايمانهم بالقرآن •

والوصف بالمضاعفة للزيادة في هذا الزمان هو لبيان قبح ما يؤدي اليه الربا •  
 إذ تتضاعف الزيادة مضاعفة كثيرة ، وفي ذلك ما فيه من ارهاق المدين • وقبح حال  
 الدائن • وأكله المال بالباطل من غير عمل ولا كد • ولا تعرض للخسارة •

ولقد نزلت آية في تحريم الربا تحريماً لا يقبل أى تأويل • ولو كان فاسداً  
 كالذى قيل في معنى الربا في الآية السابقة ، فقد قال تعالى : « الذين يأكلون الربا  
 لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما  
 البيع مثل الربا • وأحل الله البيع وحرم الربا • فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى  
 فله ما سلف • وأمره الى الله • ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ،  
 يحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم • ان الذين آمنوا وعملوا  
 الصالحات • وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم • ولا خوف عليهم



ولا هم يحزنون • يأيها الذين امنوا اتقوا الله • وذروا ما بتى من الربا ان كنتم مؤمنين • فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله • وان تبتم فلکم رعوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون • وان كان ذا عسرة فنظرة الى ميسرة • وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون • واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله • ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (١) •  
هذا نص صريح قاطع في التحريم •

٢١١ — ولكن قوماً ممن تعلموا علم الاسلام لم يأخذوا بظاهر معناه • بل لأنهم عودوا المناقشة اللفظية في الألفاظ • والقاء ظلال من الابهام على معانيها الواضحة البينة • وقد لانت نفوسهم • وأخضعوها لحكم الزمان • لا لحكم القرآن • وكأنهم تعلموا ليخرجوا الكتاب على غير مخارجه ، ويتأولوه بغير متأوله • ومرنوا على ذلك • وأضلوا كثيراً بعد ضلالهم •

أانذا جاءك رجل وقيل لك أشك في أن هذه الشمس التي هي السراج المنير هي الشمس المذكورة في القرآن أتصدق له قولاً • أم تحسب لكلامه وزناً • أم تجعله في ظل العلماء المشتغلين بالدراسات الاسلامية أياً كان لونها ، وأياً كان زيهم • ان رأيت ذلك ففى المتفهمين من الذين يتكلمون في القرآن وعلوم الاسلام من قال ان عمر قال : ان للربا تسعة وتسعين وجهاً ، ثم يردفون ذلك بأن يقولوا ان لفظ الربا في القرآن كان غير معروف لعمر • فكيف يكون واضحاً لدينا • كبرت كلمة تنطق بها أفواههم التي أئمت بالقول في كتاب الله تعالى بغير علم • من هؤلاء تجدنا مضطرين لأن نشرح معنى كلمة الربا • وان كنا نقول ان الشمس التي نراها هي التي في القرآن •

ينول أبو بكر الرازي الشهير بالجصاص في كتابه أحكام القرآن ان الربا قسمان ربا لغوى يعرف من اللغة • وهو ربا القرآن • وهو ربا الجاهلية وهو أن يزيد في الدين في نظير الزيادة في الأجل • والقسم الثاني هو الربا الاصطلاحي وهو الذى

جاء في الحديث « الذهب بالذهب مثلاً بمثل يداً بيد والفضة بالفضة مثلاً بمثل يداً بيد • والتمر بالتمر مثلاً بمثل يداً بيد • والبر بالبر مثلاً بمثل يداً بيد • والشعير بالشعير مثلاً بمثل يداً بيد • والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد • فمن زاد أو استزاد فقد أربى • فهذا النوع من التعامل سماه النبي ربا فكان ربا بمعنى الاصطلاح • وهو الذى فيه الوجوه الكثيرة •

أما ربا القرآن فهو ربا الجاهلية • وهو الذى قال فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع : « ألا ان ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا أبداً به هو ربا عمى العباس بن عبد المطلب • فان تبتم فلکم رعوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون » •

والربا الجاهلى معروف وهو الزيادة فى الدين فى نظير الأجل فان سدد فى عام كانت الزيادة واحدة ، وان لم يسدد ضاعف الزيادة وهكذا مما نراه فى المصارف فى هذه الأيام •

ولكن الذين يثيرون الشك حول الشمس والتمر المذكورين فى القرآن يثيرون الشك فى ربا الجاهلية • فيقول ، ليس ربا الجاهلية هو الربا الذى يكون فى القروض الاستغلالية ، لأن المقترض يستغل الدين فيكتسب فيكون من عدلهم الزعوم أن يجعلوا للدائن سهماً محدوداً فى الدين سواء أضرر المقترض أم اكتسب ، ويقصرون ربا الجاهلية على الربا الذى يكون فيه قرض استهلاكى يقترض المدين ليدفع حاجات ضرورية ، ويكون الربا فى هذه الحال منافياً للمروءة والخلق الكريم ، ذلك تأويلهم الذى لاسند له من نص ، أو قياس معقول ، ولكنه تفكيرهم الذى يخرجون به عن حدود النص •

٢١٢ — ان التأويل بتخصيص لفظ عام فى القرآن يكون بتخصيص من القرآن نفسه ، أو بتخصيص من المفسر الأول للقرآن وهو النبي ، فكل تخصيص لعام القرآن الكريم من غير ذلك يكون حكم الهوى فى القرآن ، ويكون رداً على صاحبه ونفط القرآن عام يعم الربا فى القرض الاستهلاكى والاستغلالي على سواء ، وهذا عقوق أن ذلك التأويل الشاذ عند علماء الشريعة فيه مصادمة للنص القرآنى ، من

غير دليل ، فان النص القرآنى فيه مايدل على بطلان ذلك التأويل الذى دفع اليه الهوى ، والحال التى كانت عليه البلاد الحجازية تناقضه . والحوادث التى كانت فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تقاومه لما يأتى :

أولاً — أن المشركين قالوا مقالة أولئك الذين يحكمون هواهم فى القرآن ذلك أنهم برروا أكلهم الربا بأن شبهوه بالبيع . وقال الله فيهم « ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا » ومؤدى كلامهم أنهم يعتقدون مشابهة بين مايكسبه المقترض بالبيع والشراء ، والاتجار فى الشام وفارس ، بما يأخذه المرابى من ربا ، أى أنهم يقولون انه بعض مما يكسبه المقترض بالبيع والشراء . وهو جزء منه . فرد عليهم بأن البيع حلال ، لأن الكاسب بالبيع يتحمل كسباً وخسارة . وحرم الربا لأنه الكسب من غير تعرض للخسارة . وبذلك يكون الكسب من البيع طبيعياً . بالربا يكون غير طبيعى لأن النقد لا يلد النقد .

وثانياً — قوله تعالى : « فان تبتم فلکم رءوس أموالکم » فان التعبير عن الدين برأس المال انما يكون فى المال المتخذ للاستغلال . ولا يقال رأس المال للمال المتخذ لإستخدامه فى الضرورة . فكان هذا دليلاً من النص يفيد أن التحريم وارد فى القرض الاستغلالى ابتداء . والاستهلاكى تبعاً . ذلك أن النص بعمومه يحرم كل زيادة . لأن أى زيادة تنقض التوبة وتكون ظلماً .

وثالثاً — ان أحوال أهل مكة والطائف تجعل القرض للاستغلال هو الغالب بينهم . وأن القرض للاستهلاك لم يكن شائعاً بينهم . فقد كان أهل مكة وما حولها تجاراً ينقلون بضائع الروم الى الفرس عن طريق الشام واليمن . وينقلون بضائع الفرس الى الروم عن هذه الطريق أيضاً . . ولذلك كانت لهم رحلتان تجاريتين احداهما رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام . كما قال تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع . وآمنهم من خوف » (١)

وإذا كانت مكة والطائف بلدين تجاريين ، فلا بد أن نتصور أن منهم من كان يتجر بنفسه بائعاً مشترياً ، ومنهم من كان يتجر بطريق غيره . فيعطى لمن يتجر بنفسه على أن يكون الربح بينهما بنسبة معاومة ، والخسارة تكون على صاحب رأس المال ، كما كان يفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مال خديجة بأمانة الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومنهم من كان يدفع المال الى غيره على أن يكون له كسب محدود مما يتول الى التاجر ، كسب التاجر أو خسر ، وقد روى ذلك من معاملات قريش ، فقد كان ذو المال يدفع المال الى التاجر على قدر من المال هو الربا . فإن سدد أخذ رأس المال مع الزيادة ، وإن لم يأخذه أبقى المال وضاعف الزيادة ولذلك أثر عن الربويين أنهم يقولون للاميين ادفع أو ضاعف والمراد مضاعفة الزيادة .

وقد قال أصحاب السيرة في مقدمات غزوة بدر أن قريشاً كلها خرجت بكل مالها للتجارة حتى حلى النساء . فأرادها أهل الحق كما صادروا من أموال المؤمنين . فاستنفر أبو سفيان قريشاً ، وخرج الجند لحماية العير ، فكانت الغزوة ، ولا بد أن يكون في هذا المال . ما كان من مال المتاجرين ، وما كان من مال غيرهم أخذ للتجارة وما كان ديوناً مأخوذة ليستغلها المديونون .

ورابعا - أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال في تحريم ربا الجاهلية وأول ربا أبدأ به ربا ، عمى العباس بن عبد المطلب ، ولا يتصور من العباس رضى الله عنه أن يكون عربى محتاجا لتقدر من المال في أموره الضريبية . فيأبى الا أن يقرضه ربا ، وهو الذى كان يسمى الهجيج في موسم الحج نقيع الزبيب والتمر .

وخامسا - أنه لوحظ في بعض أخبار العرب أن الأثرياء كانوا يقترضون . فكان أبو جهل عليه دين للرجل ليس من قريش وماطله . فاستعان بتريش لتحمله على الوفاء . فسخروا منه ، وأشاروا عليه بأن يستعين بمحمد بن عبد الله ورسول الله ، فأعانه . فقد قال الرسول القوى الأمين . بعد أن صك الباب صكة أرعدت مفاصله : أد للرجل دينه فأداه صاغراً غير كابر .

ويروى أن بنى المغيرة قد استدانوا من ثقيفة قبل أن يسلم الفريقان ، فلما جاء القرآن بالنهي عن الربا ، وأنه موضوع ، اختلف الدائن الثقفى مع المدين من بنى المغيرة ، أيحتسب من رأس المال ما أخذ من ربا من قبل التحريم أم لا يحتسب ، أراد المدين أن يحتسب ، وأراد الدائن ألا يحتسب ، فاحتكموا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • فحكم بينهم بمقتضى النص القرآنى •

وان بنى المغيرة لم يكونوا فقراء • بل كانوا قوما من الأثرياء ، وفيهم من قال الله تعالى فيه « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا وبينين شهودا ، ومهدت له تمهيدا » (١)

ومنهم من يدعى أن النبوة لا تكون الا فى رجل ثرى عظيم فى منظره ، وقال سبحانه عنه « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » الآيات (٢) •

وإذا كان ما بين الأغنياء من تقارض بزيادة • فدعوى اخراج القرض الاستغلالى من نطاق الربا دعوى باطلة ، وهى تدل على أن القائلين أخضعوا حكم القرآن لحكم الزمان • فضلت مداركهم ، وزاغت قلوبهم « ربنا لا ترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة • انك أنت الوهاب » (٣) •

وسادس الأمور التى تثبت أن ربا القرآن يعم القرض الاستغلالى ، واقترض الاستهلاكى أن العرب فى حياتهم البدائية كانوا يقومون على أدنى معيشة من المادة • فما كانت لهم مطالب متعددة • وما كانوا يحتاجون الى جهاز لابنة يجهزونها ، ولا لأنواع من الأطايب يطلبونها • بل يكتفون بالقليل ، وهؤلاء لا يكون فيهم قرض للاستهلاك أبداً • ان تعدد ألوان المطالب التى قد تضطر للاقتراض لقضائها ، وليد حياة متحضرة ، ولم يكن هنا حضارة عند أهل البادية • ولذا نقول : ان ربا الجاهلية ، وهو الربا المحرم فى القرآن ، يكاد ينصب على قرض الاستغلال ابتداءً • والثانى يجىء من عموم النص ، وفى التعاون بالزكاة غنى عن الاقتراض للاستهلاك •

(١) الدرر : ١١ — ١٤

(٢) الزخرف : ٣١

(٣) آل عمران : ٨

## شيوع الربا :

٢١٣ — لقد شاع التعامل بالربا ، حتى صار يسيطر على النظام الاقتصادي ، ويقول اقتصاديو هذا الزمان : كيف يسوع ترك التعامل بالربا وهو قوام الاقتصاد الحاضر ؟

ونقول : ان هذا الزمن هو الذى تحققت فيه نبوءة رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ يقول : « يأتى زمان على الناس يأكلون فيه الربا ، قيل : الناس كلهم يا رسول الله ؟ قال : من لم يأكله ناله غباره » .

وان الذين أدخلوا هذا النظام فى كل قارات العالم هم اليهود ، وأذكر منهم آل رونشيلد ، الذين وزعوه فى القارات ونشروه ، وسيطروا على العالم الاقتصادي ، وكان الربا سبيلا للاستعمار فى البلاد الاسلامية ، وخصوصا العربية . ومهما يكن مصدر الربا ، ومهما يكن الذين أشاعوه ، فاننا نقرر حقيقتين :

أولاهما — أن تحريم الربا ليس بسبب خلقى ، حتى يقصر التحريم على القروض الاستهلاكية ، كما يتوهم بعض المتفكحة ، انما الأساس فى تحريمه اقتصادى ، فالإسلام يدعو الى نظام اقتصادى يقوم على منع الربا ، لأن الربا من شأنه أن يجعل رأس المال منتجا من غير عمل عامل ، بل من غير تحمل تبعة العمل . واذا ساد وجدت طائفة من الناس يتخذون التعطل سبيلا ويأكلون ثمرات غيرهم من التجار والزراع والصناع . ولقد قرر المحققون من الذين درسوا الاقتصاد الحقيقى أن الكسب بالانتظار لا ينمى الأمة اقتصاديا ويفسدها اجتماعيا ، اذ أن الكسب بالانتظار لا ينتج ، انما الذى ينتج هو الذى يعمل زارعا ، أو تاجرا ، أو صانعا . وانك اذا درست ما أحله الله تعالى وما حرمه من المكاسب ، تجد أن المكاسب التى أحطها الإسلام ، هى التى تزيد ثروة الأمة وتنمى انتاجها ، أو تنفع الناس ، والمحرم من المكاسب ما لا ينمى ثروة الأمة ولا ينفع الناس ، ولا شك أن الكسب بالربا ليس فيه تنمية للثروة . ولا عمل لنفع انما الذى يكون منه هذا هو المقترض ، فبأى حق يأخذ المتعطل منه ثمرة عمله من غير تحمل لخسارة ان كانت .

الحقيقة الثانية — أن التعامل في الإسلام يقوم على أساس التعاون ، وأن يفيض ذو المال على من لا مال عنده ، ويتعاونتا على الاستغلال بأن يكون ثمة مشاركة في الكسب والخسارة • ولذلك كانت المضاربة الشرعية ، أو ما يسمى شركة مساهمة ، ومعناها أن يدفع المال لمن يستغله على قسمة الربح بينهما • وهو المبدأ الذي تقوم عليه الشركات المساهمة • وأن هذا النوع هو الذي يتفق مع مبدأ التعاون الذي دعا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (١) •

وهذا غير الربا لأنه استغلال من جانب المرابي ، والعمل على غيره من غير أن يتعرض للخسارة ، وهو يؤدي إلى التنازح •

وقد قرر المجددون من علماء الاقتصاد أن سبب الآفات ، التي تقع هو من نظام الفائدة ، وأن ذلك النظام سبب يقلته مع فساده ، وإدراك الناس لهذا الفساد أنه لا يوجد نظام يحل محله •

٢١٤ — وأخيراً نقرر أن النظام الاقتصادي في الإسلام لا يقوم على الربا ، بل انه يناقضه ، لأنه يجعل صاحب رأس المال يكسب من غير عمل ، ومن غير تعرض للخسارة •

وان الذي يلاحظ أن العالم الآن يحكمه نظامان :

أحدهما — يجعل رأس المال كاسبا دائما ، من غير أن يقوم صاحبه بعمل يتحمل تبعاته ، ويؤدي به خدمة عامة تنفع الناس ، وتمتد الجماعة بالخير ، فعملهم في الحياة أن يملكوا رأس المال وغيرهم يعمل ويستغله كاسبا وخاسرا ، ثم يجيء اليهم المال رزقا رخيصا ، ليس مكسوا بجهد عامل •

وثانيهما — نظام يلغى رأس المال ، ويجعل العمل وحده هو طريق في مصنع يصنع ، أو في حقل يزرع ، أو أي عمل ينتفع الجماعة •

والنظامان يتناحran •• وقد يؤدي التناحر الى أن يأخذ بعضهما من الآخر قليلا أو كثيرا •• أفلا يتسع الوجود الانساني في ذلك المضطرب لنظام يحترم رأس المال ، على أن يعمل فيه صاحبه يكسب من حلال وينتج ما ينفع الناس • فيكون نعم المال الصالح في يد العبد الصالح ، ويمنع أن يكون كسب لأى مال من غير أى عمل وتحمل الخسارة ، أى أنه يمنع الكسب بالزمن ، انما يكون الكسب بالعمل ، وبرأس المال الذى يعمل فيه صاحبه •

ذلك هو نظام الإسلام الذى سينتهى اليه العالم ان عاجلا أو آجلا •

وو أن الذين يعملون في الاقتصاد من المسلمين يؤمنون بالقرآن كايماهم بنظم هذا الزمان ، لكانوا الدعاة الى اقتصاد القرآن • وعساهم يفعلون •



## ٦ — العلاقات الدولية في القرآن

٢١٥ — القرآن يذكر أن الإنسانية كلها أمة واحدة • ويقول سبحانه وتعالى

في ذلك :

« كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » (١) •

وان النصوص القرآنية تدل على وحدة الإنسانية في خلقها وأصلها ، فالله

تعالى يقول :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » (٢) •

فالرحم بين بنى الإنسان موصولة ، واذا كانت الألوان مختلفة والألسنة مختلفة ، والأجناس متباينة ، فان الأصل واحد ، ويجب أن تكون العلاقات مبنية على الأصل الموحد ، لا على التخالف الظاهر • يجب أن تبني الأمور على الجذع لا على الغصون المتفرعة •

ولقد حد الله تعالى في كتابه الكريم حدود العلاقة الانسانية ، فقال تعالى :

« يأيها الناس انا خافتاكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم • ان الله غليم خبير » (٣) •

فبهذا النص يبين القرآن الكريم أن العلاقة التي يجب أن تكون السائدة التعارف • والتعارف تكون معه المودة ، والتعاون ، وقرار السلام ، واحياء التراحم •

٢١٦ — واذا كان التعارف هو الأصل الجامع للشعوب والقبائل والأجناس ،

قالسلام لازم من لوازمه وهو الأساس لكل تعارف ، فلا تعارف يوجب المودة مع الخصام والتناحر والتحارب •

ولذلك كان الأصل في علاقات الدول بعضها مع بعض ، أو بعبارة أدق العلاقة بين المسلمين وغيرهم في السلم لا الحرب ؛ فالمسلم ينظر الى من يخالفه نظرة الود والراحم ، لا العداوة القاطعة • ولذلك يقول سبحانه وتعالى : « ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، فان زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم » (١) •

وإذا قامت الحرب بين المسلمين المؤمنين بالقرآن ، فان الإسلام يتشوف للسلم يبتغيه ، ولا يريد الاستمرار في مذبحه بشرية ، فان مالوا للسلم أجابهم المسلمون ، ولو كانوا يتوقعون الخديعة ، ما دامت لم تظهر أماراتها • ولذلك يقول سبحانه : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم ، وان يريدوا يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره ، وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم » (٢) •

وقد تربت النفس المؤمنة على المحبة ، فكانت تكره القتل والقتال الا أن يكون ذلك جهادا • ولذلك قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٣) • وكان القتال بالجهاد لدفع الشر وتعميم الخير ، لأن الإسلام يدعو الى الخير ، والى الفضيلة ، وفضيلة الإسلام ايجابية وليست سلبية ، فهي تدافع الرذيلة ولا تستسلم •

وإذا كان الوجود يتنازع فيه الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، فانه لابد من دفاع الخير • لقد أراد الإسلام المحبة ، ولكن أراد ابلّيس لهم البغضاء ، فكان لابد من النزاع بين مبدأ المحبة والبغضاء ، والا يدفع الشر ساد الفساد وعمت

(٢) الانفال : ٦١ — ٦٣

(١) البقرة : ٢٠٨ — ٢٠٩

(٣) البقرة : ٢١٦

الردائل • لذلك شرع مبدأ الجهاد لدفع الشر ، ومنع الفساد • ولقد قال تعالى :  
« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل  
على العالمين » (١) •

لذلك شرع الجهاد في الاسلام •• وأول الجهاد كان عقب الاعتداء وفتنة  
المسلمين وايدائهم ليرجعوا عن دينهم • عندئذ أذن الله تعالى بالجهاد وأوجبه ،  
فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين  
أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم  
ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا •  
واينصرن الله من ينصره • ان الله لقوى عزيز » (٢) •

ولقد قال تعالى أمرا المؤمنين بالقتال : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم  
ولا تعدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقتهموهم ، وأخرجوهم من  
حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل • ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى  
يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم • كذلك جزاء الكافرين • فان انتهوا فان الله  
غفور رحيم • وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله • فان انتهوا  
فلا عدوان الا على الظالمين » (٣) •

ويقول سبحانه مبينا أن القتال لأجل الاعتداء ، وأنه ينتهي بنهايته : « قل  
للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين ،  
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون  
بصير ، وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم • نعم المولى ونعم النصير » (٤) •

فما كان السبب ليستبيح دماء المخالفين لأجل المخالفة ، بل يستبيحها ، لأنهم  
استباحوا دم أهله ، ولأنهم أرادوا حمل المؤمنين على تغيير دينهم ، وفتنهم  
في ذلك ، والفتنة كما قال تعالى أشد من القتل •

٢١٧ - ولأن الإسلام في مشروعية الحرب هو دفع الاعتداء ، والفتنة

(٢) الحج : ٤٠

(١) البقرة : ٢٥١

(٤) الانفال : ٣٨ - ٤٠

(٣) البقرة : ١٩٠ - ١٩٣

في الدين ، فان الاسلام أباح الهدنة اذا أرادها المخالفون ، وحسبها ودعا اليها •  
وقال تعالى في ذلك وقد أذن بالقتال العام :

« وأذن من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر ، ان الله برىء من  
المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير  
معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، الا الذين عاهدتم من المشركين ،  
ثم لم ينتصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ،  
ان الله يحب المتقين » (١) •

وفرض الإسلام هدنة اجبارية على المسلمين ان التزم بها المخالفون ، وهى  
ألا يكون قتال في الأشهر الحرم ، وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب  
الذى بين جمادى وشعبان •

وواجب ألا يبتدىء فيها المسلمون قتالاً ، الا أن يكون امتداداً للقتال والسكوت  
يضر • ولقد قال تعالى في ذلك : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله  
يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم • ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن  
أنفسكم • وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة • واعلموا أن الله  
مع المتقين » (٢) •

ولا قتال في الأشهر الحرم ؛ ما دام المخالفون يحترمونها ، فان انتهكوها  
غلا يصح لأهل الإيمان أن يظلموا فيهن أنفسهم • ويقول سبحانه وتعالى في ذلك :  
« الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص • فمن اعتدى عليكم فاعتدوا  
عليه بمثل ما اعتدى عليكم • واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين » (٣) •

ويقول سبحانه : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ،  
وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام • وإخراج أهله منه أكبر عند الله •  
والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا •  
ومن يرد منكم عن دينه قيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا  
والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٤) •

(٢) التوبة : ٣٦

(٤) البقرة : ٢١٧

(١) التوبة : ٣ — ٤

(٣) البقرة : ١٩٤

والإسلام اذ يقر الهدنة والعهود والمواثيق ، كما تلونا من كتاب الله ، يحترم هذه المواثيق ما احترمها المخالفون المناوئون واستقاموا عليها •

٢١٨ — ولا يبيح الإسلام القتل والقتال بالنسبة لمن يريد السلام • والله تعالى يقول في ذلك : « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فغيبونا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا • فعند الله مغنم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فغيبونا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا » (١) •

ولقد أمر القرآن الكريم أن يحترم الميثاق بالنسبة لأهله ، ولأن لهم به صلة • ولذا قال تعالى : « ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء • فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله • فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم • ولا تتخذوا منهم ولية ولا نصيرا الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم • فان اعتزلوكم • فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم • فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم • ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها • فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم • وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » (٢) •

ان هذا النص يدل — أولا — على ضرورة احترام المواثيق • وكف القتال عن أهل الميثاق — والذين له بهم صلة قومية • ويكون سلمهم سلما لهم • وحربهم حربا •

ويدل ثانياً — على أن الذين يكونون ذوى صلة بقوم بينكم وبينهم عداوة ، وحصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، أى أنهم لم يريدوا أن يكونوا مع المؤمنين على قومهم ، ومع قومهم على المؤمنين ، فهؤلاء لا يقاتلون •

ويدل ثالثاً — على أن الذين يترددون في موقفهم فهم يريدون السلامة لأنفسهم بمداهنة قومهم الذين يقاتلونهم ومداهنة المؤمنين فهؤلاء يحكم عليهم بالواقع ، فان لم يقاتلوا المؤمنين فلا سبيل عليهم ، والا كان قتالهم حقاً بذلك الموقف البادى •

وان هذا التقسيم يدل على أن القرآن الكريم يقرر نظرية الحياد • ويحترم  
المحايدين • فلا يرفع عليهم سيفاً • فالناس على ذلك في نظر القرآن الكريم ثلاثة  
أقسام :

محاربون للمسلمين ، وهؤلاء يجب قتالهم لرد اعتدائهم • والأخذ بالنواحي  
والأقدام من غير هوادة • وهؤلاء هم المعتدون بالقتال أو بفتنة المؤمنين كما قال  
تعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور  
قوم مؤمنين » (١) •

والتسم الثاني أهل الميثاق الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق عدم الاعتداء •  
وهؤلاء يحترم ميثاقهم بل يمتد احترام الميثاق الى الذين لهم به صلة • بحيث  
يكون سلمهم واحدة وحربهم واحدة •

والتسم الثالث المحايدون الذين لا يكونون مع المؤمنين • ولا مع أعدائهم واقعاً  
لأنه ما دام الاصل في العلاقات هو السلم الا اذا حدث ما يوجب القتال • فمن لم  
يكن منهم ما يوجبه فانه لاسبيل لأحد عليهم •

وقد فهم بعض الذين لا يدرسون المسائل دراسة فاحصة مستقرية أنه لا موضع  
للحياد في الفقه الاسلامي ، وذلك كلام من لم يمحص الحقائق • لأن القرآن الكريم  
كما ترى جعل للحياد موضعاً • وهم الذين يعتزلون الحرب مع المسلمين أو ضدهم •  
فقال لاسبيل عليهم • فكان الحياد ثابتاً بنص القرآن الكريم •

٢١٩ — واذا تلونا بعض آيات القرآن الكريم التي فتحت باب القتال جهاداً  
في سبيل الله نجدها صرحت بأن القتال كان للاعتداء من غيرنا بطريقتين : قتل  
المؤمنين • والاعتداء عليهم ، واخراجهم من ديارهم • والثاني بفتنتهم في دينهم ،  
كما قال تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (٢) أي كل  
انسان يعتنق ما يعتنق لارقيب على قلبه الا الله تعالى ، فلا اكراه في الدين •  
ولا فتنة فيه •

وهنا يسأل سائل ألم يبيح القرآن القتال الا دفاعاً ، أو رداً للاعتداء ، ولم

يبح الهجوم ، ونقول في الجواب عن ذلك ان القرآن صريح في أنه لا يباح القتال مع من ألقى السلام ، وبذلك يكون من المؤكد أن الاسلام لا يبيح الهجوم على الأمنين الذين يلقون السلام وان ذلك حق لا ريب فيه . لانه لا يباح الهجوم على من لا يعان العداوة على المؤمنين ولكن هل يمنع الهجوم مطلقاً ؟ وللجواب عن ذلك نقول :

ان الذى استتبط من صريح الآيات التى تلونها أننا لانحارب الا من اعتدى علينا أو فتننا عن ديننا . ومن الفتنة في الدين أن يمنع المتدين من اقامة شعائر دينه ، وأن يحال بين الحق والدعوة اليه .

انه في هذه الحال يكون القتال ، ولكن يزداد عليها اذا قامت العداوة التى ابتدأها غير المؤمنين بالاعتداء على المؤمنين ، ومحاولة غزوهم في ديارهم ، أو فتنتهم في دينهم ، فانه عندئذ قتال يتعين العدو المترصد الذى لا يألو المؤمنين الا خبالا ويودعونهم ، وارهاقهم ، فلا يكون الاقتصار في الحرب على الدفاع بأن ينتظر المؤمنون حتى يهاجمهم الاعداء ، وقد بدت عداوتهم وأعلنوها صريحة لا ابهام فيها ، انه كما قال بطل الجهاد على بن أبى طالب : ما غزى قوم في عقر دارهم الا ذلوا .

وبذلك نفسر قولنا ان المؤمنين ما قاتلوا الا ردًا للاعتداء بمثله أو توقفه ، ولقد تلونا الآيات التى تنهى عن قتل من لا يعتدى علينا . ومن يعتزل قتالنا ، ومن يلقى علينا السلام .

وإذا ظهر الاعتداء ، وما يسكت عنه الا للاستعداد لمثله . كان القتال مشروعاً بكل ضروبه لهؤلاء الأعداء بالهجوم على مآمنهم . وبالقصد الى مكائهم . ولذلك يقول الله تعالى : « فاذا انسلك الاشهر الحرم . فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . وخذوهم . واحصروهم . واقعدوا لهم كل مرصد . فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » (١) ، « وان أحد من المشركين

الاستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتهم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتسطين • كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون • اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا • فصدوا عن سبيله • انهم ساء ما كانوا يعملون • لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة • وأولئك هم المعتدون « (١) • ويقول تبارك وتعالى : « ألا تتقاتلون قوما نكثوا أيمانهم • وهموا باخراج الرسول وهم بدعوكم أول مرة • أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين • فاقتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم » (٢) •

ونرى من هذا النص أن الأساس هو الابتداء بالاعتداء • فاذا ابتداء الاعتداء وجب القتال بكل ضروبه دفاعا وهجوما ، بل ان خير الدفاع ما كان هجوما ، ولا سبيل لانهاء القتال مع المعتدين الا ياحدى خصال ثلاث : اما الاسلام ، وان يتوبوا ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويكونوا اخوانا ، واما بالعهد يعاهدونه ، ويوفون به فما استقاموا فالعهد قائم ، والا فانه ينطبق عليهم قوله تعالى « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » (٣) • واما الاستسلام • وان يخضعوا لأهل الايمان وقد قال تعالى في ذلك : « ياأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم • والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم » (٤) •

ويقول سبحانه : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب • حتى اذا أثخنتموهم ، فشدوا الوثاق فاماننا بعد • واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » (٥) •

٢٢٠ — وننتهي من هذا التتبع الى حقيقتين ثابتتين : — احدهما : أن محاربة

(٢) التوبة : ١٣ — ١٥

(٤) محمد : ٧

(١) التوبة : ٦ — ١٠

(٣) الانفال : ٥٨

(٥) محمد : ٤



المؤمنين لأى قوم لا يكون الا عند اعتدائهم باخراج المسلمين من ديارهم ، أو ايدائهم في دينهم • ومن الإيذاء أن يمنع الدعوة الى الإيمان من أن يلاقوا الشـعرب ويعرفوهم بالحق ، من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، لأنه لا اكراه في الدين ولكن بعد أن يتبين الحق من الباطل ، والغى من الرشد ، وذلك لقوله تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى » (١) •

الحقيقة الثانية : أنه اذا كان الاعتداء بأى ضرب من ضروبه ، فان باب الهجوم يفتح دفاعا وهجومًا. وغزوا والتقاء ، لا يمنع مانع الا ما توجهه الفضيلة •

وقد فهم بعض الناس أن القتال في الاسلام لا يكون الا دفاعا ، ولا يكون هجومًا ، وذلك خطأ • والحق أن القتال لا يكون لقوم اذا اعتدوا ، فان كان احد حل قتالهم دفاعا وهجومًا ، وهم في الحالين المعتدون الا أن يتوبوا أو يعاهدوا ويستقيموا •

وليس قتال المؤمنين ليكون باب الدعوة الى الإسلام مفتوحا يعد اعتداء من المؤمنين ، بل هو رد للاعتداء ، لأن القتال لأجل الدعوة لا يكون الا بعد أن يرسل المؤمنين دعاة للإيمان ، فان أجاب بعضهم ، ولم يضطهد في اعتقاده فانه لا قتال ، ومن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وان اضطهد كان الاعتداء بالفتنة ، فوجب القتال ردا للاعتداء بمثله •

وقد جاء الإسلام في عصر الملوك المتجبرين الذين كانوا يؤذون رعاياهم ، فكان منهم الاضطهاد لكل من تبلغه الدعوة ويؤمن ، وما أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الجيوش الى الشام الا بعد أن اضطهد الروم المسيطرون المسلمين الذين أسلموا في الشام وقتلواهم ، وما حارب الذين جاءوا من بعده الفرس الا لأن كسرى حاول أن يرسل من يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

ويلاحظ من يتلو آيات الأمر بالقتال أن فيها النهى عن الاعتداء • فالله تعالى يقول : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٢) •

والاعتداء المنهى عنه قسمان : أحدهما — الاعتداء بالقتال على قوم لم يعتدوا على المؤمنين ، وهم الذين ما جعل الله عليهم سبيلا •  
 ثانيهما — الاعتداء في القتال فيقتل من لا يقاتل ، فيقتل مثلاً الشيوخ ، والنساء والذرية ، فان هذا الاعتداء في القتال منهي عنه • ولذلك يقول تعالى :  
 « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، وانقوا الله واعلموا بأن الله مع المتقين » (١) •

وان من مقتضى هذه التقوى ألا يقاتلوا من لا يقاتل ، وألا يقطعوا الأشجار ، وألا ينتهكوا الأعراض ، وألا يستبيحوا الأموال بغير حقها •  
 ويلاحظ أن القتال في الماضي كان لا يتجاوز معسكر الحكام والجيوش ، والعلاقة بين المسلمين وشعوب الملك أو الرئيس القاتل قائمة ، كأنه لا حرب ، والسلام قائم •

انما الحرب لمن يهادون الله ورسوله ، اذ يقول الله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (٢) •

وأولئك الذين يهادون الله ورسوله هم الذين حاربوا المسلمين ، وأعلنوا العداوة ، وأخذوا يتربصون بهم الدوائر لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة •

وما عدا هؤلاء فان السلم هي العلاقة الدائمة والمودة ان وجدت مقتضياتها ، وقد نص القرآن الكريم على ذلك ، فقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المتقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (٣) •  
 فالمودة موصولة ما لم يكن الاعتداء ، اذ عسى الصلة أن تعود حتى بين الأعداء ، كما يقول تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم » (٤) •

(٢) المجادلة : ٢٢

(٤) المتحنة : ٧

(١) البقرة : ١٩٤

(٣) المتحنة : ٨ — ٩

## العلاقة في السلم والحرب

٢٢١ — الإسلام هو دين الوجدانية ، ودين الوحدة الإنسانية • وقد تلونا  
من قبل الآيات القرآنية التي تقرّر الوحدة الإنسانية بين الناس أجمعين ، ورأينا  
أنه بمقتضى هذه العلاقة يكون الأصل هو السلم ، ولكن الناس مختلفون أجناساً  
وقبائل وألسنة وأقاليم ، وتلك آيات الله تعالى في الأرض • فقد قال تعالى :  
« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم • ان في ذلك  
لآيات للعالمين » (١) •

وقد نظم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم هذه العلاقة على أساس  
المساواة ، كما صرحت الآية الكريمة : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى  
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » (٢) • والمساواة أساس التعارف ، كما أن  
التعارف يقتضى المودة والتعاون في كل أمور الحياة • وقد أشرنا الى ذلك من قبل •  
والعدالة أساس العلاقات الإنسانية ، كما قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا  
كونوا قوامين بالقيسث شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، ان يكن  
غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تظنوا أو تعرضوا  
فان الله كان بما تعملون خبيراً » (٣) •

ويقول سبحانه في العلاقة الإنسانية العامة : « يأيها الذين آمنوا كونوا  
قوامين لله شهداء بالقيسث ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو  
أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خير بما تعملون » (٤) • والأمر بالعدالة عام  
في قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والإحسان » (٥) •

وان العدالة توجب المعاملة بالمثل ، فان اعتدوا قومنا الاعتداء • وقد قال  
تعالى في ذلك : « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خیر  
للصابرين » (٦) •

(٢) الحجرات : ١٣

(٤) المائدة : ٨

(٦) النحل : ١٢٦

(١) الروم : ٢٢

(٣) النساء : ١٣٥

(٥) النحل : ٩٠

ومع أن الله تعالى أمرنا برد الاعتداء بمثله في قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، أمرنا بالتقوى فقال : « واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (١) • ولذلك يجب علينا عند المعاملة بالمثل أن نستمسك بالفضيلة ، فإن الفضيلة هي القانون العام في كل معاملة انسانية • فإذا كان العدو يقتل الذرية لا تقتلها ، وإن كان ينتهك الأعراض لا ينتهكها ، وإن كان يخرب ديار الأمنين لا نخربها ما وسعنا ذلك •••• وهكذا •

وإن الإسلام قرر مبدأ الوفاء بالعهد ، وشدد فيه القرآن ، فقال تعالى : « وأوفوا بالعهد ؛ إن العهد كان مسئولا » (٢) •

ولقد قرر القرآن الكريم أن الوفاء بالعهد في ذاته قوة ، فقال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ؛ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون • ولو شاء الله لجمع لكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون • ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتنزل بدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم » (٣) •

وإن هذا النص الكريم يدل على أربعة أمور :  
أولها — أن نقض العهد يؤدي الى الزلل ، ومع الزلل الضياع •• فهو ليس حكمة ، ولا تدبيرا ، ولكنه خطل •

وثانيها — أن العهد الذى يوثق بيمين الله ، أو باشهاد الله تعالى عليه ، هو عهد الله إذ اتخذ الله كفيلا •• فمن ينقضه فانما ينقض عهد الله تعالى الذى وثقه بكفاله •

وثالثها — أن العهد في ذاته قوة ، والتزامه قوة •• ولذا شبه من ينقضه بحال الحمقاء التى تغزل غزلا وتفتله ، ثم تنقضه ( أنكاثا ) أى أجزاء صغيرة ••

(٢) الاسراء : ٣٤

(١) البقرة : ١٩٤

(٣) النحل : ٩١ — ٩٤

فالعهد يثبت السلم ، وفي السلم قوة وقرار ، والنقض ازالة له •  
ورابعها — أنه لا يصح ان تكون سعة الارض ، وزياده السلطان ، سببا  
في الغدر •• ولذلك قال سبحانه في بواعث الغدر : أن تكون أمة هي أربى من أمه ،  
أى أوسع أرضا ، وأكثر عددا ، وأقوى سلاحا •• فلا يصح أن يكون اتوسع  
باعثا للغدر ، لأنه يؤدي لا محالة الى الضعف •

وهذا التشدد في الوفاء بالعهد ، لأنه في ذاته عدالة ، ولأن العهد فيه حد  
للحقوق ، وخصوصا اذا كان بين متكافئين •• ولا يصح أن يكون الاستعداد وأخذ  
الأهبة سببا في ذاته للنقض ، ولكن اذا قامت أمارات تدل على أن استعداد المعاهد  
وأهبتة نذير خيانة •• وعلى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم كما قال الله تعالى :  
« يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » (١) •• وفي هذه الحال يطبق قوله تعالى :  
« وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين » (٢) •  
واذا كان هناك ما يجب الاحتياط له ، فانه يكون عند عقد العهد •• فلا يصح  
الاطمئنان الى عهد من عرفوا بالخيانة ، فان العهد معهم نوع من الاغترار •• ولذلك  
كان يجب تعرف حال الطرف الذى يعاهده قبل العهد ؛ ولذلك حذر الله تعالى من العهد  
مع بعض المشركين الذين يقول سبحانه فيهم : « كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا  
فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون ، ائثتروا  
بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون  
في مؤمن الا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون » (٣) •

٢٢٢ — هذا ما أردنا أن نقتبسه من آى الذكر الحكيم في أحكام الحلال  
والحرام ، وما نقانا كل ما اشتمل عليه القرآن العظيم •• ولكن نقلنا ما يرى  
التالى للقرآن المقتس من نور ، وما فصلنا الأحكام التى تعرضنا لنقلها من كتاب الله ،  
فان تفصيلها يحتاج الى نقل ما جاء في السنة ، وما اختلف الفقهاء في ظل النور  
القرآنى في دلالة بعض الألفاظ ، فان الكلام في ذلك يخرجنا عن مقصدنا •• وهو  
الإشارة الى علم الكتاب الكريم الذى يدل على اعجازه •• والله سبحانه الهادى  
الى سواء السبيل •

(٣) التوبة

(٢) الانفال : ٥٨

(١) النساء : ٧١

## ٧ - علم الكون والإنسان في الأرض

٢٢٣ - القرآن الكريم الكون قد فيه تكرر ذكره ، لأنه كما بينا اتخذ من خلق كل من في الوجود دليلاً على من أنشأه ، فكان بمقتضى النهج النوراني لأبد أن الكون وما فيه من خلق عظيم يدل على منشئه وحده سبحانه وتعالى ، ولا تكاد نجد سورة من القرآن مكية كانت أو مدنية خلت من ذكر الكون ، وما يتصل به .

وان ذلك فيما نحسب يوجه نظر الانسان الى انه جزء صغير من هذا الكون ، ليربطه به ، وليتعرف أسرارها ، وأحواله ، وليعرف أنه وهو الصغير قد سخر الله تعالى له هذا الكون الكبير ، ولقد قال تعالى « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » .

وان ثمة حقائق مذكورة في القرآن يستبصر بها كل متعرف لهذا الكون دارس له فالله تعالى يقول : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » (١) .

وفي القرآن الكريم ما يوميء الى محاولة الانسان الارتجاع في الفضاء ، فالله تعالى يقول : « يامعشر الجن والإنس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون الا بسطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان يرسل عليكم سواظ من نار ، ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » (٢) .

واقراً آيات القرآن في السحاب ، وارساله ، وأحواله ، فانك تجد توجيهها الى ما لم يكن للناس من قبل يتجهون اليه ، ودلت المشاهدات على أنه واقع ، اقرأ قوله تعالى في وصف السحاب « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ، ويصرفه ممن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » (٣) . وترى من هذا تشبيه السحاب الذي أوجاه الله تعالى بالجبال ، وهذا لا يبدو

أنسائر على سطح الأرض ، ولا للواقف على أكامها ومرتفعاتها وما كان ذلك معلوماً عند العرب ، ونحن الذي يرتفع فوق أسحاب في الطائرات التي تطعم اجواز الفضاء يرى السحاب جبالاتاً .

وان هذا بلاشك نوع من العلم بالكون فوق ما فيه من دلالة على إعجاز القرآن ، إذ ان ذلك الوصف لا يمكن ان يكون من محمد ، لانه لم يرتفع حتى يكون فوق السحاب ، فلا بد ان يكون الوصف بعلم الله تعالى ، واللام حس من عنده سبحانه ، لا من عند محمد .

واقف ترى أوضاعاً كثيرة للأرض والسماء لا تكون الا من الأمي اللبدي لايقراً ولا يكتب ، أو لايعلم علوم الكون وما يجري فيه ، وما كانت معروفة عند العلماء في عصر نزول القرآن ، كالعلم بطبقات الأرض والسماء ، ذكرها القرآن والمباحثون لايزالون دائبين في البحث عنها ، وعلمهم يصدق بالقرآن ، اعزاً قوله تعالى : « الله الذي خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، ينزل الامر بهن ، لتعلموا ان الله على كل شيء قدير ، وان الله قد احاط بكل شيء علماً » (١) .

واقراً قوله تعالى : « هو الذي خلق لكل ما في الأرض جميعاً ، ثم اسوى الى السماء فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شيء عليم » (٢) . وقوله تعالى « تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور ، الذي خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر ، هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » (٣) .

واقراً قوله تعالى « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجاً » (٤) . وترى النض الكريم يفرق بين الشمس والقمر ، فيجعل للشمس هي السراج الذي يضيء ، والقمر نورا مقتبساً من غيره ، وهو الشمس .

(٢) البقرة : ٢٩

(٤) نوح : ١٥ - ١٦

(١) الطلاق : ١٢

(٣) الملك : ١ - ٤

واقراً قوله تعالى : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا ،  
وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن اراد أن يذكر أو اراد  
تسكورا » (١) .

ويقول سبحانه فى خلق السموات والارض ، وأدوار خلقهن « ان ربكم الله الذى  
خلق السموات والارض فى ستة ايام ، ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار  
يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات يأمره ، الا له الخلق والامر  
تبارك الله رب العالمين » (٢) .

ولقد بين القرآن ان السموات والارض كانتا شيئا واحدا ، وأن الارض انفصلت  
عن السماء ~~وتفرقت~~ فيها للفترة الارضية ، وكان عليه الماء ، ومنه كانت الاحياء التى  
هلكها الله تعالى ، واقراً فى ذلك .

« أو لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ، ففتقناهما ، وجعلنا  
من الماء كل شيء حيا أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الارض رواسى أن تميدهم ، وجعلنا  
فيها فججا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتنا  
معرضون » (٣) .

وترى أن النص الكريم صريح فى أن السموات والارض كانتا كونا واحدا ،  
وفعل الله تعالى جزءا منه وهو الارض ، وكانت فيها هذه الحياة التى يحيهاها  
الحيوان والطير فى السماء ، والسمك فى الماء ، والزرع فى الفيحاء .

وإذا كان العلماء اليوم يقررون أن الكون ابتداء خلقه بالسديم ، وهو يشبه  
الدخان ، فقد صرح القرآن الكريم قبل ذلك ، وقبل أن يعلموا ، فتال تعالى فى خلق  
السموات والارض : « قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين ، وتجعلون  
له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها  
أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء ، وهى دخان ، فقال  
لها وللارض انتيبا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين ،  
وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا للسماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير  
العزیز العليم » (٤) .

(٢) الاعراف : ٥٤

(٤) فصلت : ٦ - ١٢

(١) الفرقان : ٦١ - ٦٢

(٣) الانبياء : ٣٠ - ٣٢



ونقف ووقفه قصيرة عند هذه الآيات البيئات ، فترى الله سبحانه وتعالى بين لنا أن الارض خلقها في يومين ، واليوم هنا كما أشرنا من قبل ليس هو اليوم الذي نعرفه ، انما هو الدور في التكوين ، وهو كونها مع السموات رتقاً ، وهذا دور ثم انفصالها وهذا دور ثان ، ودوران آخران للارض جعل فيها رواسى عالية ، وهى الجبال ، وخلق فيها الماء وما تبعه من خلق للاحياء من حيوان ونبات ، فكانا أربعة أدوار .

ويبين سبحانه أن السماء والارض كانتا دخانا ، وهو ما نحسب أنه السديم الذى يقوله العلماء .

٢٢٤ - وان القرآن الكريم فيه اشارات بيئات الى علم الكون ، ونعتقد أن الذين درسوا علوم الكون فى السموات والارض وما بينهما لو تتبعوا آيات القرآن الكريم التى تعرضت لذكر الكون لوجدوا حقائق كثيرة مما وصل اليه العلم الحديث قد تعرض لها القرآن بالاشارة الواضحة التى تجمل ولا تفصل ، وهى فى كلنا الحاليين صادقة كل الصدق بيينة لمن يطلب الحقائق الصادقة ، وان بضاعتنا فى علوم الكون محدودة لاتسمح لنا بالخوض فى كلام تفصيلي فى هذا ، وقد رأينا كثيرين من العلماء المخاضين المحققين قد تعرضوا لهذا ، فمنهم من بين طبقات الارض ، كما أشار القرآن ، ومنهم من بين غير ذلك .

ونحن نرحب ببيانهم ، ولكن لابد من ملاحظتين :

الملاحظة الاولى : أنهم يحاولون أن يحملوا القرآن نظرياتهم ، وعليهم أن يفهموه كما تبين ألفاظه ، وكما تومى اشاراته ، وذلك لانهم أحيانا يحملون القرآن مالا يحتمل ، ويرهقون ألفاظه بالتأويل ، وأحيانا يأتون بنظريات لم تكن قد حررت من بعد من الشك ، والنظر ، وقد تتغير ، ولا يصح أو يبقى القرآن تتردد معانيه باختلاف النظريات ، بل ان الواجب أن ندرس ما فى القرآن على أنه حقائق ، فما وافقه من العلوم قبلناه .

الملاحظة الثانية : أن يدرس الكون فى القرآن على أنه حقائق ثابتة هى مواضع

التسليم من المؤمن بالله تعالى وبالقرآن ، فلا تجعل حقائقه موضع نظر ، بل ان  
الايمن بالقرآن يوجب الايمان بكل ما اشتمل عليه ولا يصح لنا أن نترك ظاهر  
القرآن ، ونتجه الى تأويله الا أن يكون الظاهر يقبل التأويل ، وتكون حقائق العلم  
الثابتة تقتضي الاخذ بالتأويل الذي يحتمله القرآن من غير تعسف ، ولا خروج  
بالالفاظ الى غير معانيها .

وانتبه هذه الدراسات العميقة المسلمة بحقائق القرآن نفتح مغاليق في العلم ،  
ونتكشف الحقائق الكونية يهداية من القرآن ، على أنه المرشد لها ، وليس  
التابع ، ولا الخاضع . وكتاب الله تعالى هو كتاب الحق ، والصدق ، والعلم ، لأنه  
من عند الله الذي لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، وهو كتاب الوجود ،  
لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

## الإنسان في القرآن

٢٢٥ - ذكر الله تعالى أنه خالق الإنسان من طين ، وخلق الجن من نار ، وقد  
بين ذلك في أصل الخليقة ، وقد ذكر الله تعالى في آيات وسور مختلفة ، وكلها  
سيقت بالبيان المتناسق في موضعها وموضوعها ، ولندكر من غير اختيار آيات  
كريمات في موضع منها . قال تعالى في سورة البقرة :

« واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها  
من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال : انى أعلم  
ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني  
بأسماء هؤلاء ، ان كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا  
أنت أنت العظيم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم  
قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم  
تكتُمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر  
وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا  
حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فئتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها

فأخرجهما مما كانا فيه • وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » (١) •

وان هذا النص الكريم يبين ثلاث حقائق كانت مع الانسان :

أولها : أنه أوتى استعدادا لعلم الأنبياء ، أى علم الكون وما فيه ، لأن الله تعالى سخرها له ، ولا يتحقق ذلك التسخير الا اذا أودع الله تعالى نفسه القدرة على العلم بها • ولذلك أنبأ الملائكة بأسمائها •

الثانية : أن في طبيعة الانسان الاستعداد للاغراء ، ومن هذه الناحية جاء ابليس فغوى أبوى الإنسان بالأكل من الشجرة ، وقد نهاهما الله تعالى ، ولكنهما تحت تأثير ذلك الاغراء نسيان نهي الله ، كما قال تعالى في وصف آدم أبى الخليقة « ففسى ، ولم نجد له عزما » (٢) •

الحقيقة الثالثة : أن آدم نزل هذه الأرض ، وقد تلقى كلمات الله تعالى ليكون للفضيلة ، ويستمسك بها ، ولكن كان معه في الأرض ابليس يغرى ذرية آدم ويغويها ، كما قال تعالى عنه « لأغويتهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين » (٣) • هذا بيان الله تعالى في ابتداء خلق الإنسان •

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك خلق الإنسان بالتناسل ، فقال تعالى :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (٤) •

ويقول سبحانه وتعالى : « انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سمياً بصيراً ، انا هديناه السبيل اما شاكراً ، واما كفوراً » (٥) •

ويقول تعالى في خلق النفس الإنسانية في الإنسان : « ونفس وما سواها ،

(١) البقرة : ٣٠ - ٣٦

(٢) طه : ١١٥

(٣) المؤمنون : ١٢ - ١٤

(٤) الانسان : ٢ - ٣

(٥) البقرة : ٨٢ - ٨٣

فألهمها فجورها وتقواها» (١) •

ويقول سبحانه في القوة المدركة في الإنسان ، التي بها يكون التكليف والحساب والثواب والعقاب : « أيعسب الإنسان أن يترك سدى • ألم يك نطفة من منى يمى ، ثم كان علقة مخلوق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بتقادر على أن يحيى الموتى » (٢) •

ويذكر سبحانه خلق القوى الإنسانية في القرآن ، فيقول تعالت قدرته : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (٣) •

ويذكر سبحانه في كتابه الكريم أحوال الإنسان ، فيقول تبارك وتعالى : « والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ، ان الله عليم قدير ، والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يبيحدون ، والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات • أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون » (٤) •

وذكر الله خلق الإنسان ، وما عهد اليه من تكليفات في ثنايا القرآن الكريم ، وقد ذكر الكون على أنه مسخر للإنسان يكشف منه أسرار الوجود التي يكون في طاقته أن يعلم بها ، ويذكر خلق الإنسان ، وما أودعه الله تعالى من قوى ليعبد الله تعالى وحده •

ويذكر سبحانه أنه بمقتضى ذلك التكوين النفسى والعقلى وكل القوى التي خلقها سبحانه قد أخذ عليه عهداً أن يكون ربانياً لله سبحانه وتعالى : « اذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : أأست بربكم ، قالوا : بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا

(٢) القيامة : ٣٦ - ٤٠

(٤) النحل : ٧٠ - ٧٢

(١) الشمس : ٧ - ٨

(٣) النحل : ٧٨

انما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون » (١) •

وبذلك يبين سبحانه أن المواهب الإنسانية التي خلقها الله في الإنسان عهد بينه وبين ربه ، فان استجاب لفطرته ، ارتفع ، وان خالف واتبع الشيطان هوى • ويبين سبحانه كيف يهوى فيقول سبحانه بعد الآية السابقة :

« وانزل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخذ الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاتمص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون • من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون • ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (٢) •

### النفس الإنسانية في القرآن :

٢٢٦ — اذا اتجه التالي للقرآن الى دراسة النفس الإنسانية من خلال آياته ، فانه بلا ريب في مكان فسيح للدراسة ، يعطى مجموعة من المعلومات الحقيقية المصورة للنفس في ايمانها ، وفي فجورها • ويمكن أن يجد الإنسان فيها قواعد علمية تكشف عن نوااميس النفوس ، وما تتأثر به ، وما تتجه اليه في ايمانها وفي انحرافها • ولنتجه الى بعض هذه المعانى في كتاب الله تعالى ، ولا ندعى أننا نستطيع الاحاطة بها علما ، ولا احصاءها ، ولو بالتقريب ، فان ذلك يحتاج الى تفرغ لا قبل للاخذ به الا أن يكون ممن يعنون بدراسته ، أو من المتخصصين في علم النفس • ولنضرب بعض الأمثال ، وكثير منها في قصص القرآن ، وبعضها في شرح أحوال المؤمنين ، وأحوال الكافرين •

( ا ) من هذه الأمثلة أن النفس التي تسارع الى الاعتقاد من غير دليل سابق ، ولا فحص لقول لاحق من شأنها أن تقع في الخطأ • وإذا أصرت بعد البيان كانت في ضلال ، وأصابها الصمم عن الحقائق ، والعماء عنها • اقرأ قوله تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات • فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين : وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وان وجدنا أكثرهم لفاسقين » ( ١ ) •

ان الذى وهبه الله الهداية لفهم القرآن الكريم بعباراته و اشاراته ، تبدو بين يديه الحقيقتان الآتيتان :

أولاهما — أنه سبحانه يقرر أنه ليس من شأن الذين سارعوا الى التكذيب من غير أن يفحصوا ويدرسوا ، وأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يقتضى قلبا مدعنا لما يأتى به الدليل ، لا أن يكون سابقا بالحكم قبل الدليل • وقد أشار سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله تعالت كلماته : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل » • وواضح أن العلة في سد باب الإيمان هو مسارعتهم بالتكذيب من غير برهان ، ومن يكذب بالبرهان لا يؤمن بما جاء به البرهان •

الحقيقة الثانية — أن المسارعة بالتكذيب تؤدى الى تغليب القلب عن أن يصل اليه النور • وبتوالى التكذيب من غير دراسة للأدلة يكون منع الهداية • ولذلك يقول الله تعالى : « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » ( ٢ ) • • أى بهذه الحال ومثلها يطبع الله تعالى على قلوب الكافرين ، ويتحقق فيهم قول الله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » ( ٣ ) •

( ب ) ولننتقل الى مثل آخر من كتاب الله ، وانه المعين الذى لا ينفد في دراسة النفس الانسانية ، ذلك المثل هو قوله تعالى : « ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، انما استرلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » ( ٤ ) •

فهذا النص الكريم يبين لنا قاعدة في النفس ، يسترشد بها المربى والمهذب ،

( ٢ ) الاعراف : ١٠١

( ٤ ) آل عمران : ١٥٥

( ١ ) الاعراف : ١٠١ — ١٠٢

( ٣ ) البقرة : ١٧١

والذى يحاول معالجة النفوس المريضة ، اذ يعرف سبب المرض فيطب له •

اذ يبين الله سبحانه وتعالى ؛ أن الذين أعرضوا عن الوقوف يوم النقي الجمعان ، سبب توليهم أنهم أصابتهم ذنوب ، وأن للذنوب يسهل الذنب ، والمخالفة تجر المخالفة ، وأنه لأجل الطب لهم لا بد أن يعالج الذنب الأول بالحمل على الإشغال عنه ، وقد يكون ظهور مغبته السيئة علاجاً له • ولذلك قال الله تعالى : « ولقد عفا الله عنهم » ؛ لأنهم أدركوا سوء ما كان لهم •

( ج ) ومن هذه الأمثلة ما قرره الله تعالى من أن النفس غير المؤمنة لا تتضبط ، ولا تستقر على حال ، والنعمة تبطرها وتطغيها ، والنعمة تؤنسها وتشقيها ، ولا ضبط ولا انضباط ، ولا علاج لذلك الا بالصبر • اقرأ قوله تعالى : « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه ، انه ليئوس كفور • ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ، انه لفرح فخور • • الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » (١) •

وان هذه الآية الكريمة تشير الى أن ذاك الفرح الطاغى في حاله ، واليأس المميت في وقته مرض انساني ، وان علاجه الصبر ، لأن الصبر ضبط النفس ، فلا تنزعج للألم ولا تطغى بالنعمة •

( د ) وقد بين الله تعالى أن سلوك غير الحق هو اتباع للظن غير الناشئ عن دليل ، بل عن الهوى • وقد قال تعالى في ذلك : « ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يعنى من الحق شيئاً » (٢) •

فهذا النص الكريم يبين مرض النفس التي تضل ، ويذهب بها الضلال الى متاهات من الباطل • وذلك المرض هو الوهم • فهم يتوهمون ، ثم يهوون ، ثم يظنون • وليس عندهم دليل يكون علماً ، بل عندهم أوهام وظنون • وان دارس علم النفس التربوى يجد فيه باباً من أبواب التربية العقلية بأن يساعد بين الناشئة والأوهام •

( هـ ) ومن الأمثلة لبيان أحوال النفوس بيان أحوال النفوس التي لا تفكر الا في دائرة نفعها أو ضررها • ومن شأن هذه النفوس ان تكون أثرة منقلبة ، لا تدعن للحق ولكن تدعن لنفعها وضررها •

اقرأ قوله تعالى : « واذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فاما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه • كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (١) •

وهذا تصوير للنفس التي فقدت الإيمان ، وحرمت الخير ، ولا تفكر الا في محيطها ، وهي بلا ريب غير الذين قال الله تعالى فيهم : « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » (٢) •

( و ) ولنكرر مثلاً ذكرناه فيما تلونا من قبل ، ونذكره هنا من ناحية البيان النفسى فيه ، وهو مثل وادى آدم ، فالله تعالى يقول : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم باعق ، اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلتك ، قال انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تبوء بائسى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين • فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين • فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين • من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » (٣) •

هذه الآيات البيّنات فيها كشف عن النفس المؤمنة المطمئنة الراضية ، وكشف عن النفس الحاسدة الحاقدة •

( ا ) وهى تدل على أمور نفسية تصور مصدر الشر والخير ، فالنفس المؤمنة



تعرف الأمور على وجهها وتدرك الحق ، وما أوجبه ، فهي ترد سبب قبول القربان الى التقوى والخوف من الله .

(ب) والنفس النقية هي التي تمتلىء بذكر الله وتستشعر خوفه دائماً ، وأن الاعتداء انما يكون حيث يخفى الخوف ، ويظهر الطغيان ، ولذلك علل عدم رد الاعتداء الذي بادره به أخوه بأنه يخاف الله رب العالمين وأن القتل انما هو جريمة في حق من خلقهم الله تعالى ، وهو ربهم .

(ح) وتشير الآية الى النفس منطوية على الخير ، وان الشر عارض لها ، ولذا رد المؤمن التقى قول أخيه وتهديده بالقتل بقوله « ما أنا بياسط يدي اليك لأقتلك » وفي هذا أثار الى النفس التي لم تدنس بشر ليس من شأنها أن تبتسط يدها بالقتل .

(د) والآيات تدل على أن الحسد هو أساس الاعتداء ، فلو انخلع من القلوب ما كان شر ولا اعتداء في الأرض .

(هـ) وتدلل الآيات أيضاً على أن الاعتداء بالأذى ليس هو الاصل بالنفس الانسانية ، فهو عندما اتجه الى قتل أخيه عالج نفسه ليحملها على مطاردته في قتله ، ولذا عبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » لأنه خسر أخاه وخسر نفسه ، فأفسدها .

(و) وتدلل ثالثاً على أن رؤية المعتدى عليه ، والاعتداء قائم يبعث على الندم ، والآيات من بعد ذلك تبين أن أساس الكثير من الجرائم هو الحسد فلو اجتث من النفوس ما كان اعتداء ، ولكن الله تعالى يبليو به الناس ليعلم الخير والشر .

ولا شك أن الدارس للنفس الانسانية يجد في القرآن معيماً لا ينضب ، واو أن الناس عكفوا عليه لوجدوا فيه أعظم مصدر للدراسات النفسية والاجتماعية .

#### قصة يوسف في سورته :

٢٢٧ — ان المتتبع لقصاص الأنبياء في القرآن يجد أنه يتجه الى بيان دعوة

النبي الذي خبره بالتوحيد ، ومنع الاشرار بالله ، والاصلاح ودفع الفساد ، وكيف لامى عومه دعوته ، وما احتج به من ادبه ، وما ساق لهم من براهين ، واسواع المعجزات الختمة التي امد الله تعالى النبي ادى يفص جبره ، وما ال اليه امر الاقوام الذين دعاهم الي الهدى والى طريق مستقيم مابوا واستجبوا ، هدايتان اعصص البعاني الذي يسوفه الله تعالى في كتابه ولحا نجد ذلك يتخلف في قصة نبي الله يوسف عليه اسلام • حتى يتوهم المارىء لها ان نبي الله يوسف ما كانت له دعوه يدعو اليها ، ولا قوم يخاطبهم حتى نهجم المنحرفون يقولون زوراً من القول •

ولكن الدارس للسورة الكريمة يجد انها طراز آخر من الفصص ، وفيها كشف عن النفس في ناحية من نواحيها ، ودراسة لها في علاقتها بالمجتمع الذي تعيش فيه ، اذ هو توجهها ، وان الدارس لها يجد فيها بياناً للأسره في علاقاتها بعضها ببعض مع علاقة الآباء بالأبناء ، وعلاقة الأبناء بعضهم مع بعض وعلاقات أبناء العلات ، كيف يختصمون وكيف يجتمعون ، وما يؤدي الحسد بين أبناء العلات بتسبب ماتثور به النفوس المثوقة ، وكيف تتصور ما ليس واقعاً على أنه واقع ، ثم ما يؤدي اليه الاندفاع بدائع الحسد المقيت •

ولتبتدىء بايجاز القول في القصة من اولها • كان يوسف واخوه الشقيق من أم غير أم سائر الأخوة ، والأب الحاني نبي الله يعقوب • يرى كل أولاده في منزلة واحدة ، ولكنه بنظره العميق الشقيق يرى في الأخوة الكبار نظرات الي الصغيرين ما لا يطمئن به فيعمل على ألا يكون منهما ما يثير ، ويؤجج النظرات المماقنة ، يرى يوسف رؤيا صادقة « انى رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ، فيخشى الأب الحاني أن يؤرث ذلك عداوة لحوته ، فينهاه : « لا تنقص رؤياك على اخوتك ، فيكيدوا لك كيداً » •

ولكن الحسد يوهم الكبار أن أباهم يؤثر يوسف وأخاه بمحبته لما يكون من فضل عطف على الصغير من الايثار • قالوا ليوسف وأخوه أحب الي أبينا منا ونحن عصابة • وهنا يصل الحسد الشيطاني الي غايته : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » • ولكن

الشر لا يكون موضع اجماع ، فلم يكن اجماع على قتله • بل قال قائل منهم لا تقتلوه ، وآلقوه في غيابة الجب ينتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين » ارتضى الاخوة ذلك الحل الذي ينزل من القتل الى ابقائه في الجب وهو صغير لا يعلم ماله ، ولكنهم يحتالون ليأخذوه من أبيه برضاه ، « قالوا يا أبانا مالك لاتأمننا على يوسف ، وانا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وانا له لحافظون » ، ولكن الأب الكريم بالهام الأبوة يتوجس خيفة على ولده ، ويخشى عليه السوء ، ولكنه يخفى في نفسه سوء الظن بهم • أو لا يكون سوء ظن ، ويذكر أنه يحزن اذا غاب عنه مستوحشاً بغيبته ، فيقول : « انى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون » • أخذوه ونفذوا مادبروا وآلقوه في غيابة الجب، ولكن نفس يوسف ألهمها الله بأنه سيكون الأعلى ، وسينبئهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون • عادوا الى أبيهم ليكون • قالوا « انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » وأحسوا في أنفسهم بالظنة تعرفوا أباهم ، فقالوا ، « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب » ، ولكن الأب بفراسته وبالهام الأبوة ماصدقهم • بل قال لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » •

٢٢٨ — هذه قصة ساقها القرآن الكريم لا مجرد الاتعاظ والعبرة فقط ، بل فيها كشف عن النفوس يجد فيها الدارس النفسى مكاناً للفحص يهديه اليه كتاب الله تعالى •

(١) فهي أولاً : تبين أن علاقة أبناء الاعيان ، وهم الاثقاء لا تماثلها علاقة أبناء العلات وهم الاخوة والأخوات من الأب من غير الأم ، وتصور الغيرة الشديدة التي تكون بين الأبناء ولو كانوا كباراً ماداموا في ميعة الصيا ، وأن هذه الغيرة تدفع الى الحسد ، والحسد يدفع الى البغضاء ووراء البغضاء •• الجريمة •

(ب) وهي أيضاً تصور لنا أن الأبوة الشفيقة توحى بالتظنن ، وبالاحتراس ، فقد تظنن نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام في أن قصص يوسف على اخوته خبر الرؤيا قد يدفع الى أن يكيدوا له كيدا ، ولذا أوصاه بالآي يخبرهم بها وتظنن

عندما أرادوا أن يخرجوا به ، ولكنه لم يتمكن من منعه عنهم •

وأنه اذ لم يتمكن من منعه عنهم أبدى مخافته من أن يأكله الذئب ، وقد كانت منه هذه الكلمة ، وكأنها كانت توجيهاً لهم ليبدو العذر الذي يعتذرون به ، فجاؤوا واعتذروا بأن الذئب أكله ، فمن كلامه ابتدعوا قولهم ابتداعاً •

( ج ) ولكنهم جاءوا أباهم عشاء يبكون ، فما سر هذا البكاء ؟ ذلك أنهم اذ فعلوا فعلتهم كان فيهم بقية من شفقة فكان هذا البكاء ، كما ندم أحد ابني آدم عندما قتل أخاه •

( د ) وان يعقوب عليه السلام لم يصدق كل التصديق قولهم ، بل لم يصدق مطلقاً ، واستعان بالصبر الجميل ، وهو الصبر من غير أنين ، وجدير أن يكون من النبيين •

ولا شك أن في هذا كله توجيهات نفسية لمن يتدبر ويعتبر ، ويستبصر ، وكان حقاً على الذين يدرسون مجتمع الأسرة أن يجعلوا من هذا مثابة للدرس يدرسونه وبينون عليه ، ويستترشدون به •

وان قصة أسرة يوسف لم تنته عند هذه النهاية ، بل ان الاخوة من بعد سيلتقون ، وسيتعاتبون أو يتلاومون ، لقد وصل يوسف في علوه عليه السلام الى أن مكن من عرش مصر ، فقد مكن الله تعالى له في الارض يتبوا منها حيث يشاء •

جاء اليه اخوته فعرّفهم ، ونسى بما أنعم الله به عليه مساءتهم ، ولعله استأنس بلقائهم ولم يستوحش ، ولكنه طلب أخاه شقيقه ، وقال لهم ، « ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه أباه ، وانا لفاعلون » ولكن شفقة الاخوة ، وشفقته بأبيه وقومه تغلب طلبه ، فيجعل بضاعتهم في رحالهم وهم لا يعلمون ، فكانت ثمة محبة الاخوة ، ومحبة الشقيق •

رجعوا الى أبيهم ، وفي هذه الحال كانوا صادقين « قالوا يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون » ولكن ذكراه الأليمة تتحرك ،

فيقول : « هل آمنكم عليه الا كما آمنتم على أخيه من قبل ، فإله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » •

ثم اكتشفوا من بعد ما جهله عليهم يوسف الصديق « فتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا • ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير » وفي هذه المرة كان يعقوب عليه السلام أحرص من المرة الأولى ، فأخذ موثقاً ليأثنته به الا أن يحاط بهم ، فأتوه موثقهم •

وتحركت الشفقة الأبوية عليهم جميعاً ، وخشى عليهم العين ، فقال عليه السلام لهم : يا بني لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شيء ، ان الحكم الا الله عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » •

دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوهم ، وألتقوا بأخيهم • وآوى يوسف إليه أخاه ، وغاضت نفسه إليه قائلاً له « انى أنا أخوك ، فلا تتبئس بما كانوا يعملون » •

وأراد أن يبقى أخاه معه ، فلما هموا بالرحيل ، وضع الكيال المصرى فى رحل أخيه « ثم أذن مؤذن أيتها العير أنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ، قالوا نفقد صواع الملك ولن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض ، وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين فبدأوا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه » ثم وجده فى وعاء أخيه ، وبحكمهم أخذ أخاه وأبقاه عنده وتحركت فيهم الحال التى كانوا فيها عندما رموا بيوسف فى الجب ، وقالوا : « ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل » وبذلك ثارت فى نفوسهم الغيرة القديمة ، واذا كانت فى أول أمرها قد دفعتهم الى القتل ، أو السير فى سبيله ، فقد دفعتهم هذه المرة الى الكذب ورمى البرىء بالسرقة ، فأسترها يوسف فى نفسه ، ولم يبدها لهم ، فقال أنتم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون ، فأحسوا بالتبعة عند لقاء أبيهم ، وأرادوا أن يتشفعوا ببال أبيهم الشيخ • فقالوا : « ان له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ ( م ٣١ — المعجزة الكبرى )

أحدنا مكانه ، انا نراك من المحسنين • قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده ، انا اذا لظالمون » • يتسوا من أن يعودوا بأخيهم لأبيهم الشيخ ، وتعرضوا لظنون التي لها في ماضيهم ما يؤيدها ، وهما بالعودة ، ولكن كبيرهم كان احساسه بالتبعية أئسد من سائرهم فقال لهم « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ، فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ، ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق ، وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للنغيب حافظين ، واسئل القرية التي كنا فيها ، والغير التي أئبلنا فيها ، وانا لصادقون » • عادوا الى أبيهم ، وقالوا ما لقنهم اياه أخوهم الكبير الذي تخلف عنهم استحياء من لقاء أبيه ، ولكن الأب الشيخ لم يطمئن الى ما قالوا ، وقال لهم بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » •

وان الأمر اذا تازم كان من لطف الله بعباده أن يفتح نافذة من الأمل في وسط التأزيم فكانت تلك النافذة ، وقال نبي الله الشيخ : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً انه هو العليم الحكيم » وفي وسط هذه الحال استيقظ الماضي فتذكر ابنه المفقود يوسف الذي لا يعلم حاله ، أهو حى يرزق أم ميت قبر ، وقد برح به الحزن ، ويقول الله تعالت كلماته في وصف حاله : « وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وايبضت عيناه من الحزن ، فهو كظيم » رأوا أن أباهم لا يزال يذكر يوسف ، ولا يئنى عن ذلك حتى يتلف جسمه أو يموت ، وصارحوه بذلك ، فقال الشيخ الجريح القلب : « انما أشكو بثى وحزنى الى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » •

وفي وسط هذه الغمة عادت اليه بارقة الأمل كما عادت أولاً ، فقال بحنان الأب السفيق : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تئسوا من روح الله انه لا يئس من روح الله الا القوم الكافرون » •

استجابوا لطلب أبيهم وذهبوا يبحثون ، وان مكان الأخ معروف عندهم ، وأما الأخ الذي غيبوه ، فهم لا يعلمون حاله ولا مآله •  
ذهبوا الى المكان الذي تركوا فيه الأخ الأخير ، فدخلوا على عزيز مصر

« يوسف » وقالوا « ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، ان الله يجزى المتصدقين » •

هم جاءوا للبحث عن أخيهم ، ولكنهم جعلوا المدخل اليه أن يقولوا أنهم جاءوا ببضاعة مزجاة ، وهنا نجد يوسف الصديق يحن الى جمع الشمل بعد اذ تفرق ، فيقول لهم عانبا ، معترداً عنهم اذ فعلوا ما فعلوا جاهلين • يقول الأخ المحب لاختوته : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون » وهنا تلهمهم عاطفة الأخوة الحبيبة الى أنه يوسف ، وان تغيرت الاحوال ، واحتقت سيمى الطفولة وبدت سمة الرجولة : « قالوا أثنك لأنت يوسف • قال أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا • انه من يتق الله ويصبر • فان الله لا يضيع أجر المحسنين • قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين » •

وهنا تظهر الأخوة المحبة المتغاضية عن الاثم من الجاهلين ، فيقول الكريم ابن الكريم ، « قال لا تتريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » • وقد علم حال أبيه وطب لعلاجه ، قال : « اذهبوا بقميصى هذا ، فألقوه على وجه أبى يرند بصيراً وأتونى بأهليكم أجمعين » •

كان الأب العطوف يحس ، وهم فى الطريق اليه بأن ربح يوسف تهب نحوه « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارند بصيراً قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى ، انه هو الغفور الرحيم » •

ولا نقف طويلاً عند ارتداد البصر الى نبى الله يعقوب عليه السلام بعد أن ابيضت عيناها من الحزن أهو بسبب الفرحة الشديدة ، أم هو أمر خارق للعادة ، وما ذلك بغريب على الأنبياء ، ونحن نميل الى الثانى ، فان يوسف عليه السلام كان متأكداً ، ولم يكن منظناً له •

جاءت الأسرة الى مصر حيث سلطان يوسف عليه السلام ، والتقت على المحبة ، بعد أن فرقتها غيره الجهل ، فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبوه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش ، وخرخوا له سجداً ، وقال

يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقاً ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين اخواتى ، ان ربى لطيف لما يشاء ، انه هو العليم الحكيم » •

٢٢٩ — لم نتتبع قصة الصديق نبى الله يوسف من وقت أن رموه فى الجب ، وأردنا أن نربط بين أجزاء الأسرة لنعرف مقدار ما يتبين من القرآن من حال النفوس فى ميعة الشباب وجهلته ، وما يكون منها بعد أن تسكن عواصف الغيرة ، وتتوافر بواعث الرحم •

ذهب اخوة يوسف الى أبيهم عشاء يبكون ، ورجحنا أن يكون بكاء حقيقياً ، وليس كدموع التماسيح ، كما يقولون وقلنا انها انفعالة الرحم ، وان لم يكن لها أثر عملى ، اذ كانوا يستطيعون أن يعودوا ، ويستنقذوه من الجب الذى ألقوه فيه • ويظهر أنهم كانوا بين عاطفتين متضاربتين : عاطفة الرحم الجامعة ، والغيرة الملحة ، الباعثة على البغضاء ، فذرفت عيونهم بالعاطفة الأولى ، وأقعدتهم الثانية عن أن يزيلوا ما فعلوا ، وما ارتكبوا فى حق أخيهم •

ونترك أولئك الاخوة فى حيرتهم ، واضطراب عواطفهم ، ولنتجه الى الأب المكلوم الذى فقد ولده فاننا نلاحظ فيه ثلاث عواطف ، كل واحدة تجرى على لسانه •

أولاهما — ألم الفراق الذى أصاب نفسه ، لقد كان ولده الحبيب المقرب الصغير ، والصغر ذاته يجلب المحبة ويجعله أكثر قرباً ، وأثر بالمحبة دن غير أن يفقد أحد من أولاده محبته ، فالحب الأبوى يقبل الاشتراك ، ولكن فى تفاوت بالسن ، وبالقرب ، وبالخلق ، وبالمخايل التى تدل على الانفراد بمزايا دون غيره •

والثانية — أن الذين كرتوه بهذه الكارثة التى هدت كيانه ، وجعلت عينيه تبيضان من الحزن ، هم أولاده ، وأفلاذ كبده ، فلا يمكن أن يكونوا أعداءه ، ولا يمكن أن يبغضهم ، لأن بغضهم يكون ضد الفطرة وتلك حال لا يصبر عليها الا أولو النفس القوية التى هى نفوس الأنبياء والصديقين وفى الموقف الذى



وقفه الشيخ من احساسه بالألم من أولاده ، مع احساسه بعاطفته مجال للدرس والتحليل ، وجه القرآن الكريم اليه أنظار الدارسين والفاحصين .

والثالثة - أن يعقوب عليه السلام كان في قلبه احساس عميق بأنه سيلقى ابنه في المستقبل ان لم يكن في القريب العاجل ، ففي البعيد الآجل ، فهو اذ يتهم أبناءه ، ويقول لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمرا » - يقول أيضاً صابرا « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ويقول وقد غاب عنه ابنه الثانى بعد أن تباعد الزمان ، وأن يكون قد غمى على الموضوع النسيان : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً ، انه هو العليم الحكيم » .

وان ذلك الاحساس الكريم الذى يتغلغل في النفس المؤمنة موضع تحسن دراسته ، وتعرفه ، ولا شك أن هذا ليس من خواص الأنبياء ، بل طبيعة في النفوس المؤمنة الطاهرة المهمة من غير وحى ، انما هو الصفاء النفسى .

وان قصة اخوة يوسف مع أخيهم وأبيهم وموقف أبيهم ، وهو الحامل للأسى من غير أن يقف من أبناءه موقف تنبيه للتواجب الذى يتخذ عند ما تصاب الأسرة فيكون على كبرها أن يجمعها ولا يفرقها ولا يذهب به فرط محبته وأساه ، الى تبديل المحبة بالعداوة .

٢٣٠ - نعود الى الأولاد الذين آذوا أخاهم ، ولجت بهم الغيرة ، لقد اعتراهم الندم ابتداء وان لم يظهر له أثر عملى .

ولكنهم علموا مقدار خطئهم عندما باغوا أشدهم ، أدركوا مقدار ما فقدوا من أخ ، وان لم يكن كاحساس أبيهم بل احساسهم تشويه بقايا الغيرة وقد تبينت عندما أحسوا بأن أخاهم الثانى تسبب في تأخير بضاعتهم .

وان الغيرة كما نرى في كلامهم تثير النفس ، فلا تندفع الى البغضاء فقط بل الى الكذب ، ولكنهم على كل حال كانوا في كبرهم يغلب عليهم حنان الأخوة ، ولشد ما كانت فرحتهم عندما علموا أن عزيز مصر هو أخوهم ، وقد قالوا وهم في طريقهم نعيم أهلنا ونحفظ أخانا .

ان قصة يوسف في أسرته هي قصة أسرة ، فرقت الغيرة بعض عناصرها ، فكانت حكمة الأب الحاني هي التي منعت المأساة من أن تتسیر الى غاية من الخلال . بل وقف بها في أقصر حدودها ، وهي تبين كيف تعود المحبة بسيادة العقل ، وفعل السن ، واثارة المودة .

وفي ذلك درس حكيم للأسر التي تصاب بمثل هذه ، وفيه أيضاً دروس نفسية عميقة لمن يطلبها .

### المجتمع المصرى في عصر يوسف :

٢٣١ - ألقى يوسف في الجب ، وصارت حياته عرضة لكل مفترس . وقد ذكرنا آخذين مما تلونا أنه لم تصبه رعدة الخوف ، وألقى في قابه الاطمئنان . وألهمه الله تعالى أنه ناج ، وأنه سينبىء اخوته بأمرهم ، في وقت يكونون فيه في البأساء ، وهو في السراء ، ويكون هو العزيز بعناية الله تعالى ، وهم الأذلاء .

ولم يمكث في الجب طويلا ، بل جاء جماعة ممن يسيرون في الصحراء ، وألقوا في الجب دلوهم ليستتبطوا ماء ، فرأوا غلاماً استبشروا به ، وكان في ذلك الزمن وما قبله وما بعده يفرض الرق على كل غريب ، حتى جاء الاسلام فألغى هذا وغيره ، وقد أخذوه بضاعة ، وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة ، ولم يكونوا راغبين في بقائه .

وقد توسم الذى اشتراه من مصر فيه الخير ، وقال لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وبذلك ربى في كلاءة ربه كما صنع من قبله موسى ، إذ ألقاه اخوته في الجب حسداً وايداء ، كما ألفت أم موسى وأدها وقد وضعت في التابوت حرصاً أو فراراً به من الموت .

وبهذه المحبة التي أضفاها الله على من اشتراه مكن الله ليوسف في الارض ، وألهمه الحكمة . وعلمه تأويل الاحاديث والرؤى . ولما بلغ أشده آتاه الله تعالى حكمة وقدرة على الحكم على الاشياء والاشخاص ، وصبراً وادراكاً .

آل أمره الى أن يكون في بيت حاكم مصر . وأن يكون خازن أسراره ،

ومتصلا بامرأته ، على أن يكون خادماً خاصاً •

وهذا نجد القرآن في تلك القصة الواقعة يصور لنا نفس المرأة المترفة الفاخرة في العيش والنعيم •

رأت علي القرب منها فتى جميلاً ذا فتوة وقوة ، فراودته عن نفسه ، وغلقت الباب ونادت طبيعته البشرية ، قالت له أقبل ، ولكنه في خلق الفتوة يقول لها معاذ الله ، انه ربي أحسن مثواي ، فالخلق يمنعه والوفاء يصدده •

ولكنها أخذت في الاغراء ، وأرادت أن توقظ فيه الغريزة ، ولعلها أيقظتها ولكن غلبه نور الهداية على الغريزة الدافعة ، اذ رأى نور الحق ، وهو نور ربه • وفي هذه الصورة الواقعة صورة الحياة المترفة كيف تفسد النفوس ، وكيف يغرى بالرزيلة وجود الخدم الأتقياء في خدمة ذوات الخدر ، وكيف تكون الارادة الصابرة كابحة للغريزة الجامحة وحائلة بينها وبين الشر •

تلك حال جديرة بالدرس على ضوء القرآن •

وتجىء من بعد تلك المعركة بين الهوى الجامح ، والحكمة والارادة القوية هو يذهب الى الباب فاراً من الرذيلة ، وهي تذهب وراءه تجره اليها ، وتكون المفاجأة لها ، وسرعان ماتكشف عن خلق المرأة وهو مسارعته الى اتهام البريء اذا لم يحقق رغبتها ، بل شهوتها ، فتستعدى عليه زوجها وتثير فيه الحمية ، لقد وجد سيدها لدى الباب الذي يتسابقان اليه ، هو ليفر ، وهي لتشدده اليها •

« قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم » شكت ظلماً ، وحكمت ظلماً ، ولكنه حكم ليس فيه الموت ، لأنها ترجوه لها بعد ذلك •

ولكن يوسف يدفع التهمة الكاذبة بالقول الصادق « قال هي راودتني عن نفسي » •

صارت القضية موضع نظر ، وقد وجد الشاهد الصبي الذي يشهد له ، فقد قد قميصه ، وقت الاستباق الى الباب •

فانستشهدا ذلك الشاهد ، فقال الحكم الذي حكم « ان كان قميصه قد من قبل

فصدقت وهو من الكاذبين » لأنه يقدر وهو مقبل عليها ، وهي تدفع عن نفسها  
« وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » ، فأوأ القميص قد من  
دبر ، فهو كان يفر وهي تجذبه بشد قميصه ، فلما رأى قميصه قد من دبر قال  
انه من كيدكن ان كيدكن عظيم •

عرفت البراءة • وأن يوسف كان فرسة كيد النساء وتلك حال يوجه القرآن  
الكريم اليها لدراستها •

وهنا نجد السيد يبدو متسامحاً • ولعله وجد معذرة لها في جمال يوسف وكماله  
فلاكتفى بأن قال « يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك انك كنت من  
الخالئين » •

ونجد في هذا الموقف توجيهها للدراسات النفسية في المرأة وفي الرجل العفيف،  
وغيماً ينبغي ملاحظته في داخل البيوت وأكنايها •

إذا خرج الخبر عن اثنين شاع ، ولو تواصلوا بالاسرار فان الخبر قد شاع  
في المدينة • وتناولته جماعات النساء • وانهن ليهمن أمر الحب والمحبين « وقال  
نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً انا لنها في  
ضلال مبين » •

شاعت الاقوال في المدينة ، وتناولته الجماعات • وعلمت امرأة العزيز بما  
يقطن • وما يدبرن وينشرن من أقوال ، وهي تعلم قلوبهن • وما يستويهن •

أعدت لهن متكئاً ولعله كانت وليمة اذ أعطت كل واحدة منهن سكيناً • وقالت  
اخرج عليهن « فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن حاشا لله : ما هذا بشراً  
ان هذا الا ملك كريم قالت فذلكن الذي لمتننى فيه » وأعلنت هواها ، ورغبتها  
الشديدة ، واصرارها ، وقد رأتهن يعذرنها : « وقالت لئن لم يفعل ما أمره  
ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وهنا نجد النفس المؤمنة تقاوم طغيان المرأة  
وتحكمها فيقول « رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه ، وإلا تصرف عني كيدهن  
أصب اليهن وأكن من الجاهلين » •

تشايح القول وكثر ، وهبارت امرأة العزيز قالة الجماعات ، فكان لابد أن يستمر الموقف ، وستره في الجماعات الظالمة ، أو الجماعات المتسترة تكون على المظلوم دائماً ، ولا تكون على الظالم أبداً . وذلك أن يسجنوه تخفيفاً للشائعة ، أو توجيهاً لها لغير أهلها وبدالهم من بعد مارأوا من الآيات ليسجنه حتى حين» .

٣٣٦ — هذه قصة فيها تكشف النفوس عن خبيثاتها ، وهي توجيهات لتألي القرآن الى حقائق النفوس ، رجالا ونساء أتقياء وفجارا .

دخل يوسف ، في حياة جديدة ، بعيدة عن كل مظاهر الزينة وبهجتها ، واذا كان الشاب الغلام ردف النعمة بعد أن ذاق البلاء ، ابتداء ، فقد جاءه البلاء مرة أخرى ، ولكنه في هذه المرة ينزل الى الضعفاء ويعاشرهم ، ويتصل بنفوسهم ، وعده الله تعالى تأويل الرؤيا .

يدخل معه السجن فتيان «وقال أحدهما انى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين» وهنا تبدو خوارق العادات والدعوة الى الله على يد نبي الله يوسف عليه السلام يقول : « لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ، ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتوها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبي السجن أما أحد كما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر ، فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين » .

لاشك أن علم يوسف من غير معلم ، وتأويله للأحلام من غير ملقن بل بالالهام المجرد من خوارق العادات التي تجرى على أيدي الأنبياء .

خرج السجن الناجي من السجن ، وصار ملازماً للملك ، ولكن فرحة الخروج والاتصال أنسته زميله في السجن فزادت المدة ليزداد تعلماً من أحوال الناس ، حتى وجد حاجة الملك الى من يؤول رؤياه ، فتذكر صاحبه عند الحاجة اليه ، وهذه كلها أحوال نفسية يثبته القرآن اليها وكان تأويل الرؤيا ، والتنظيم الاقتصادي الذي استلهمه يوسف الصديق من الرؤية ، ولنذكر الامر كما جاء في القرآن ، « وقال الذي نجا منهما واذكر بعد أمة أنا أتبتكم بتأويله ، فأرسلون ، يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » •

كان ذلك التأويل الصادق مصحوباً ببيان الترتيب الاقتصادي سبباً في أن الملك رغب في الاستغانة به ، قال اثتوني به ، فامتج السجن الأبى عن الذهاب حتى تثبت براءته ، « فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، ان ربي يكيدهن عليم » فعرف الملك حالهن ، فسالهن « ماخطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه • قلن حاش لله ، ماعلمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدي كيد الخائنين ، وما أبريء نفسي ، ان النفس لأماراة بالسوء الا مارحم ربي ، ان ربي غفور رحيم ، وقال الملك اثتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين فقال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم » •

٢٣٣ - هذه وقائع وقعت من وقت أن دخل يوسف السجن الى أن خرج منه مستولياً على خزائن يديرها بحكمته ، ويسير نظامه بارادته ، وتعلمه من ربه ، وهو نبي يوحى اليه • وكل واقعة من هذه فيها تنبيه الى ناحية من نفس الانسان وارتباطه بالمجتمع الذي يعيش فيه ، فدخوله السجن لكمال خلقه ، وكمال جسمه ،

وما كان حواه ، وما يفعله الحكام ليدرءوا عن سمعتهم ، ما ينالها من سوء أساسه صادق ، ويكشف فيه عن نفس المرأة وسيطرة العاطفة عليها ، وكيف دفعته عاطفتها في هوقفها الأول من مراودته ، ثم موقفها من اصرارها بعد أن أخذت المعذرة المسوغة من النسوة ، ثم ما كان من عاطفة المحبة التي انتقلت من مراودة الى اعتراف ، والى استغفار •

وفي الحقيقة ان الدارس الذى يريد معرفة أطوار النفوس ، وما يعرفها ، سواء أكانت نفوس رجال أم نفوس نساء يجد فى القرآن معيناً لا ينضب من الحقائق النفسية التى تكون محور دراسته •

ولكننا لا نريد أن يطبقوا ما يعلمون من علم النفس على القرآن ويحملوا ألفاظه مالا يحتمل ، ولكن أن يجعلوه مرشداً يحكم على عملهم ، لا أن يكون عملهم الحكم عليه ، والله سبحانه هو الموفق والهادى الى سواء السبيل •

## تفسير الكتاب

٢٣٤ - كان بعض أساتذتنا رحمه الله يرى أن القرآن الكريم لا يحتاج الى تفسير الا في بعض الالفاظ الغريبة على القارىء ، فانه يستعين عليها بالمعجم ثبنيها ، أو بالأحرى تقربها للقارىء ، والا بعض آيات الاحكام والمجملات المبينة بالسنة ، فانها تفصلها وتوضح بالعمل والقول مراميها وغايتها ، وما عدا ذلك ، فانه بين لا يحتاج الى بيان • الا أن يكون متشابها لم يعرف بيانه بسنة ثابتة السند فان هذا لا تفسير له ، ومن الحق أن يقول فيه التالى لكتاب الله سبحانه وتعالى : « آمنأ به كل من عند ربنا » كما قال تعالى في الراسخين في العلم « يقولون آمنأ به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الالباب ، ربنا لاترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » (١) • هذا نظر أستاذنا الكبير بلل الله تعالى ثراه •

ولا شك أن قول هذا له سند من القرآن الكريم ، فقد وصف بأنه مبين أى بين، والبين لا يحتاج الى تبين ، ووصفت آياته بأنها بينات ، فقد قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (٢) •

وقال تعالى : « الر تلك آيات الكتاب المبين » (٣) •

وقال تعالى : « الر تلك آيات الكتاب ، وقرآن مبين » (٤) •

وقال تعالى : « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك

لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » (٥) •

وقال تعالى : « طس تلك آيات القرآن ، وكتاب مبين » (٦) •

(٣) المائدة : ١٥ - ١٦

(٦) النمل : ١

(٢) يوسف : ١

(٥) الحجر : ١

(٤) آل عمران : ٧ - ٨

(٤) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥



ويقول تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتونا بآياتنا » (١) •

وقال تعالى : « ولقد أنزلنا اليكم آيات بينات » (٢) •

وان هذا كله يدل على أن القرآن بين ، وكيف يحتاج الكلام البين الى من يبينه انه يبين نفسه ، وهذا بخلاف المجلد من آيات الاحكام ، فانه قد جاء النص ببيان أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • فقد قال تعالى : « وأنزلنا اليك للذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (٣) •

٢٣٤ - هذه نظرة خاطرة لأحد شيوخنا ، ولعل الذى دفعه الى ذلك القول ماتورط فيه بعض المفسرين من نقل اسرائيليات قد تفسد المعنى الذى يبدو بادى الرأى من الآيات الكريمت ، وان بعض كتب التفسير التى تأخذ ذلك المأخذ ، وتتجه الى الاكثار من القصص ، والاساطير الاسرائيلية تنزع ستاراً كثيفاً بين الآية الكريمة ونورانياتها المشرقة ، فهو رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم خيراً يريد أن يجد التالى للقرآن الاشراق والنور من غير حجب يحجبها من روايات ما أنزل الله بها من سلطان •

وان لذلك القول وجاهته ، وانك بلاشك لو تتبعت أكثر آيات القرآن الكريم التى لم تتعرض للأحكام العملية ، تجدها واضحة بيينة ، وان استبهمت علينا بعض الكلمات لبقايا العجمة فينا ، فان المعاجم تحل لنا اشكالنا ، وهو لعيب فينا وليس لابهام فى القرآن ينافى وصفه بأنه مبين ، وآياته بينات •

واذا كان ثمة موضع للتفسير ، فانه يكون بتوجيه الانظار لأسرار القرآن البيانية ، والمرتبة العليا البلاغية التى لاتناهد ، ولا تسامى • وليس فى قوة أحد من البشر أن يأتوا بمثلها •

وان الزمخشري حاول ذلك فى تفسيره ، ووصل فى كثير من الآيات الى توجيه

القارىء الى الإسرار البلاغية ونهج من بعده من سلك ذلك المسلك ، وحاول محاولته •

ونحن نرى أن هذه محاولات ناجحة في جملتها • وفي كثير من آيات الكتاب ، ولكننا لانحسب أنها وصلت الى الغاية أو أدركوا نهايته ، فانه كتاب الله العزيز الحكيم ، ولا تنتاهى معانيه ، ولا يحاط بكل مغازيه ، وان تلك المحاولات مفاتيح للنور ، ولكنها ليست النور •

٢٣٥ — بعد هذه المقدمة التي لا بد أن نذكرها لنعرف مدى الجهود التي تبذل والغاية التي تغيا عند محاولة التفسير ، وان كنا نؤمن بأن القرآن كتاب مبين ، لا يحتاج الى بيان ، ولكننا نحتاج ان كان في قدرتنا الى أن نتعرف أسرار بلاغته • وموضع فصاحته ، ونقارب ، ولا نحد ، ونسد وان كنا لا ندرك ، ولا نصيب سهامنا ، ولا نصل الى حال يكون معها يقين بأن ما وصلنا اليه هو سر الاعجاز ، وغاية البيان •

وبجوار الذين قالوا ان القرآن مبين بذاته لا يحتاج الى من يبينه ، ويفسره كان من يرى أن القرآن يتعبد به ، ويتلى تلاوة ، ولا تتعرف معانيه الا بتعريف من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

ولا شك أن ذلك القول غريب ولكن وجدناه في كتب المعتزلة ، وجدنا القاضى عبد الجبار يذكره في كتابه المعنى ، ويستدل على بطلانه فيقول : « الذى قدمناه الآن يدل على فساد قولهم » أى أننا لانطلب دلالة القرآن ، لأننا قد بينا أنه يقح منه تعالى على وجه يدل على المراد كوقوعه من أحدنا اذا تكامل على شرط دلالاته ألا يصح منه تعالى أن يخاطب به وهو موضوع لفائدة الا وهو يريداه ، والا كان في حكم العايب ، وقد ذكر شيخنا أبو هاشم رحمه الله أنه لو كان كذلك لوجب ألا تنفصل حاله ، وهم عرب بين أن يكون عربياً أو أعجمياً ، لأنه اذا لم يكن معنى يستدل به عليه ، أو به وبغيره ، فلا فرق بين كونه على هاتين الصفتين ، وبين أن يكون الكلام من المخاطب بهذه الصفة ، أى أنه اذا لم يكن له دلالة ، فلا فرق بين أن يكون عربياً أو أعجمياً من يقرؤه •

ثم يقول : « ولا خلاف بين المسلمين أن القرآن يدل على الحلال والحرام ، والكتاب قد نطق بذلك ، لأنه تعالى قال : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » وقال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » (١) وقال تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (٢) وقال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » (٣) وقال تعالى : « هدى للناس » الى غير ذلك مما بين به أنه يفيد ، فكيف يصح مع ذلك ماقلوه (٤) .

ويفهم من هذا الكلام أن ثمة من الناس من يرى أن القرآن للتلاوة والتعبد بتلاوته ، وقراءته في الصلاة ، كما يفعل الاعجم الذين لا يعرفون العربية ، وأنه يسوق الأدلة لبطان هذا القول فيقول : « وبين شيوخنا أنه لو لم يكن له معنى لا يكون معجزاً ، لأن اعجازه هو بما يحصل من المزية والرتبة في قدر الفصاحة ، ولا يكون الكلام فصيحاً الا بحسن معناه وموقعه واستنقاظه كما لا يكون فصيحاً الا بجزالة لفظه ، ولو أن واحداً من المتكلمين ألف الكلام المهمل جملة ، وتكلم بها من غير مواصفة لم يعد من الكلام الفصيح ، كما لو كان في معناه ركابة لم يكن منه ، وكما لو رك لفظه لم يعد في ذلك ، فكيف لمن أقر أنه معجز أن يزعم أنه لا معنى له ، وأنه لا فائدة منه » (٥) .

هذا كلام القاضي عبد الجبار ، ولولا نقله لهذا الكلام ما تصورنا أن يوجد من يقول ان القرآن لا يطلب معناه ، وأن القصد منه التعبد بالتلاوة في الصلاة وخارج الصلاة .

ولعل الذي دفع هؤلاء الى ذلك القول ان صح نقله أنهم يتوقفون خشية أن ينحرف بهم الفكر ، فيصرفوا معاني القرآن الى غيره لانحراف في التفكير ، أو تزويد عليه ، فرأوا أن يكتفوا بالتلاوة والتعبد بها واقفين عند ذلك ، حتى لا يقولوا على الله بغير علم .

(٢) الانعام : ٣٨

(١) النساء : ٨٢

(٤) الجزء السادس عشر من كتاب المفتى ص ٣٥٦

(٣) النحل : ٨٩

(٥) الكتاب المذكور ص ٣٥٧

ومهما يكن مقصدهم فان ذلك الرأى اذا قاله قائل لا يؤخذ به ، ولا نعلم أحداً  
قاله الا ما تعلمنا من المعنى .

٢٣٦ - ان القرآن مقصود بمعانيه ، وبتلاوته ، وترطيب الاسماع به ،  
وبالتعبد به وبألفاظه ، فكل ما اشتمل عليه مقصود لذاته ، لا بالتبعية لغيره ، فهو  
مأدبة الله تعالى .

وقد يقول قائل اذا كان القرآن بينا ، وانه لكذلك فما مكان التفسير فى ذلك ،  
لأن التفسير لا يكون الا عند حاجة للتبيين ، والقرآن الكريم ، كما تلونا من قبل  
كتاب مبين ، وقرآن مبين ، ولسان عربى مبين ، وهل يستغنى عنه .

ويبدو لى أن العربى الذى لم تلو لغته برطانة غير عربية ، ويفهم العربية  
لايحتاج الى تفسير الا فيما يتعلق بأيات التكليف العظمى والاحكام العملية  
وما يستنبط من القرآن ، وأنها لتتفاوت فى ذلك تفاوتاً كبيراً .

ومهما يكن فان التفسير علم يدرس ، وهو مفيد ، وهو قائم منذ عهد التابعين  
الى اليوم .

وله بلا ريب فوائد ، وله غاية ان سلك المفسر الطريقة المثلى ، وأن جعل  
المفسر مرامى القرآن هى المقصودة ، ولا يتجه بكتاب الله الى تحريف المعانى ،  
والانحراف عن المقاصد ، وانه لا بد من التفسير لأمر كثيرة .

(١) العمل على ربط معانى القرآن بما ورد فى السنة الصحيحة من بيانه ، وفى  
ذلك استعانة بالمبين للقرآن وهو الحديث ، ووضعه فى مواضعه ، حتى لاتضل  
الأفهام فى فهم معانى الاحكام ، ولأن بعض ألفاظ يشترك بين عدة مدلولات  
والسنة النبوية هى التى تجد المدلول المراد .

(ب) وان الذين يقرءون القرآن ليسوا جميعاً فى مستوى العربى الذى يدرك  
معانى الألفاظ بمجرد استماعها ، ومن الألفاظ ما فيه بعض الغرابة حتى على بعض  
العرب ، بل بعض كبارهم ، ولقد روى أن عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين

لم يتعين عنده معنى لفظ « أبا » في قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » (١) فقد سأل عن معنى الأب ، واستكثر رضى الله تعالى عنه على نفسه ألا يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ القرآن .

هذا عمر رضى الله عنه يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ كتاب الله تعالى ، فكيف تكون حال من دونه من الصحابة علماء ، وكيف تكون حالنا نحن الذين دخلنا العربية وفينا العجمة التي غلبت الفصحى في كل مكان .

(ج) ولا بد من ذلك من تفسير يترجم الى اللغات غير العربية ، أو يفسر القرآن ابتداء بغير العربية على أنه تفسير فسر واحد ، أو اشترك فيه جماعة ، ويكون المترجم هو التفسير الذى يذكر معنى القرآن على وجهة نظر المفسر ، لأن القرآن أعلى كلام بليغ في الوجود ، والكلام البليغ لا يمكن ترجمته من لغة الى لغة محتفظاً ببلاغته ، لأن البلاغة تتضمن اشارات بيانية ، ونعمات فيها موسيقى ، وحلاوة ألفاظ ، وتأخيها ، وجمال أسلوبه ، وتساقق معانيه ، ولا يتوافر لأحد من الناس أن ينقل كل الصفات البيانية والبلاغية للألفاظ القرآنية وقد حاول في اللغة الفرنسية بعض العلماء الاوربيين المتخصصين في العربية ترجمة القرآن برتبته البلاغية ففقد في محاولة ترجمة آية مدة طويلة وانبت دون ذلك .

(د) وان القرآن الكريم له عدة قراءات متواترة ، وكل قراءة قرآن ، وهى متلاقية في معانيها ، وليست يقيناً متضاربة ، بل ان بعض القراءات تزيد معانى القراءة الأخرى ، أو توجه معناها في اتساق محكم دقيق لا خلل فيه ، بل لا يتصور قط أن يكون فيه خلل ، وان التفسير المحكم هو الذى يذكر ذلك التلاشى . فمثلاً قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » (٢) فقد قرئت بضم الفاء ، وهى تدل على أن الرسول عليه السلام من العرب أنفسهم ، وليس غريباً عنهم ، وقرئت بفتح الفاء ، وهى تدل على أنه من أعلاهم نسباً وخلقاً ومكانة وشرفاً ، وبضم القراءتين يكون المعنى أن الرسول عليه السلام من أعلى العرب .

(١) عبس : ٣١

(٢) التوبة : ١٢٨

هذه بعض الأسباب التي توجب أن يكون للقرآن تفسير ، وان كان بيننا مفهومًا ، وهناك وجه للتفسير لا بد من الاشارة اليه ، وهو بيان الاسرار التي تضمنتها ألفاظ القرآن ، وتضمنها علم الكتاب من خير ارهاق للألفاظ ، ولا اعفات لمسانيه .

وان من كتب التفسير ما حاول الكاتبون لها بيان الأسرار البلاغية في بعض ألفاظ القرآن كالزمخشرى كما أشرنا ، ومن جاء بعده من المفسرين الذين نهجوا منهاجه وزادوا عليه ، وقالوا في آيات مثل قوله ، وشمة آيات لم يتعرض لبيان أوجه البلاغة فيها .

### مناهج التفسير :

٢٣٧ — ان المناهج في التفسير تختلف باختلاف ما يستعين به المفسر من مصادر التفسير ، وان الذى يمكننا أن نحصيه من مصادر التفسير للقرآن أربعة : ( أولها ) المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ( ثانيها ) المأثور من أقوال الصحابة الكرام ، وتلاميذهم الذين اتبعوهم باحسان ، ونقلوا تفسيرهم كمجاهد الذى نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ( ثالثها ) اللغة ، اذ هى فى ذاتها أداة التعبير ، ولا يمكن الاستغناء عنها فى أى منهاج من منهاجه ، فهى لا تعد مصدرًا مستقلًا ، اذ هى تدخل فى كل المصادر .

( رابعها ) الرأى وهو يعتمد ابتداء على اللغة ، وعلى مصادر الشريعة ومواردها ومراميتها ، وغاياتها وأسرار القرآن ، وتعرف وجوهه .

ولا شك أن اللغة هى الأساس الأول لكل هذه المصادر ، ولا نقصد باللغة ما تومىء اليه المعاجم فقط ، فان تفسير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يمكن أن يكون مخالفاً للعربية ومعانيها ، لأنه العربى الذى ينطق بجوامع الكلم ، وليس فى الكلام العربى ما يكون أصدق مصدر للاستعمال العربى الصحيح من أقوال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

٢٣٨ — ولننتقل من بعد الى المصادر الثلاثة الأخرى .

فأولها - وهو أعظمها السنة لأنها الشارح الاول للكتاب الكريم ، وان أحكام الحلال والحرام لا تفصيل لها الا في السنة ، وهي المصدر الوحيد لها ، ومن خالف تفسير السنة للحلال والحرام في القرآن ، فهو من المفتريين على القرآن الكريم ، ويكون داخلاً في نهى قوله تعالى « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » (١) . وذلك لأن هذا القسم من القرآن الكريم تكفلت به السنة النبوية ، لأن هذا من تبليغ الرسالة المحمدية وهو معناها ، ومن يعارضها انما يعارض تبليغ الرسالة النبوية ، ويفتري على الله الكذب فكل ما في القرآن من أحكام فقهية سواء أكانت تتعلق بالعبادات أم كانت تتعلق بتنظيم المجتمع الانساني الذي بيتدىء بالأسرة ، ويتدرج الى الجماعات ثم الأمة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المسلمين بغيرهم من الأمم في السلم والحرب - كل هذا بيان النبي صلى الله عليه وسلم وهو حجة علينا يجب اتباعه .  
والصاحح التي بين أيدينا فيها بيان الأحكام الشرعية بياناً كاملاً كما وردت في السنة .

هذا ويجب التنبيه الى أن الاتجاه الى تفسير القرآن من غير اعتماد على السنة والاستعانة بها في هذا الباب خروج على الشريعة ، فقد قال الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » (٢) .  
والذين يتركون السنة زاعمين أنهم يأخذون بالقرآن يهجرون القرآن والسنة معاً ، ويحاربون تبليغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه .

ويلاحظ أن السنة قسمان سنة متواترة رواها جمع عن جمع حتى تصل الرواية الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا النوع من السنة يجب الاخذ به في بيان الأحكام ، وبيان معاني العقائد التي اشتمل عليها القرآن الكريم لأنها ثابتة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسند قطعي لا شبهة فيه ، والعقائد لا تثبت الا بدليل قطعي الدلالة وقطعي السنة . ولذلك يقول الشافعي لن يخالف الأحاديث المتواترة ، ويسميها أحاديث العامة يقال له « تب » .

والقسم الثاني أحاديث الخاصة كما يسميها الشافعي رضي الله تعالى عنه ،  
وهي التي لم يبلغ سندها حد التواتر ، ويسميها علماء السنة أحاديث الآحاد ، ولو  
رواها اثنان أو ثلاثة ما دام روايتها لم يبلغوا حد التواتر التي يؤمن تواطؤهم  
على الكذب •

وهذا النوع من الأحاديث يعمل به في تفسير الآيات التي تتعلق بالأحكام ،  
لأنها تنفي غلبة الظن بالنسبة للصدق ، وقد ثبت ذلك عن الصحابة رضي الله  
عنهم ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرسل رسله الى الأقاليم  
آحادا ، ولا يرسلهم جماعات •

ولا يلزم الأخذ بأحاديث الآحاد في تفسير الآيات التي تتعلق بالعقائد من  
ضرب الأمثال ، وذكر أسرار الكون من خلق السموات والأرض ، ومن سير  
الشمس والقمر ، وخلق السموات والأرض ، وتسخير الرياح والأنهار والبحار  
وغير ذلك ، فان ما يتعلق بذلك وكل ما ورد فيه من السنة أخبار آحاد أو روايتها  
غير ثقات لا يعتبر حجة في تفسير القرآن وفهمه ، بحيث يجب الأخذ به ، ومخالفته  
نكون مخالفة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه من الثابت أن ما يجيء  
في السنة مخالفا للمقررات العلمية التاطعة ، ويكون من أحاديث الآحاد ، يرد وتبطل  
نسبته الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس معنى رده تكذيب رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم •• انما معنى رده أنه لم تصح نسبته الى النبي  
صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الصادق ، ونقول مقالة الصديق خليفة رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم التي ردها الشافعي ، وهي قوله : أي أرض تظلني ،  
وأن سماء تظلني ، اذا قلت في القرآن ما لم أعلم •

وان دراسة الآيات الكونية للعقل والاستقراء والتتبع ، مقامه في ادراكها ،  
ما لم تخالف نصوص قرآنية أو حديثا نبويا متواترا ، وليس في الأحاديث المتواترة  
ما يعارض هذه الدراسة قط ، والله أعلم •

وهنا أمر آخر يتعلق بالتخصص القرآني ، ونقول فيه ان القرآن يفسر بعضه  
بعضاً في هذا التخصص ، وما يجيء من السنة من زيادة على القرآن في هذا يقبل منه



ما لا يناهض القرآن ، وما يزيد يقبل ما دام السند صحيحا وليس ثمة ما يرده  
سندا أو متنا ، ولا يجب الإيمان بالزيادة بحيث يكفر من ينكرها ، ما دامت أحاديثها  
لم تصل الى مرتبة التواتر ••••• ولكن ما لم يكن مطعن فيها يؤخذ بها على أساس  
الاطمئنان اليها •

هذه هي السنة ، وهي تعد المرتبة الأولى في تفسير القرآن الكريم الذي  
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •

٢٣٩ — أما المرتبة التي تلي مرتبة السنة فهي أقوال الصحابة في فهم معاني  
القرآن الكريم ، فكلامهم في هذا له اعتبار في فهم الكتاب العزيز لما يأتي :

( ا ) أن الصحابة هم الذين سمعوا القرآن الكريم ابتداء ، وهم الذين  
شاهدوا وعانوا ، وتلقوا التفسير عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان  
ما يبهم عليهم يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عنه • ويروى عن  
ذي النورين عثمان رضى الله تعالى عنه ، أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان  
كلما تلا عليهم طائفة من الآيات تولى تفسيرها لهم ، فكان تفسيرهم أقرب  
الى السنة ، بل يعده الكثيرون من السنة ، ما دام لا يمكن أن يكون للرأى فيه  
مجال •

( ب ) أنهم الذين شاهدوا أسباب النزول ، وعلموا في أى موضع نزلت  
أى الكتاب الكريم ، وأسباب نزولها • ولا شك أن أسباب النزول طريق معبد  
لفهم الكثير من الآيات الكريمات ، لأن أول ما ينطبق عليه المعنى للآية القرآنية  
هو ما كان سببا لنزولها ، ثم يعمم الحكم بعموم اللفظ ، جريا على قول الفقهاء  
في محكم قواعدهم ( العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ) •

( ج ) وان الصحابة أعلم الناس بمعانى الألفاظ القرآنية ، لأنهم من العرب ،  
ومن أعلم الناس بلغة العرب ، وما يكون غريبا بالنسبة لنا ، لا يكون غريبا بالنسبة  
لهم ، والألفاظ معروفة معانيها لهم •

وان المتتبع للمأثور عن الصحابة في تفسير القرآن الكريم ، يرى الرأى  
يأدى النظر أنه قسمان :

أحدهما — ما اعتمد فيه عن المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا يكون سنة نبوية وتفسيرا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا مجال للريب في نسبته اذا كان السند الى الصحابي صحيحاً ، وذلك في تفسير الآيات التي ليس للرأى فيه مجال ، فتفسيرهم يكون حديثاً اذا نسبوه مرفوعاً للنبي عليه الصلاة والسلام ، ويكون موقوفاً اذا لم يسندوه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن لا يمكن أن يكون للعقل فيه مجال ، ولا يمكن أن يقولوا في موضع لا مجال فيه للعقل فيه الا بقول المبلغ صلى الله تعالى عليه وسلم ، آخذين بقوله تعالى : « ولا تتقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (١) .

والقسم الثاني ما يكون للرأى فيه مجال ولا يسندونه للنبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو مجرد الرأى منهم . وانهم في هذا قد يختلفون ، وذلك في بعض الأحكام الفقهية التي لم يرد فيه نص من الكتاب ببيان الحكم . ومن ذلك قولهم في عدة المتوفى عنها زوجها اذا كانت حاملا ، فقد اختلف في تفسير آيات العدة الصحابة ، ففريق منهم — وعلى رأسهم على بن أبى طالب — عمل الآيتين الواردتين ، وهما قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ، ويذرون أزواجا ، يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » (٢) ، والآية الثانية هي قوله تعالى في سورة الطلاق : « وأولات الأحمال أجهلن أن يوضعن حملهن » (٣) . فقال هذا الفريق من فقهاء الصحابة : انها تعتد بأبعد الأجلين ، أى تعتد بوضع الحمل اذا كان بعد مضي أربعة أشهر وعشر ، وتعتد بالأشهر اذا كان وضع الحمل قبل انتهاء المدة .

وقات طائفة أخرى — وعلى رأسهم عبد الله بن مسعود — انها تعتد بوضع الحمل ، أخذاً بعموم اللفظ « وأولات الأحمال أجهلن أن يوضعن حملهن » ، لأنه يشمل المتوفى عنها زوجها الحامل ، كما يشمل المطلقة .

واجتماع فقهاء الصحابة على رأى فقهي يكون حجة ، وكذلك اذا لم يرد عنهم

في تفسير الآية التي تتعلق بالحلال والحرام الا رأى واحد ، واذا اختلفوا جاز  
للفقهاء المحبذين أن يختاروا من آرائهم ، ولا يخرجون عنها •

٢٤٠ - وان الموضوعات التي أثرت عن الصحابة آراء فيها مختلفة من حيث

قوة الأخذ برأى الصحابي فيها •

وأولها ما يتعلق بالحلال والحرام ، وقد علمت القول فيه اذا كان مبناء

الرأى ، والقبول المطلق اذا لم يكن للرأى فيه مجال •

ومهما يكن الأمر بالنسبة لآيات الأحكام ، فان أقوال الصحابة وأعمالهم تتبع

في فهم الآيات الخاصة بالحروب والصلح ، والمعاهدات والأمان ، وأحكام الذميين

والمستأمنين ، وجمع الغنائم وتوزيعها ، وفرض الخراج والجزية •

وكان عهد الفاروق عمر رضى الله عنه عهداً خصباً لبيان الأحكام الشرعية ،

فقررت فيه المبادئ الإسلامية المستفادة من القرآن ، وتعد معيناً للفقهاء

استقوا منه آراءهم في نظم العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم في السلم

والحرب ، وقد استقاها هو من فهمه لكتاب الله تعالى ، وادراكه لمراميه •

ولذلك نجد كتب السير أخذت من ذلك المعين ، فكتاب الخراج للامام

أبى يوسف •• الأصل الأول الذى اعتمد عليه هو عمل عمر رضى الله عنه الذى نفذ

ويفهمه من القرآن الكريم •

وكذلك الإمام محمد بن الحسن الشيبانى في كتابه « السير الكبير » قد أخذ

أكثره من عمل الصحابة ، وخصوصاً عمل عمر الذى استنبطه من القرآن الكريم •

ويعد كتاب السير الكبير أول كتاب ألف في القانون الدولى الذى يقوم على قواعد

العدل والرحمة • والكرامة الانسانية • وكذلك كتاب السير للأوزاعى ، وغيره

من الكتب كان اعتمادها على ما عمل به الصحابة ، آخذين ذلك من فهمهم

لمرامى القرآن الكريم •

ومن الموضوعات التي أثر عن الصحابة أقوال فيها في تفسير القرآن وفهم

معانيه ، آيات القصص في القرآن الكريم ، وليس المروى عنهم في ذلك كثيراً

والصحيح النسبة اليهم رضى الله عنهم قدر ضئيل •

وذلك لأنهم ما كانوا يعنون الا بما له أثر عملي يتعلق بالحلل والحرام ،  
وما له أثر في أعمالهم ، وتنظيم جماعتهم ، واقامة الحق والعدل في الأرض •

وكانوا يعتمدون في فهم القصص القرآني على السنة الصحيحة ، وعلى  
تفسير القرآن نفسه لبعضه ، وكانوا يكتفون بما جاء في القرآن والسنة ،  
ولا يزيدون عليه — لأنه هو الصحيح — ولا يحاولون أن يعرفوا ما عداه •

ولكن لما دخل في الإسلام اليهود والنصارى ، وبثوا في المسلمين ما عندهم  
من قصص وأساطير ، وجد بين المسلمين من يعنى بالقصص غير مقتصر على  
القرآن الكريم ، والسنة النبوية • وظهر ذلك في آخر عصر الخلفاء الراشدين •  
ولم ينظر الصحابة الى ذلك نظرة راضية أو متغاضية ، بل نظروا اليه نظرة غير  
متساهلة ، لما قد يجر اليه من نشر أساطير ما أنزلها الله ، وربما أوجدت غياما  
على معانيه •

لقد ظهرت في آخر عصر الصحابة طائفة من التابعين سمو القصاص ، وقد  
جاء على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وأخرج أولئك القصاص من مسجد الكوفة  
وكانوا قد انتشروا في العراق ، فكان رضى الله عنه يمنعهم الا اذا التزموا  
في قصصهم ما اشتمل عليه القرآن ، وما صح في السنة النبوية على صاحبها  
أفضل الصلاة وأتم التسليم •

ويروى أنه دخل المسجد ، فأخرج كل من فيه من القصاص ، ووقف عند  
الحسن البصرى ، فرآه لم يخرج في قصصه عن القرآن والدعوة الى هدايته •  
ومن الموضوعات التي أثر عن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم  
كلام في الكونيات التي اشتمل عليها القرآن الكريم ، وعده الرواة التي نسبوه  
اليهم تفسيراً للآيات الكونية ، ونقول فيه أنه لا يؤخذ به على أنه حجة الا اذا  
كان صريح كلام الله تعالى ، أو قد ثبت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم  
بمسند قطعى • أما ما يقال فيما عدا ذلك مما يتصل بالكون ، وخلق الله تعالى ،  
فإن خالف علمياً قطعياً لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالكون ، فإنه يرد  
الى صاحبه •

### التابعون والاسرائيليات :

٢٤١ — التابعون هم تلاميذ الصحابة الذين نقلوا الى الأضلاف أقوالهم في التفسير ، وان ما ذكر على أنه قول للتابعين عن الصحابة فيما يتعلق بالأحكام الفقهية مقبول النقل ، ويعتبر نقلهم عن الصحابة حجة عند أكثر الفقهاء على ماقررنا في اعتبار أقوال الصحابة حجة .

ولكن التابعين اذا قالوا في الحلال والحرام مفسرين للقرآن برأيهم ، فاننا اذا استثنينا أحمد بن حنبل وبعض المالكية ، فان باقى الأئمة لا يعتبرون قولهم حجة في ذاته ، انما يكون ما أيده من دليل هو الحجة . ويقول فيهم أبو حنيفة : اذا آل الأمر الى الحسن و ابراهيم ، فهم رجال ونحن رجال .

ولكن الكلام في القصص والكونيات ، وبعض ما يتعلق بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم دخله الاسرائيليات ، وكثرت في كتب التفسير وتجاوزت الحد ، ووردت بعض التابعين كثيراً من الاسرائيليين .

بل ان بعض الصحابة نقل عن الاسرائيليين ، فانه يروى أن عبد الله بن عمرو ابن العاص أصاب في واقعة اليرموك حمل زاملتين من كتب أهل الكتاب (٣) .

ولا يمكن أن يكون كل ما في هذه الحمولة صحيحاً عن أهل الكتاب الذين تمسكوا بالتوراة أو الإنجيل من بعدها ، ولا تعلم على وجه اليقين أكان بن عمرو ابن العاص لا يختار منها الا ما يوافق الكتاب والسنة الصحيحة ، أم كان يتجاوزها الى ما لا يناقضهما ، أم يسير وراء ذلك .

ولكن من المؤكد أن ما في الزاملتين لابد أن تتناقله التابعون ، وليسوا جميعاً ممن يلتزمون ، ولا يسرفون ، فلا يمكن أن نقرر سلامة ما يأخذون .

ولقد توقف العلماء في قبول الإسرائيليات التي راجت حول التفسير في قبولها ، وقد قسموها الى ثلاثة أقسام : القسم الأول ما علم صدقه ، لأن القرآن يوافقه ، ولا تتجافيه ألفاظه المحكمة ، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم نقل عنه بسند

صحيح ما يوافقه • وهذا بلا شك لا يكذب ، ولكن لا نجد فيه غناء عن السنة ، ولا نجده يسد حاجة وظلا لو لم يوجد لا تسد • ولذلك نرى الأولى ألا يلتفت اليه ، لأن السنة للقرآن يغنيان ، وسدا للزريعة لا يعتمد عليه ، لأن قبول بعض المروى عن اليهود الذي لا زيف فيه يسهل قبول الزيف ، وهو الأكثر ، وهو الذي تعمدها به أن يفسدوا علينا أمر ديننا • وإذا كانوا لا يستطيعون تحريف القول فيه عن مواضعه ، فانهم يجدون في التفسير طريقاً لإفساد العقول حول معاني القرآن الكريم •

القسم الثاني ما ثبت كذبه بيقين ، وهو يناقض معاني القرآن الكريم ، ويخالف الصحيح المتواتر من السنة ، أو يخالف منطق الإسلام ، وإن هذا يرد بالاتفاق •

وان المستقرى لكتب التفسير المشتملة على الإسرائيليات ، يرى أن أكثر ما دس فيها من هذا القبيل •

القسم الثالث الذي لا يأتي بما يخالف النصوص القرآنية ، ولا الأحاديث النبوية ، ولكنه في جملته أخبار تحتمل الصدق والكذب ؛ ويقول ابن تيمية في هذا القسم لا نؤمن به ، ولا يمكن أن يكون فيه فائدة اسلامية • ومن ذلك ما يذكرون حول أسماء أهل الكهف ، ولون كلبهم ، ومن ذلك أيضاً وصف عصا موسى (١) •

## تفسير القرآن بالرأى

٢٤٢ — ذكرنا من مصادر التفسير : اللغة ، والسنة ، والصحابة مع تلاميذهم التابعين ، وما دخل عصر التابعين من اسرائيليات دخلت التفسير وتناقلتها كتبه ، مع تمحيص أحيانا وسكوت في كثير من الأحيان •

والمرتبة الرابعة في التفسير : تفسير القرآن الكريم بالرأى ، أي بالنظر

(١) رسالة مقدمة التفسير المذكورة

المجرد الذى لا يخالف اللغة ، بل يستعين بمناهجها ، ولا يخالف السنة بل يعتمد على الصحيح من أسانيدھا ان صحت عنده ، ولا يناقض تفسير الصحابة المأثور ولا أسباب النزول التى صحت بسند صحيح •

والتفسير بالرأى على هذا النحو تضاربت فيه أقوال العلماء ، فبعضهم توقف ومنع أن يفسر القرآن بالرأى ، بل لابد لبيانه من علم السنة ، ومنه علم الصحابة ، وما يجتمع عليه التابعون •

وقد ناصر ذلك الرأى وشدد في التمسك به شيخ الإسلام ابن تيمية ، فهو يقول : « تفسير القرآن بالرأى فحرام » •

ويستدل على ذلك بأخبار منسوبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبأخبار عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم •

( ا ) ومن ذلك ما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من قال فى القرآن بغير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » •

ويعد ابن تيمية أن من يفسر القرآن برأيه يقول بغير علم ، ونحن نقول ان الحديث خاص بمن لم يؤت أدوات التفسير من علم باللغة ، ومصادر الشريعة ومواردها ، ومرامى الإسلام وغاياته ، والعلم بأساليب البيان • والعلم بجملة المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الذى يقول بغير علم • أما من أوتى علم اللغة والبيان ، وعلم الآثار ، وعلم الاسلام ، فانه اذا قال فى التفسير معتمداً على رأيه ان لم يكن نص يعارضه ، فان الخبر لا ينطبق عليه •

( ب ) ومن ذلك أيضاً ما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من أخذ فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » •

ولقد قال الترمذى فيه انه غريب ، وقد تكلموا فى بعض روايته ، فليس سنده سليماً ، ومثنه غريب •

( ج ) ومن ذلك ما يروى عن كبار الصحابة من نهيم عن القول فى القرآن الا اذا كانت سنة صحيحة يستأنسون بها ، ورميهم بالتكلف من يحاول علم كل

هما في القرآن • ومن ذلك ما روينا عن أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال :  
( أى أرض تغلنى ، وأى سماء تغلنى ، إذا قلت فى القرآن ما لم أعلم ) •

وقد روى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم  
أنه قال : ( كنا عند عمر بن الخطاب وفى ظهر قميصه أربع رقاع ، فقرأ « وفاكهة  
وأبأ » فسأل بعض الحاضرين « ما الأب » ثم عدل عن السؤال وقال ان هذا  
هو التكاف ، فما عليك ألا تدريه ) •

وان الناظر الى ما روى مسنداً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعضه  
ضعيف لا يصلح أن يكون حجة ، وبعضه لا يدل على منع الاجتهاد بالرأى فى فهم  
القرآن ان لم تكن سنة مسعفة • وما روى عن أبى بكر انما يدل على أن المنوع  
أن يقول فى القرآن بغير علم ، وعمر رضى الله تبارك وتعالى عنه أراد أن يضرب  
الأمثال للناس بأن يبين لهم أن القرآن بحر عظيم عميق مملوء بالمعنى ، فلا يصح  
للأحد أن يدعى أنه تقصاه وعرف أطرافه ، وخشى أن يظن أحد أنه يحاول ذلك  
عندما سأل عن معنى كلمة ( الأب ) فعدل عن السؤال •

ونحن لا نرى فيما ساقه ابن تيمية جزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً ما يدل  
على المنع ، ولكن يدل على وجوب الاحتياط فى فهم القرآن ، وأن يكون بين يديه  
من دلائل العلم وبياناته ما يجعله يقول عن بيته • ولا ينطبق عليه النهى فى قوله  
تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » (١) •

وإذا كان ابن تيمية قد عد التفسير بالرأى منهجاً مهجوراً ، أو يجب أن  
يهجر ، فعلى أى شىء اعتمد ؟ انه اعتمد على أربعة مصادر :

أولها — القرآن ؛ إذ أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فهو يبين أحياناً فى موضع  
ما أجمله فى موضع آخر ، ويوضح أحياناً ما يبدو بادى الرأى أنه مبهم فى وضع  
آخر • وجميع آيات القرآن بعضها على بعض اذا تصدت لموضوع واحد ،  
يستطيع القارىء المتفهم أن يفهم بعض القرآن ببعضه •



وان ذلك بلا شك نوع من الرأى والاجتهاد ، ولكن ابن تيمية لا يمنعه بل يوجبه كخطوة أولى •

وثانيها — السنة ؛ اذا لم يستطع القارىء أن يفهم القرآن من القرآن ، فانه يتجه الى السنة — كما أسلفنا — تحقيقاً لقوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (١) • وقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ألا انى أوتيت علم الكتاب ، وأوتيت مثله معه » •

وثالثها — ما قاله الصحابة في تفسير القرآن ، كما ذكرنا من الأسباب ، في موضعه • وقد روى أن عبد الله بن مسعود قال : « والله الذى لا اله غيره ما نزلت آية من كتاب الله الا أنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت » •

ورابعها — أقوال التابعين في التفسير ، بتعرف ما قالوه نقلًا عن الصحابة • وتتعرف في هذا : السنة بكل طرائقها ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو المبلغ للرسالة والمفسر للقرآن ، لا يمكن أن يترك شيئاً من القرآن قابلاً للبيان ولم يبينه •

٢٤٢ — هذا منهاج المتوقفين الذين يرون أن تفسير القرآن بالرأى غير جائز ، وانما يعتمد في بيان القرآن على السمع وحده •• اما عن الرسول أو عن صحابته أو عن تلاميذهم ، وان الخروج عن هذه الدائرة خلع للربقة ، وتهجم على القرآن الكريم بغير علم ، وان النبي عليه الصلاة والسلام لم يترك القرآن من غير بيان •

وان هذا الكلام ينطبق كل الانطباق على الذين لا يعرفون السنة بياناً للقرآن ولا يأخذون به ، بل يتركونه • وان مثلهم في هذا كمثل الذين يعرفون الحكم الشرعى الثابت بالنسبة ، ويتركونه نسياً منسياً •

وانه في آيات الأحكام يجب الاتجاه الى السنة ابتداءً ، ولا يتجه الى غيرها الا على ضوء منها وتعرف لأمرء الأحكام ، وغاياتها منها ، واذا كان ثمة رأى فعلى ضوءها وبقيس من نورها •

وان الذين أخذوا في تفسير القرآن بالرأى في مقابل الذين توقفوا سلكوا مسلك الفقهاء الذين أخذوا بالقياس ان لم يجددوا في الموضوع نصاً، فهم لا يتركون السنة ولكن يأخذون بالرأى اذا لم يجدوا سنة مفسرة ، وهم لا يقتصرون على الأخذ في غير موضع السنة ، بل انهم عند وجود السنة لا يناقضونها ولا يغيرونها ، بل يأخذون بها ويسيرونها فيما وراء ما ثبت بالسنة الى ما تدل عليه الألفاظ من اشارات بيانية ، ويحاولون أن يتعرفوا من وراء ذلك الأسرار البلاغية في القرآن الكريم .

ولذلك كان هذا المسلك مسلك الذين حاولوا تعرف اعجاز القرآن ، وعلى رؤسهم الامام جاره الله الزمخشري ، ومن قبله كان الامام الطبري عندما كان يبدي رأيه بعد أن يسرد من الروايات الصحيح والسقيم .

والامام حجة الاسلام الغزالي كان ممن سلكوا ذلك المنهاج ، وأثبت بالأدلة العلمية أن التفسير بالرأى من غير مناقضة للسنة ، جائز ، ويستدل على ذلك

أولاً — بأن القرآن فيه كل علوم الدين ، بعضها بطريق الاشارة ، وبعضها بالاجمال ، وبعضها بالتفصيل الذي يفتح الباب للفكر المستقيم ، والاستبصار في حقائقه ، وذلك لا يكفي فيه الوقوف عند ظواهر الآيات ، ولا ظواهر أقوال السلف ، بل لابد من التعمق من غير تكلف ، واستخراج المعاني ما دامت لا تخالف المأثور ، وهناك أمور وراء المأثور ، يسير المفسر على ضوء المأثور ، ولقد قال عبد الله بن مسعود : « من أراد علم الأولين والآخريين ، فليتدبر القرآن » وان ذلك لا يكون بغير التعمق في الفهم ، من غير تكلف ، وتعرف الغايات بالاشارة والمرامى .

وثانياً — أن القرآن الكريم فيه بيان صفاته تعالى وأفعاله ، وذكر ذاته القدسية ، وأسمائه الحسنی ، وان فهم ذلك مع التنزيه عن المشابهة للحوادث يحتاج الى تدبر وفهم من غير الوقوف عند الظواهر ، وجمع بين المؤتلف ونفى القول المختلف .

ثالثاً — أنه قد وردت الآثار تدعو الى الفهم والتدبر في معاني القرآن ، فقد

قال على كرم الله وجهه « من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، وذلك لا يكون الا  
بالتعمق في الفهم » •

درباً — ان عبارات القرآن الكريم تدعو الى التعمق في الفهم ، فقد قال  
تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » (١) ويقول مفسرو السلف ان  
الحكمة هي فهم القرآن ، واذا كان الله تعالى قد وصف فهم القرآن بأنه خير كثير،  
فانه سبحانه وتعالى يدعو القادر على ادراك هذه الحكمة لينال من علمها خيراً  
كثيراً •

وخامساً — أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دعا لابن عباس رضى الله  
عنهما بالفقه في القرآن ، فقال عليه السلام « اللهم فقه في الدين ، وعلمه التأويل  
وليس التأويل الا التفسير العميق الذى يتعرف به القارىء ما وراء العبادات من  
معان دقيقة عميقة ، ولو كان كل علم التفسير مأثوراً عن النبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم ، لقال عليه السلام « اللهم علمه التأويل » •

وان الغزالي لا يكتفى بسوق ما تؤدى اليه الأدلة من جواز التفسير بالرأى ،  
بل يتجاوز فيقول ان المأثور من التفسير بالسنة قليل لا يشمل القرآن كله ، ويذكر  
أن : ما يؤثر عن الصحابة في التفسير ، انما هو رأيهم ، وعلينا أن نتبعهم باحسان  
فنجتهد في تفسير القرآن مثل اجتهادهم من غير معارضة ، ولا مناقضة •

ثم ان الصحابة فيما بينهم قد اختلفوا ، وكذلك التابعون من بعدهم ،  
واختلفهم دليل على أن بعض هذه الاقوال بالرأى لامحالة ، ويجوز أن يكون  
بعضها بالسمع ، ولكنه غير معروف ، ولو كان واجبنا أن نختار من أقوالهم عند  
اختلافهم ، فالاختيار أساسه الترجيح بالرأى بقبول بعضها ورد بعضها وذلك في  
ذاته أشد من الأخذ بالرأى ابتداء ما دام غير معارض للمأثور •

٢٤٣ — هذا ما ساقه الغزالي من أدلة في جواز الفهم بالرأى الذى لا يعارض  
السنة ، ولا يتزيد عليها بما يخالفها • وان أدلته مستقيمة منتجة لما يقول ، بيد أن

قوله ان المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في التفسير محدود وقليل •  
انما هو في غير الحلال والحرام ، أما ما يتعلق بتفسير القرآن في الحلال والحرام ،  
فان ما ورد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك كثير وليس قليلاً ، لأنه  
بيان الشريعة ، وتبليغ رسالة الله ، اذ أن التكليفات لا بد أن يبينها النبي صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، ولا يتركنا الا وقد بين ما يجب على المكلفين فعله ، وما يجب  
عليهم تركه ، اما بالنص عليه ، واما بذكر ما يدل على أصل الشرع الذي يقاس  
عليه ، وتناط به الأحكام ، وتقام عليه مصالح الأنام ، وأحاديث الأحكام أكثرها  
في تفسير الآيات المتعلقة بالأحكام ، وأكثر الأحاديث الروية في هذا المقام ثابتة  
بسند صحيح تبني عليه الأحكام بالتعطيل والتحرير •

٢٤٤ — والغزالي وغيره من العلماء الذين سوغوا تفسير القرآن بالرأى ، بل  
ان عبارتهم تومىء بوجوبه في غير موضع الأثر المروى عن النبي صلى الله تعالى  
عليه وسلم بسند صحيح ، هؤلاء قد منعوا التفسير بالرأى في موضعين يكون  
الرأى فيهما مذموماً :

أول هذين الموضعين أن يفسر القرآن بهواه ، أو أن يحاول حمل الآيات على  
مذهبه أو رأيه بأن يكون له في موضوع الآية رأى معين ، وله ميل له بطبعه ،  
فيتناول القرآن على وفق رأيه ليحتج به ، ولو لم يكن له ذلك المذهب ما كان يظهر  
له ذلك التفسير ، وانه ليتجه ذلك الاتجاه ، ويؤول ظاهر الآية لتساير مذهبه ،  
وينزلها من علياء بيانها الى حيث رأيه •

وأحياناً يفعل ذلك غير قاصد حمل الآية على مقتضى رأيه ، ولكن امتلاء عقله  
وقلبه بهذا الرأى يجعله يتجه اليه غير قاصد مجرد ترجيح مخيلته ، ويلبس عليه  
الأمر فيظن ما قاله ظاهراً ، وما هو بظاهر •

فهذا بلا ريب تفسير بالرأى مذموم ، ويكون من المنهى عنه ، لأن القرآن الكريم  
فوق الآراء والمذاهب وليس خاضعاً لها •

وانه من نوع تفسير القرآن بالهوى لا بالرأى المبني على النظر الخالص لوجه  
الحقيقة •

الموضع الثاني - الذى يكون فيه التفسير بالرأى مذموماً - يكون فى المسارعة الى تفسير القرآن بظواهر الآيات ، والافتتار على هذه الظواهر من غير تعرف للمنقول فى موضوعها ، ومن غير مقابلة الآيات بعضها ببعض ومن غير تعرف للعرف الاسلامى الذى خصص بعض الالفاظ العربية ، ومن غير علم دقيق بأساليب الاستنباط من القرآن من حمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، ومن غير ادراك مواضع الاضمار والحذف والتقديم والتأخير ، وغير ذلك من الاساليب البيانية القرآنية المعجزة . فان ذلك يكون مذموماً ، لأنه تفسير بالرأى من غير ادراك لمعانى الالفاظ فى عرف الاسلام ، وبغير مؤهلات ، واجتهاد فى الفهم من غير التسلح بأدواته ، وحينئذ يكون الخطأ . ويكون السقط .

فهذان هما الموضعان اللذان يذم الرأى فيهما .

وفى الحق ان هذا ليس تفسيراً بالرأى المجرد ، انما هو من الهوى أو التهجم والتهجم على مالا يحسن ، والعمل فيما لا يتقن ، وذلك قبيح فى كل شيء .

## الظاهر والباطن

٢٤٥ - يدعى بعض فرق الشيعة أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأن الباطن له باطن حتى يصل العدد الى سبعة بواطن وأن معرفة القرآن معرفة صحيحة كاملة لا تكون الا بمعرفة هذه البواطن ، وليس علمها عند كل انسان ، بل أوتى العلم بالبواطن كلها الامام المعصوم ، والاصل أن علم هذه البواطن كلها كان عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أودعها من بعده على بن أبى طالب ، وعلى أودعها عند موته الامام من بعده ، وهكذا توالى النفوس فى أخذ هذه الوديعة اماماً عن امام حتى وصلت الى الامام المستور المغيب .

وقد تولى القاضى عبد الجبار ادحاض ذلك الرأى ، وبين أنه لا أساس له من العقل ولا النقل ، فقال عن هذا الرأى ، حكى ذلك عن قوم من الأوائل ، لأنهم زعموا أنه ينطبع فى النفس مثل المدركات ، فيعرفه المدرك على أن هذه الطبقة

خارجة عن حد من يناظر ويتكلم ، لأنها تبني أمرها على الحيل ، وانما تقع المناظرة من أهل الديانات ، دون من يجعل من بيندئه ويعيده مبنياً على الخديعة والاستشكال ، والتوصل الى استباحة المحذور ، ويرى أن المذاهب كلها واحدة وان الواجب أن يظهر لكل فرقة ما يقرب به اليها ، ولا ينفرد بالخالفه الى سائر ما يحكى عنهم ولو بنوا الأمر على طريقة النظر ما أقدموا على هذا القول مع وضوح فساده ، ولكنهم توصلوا بذلك الى الاحتيال على الناس ، فقالوا ان القرآن له ظاهر وباطن ، وتنزيل وتأويل ، وان الاثر قد ورد بأن تنزيله مفوض الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتأويله الى على رضى الله عنه ثم الى سائر الحجج ( أى الأئمة ) وأنه لا بد من معرفتهم ليصح أن يعرف مراد الله تعالى ، فجعلوا ذلك طريقاً الى القدح فى الاسلام والدين ، لأنه مبنى على القرآن والسنة ، فإذا أخرجوا من القرآن يعرف به شئ وكذلك السنة وجعلوها ظاهرين ، وجعلوا المرجع الى الباطن الذى لا يعلم الا من جهة الحجة ( الامام ) ولا حجة فى هذا الزمان فقد سدوا باب معرفة الاسلام ، وطعنوا فيه ، فعظمت مضرتهم (١) .

ويسوق بعد ذلك عبد الجبار الادلة على بطلان ذلك المذهب ، وان كان لا يحتاج بطلانه الى دليل ، ويناقش القول الذى قالوا ، لأنه يلغى اعتبار الالفاظ ، وعلى غرض بقائها يجب أن يكون علم الامام مبيناً لها وان قولهم هذا يؤدى الى أن يلتبس أمر القرآن على الامة ، لأن الامام مستور ، وأن القول بأن له باطناً ، لا يعرف للناس مناص لقول الله تعالى فى وصفه الله تعالى للقرآن بأنه هدى للناس وبأن فيه تبيان كل شئ ، وأن الناس مأمورون بالفكر فى آياته ، وتدبره وهكذا . وفى الحق ان ذلك الكلام لاموضع له من النظر ، وقد حكيناها ليتبين أوهام وأوائك الناس التى لا سلطان لها من حجة أو برهان ، ولكنها مخاوف الشيطان .

العلماء يقولون ان للقرآن ظاهراً ٢٤٦ - ويجب هنا أن ننبه بأن بعض وباطناً ، لا بهذا المعنى ، بل بمعنى أن القرآن يحوى من العلم ما يخفى على بعض الناس ، فأولئك لهم ظواهر الالفاظ ، أما ما عدا هذه الظواهر مما تشير اليه من

(١) المغنى ج ١٦ ص ٣٦٤ والذين يقولون لا فرق بين المذهب والديانات بعض الصهيونية الذين يدعون للوصول الى الحقيقة ولعلمهم من أصل باطنى

علم ، فإنه لا يعرفه الا خواص العلماء ، والراسخون في العلم ، ولا تتناقض بين الظاهر والباطن •

فالغزالي يسلم بأن للقرآن ظاهراً يفهمه كل قارئ للقرآن يعلم بأساليب البيان العربي ، مطلع على المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وله باطن عميق يفهم من الاشارات البيانية ، وما وراء الالفاظ من معان علمية لا يدركها الا الراسخون في العلوم المختلفة •

والغزالي على هذا يفتي الى أنه لا يصح الاعتماد على العقل وحده في فهم القرآن بل لابد من الاستفادة بالنقل ، ويصح الاخذ بالنقل في الاحكام الشرعية ، بل يجب الاخذ به ، وفي غيرها من النصوص تكون الطريقة المثلى أن يعتمد على النقل والعقل معاً فان ظاهر القرآن لا يد في معرفته من نقل اللغة والسنة ان كانت سنة صحيحة •

وفي ظل النقل الصحيح ان كان ، وفي كل الدلالات اللغوية للألفاظ والأساليب البيانية ، والعرف الاسلامي لألفاظ القرآن يعمل العقل في استخراج معاني القرآن الكريم ، المتسعة الأفق البعيدة المدى ، وفي القرآن آيات كثيرة توجه العقل الى عمق في الحقائق الكونية والنفسية ، وكلما تفتح العقل ، وأدرك ظواهر كونية ادراكاً صحيحاً وجد في القرآن ما يشير اليها وانه كلما اتسع أفق العقل البشري في فهم الكون والحقائق والشرائع اتسع فهمه للقرآن الكريم •

واعل ذلك هو الذي أشار اليه بعض الصحابة في أقوالهم مثل قول أبي الدرداء فيما نسب اليه « لا يفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً » ، ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلقاً » وليس الباطن المذكور في ذلك النص الباطن الذي لا يعلمه الا الأئمة كما يدعى الشيعة ، انما الباطن هو الاشارات البيانية الى الحقائق الكونية والنفسية ، وغير ذلك من المعاني التي تدركها العقول ، ويصل اليها العالم ذو البصيرة المنيرة الذي آتاه الله تعالى نفاذ عقل واستقامة فكر •

٢٤٧ - والغزالي يقول المعنى الذى يؤخذ من ظواهر الألفاظ العربية ، ويثبت بعضه من السماع عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصحابة هو الطريق للمعنى العميق الذى يدركه الناس كلما تقدم العلم ، واطلعوا على ظواهر الكون وكشفوا من خواصه ما كان مجهولاً ، ولا سبيل لمعرفة تلك المعانى العميقة الا بالمعانى الظاهرة المكشوفة .

ويقول الغزالي فى ذلك ما نصه : « النقل والسماع لا بد منه فى ظاهر التفسير أولاً ، ليتقى موضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتتبع للفهم والاستنباط ، واستخراج الغرائب التى لا تفهم الا بالسماع ، ولا مطمع فى الوصول الى الباطن قبل امكان الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر ، فهو كمن يدعى البلوغ الى صدر البيت قبل مجاوزة الباب ، أو يدعى فهم مقاصد الاتراك من كلامهم ، وهو لا يفهم لغة التراك ، فان ظاهر التفسير يجرى تعلم اللغة التى لا بد منها للفهم » .

والمعنى الباطن الذى يقصده الغزالي هو تحرى الدقائق التى تكون فى مطوى الألفاظ القرآنية ، والأسرار التى لا يدركها الا العلماء الراسخون فى الاسلام ، والعلوم المختلفة ، كل بمقدار طاقته العلمية ، بعد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحذف واخبار ، وعموم ، وخصوص ، واطلاق وتقييد ، وان ذلك واضح من كلامه وضوحاً بيناً ، فهو يقول فى معانى القرآن :

« انما ينكشف للراسخين فى العلم من أسراره بقدر غزارة علمهم ، وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد فى الترقى من درجة الى درجة أعلى منها ، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ، ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً ، فأسرار كلمة الله عز وجل لانهاية لها ، فمن هذا الوجه يتقارب الخلق فى الفهم ، بعد الاشتراك فى معرفة ظاهر التفسير ، وظاهر التفسير لا يعنى » (١) .



٢٤٨ — هذه اشارات الى مناهج التفسير تكلم فيها العلماء ، وعندى أنه لا يمكن الاستغناء عن الآثار في فهم آيات الأحكام ، أما ما عداها فان العقل له فيه مجال كبير بشرط ألا يهيم على غير نور من الشرع • ولا بد لكى يكون التفسير بالعقل مقبولاً من ثلاثة شروط :

- أولها — العلم باللغة علماً سليماً لكى يدرك معانى التصريف البيانى فى القرآن.
- وثانيها — ألا يخالف المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ يكون مخالفاً للمبين الأول للقرآن وهو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •
- والشرط الثالث — ألا يتعصب لفكرة أو مذهب ، ويخضع القرآن لما يتعصب له ، فيكون تفسيره خالياً من تأثير الهوى ، والله أعلم •

## ترجمة القرآن

٢٤٩ - أجمع العلماء على أن القرآن هو اللفظ ، والمعنى ، وان من خالف ذلك يعد قد خالف في أمر عرف من الدين بالضرورة ، وليس المعنى وحده يعد قرآناً ، لأن التحدى كان باللفظ والمعنى ، ولما تحداهم الله تعالى طالبهم أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، وواضح أن التحدى هنا باللفظ .

وان جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلسان عربى مبين ، ولقد وصف القرآن الكريم بأنه عربى ، فقال تعالى « انا أنزلناه قرآناً عربياً » وقال تعالى : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » فالقرآن بلفظه ومعناه عربى ، ولا يصح أن يقال عن كتابه بعض معانيه بغير العربية انها قرآن .

ومع وضوح هذه الحقيقة البديهية التى لا تختلف فيها العقول عند أهل الايمان ولا تتباين فيها الانظار ، وجد من الناس من ادعى أن معانى القرآن قرآن ، وأنه على هذا الاعتبار تجوز ترجمة القرآن الكريم على أن يكون المترجم قرآناً له كل خواص القرآن ، ويتعبد به كما يتعبد بالقرآن الذى نزل به جبريل بلسان عربى . بل وصل التهافت فى القول الى أن يدعى بعض الذين لا حرج على ألسنتهم ولا على قلوبهم أن يقول ان الذى نزل به جبريل على النبي عليه الصلاة والسلام هو المعنى فقط .

وذلك كله هراء من القول ، وانحراف عن الدين ، أو خروج عنه .

وفى وسط ذلك المضطرب كان من بين الذين يتجنون على القرآن من ادعى أن الامام الاعظم أبا حنيفة النعمان يرى أن القرآن هو المعنى فقط، وبنوا على هذا جواز ترجمة القرآن عند أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ، وأكرم مثواه ، والاصل الذى بنوا عليه دعواهم أنه رأى فى صدر حياته طوائف من الفرس قد دخلوا

في الاسلام ، وقد علموا العربية ، ولكن ألسنتهم لم تطوع للنطق بها من غير رطانة  
أعجمية ، بل كانت تتلوى في مخارج الحروف العربية ، كما نجد اليوم الاعاجم  
الذين يعلمون اللغة العربية ، ولا تطاوعهم ألسنتهم في النطق السليم بها ، فسوغ  
أبو حنيفة لهؤلاء أن يقرعوا معانى الفاتحة بلغتهم الفارسية ، وقد روى في هذا  
أن أهل فارس في عهد الصحابة قد صعب عليهم مخارج الحروف العربية ، فطلبوا  
الى سلمان الفارسي أن يعبر لهم بالفارسية عن معانى الفاتحة ففعل ، حتى لانت  
ألسنتهم وقرعوا القرآن باللغة العربية ، وقد اشترط أبو حنيفة لجواز ذلك ألا يكون  
الشخص مبتدعاً بهذا العمل ، أى أنه يترك القراءة بالعربية مع القدرة على النطق  
الصحيح بها ، واخراج الحروف من مخارجها ، ليقرأ معانيه بلغة أخرى فارسية  
أو أوربية .

وقد روى عن أبي حنيفة أنه رجع عن هذا الرأي ، روى هذا نوح بن أبى مريم  
الجامع ، وهو الذى رجحه الاكثرون ، وان النظرة التاريخية الفاحصة تجد ترجيح  
هذه الرواية له سبب واضح ، وهى تساير الحقيقة التاريخية ، وهو أن أبا حنيفة  
اللفقيه المحرك ، قرر جواز قراءة المعانى بالفارسية على أنها دعاء مقارب للفاتحة في  
معانيه ، فلما لانت الالسنه ، ودخل الناس من أهل فارس وغيرها في دين الله  
أنواعاً أفواجا ، ورأى أن المبتدعين هم الذين يتخذون القرآن مهجوراً وهم الذين  
يستبيحون تلك الرخصة التى رخصها ، حرم ما كان قد استحسن .

٢٥٠ — ومهما تكن الفتوى من الناحية التاريخية فان الفقهاء اختلفوا في أصل  
هذه الفتوى أموداها أن أبا حنيفة اعتبر الترجمة دعاء ، وليست قرآناً ، أم أنه  
اعتبرها قرآناً ، وهل مؤدى ذلك أن يكون أبو حنيفة قد اعتبر القرآن هو المعنى  
دون اللفظ .

ونقول ، في الاجابة عن هذا السؤال ان من المقطوع به أن أبا حنيفة لم يعتبر  
القرآن الذى نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو المعنى فقط ، فذلك  
ما لم يقله أحد من أهل الايمان ، لأن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أقرأه  
جبريل اللفظ ، ولم يوح اليه بالمعنى وحدها ، اقرأ قوله تعالى مع ما تقدم

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فأذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » (١) •

فهل بعد هذا النص القاطع يستطيع أحد أن يدعى على أبي حنيفة الورع النقي أنه يقول ان الذي نزل على محمد ، وتلقاه عن جبريل الامين ، وهو روح القدس هو المعنى فقط ، ان ذلك غير معقول •

وبقى السؤال الأول هل يمكننا أن نفهم من هذا أن أبا حنيفة أقر قراءة القرآن بغير العربية ممن يعرف العربية ، ولا يجيد اخراج الحروف من مخارجها ، أنه يعتبر المعنى ذاته قرآناً مع اقراره بأن الذي نزل على محمد اللفظ والمعنى •

نقول ان الاكثرين من الفقهاء المتقدمين والمتأخرين يقولون ان أبا حنيفة اعتبر المترجم مجزئاً للصلاة في الحدود التي رسمناها في دور من أدوار اجتهاده الفقهي ، ولكنه لا يعده قرآناً قط ، ولذا لم يقل أنه تجب سجدة التلاوة بالجزء المترجم اذا كان في معنى آية لها سجدة تلاوة ، وأجاز أن يمس غير المتوضئ بالجزء المترجم ، ولا حرج عليه ، وتقرأ الحائض النفساء المعنى المترجم ، ولا اثم في ذلك ، لأنه ليس قرآناً •

ولذلك يقول الاكثرون من فقهاء المذهب الحنفي ان ماقرره أبو حنيفة ان هو الا ترخص للذين لم تقوم ألسنتهم تقويماً عربياً سليماً ، فسوغ لهم أن يقرءوا المعاني حتى تقوم ألسنتهم ، وعلى أنها دعاء ، لا على أنها قرآن ولم يعرف عنه قط أنه سوغ ذلك في غير الفاتحة •

وعلى هذا لايجوز لأحد أن يبنى على ما روى عن أبي حنيفة جواز ترجمة القرآن الى لغة من اللغات على أن يكون المترجم قرآناً ، ومهما يكن ، فان الرأي الذي ينسب الى أبي حنيفة قد رجع عنه ، وهو خارج عن رأى الفقهاء أجمعين ، فلم يسوغ أحد قراءة معاني الفاتحة بالفارسية أو غيرها ، بل أجازوا الدعاء لمن لا يعرف العربية ، ولم يجد من يأتى به ليغنيه عن القراءة •

وتكرر القول بأنه رجع عنه ، وقلنا انه الذى يتفق مع السياق التاريخى ، اذ أن أبا حنيفة عاش سبعين سنة ابتدأت سنة ٨٠ وانتهت سنة ١٥٠ والمعتول أنه رأى الألسنة الفارسية لم تقوم ، فسوغ لهم من قبيل الرخصة الدينية فقط أن يقرءوا المعانى لسورة الفاتحة على أنها دعاء حتى تقوم ألسنتهم ، فلما رأى الألسنة قومت ولانت واستقامت ، وخشى البدعة ، اذ يجد المبتدعة السبيل لبدعتهم ، فرجع عن رأيه ، ولا يصح الاعتماد على رأى رجع عنه صاحبه .

٢٥١ - ولو تركنا فتوى أبى حنيفة ، وقد علمنا من الفتوى أنه لم يعتبر ترجمة القرآن قرآناً لها قدسية القرآن يجب أن نتجه الى موضوع الترجمة فى ذاته ، ولكى نقرر الحق فيه يجب أن نجيب عن هذه الاسئلة الثلاثة .

السؤال الأول : أيمكن ترجمة القرآن .

السؤال الثانى : أتسوغ الترجمة على أن الترجمة قرآن أو ليست بقرآن .

السؤال الثالث : ما السبيل لتعريف غير المسلمين بالقرآن ، واطلاعهم على معانيه .

وانا نجيب عن هذه الأسئلة جملة : ان ترجمة القرآن غير ممكنة ، وقد تصدى لذلك العلماء الأقدمون ، فقرر ابن قتيبة وغيره من العلماء أن كل كلام بليغ لا يمكن ترجمته ببلاغته من لغة الى أخرى ، ذلك أن الكلام البليغ له معنيان مجتمعان أحدهما أصلى ، وهو المقصد الذى انبنى عليه الكلام وما سبق له من قصة أو حكم أو عظة .

والثانى بلاغى ، وهو اشارات الكلام ومجازاته ، وما يثيره من صور بيانية ، وما يحيط به من أطياف ، كالتي تحيط بالصور الصسية ، وبهذا كله تعلو الرتب البلاغية ، ويسمو البيان .

وبتطبيق هذه القاعدة على القرآن الكريم . وهو فى درجة من البلاغة لا ينهد اليها أى كلام انسانى قط ، فان ترجمته مستحيلة على أن يكون قرآناً فيه كل خواصه البلاغية .

ولذلك قال العلماء الأقدمون بالاجماع ، انه لا يمكن ترجمة القرآن بمعانيه الأصلية ، والمعاني البيانية اللاصقة لها ، فما فيه من أوامر ونواه وأخبار وقصص يمكن ترجمته ، فيترجم أصل النهى والامر ، ووقائع القصة ، ولكن العبارات التي سبق بها القول وما فيه من صور بيانية ، وإشارات تغلو بالكلام الى أسمى المنازل حيث لا يكون له شبه ولا مثيل ، فان ذلك لا يمكن ترجمته •

ولقد قال الشاطبي في هذا المعنى بعد أن قسم معاني الكلام البليغ الى معان أصلية ومعان خادمة هي ما تشير اليه المجازات والتشبيهات والاشارات البيانية، ومطويات الكلام ومراميه البعيدة • قال بعد هذا التقسيم : « اذا ثبت هذا لا يمكن من اعتبار هذا الوجه أن يترجم كلاماً من الكلام العديد بكلام الاعاجم فضلا عن أن يترجم القرآن ، وينقله الى لسان غير عربى الامع فرض استواء اللسانين في اعتباره عيناً ، فاذا ثبت ذلك في اللسان المنقول اليه مع لسان العرب أمكن أن يترجم أحدهما الى الآخر ، واثبات مثل ذلك بوجه بين عسير جداً » •

ونزيد على الشاطبي أنه اذا توافق اللسانان فانه مع بعد ذلك لا يوجد في اللسان الآخر من تكون عبارته كعبارة القرآن المعجز للبشر أجمعين الذى أن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً •

وقد نفى ابن قتيبة امكان ترجمة القرآن على الوجه الثانى ، أما الوجه الاول فقد قال فيه : « فأما عن الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهة صح تفسير القرآن ، وبيان معناه للعامة ، ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الاسلام ، فصار هذا الاتفاق حجة على صحة الترجمة بالمعنى الأسمى » (١) •

وبهذا يتبين أن ترجمة القرآن غير ممكنة •

ولا تسوغ ترجمة القرآن ، واعتبار هذه الترجمة قرآناً ، فان ذلك يؤدي الى

ألا يحفظ القرآن من التحريف والتبديل بل يعتريه ما اعترى التوراة والانجيل من تحريف وتبديل ، فلانانجيل ضاع أصلها العبرى ، ولم يبق الا ترجمتها اليونانية ، أو بالآخرى ترجمة بعضها ، والسبب فى ذلك هو ترجمتها من العبرية ، وهكذا يكون القرآن الكريم لو سوغنا ترجمته ، ولكن الطريق مسدود ابتداء لأن الترجمة غير ممكنة ، فكان القرآن محفوظاً « انا نحن نزلنا الذكر ، وانسا له لحافظون » (١) •

٢٥٢ — وهنا يرد أمران منبعثان من السؤال الثالث الذى ذكرناه ، وهو كيف نوصل علم القرآن الى أهل الألسنة الأخرى ، ذلكم الأمران أولهما أن كثيرين من الاوربيين والامريكان وغيرهم ، والمعرضون فيهم أكثر من طالبى الحقائق — كتبوا معانى القرآن بغير العربية وسموها قرآناً وحرفوا فيها الكلم عن مواضعه ، والاجانب يعتبرونها قرآناً ، ومن الواجب أن تصحح هذه التراجم بترجمة صحيحة سليمة للقرآن ترد الحق الى نصابه •

والامر الثانى : أن عند بعض الاوربيين والامريكان نزعات تتجه بهم الى تعرف القرآن وما يشتمل عليه ، وان كثيرين من الشرقيين المسلمين لا يعرفون معانى القرآن وان كانوا غير فاهمين لما يتلون •

ومن الواجب أن نعرف المسلمين بمعانى القرآن معجزة الاسلام ، ومنهم من يحفظه كله ، وكلهم يحفظون بعضه ليصححوا صلاتهم ، وان هؤلاء من حقهم على المسلمين الذين يجيدون العربية ، ويفهمون لغتهم أن ينقلوا اليهم معانى القرآن ليفهموا معنى ما يتلون من كتاب الله تعالى •

ونقول بالنسبة لهؤلاء الأعاجم من المسلمين انهم يتلون القرآن الكريم ، ومن السهل أن يكتب لهم فى هامش المصاحف التى بأيديهم معانى الألفاظ القرآنية ، فيقرءون القرآن ، ويستطيعون أن يفهموه ، وقد فعل كثيرون منهم ذلك ، ومايكون بالهامش لايعد ترجمة ، بل يكون تفسيراً للمفسر •

وأما بالنسبة لغير المسلمين الذين يريدون أن يعرفوا مافى القرآن ، ونحن نقرر  
أن من الصد عن سبيل الله تعالى ألا تطلعهم على مافى القرآن من تكليف وعظات  
وإرشاد ، ولكن السبيل الى ذلك ليس ترجمة القرآن ذاته ، فان ذلك متعذر ، لأن  
القرآن له معان رائعة تختلف فى ادراكها على الوجه الأكمل للعقول ، وكل عقل  
يدرك منها بمقدار ثقافته ، وما يدلى به من حبال المعرفة وطاقة الفهم •

وانما السبيل هو الاتجاه الى أحد أمرين ، اما بيان المعانى الأصلية التى  
اشتمل عليها القرآن مبينة بأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يعرفون  
حقائق الاسلام ، ويستضيئون بنور القرآن •

والاتجاه الثانى : أن يفسر القرآن تفسيراً موجزاً مختصراً موضحاً لمعانى  
الآيات ، وأن يتولى كتابة هذا التفسير جماعة علمية معروفة بأنها من أهل الذكر،  
ويذكر التفسير منسوباً اليهم ، ومسمى بأسمائهم مضافاً اليها ، ويترجم ذلك  
التفسير على أنه ترجمة تفسير فلان ، وفلان ، وأن نحطاط عند النشر ذلك  
الاحتياط لكيلا يفهم أحد أن هذه الترجمة هى القرآن ، أو هى معانى القرآن ، بل  
يشار الى أنها ترجمة لمعانى القرآن على ما ذكره وفهمه أولئك المفسرون ، فان  
معانى القرآن على الحقيقة لا يعلمها كاملة الا منزل القرآن ، ومن نزل عليه  
الفرقان ، ومن بعد يدرك كل عالم بمقدار طاقته ، وان القارئ المتقهم للقرآن  
الطالب لمعانيه يجد أمامه نوراً ، كلما قوى بصره واستفادت بصيرته ، وكلما علا  
ادراكه علا فهمه للقرآن ، وعلم منه مالم يكن يعلم ، وفهم من بعض أسرار  
اعجازه ما لم يكن يفهم من قبل •

وأنة لكمال الاحتياط يجب أن يكون النشر بحيث لا يفهم أنه ترجمة لآى  
القرآن مباشرة ، بل يكون الطبع على الوجه الآتى :

( ا ) يطبع المصحف فى وسط الصفحة ، وترقم آياته بأرقام أفرنجية ،  
ويكتب حوله تفسير كل آية مرقما برقمها الذى رقت به الآية ، بحيث يكون  
القرآن مكتوباً بلغة القرآن ، والتفسير مكتوباً باللغة العربية •

( ب ) يكتب تفسير باللغة التى ترجم اليها التفسير مرقماً بالأرقام التى



رقت بها آيات المصحف ، بحيث يفهم القارئ غير العربي أن ما يقرؤه هو ترجمة تفسير للقرآن ، وبحيث يفهم تفسير كل آية من رقمها الذي رقت به في المصحف ، وفي التفسير •• وان هذا النظام الفكري ، والطابعي ، يحقق مقاصد ثلاثة :

أولها — وضع تفسير موجز باللغة العربية يمكن طبعه مع المصحف من غير ترجمته ، وذلك مقصد سليم مطلوب في ذاته ، يسهل على القارئ العربي فهم القرآن ، وهو يتلوه أو يستمع الى من يتلوه •• وبذلك تتحقق العظة ، ويتحقق الاعتبار ، ويكون الانتفاع كاملاً لمن يعرف العربية •

ثانيها — أن يقرأ القارئ الأعجمي القرآن الذي يحفظه من غير أن يفهم ، وبإيجاد التفسير بلغته يتمكن من فهم القرآن ، ويسهل عليه ذلك أن يعرف العربية ان اتجه الى معرفتها ، لأنه حفظ كثيراً من عباراتها القرآنية وفهم معناها •• وقد نفذت ذلك فعلاً بعض البلاد الإسلامية ، فالإيرانيون قد كتبوا تفسيراً للقرآن باللغة الفارسية طبع في هامش المصحف الشريف ، وكذلك فعل الأفغانيون ، والباكستانيون •

ولو كان التفسير العربي الذي تكتبه طائفة من أهل الذكر ، ترجم الى لغات أولئك لكان العمل أسلم وأتقن وأجدى •

المقصد الثالث — الذي يحققه ذلك العمل الجليل — هو تصحيح ما سموه تراجم للقرآن في اللغات الأوروبية ، وبيان وجه الخطأ فيها ، وابطال التحريفات لمعانيه الجليلة ، فان بعض الذين تولوا الترجمة لم يكن مقصدهم العلم بذات العلم ، بل كان مقصد الكثيرين منهم تشويه معاني القرآن الكريم ، وفوق ذلك فان الأوروبيين يجدون السبيل لرؤية القرآن ، فان أرادوا أن يمشوا فيه مخلصين أدركوه ، وآمنوا به واهتدوا •

وان قصدوا الى النور بعيون ضالة ، وقلوب مريضة ، ونفوس أركست في الهوى ، فلن يزدادوا الا عمى ، قال تعالى « فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » •

هذا هو العمل انذى نعتقد أنه العمل السليم الذى يحقق كل المقاصد من غير أن يتعرض القرآن لعبث العابثين ولهو الضالين •  
وانا نعتقد أن الله حافظ كتابه فى الانتهاء ، كما حفظه فى الابتداء ، انه عليم قدير •

## الغناء بالقرآن

٢٥٣ — تلونا من قبل قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » (١) •  
هذا النص الكريم يدل على أن تلاوة القرآن بتوجيه من الله ، لأنه سبحانه وتعالى يقول : « فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه » أى اذا تلونا عليك القرآن ، واستحفظته فاتبع القراءة التى علمك الله تعالى ، وهو مايدل عليه قوله تعالى : « فاتبع قرآنه » أى اتبع طريقة القرآن التى قرأناه ، ولا تباعد عنها ، فان القرآن يراد به القراءة أحياناً كما قال تعالى : « وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً » •

والقرآن فى أصله كتاب كريم مبين ، وعبر عنه سبحانه وتعالى بقرآن ايماء الى أنه كتاب نزل بنصه وبطريقة قراءته ، وبذلك لا يستحفظ باقياً فى الأجيال بمجرد الكتابة ، بل بالقراءة وحفظه فى الصدور متلواً بما علم الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالنبي عليه الصلاة والسلام فى تلاوته انما يتلو بتعليم من الله تعالى فى مده وغنه ، وتشديده وتسهيله ، فانه اذ نزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نزل متلواً •

وعلى ذلك تكون القراءة الكاملة للقرآن الكريم هى القراءة التى التزمها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر من ربه وتعليمه •• واذلك يقول العلماء أن القراءة سنة متبعة ، لا يصح لمؤمن أن يحيد عن طريقة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •• وقد علم النبي أصحابه هذه القراءة كما علمه ربه ، وعلم الصحابة

تلاميذهم من التابعين تلاوة النبي عليه الصلاة والسلام ، وتواترت قراءة النبي الكريم ، كما تواتر القرآن الكريم • فكان محفوظاً بطريق تلاوته ، كما كان محفوظاً بذاته ، بل أن الفصل بين طريقة التلاوة ، وذات القرآن الكريم فصل بين متلازمين •• وان السلف الصالح ، والخلف من بعدهم ما كانوا يعتمدون على المكتوب في استحفاظ القرآن الكريم ، انما يقرأ طالب القرآن على مقرأ يثرت ، ولا يعتمد على مكتوب كتب ، لأن المكتوب قد يجرى فيه التصحيف والتبديل • أما ما حفظ في الصدور فانه لا يعروه تغيير ولا تبديل ، ولا تحريف •

ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يرثل القرآن ترتيلاً ، فقال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلاً » (١) • ولقد نسب سبحانه وتعالى الترتيل الى ذاته المقدسة ، فقال تعالى : « ورتلناه ترتيلاً » •

ولقد وضع العلماء المقاييس والضوابط التي تميز الترتيل المطلوب في تلاوة القرآن الكريم ، ولم يتركوا الأمر فرطاً بل وضعوا ميزاناً يميز الترتيل المطلوب عن القراءات البعيدة عن الترتيل ، وهو علم التجويد ، وعلم القراءات ، ففي هذين العلمين يتميز المنهاج المطلوب في الترتيل عن غيره مما يبتدعه الناس •

٢٥٤ — ولقد كان التابعون تلاميذ الصحابة يتبعون في قراءة القرآن الترتيل الذي تعلموه من الصحابة كما أثرتنا ، وهو الترتيل الذي قرأ به الصحابة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الترتيل الذي علمه الله تعالى لنبيه ، فكان السند متصلاً اتصالاً وثيقاً ، وتواترت القراءة تواتر القرآن ، كما فوهنا •

ولكن حدث في العصر الأموي ، وهو عصر التابعين ، ومن امتد به الأجل من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أن دخل الغناء الفارسي ، وتشايح ذلك الغناء بألحانه •

ويظهر أن هذا الغناء تسامى بألحانه الى القرآن الكريم ، فالتوت بعض الألسنة عن الترتيل المتبع في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن كان حياً

من المعمرين من الصحابة استنكر ذلك • يروى في هذا عن زياد النميري أنه جاء مع بعض القراء الى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقتيل له اقراً ، فرفع صوته وطرب ، وكان رفيع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه ، وكان على وجهه خرقة سوداء ، فقال : يا هذا ما هكذا كانوا يقرءون ، وكان اذا رأى شيئاً ينكره كسف الخرقة عن وجهه •

وان هذا الخبر عن ذلك الصحابي الجليل يدل على أمرين :

أولها — أن التطريب بالقرآن برفع الصوت وخفضه مساييرة لنغم ، أو نحو ذلك ، ما كان في الترتيل الذي تلقاه الصحابة عن الرسول •

والثاني — أنه يدل على ذلك التطريب بقراءة القرآن قد حدث في العصر الأموي بعد أن دخل الغناء الفارسي ، فهو بدعة ابتدعت ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار •• وذلك فوق أن القرآن لا بد أن يرتل ترتيلاً ، وذلك ليس ترتيل القرآن ، والقراءة كما قلنا سنة متبعة •

وان التلاوة الحق كما حد العلماء حدودها ، وقرروا مقياسها في علم يدرس قد ذكر القرآن خواصها ، وهي في آثارها في نفس القارئ ، وفي نفس من يسمعها ، وفيما تدل عليه من منزلة القرآن ومكانته في هذا الوجود •

فالله تعالى يقول في مكانته : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً » (١) ، أي أن هذا القرآن له قوة في النفوس وفي الوجود ، بحيث أنه يمكن أن تسير به الجبال ، أو تكلم به الموتى ، أو تقطع به الأرض ، فله في النفس كمال الرهبة ، وله كمال التأثير ، وله في الآذان جمال التعبير •• فلو كانت الجبال تسير ، أو الأرض تقطع ، أو الموتى يسمعون القرآن ، فإنه يكون لقراءة القرآن •• فهل يتأتى هذا التأثير مع تلوي الألسنة والأصوات بتغماته ، يترنح بها القارئ ذات اليمين وذات الشمال ، والآهات تتعالى ، ويكون المكاء والتصديّة •

واقرآن وصفه الله تعالى بأنه ذو الذكر ، وأقسم به تعالى ، فقال سبحانه :  
« والقرآن ذى الذكر » أى القرآن الذى يصحبه ذكر الله تعالى ، وهو الذى  
تطمئن به قلوب المؤمنين ، كما قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » •  
وسمى القرآن ذكراً فقال جل وعلا : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » •  
فهل تلاوية الأصوات والنبرات بغير الترتيل المنزل من عند الله تعالى يكون الذكر لله  
تعالى ، والاتعاط بقرآنه أم هى النعمات بين التطرية والتعلية ، هى التى تهتر لها  
النفوس طرباً ، وتعلو بها الأصوات اعجاباً بالمعنى ، وعجباً •

والقرآن قد وصف الله تعالى المؤمنين عند تلاوته ، فقال تعالى : « اذا تتلى  
عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً » (١) •• فهل تكون التلاوة للمؤمنين الذين  
سمعوا القرآن تكون بهذه الأصوات التى تحدث الضجات المتوالية •

ويصف الله تعالى القرآن الكريم فيقول : « ان هذا القرآن يهدى للتي  
هى أقوم ، ويبشر المؤمنين » (٢) •

ويبين سبحانه قوة تأثير القرآن فى قلوب المتعظين ، وفى قلوب من ينتهمونه :  
« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتنه خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٣) ••  
فهل يرى أى مدرك للمعانى القرآنية أن ذلك يتفق مع التغمى والتريب الذى يصنعه  
قراء العصر •• ان القارئ يكون مشغولاً بالطرب عن معنى القرآن وهدايتة وعظاته  
فلا يتدبره ، ولا يدرك معناه ، ويكون على القلوب أقفال بما يحدثه التغمى  
والتطريب ، والاجتهاد فى اثاره النفوس لا لتتعظ ولكن لتضع ستاراً بينها وبين  
ما فى القرآن • والله تعالى يصف القرآن الكريم بقوله تعالى : « الله نزل أحسن  
الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين  
جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضل الله  
فما له من هاد » (٤) •

وان هذه الآيات التى تلونها قيسة من نور القرآن الكريم ، وهى تدل

(٢) الاسراء : ٩

(٤) الزمر : ٢٣

(م ٣٤ — المعجزة الكبرى)

(١) مريم : ٥٨

(٣) الحشر : ٢١

على أنه ليس شعراً يتغنى به ، ويتنزل على لحن الأعاجم قديمها وحديثها ، ولكنه كتاب هداية للعبادة ، والاعتبار ، وتوجيه النفوس • وكل تطريب بالألحان قديمة وجديدة هو الهاء عن ذكر الله تعالى ، وابعاد عن مراميه ومغازيه ، فتكون النفس مشغولة بالنعيم الملهى عن معنى القرآن ومرماه •

٢٥٥ — واننا لا نبعد بهذا الكلام عن حقيقة مقررة ثابتة ، وهي اتباع السلف في التلاوة ، وهي تنتهي في أصلها الى منزل القرآن الكريم الذي جعله حجة وبرهاناً ومعجزة ، وقال فيه : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (١) كما تلونا من قبل •

فكل مخالفة لإنهاج السلف الصالح في التلاوة ، مخالفاً لما أمر الله تعالى به في قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلاً » • ولكن وردت آثار عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يوهم ظاهرها جواز التغنى بالقرآن ، والتطريب به والترجيح فيه ، وكان لنا وقد تلونا ما تلونا أن نحكم بعدم صحة نسبتها الى الرسول ، ولكن ذلك يكون اذا كانت تدل قريباً أو بعيداً على جواز الغناء الذي نراه الآن من بعض القراء ، وعلى ما يريده الذين لم يعرفوا بأنهم أرادوا للإسلام وقارا ، بل يريدهونه بورا ، أو كما يبدو في كتاباتهم ، والله عليم بضمائرهم •

ولكننا اذا تفهمنا هذه الآثار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن صحابته ، وما ترمى اليه — ان صحت النسبة — وجدنا أننا لسنا في حاجة الى رد صحيح السند منها ، لأن منته لا يخالف الترتيل الذي جاء به رب القرآن ورب محمد ، ورب العالمين :

١ — لقد روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال فيما رواه عنه البراء بن عازب « زينوا القرآن بأصواتكم » •

٢ — وأخرج مسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » •

٣ — ولقد كان عليه السلام يسره أن يسمع القرآن من أبي موسى الأشعري ، حتى روى أنه قال في سرور بقراءته : « لقد أعطيت زمماراً من مزامير داوود » ، وأنه سمعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاستطاب ما يسمعه من صوته وأبو موسى لم يشعر ، فلما شعر قال : « لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبرت لك تجبيراً » .

٤ — وروى عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن ، وغنوا به ، واكتبوه ، فوالله انه لأشد تنصيماً من المخاض من العقل » .

٥ — قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، في مسيرته ، سورة الفتح على راحته فرجع .. والترجيع في القراءة ترديد الحروف .

هذه الأخبار واردة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى فى ظاهرها تدل على جواز التغنى بالقرآن والترجيع فيه والتطريب به ، وقد طار بهذه الآثار أولئك الذين يروجون قراءة القرآن بألحان الأعاجم ، وكان لنا أن نردها لمخالفتها المتواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فلننظر إليها فهل تؤدى فى مدلولها الى جواز اتخاذ القرآن سبيلاً للتطريب فى عصرنا ، لتحديث القراءة طرباً ولا تحدث عظة واعتباراً ، وخشية من الله ، واحساساً من المؤمن بأن الله تعالى يخاطبه بهذا القرآن .

ولننظر فيها خبراً خبيراً ، نتعرف ما يدل عليه فى ظاهره ، وفى حقيقته :

أما الخبر الأول : وهو ما نسب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أنه قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » فإنه لا يفسر بظاهره ، لأن القرآن زين بذاته ، ولكن المتأمل يرى أن القراءة المرتلة التى يلاحظ فيها المأثور من القراءات ، وملاحظة المعانى فيها ، فيرفع الصوت فيها نسبياً فى آيات التبشير ، ويقراً قراءة المتأمل فى الآيات الكريمة الداعية الى التفكير .. فان هذا بلا شك موافق للترتيل الذى أخذناه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومصور للمعانى القرآنية من

غير أن تكون القراءة صياحا نمطياً ، ومن غير أن تكون تلحيناً أعجمياً ، وليناء  
في الإلقاء لا يسوغ •

وانا نصب أن ترتيب القراءة لا يكون الا بالترتيل ، فالترتيب في كل شيء  
بما يناسبه ، وذلك واقع في المعنويات كما هو واقع في الحسيات ، والأشياء  
والأشخاص •• ولا شك أن القراءة تكون بما يناسب معانى القرآن ، وموضع  
العظة والاعتبار والتأمل فيه ، ولا يمكن أن يفسر الترتيب بالتلوى في الحروف  
والكلم ، فان ذلك شين ، وليس بزين •

ولنرجع الى تفسير البراء الذى روى هذا اخبر ، فقد قال في تفسيره له :  
زينوا القرآن بأصواتكم ، أى الهجوا به ، واشغلوا به أصواتكم ، واتخذوه شعاراً  
وزينة ، وقيل ان معناه الحض على قراءة القرآن •

وان هذين التفسيرين ، وان كانا غير ما فسرنا به الخبر ، يتلاقيان مع تفسيرنا  
ولا ينافرانه ، وهما يتفقان مع غيره من الأحاديث في هذا الباب •

٢٥٦ — ولننظر فيما أخرجه مسلم من قول للنبي عليه السلام ، اذ قال :  
« ليس منا من لم يتغن بالقرآن » • فقد فسره بعض العلماء بأن التغنى هنا تحسين  
الصوت بقراءة القرآن ، بأن يعود لسانه النطق السليم من قراءة القرآن باخراج  
الحروف من مخارجها ، واتباع الترتيل المحكم على النبي عليه الصلاة والسلام  
في المد والغن والإدغام ، والفصل والوقف ، والوقوف في موضع الوقف ، ووصل  
القراءة في مواضع الوصل ملاحظاً المعانى ، ومدركاً ما يقرأ •• وهذا يتلاقى مع  
ما روى عن ابن عمر أنه قال : حسنوا أصواتكم بالقرآن ، وما روى عن النبي  
صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « زينوا أصواتكم بالقرآن » •

ولا شك أن الوهم الذى دخل على الذين يقرءون القرآن بالأحان الأعجم ،  
وانذى استتكره أنس بن مالك رسول الله صلى الله عليه وسلم •• هذا الحديث هو  
العماد الذى يقوم عليه عمل هؤلاء ، وتحن لا ترى فيه ما يؤيد كلامهم •



ان التغنى مصدر غنى يعنى تغنية ، وهو فيما أعتقد غير الغناء ، لأن الغناء المقصد الى اسماع غيره ليظرب ، ويتطرب لا ليتعظ ويعتبر . أما التغنى فهو استمتاع المتكلم مما يتكلم به مترنماً بالنطق ، مستحباً له مستملاً ، مستطياً للكلمات ذواتاً لها ولمعانيها ، ولننزل من مرتبة القرآن السامية الى منحدر الشعر ، فإن انشاد الشعر من الشاعر استمتاع بالألفاظ ، ورنه الموسيقى فى الشعر ، يهتز بها مترنماً ، يفعل ذلك ولو لم يسمعه أحد ، ولو لم يقصد الى سماع أحد . وكذلك المؤمن القارىء للقرآن يثدق ألفاظه ، ويدرك الصور البيانية التى تصدر عن أساليبه ، ويخضع لما يشتمل عليه من عظات وعبر ، ويحس بأن الله تعالى يخاطبه ، وتعتره روحانية من الألفاظ ونغمها وجلال معانيها .

هذا هو التغنى الذى نفهم أنه خاصة من خواص المؤمنين ، ويفعله الصديقون ، وليس منه ما نسمعه الآن من القراء الذين يطربون ، ويرجعون الحروف ، ويلوون بها الألسنة ، فان هذا غناء وليس مجرد تغنى ، وان هذا النظر يتلاقى مع بعض الروايات . . فقد روى أبو سعيد الحذرى فى قوله عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال : كانت العرب تولع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها ، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجيراهم مكان الغناء ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أى يشبع نفسه بحسن ترتيله وتلاوته ليكون هو الذى يستمتع به من كلامهم .

وقد روى سفيان بن عيينه عن سعد بن أبى وقاص ان تغنى هنا بمعنى استغنى ، وان بعض المعاجم يفسر التغنى بمعنى الاستغناء ، فقد جاء فى الصحاح تغنى الرجل بمعنى استغنى ، فمعنى النص الشريف : ليس منا من لم يستغن بالقرآن عن أساطير الأولين ، وأقاصيص القصاصين .

وقد أنكر الشافعى تفسير التغنى فى الحديث بالاستغناء ، وتابعه فى ذلك ابن جرير الطبرى ، وقال الطبرى : ان التغنى هو حسن الصوت بالترجيع ، وهذا التفسير يتلاقى مع قولنا الذى أسلفناه ، وهو التمتع بحلاوة الألفاظ القرآنية ،

ورنين أساليها بترجيع بعض الجمل والكلمات من غير قصد الى التطريب ، وإيقاظ المشاعر بغير نغم القرآن ، بل بنغم الألحان الذى يمنع ذكر الله تعالى ، والخشوع الذى وصف الله القرآن به ، اذ قال سبحانه : « مثنى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » (١) •

ومهما تكن الأقوال فى معنى التغنى • فمن المتفق عليه بين الموسعين والمنتمسكين ، كابن المسيب ومالك وابن حنبل ، وغيرهم ، أن القراءة بالألحان والتطريب والغناء لا تجوز ، لأنه يخل بمقام القرآن ويوجه الناس الى الطرب بالألحان بدل الاستفادة بمواعظ القرآن ، وهدايته ، وتعرف أحكامه ، وما فيه من أدلة التوحيد ، وأحوال الأقوام مع الرسل السابقين •

وانه يجب فهم التغنى على ضوء قوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلى ضوء ما عرفناه من قراءة النبي عليه الصلاة والسلام وترتيبه الذى علمه الله تعالى إياه ، وما أثر عن السلف الصالح •

وقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « أحسن الناس صوتاً من اذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى » • فهل هذا يتفق مع التلوى بالألفاظ ، وعدم مراعاة المعانى ، وانما تراعى الألحان ، والناس فى طرب بسماعها ينصتون إليها ويطربون ، ولا تنالهم الخشية من خطاب الديان لهم بالقرآن الكريم •• كلام الله تعالى بيانه •

٢٥٧ — ولننتقل بعد ذلك الى حديث أبى موسى الأشعري ، وثناء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى بعبارات مختلفة منها هذه العبارة التى قالها بعد أن عبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بإستحسانه لقراءته • فقد قال رضى الله تعالى عنه للنبي عليه الصلاة والسلام : « لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبرته لك تحبيراً » • والتحبير هو التزيين ، وهو كما قلنا فى كل شىء بما يناسبه ، فالذى يناسب القرآن الكريم الترتيل المصور للمعانى القرآنية المربى للخشوع ، والعظة والاعتبار ، والذى يجعل المعانى القرآنية تنساب فى انفس •

وقد رويت عبارة أبي موسى الأشعري بنص آخر يوضح الرواية الأولى ، ولا يخالفه ، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « انى لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحسنت صوتى بالقرآن ، وزينته ورتلته » .

فهذه الرواية تدل على أن التحبير والتحسين كان فى الصوت ، لا فى القرآن الكريم ، وأن ذلك التحسين كان فى دائرة الترتيل . ولا شك أن تحسين الصوت ، اذا اقترن بالترتيل ، ولم يتخالفا ، ولم ينحرف القارىء الى ألحان الأعاجم ، والى الغناء وتطريب السامعين ، ليتمايلوا يمينا وشمالا ، ويقرنون ذلك بأهات مهوشة تشبه الكاء والتصدية ، كما كان أهل الجاهلية .

ولننقل من بعد ذلك الى ما روى عن عقبه بن عامر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن وغنوا به ، واكتبوه » .

وقد قالوا انه صحيح السند ، وان التغنى المذكور فى الحديث السابق ، هو مصدر غنى ، وقد فسرنا التغنية فى الحديث بأنها ليست الغناء الذى يقص القارىء أن يعتبر القرآن أغنية يطرب بها السامعين ، انما التغنى عمل نفسى للقارىء اتالى للقرآن ، بأن يشبع الكلمات ويستمتع بها ، وبنغمها ، ويراجع ويراجع فى كلماته متذوقا لها ، مدركا لكل معانيها ، متفهما ، محبا للقرآن ، غير متململ ولا متكلف . . وقد شرحنا ذلك من قبل .

وكتابة القرآن الكريم أمر مطلوب ، وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يملئ على الكتاب ما حفظ من ربه ، وما أن انتقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى الا كان القرآن الكريم كله مكتوبا مسطورا ، ومحفوظا ومرتلا متلوا تلاوة نبوية .

وان الأمر بالكتابة لا يدل على الاستغناء بها ، فانه ان حفظ الحروف والكلمات لا يروى الترتيل الذى نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . ولذلك كان لابد من الإقراء على مقرأء ليحفظ المتواتر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، الذى علمه ربه الترتيل ، كما تواتر القرآن المحفوظ ، وكما قال تعالى :

« انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » (١) •

٢٥٨ — من هذا كله يتبين أن القراءة الصحيحة تكون بترتيل القرآن الكريم ، لما علمه الله تعالى لنبيه في قوله تعالت كلماته : « فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » (٢) •

وان الإعتبار في القراءة التي يكون فيها التزيين ، يثبت بأن يمتلىء قلب القارئ بالخشوع ، ويلقى به في نفوس السامعين ، فهذا هو القياس المستقيم ، ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما روينا من قبل : « أحسن الناس صوتا من اذا قرأ ريته يخشى الله تعالى » •

وان قراءة القرآن لا تجوز الا باخراج الحروف من مخرجها ، والمد في موضعه ، والغن في موضعه ، والوصل حيث يقتضيه المعنى ، والوقف حيث توجهه المعنى •• فذلك هو الترتيل •

ولقد روى حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اقرءوا القرآن بلحون العرب ، وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق ، ولحون أهل الكتاب ، وسيجيء بعدى قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح ، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم ، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » رواه الترمذى في نوادر الأصول من حديث حذيفة •

ولقد سمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مؤذنا يطرب ، ويردد في الحروف ، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الأذان سهل سمح ، فاذا كان أذائك سمحا سهلا ، والا فلا تؤذن » •• رواه الدارقطنى في سننه •

واذا كان انبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد منع الغناء في الأذان ، فأولى ثم أولى أن يمنعه في القرآن ، فهو كتاب الله تعالى وخطابه ، وهو الذى رتله ، كما صرح بذلك ، اذ قال فيما تلونا من قبل : « ورتلناه ترتيلا » (٣) •

ويظهر أن مصر من قديم الزمان حملت بدعة القرآن بالأحان الأعاجم ، فقد قال القرطبى في كتابه ( أحكام القرآن ) : بعد أن بين أن التردد ،

على مقتضى المعنى ، وما يومئ إليه النص القرآنى ، قال : « فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ حَتَّىٰ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ فذَٰلِكَ حَرَامٌ ، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يترددون أمام الملوك والجنجائز ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ، ضل سعيهم ، وفساد عملهم ، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ، ويهونون على أنفسهم الاجترار على الله بأن يزيدوا في التنزيل ما ليس فيه جهلا بدينهم ، ومروقا عن سنة نبيهم ، ورسولهم لسير الصالحين فيه من سلفهم ، ونزوعا الى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فهم في غيهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، وانا لله وانا اليه راجعون ، لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون » ♦

وان العدوى قد انتقلت من مصر الى البلاد العربية ، وما زالت العدوى تسرى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ♦

اللهم اغفر لنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل ويئعمل السفهاء منا ، وألهمنا المحافظة على قرآنك الكريم من عبث العابثين ، ولهو اللاهين ، وافتراء المفتريين ♦ ♦ وانك أنت وحدك الحافظ لكتابك ، وانه محفوظ ان شاء الله تعالى ♦

« تم بحمد الله وعونه »

## بيان ما اشتمل عليه الكتاب

٣ - الافتتاحية

٧ - تمهيد

١١ - معجزة القرآن وعيسى

### ١٣ - الباب الاول

- ١٥ - نزول القرآن ١٦ - حكمة نزوله منجها ١٨ - المكي والمدني ،  
٢٠ - كتابة القرآن وجمعه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم  
٢٣ - جمع القرآن بعد الرسول ٢٤ - طريقة الاستيثاق من النص  
٢٦ - عمل زيد ومن معه لم يكن كتابة مبتدأة ، بل هو المكتوب في عهد الرسول  
٢٨ - جمع القرآن في عهد عثمان ، وحديث نزول القرآن على سبعة أحرف  
٣٦ - تحريف غير المصحف الامام وغير مانسوخ منه  
٣٧ - ترتيب الآيات والسور .

### ٣٩ - قراءات القرآن

- ٣٩ - قراءات القرآن ليست الأحرف السبعة ، بل هي على حرف واحد وجوه  
الاختلاف في القراءات  
٤١ - كانت القراءات قد تلقاها الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم  
٤٣ - القراء ٤٤ - شروط القراءة المؤثرة ٤٦ - وجوه القراءات

### الباب الثاني

### ٥٠ - اعجاز القرآن

- ٥٠ - احوال العرب في تلقي رسالات النبيين ، البداوة والحضارة عند العرب ،  
والفصاحة عندهم  
٥٢ - مآثر العرب في البيان - اعجاز القرآن ببيانه  
٥٤ - تلقى العرب للقرآن  
٥٥ - دهشتهم عند تلقي القرآن ، كلام فصائحهم في القرآن مع جحودهم  
٥٦ - كلام الوليد بن المغيرة ٥٧ - فرارهم من سماعه  
٥٨ - لم يحاول أحد من أهل البيان محاكاته ، رجذنه لهم  
٥٩ - تقاهة مانقل في محاكاته

### ٦٠ - سرالاعجاز

- ٦٣ - الصرفة ويطلانها ٦٤ - مصدر القول بالصرفة هندی  
٦٥ - بعض الكلاميين أثار القول بالصرفة  
٦٦ ابراهيم النظام قالها ، رد الجاحظ عليه - خطأ ابن حزم في ذلك وسببه

٦٨ — موازنة الباقلائي ، وبين القرآن وأبلغ كلام — القول بالصرفة كالتقول بأنه سحر يؤثر

٧٠ — الرد على أهل الصرفة هو الباعث على التأليف، في اعجاز القرآن بالبيان بعض من كتبوا وكتبهم ، ومقام كل كتاب .

### ٧٣ — وجوه الإعجاز

٧٣ — مايعده صاحب الشفاء من وجوه اعجاز القرآن

٧٤ — مانكره القرطبي من وجوه الاعجاز

٧٦ — ملاحظتنا على ما ذكره القرطبي

٧٨ — الوجوه وجهان : البيان ، وما اشتمل عليه من معلومات

٧٩ — الذوق العربي ونقد البيان ، وذوقه ٨١ — وجوه الاعجاز البلاغي

٨٣ — الفاظ القرآن وحروفه عبد القاهر يقرر البلاغة في الاسلوب لافي الكلمات والحروف ، بيان رأيه ٨٤ — ادلته

٨٥ — الباقلائي يرى أن للكلمات فصاحة وهو رأى المتأخرين

٨٧ — الجمع بين النظريتين ٨٩ — نظرات في الفاظ القرآن

٩٣ — توجيه النظر الى الالفاظ في قوله تعالى . « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه . . . . »

٩٧ — توجيهه النظر الى في قوله تعالى . « والصبح اذا تنفس »

٩٩ — التنبيه الى الفاظ الآية « واتل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا »

١٠٣ — التنبيه الى الالفاظ وصورها في قوله . « ان شجرة الزقوم طعام الاثيم »

### ١٠٦ — الكلمة مع أخواتها والعبارات مع رفيقاتها

١٠٨ — الأسلوب القرآني ١١٠ — التألف في الالفاظ والمعاني

١١٢ — أمثلة من التأخى في الالفاظ والمعاني في آيات القرآن — التنبيه الى

تأخى المعاني والعبارات في قوله تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا والاشارات البيانية فيها

١١٧ — صورة بيانية للطمع والشح ثم الندم في قوله : انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة «

١٢٥ — النفس الفرعونية في القرآن الكريم في قوله تعالى : « ان فرعون علا في الأرض »

١٣١ — أسرار المعاني القرآنية في قصة فرعون ، وعناصرها .

١٣٣ — قوة في الاسلوب من كلمات منألفة — كلام الخطابي في ذلك ، ورايتا فيه

١٣٦ — التلاؤم في الاسلوب .

### ١٣٨ — تصريف البيان

١٣٨ — النصوص الدالة على تصريف البيان

١٤٠ — التصرف في الالفاظ والمعانى ، التصرف في السور بين القصار والمتوسطة والطوال وحكمة ذلك .

### ١٤٢ — التكرار في القرآن

١٤٣ — تكرار القرآن من تصريف البيان — رأى الجاحظ في ذلك الآيات المثبتة للوحدانية فيها اطناب .

### ١٤٥ — قصص القرآن من الناحية البيانية

١٤٥ — قصص القرآن حكاية لأُمور واقعة ١٤٦ — قصة ابراهيم ، وما فيها من معان ١٤٨ — تدرج النفس الانسانية في الاتجاه لطلب الحقيقة ١٥٠ — رفع القول مع ابيه ١٥١ — قصة موسى — ميلاده ، وما فيه من خوارق ، ونشأته ١٥٣ — بصيرته ونفوره من حكم فرعون ١٥٤ — لقاءه بشعيب في مدين — حياته في الأسرة ١٥٥ — تاهبه للقاء فرعون ولقاؤه ١٥٧ — دعوته في أوساط الشعب ١٥٩ — خروج بنى اسرائيل وموسى من مصر ، وغرق فرعون . ١٦٠ — فرعون كان يذكر جنوده ككل الطفافة ١٦٢ — موسى مع بنى اسرائيل ١٦٣ — خص الله بنى اسرائيل بنعم فكروها ١٦٦ — بنو اسرائيل وعجزهم عن دخول الأرض المقدسة ١٦٨ — كيف تتربى الأمم .

### ١٦٩ — قصص القرآن لون من تصريف بيانه

١٦٩ — العبرة في قصص القرآن ١٧٠ — التصرف البيانى في القصص القرآنى ١٧١ — الدعوة الى التوحيد ، والعزاء الروحى ١٧٢ — ابطال الوهية المسيح ١٧٣ — كلام المسيح في الوجدانية ١٧٤ — الحث على المعاملة الطيبة في القصص القرآنى — قصة شعيب ١٧٦ — ميزان العدالة في الحكم في القصص القرآنى ١٧٧ — بيان بعض الأحكام في القصص القرآنى — الحسد — أصل الجرائم في بيان قصة قابيل وهابيل ١٧٩ — شريعة القصاص العادل أزلية ١٨١ — أسلوب القصص في القرآن — الأسلوب البيانى في قصة موسى من مولده الى يعثه — الأسلوب البيانى في قصة نوح ١٨٩ — القصص الحق المصور في قصة أهل الكهف — المشهد الأول فتية آمنوا .

### ١٩٢ — التصرف في صور العبارات البيانية

١٩٢ — الاستفهام والنفى ١٩٤ — الاستفهام الإنكارى — أمثلة كثيرة في الاستفهام ١٩٥ — الاستفهام للتسوية ١٩٧ — الاستفهام للتنبية كثير في القرآن ٢٠٠ — صورة استفهام لم يكن معروفنا عند العرب ٢٠٤ — نفى النفى اثبات .

### ٢١٢ — الحقيقة والتشبيه والاستعارة في القرآن

٢١٢ — معنى الحقيقة في البيان ٢١٣ — استعمال الحقيقة في القرآن كثير ٢١٤ — كلام الباقلانى في ذلك ٢١٥ — آيات الأحكام لا مجاز فيها ، وفيها اعجازا



البيان ٢١٩ — التشبيه في القرآن ٢٢٠ — تقسيم التشبيه للفرض منه  
٢٢١ — تشبيه ما لم يقع بالمحسوس ٢٢٤ — تشبيه ما لم تجربه العادة بما تجرى  
به العادة ٢٢٦ — تشبيه غير المعلوم بالمعلوم ٢٢٨ — تشبيه ما هو أضعف في  
الصفة بما هو أقوى ٢٢٩ — صوير المعانى بمحسوسات ٢٣١ — تشبيهات  
القرآن من الاعجاز ٢٣٣ — صور من الاستعارات في القرآن ٢٣٤ — الاستعارة  
التمثيلية ٢٣٦ — الاستعارة في قوله تعالى . واشتعل الرأس شيبا ، وغيرها من  
الآيات الكريمة المشتملة على الاستعارة التمثيلية ٢٣٩ — اللغة العربية لا تتسع  
للمعنى النفسية التى يشتمل عليها القرآن ، فيستعان بالاستعارة ٢٤٠ — أمثلة  
كثيرة من آيات القرآن فى ذلك ٢٤٢ — المجاز والكناية — الفرق بين الاستعارة  
والمجاز المطلق والكناية الأمثال ٢٤٤ — الأمثال القرآنية من قبيل الاستعارة  
التمثيلية .

٢٤٥ — تعريف الكناية ٢٤٦ — المجازات والاستعارات والكناية ليست  
وحدها سر الاعجاز ٢٤٨ — الكنايات فى القرآن ٢٤٩ — أمثلة من كنايات  
القرآن ٢٥١ — تقسيم علماء الأصول دلالات القرآن الى دلالة العبارة ، ودلالة  
الإشارة ، دلالات الإشارة من قبيل الكنايات ، أمثلة كثيرة من القرآن عليها  
٢٥٤ — الإشارات فى قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » .

### ٢٥٥ — نظم القرآن وفواصله

٢٥٦ — نظم القرآن ليس من أى نوع من النظم الذى يعرف عند أهل البيان  
٢٥٧ — ما يشتمل عليه بديع نظمه ٢٥٨ — كلام الباقلانى فى ذلك .

٢٦٠ — أمثلة من كتاب الله لا يشبه فيها السجع ولا القافية ، ولكن له فواصله  
ليست منها ٢٦٣ — التلاؤم فى نغمات الحروف — صور بيانية فى كتاب الله معا  
٢٦٥ — الفواصل ، تعريفها ٢٦٧ — مقاطع تتحد فيها الحروف ، ومقاطع لا تتحد  
٢٦٨ — الخلو من المقاطع مع تلاؤم النغم ٢٧٠ — هل فى القرآن سجع ، الخلاف  
بين العلماء فى وجود سجع فى القرآن رأى الباقلانى وأبى هلال العسكري أنه  
لا سجع ، ابن سنان يقرر أن فى القرآن سجعا ٢٧٢ — حجج الذين يثبتون أن  
فى القرآن سجعا ٢٧٤ — حجج الذين نفوا السجع عن القرآن ٢٧٥ — الفواصل  
فى رأى المرحوم الكاتب المؤمن مصطفى الرافعى ٢٧٧ — التعليق عليه .

### ٢٧٩ — الإيجاز والاطناب فى القرآن

٢٧٩ — تعريف الإيجاز والاطناب ، ومقامهما ٢٨٠ — أمثلة للاطناب من  
القرآن ٢٨١ — الاطناب بكثرة الألفاظ وكثرة المعانى والإيجاز بكثرة المعانى وقلة  
الألفاظ ٢٨٣ — مواضع الإيجاز ومواضع الاطناب وأمثلة على ذلك من الآيات  
القرآنية ٢٨٤ — الاطناب فى آيات الأحكام ٢٨٧ — التكرار لغير مقصد ليس  
من الاطناب — ما يظهرانه تكرر وليس تكرارا ٢٨٩ — أقسام الإيجاز — إيجاز

القصر — ايجاز الحذف ، أمثلة لاجاز القصر ، وجوامع الكلم ٢٩٤ — ايجاز في قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » ومثلها كثير .

### ٢٩٩ — طوال السور وقصارها

٢٩٩ — تكوين الآيات والسور ثابت بالوحي ، الحكمة في كون بعض السور قصارا ، وبعضها طويلا ٣٠٠ — أوصاف قصار السور ٣٠١ — قصار السور تشمل جزءا من ثلاثين ٣٠٢ — القصار وتيسير الحفظ ٣٠٤ — آيات تطول ، وآيات تقصر أمثلة من القرآن الكريم ٣٠٥ — ليس المراد من الآيات أن تكون الألفاظ أكثر من المعاني ٣٠٦ — قرب الفواصل في الآيات القصار ٣٠٧ — الصور البيانية في الآيات القصار .

### ٣٠٩ — الأعجاز بنكر الغيب

٣١٠ — أخبار النبيين السابقين في القرآن ، وما يدل عليه من اعجاز ٣١١ — الأخبار عن أمور وقعت في المستقبل .

### ٣١٢ — جدل القرآن وأستدلله

٣١٢ — موازنة بين أبلغ خطب العرب والقرآن ٣١٥ — منهج القرآن في الاستدلال ٣١٦ — الاستدلال بالتعريف ٣١٧ — استدلال بالتقسيم وأمثله ٣١٩ — التعميم ثم التخصيص ، وأمثله في القرآن ٣٢٠ — الاستدلال بالعلة والمعلول وأمثله في القرآن ٣٢٢ — الاستدلال بطريق المقابلة أمثلة من القرآن ٣٢٥ — الاستدلال بالتشبيه والأمثال ٣٢٩ — الاستدلال على البعث بآية صاحب القرية ٣٣٠ — أسلوب جدل القرآن ، قرب جدل القرآن وسهولته ، جدل القرآن الأدلة والمناهج ما يقنع الناس جميعا ٣٣٧ — مسلك القرآن في سوق الأدلة ٣٣٨ — الأقيسة الاضمارية ٣٣٩ — الاستدلال في قصة ٣٤١ — قياس الخلف ، أمثلة في القرآن الكريم ٣٤٢ — الاستدلال بالسير والتقسيم ٣٤٤ — الاستدلال بالتمثيل ، وأمثلة في القرآن ٣٤٥ — جدل القرآن لا يتجه الى الانحام الجرد بل الى الاقتناع والتوجيه ٣٤٧ — توجيه نظر المجادل الى الحقائق ٣٥٠ — موازنة الغزالي بين جدل القرآن وطريقة المتكلمين

### ٣٥٢ — علم الكتاب

٣٥٣ — القرآن فيه علم النبوة ٣٥٤ — العلم بمشئء الكون ٣٥٦ — الآيات الكونية اثبات الوجودانية ٣٥٨ — علم الرسالة الالهية والمعجزات ٣٦٠ — معجزات الرسل ، من نوح الى ابراهيم ٣٦٤ — معجزات موسى ٣٦٧ — خوارق العادات على يد سليمان وحكمة ذلك ٣٦٨ — معجزات عيسى ، وحكمة وجودها على يد عيسى ٣٧١ — خوارق العادات في قصة اهل الكهف ٣٧٣ — البعث واليوم الآخر ، والرد على منكريه ٣٧٧ — يوم القيامة ٣٧٨ — الميزان والحساب ٣٨٠ — الجنة النار ٣٨١ — أوصاف النار ، أوصاف

- الجنة ٣٨٣ — البعث والجنة والنار أمور حسية ٣٨٥ — علم الحلال والحرام  
 ٣٨٦ — العدالة في القرآن ٣٨٩ — العدالة الدولية ٣٩١ — الأحكام الفقهية  
 في القرآن — العبادات ٣٩٣ — الكفارات ومرماها ٣٩٥ — الأسرة في القرآن  
 ٣٩٨ — تعدد الزوجيات في القرآن وبواعثه ٤٠٠ — أحكام الأولاد واليتامى  
 ٤٠٤ — انتهاء الحياة الزوجية غير الصالحة ٤٠٧ — أو الخلع ٤٠٧ — الطلاق ثلاث  
 مرات ٤٠٨ — العدة ٤٠٩ — حقوق المرأة وواجباتها ٤١٠ — الأسرة في الإسلام  
 ممتدة ٤١٣ — الميراث في القرآن ٤١٦ — توزيع القرآن في الميراث  
 ٤٢٠ — الزواج الاجتماعي في القرآن ، القصاص ٤٢١ — القصاص شريعة  
 النبيين أجمعين ٤٢٣ — الحدود لبناء مجتمع فاضل لا فساد فيه — الحراية  
 ٤٢٥ — السرقة ٤٢٦ — التساوى بين العقوبة والجريمة في الحدود ليست في  
 الفعل والعقاب ، بل بين اثر الفعل والعقاب — عقوبة الزانى ٤٢٩ — عقوبة  
 العبد على النصب من عقوبة الحر ، لأن العقوبة تسير مطردة من حيث الصغر  
 والكبر ، فعقوبة أصغر من عقوبة ٤٣٠ — حد القذف برمي الحصنين والمحصات  
 بالزنى ٤٣٢ — اللعان ومغزاه ٤٣٤ — حد الخمر ومرماه ٤٣٦ — حكمة  
 التحريم ٤٣٨ — البضى — البغاة والخوارج ٤٤٠ — المعاملات المالية — أساسها  
 العدالة ٤٤٢ — كتابة الديون ٤٤٣ — الربا في القرآن ٤٤٤ — ابتداء القول  
 فيه ٤٤٦ — الرد على المبتدعين — ربا القرآن يشمل القروض الاستهلاكية والقروض  
 الاستغلالية ٤٤٩ — تحريم الربا نظام اقتصادى ٤٥٢ — العلاقات الدولية في  
 الإسلام — الأصل السلم ٤٥٤ — شرعية الجهاد ٤٥٦ — لا يصح حرب من  
 يريد السلام ٤٥٧ — القتال لرد الاعتداء وحماية الدعوة ٤٦٢ — العلاقات  
 في السلم والحرب ، العدالة هي الأساس ٤٦٣ — الوفاء بالعهود .

### ٤٦٦ — علم الكون والانسان

- ٤٦٦ — توجيه النظر الى الكون في القرآن ٤٦٩ — علم الكون في القرآن  
 ٤٧٠ — الانسان في القرآن ٤٧٢ — الآراء في التكوين الانسانى في القرآن  
 ٤٧٣ — النفس — الانسانية في القرآن ٤٧٥ — الحسد ٤٧٦ — النفس الطمئنة في  
 القرآن ٤٧٧ — قصة يوسف ، دراسة نفسية في الأسرة ، الحنان الأبوى ،  
 والحسد بين أبناء العائلات ٤٨٦ — المجتمع المصرى في عصر يوسف .

### ٤٩٢ — تفسير الكتاب

- ٤٩٢ — من العلماء من يرى أن القرآن كتاب مبین لا يحتاج الى تفسير ، بيان  
 وجهة نظرهم ٤٩٣ — لابد من التفسير ٤٩٥ — موضع التفسير ٤٩٦ — لابد  
 من تفسير يترجم الى اللغات ٤٩٨ — مناهج التفسير — مصادر التفسير  
 ٤٩٨ — التفسير بالسنة وأقسامها ٥٠٠ — التفسير بالمأثور عن الصحابة  
 ٥٠٣ — أقسامه ٥٠٤ — ما اثر عن التابعين ، القصاص ٥٠٥ — التابعون

والاسرائيليات في التفسير ٥٠٦ — تفسير القرآن بالرأى ٥٠٧ — الاختلاف في ذلك ، حجج الذين منعوا التفسير بالرأى في القرآن ٥١٠ — حجج الذين أخذوا التفسير بالرأى ٥١٢ — الظاهر والباطن في القرآن ، والكلام في ذلك ٥١٤ — باطن القرآن لا يخفى على أحد ٥١٦ — الباطن عند الغزالي .

### ٥١٨ — ترجمة القرآن

٥١٨ — القرآن هو اللفظ والمعنى ٥١٩ — ما ينسب الى أبي حنيفة من اعتبار الترجمة قرآن ، وبطلان نسبته ٥٢١ — ترجمة القرآن غير ممكنة ٥٢٣ — تفسير يترجم

### ٥٢٦ — الغناء بالقرآن

٥٢٦ — القرآن نزل مرتلا بترتيل الله تعالى — ابتداء القراءة بألحان الأعاجم في العصر ، رد الصحابة والتابعين لذلك ٥٣٠ — الأخبار الواردة في تزيين القرآن بالأصوات ، وتزيين الأصوات ، العبارات النبوية ٥٣١ — معانيها ٥٣٣ — الفرق بين الغناء والتغنى ٥٣٥ — التغنى الجائز ٥٣٦ — محرم وما قال القرطبي في قرآنها ٥٣٨ — المفهرس .